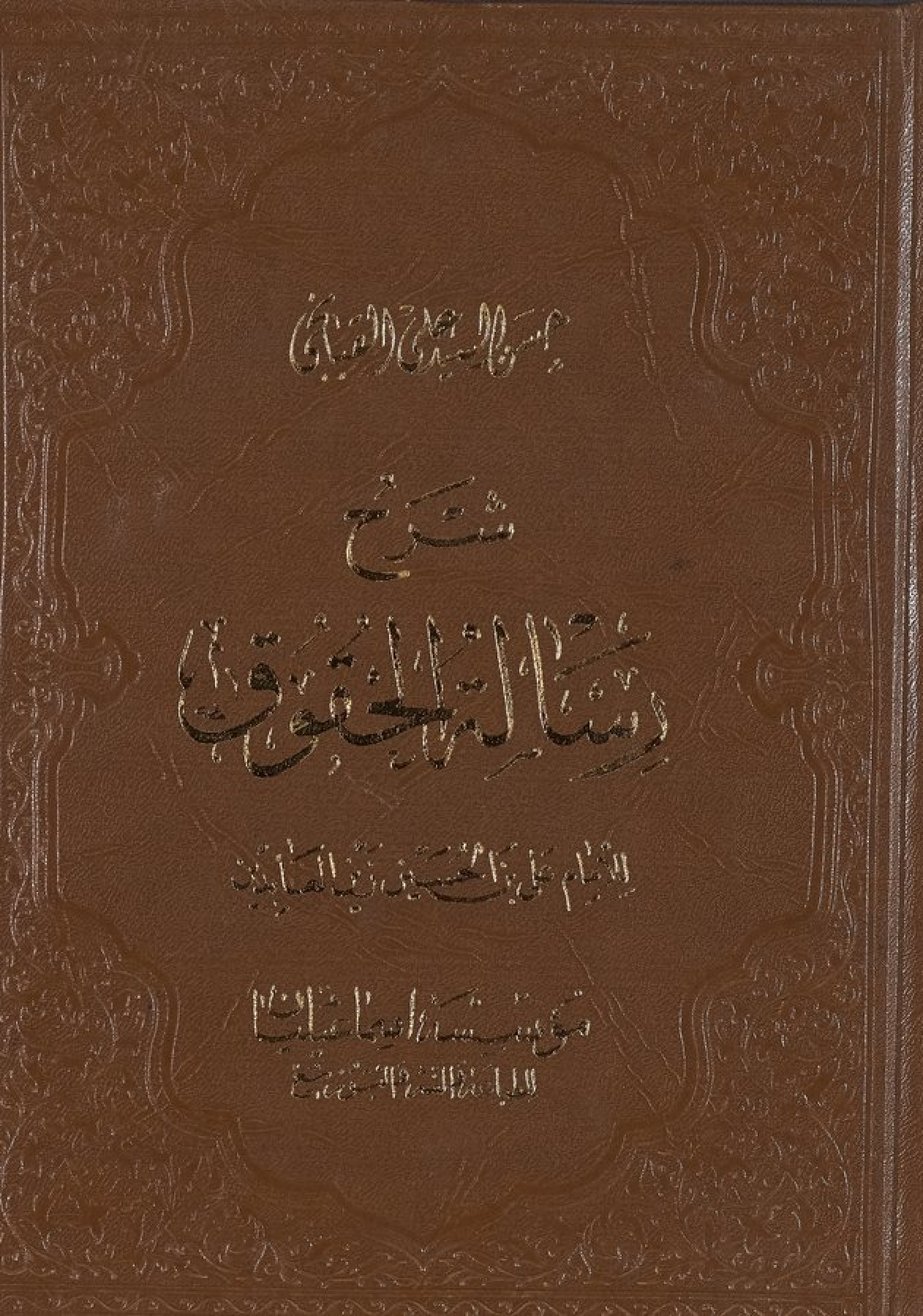
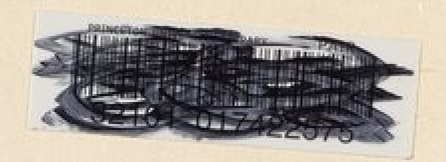

حسن السيد علي القبانچي
شرح
رسالة الحقوق
للإمام علي بن الحسين زين العابدين
مؤسسة اسماعيليان
للطباعة والنشر والتوزيع



شرح رسالة الحقوق



حسن السيد علي القبانجي

* الكتـــاب : شرح رسالة الحقوق للامام السجاد (ع)

* الشـــارح : حسن السيد على القبانچى

* الناشـــر : مؤسســة اسماعيليان للطباعة والنشر

* عدد النسخ : ١٠٠٠ فى مجلدين

* تاريخ الطبع : الطبعة الثانية ـ ١٤٠٦ هجرى قمرى

* المطبعـــة : اسماعيليان ـ قم المقدّسة ـ تلفون ٢٥٢١٢

Qubanchi

حسن السيد علي القبانچي

شرح رسالة الحقوق

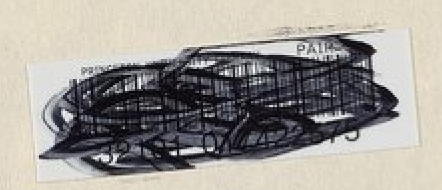
للإمام علي بن الحسين زين العابدين

عليه السلام

الجزء الثاني

قدم له

سماحة الحجة السيد محمد جواد التبريزي دام ظله



بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم اني أفتتح الثناء بحمدك وأنت مسدد للصواب بمنك
حمداً لك يا رب على ما منحت من التوفيق لخدمة
أهل بيت نبيك محمد ﷺ الميامين البررة الذين أذهبت
عنهم الرجس وطهرتهم تطهيراً .

اعتمدنا في نقل أصل هذه الرسالة على رئيس المحدثين الشيخ الصدوق في كتابه من لا يحضره الفقيه، وهو من علماء القرن الرابع الهجري .

وعلى الشيخ الفقيه المحدث رضي الدين الطبرسي من علماء القرن الخامس الهجري في كتابه مكارم الأخلاق .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة على نبيه وآله الأئمة المعصومين .

وبعد لايخفى ان سعادة الانسان وحياته المادية والروحية وقيمته في سوق الاعتبار إنما نيطت بأصول ودعائم ومعارف ومعالم متخذة من الكتاب والسنة والدعوة النبوية والشرعة المحمدية وبيان اوصيائه المعصومين المشار اليهم في قوله ﷺ : « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي » هي التي تتكفل بتلكم الغايات وتوجه البشر إلى الحياة السعيدة والانسانية السامية ، وتحدو إلى سبل السلام ومهيع السعد الخالد ، ولايتأتى شيء من ذلك بالمزاعم ولايتطرق اليه بالوهم والخيال ومرجع ذلك كله إلى مراعاة امور اربعة التي جعلها الله سبحانه وتعالى سبب فلاح الانسان وخروجه من الخسران الملتصق بذاته إلى الربح الخالد وقد أشار اليها في سورة العصر بقوله عز من قائل : (والعصر إن الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) .

وأهم هذه الأمور بعد الايمان بالله رعاية الحقوق والمحافظة عليها ولذا لم يرض سبحانه وتعالى برعايتها في حال الحياة فقط بل ندب إلى المحافظة عليها حتى عند المهات بالوصية للأهل والأولاد وغيرهم حيث قال (وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) اي بالصبر عليه ، ومن هنا لا تجد شراً يقع اوفساداً ينتشر او تفسخاً في الأخلاق يوجد او حروباً طاحنة تحدث بين الحكومات او قنابل ذرية تصنع

إلا من أجل التعدي عن الحدود والخروج عن المحافظة على رعاية الحقوق فلو روعيت الحقوق لما ملئت السجون بالمجرمين ولا قطعت يد السارق ولا جلد الزاني ولا قتل القاتل . فجميع هذه المفاسد وليدة إضاعة الحقوق والاهمال فيها وغير خاف ان الحكمة البالغة والموعظة الحسنة والعلم النافع والعرفان التام والخلق الاسجح والمعالم والمعارف والظرائف والطرائف والغرر والدرر والأنوار والأزهار والعدل والصدق والورع والتقى والحق والحقيقة والاصول والفروع المتبعة والحكم والآثار والكلم الطيب والقول البليغ والمنطق السليم والصوب المستقيم والرأي الصائب والفكرة الناضجة كلها في مقال إنسان او تأليف مؤلف يغترف من بحار علوم آل الله ويقتبس من تلكم الأنوار ويتخذ من معادنها ، ويقتفي آثار اولئك الأئمة ويرى السعادة والفوز والفلج في الاقتداء بهم والاستنارة برشدهم والمضي وراء ضوئهم فالمتكلم بغير هداهم أخبط من حاطب ليل يخبط خبط عشواء ويخلط الحابل بالنابل . والمصلح بغير هديهم متطلب في الماء جذوة نار والعارف الناسك بغير مناسكهم يتيه فى واد السدر ، والسائر إلى الله بغير سيرتهم يضل عن رشده ويقوده الهوى السائد ويستحوذ عليه الشيطان ويجر عليه الويلات ويدخله إلى حضيض التعاسة ومأزق الشقاء ويسفه إلى العار والشنار .

ثم إن معرفة هذه الحقوق واكتناهها والاحاطة بها جمعاء خارجة عن وسع البشر ودائرة إمكانه فلابد ان يتلقى ذلك من مصدر النبوة او ممن هو داخل في هالتها ، وهذه الحقوق وإن كان بعضها مذكوراً في القرآن الكريم وفي ضمن الآثار النبوية إلا انها لم تكن كلها بل بعضها او جلها .

نعم بيّنها بقضها وقضيضها وليد النبوة الامام زين العابدين علي بن الحسين ابن علي بن ابي طالب عليه وعلى آبائه آلاف التحية والثناء في رسالة الحقوق المروية في كتبنا المعتبرة ، ولما لم تكن هذه الحقائق الناصعة والجواهر الثمينة

في مستوى إفهام العامة وسواد الناس وكانت تحتاج إلى شرح وإيضاح ليكون للعامة منها حظ ، ونصيب فقام بذلك ولدنا العزيز قرة عيني سيادة العلامة الفذ العالم الفاضل الخطيب الشهير المصلح السيد حسن القبانچي أدام الله تعالى تأييده ولقد شمر عن ساعد الجد والاجتهاد وسهر الليالي وواصل نهاره بليله وأتعب نفسه في شرح هذه الرسالة بألفاظ موجزة وعبائر سهلة حتى أخرجه إلى اخوانه من رواد الحقيقة وطلاب الفضيلة بهذا الثوب القشيب فجزاه الله تعالى أحسن مايجزي مؤلفاً من مؤلفه وسدد خطاه في خدمة العلم والفضيلة ما كر الجديدان وتعاقب الملوان .

(محمد الجواد الطباطبائي التبريزي)

كلمة المؤلف

كان إقبال القراء الذي صادفه الجزء الأول من شرح هذه ـ الرسالة ـ ، المتفجرة من بحر علم الامام الزاخر ، مشجعاً لي على تأليف (الجزء الثاني) . وكان اغتباطي بالصدى الذي عاد إلي من إخواني الأفاضل ، الذين تفضلوا بتقريظ ذاك ، ومن القراء الذين شرفوني برسائل الثناء ، مخففاً عني كل عناء ، في تأليف هذا فشكراً لهم جميعاً .

وقد علم القراء أن موضوع الكتاب الأول ، شرح وتحليل لهذه الرسالة النيرة من الوجهتين المادية والعقلية ، لكي تتجلى كما هي وكما نراها .

وهذا الجزء مكمل للجزء الأول ، وكلاهما متلازمان تلازم الروح للجسد

وهنا أعيد ما ذكرته في مقدمة الجزء الأول ، من أن هـذا المؤلف في جزأيه ليس إلا شق طريق للبحث في موضوع هذه الرسالة الوعر الذي لم يتصد له كاتب عربي وغير عربي فيما أحسب ، عسى أن يتحمس من هو أغزر علماً أو أقدر للبحث فيه ، في أسلوب أعلى ، ويغوص في أعماق حقائقه اكثر .

وكذلك أنوه إلى ما نوهت به في مقدمة الكتاب الأول ، من أني بذلت الجهد في أن أجعله بسيط العبارة سهل المأخذ ، منطقي التبويب والتفصيل .

هذا منتهى ما جادت به دراستي ومطالعاتي ، توخيت به خدمة هـذه الرسالة القيمة الخالدة ، فان لقيت هذه الخدمة قبولا وكانت ذا نفع ، كان قبولها وتأثيرها خير جزاء لمعاناتي ، وإلا فأسأل الله أن يلهم من هو اكثر أهلية لهذا العمل ليقوم بهذه الخدمة العلمية .

النجف الأشرف

١٧ ربيع الأول سنة ١٣٨٦ هـ

حسن السيد علي القبانجي

النجفي

حق المنعم بالولاء

قوله (عليه السلام) :

« وأما حق المنعم عليك بالولاء ، فان تعلم أنه أنفق فيك ماله ، وأخرجك من ذل الرق ووحشته إلى عز الحرية وأنسها ، فأطلقك من أسر الملكة ، وفك عنك حلق العبودية ، وأوجدك رائحة العز ، وأخرجك من سجن القهر ، ودفع عنك العسر ، وبسط لك لسان الانصاف ، وأباحك الدنيا كلها ، فملكك نفسك ، وحل أسرك ، وفرغك لعبادة ربك ، واحتمل بذلك التقصير في ماله . فتعلم أنه أولى الخلق بك بعد أولي رحمك في حياتك وموتك ، وأحق الخلق بنصرك ومعونتك ، ومكانفتك فى ذات الله ، فلا تؤثر عليه نفسك ما احتاج اليك » .

* * *

المدخل :

في هذا المجال حملة ضخمة للتوجيه والتأثير واستجاشة العقل والضمير .

حملة هادئة الايقاع ، ولكنها متعددة الأوتار ، ليست في جلجلة الأنغام والرعد ، ولكنها في هدوئها تخاطب كل حاسة وكل جارحة في الكيان البشري ، وتتجه إلى العقل الواعي كما تتجه إلى الوجدان الحساس .

إنها تخاطب العين لترى ، والأذن لتسمع ، واللمس ليستشعر ، والوجدان ليتأثر ، والعقل ليتدبر .

أدوات توقع بها على أوتار الحواس والجوارح والعقول والقلوب ، مختلفة الايقاعات التي لا يصمد لها فلا يتأثر بها إلا العقل المغلق ، والقلب الميت ، والحس المطموس .

« هذا هو الامام السجاد في دروسه الرائعة ، في مناهجه القويمة التي تصلح البشر في سره وعلانيته ، وفي سكونه وحركته .

في أبطن البواطن من ميوله وعواطفه وخلجاته وانفعالاته ، وفي أظهر الظواهر من أخلاقه ومظاهره وأعماله وأقواله .

في ركائز تربيته ومناهج تثقيفه وطرائق تعليمه .

في وشائجه المختلفة ، ووظائفه المتنوعة .

في عبادته لله حين يعبد ، وفي سعيه في الحياة حين يسعى ، وفي صلته مع الناس إذ يتصل ، وعزلته عنهم إذ يعتزل .

في حبه وكراهته ، ورضاه وغضبه ، وعداوته وصداقته .

في خصومته حين يخاصم ، وسلمه حين يسالم ، وفي مناهج حكمه وموازين حربه وسلمه .

في مزرعته وهو يزرع ، أو في مصنعه وهو يصنع ، أو في متجره وهو يتجر ، أو في حرفته وهو يحترف ، ثم في جهده وهو يجهد ، وفي راحته وهو يستجم .

في صلته بالمالك إذا كان عاملا ، ورابطته بالعامل إذا كان مالكا ، وبالعملاء إذا كان ممتهناً .

في أواصره مع أرحامه الأدنين ومع أصدقائه الأقربين ومع شركائه في الأسرة وزملائه في العمل ، ثم مع اخوانه في الدين ، وأكفائه في البشرية .

وفي الحقوق التي تجب عليه لأي واحد من اولئك كلهم والواجبات التي

تثبت له عليهم ، والضمانات التي تصان بها الحقوق والواجبات .

هذا هو الامام (زين العابدين) في مناهجه القويمة التي تصلح البشر في كل أنحائه ، وتصف له العلاج الواقي من كل أدوائه ، وتسد كل ضرورة له في الحياة وتجيب كل تطلع في الفطرة وتروي كل غلة .

هذا هو الامام (زين العابدين) في مراميه البعيدة من وراء تلك العقائد ومن وراء تلك المناهج ، مراميه العالية التي تمكن لغايته الكبرى .

في إعلاء هذه الحياة ، وتطور شؤونها وترقية فنونها وإصلاح حركاتها وفتح مقفلاتها .

وإن إسعاد البشر والارتفاع بمكانته ، والتحليق بفرده ومجتمعه إلى المنزلة السامية الكريمة ، التي أهل لها لما استخلف في هذه الأرض واستعمر فيها .

لما جعل السيد المطاع ، والرئيس المرموق على ظهر هذا الكوكب .

لما أودعت فيه هذه النفخة من روح الله ، وهذه القبسة من نوره .

لما كرمه الله وحمله في البر والبحر ، ورزقه من الطيبات ، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا .

إن إسعاد البشر والارتفاع به إلى المنزلة الخطيرة يفتقر إلى تفقيهه أسرار هذه الرسالة وتبصيره مدارج الرقي فيها ، ووضع يده على مفاتيح كنوزها ومقاليد رموزها وهذا ما دأب فيه (الامام ﷺ) وبذل له أقصى جهده ، وأناط به وفرة كبيرة من تعاليمه .

هذا هو (الامام زين العابدين) في رسالته القويمة الجليلة ، التي تجري مع الفطرة في بساطتها ومع البرهان في قوته ومع حقائق الكون في ثباتها وأطوادها فلا تمتاص على الذهن البدوي البسيط ، ولا تضوي في الفكر الفلسفي العميق ، ولا تلتاث على أي باحث مهما كان وعيه ومهما كانت طريقته ، مهما كان وعيه

في الادراك ومهما كانت طريقته في الاستنتاج ، شريطة أن لا يحمل فكره على نتيجة مقتسرة ، أو يلجئه إلى غاية مبتسرة ، وشريطة أن يؤثر الحق في بحثه ، وأن ينصف العقل في اقتناعه .

هذا هو الامام (زين العابدين) في رسالته التي تمتد آثارها إلى كل وصية من وصايا الدين ، وتنفذ أضواؤها إلى كل خليقة من خلائق المسلم ، والتي تصوغ المؤمن حق الايمان مخلوقاً جديداً لا يعرف الكسل ولا الفشل ولا التردد ولا الانزواء ، بل كلها للجديد وكلها للحزم وكلها للاستقامة وللفضائل البناءة وللسعي المبارك المثمر » (١) .

هذا هو الامام علي زين العابدين (عليه السلام) يتكلم ويرشد إلى سوي الصراط في شتى مجالات الحياة .

فما أحوجنا اليوم إلى مثل هذا الامام المخلص . ما أحوجنا اليه في هذا اليوم الذي بلغت فيه القلوب الحناجر ، وبلغ السيل الزبى وطغى الجرح بصديده فتعفنت كل أجهزة الجسم وتسممت مشاعره .

ارتسمت على العيون غشاوة ، وعلى الأفئدة بلادة ، وعلى العقول سنة ، وعلى العواطف تصلب ، وعلى الهواجس مسكنة .

ذهب مكظومنا بنار وجده ، ومدركنا بلهب معرفته ، وعالمنا بشواظ علمه ، وجاهلنا بدياجير ظلمته ، وظالمنا بزهوه وكبريائه وتهتكه .

أصبحنا كغارق تتلقفه الأمواج العالية ، تثيرها زوابع عاتية فاذا ما رفعته موجة فابتدره الأمل ساخت به إلى قاع البحر موجة أخرى .

من لنا بتعاليم كتعاليمه وحكم كحكمه ، وتجرد كتجرده وعدل كعدله ،

---

(١) محمد أمين زين الدين .

نرشف منه معين الحرية ، ونستنشق منه عبير المساوات بحق تقرير المصير على صعيد التحرر غير المجزوء الماثل بالعدل والحق .

* * *

ترجع أهم حقوق الانسان العامة إلى حقين رئيسين : المساوات والحرية . وقد ادعت الأمم الديمقراطية الحديثة ، أن العالم الانساني مدين لها بتقرير هذين الحقين . فذهب الانكليز إلى أنهم أعرق شعوب العالم في هذا المضمار !!.

وزعم الفرنسيون أن هـــذه الاتجاهات جميعاً كانت وليدة ثورتهم . وأنكرت أمم أخرى على الانكليز والفرنسيين هذا الفضل وادعته لنفسها .

والحق أن الاسلام هو أول من قرر المبادىء الخاصة بحقوق الانسان في اكمل صورة وأوسع نطاق ، وأن الأمم الاسلامية في عهد الرسول ﷺ والخلفاء من بعده كانت أسبق الأمم في السير عليها .

وهذا الامام (زين العابدين ؑ) حكيم يخاطب كل أحد بما يدخل في طوقه ويضرب على الوتر الحساس في قلبه ، ويخاطبه بقدر ، يخاطبه بالحكمة التي تصلحه وتوجهه .

حكيم يربي وفق منهج عقلي ونفسي مستقيم ، منهج يطاق طاقات البشر كلها مع توجيهها الوجه الصالح القويم ، ويقرر للحياة نظاماً كذلك يسمح بكل نشاط بشري في حدود ذلك المنهج الحكيم .

وهذه رسالته ـ رسالة الحقوق ـ القانون الخالد ـ ، تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة ، ومن حقائق الوجود والانسانية . حقائق تفتح للعقل والقلب آفاقاً عالية وآماداً بعيدة ، وتثير في النفس والذهن خواطر عميقة ومعاني كبيرة . وتشمل من مناهج التكوين والتنظيم وقواعد التربية والتهذيب ، ومبادىء التشريع والتوجيه ما يتجاوز حجمها مئات المرات .

وسوف يرى القارىء في – هذا الكتاب – بالنصوص الحاسمة أن آخر ما أملت فيه الانسانية من قواعد وضمانات لكرامة الجنس البشري ، كان من أبجديات الاسلام ، وإن إعلان الأمم المتحدة عن حقوق الانسان ترديد عادي للوصايا النبيلة التي تلقاها المسلمون عن الانسان الكبير والرسول الخاتم – محمد ابن عبدالله ﷺ – . ولو أن أحد علمائنا الأقدمين تناول هذا الموضوع – بما أنسناه من نفاذ بصر وسناء روح – لكان لتأليفه شأن آخر ...

* * *

في الشريعة الاسلامية طريق واسع إلى العتق ، قصد التجفيف للكثرة الهائلة من الرقيق ، الذين قد يكون وجودهم على تلك الصورة من العبودية وصمة في جبين الانسانية .

وعده أول واجب إنساني بهم ، والرحمة والحنو عليهم ، والمساهمة الفعالة في تخفيف آلامهم ، ودفع ما ينزل بهم من ضرر وجور ، ومحاولة الترفيه عنهم بكل وسيلة .

هذا ما فرضه الاسلام وجعله سبيلا إلى رضوان الله ومحبته . فالله يرحم من عباده الرحماء . فاذا تحجرت القلوب ، وغلظت الأكباد ، وتنكرت للقيام بهذا الواجب الانساني ، كان ذلك إيذاناً بأن هؤلاء القساة ليسوا أهلا لأن ينتظموا في سلك السعداء . يقول الرسول الأعظم محمد ﷺ : « لا تنزع الرحمة إلا من شقي » ويقول : « ارحموا ترحموا واغفروا يغفر لكم » .

فالاسلام كثيراً ما ندب إلى العتق وفك رقبة العبد من الرقية ، حيث يعرف مدى لذة الحرية في كل نفس ، ويعرف أن الحرية لدى الانسان (كل إنسان) هي الشيء الوحيد الذي لا يعدله شيء .

فهي أعز شيء على الانسان ، وإذا كان هذا الشيء بهذه المنزلة فماذا يجب

أن يكون من الحق لمن سبب هذه الحرية ، وكان طريقاً اليها . فحقه إذن عظيم أيسره الشكر والاخلاص والولاء له وعدم التنكر ، ومكاتفته في الله ، ومؤاخاته ومناصرته عند الشدائد والملمات .

والامام ﷺ هنا يلفت أنظارنا إلى قيمة الحرية ، وأنها هي الدنيا كلها ، في قوله : « وأباحك الدنيا كلها فملكك نفسك » ويتضح من هذا القبس المنير أن من لا يملك نفسه ليس يملك من الدنيا شيئاً . وما الدنيا تجاه ملك النفس وحريتها إلا شيء ضئيل .

(الحرية)

ونعني بها كل التصرفات النابعة من شعور الانسان بذاته وضرورة اعتراف الجماعة بشخصه ، وأهليته المطلقة للتصرف وفق ما يريد .

وعلى أساس هذه الحرية يملك كل إنسان أن يقيم حيث يشاء ، وأن يسافر متى شاء ، وأن يجتمع بمن يريد الاجتماع بهم ، وأن يحوز من المال ما يكسب ، وأن يحترف من المهن ما يهوي ، وأن يباشر العقود التي يرى إبرامها ويفسخ التي يريد فسخها من بيع وشراء ، وشركة ووكالة ، وكفالة وإيجار . وذلك كله بداهة وفق قانون يمنع الضرر والعدوان ، حتى لا يشتط أحـد في استخدام حريته فيؤذي الآخرين ، وينال من حرياتهم هم ...

وهذه الحرية تبدأ من غريزة الشعور الايجابي بالذات ـ كما يعبر علماء النفس ـ ولذلك فهي أساس لضروب شتى من الحريات .

بل إن المفهوم السائد للحرية بين الجماهير يكاد لا يعدوها .

وضدها العبودية أو الاسترقاق الذي يفقد الانسان فيه أهليته ولا يملك زمام نفسه .

والله عز وجل خلق الانسان كامل المسؤلية . وشرع له التكاليف الدينية ، ورتب عليها المثوبة والعقوبة ، على أساس إرادته الحرة وامتلاكه المطلق للاتجاه ذات اليمين أو ذات الشمال .

« لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » .

« وأن ليس للانسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » .

وخطاب الله للمكلفين ما يصح أن يتوجه اليهم لولا هـذه الحرية المقررة للانسان ، والتي هي نواة شخصيته المعنوية ...

ثم إن الأصل في الأشياء الاباحة ، ودائرة الحلال التي يمرح فيها الانسان رحبة الأكناف .

« هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً » .

وعندما تنظر إلى المحرمات التي حذر الشارع من مواقعتها ، تجد طائفة محصورة من الأعمال الرديئة هي في حقيقتها ليست قيداً على الحرية قدر ما هي سياج لحريات الآخرين ، أو إرشاد للانسان حتى لا يستعمل حريته في إيذاء نفسه فموقف الشارع من الناس أنه :

« يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم » .

هل لأحد بعد ذلك أن يقيد حرية الآخرين أو يسلبهم إرادتهم ؟ .

لا . إلا أن يكون ظالماً يستمرىء العدوان ، ويتطاول فوق أخيه الانسان دون سبب ما .

ومن كشف عن حقيقة الحرية ستار الاجمال أشرف على أربع خصال مندمجة في ضمنها :

أحدها : معرفة الانسان بما له وما عليه ، فان الشخص الذي يجهل حقوق الهيئة الاجتماعية ونواميسها لايبرح في مضيق الحجر ، مقيد السواعد عن التصرف حسب إرادته واختياره حتى يستضيء بها خبرة ويقتلها علماً ، إذ لا يأمن أن تطيش أعماله عن رسوم الحكمة والسداد ، فيقع في خطيئة تحدث في نظام تلك الهيئة علة وفساداً ، ولا يخالط الضمائر .

من هذا أن الحرية مقصورة على علماء الأمة العارفين بواجباتها ، إذ للأميين منها مخلص فسيح ، وهو باب الاستفتاء والاسترشاد .

قال الله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » .

ثانيها : شرف نفس يزكي طويتها ويطهر نواياها من قصد الاعتداء على ما ليس يحق لها ، فلا ترمي مهمتها إلا في موضع تشير اليه العفة ببنانها .

ثالثها : اذعان يدخل به تحت نظر القوانين المقامة على قواعد الانصاف ، ويستنزله ريثما تحرر ذمته من المطالب التي توجه اليها باستحقاق .

رابعها : عزة جانب ، وشهامة خاطر ، يشق بها عصا الطاعة للباطل ، ويدفع بها في قوة من يسوم عنقه بسوء الضيم والاضطهاد .

ولا يقيم على ضيم يراد به   إلا الأذلان عير الحي والوتد

نستنتج من هذا البيان : أن الأساس الذي ترفع عليه الحرية قواعدها ليس سوى التربية والتعليم ، فيتأكد على الحكومة التي تنظر إلى فضيلة الحرية بعين الاحترام أن تسمى جهدها في تهذيب أخلاق الأمة وتنوير عقولهم بالتعليمات الصحيحة .

فاذا أضاءت على الأمة شموس الحرية ، وضربت بأشعتها في كل واد ، اتسعت آمالهم وكبرت هممهم ، وتربت في نفوسهم ملكة الاقتدار على الأعمال الجليلة . ومن لوازمها اتساع دائرة المعارف بينهم ، فتتفتق القرائح فهما وترتوي

العقول علماً ، وتأخذ الأنظار فسحة ترمي فيها إلى غايات بعيدة ، فتصير دوائر الحكومة مشحونة برجال يعرفون مصالحها الحقيقية ، ولا ينحرفون عن طرق سياستها العادلة .

فالحرية ـ القائمة على التربية الصحيحة ـ تؤسس في النفوس مبادىء العزة والشهامة ، فاذا نظمت الحكومة منهم جيشاً استماتوا تحت رايتها مدافعة ، ولا يرون القتل سبة إذا ما رآه الناكسوا رؤوسهم تحت راية الاستبداد .

ثم إن الحرية تعلم اللسان بياناً ، وتمد اليراعة بالبراعة ، فتزدحم الناس على طريق الأدب الرفيع ، وتتنور المجامع بفنون الفصاحة وآيات البلاغة ، هذا خطيب يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة . وذلك شاعر يستعين بأفكاره الخيالية في نصرة الحقيقة ، ويحرك العواطف ، ويستنهض الهمم لنشر الفضيلة . وآخر كاتب ، وعلى صناعة الكتابة مدار سياسة الدولة .

وقد قسم الفلاسفة الحرية إلى خمسة أقسام :

أولا : الحرية الطبيعية المحصلة من طبيعة البشر ، وهي حقوق الانسان أن يستعمل مواهبه وقواه الطبيعية والأدبية ، مما يرى فيه خيراً له كي يتمم ما خلق لأجله .

ثانياً : الحرية الجسدية وهي : القدرة على أن يعمل مطلقاً بلا عائق ولا حاجز ، ويعاكس هذه الحرية الأمراض والعاهات والعبودية ، وعدم المقدرة ، والتحكم والشرائع والسجن .

ثالثاً : الحرية المدنية وهي : المعطاة لكل إنسان كي يستعمل حقوق الانسان الطبيعية ، موافقاً شرائع وعادات وطنه وهي تنحصر : (١) في الحقوق الجسدية.
(٢) حقوق التملك الناتج عن حرية العمل. (٣) حقوق النكاح والتربية والوصايا.
(٤) حرية الضمير ، مثل حرية اختيار العمل المراد ، التعليم ، التملك ، البيع ،

المبادلة ، الهبة ، الوصية ... أي كل من يملك حقوقه الشخصية يقدر أن يعمل هذه الأعمال تبعاً لشرائع وطنه وعاداته .

والعبودية والرق ضد الحرية المدنية ، حيث العبد ، والرقيق مسيّر لامخير أي كمتاع لا كانسان .

رابعاً : الحرية السياسية ، وهي : حقوق التدخل في مهام الحكومة وقد انحصرت في حقوق الانتخاب - أي يمكن أن ينتخب و ينتخب ، وفي حرية الطباعة ، وفي حقوق الاجتماع ، وفي حقوق الضرائب والشكاوي . فالمجرم بكل معانيه الاصطلاحية محروم هذه الحرية .

خامساً : الحرية النفسانية أو الأدبية : وهي استطاعة التصميم على أي عمل بعد فحص أسبابه - أي على اختيار واحد من المتضادين أو المتناقضين ، وهذه هي موضوعنا .

كل عمل حري هو إرادي ولا يعكس ، - أي نريد أشياء كثيرة فلانقدر على عملها غير أن كل عمل نأتيه بحرية هو إرادي . مثال ذلك الاحترام والسعادة .

الحرية الحقيقية « النفسانية » : هي اتباع العقل وطاعة الله والشرائع ، والمحافظة على النظام واختيار أحسن الخيور ، - أي بمقدار ما يكون الانسان تقياً وعاقلا يكون حراً ، إذ من صنع نقيصة فهو عبد لها . والعبد نقيض الحر .

ليس حراً من يرمي بدراهمه في البحر بل مجنون ... وليس حراً من يخطي ويعصي ويجرم بل هو عبد ، وكل عاقل لبيب يفهم هذا لأنه واضح جلي .

الانسان صاحب نياته ، وضامن ما صمم عليه أي حر ، التجارب أوضحت أن الانسان المدرك العاقل هوصاحب نياته ، وضامن ما صمم عليه ، ولنا لتحقيق هذا شهادة الضمير وسلوك البشر ، ونتائج نفي الحرية .

شهادة الضمير :

الضمير يخبرنا دائماً أننا أحرار ، ويحقق قوله : إننا قبل العمل نفحص الأسباب والنتائج ونتشاور ونزن قبائح وملائح ذلك العمل بميزان العقل . وحين العمل نشعر دائماً أننا قادرون على إتمامه أو على الانقطاع عنه . وبعد العمل نشعر براحة أو بوخز الضمير : كل هذه الحركات توجب وجود الحرية ، لأن الانسان إذا رجع لحاله وفحص ضميره وجد نفسه حراً كما يرى نفسه عاقلا .

شهادة سلوك البشر :

سلوك البشر في كل القرون يشهد ويحقق ويؤيد وجود الحرية النفسانية ؛ إذ في كل الأجيال كان لكل الأمم شرائع ومحاكم وجزاء وعقاب ، وهذا كله يؤكد وجود الحرية ، لأن الانسان إذا كان مكرهاً على عمله لا يكون ضامناً له وإن كان الانسان ليس بضامن أعماله ، فما وجود الشرائع والمحاكم والجزاء والعقاب ؟؟؟.

أنكر بعض الفلاسفة وجود الحرية فكرياً ، أما عملياً فكلهم يعترفون بوجودها ، ويؤيدون ذلك بأعمالهم . وتاريخ حياتهم شاهد عدل .

شهادة نتائج نكران الحرية :

لو لم يكن الانسان حراً ، وكان ملزماً لعمله لزوم النار الاحراق لوجب حذف كلمتي الخير والشر ، وكان وجود الجزاء والعقاب والحالة هـذه هجنة ، لأن من يأتي عملا ما وهو مكره لايستأهل قيمته ولا يكون ضامنه أو كافله ، لأنه لايقدر أن لايفعله ما دام الزجر خلفه والعمل أمامه . ونكران الحرية النفسانية يولد مساواة الفضيلة بالرذيلة ، والعدل بالظلم ، ويبطل الواجب ويكذب يوم الحساب وخير الحياة الخالدة ـ وهل بعد ذلك كله ضمير ـ ؟ لخراب الحياة الاجتماعية . إذن فالضمير وسلوك البشر ونتائج نكران الحرية المستهجنة توضح لنا أن الانسان صاحب نياته وما صمم عليه ـ أي إنه حر .

ناكروا الحرية النفسانية :

ناكروا الحرية قسمان كبيران : المعتقدون بالمقدر والمسيرون :

فالمعتقدون بالمقدر يقولون : مثلا إن الله كتب لزيد أن يموت مسمماً فلو رمى بنفسه من على جبل الى قعر الوادي أو طرح نفسه بالنار أو الماء ، أو عرض صدره لرصاص البندقيات وقنابل المدافع ، فقطعت احشاءه لايموت لأنه قدر عليه أن يموت مسمماً . وهذا المذهب ضد الضمير والعقل والرأي العام .

والمسيرون يعتقدون أن أعمالنا الارادية مسيرة بشرائع الطبيعة البشرية وبسابق علم الله وبحكمه . لذا يقسم اعتقاد المسيرين لثلاثة : أولا المسيرون

الفزيولوجيون . ثانياً المسيرون البسيكولوجيون . وثالثاً المسيرون الثيولوجيون أو الروحيون .

أولا : المسيرون الفزيولوجيون أو الماديون : يعتقدون أن الطبيعة البشرية ، كالتربية والمزاج والعمر والبيئة والحرفة وحالة الدماغ والوراثة والصحة والمرض هي السبب المسير للارادة ، لتختار ما تختار .

في الرد على هؤلاء نقول : نعم ان الطبيعة البشرية تعمل في الحرية الأدبية ، غير أن الانسان يقدر - بعد التجارب العديدة - أن يغير قسماً كبيراً من طبيعته البشرية بفضل الارادة الفولاذية . مثلا يقدر أن يضعف جسمه ويمرن مزاجه ويبتعد عما يرى فيه خلاف مايراد ، ويحترف مايريد ، ويتصور مايحب . . وهذا كله دليل بين على أن الانسان حر .

ثانياً : المسيرون البسيكولوجيون : يزعمون أن الآراء لاتفضل شيئاً على شيء إلا بواسطة صفاته . فان كانت هذه الصفات غير متساوية اختارت الارادة القسم الأحسن ، وإن كانت متساوية فتبقى مترددة حيرى لاتفضل قسماً على آخر ، كحمار بوريدن الذي جعل امامه باقتي عشب أخضر متشابهتين ، فوقف بينهما ببعد متساو لم يفضل إحداهما على الاخرى حتى نهكه الجوع . (هذا برهان خرافي ضد الواقع) .

نرد على هؤلاء أن صفات الشيء التي تجعلنا نختاره على غيره لاتجبرنا أن نريده ، لأننا بنفس الوقت نقدر أن نختار الأقل صفات والأحقر قيمة ، إذن الانسان حر وصفات الأشياء لاتؤثر بحريته .

ثالثاً : المسيرون الثيولوجيون ، أو الروحيون . يقولون :

(أ) إن الله يعلم ماسيحدث ، وما يعلمه الله يجب حدوثه ضرورياً ، إذن ليس الانسان بحر .

الرد على هؤلاء هو : الله عالم البداية والنهاية ـ أي لاحاضر عنـده ولا ماضي ولا مستقبل ، إذ هو عالم مطلقاً ومشاهد مانعمله . لكن مشاهدته إيانا لاتؤثر على أعمالنا ، كما ان مشاهدتنا غيرنا لاتؤثر على أعمالهم : مثلا لو شاهدنا إثنين يتضاربان فما تأثير رؤيتنا لهما ؟؟ وإنه تعالى خلق الانسان ووهبه وسائط لازمة لحياته وحريته وإرادته ، فيقدر أن يأتي مايريد ، ويختار مايشاء بحرية . إذن الانسان حر .

(ب) ويـدعي المسيرون أيضاً : ان الله يعين الانسان بكل أعماله لبلوغه غايته المحبوبة ، كل عمل بذاته وكيانه صالح . مثلا فعل الزواج بـذاته وكيانه صالح ـ أي إذا كان شرعياً ـ فالزناء زواج غير شرعي : ـ أي غايته معاكسة للزواج الشرعي ، وهذا شيء معلوم ، والله يعين الانسان بكل اعماله المنزهة عن الغايات ، لأن الانسان لايقدر أن يستغني عن خالقه لأسباب يعرفها كل فطن ، فالانسان يقدر أن يجعل غاية عمله خيراً أو شراً ، إذن هو حر والله شريكه باعماله كلها المجردة عن الغايات .

الحرية الأدبية لاتفارق الارادة أبداً ، وهي تبقى دائماً في الانسان : أي لاقوة في الكون تسلب الانسان حريته الأدبية الموصلة إلى أسمى الغايات ، لأن الاكراه يكون للجسد فقط . فلا يجعل الانسان يريد ما لايريد رغماً عنه ـ ١ ـ

قال فريد وجدي : « عاش الانسان دهراً طويلا خاضعاً بحكم الضرورة لرؤساء يقيمهم قادة ، ويضع حياته بين أيديهم ، ويهبهم من التعظيم والاجلال ما لايسمح بمثله إلا للآلهة . وقد عد كثير من الامم ملوكهم آلهة : كقدماء المصريين واليابانيين وغيرهم . ولم يزل من المتوحشين من هم على هذه الخصلة إلى الآن ، ولـكن كلما إزداد رقي النوع الانساني في مدارج العرفان زاد معرفة

ـ ١ ـ العاشر من مجلة العرفان .

بنفسه ، وأنفة من أن ينقاد في أيدي طائفة من بني نوعه كما تنقاد الاغنام ، فزع إلى تحديد سلطة المسيطرين عليه . وفى تاريخ اليونانيين والرومانيين أمثلة من ذلك . ودامت هذه المنازعة بين الحاكمين والمحكومين قروناً عديدة ، كان المستبدون يتلونون فيها للامم بألوان شتى تارة باسم الحكومة ، وطوراً باسم الدين . وكان ذلك كله وبالا على الانسان وقتلا لأشرف خصائصه . وظل هذ التدافع بين الطرفين على أقصى حالاته ، حتى جاءت الديانة الاسلامية فأنزلت الأعلين إلى مستوى العامة بقوله تعالى : « إنما المؤمنون أخوة » وبقوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . وبقوله (عليه الصلاة والسلام) : « ليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى » .

وكان رسول الله (ص) ذاته الأسوة الحسنة في ذلك ، فكان يشاور أصحابه في الأمر ويعمل باشارتهم ولا يقطع دونهم حكماً إلا وحياً . ـ ١ ـ فتربو على ذلك . . . ثم بعده حصلت فتن قلبت الامر ملكاً على النحو الشائع في العالم إذ ذاك بالوراثة والتغلب ، فعمل الملوك على قتل عواطف الامة بالرشوة بالمال وبالجور والاخافة بكل وسيلة ، فسار العالم كله على هذه السيرة المظلمة ، حتى هبت بعض أمم أوربا لتحديد سلطة ملوكها ، منهم انكلترة أولا ، ولم تزل مع ملوكها في نزاع من لدن القرن الخامس عشر حتى أيد (كرومويل) قائد الحرية حق الأمة في القرن السابع عشر بثورته المشهورة . ثم قامت فرنسا سنة (١٧٨٩) م بثورتها الهائلة ، فقضت على الاستبداد القضاء الأخير . وقلدتها أمم أوروبا

ـ ١ ـ فرسول الله (ص) أجل وارفع شأناً من أن يعمل باشارتهم فكان هو وحده صاحب الرأي المصيب فهو دائماً وأبداً في كل احواله واعماله يعمل برأيه وما هو إلا انه كان يتألفهم ويجمعهم ويعلمهم بذلك .

واحدة بعد أخرى . . . » ـ ١ ـ

جاء في (النظام السياسي في الاسلام) تأليف العلامة (الشيخ باقر القرشي) مانصه : « الحرية في الاسلام تطلق تارة ويراد بها الخلوص من العبودية فيقال حر ـ أي غير مملوك ـ وأخرى يراد بها الرضا والاختيار ، فيقال : فلان حر في تصرفاته ـ أي غير مكره فيها ـ كما أنها تطلق ويراد منها تخليص النفس من الاوهام والخرافات كما يقال : فلان متحرر من الأوهام .

وقد بذل الاسلام جميع طاقاته على تحقيق ذلك ، وعلى تنوير العقول بقوة الايمان بالله ، فان المجتمع الجاهلي كان قبل بزوغ نور الاسلام أسيراً للعادات الخرافية والامور الوهمية ، فجاء الاسلام فحطم تلك القيود والاغلال ، ودعا المجتمع الى التحرر والانطلاق وإلى إيقاظ عقولهم وتحرير أفكارهم ، وقد نعى الذين يتبعون آباءهم ويقلدونهم في عاداتهم الجاهلية . قال تعالى : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولا يهتدون » .

إن الحرية التي منحها الاسلام للانسان ذات محتويات أربعة ، ويتفرع على كل واحد منها أنواع مختلفة وهي كما يلي :

١ ـ حرية العقيدة :

إن الحرية الدينية في أرحب مفاهيمها قد تبناها الاسلام ودعا اليها ، وخطة الرسول الكريم (ص) كانت هي إبلاغ مبادئه إلى المجتمع ، فان شاءوا آمنوا بها

---

(١) دائرة المعارف لفريد وجدي .

وإن شاءوا تركوها . قال الله تعالى : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » إن خطة الرسول (ص) هي الاداء والتبليغ يقول تعالى : « فذكر انما انت مذكر لست عليهم بمسيطر » . ويقول تعالى : « نحن أعلم بما يقولون ، وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » .

وليس على الاسلام من ضرر وبأس ، إن أصر المنتسبون إلى المسيحية وغيرها على بقاء عقيدتهم ، يقول تعالى مخاطباً لنبيه الكريم : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » .

إن الاسلام قد تبنى سياسة التسامح الديني مع كل الشعوب التي امتد اليها الفتح الاسلامي . يقول (جولد سهر) : « سار الاسلام لكي يصبح قوة عالمية على سياسة بادعة ، ففي العصور الأولى لم يكن اعتناقه أمراً محتوماً ، فان المؤمنين بمذاهب التوحيد أو الذين يستمدون شرائعهم من كتب منزلة كاليهود والنصارى والزراد شتية كان في وسعهم متى دفعوا ضريبة الرأس (الجزية) أن يتمتعوا بحرية الشعائر وحماية الدولة الاسلامية ، ولم يكن واجب الاسلام أن ينفذ إلى أعماق ارواحهم إنما كان يقصد إلى سيادتهم الخارجية ، بل لقد ذهب الاسلام في هذه السياسة إلى حدود بعيدة ، ففي الهند مثلا كانت الشعائر القديمة تقام في الهياكل والمعابد في ظل الحكم الاسلامي » .

ويذكر (دوزى) عن أهمية هذا التسامح في حديثه عن فتح الاندلس ، فيقول : « ولم تكن حال النصارى في ظل الحكم الاسلامي مما يدعو إلى كثير من الشكوى بالنسبة لما كانت عليه من قبل ، أضف إلى ذلك أن العرب كانوا يتحكمون بكثير من التسامح فلم يرهقوا أحداً في شؤون الدين ... ولم يغمط النصارى للعرب هذا الفضل ، بل حمدوا للعرب تسامحهم وعدلهم ، وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرنج » ـ ١ ـ .

ـ ١ ـ مواقف حاسمة .

إن الاسلام ألزم المسلمين باحترام حق الغير في عقيدته ، فليس لأحد أن يكره غيره على اعتناق عقيدة خاصة ، واذا أراد أن يعارضه في عقيدته فعليه أن يقنعه بالتي هي احسن بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويبين له الوجه في خطأ عقيدته عن اقتناع ، فان ثاب إلى الحق فذاك وإلا فليس عليه الضغط ولا مجال لأحد حق استعمال القوة في هذا السبيل .

ومن مظاهر هذه الحرية التامة في المجال العقائدي التي أعلنها الاسلام، أنه لايلزم غير المسلمين بتطبيق أحكام الشريعة الاسلامية على واقع حياتهم لاسيما في الأحوال الشخصية فانهم يرجعون إلى أحكام دينهم في هذا الموضوع ومهما يكن من أمر فان التاريخ لم ينقل أن الرسول (ص) قتل كتابياً لانه لم يسلم ، أو عذبه أو سجنه أو منعه من التعبد على طريقته ، نعم فرض عليهم الجزية وبعض الأمور الأخرى التي ذكرتها كتب الفقه الاسلامي بالتفصيـل . ويتفرع على حرية العقيدة مايلي :

١ ـ حرية الفكر .

وصف (ملتون) الشاعر الانكليزى الشهير ، الحرية الفكرية بقوله : « هي حرية اكتساب المعرفة وحرية النطق بها واعلانها ومناقشتها حسب مايمليه عليه الضمير ، وهي فوق كل الحريات » .

إن الاسلام بكل اعتزاز وفخر فتح آفاق الكون أمام العقل ليتدبر مافيه ويفكر في شؤنه ، ودعاه إلى الانطلاق وإلى بث نشاطه وفعالياته ، ونعى عليه الخمول والجمود ، وقد استطاع رجال الفكر الاسلامي في هذا الجو العلمي ـ الذي فتحه الجو الاسلامي ـ إلى الانطلاق في جميع ميادين العلوم ، فكانت بغداد

والكوفة ويثرب منطلقا إلى البحوث الاسلامية وإلى المجادلة في علوم العقائد وغيرها حتى ازدهرت الحياة العلمية ، وبلغ المسلمون الذروة في علومهم ومعارفهم .

إن الحرية الفكرية قد رفع شعارها الاسلام لأنها المصدر الوحيد للتطور الفكري الذي هو احدى النواميس الاصيلة في هذا الوجود .

(ب) حرية التعبير عن الرأي .

إن حرية التعبير عن الرأي نطقاً أو كتابة متممة لحرية الفكر ، ولكنها مشروطة بأن لاتكون منطلقاً إلى بث المبادىء الهدامة والافكار المجافية لوحدة الأمه وتراصها ، أو فيها إثارة للفتن أو القذف والتحقير لأي شخص أو جماعة ، أو تكون منافية للاخلاق والآداب العامة فان ذلك لايسمح به الاسلام بأي وجه من الوجوه لأنه يؤدي إلى المفاسد والمشاكل بين صفوف المجتمع . إن الاسلام أباح حرية إبداء الرأي ، وجعله حقاً طبيعياً لكل إنسان فله حرية التكلم بما شاء ، وحرية المحاججة ، وحرية النقد للحكم القائم إذا شذ عن طريق الحق ، ولكنه لم يسمح بأن تستعمل هذه الحرية في العدوان على الغير يقول عبد القادر عودة :

« وحرية القول في الحدود التي وضعتها الشريعة تعود دون شك على الأفراد بالنفع والتقدم ، وتؤدي إلى نمو الاخاء والحب والاحترام بين الأفراد والهيئات ، وتجمع كلمة الأمة على الحق دون غيره ، وتجعلهم في حالة تعاون دائم ، وتقضي على النعرات الشخصية الطائفية » .

إن الاسلام أكمل الحرية . وأضفى عليها أروع المعاني حينما قيدها بعدم الاسائة إلى الآخرين ، فقد حفظ بذلك توازن المجتمع ووحدة صفوفه ،

وقضى على جميع ألوان الشغب وضروبه .

۲ ـ الحرية السياسية :

إن الحرية السياسية جزء أساسي من الحرية الانسانية ، وقد عرفها (جون برجس) بقوله :

« الحرية السياسية أن يكون المرء عضواً فعالا في الهيئة ذات السيادة ، وفي الهيئة الداخلية بحيث تكون الفرصة متاحة له لأن تكون إرادته مسموعة ، وأن يكون له أثر على سن القوانين ورسم سياسة للحكومة ، وذلك باستعمال حقوقه في حرية الكلام وحرية اقتراح القوانين » .

إن الاسلام منح الحرية السياسية للفرد ، وألزم الدولة بتهيأة جميع وسائلها للمواطنين ، ولكن الحرية في سن القوانين ، ورسم سياسة للدولة ـ كما يراها (جون برجس) لا يتفق ذلك في ظل الحكومة الاسلامية الملزمة بأن تسير على ضوء الشريعة الاسلامية . وليس لاحد حق التدخل في سن القوانين وتشريعها فان الاسلام قد وضع جميع المناهج الحية للدولة ، وأغناها عن سن القوانين واستيرادها . وعلى أي حال فان الحرية السياسية يتفرع عليها ما يلي :

(أ) حرية الاجتماع :

جاء في إعلان حقوق الانسان الدولي عن حرية الاجتماع ما نصه :

الفقرة (۱) من المادة الحادية والعشرين : « ان لكل انسان الحق في حرية الاجتماع وتكوين الجمعيات السليمة » .

إن حرية الاجتماع أمر سائغ في الشريعة الاسلامية ، فقد ندبت الى الاجتماع وحثت عليه وأمرت به في جميع المجالات ، ولكن يشترط فيه أن لا يكون مخلا بالآداب الاسلامية ولا منافياً للمصالح العامة أو يكون منطلقاً الى الشهوات ، فان الاسلام لا يسمح بذاك ولا يسيغه وذلك لما فيه من الاضرار البالغة على المجتمع .

(ب) - تأليف الجمعيات

لا مانع في الاسلام من عقد الجمعيات وتأسيسها ، فيما اذا كانت جمعيات تعاونية أو خيرية ، أو تطالب بالمصلحة العامة للبلاد ، فان ذلك من أهم الاهداف الأصيلة التي ينشدها الاسلام ، أما إذا كانت تلك المؤسسات تتنافى مقرراتها ومبادؤها مع الشريعة الاسلامية : كالمؤسسات الشيوعية التي تبث الأفكار الالحادية بين صفوف المجتمع ، فان الاسلام لا يسيغها ويهيب بالمسلمين الى الاجهاز عليها وإزالة آثارها من البلاد .

٣ - الحرية المدنية .

إن الحرية المدنية هي إعطاء الفرد الحرية التامة في مجال العمل والسكنى التي تتفق مع ميوله ورغباته ، ونشير الى ما يتفرع عليها وهي :

أ - الحرية الشخصية :

ونعني بها حرية الفرد في اختيار العمل الذى يريده لكسب معيشته ، فله ان يمارس الزراعة والتجارة وسائر الحرف والمهن : مالم يكن ذلك العمل محرماً في الاسلام ، كصنع آلات اللهو والدخول في معامل الخمر وغير ذلك من المحرمات

فقد نهى عن مزاولتها .

كما أن له الحرية في اختيار من يشاء من النساء لتكون زوجة له على أن لا تكون المحرمات ، كالأخت والأم والبنت وما ماثل ذلك من المحرمات المنصوص عليها .

كما أن له الحرية التامة في اختيار العلم الذي يريد التخصص به ، ولا يحق لأحد التدخل في أموره وقسره على شيء من هذه الاشياء .

(ب) - حرية المسكن :

إن الانسان حر في اختيار البلد الذي يقيم فيه ، والمسكن الذي يريد أن يسكن فيه ما لم يكن ذلك البيت مغصوباً فانه يمنع من سكناه .

إن له الحرية في سكنى وطنه والنزوح عنه الى جهة أخرى ، وليس لأحد أن يرغمه على الاقامة في بلد خاص .

٤ - الحرية الاقتصادية :

إن الحرية الاقتصادية : هي إباحة تصرف الفرد في ملكه حيثما شاء ، فله أن يمارس أي لون من ألوان التجارة والصناعة التي تزيد في اتساع ثروته ، وعلى الدولة أن تقوم بحمايتها لتزدهر البلاد وتتقدم صناعتها وتجارتها ، وقد حدد الاسلام الحرية الاقتصادية ، وفرض عليها بعض القيود لأجل المصلحة العامة ، وذلك كمنعه من الربا والاحتكار والاستغلال والغش وغير ذلك من الامور التي توجب الضرر العام على المواطنين . ويتفرع على هذه الحرية :

١ - الملكية الفردية :

ونعني بها حرية الشخص في استغلال ملكه والتصرف فيه حيث ما شاء ،

وقد حدد الاسلام حرية التملك ، كما ذكرناه .

هذه بعض ألوان الحرية التي منحها الاسلام للانسان ، وقد سبق أوربا في تأسيسها وإعلانها .

يقول الاستاذ (عبد القادر عودة) : « لقد سبقت الشريعة الاسلامية القوانين الوضعيه في تقرير نظرية الحرية بأحد عشر قرناً لأن القوانين الوضعية لم تبدأ بتقرير هذه النظربة إلا في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، أما قبل ذلك فلم تكن هذه القوانين تعترف بالحرية بل كانت أقسى العقوبات تخصص للمفكرين ودعاة الاصلاح ، ولمن يعتقد عقيدة تخالف العقيدة التي يعتنقها أولوا الأمر .

هذا هو الواقع وهذه حقائق التاريخ ، فمن شاء بعد ذلك أن يعرف كيف نشأت الاكذوبة الكبرى التي تقول : إن الاوربيين هم أول من دعا للحرية ، فليعلم أنها نشأت من الجهل بالشريعة الاسلامية . وقد يعذر الاوربيون عن هذا الجهل ، أما نحن فلن نجد لأنفسنا عذراً » ـ ١ ـ .

(وغفر الله للشيخ الآصفي) حيث فاته الصواب وخانته ذاكرته ، في كتابه (حقيقة الحرية) ذهب الى أن (روسو الفرنسي) هو الذي غرس بذرتها واثبت جذرها ، ومن كشف الحقيقة علم أن الحرية هي أول ركيزة للاسلام ، وأن محمداً ﷺ أول من أيقظ الناس على مفاهيمها الصحيحة ، وبوحيها فصل واجمل وأمر ونهى ، وسالم وحارب ، وعزل وأثبت ، وبها خالط الناس وعاملهم . فما ذكره (الشيخ الآصفي) بعيد عن الواقع ، ولعله كتب ماسنح له الخاطر قبل الرجوع إلى بعض النصوص .

ـ ١ ـ النظام السياسي في الاسلام .

حق
المولى الجارية نعمته

قوله عليه السلام :

« وأما حق مولاك الجارية عليك نعمته ، فأن تعلم أن الله جعلك حامية عليه وواقية وناصراً ومعقلا ، وجعله لك وسيلة وسبباً بينك وبينه فبالحري أن يحجبك عن النار فيكون فى ذلك ثواب منه في الآجل ، ويحكم لك بميراثه في العاجل إذا لم يكن له رحم ، مكافأة لما أنفقته من مالك عليه وقمت به من حقه بعد إنفاق مالك ، فان لم تقم بحقه خيف عليك أن لا يطيب لك ميراثه . ولا قوة إلا بالله »

* * *

التمس الامام ﷺ في فصوله هذه الحكميات ، التماس الحكيم العارف ، والنطاسي البارع ، المشخص للداء والعارف للدواء . لم تتصف حكمياته بالصفة المثالية المجردة ، أو بالتجرد الصوفي البعيد عن واقع الحياة ، بل جسد المعرفة لخير الانسان في دنياه قبل آخرته وفي مجال واقعه قبل مجال مثله ، وجعل الانسان محمولا على خيره وشره . والناس سواسية . ـ وبذلك يرتضون حياتهم لأنهم سيحملون نفس الشعور بأفراحهم وأحزانهم ، بآلامهم وراحتهم ـ ولكل قلب حرى ـ ومن يريد الحسن من غيره فعليه أن يعامل بها .

وحسب علمنا أنه لا يوجد ميزان واقعي يثبت على مدى وجود الانسان في معاييره الخلقية والاجتماعية كميزان النفس ، وهذا ما أوصى به أمير المؤمنين علي (عليه السلام) ابنه الحسن « يابني اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين الناس فاحبب لغيرك ما تحب لنفسك . واكره له ما تكره لها ، ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم ، وأحسن كما تحب أن يحسن اليك ، واستقبح من نفسك ما تستقبح

من غيرك ، وارض من الناس بما ترضى لهم من نفسك » .

أي منزع ينزع بنا ، وأي محمل يحملنا العالم عليه إذا فرطنا بهذه المعالم الانسانية الخالدة وبهذه الحكمة البالغة وبهذا السمو الروحي الرفيع .

أي باحث اجتماعي نحا نحوه فادرك سيره ؟ وأي مصلح قد أدرك علمه وبلغ شأوه ؟ وأي حكيم انساني وصل إنسانيته وعطفه ؟

* * *

إن مثل الخدم والقوام من الانسان مثل الجوارح من الجسد . وكما أن قوماً قالوا : حاجب الرجل وجهه ، وكاتبه قلمه ، ورسوله لسانه ، كذلك نقول : إن خادم المرء يده وساعده ، لأن من كفاك التعاطي بيدك فقد قام عندك مقامها ، ومن كفاك السعي بقدمك فقد ناب عنك منابها ، ومن حفظ لك ما تحفظه عينك فقد كفاك كفايتها ، فغناء الخدم عن الانسان كثير ، ونفع القوام إياه جزيل ، ولولاهم لأرتج دون الناس باب من الراحة كبير ، ولا نسدعنهم طريق من النعمة فسيح ، ولا ضطروا الى مواصلة القيام والقعود والى مواترة الاقبال والادبار ، وفي ذلك اتعاب الجسد وهو يعد من امارات الخفة ودلائل النزق وسبل المهانة والضعة ، وفيه سقوط الهيبة وذهاب الرزانة ، وطرح السمت والوقار .

فالجدير بالمرء أن يحمد الله عز وجل على ما سخر له منهم وما كفاه ، وأن يحوطهم ويتفقدهم ولا يهملهم ويرفق بهم ، فانهم بشر يمسهم من الكلال واللغوب ومن السآمة والفتور مايمس البشر ، وتدعوهم دواعي حاجاتهم وإرادات أجسامهم الى ما في طباع البشر إرادته والحاجة اليه .

وكما جعل الله السيد قيماً على مولاه يقوم على تدبير أموره وشؤونه ، ويشرف على تصريفها ، وجعله حامياً وواقياً وناصراً ودافعاً عنه ، كذلك

جعل المولى وسيلة وسبباً بين السيد وربه ، لأن السيد حين يعتق مولاه ينال بذلك رضا الله . فبالحري أن يكون هذا المولى سبباً لخلاص السيد من النار وفكاك رقبته منها ، ويمكنه أن يحكم للسيد بميراثه ان لم يجد من يرثه بعد مماته كل ذلك مكافاة لما لاقاه من بذل ونصح وقيام بالحق .

فيجب على السيد أن يقوم بما للمولى من حق ، وإلا يخاف أن لا يطيب للسيد ميراث مولاه فتحل عليه النقمة .

هذا ما توصل اليه الذهن من كشف فقرات الامام النيرة .

وطريق اتخاذ الخدم ألا يتخذ الانسان خادماً إلا بعد المعرفة والاختيار له ، فان لم يستطع ذلك فينبغي أن يعمل فيه التقدير والفراسة والحدس والتوسم وأن ينظر لأي أمر يصلح الخادم الذي يتخذه وأي صناعـــة ينتحل ، وما الذي يظهر رجحانه من الأعمال فليسنده اليه وليستكفه إياه ، ولا ينقله من عمل الى عمل ، فان لكل إنسان باباً من المعارف وفناً من الصناعات قد سمح له به طبعه وأفادته إياه غريزته ، فصار لديه كالسجية التي لاحيلة في تركها والضريبةالتي لا سبيل الى مفارقتها ، فمتى نقل المرء الخادم مما قد أحسنه وأتقنه الى ما يختاره له برأيه وينتخبه له بارادته ، مما ينافي طبعه ويضاد جوهره ، فسد عليه نظام خدمته وأضله عن طرق مهنته ، فعاد كالمبتدىء ، ثم لا يفيده مما نقله اليه إلا بنسيان أبواب مما نقله عنه ، ومتى رجع به الى الأمر الأول وجده فيه أسوأ حالا منه فيما نقله اليه .

ولا ينبغي أن يكون نكير الانسان على الخادم إذا أراد الانكار عليه صرفه عنه ، فان ذلك من دلائل ضيق الصدر وقلة الصبر ، لأنه إذا صرفه احتاج الى غيره بدلا منه وخلفاً عنه ، وغيره مثله أو قريب منه . وإذا استمرت به هذه العادة أوشك أن يبقى بلا خادم ، بل ينبغي له أن يقرر في قلوب خدمه

أن أحداً منهم لا يجد الى مفارقة منزله والخروج عن داره وكنفه سبيلا ، فان ذلك أتم للمروءة وأدل على الوقار والكرم .

ثم إن الخادم لا يناصح ولا يشفق ولا يحامي ما لم يتحقق عنده ويصح لديه أنه شريك صاحبه في نعمته ، حتى يأمن العزل ولا يحذر الصرف ، ومتى ظن أن أساس حرمته غير واطدة ووشائج ذمامه غير راسخة عند الذنب ، كان مقامه على صاحبه كعابر سبيل ، فلا يعنى بما عناه ، ولا يهتم بما عراه ، ولم يكن همه إلا ذخيرة يعدها ليوم جفوة صاحبه ، ومتاعاً يرجع اليه عند نبوته وازورار جانبه .

وليكن عند المخدوم لخدمه دون صرفهم وإخراجهم منازل من الاستصلاح والتقويم ، فمن استقام له بالتأديب عوجه واعتدل أوده فليشد عليه يداً ، ويوسعه عند الزلة عفواً ، ومن راجع الذنب بعد التوبة ونقض العهد بعد الانابة فليذقه طرفاً من العقوبة ، وليمسه بعض السطوة ، ولا ييئس من رشده ما لم تنحل عقدة حياته ، ومن عصاه معصية صلعاء أو جنى جناية شنعاء لا بقياً مهاولا في شرط السياسة اغتفارها ، فالرأي المخدوم البدار الى الخلاص ، وإلا أفسد عليه سائر الخدم .

وصفوة القول : إن الخدم هم المساعدون على الأعمال والمذللون طرقها والمعاونون على إنجازها . والوسيلة الى إخلاصهم في الخدمة وتأديتها على أكمل وجه ، معاملة مخدومهم إياهم بما يكفل لهم الخير ، وهذه المعاملة تتلخص فيما يأتي :

(١) تعيين العمل المكلفين بالخدمة القيام به بشرط أن يكون في طاقتهم .

(٢) إرشادهم الى طريقة العمل المرضية ومراقبتهم حتى التنفيذ .

(٣) شكرهم عند الاحسان وتعنيفهم عند التقصير .

(٤) معاملتهم بالرفق واللين والعدل والاحسان .

(٥) نقدهم الأجر كاملا في زمنه المحدود ، وإعطاؤهم من حين الى آخر ما تيسر زائداً على راتبهم ، تشجيعاً لهم على الاخلاص في العمل .

(٦) مواساتهم في الشدة وعيادتهم عند المرض ، ودعاء الطبيب لهم إذا ساءت حالتهم .

(٧) أن يكون المخدوم خير مثال يحتذيه الخادم في القول والعمل .

(٨) عدم اطلاعهم على الاسرار .

(٩) المحافظة على جمل الاموال والجواهر في حرز حريز ومكان مكين حتى لا يسهل عليهم اختلاسها .

(١٠ وأن يرشدهم لمواقع الصواب وأصول واجباته وما ينبغي أن يتصف به ، وأن يربيهم باللطف والحزم ولا يهينهم ببذيء الكلام وجافي اللفظ مما يجرح قلبهم ويذل نفوسهم ، إذ ليس للسيد أن يتسلط على خادمه بذلك لا شرعاً ولا عرفاً .

(١١) أن يسمح للخادم بساعة في النهار يتروح فيها ويتمتع بشؤنه ، وأن يجري عليه مرتباً يكفه عن التشوف لما قد يسرقه ويختلسه ، فان ماينقصه السيد من مرتبه ربما اختلس من ماله ، وأن يزيد في راتبه كلما رآه يزيد في صدق الخدمة وحسن المعاملة .

وقد كان آخر ما أوصى به رسول الله ﷺ أن قال في شأن الخدم :

« اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم : أطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون ، فما أحببتم فأمسكوا وما كرهتم فبيعوا ، ولا تعذبوا خلق الله ، فان الله ملككم إياهم ولو شاء لملكهم إياكم » .

وقال ﷺ : « للمملوك طعامه وشرابه وكسوته بالمعروف ، ولا يكلف من العمل

مالا يطيق » . وقال : « لا يدخل الجنة خب ولا متكبر ولا خائن ولا سيء الملكة » .

وجاء اليه رجل فقال : يارسول الله كم نعفو عن الخادم فصمت عنه ﷺ ثم قال : اعف عنه كل يوم سبعين مرة » .

ورأى أبو هريرة رجلا على دابته وغلامه يسعى خلفه ، فقال له : ياعبد الله احمله خلفك فانما هو أخوك ، روحه مثل روحك ، فحمله ، ثم قال لا يزال العبد يزداد من الله بعداً ما مشي خلفه » .

وكان علي أمير المؤمنين عليه السلام أعطى غلامه دراهم ليشتري بها ثوبين متفاوتي القيمة ، فلما أحضرها أعطاه أرقاها نسيجاً وأغلاها قيمة ، وحفظ لنفسه الآخر ، وقال له : أنت أحق مني بأجودها ، لأنك شاب تميل نفسك للتجمل ، أما أنا فيكفيني هذا » .

ودخل رجل على سلمان الفارسي (رضوان الله عليه) فوجده يعجن ، فقال له : يا أبا عبد الله ما هذا ؟ فقال : بعثنا الخادم في شغل فكرهنا أن نجمع عليه عملين » .

ودعا الامام زين العابدين (عليه السلام) مملوكا له مرتين فلم يجبه وأجابه في الثالثة ، فقال له : يابني أما سمعت صوتي . قال بلى . قال : فما بالك لم تجبني ؟ قال : أمنتك . قال : الحمد لله الذى جعل مملوكى يأمنني . وكسرت جارية له قصعة فيها طعام فاصفر وجهها ، فقال لها : إذهبي فأنت حرة لوجه الله

وكان (عليه السلام) عنده ضيوف فاستعجل خادماً له بشواء كان في التنور فأقبل به الخادم مسرعاً فسقط السفود منه على رأس بني كان لعلي بن الحسين (عليه السلام) تحت الدرجة فأصاب رأسه فقتله ، فقال : للغلام وقد تحير واضطرب ، أنت حر فانك لم تتعمده ، وأخذ في جهاز ابنه ودفنه . وجعلت

جارية له تسكب عليه الماء ليتهيأ للصلاة ، فسقط الابريق من يدها عليه فشجه ، فرفع رأسه اليها فقالت له : والكاظمين الغيظ . قال : قد كظمت غيظي قالت : والعافين عن الناس . قال لها : عفا الله عنك . قالت : والله يحب المحسنين . قال : إذهبي فأنت حرة لوجه الله عزوجل .

وكان (عليه السلام) إذا دخل عليه شهر رمضان لايضرب عبداً لهولا أمة إذا صدر منهم ما ينافي الحقوق الواجبة عليهم ، ويكتب ذلك في طومار ، وفي آخر يوم من شهر رمضان يجمعهم ويقف في وسطهم ويقرء عليهم ما حوته الصحيفة من إسائتهم ، ويقول لكل واحد منهم يافلان أنك فعلت كذا في يوم كذا ، حتى يأتي على آخرهم ، فيعترفون به ، ثم يقول لهم ارفعوا أصواتكم وقولوا يا علي بن الحسين إن ربك سبحانه قد احصى عليك كلما عملت كما أحصيت علينا كلما عملنا ، ولديه كتاب ينطق بالحق لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وتجد كلما عملت لديه حاضراً كما وجدنا كلما لديك حاضراً ، فاعف واصفح كما ترجو العفو والصفح من المليك . فيقول لهم : إذهبوا فقد عفوت عنكم وأعتقت رقابكم رجاء للعفو عني وعتق رقبتي .

وما استخدم (ع) خادماً فوق الحول ، فاذا ملك العبد أول السنة أو في أثنائها أعتقه في آخر ليلة من شهر رمضان .

جاء عن المعرور بن سويد قال : « رأيت أباذر الغفاري (رضوان الله عليه) وعليه حلة ، وعلى غلامه حلة ، فسألته عن ذلك فقال إني سابيت رجلا فشكاني إلى النبي ﷺ فقال النبي (ص) أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية ثم قال : إن إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فان كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم » .

إن أباذر (رضوان الله عليه) وقع بينه وبين شخص سباب ومشاتمة ، وانه عايره بأمه وعابه بها وقال له : يا ابن الأعجمية أو يا ابن السوداء ، أو ماشاكل ذلك من الكلمات فشكاه الى النبي (ص) فقال له الرسول : أعيرته بأمه ؟ منكراً عليه ذلك ، إذ الأم لا دخل لها في الخصام ، « ولا تزروا وازرة وزر أخرى » وقال له إنك امرؤ فيك جاهلية ـ أي خصلة من خصالها التي قضى عليها الاسلام أن تعتدي في الخصام . ثم أوصاه هذه الوصية القيمة التي رفعت من شأن الخدم الى درجة المخدومين والسادة .

فبين الرسول (ص) أن الخدم والمماليك إخوان في الدين أو في الانسانية

وكان الظاهر أن يقول : خولكم إخوانكم ، ولكن قدم ما أصله التأخير إهتماماً بالأخوة ، وأنه لا ينبغي أن تنسيها الخدمة ، وهل الخدمة إلا إعانة ، فكيف تجعلها سبب تحقير وإهانة ، إن الاخوة وحدها داعية التبجيل والاكرام فكيف إذا انضمت اليها الخدمة والمعونة والمساعدة ، كنت تحسب أنك تطعم الخادم وتسقيه وتكسوه وتؤوبه أو تنقده أجراً على خدمته . فلا تنس أنه يقوم لك بأمور أنت مضطر اليها في حياتك ، وكثيراً ما تعجز عن معالجتها ، والقيام بها ، فهو يكمل نقصك ويوفر عليك وقتك ، ويحقق غرضك ، وتصور الوقت الذى تفقد فيه الخادم كيف تعتل أمورك ، ويقف دولابك ، ويختل النظام وتتعسر الحاجات .

فالذي يكفيك شؤنك ويحقق مصالحك جدير بمعونتك ، خليق برعايتك فهؤلاء الخدم الاخوان جعلهم الله تحت يدك ، ومكنك منهم بالملك أو الاجر ، وصاروا مسخرين لك طواعية واختيار ، فالواجب عليك العناية بهم والاحسان اليهم ، « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى ... وما ملكت أيمانكم ، فتطعمهم من جنس ما تطعم ، فلا تعد لهم طعاماً دون

طعامك ولا عيشاً دون عيشك ، وكيف تستمرىء طعاماً يطهوه الخادم ويمده وعينه اليه ناظرة ويده فيه عاملة ، فتأكله كله ولا تبقي له بعضه ، أما تخشى سم عينيه ؟ فان كان طبخك لحماً وأرزاً وخضارة وحلوى فأبق له من كل ولا تحرمه من بعض ، وخل عنك الكبر والتعاظم ، فلولا هذا ما طعمت الشهي ولا شربت الهني ، وكذلك تلبسهم مما تلبس ، وإن لم يكن مثله من كل الوجوه فان المدار على المواساة . وفى الحديث « إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه ، فان لم يجلسه معه فليناوله لقمة أو لقمتين ، أو أكلة أو أكلتين فانه ولي علاجه »

وبالتالي أن تكون نفوسهم قانعة وبحالهم راضية . وقد نهانا الرسول ﷺ أن نكلفهم من الاعمال ما يشق عليهم ، ويهد من قوتهم أو يستفرغ جهدهم ، بل التكليف بالسهل المستطاع الذي لا يسأمه الخادم ، فان كلفناهم بالشاق وجب علينا أن نعينهم بنفوسنا أو بخدم الى خدمنا . والحديث نصر للعمال وأخذ بيد الخادم والغلمان ، ورفع لمستواهم وتنبيه لهم الى حقوقهم قبل ساداتهم ، وإرشاد لارباب البيوت أن يقفوا منهم موقف العدالة ، ولا يتناسوا رابطة الاخوة ولا تبادل المنافع . وفيه النهي عن السباب للخدم وعدم التعرض لآبائهم وأمهاتهم بما يسوؤهم أو يحط من قدرهم .

* * *

« إذا كفى الخادم أحدكم طعامه فليجلسه ليأكل معه » .

« من هذا الذي يقتدي بمحمد في آدابه من أمة محمد ؟؟ من هو هذا الذي يسمع قول محمد فيستجيب له ؟؟ إن أحدنا وهو العارف بمحمد والقاصر في طعامه وشرابه على طعام وشراب الطبقة الوسطى أو دونها .

أقول إن أحدنا كهذا ، ولعله يصدق على مثلي أنا هذا المتبجح المدعي

بأنه من حملة رسالة محمد والداعين الى سبيل محمد ، أنا هذا المالىء شدقيه بالتنطع والتفيهق حاملا على كتفيه وناشراً بين عينيه دعوة محمد الى رب محمد ، هل أمتثل لقول محمد ، فأجلس معي خادمي الى جنبي حين أجلس الى مائدتي ليأكل معي وهو الذي عرق جبينه في إعداد طعامي ؟؟؟

قد أغتنم فرصة خلو المنزل من أهلي ، ويحين وقت الطعام فأجلس ومعي خادمي الى المائدة نأكل معاً ونتندر ونتساير ، ولكني أقطع الوقت عيناً الى المائدة واخرى الى الباب خوفاً من مفاجأة أهلي وأنا على تلك الحالة ، فلقد منيت بأهل لم يخلق الله مثلهم جبابرة في معاملة الخدم ، إنهم يعتقدون أن الخادم لا يستقيم على عمله إلا والصفعة في قفاه وأنا أعتقد على النقيض منهم ، إني أعتقد أن الحيوان فضلا عن الانسان ، لا يخضع قلبه إلا الى الاحسان ، ولطالما أكبرت قول الشاعر :

أحسن الى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الانسان إحسان

قلت لمن يجادلني في هـذا : لقد رأيت بعيني أهل بيت نبيل في شمال أمريكا وأنا على مائدته ، رأيت بعيني عبدة سوداء تأكل معنا وهي على قسط وافر من الحشمة وإناقة البزة ، وعرفت أنها الطاهية ، فقال هذا المجادل : رغم أني أحترم الحديث الشريف لا أرى نفسي مرتاحة الى مواكلة الخادم سيداً كان أو امرأة ، كيف أطيق ان أرى خادمي القذر الجاهل الى جانبي وبين أهلي يواكلنا على مثل تلك الحال ؟؟ وقلت إذا كان الخادم قذراً كان المطبخ قذراً وإذا كان المطبخ كذلك فأنت أقذر منهما ، وكيف تأكل طعاماً يطبخه لك قذر أو قذرة ؟؟

إن المطبخ عنوان صحة الاسرة في المنزل ، والطباخ هو عنوان هذا العنوان .

نقلت لي من هي أخص الناس بي ، وتكاد تكون من الطراز الأول في الجبروت على الخدم ، نقلت لي : أنها كانت ترى في بيت جارنا خادمة تبلغ السبعين وهي دائبة العمل ليل نهار ، والبؤس يكاد يغمر نواحيها جميعاً ، رأيتها ليلة ما تصيح وتستغيث تحت ضرب العصا المفجع من سيدها حتى كادت هذه التي نقلت لي أن تسقط على الأرض من هول ما ترى ، قالت : فما لبثت أن قمت وصليت لله ثم دعوت على هذا الرجل فلقي أجله بعد أيام ، فقلت لها : إن ذلك غير بعيد على الله ، ورسوله يقول « اتقوا دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب » وفي الاخبار الصحيحة أن الظلم ينقص من العمر .

ولقد رأيت في بيت صديق لي أحد أبنائه يمسك خادماً في مطلع شبابه على غاية من التهذيب والنصح لسيده ، وكنت أغبط صديقي عليه ، وكان هو نفسه يطريه أمامي ، ورأيت ولده الكبير يمسك بتلابيب هذا الخادم وينهال صفعاً على رأسه بالحذاء ، والخادم ينظر الي بطرف منكسر ، ويكاد الدمع يطفر من عين ابنتي التي كانت الى جانبي ترى ما أرى وتألم كما آلم ، وقد نقلنا ذلك لوالده فلم يأبه لما نأبه له ، وإنما لحظنا أنه لا ينكر شيئاً من أعمال ولده ، ولعله ينشطه على ذلك .

ونقلت لنا صديقة زوجة صديق طبيب يدعى محمد حياتي ، وكنا في زيارته ، نقلت لنا أن في جوارهم رجلا مصرياً يدعي النبل قد استخدم فتاة واستدرجها للصبر على أجرها سنة حتى أصبحت تدينه بعشرين جنيهاً ، فتمسك إذ ذاك بسد أذنيه عن طلبها بغية بقائها مكرهة عنده . فاضطرت حينذاك الى تركه وترك أجرها .

وهكذا ينقل أن أكثر هذه الطبقة التي يطلقون عليها لقب النبلاء ، والطبقة التي تليها ألعن منها ، يعاملون الخدم معاملة الكلاب ، حتى أن النبيل

يوسف كمال كان يقيم المأدبة لمائة أو أكثر من أمثاله ثم يؤتى بعدهم بالكلاب لتأكل ، ثم يأمر الخدم بأن يكفئوا بقية الطعام على عروق الشجر ويبقى الخدم بدون أكل ، قال لي أحد ضيوفه من الشام : لقد قلت للرجل ما لهؤلاء الخدم لا يأكلون من طعامنا ؟؟ فاجابني منكراً علي ذلك وهو يقول : لا لا إن طعام هؤلاء الفول فقط فاذا أعتادوا على أطايب الطعام تنكروا لنا . فليسمع من كانت له أذنان .

الحق إن كثيراً من الخدم يأنف سيدهم من الأكل معهم ، ولكن الأنفة هذه ليست ناشئة عن قذارة الخادم أو شراهته أو شذوذه . وإنما هي ناشئة عن سوء تصرفنا في تربية الخدم. وتنشئتهم على النظافة والاناقة واستخدام الأواني وآلات الأطعمة استخداماً مدنياً ، ثم إجادة المؤاكلة لنا ، وكل ذلك ناشيء عن احتقارنا للخدم واعتبارنا إياهم من رذال الخلق وسفلة الناس حتى شعروا بانهم كذلك فأساءوا تصرفهم معنا وامتهنوا الخيانة في خدمتنا ، فاصبحت السرقة ديدنهم وأصبح كثير من الجرائم يحدث في البيوت العريقة بين الخدم والسادة ، وأصبحت الصحف مجالا واسعاً لعرض تلك الجرائم .

لم لا يكون الخادم واحداً من أهل البيت إذا طالت أيامه فيهم واستمر نصحه لهم ؟؟ إن ابن مسعود وهو خادم الرسول (ص) كان معنياً بالرسول ، وكان الرسول معنياً به حتى عده خلصاؤه من جملة أصحابه الآخذين عنه والقائلين بلسانه ، ولقد كان رفيقه وصديقه اكثر من أن يكون خادماً له ، وكان ابن مسعود هذا يقول والله ما سألني لماذا فعلت وهلا تركت كذا و كذا ؟؟؟ وكان (صلوات الله عليه) يشاطر خادمه الركوب إذا سافر معه ، وهكذا ورث أصحابه الابرار عنه تلك الصفات الشريفة ، أما الآن ، ويا لله من الآن وبعد الآن ماذا جرى ويجري من السادة على العبيد ، وما يجري من الأغنياء مع الفقراء .

ثم ماذا يجري وسيجري من الأقوياء على الضعفاء ؟؟؟

إن أهل بيت الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم في كتابه المنير ، والذين جعلهم قريناً للقرآن في هداية البشر حيث قال الرسول : « إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله وعترتي أهل بيتي » هؤلاء العترة الذين لا يزال ذكرهم حتى الآن مقروناً بذكر الرسول وذكر الرسول مقروناً بذكر الله ، وهذا الذكر من مقومات الصلاة التي هي الدعامة الأولى في تقويم الدين إذ جاء في الشهادتين قول المصلي : (أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ألهم صل على محمد وآل محمد ..) فالصلاة لا تستقيم إلا بذكر أهل البيت المعبر عنهم بالعترة حيناً وبآل الرسول وأهل البيت حيناً آخر

أقول : إن هؤلاء العترة الذين هم أهل البيت ، جعل الرسول منهم سلمان الفارسي إذ قال : « سلمان منا أهل البيت » . وسلمان لو جردناه عن الاسلام لما زاد عن كونه رجلا مهاجراً فقيراً مشرداً منبوذاً ، فهل يكون من هذا شأنه أكرم على الرسول من خادمه ؟؟ إنه لكذلك ، ومع هذا عند ما صح إسلامه وعندما فقه ذلك الاسلام فقهاً صحيحاً لم يأنف الرسول ﷺ من وراء عروبته التي شمخت بغيره عن كل أعجمي ، ومن وراء رسالته العظمى التي أناف بها على كل مسلم إنسان ، لم يأنف أن يجعل سلمان واحداً من نفرهم أكرم الخلق على الله وأكرم الناس على الناس .

سلمان منا أهل البيت ، قالها الرسول صفعاً للعصبية الجاهلية ، لم يأنف ﷺ أن يجعل من الأعجمي المشرد الفقير المغمور المجهول ، واحداً يتصل بأهله الأدنين ويدخل في عداد عترته التي هي ثقل الله في الارض ، وصفوته من خلقه ، فهل فعل هذا محمد تعزيزاً لسلمان وتنويهاً به ؟؟ وهل كان سلمان أكرم على محمد من أبي ذر وعمار ؟؟ كلا ... إنهم جميعاً كانوا درعه ومغفره ، كانوا حتى بعد نزول قوله تعالى . (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) يرون أنهم من

جوهر ، وأصحاب محمد هؤلاء من حصباء .

بدأ الأمويون بعد الخلفاء الراشدين ، بدأوا يغذون تلك العصبية في النفوس المريضة ونفوس العرب كانت حافلة بأمراض العنعنات والجبروت ، لم يغذوا هذه النعرة حباً بالعروبة ولكن كرهاً بمحمد وتحدياً لدينه الذي سوى بين الناس وجعل كرامتهم على الله التقوى ، فعمدوا إذ ذاك الى تشويه الرسالة العليا التي نزلت على محمد لتساوي بين خلقه وتجعل المثل الاعلى فى الحياة رفق القوي بالضعيف والعالم بالجاهل والغني بالفقير ، فنبذوا كل ذلك وجعلوا عنوان رسالتهم العروبة قبل كل شيء ، وحصروا الخلافة في أعقابهم وجعلوها ملكاً عضوضاً ، ثم عملوا على استعباد الشعوب الضعيفة حتى خلفهم العباسيون ثم الأتراك ثم الغربيون حتى يومنا هذا ، فخلقوا بذلك الشيوعية التي ستقضي على العالم

وهكذا نجد حتى يومنا هذا ، وهو اليوم المشرق بالعلوم والفنون ، وحتى في أمريكا وهي أرقى أمم الارض .

أقول : نجد حتى يومنا هذا في أمريكا يستعبد الابيض الأسود ، ويسترق الغني الفقير ، ويتعالى القوي على الضعيف ، مهما سمت بالأسود إنسانيته على الابيض ومهما تعالت بالفقير أخلاقه على الغني ، ومهما نبل الضعيف بأصالته على القوي .

أقول : هكذا نرى فعل الامويين بعد الخلفاء الراشدين الذين سادوا بين الناس خلال بضعة عشر عاماً والرسول بينهم يقول : « الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على عجمي ولا لابيض على أسود إلا بالتقوى » .

هذا الدستور العظيم الذي سنه محمد (ص) بوحي من ربه لا يفرق بين أحد من خلقه ، هو الذي ينطق محمد باسمه في قوله : « إذا كفى الخادم أحدكم طعامه فليجلسه ليأكل معه » جاء من بعده الامويون يميزون الكافر على المؤمن والمشرك على الموحد باسم العنصرية والانانية والجبروت » . ـ ١ ـ

ـ ١ ـ دين وتمدين .

حق ذي المعروف

قوله (عليه السلام):

«وأما حق ذي المعروف عليك، فأن تشكره وتذكر معروفه وتنشر له المقالة الحسنة، وتخلص له الدعاء فيما بينك وبين الله سبحانه فانك إذا فعلت ذلك كنت قد شكرته سراً وعلانية. ثم إن أمكن مكافأته يوماً كافأته، وإلا كنت مرصداً له موطناً نفسك عليها».

* * *

ينسب كثير من المؤرخين أن الفلسفة في الاسلام وليدة الترجمة في عصور لاحقة لمستهل الثورة الاسلامية، وذلك مما أوثر عن الاغريق والرومان، وما نقل عن الهند وفارس. وكأن التأمل والادراك، والنظر والاستنباط بمعزل عن الرسالة المحمدية العلوية وعن العرب والاسلام.

وكأن الحكمة أن تركن الى دير منعزل، أو تقبع في صومعة بعيدة تستطلع الغيب وتستوحي القدر، ثم تحبك النظريات الفلسفية بما يوحيه الخاطر بعيداً عن واقع الحياة، كما هي نظرية المثل عند افلاطون أو إقرار سقراط بالظلم عملياً ودفعه نظرياً عند ما تقبل الحكم عليه بالموت ونفذه بنفسه، وكان له طريق للفرار وله أن يكافح في سبيل مثله الانسانية في أي مكان يرتئيه وفي أي مجتمع يتقبله

أفاض الفلاسفة فيما أفاء الله من الحكمة وسداد الرأي الى تنظيم المجتمعات والاخذ بها الى حيث الحق والخير بحكم صالحة تتمثل فيها العدالة الاجتماعية والرعاية المتبادلة. ومن أبرز من أعاروا المجتمع نظرتهم، الفلاسفة من الاسلام والذين تمخض عنهم عصر ما بعد الفتوح وان أول من اشتهر من المسلمين بالفلسفة

يعقوب الكندي وتبعه الفارابي وكانا من رواد الافلاطونية الحديثة ثم جاء اخوان الصفا وكانوا يعملون على تخليص الشريعة مما دنسها من جهالات وبدع . وأضراب هؤلاء لكثير .

وقد اختار الفارابي في كتابه (آراء أهل المدينة الفاضلة) الملكية الدينية المنبثقة من أقوال الشيعة ، وجمع بينها وبين آراء افلاطون في الجمهورية

وكلما أوثر عن سقراط عن طريق تلميذيه (زينوف في ذكرى سقراط) و (افلاطون في المحاورات) وغيرها من النظم الاجتماعية ، ليقصر عما أوثر عن الامام السجاد (عليه السلام) في رسالته هذه الذهبية وفي صحيفته المنعوتة (بزبور آل محمد) بل لا مجال للمقارنة .

استطاع (عليه السلام) بذكائه الخارق ، وببصيرته الفذة ، وبمقدرته الفائقة على الادراك واستنباط الاسس أن يجتهد في وضع مناهج صالحة لكل ظرف وزمان ، تتمشى مع الشريعة بدون انفصال .

ولو أردنا استقراء ما وضعه في الاجتماع والاخلاق والتربية لرأيناه يتمشى وأحدث الدساتير العالمية ، إذا لم يبز الكثير منها نصاً وروحاً ، لما يمتاز به من بعد في النظر وصدق في العدل .

كان يجسم ذلك ككيان مجتمع الاطراف ، معقود الحواشي ، حيث الانسان الصالح للتطبيق الصالح وحيث الفرد الصالح في المجتمع الصالح

وكل جانب من رسالته الخالدة تستوحي منه الحياة بأجمل صورها ، وها نحن نمر على لمحة وصورة من ذلك .

قوله (عليه السلام) : « وأما حق ذي المعروف عليك ، فأن تشكره وتذكر معروفه وتنشر له المقالة الحسنة .. »

المعروف إسم جامع لكل فعل يعرف حسنه بالعقل والشرع

المعروف إسم جامع لما عرف من طاعة الله سبحانه والاحسان الى الناس في الواجب والمندوب .

المعرف ضد المنكر في معناه ومصداقه . والتباين بين المنكر والمعروف بنحو السلب الكلي من الطرفين ، فلا شيء من المنكر بمعروف ، ولا شيء من المعروف بمنكر .

المعروف صفة شريفة معروفة ، والمنكر صفة رديئة منكرة .

يختص المعروف بالأفعال الواجبة والمندوبة شرعاً وعقلا ، ولا يدخل فعل المباحات شرعاً وعقلا في فعل المعروف ، لأنه خلو من الرجحان وما لا رجحان فيه لا خير فيه ، والمعروف كله خير ويختص المنكر بالمحرمات شرعاً وعقلا ، فكل ما منع الشرع والعقل من فعله ففعله منكر .

وأما ما منع عنه الشرع والعقل على نحو التنزيه عن فعله بدون إلزام بالمنع وهو المكروه . فلا ريب في خروجه عن دائرة المعروف ، وهو أشد خروجاً من المباح والمباح لايدخل في المنكر . وأما المكروه فربما كان بعض المكروهات من المنكرات إذا تكرر فعله وتفصيل ذلك في المباحث الفقهية .

يمتاز أهل المعروف بمعروفهم ، ولهم مكانة معروفة . وفي الحديث الشريف « من بذل معروفه آتاه الله جزاء معروفه » وفيه « أهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة » . ـ يعني كما أنهم يصنعون المعروف في الدنيا كذلك يصنعونه في الآخرة ، يهبون حسناتهم لمن شاؤا كما قال الامام الصادق عليه السلام : « يقال لهم : في الآخرة إن ذنوبكم قد غفرت لكم فهبوا حسناتكم لمن شئتم وادخلوا الجنة »

وفي حديث ابن عباس قال : « يأتي أهل المعروف يوم القيامة فيغفر لهم

لمعروفهم وتبقى حسناتهم تامة فيعطونها لمن زادت سيئاته على حسناته فيغفر له ، فيدخلون الجنة ، فيجتمع لهم الاحسان الى الناس في الدنيا والآخرة » .

وفي الحديث « ليس شيء أفضل من المعروف إلا ثوابه » . وفيه « ليس كل من يحب أن يصنع المعروف الى الناس يصنعه ، وليس كل من يرغب فيه يقدر عليه ، ولا كل من يقدر عليه يؤذن له فيه ، فاذا اجتمعت الرغبة والقدرة والاذن تمت السعادة للطالب والمطلوب اليه » .

وفي الحديث دلالة على أن الأعمال الخيرية تحتاج الى التوفيق من الله سبحانه بعد الرغبة والقدرة .

وقال ﷺ « أول من يدخل الجنة المعروف وأهله ، وأول من يرد علي الحوض » . وقوله ﷺ « إن البركة أسرع الى البيت الذي يمتاز فيه المعروف من الشفرة في سنام الجزور أو من السيل الى منتهاه » .

وجاء عن الامام الباقر (عليه السلام) : « إن من أحب عباد الله الى الله لمن حبب اليه المعروف وحبب اليه فعاله » . وقوله : إن من بقاء المسلمين وبقاء الاسلام أن تصير الأموال عند من يعرف فيها الحق ويصنع المعروف ، إن من فناء الاسلام وفناء المسلمين أن تصير الاموال في أيدي من لا يعرف فيها الحق ولا يصنع فيها المعروف » وقوله مخاطباً لزرارة : « ثلاثة إن تعلمهن المؤمن كانت زيادة في عمره ، وبقاء لنعمته عليه .

فقلت وما هن ؟ فقال : تطويله في ركوعه وسجوده في صلاته ، وتطويله لجلوسه على طعامه إذا أطعم على مائدته ، واصطناعه المعروف الى أهله » . وقوله « صنائع المعروف تدفع ميتة السوء وتقي مصارع الهوان » .

وهذا يدل على أن فعل الاحسان الى الناس والرفق بهم سبب للوقاية من موارد الذل والهوان .

وفي الحديث عن الامام الصادق (عليه السلام) قال : « قال أصحاب رسول الله ﷺ : يارسول الله فداك آباؤنا وأمهاتنا إن أصحاب المعروف في الدنيا عرفوا بمعروفهم فبم يعرفون في الآخرة ؟ فقال ﷺ : « إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة أمر ريحاً عبقة طيبة فلصقت بأهل المعروف فلا يمر أحد منهم بملأ من أهل الجنة إلا وجدوا ريحه فقالوا هذا من أهل المعروف » .

لذلك نرى الامام (زين العابدين (عليه السلام) أفرد لاهل المعروف عنواناً خاصاً ، وجعل لهم حقاً وكرامة ، فقال : « وأما حق ذي المعروف .. » فحقه هو الشكر والاعتراف بالجميل ، فالانسان الصحيح كما يقولون – ينسى عيوب الناس ويذكر عيوب نفسه ، وينسى إحسانه الى الناس ويذكر إحسان الناس اليه ، ليكون دائماً شاكراً معترفاً بالمعروف ، ذاكراً إياه ذكراً طيباً أمام الناس ومن المعروف الدعاء له وهو من باب الشكر . وليس من المستحسن أن تذكر له ذلك ، وإنما الخير أن تدعو له فيما بينك وبين ربك .

وأن تعينه على بعض أمره إذا اضطر الى معين ، وأن تشديدك الى يده إذا كان بحاجة الى ذلك ، وإن امكنتك المكافأة كافأته ، والمكافأة تكون من طرق شتى فاحدى هذه الطرق طريق العقل – أي يمكنك أن تكافأه بأن تبذل له النصح ، أو أن تعلمه شيئاً يستفيد منه ، وغير ذلك .

وذو المعروف الذي يشير اليه الامام هو كل من يسدي خيراً ومعروفاً الى أحد . ومن أجل أفراده هو الله سبحانه ، فهو أول المحسنين ، وهو أول ذوي الخير فيجب شكره عن طريق العبادة والاخلاص له ، وعن طريق ترك ما سواه والتوجه التام اليه ، فاذا كان ذلك فقد حصل الشكر ، وإلا فالمعروف الذي ليس يقابل بشكر يخاف عليه الزوال . والامام أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول : (إذا رأيتم أوائل النعم فلا تنفروا أقصاها بقلة الشكر) . فقلة الشكر

يبعد النعم ، وإن الشكر عليها مجلبة لها ومدعاة

المعروف :

حقيقته :

« المستفيض بين الناس أن كل واحد منهم لا يعتبر نفسه مديناً لك بالشكر إلا بمقدار ما أسديته اليه : فمنهم من يقدره بمقدار الخطر الذي أنقذته منه ، ومنهم من يقدر معروفك عنده بمقدار ما نقدته من المال : فلو أعطيته مائة درهم كان شكرانه لك على قدرها ، ولو أعطيته مائتين كان شكره على حسب العدد وهلم جرا .

فقيمة الجميل في زعمهم منوطة بالمادة ، ترتفع وتنخفض عندهم بارتفاع الأعداد وانخفاضها ، وذلك من الخطأ بمكان عظيم : ذلك بأن المطايا والهدايا والصلات والمساعي إنما هي علامات ظاهرة تدل على المعروف قلت أو كثرت ، وليست هي المعروف بذاته ، لأن المعروف لا يحس بالنظر ، ولا يمس باليد ، ولا يدخل في الكيس ، وإنما هو ما يدخل في القلب ، ولا يقدر قدره إلا ضمير الانسان ، والفرق عظيم بين السعي الذي تسعاه لصاحبك وبين الحاجة التي تسعى له فيها ، فليس الذهب والفضة وما اليهما المعروف في الحقيقة ، ولكن المعروف في باب الاخلاق هو نية الفاعل للخير عند فعله وعقد العزيمة على تحصيله وهذا هو الذي يجب تقديره في النفس وإسداء الشكر عليه دون نظر الى ما يترتب عليه من غنم مادي ، ولذلك لا يقال في القليل إنه قليل ولا في الكثير إنه كثير ، وإن كان الناس لا يأخذون إلا بالظواهر ، ولا يلتفتون إلا الى

مقدار ما يعطى وما يؤخذ ، جاهلين قيمة المعروف في ذاته ، من أجل ذلك كان المعروف هو الفعل الذي يصدر من تلقاء النفس لمجرد الرغبة في الخير ويستمد مسديه لذته من اللذة التي يشعر بها المسدى اليه ، فالنية هي التي تقوم الأشياء وتقدرها قدرها ، وهذا مصداق قوله (ص) : « إنما الاعمال بالنيات » فرب صغير من الاحسان يكون كبيراً بصفاء النية فيه ، ورب صلة عظيمة يحط من قدرها كدر النية فيها .

على هذا كان خير وصف الكريم أنه هو الذي ينسى ما هو فيه من الاحتياج عند رؤية المحتاج ، وهو الذي يكون مغرماً بالاعطاء في كل وقت من الاوقات ، وهو الذى يرى نفسه كأنه الآخذ ، والآخذمنه كأنه المعطي له كما قال الشاعر :

تراه إذا ما جئته متهللا   كأنك تعطيه الذى أنت سائله

وهو الذى إذا رددت اليه معروفك نسى أن له عندك معروفاً ، وعده يداً لك عليه ، وهو الذي لا ينتظر أن يأتيه صاحب الحاجة بل يسعى في البحث عنه ، ومن كان على خلاف ذلك فهو تاجر مرب تأخذ منه المعروف أخذك الدين من الغريم .

المعروف ضربان :

ضرب عام يقتضي الجهر به والاعلان له . وضرب خاص لا ينبغي له غير الاخفاء والكتمان :

فمن الضرب الاول ما يكون المجد في إعلانه والشرف : مثل صدقات

الفرائض وغنائم الجيوش ، ومكافأة الملوك على الاعمال الصالحة بعلامات الشرف وما يشابهها مما يزيد الجهر بها والاعلان لها قيمتها قال الله تعالى : « إن تبدوا الصدقات فنعما هي ، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير » .

وقال ابن عباس (ره) « صدقات السر في التطوع تفضل علانيتها سبعين ضعفاً ، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بسبعين ضعفاً » .

والضرب الآخر هو الذي لا تكون المطايا فيه من شأنها ارتفاع القدر وازدياد الشرف ، بل من شأنها سد الحاجة ودفع العوز ، ومداركة الافتضاح وهذا يجب فيه الكتمان وجوباً محتوماً ، وألا يعلم بالصنيع أحد سوى المقصود وحده بها .

وبعض المحققين يذهبون الى أن جمال الصنيعة لا يتم إلا بكتمانه عن نفس المسدى اليه أيضاً ، ولذلك فان كثيراً من ذوي المروءات يعمدون الى طرق الاحتيال في وجوه صلتهم لأصحابهم حتى يخف عليهم احتمالها ، وقد أخذوا ذلك من قوله تعالى : « إن تبدوا الصدقات فنعما هي ، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم » وقوله (ص) من حديث : « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه » .

كيف يكون المعروف مقبولا مستساغاً :

الطلاقة والبشاشة والاجابة قبل السؤال مما يجعل المعروف متقبلا حتى لا يضطر الطالب الى مضاضة الرجاء وذل السؤال ، فان صاحب الحاجة لا يسأل

حاجته إلا وهو في حيرة وتردد ، يترقرق في وجهه ماء الحياء ، فاذا كفيته مؤنة السؤال ضاعفت قيمة المعروف ، فان أغلى الأشياء قيمة ما أرقت في سبيله ماء الحياء ، وأخلقت فيه أديم الوجه :

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله ... بدلا وإن نال الغنى بسؤال

وإذا السؤال مع النوال وزنته ... رجح السؤال وخف كل نوال

ويجب أن يضاف الى بشاشة الوجه وارتياح النفس عند اسداء المعروف لطف العتاب لصاحبك لتقاعده عن قصدك الى هذا الحين . كأن تقول له إنني لا أغفر لك ترددك عن طلب حاجتك ، كما أنني أشكرك على أن خصصتني بها من دون أصحابك لحسن ظنك بي ، وثقتك بي بحسن مودتي ، واعلم أنني منذ اليوم رهين أمرك فيما تكلفني إياه من خدمة ، ولقد سامحتك في استتارك مني بستار الخجل والحياء عند الطلب في هذه المرة : إنك إن فعلت ذلك زدت في مقدار الصنيعة ، وأسست في قلب صاحبك ركناً من الشكر والحمد لا يهدمه النسيان ، ولا يؤدي به مرور الزمان .

أهل المعروف :

أهل المعروف حقاً من يفعل الخير لمجرد حب الخير ، ولا تثنيهم كثرة أهل الكفران عن معاودة إسداء المعروف ، فالكريم لا يبالي : كفر الناس نعمته أم شكروها . ويكفيه أن يستمرىء حلاوة الصنيعة حين إسدائها . وهي اللذة التي يطرفه بها الاسداء : وقد قال الشاعر في ممدوحه :

لو كفر العالمون نعمته ... لما عدت نفسه سجاياها

فهو يصنع الجميل ولو كان يعتقد أنه ليس في العالم قلب شكور ، ويؤثر

أن يضيع إحسانه سدى على الانقباض عن إسداء الاحسان والامتناع عن فعل الخير .

وليس إسداء المعروف من باب التجارة ولا من حساب الدخل والخرج ، وما له إلا باب واحد ، وهو باب الخروج والانفاق ، فان دخل فيه شيء من الشكر ان كان ذلك ربحاً ، وإن لم يدخل فيه منه شيء فلا خسارة فيه ، فلا يجوز إذن لمحسن أن يقول يوماً خسرت الجميل ، وقد استمرأ لذته عند الاسداء

ومن خلال أهل المعروف أنهم يسدلون دونه ستراً من النسيان يبقى المعروف وراءه مستوراً حتى تنكشف عنه يد الشكر من المسدى اليه ، لانهم يعلمون أن المعروف رأس مال طرحه في يد الكنود خير من حبسه في يد المحسن لجواز أن يربو بالشكر في نفس الكنود يوماً من الايام على مرور الزمن ، ولا يبعد عليه أن يتعلم منه حسن المثال في إسداء الصنيعة . ولا يقتصر إسداء المعروف على بذل المال ، بل يتناول المال والجاه والسلطان والنصح والارشاد وحسن المعاملة .

وليس الانسان وحده هو الذي يدرك معنى حسن المعاملة بل الحيوان الكاسر والاسد الضاري إذا عودته الحسنى انتهى به الامر الى الاستئناس والخضوع ، ولا شيء أقتل للكفران في النفوس من المواظبة على دوام الاحسان فمن أسدى معروفاً ولم يشكر عليه في المرة الاولى فلا يبعد أن يشكر عليه في المرة الثانية ، فاذا قاوم الكفران الاحسان مرتين فعليك أن تعززها بثالثة تذكر المسدى اليه بالاثنتين .

فساد المعروف :

وفي الناس فريق يتبع معروفه بطول المن والتذكر به ، وهؤلاء هم أسوأ أهل المعروف والاحسان عملا ، وأقبحهم فعلا ، وأشدهم على الناس ألماً وكرباً ، وأولاهم بالكراهة والحقد عليهم بدل الشكر والامتنان ، وكفى بهذا الخلق السيء شناعة وفظاعة ما ورد فيه من الآيات المتعددة في الكتاب الكريم ، فمنها قوله عز وجل : « الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى ، لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون » « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذىً والله غني حليم » وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين » . ومن جوامع الكلم قولهم : « صنوان من منح سائله ومنّ ، ومن منع نائله وضنّ » .

الامور التي تذهب ببهاء المعروف :

أهم هذه الأمور كثرة الوعود وطول التسويف . ومن الناس من يقصد ذلك ويتعمده للتباهي بتردد القصاد عليه وإقامة الوفود ببابه ، كأنما فعل الخير عنده سلطان لديه يتمتع بمظاهر أبهته وجلاله أمام حاشيته وأتباعه ، ولا حق لمثل هؤلاء في الشكر على الصنيعة ، بل هم الذين يلجئون الناس بهذه الأفعال إلى الكفران ، لأن كل ما يدخل في حساب الوعد والمطل يخرج من حساب الشكر

والاعتراف بالمعروف ، وربما أدى طول الانتظار وكثرة الوعود إلى البغض والحقد في نفس صاحب الحاجة .

لماذا يقابل المعروف بالكفران ؟

السبب الرئيسي في انتشار رذيلة الكنود والكفران خبث نفس المسدى اليه ، ولؤم طبيعته وإقفار نفسه من الفضيلة ، وإمعانه في الاساءة إلى من أحسن اليه ، ولا عجب فقد أبان رسول الله ﷺ تلك النفس بقوله : « جبلت النفس الخبيثة على ألا تخرج من الدنيا حتى تسيء إلى من أحسن اليها » ومع هذا كله فان كثرة أهل الجحود والكنود لا توجب تثبيط همتنا . ولا تحول وجوهنا عن إسداء المعروف . ألا ترى أن كفران نعمة الله لم تغير من نعمته علينا ، وما زالت نعمته تتناول الشاكر والكافر ، وإنا لنستحق خيبة الرجاء في الشكر إذا كنا أعطينا ما أعطيناه على نية انتظار الجزاء والمكافأة عليه ، كما أننا لا ينبغي أن نمتنع عن المعروف إذا تكررت لنا منه حوادث الكفران والكنود ، فكثيراً ما خاب ظن المرء في امرأته وولده ، فما منعه ذلك معاودة الزواج وتربية الأولاد ، وإشرافنا على الغرق مرة لا يمنعنا من ركوب البحر مرة أخرى ، والنكوص عن صنع الجميل بحجة عدم المكافأة عليه يدل على التطلع إلى استجلاب الفائدة من ورائه . وعلى ذلك يكون ما أعطيناه كالقرض ننتظر معه الوفاء » (١) .

ويتفرع من المعروف أمور : منها الأمر بالمعروف . ومنها العفو عن المسيء . ومنها الاحسان .

---

(١) الخلق الكامل .

ان من المعروف الامر بالمعروف :

لا نرتاب بأن الأمر بالمعروف من أهله في محله ربما كان أعظم من افعل المعروف ، لأن فيه حفظ النظام بين أفراد النوع الانساني ، وبه اكتساب الفضائل الدينية والعقلية ، وإزالة الأخلاق الفاسدة ، والعمل بما فيه الحياة في الدارين . ولا أراك تشك بأن النهذيب والتعليم والالزام لشخص بما فيه ظهور كماله وجميل صنعه وحسن سيرته ، خير له من إعطائه الف دينار يتنعم بها في معاشه مع تلوثه بأقذار المفاسد وتهوره في هوة الجهالة .

الأمر بالمعروف وفعل المعروف واجبان بحكم العقل والشرع وجوباً كفائياً على كافة العقلاء ، ولا شرط لوجود فعل المعروف سوى القدرة عليه .

إن تأثير الأمر بالمعروف له شروط يتوقف تحريك خطابه المكلفين عليها :

الأول : القدرة على الأمر بالمعروف ، وغير القادر لا يجب عليه .

الثاني : العلم أو الظن أو احتمال التأثير فيمن يأمره بالمعروف .

الثالث : أن يكون الآمر بالمعروف عاملا به وإلا لم يكن أهلا لأن يأمر به لأن (فاقد الشيء لا يعطيه) . نعم فاقد الشيء لا يعطيه إذ كل شيء تتصوره وترى أنك تفقده يستحيل أن تعطيه لمن يطلبه منك . فالمرتكب المنكر يجد من المنكر نهيه عنه فضلا عن كونه لا يؤثر نهيه بأحد ، والتارك للفعل الحسن مع قدرته عليه لا يحسن منه أن يأمر به ولا يؤثر أمره بأحد . كل ذلك لأن (فاقد الشيء لا يعطيه) .

جاء النص في القانون الاسلامي على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قال سبحانه : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف

وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » .

دلت هذه الآية الشريفة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وصرحت بانحصار الفلاح فيمن قام بها . والعقل يحكم بلزوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حفظاً للنظام وسداً لأبواب الفساد .

ومن ظاهر الآية عرفنا أن الوجوب كفائي ، حيث قال سبحانه : ولتكن منكم أمة ، ولو كان الوجوب عينياً لكان الخطاب بغير هذا البيان .

وقال سبحانه في صفة من آمن بالله حقيقة الايمان : « يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين » . فانظر كيف قرن إيمانهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تنبيهاً على أهمية وجوبها وأثرها .

قال صاحب الدعوة الاسلامية الرسول الأعظم محمد ﷺ : « من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه ، وخليفة رسوله ، وخليفة كتابه » . وقال ﷺ حين سئل عن خير الناس : « آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأرضاهم » . وقال ﷺ : « لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليسلطن عليكم سلطاناً ظالماً لا يجل كبيركم ولا يرحم صغيركم ، وتدعو خياركم فلا يستجاب لهم ، وتستنصرون فلا تنصرون وتستغيثون فلا تغاثون » . وقال ﷺ : « يأتي على الناس زمان لئن يكون فيهم جيفة حمار أحب اليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر » .

وربما يقال إنه يوجد في كل زمان من يتباعد عمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ولايتباعد عن جيفة الحمار ، فكيف يصح تعليق ذلك على زمان خاص والحقيقة إن الكلمات الحكمية لا تنظر إلى فرد من النوع بل المقصود منها انطباقها على أغلب أفراد النوع واكثرها ، ولعل مصداق ذلك في هذا الزمان (أعاذنا الله

من بلائه ووفقنا لفعل المعروف به وترك المنكر والنهي عنه) . وقد استوفينا مبحث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كتابنا (علي والأسس التربوية) فليرجع اليه من طلب الزيادة .

العفو واصطناع المعروف :

العفو عن أرباب الهفوات ، والتجاوز باقالة العثرات ، والحلم عن مقترفي الزلات ، والصفح عن ذوي الهيئات ، وإسداء الاحسان وفعل الخيرات ، واصطناع المعروف ، ـ وبخاصة أهل الدرايات ـ كل ذلك معدود من محاسن الحسنات ، ومكارم الأخلاق التي هي خير الصفات . وقد نطق بذلك القرآن الكريم في كثير من الآيات ، وصرحت به السنة النبوية على ألسنة الرواة الثقات ، قال الله تعالى : « وأن تعفوا أقرب للتقوى » وقال تعالى : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » وقال تعالى : « وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » وقال تعالى : « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر » وقال تقدس اسمه يخاطب نبيه : « خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين » وقال تعالى : « وإذا ما غضبوا هم يغفرون » .

وقال رسول الله ﷺ : « رأيت قصوراً مشرفة على الجنة ، قلت : يا جبرئيل لمن هذه ؟ قال : للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » .

وبينما هو ذات يوم جالس إذ ضحك حتى بدت ثناياه ، فقيل له في ذلك : مم تضحك يا رسول الله ؟ قال : رجلان من أمتي جثيا بين يدي ربي ، فقال أحدهما : يا رب خذ لي مظلمتي من أخي ، فقال الله تعالى : اعط أخاك مظلمته .

فقال : يا رب ما بقي من حسناتي شيء ، فقال : يا رب فليحمل من أوزاري . ففاضت عينا رسول الله ﷺ وقال : إن ذلك اليوم ليوم عظيم ، يوم يحتاج الناس إلى أن يحمل عنهم أوزارهم ، ثم قال قال الله تعالى : « للطالب حقه : إرفع بصرك إلى الجنة ، فرفع رأسه فرأى ما أعجبه من الخير والنعمة ، فقال : لمن هذا يا رب ؟ فقال : لمن أعطاني ثمنه . قال : ومن يملك قيمته يا رب ؟ قال : أنت . قال : بماذا ؟ قال : بعفوك عن أخيك . قال : يا رب قد عفوت عنه . قال : نخذ بيده وادخل به إلى الجنة ، ثم قال رسول الله ﷺ : فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم » .

من ضروب المعروف ، الاحسان :

من المعروف الاحسان بجميع ضروبه :

وقد عُرف الاحسان بمعنى الانعام والتفضل ، إلا أن معناه يتسع لأكثر من ذلك . فاذا رجعنا إلى معاجم اللغة رأينا معنى أحسن : فَعلَ الحسن ، ضد أساء ، والحسنة هي الفعل الحسن .

والأفعال الحسنة تشمل كل خير وكل معاملة ترقي وترفع من شأن الانسانية وتهذب نفسية المرء ، وترفع المستوى الانساني بصرف القوى في ترقية الحياة ، وإفاضة البر على من هم في حاجة إلى البر والرحمة .

فالمحسنون في نظر الاسلام أحباب الله يكلؤهم بعنايته ، ورحمته لا تفارقهم طرفة عين .

« واحسنوا إن الله يحب المحسنين » .

« إن رحمة الله قريب من المحسنين » .

وقد بين القرآن أن الاحسان يجب أن يكون الواجب الطبيعي للانسان ، وأن الله كما أحسن اليه بنعمه عليه ، أن يحسن بهذه النعم إلى الخلق ، قال الله تعالى : « وأحسن كما أحسن الله اليك » .

وبين أن الاحسان تعود منفعته وفائدته على المحسن نفسه . قال الله تعالى : « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها » .

وهذا حق فان المحسنين يشعرون بطمأنينة لا يشعر بها غيرهم ، ويكفي ما يقابلون به من الذين يحسنون اليهم من الود والمحبة والتقدير مما يدخل السعادة إلى نفوس المحسنين ، بينما الاساءة تجعل صاحبها منبوذاً محتقراً لا يهنأ له عيش ولا يقر له قرار .

لهذا أمر الله بالاحسان وألح عليه بقوله : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي » .

وصلة الانسان بالله مهما عظمت لا يعترف بها إلا إذا صحبها الاحسان .

« ومن يُسلم وجهه إلى الله وهو محسن . فقد استمسك بالعروة الوثقى » .

ـ اي ان من اخلص لله ، واسلم نفسه اليه وهو على طريق الاحسان ـ فقد تعلق بأسباب النجاة ، وتمت له الحظوة عند الله .

وجزاء الاحسان يعجل الله به في الدنيا .

« للذين احسنوا في هذه الدنيا حسنة » . وفي الآخرة يضاعفه أضعافاً مضاعفة ، فيأتي المحسن ربه آمناً يوم القيامة . « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » « من جاء بالحسنة فله خير منها ، وهم من فزع يومئذ آمنون » .

اتساع نطاق الاحسان :

١ ـ الاحسان يتناول كل شأن من الشئون ، وينتظم به كل عمل من الأعمال يقول الرسول ﷺ : « إن الله كتب الاحسان على كل شيء ، فاذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد احدكم شفرته وليرح ذبيحته » ـ اي ان الاحسان مطلوب في كل شيء ، حتى في حالة ما إذا اراد الانسان ان يذبح ذبيحة فانه لا ينبغي له ان يتخلى عن فضيلة الاحسان ، وعليه ان يسوقها إلى الموت سوقاً رقيقاً ، ويحد السكين ليجهز عليها في سرعة فيريحها ويخفف آلامها .

٢ ـ والله سبحانه ما خلق الانسان وزوده بالقوى والقدر ، إلا لينشط ويبدع ويأتي بجلائل الأعمال ، فاذا قصر عن هذه الغاية وبدد قواه في غير ما خلقت له كان جاحداً بهذه النعمة وناسياً فضل الله عليه . « الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملا » . « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملا » .

٣ ـ ومن الاحسان ان يؤدي المرء عبادته في يقظة تامة ونشاط كامل . سأل جبرئيل عليه السلام رسول الله ﷺ عن الاحسان ، فقال له : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » .

٤ ـ والاحسان الذي هو من اخص صفات الأبرار ، ومظهر إحسانهم يتجلى في قيام جزء من الليل في مناجاة الله وطلب الغفران منه ، ومحاسبة النفس والتطهر من الأثم ، كما يتجلى في إعطاء الفقير حقه رحمة به وحنواً عليه ومعاونة له على شئون الحياة . « إن المتقين في جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم إنهم

كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون وفي اموالهم حق للسائل والمحروم » .

٥ ـ اختيار منهج قويم للحياة ، واتخاذ مثل اعلى يسعى الانسان لتحقيقه من الاحسان . « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه ، اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولوا الألباب » .

٦ ـ والمجاهدة بالنفس والمال من اجل استقرار المبادىء الكريمة ، والتمكين لكلمة الله في الأرض ـ من الاحسان . « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين » .

٧ ـ من خير ضروب الاحسان انتقاء العبارات الحسنة ، والألفاظ النظيفة والكلمات المهذبة في مخاطبة الناس والتحدث اليهم ، فان ذلك يوثق الصلات ويقوي الروابط ، ويبعد عن نزعات الشياطين التي تفسد العلاقات وتقطع ما امر الله به ان يوصل . « وقل لعبادي يقولوا التي هي احسن إن الشيطان ينزغ بينهم ، إن الشيطان كان للانسان عدواً مبيناً » .

٨ ـ رعاية حقوق الوالدين ، والأقربين والجيران والأصدقاء والفقراء والخدم ، من أعظم ضروب الاحسان ، وقد قرنها الله بعبادته ليلفت النظر إلى هذه الرعاية ، وليؤكد هذه الحقوق . « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل » .

وذي القربى : هم الأقرباء . . والجار ذي القربى : الجار المجاور ... والجار الجنب : الجار البعيد ... والصاحب بالجنب الزوجة والصديق ، والرفيق في العمل وابن السبيل : المسافر المنقطع عن اهله .. فهؤلاء يجب ان يعمهم الاحسان ليسود الجميع المودة والمحبة ، ويظللهم الأمن والسلام .

وهكذا إذا تتبعنا نواحي الاحسان وضروبه نجد معناه واسعاً ، وأن الله يريد للناس أن يعيشوا في ظله لينعموا بالعافية ويسعدوا بالحياة ، ويصلوا إلى المثل الأعلى ، ويحققوا رسالتهم كخلفاء عن الله في الأرض .. وهذا هو الدين الحق الذي يتقبله الله ولا يتقبل غيره .

« ومن احسن ديناً ممن اسلم وجهه لله وهو محسن » .

« وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً او نصارى تلك امانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، بلى من اسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربه ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون » .

ولقد اخذ أئمتنا (عليهم السلام) بهذه الفضيلة ـ فضيلة الاحسان ـ فاذاهم أئمة الهدى ، وقادة الأمم ، وسادة الشعوب ، وإذا هم يبرزون في كل ميدان ، ويبرزون في كل ناحية ، ويسبقون في كل نشاط حضاري ، ويتفوقون تفوقاً لم يسبقوا اليه ولم يلحقوا فيه .

« والذي جاء بالصدق وصدّق به اولئك هم المتقون ، لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين » .

* * *

قال علي امير المؤمنين عليه السلام :

احسن إلى من شئت تكن اميره

واستغن عمن شئت تكن نظيره

واحتج إلى من شئت تكن اسيره

« اي ... احسن إلى اي إنسان تكن فوقه ، واستغن عنه تكن مثله ، واحتج اليه تكن دونه . وهذه الطبقات من سنن الطبيعة ليس بين الأحياء فقط ، وإنما تتعدى ذلك حتى إلى الجمادات ، فمن الناس من يعبد الشمس لاحسانها اليهم بالدفء والنور . ومنهم من يعبد الأنهار لاحسانها اليهم بالماء والجمال . ومنهم من

يعبد البقر لاحسانها اليهم بالخدمة والغذاء . وعلى العكس نرى الجماد والنبات يعبد الحيوان صامتاً وناطقاً ، إذا اعتبرنا الخضوع والامتثال عبادة ، وليست العبادة إلا هذا .

فالانسان والحيوان إذ يحرثان الأرض يحسنان اليها بتأهيلها للنور والهواء وتنقيتها من العفونة والغش والطفيليات ، ومن جاء لبنان ورأى شقاء الانسان ونصبه في العناية بما يزرع وبما يغرس ، ورأى جمال الشجر والثمر ، ثم رأى الجداول والظلال فوق صفحة هذه الأرض المسبغ عليها فن الانسان بتبسيطها وتنسيق غرسها ، وصيانتها من أعراض الطبيعة وظلم النبات الدخيل والحيوان الأرعن . اقول : إن من يرى عناية الانسان هذه بالأرض والماء والشجر والنبات رأى مبلغ ما يحسنه الحيوان صامتاً وناطقاً إلى الجماد ؛ ثم رأى خضوع النبات والجماد بعد ذلك إلى الحيوان بانتاج الطعام والشراب له ، ورأى تضحية هذه الأرض بما تتحمله من مشقة هذا الخضوع للانسان بين حرث وإجهاد ، ورأى تضحية ذلك النبات بما يتحمله من مشقة الخضوع للانسان بين تشذيب وتهذيب حتى يزهر ويثمر . اقول : من رأى ذلك عجب من تضامن الحيوان والجماد والنبات ، بين آمر ومأمور في سبيل الحياة واستقامة الوجود .

وهكذا نجد ان الفن الذي يسبغه الانسان على الجماد بنحت الصخر وحرق التراب ليقيم لبنات للبناء والاعمار ، هذا الفن إنما يقوم على إحسان الانسان للجماد بتطويره من عالم الخام المهمل إلى عالم الفن المنتج ، وعلى خضوع الجماد للانسان بتضحيته فيما يتحمل من مشاق النحت والاحراق ، بين يدي الخلود القائم على سنن التطور من القبيح إلى الحسن ثم من الحسن إلى الأحسن ، هكذا تتبادل عناصر الحياة ، بين جمودها وحركتها ، جمال التطور والتجدد ، وجلال البقاء والخلود ، وهكذا تتحقق آخر الأمر ، على حساب هذا التبادل ، عناصر الحياة

التي يتقوم بها ذلك الخلود ، فالانسان يحسن للجماد في سبيل حياته ، والجماد يخضع للانسان في سبيل حياته ، وهذه الحياة هي العماد الفقري لقوام الكون وبقائه .

بهذا يتحقق تعليل وتحليل الفقرتين : الأولى والثانية من قول الامام .

وأما الفقرة الثانية فتشير إلى ان استغناء اي عضو عن اي عضو من العناصر التي يتقوم بها الحيوان والجماد ، الاستغناء يفضي إلى الاستقلال الفردي الذي يفضي إلى الاستقلال النوعي ، وبذلك يتلاشى تضامن العناصر الساكنة والمتحركة من مقومات الوجود ، إذ ثبت من تحليل الفقرتين اللتين تكتنفان هذه الفقرة التي نحن بصدد البحث فيها . ثبت من هذا التحليل ضرورة التضامن بين الحيوان والجماد .

يقرر الامام عليه السلام في هذه الجمل الحكيمة امراً واقعاً في حياة الانسان ، وقد قبس هذا من قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال : « اليد العليا خير من اليد السفلى » يعني بذلك أن المعطي في سبيل الله خير من المعطى .

وفي الكتاب العزيز قوله تعالى : « ورفع بعضكم فوق بعض درجات » اي ان التفاوت في الناس بين الفضل والنقص طبيعي في الانسان ، وقد فضل الله المجاهدين على القاعدين ولو كانوا معذورين في قعودهم ، وفضل الله المؤمنين على المسلمين ولو ادى هؤلاء واجبهم نحو الله ولكنهم لم يؤثروا على انفسهم احداً ولم يطعموا الطعام وهم جياع .

من هنا نصل إلى ان العقل لا ينكر على الامام قوله : « احسن إلى من شئت تكن اميره » في أن إكرام الغني او القوي او العالم او العامل او الفقير او الضعيف او الجاهل او العاجز عن العمل ، يخوله السيادة والامارة عليه ، بينما يقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : « الناس سواسية كأسنان المشط » إذا آمنوا بالله ورسله وكتبه ، ولكن بعضهم سعيد والآخر شقي لحكمة لا نستطيع دركها بعقولنا المحدودة .

اقول : إن العقل لاينكر على الامام هذا القول إذا كان الأمر كما فصلنا . ثم إن في قول الامام حضاً كبيراً على الاحسان ، اي انه يريد منا ان نتنافس ونتكاثر في الغنى والعلم والعمل ، لندرك فضل المحسن على من يحسن اليه ، بماله او علمه او عمله ، فما لم يدرك الانسان ان للكريم فضلا على من يلتمس كرمه ، والمحسن فضلا على من يرجو إحسانه ، لا يقدم على الجهاد في سبيل الغنى والعلم والعمل ليكون فاضلا ، وفي كلام الامام حث على ان المسلم يجب عليه ان يعمل ليكون قوياً بماله وعلمه وعمله ليسود غيره ممن لم يدخل الايمان قلبه ، وها نحن نقع اليوم في اكبر الآثام ونحن لا نعمل بقول الامام المقتبس من قول الله .

اقول : ها نحن نخضع ونركع بين يدي غير المسلم في سبيل هذا الاحسان المتدفق الينا منه ، أفلا نمتص ايدي وارجل الأجنبي ، ونلعق حذاءه ليفيئنا بماله وعلمه وعمله ؟ أفلا يبيع المسلم منا دينه وشرفه ووطنه لهذا الأجنبي في سبيل الدنيا القاصرة بجاهها وجلالها على من يعلم ويعمل في حياته ، وهل هـذا العلم وذلك العمل إلا وقف على الأجنبي المسيطر علينا ونحن خول له ؟ والعجيب أن بعض المتعنتين الذين يعيشون على اوهام ، أن امجادنا في ديننا وقوميتنا فوق امجاد الغربيين في دينهم وقوميتهم ، من اجل ذلك لا نرى لهم فضلا علينا في أن نلتمس منهم المال او العلم او العمل ، لأن آباءنا اسلفوا آباءهم ذلك من قبل .

والأعجب من ذلك أن هؤلاء العظاميين يقولون : واي فضل لهم علينا إذا اقترضنا منهم المال والعلم ، ديناً نفيهم إياه مع الزمن وبعد أن نملك انفسنا ونستغني عنهم ، يقولون ذلك ثم يغفلون عن قوله ﷺ وهو يشرع لنا سوء العصبية في الأمجاد الغابرة بقوله : « من تعزى بعزاء الجاهلية فاعضوه بهن ابيه » . وقوله لعلي ؑ : « ذهبت الجاهلية بعصبيتها » وقوله لفاطمة : « اعملي فاني لا اغني عنك من الله شيئاً » وقول الشاعر :

إنا وإن كرمت اوائلنا   لسنا على الآباء نتكل
نبني كما كانت اوائلنا   تبني ونفعل فوق مافعلوا

وقول الآخر :

فمن الوهن ان نفاخر بالجد   ونغضي عن ان نكون الجدودا
ومن العجز ان نفاخر باليقظة   فيهم وان نكون رقودا

ثم نرى هؤلاء النفر الأنانيين على لا شيء ، يقولون : واي فضل لهم إذا ساعدونا بالمال طالما نحن على استعداد لأن نعيد اليهم اموالهم ، واي سبب في ذلك يخولهم الامارة علينا ؟؟ وجواب ذلك بديهي إذ يتحقق هنا قول الامام في آخر كلماته التي هي بين ايدينا ، وقوله هو : « احتج إلى من شئت تكن اسيره » فأن مجرد قبولنا فضلهم الذي يسمونه (مساعدة الشعوب الضعيفة) ، وقبول هذه التسمية لنا منهم ، وهم ينسبون الينا الضعف ، اقول : إن مجرد هذا هو الذل والعبودية والاستخدام .

فليس الذل في المدين قاصراً على الخضوع للدائن والاستكانة له ، وإنما الذل يتعدى ذلك إلى قبول المدين الذي يمد يده إلى الدائن به ، ويقبل على نفسه الحاجة اليه والاعتصام باحسانه ، ثم لا يمتثل إلى قول الامام بذلك : « احسن إلى من شئت تكن أميره » إنه يأمرنا بالاحسان لنكون أمراء ، وينهانا عن الحاجة فنكون أسرى ، وهل في هذا ريب إذا اخذنا به في الواقع من الحياة ؟؟ إن واقعنا ما يصوره الامام عليه السلام في كلامه السابق واللاحق ، إذ هو كلام مقتبس من الله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ... » .

وإذا تتبعنا قول الله وقول رسوله ووصيه ، رأينا اكثره قائماً على تحريك العواطف وتأثير الهمم ودفع القوى إلى شحذ العزائم والتصميم على الأخذ بوسائل الحياة التي تبعثنا اشداء اعزاء أباة ، لا نمد ايدينا إلا لنطعي ، ولا نشخص

بأبصارنا إلا لنستلهم ، ثم لا نضع انفسنا إلا في المكان اللائق بأمجادنا و كرامتنا على هذا يجب ان نحمل قول الامام في هذه الكلمة العصماء في صدر هذا البحث فهو يحثنا بلفظ الأمر على التماس وسائل الحياة التي نحسن بها الى غيرنا فتكون لنا السيادة على هذا الغير ، ثم يأمرنا في النهاية امر تقريع وتأنيب ويأس ان نتخلى عن عزنا وكرامتنا الى الذل والخضوع للغير ما دمنا غير مستغنين عنه ولا محسنين اليه .

يقول الشاعر الجاهلي :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه　　يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه　　وإن يرق أسباب السماء بسلم

ويقول شاعر آخر :

متى تجمع القلب الذكي وصارماً　　وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم

ويقول الامام في غير مكان من نهجه القويم : « فما ينجو من الموت من خافه ، ولا يعطى البقاء من أحبه » . كل ذلك يقوم على قول الامام هنا : « احسن تسد » وقوله هناك : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً .

والشاعر يقول :

احسن إلى الناس تستعبد قلوبهم　　فطالما استعبد الانسان إحسان

وخلاصة قول الامام في هذه الكلمة : إن حياة الانسان قائمة على طبقات ثلاث : أولاها السيادة وهي وليدة الاحسان . وثانيها السلامة وهي وليدة الغنى عن الناس . وثالثها الاستكانة وهي وليدة الحاجة إلى الناس . وهو (سلام الله عليه) يختار لنا السيادة لأنه بدأ بها في كلمته هذه الشاملة للطبقات الانسانية ، والأمر بها يفيد الوجوب .

وأما الأمر بالاستغناء عن الناس فانه يفيد الاستحباب ، وثالث الأوامر يفيد التقريع والتهديد ، كقولك لمن لم يطع أمرك : « إعصني ما استطعت فسوف تدرك مغبة أمرك » (١) .

---

(١) دين وتمدين .

حق المؤذن

قوله (عليه السلام) :

« وأما حق المؤذن : أن تعلم أنه مذكرك بربك عز وجل ، وداع لك إلى حظك ، وعونك على قضاء فرض الله عليك ، فاشكره على ذلك شكرك للمحسن اليك » .

* * *

في ساعات غفلة الانسان ، وانغماسه في صخب هذه الحياة ، ومتاعب طلب القوت ، ومتطلبات العيش ، أو انغماره في سكرة الراحة ولذائذ المتع .

في هذه الساعات الغافلة المغفلة ، يقف المؤذن على ربوة أو مأذنة ليبلغ أهل الأرض دعوة السماء . لينادي بصوته الجهير :

(الله اكبر) فيملأ الأسماع ويملأ العقول وينفذ إلى القلوب ويهز العواطف والمشاعر ، ويوقظ الغافل ويذكر الناسي .

(الله اكبر) من ان يحد ، واكبر من أن يوصف ، واكبر من ان يتناهى في كبريائه ، واكبر من أن يقايس بكبير ، أو يقايس به كبير .

و (الله اكبر) من أن يغفل عنه ، أو تصد الحوادث عن ذكره ، أو تشغل عن امتثال أمره .

(الله اكبر) من أن يعجزه شيء ، وهو الذي فطركم على الحاجة وقدّر لكم أسباب الحصول عليها ، ويسّر لكم طرائق الوصول اليها ، فلا تشغلكم هذه التوافه عن مصوركم ومدبركم ، ولا تصرفكم عن طاعته وابتغاء الزلفة لديه وطلب السعادة والزيادة من لدنه .

الصلاة الصلاة ، فهي سبب الفلاح وهي خير العمل ، وهذا أول وقتها ، فالبدار البدار والفرصة الفرصة فقد تفتحت الأبواب واتصلت الأسباب .

في ساعات غفلة الانسان وغمرته وسهوه ولهوه ، يقف المؤذن ليبلغه دعوة الله جهيرة عالية ، فيذكره بربه وينبهه من غفلته ، ويعرفه حلول أمر الله إياه ، وحضور وقت الفريضة العظيمة التي افترضها عليه ، فليأخذ بحظه من سبب الطاعة وليبادر إلى نجاته بقضاء الفريضة . فلابد من فترات ينخلع فيها القلب من شواغل المعاش وجواذب الأرض ، ليخلو إلى ربه ، ويتجرد لذكره ، ويتذوق هذا الطعم الخاص للتجرد والاتصال بالملأ الأعلى ، ويملأ قلبه وصدره من ذلك الهواء النقي الخالص العطر ويستروح شذاه ! ثم يعود إلى مشاغل العيش مع ذكر الله : وهذا هو التوازن الذي يتسم به المنهج الاسلامي . التوازن بين مقتضيات الحياة في الأرض ، من عمل وكد ونشاط وكسب . وبين عزلة الروح فترة عن هذا الجو وانقطاع القلب وتجرده للذكر . وهوضرورة لحياة القلب لايصلح بدونها للاتصال والتلقي والنهوض بتكاليف الأمانة الكبرى .

وذكر الله لابد منه في أثناء ابتغاء المعاش ، والشعور بالله فيه هو الذي يحول نشاط المعاش إلى عبادة . ولكنه ـ مع هذا ـ لابد من فترة للذكر الخالص والانقطاع الكامل والتجرد المحض .

كان الحسن بن علي عليه السلام إذا سمع المؤذن تغير وجهه واصفر لونه ، فقيل له في ذلك ، فقال : إن الله تعالى أرسل إلي من يطلبني لخدمة خاصة ، ولا أدري أيقبلها مني أم لا ، فكيف لا يتغير لوني » .

والأذان هو الشعار الاسلامي الذي يعرف به المجتمع المسلم .

والأذان هو اللسان العام عن أهل ذلك الصقع ، أو أهل تلك المدينة ، أن عقيدتهم توحيد الله ، وأن سبيلهم الدعوة اليه ، وأن سيرتهم السعي إلى مرضاته وطلب الفلاح من عنده .

والأذان هو البلاغ الكامل الشامل بأن توحيد الله والدعوة إلى سبيله والخضوع التام لأمره . هو الرسالة التي يجب أن يسمعها كل موجود وأن يعترف بها كل عاقل ، وأن يفيد منها كل إنسان .

شعار المسلمين في كل صلاة ، وما أحلاه شعاراً يُصاعد من أعماق القلوب فيتجاوب صداه في أجواء الفضاء بالغاً عنان السماء ، فيردده الملأ الأعلى ملائكياً خالداً ، فتصغي اليه عوالم السكون كله ، من قمة العرش إلى أخمص الثرى ، خاشعة طروباً تهلل (الله اكبر) .

(الله اكبر) كلمة تملأ قلبي (الصغير) بل وتذيبه خوفاً وطمعاً - بيد أني أعجب لهذا (الصغير) يضني بالخفوق لكل ما سوى الله الخالق الأكبر .

(الله اكبر) أنشودة الخلد ، رتلتها في الأزل حيما كنت في عالم الذر ، وغشيتني أنغامها وأنا في المهد ، وصدحت بموسيقاها وأنا هابط إلى العاجلة ، وملكت على حواسي وأنا غلام لم أشب على الطوق - بعد - ، واستقرت في عين فؤادي وأنا فتىً ، فنظرت بها في كل مكان فلم أجد غيرها ، ففتنت بها حتى فُنيت فيها ، وها أنذا الآن إن صحوت فلا أسمع شيئاً سوى دقات قلبي تجود (الله اكبر) . وكلما وضعت يدي على قلبي أتلمس قدسية هذا السر ، ألحّ علي التضاؤل شيئاً بعد شيء فتضاءلت وتضاءل معي كل شيء ، ولم يبق سوى ذياك الرنين الخالد (الله اكبر) فأضع يدي على قلبي وأناجيه :

أتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

(الله اكبر) هذا النشيد الذي لم يحمل بريد السماء إلى أهل الأرض ، ولم يلق لسان الزمان في أذن الدنيا ، نشيداً مثله ، حربياً إن شئته للحرب ، عاطفياً إن شئته للقلب ، صوفياً إن أردته للصفاء .

(الله اكبر) هذا الهتاف الذي كان صرخة الحق من أفواه جنود محمد

ﷺ ، أسمعوه كل بطن واد ، وكل ظهر جبل ، وكل مغارة تفزع من سلو كها الجن ، سلكوها يجاهدون في سبيل الله ، وكل أسوار قلعة لا تستطيع أن تحوم فوقها من منعتها العقبان ، فتحوها ليدخلوا اليها هدى الله - وكان أبداً نشيد النصر .

(الله اكبر) تسري في هدأة الليل والناس غارقون في نشوة العبادة أو في أحلام الهوى ، أو في حمأة الفجور ، أو في لجج السكرى ، وفي وضح النهار والناس منغمسون في معتركات السياسة ، أو غمرات التجارة ، أو معامع المطامع والدسائس والشهوات .

يهبط عليهم جميعاً كما تهبط البركات من السماء ، ويمشي في قلوبهم كما يمشي النور في الفضاء ، ينزل من فوق ، من فوق كراسي الحكم ، ومقاعد الثروة ، ومخادع اللذاذات ، يذكر الأقوياء بأن لا يتكبروا على الضعفاء ، فان الله معهم ، والله اكبر منهم ، ويصرخ في آذان هؤلاء الذين غرتهم أنفسهم وغرهم الشيطان ، فعبدوا المادة ، ونسوا الروح ، وجحدوا المعاد . يذكرهم أن وراء الجسم روحاً وأن بعد الدنيا آخرة ، وأن في الوجود رباً يمهل ولا يهمل ، ويُنسى ولا ينسى ، وأن الدنيا لم تدم لأحد حتى تدوم لهم ، وأن الموت لم يترك أحداً حتى يتركهم ، وأن التراب قد احتوى أمماً من الناس كانوا أشد قوة ، واكثر مالا ، وأعظم آثاراً ، وكان لهم المال ولهم الجند ولهم القلاع ، فما أغنى عنهم مالهم ، ولا دفعت عنهم المنايا جنودهم .

وإذن فالمؤذن محسن ، وله بعمله ذلك حق ينبغي أن يؤدى وأن يشكر .

والامام السجاد ؑ يلم بهذه المعاني حين يقول: « وأما حق المؤذن أن تعلم أنه مذكرك بربك ، وداعيك إلى حظك ، وعونك على قضاء الفريضة ... » .

هذه هي المرحلة الأولى لأداء حق هذا المحسن ، فان العلم بحق ذي الحق

والاعتراف له به هو الأداء الأول لحقه .

أما المرحلة الثانية « فتشكره على ذلك » على تذكيره إياك ودعوته وعونه لك . « شكرك للمحسن اليك » .

وصفوة القول : إن ـ حكمة الأذان ـ هي مجموعة ثلاثة أمور :

١ ـ إن الانسان إذا كان من دأبه مزاولة الأشغال وتعاطي أسباب الكسب ، وهي تشغله في الغالب وتنسيه دخول وقت الصلاة فتفوته صلاة الجماعة ـ ذات الخير الكثير ـ . وأيضاً خشية خروج الوقت فتفوته صلاة الأداء .

٢ ـ لما كانت الصلاة من أجل النعم ، إذ تقرب العبد من ربه ، وهذا هو الفلاح بعينه ، كان الأذان بصفة دعوة خير حتى لا تفوت المسلم هذه النعمة الكبرى ، فهو يدعوه لاغتنام الفرصة واكتساب النعمة .

٣ ـ هو إظهار عظمة الدين الحنيف لغير المسلمين ، وباعثاً للمشركين على الترغيب في الدخول فيه .

ومن يتأمل في ألفاظ الأذان يجدها جمعت عقيدة الايمان ، واشتملت على صفات التنزيه والتعظيم لله سبحانه وتعالى ، وإثبات الوحدانية ، كما أنه اعتراف لنبينا ﷺ بالرسالة ، وفيها الدعوة إلى الصلاة ، كأنه يقول المؤذن : هلموا إلى الصلاة التي هي خير من كل شيء ، وفيها الفوز العظيم والخير الجسيم .

« وهنا نستمع إلى نشيد الروح ، وهي من روائع الأستاذ شاعر الطبيعة (السيد أحمد الصافي النجفي) تحت عنوان :

الله اكبر

أفكر بالسفاسف في الحياة وأحسبها حقائق راهنات

فيقطع لي سلاسل ترهاتي هتاف مؤذن . الله اكبر

* * *

وأضرب سادراً بين الهموم وأسعى للوصول إلى النعيم
فيهديني إلى النهج القويم هتاف مؤذن . الله اكبر

* * *

وأفني في الرقاد ثمين عمري كأني ميت في جوف قبر
فيوقظني لأحشر كل فجر صياح مؤذن . الله اكبر

* * *

وأغرق في مطالعة الكتاب وأنعم بين أوهام عذاب
فيرجعني إلى دنيا الصواب صراخ مؤذن . الله اكبر

* * *

وأسعى نحو آمال عظام وأخشى أن يخيبها حمامي
فيشفيني من الداء العقام هتاف مؤذن . الله اكبر

* * *

وأذهب للتنزه في اختيال وأسرح بين أنواع الجمال
فيوقفني ويسخر من خيالي نداء مؤذن . الله اكبر

* * *

وأنظر في مشيدات المباني وقد حفت بأنواع الجنان
فيدعو ثم أن الكل فاني هتاف مؤذن . الله اكبر

* * *

وتبهرني أحاديث العظام وما تحويه من حكم سوام
سينفد في غد كل الكلام ولا يبقى سوى . الله اكبر

* * *

ونحن في التخاصم والنضال ونفني العمر في قيل وقال

فيملو قاطعاً صوت الجدال　　صياح مؤذن . الله اكبر

* * *

ونأخذ في أحاديث شتات　　ونبقى بين هاك وبين هات

فأسمع صوت حي على الصلاة　　فأنهض صائحاً . الله اكبر» (١)

تاريخ مشروعية الأذان :

شرّع الأذان في السنة الأولى من الهجرة النبوية بالمدينة المنورة ـ على اختلاف في ذلك ـ .

وسبب مشروعيته : أن النبي ﷺ لما قدم المدينة عسر على المسلمين معرفة أوقات صلاته ﷺ لكثرتهم واتساع دائرتهم ، فتشاوروا في أن ينصبوا علامة يعرفون بها وقت صلاة النبي ﷺ لئلا تفوتهم الجماعة فأشار بعضهم بالناقوس فقال النبي هو للنصارى . وأشار بعضهم بالبوق . فقال : هو لليهود . وأشار بعضهم بالدف . فقال : هو للروم . وأشار بعضهم بايقاد النار . فقال : ذلك للمجوس . وأشار بعضهم بنصب راية فاذا رآها الناس أعلم بعضهم بعضاً . فلم يعجبه ﷺ ذلك ، فلم تتفق آراؤهم على شيء ، فهبط الأمين جبرئيل بالأذان على النبي ﷺ ورأسه حينذاك في حجر علي عليه السلام .

يتحدث الينا الصدوق في كتابه ـ من لا يحضره الفقيه ـ عن منصور بن حازم عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال : « لما هبط جبرئيل عليه السلام بالأذان على رسول الله ﷺ وكان رأسه في حجر علي عليه السلام فأذن جبرئيل وأقام فلما انتبه

---

(١) اللئالىء المنظومة (للعلامة السيد محمد صادق بحر العلوم) .

رسول الله ﷺ قال : يا علي سمعت ؟ قال : نعم يا رسول الله . قال : حفظت ؟ قال : نعم . قال : ادع بلالا فعلمه ، فدعا بلالا فعلمه » .

اختلاف العلماء في الأذان والاقامة :

« اختلف العلماء في الأذان والاقامة ، هل هما من الواجبات أم من السنن ؟ والمشهور عندالشيعة أنهما من السنن لا الواجبات ، بل مستحبان استحباباً مؤكداً ومنهم من ذهب إلى الوجوب .

ووافقهم على القول بالاستحباب ، مالك وأبوحنيفة ، والشافعي . فقالوا : بأنهما مستحبان لكل صلاة ، في الحضر والسفر ، للجماعة والمنفرد لايجبان بحال .

وعن أحمد بن حنبل أنهما فرض كفاية ، واختار اكثر أصحابه أنهما من السنن .

وقال أصحاب الشافعي ، وأصحاب مالك : بأنهما فرض كفاية .

وعن مالك : إنما يجبان في مسجد الجماعة . وعن محمد بن الحسن الشيباني القول بالوجوب . وقيل : إن المراد من قول ابي حنيفة إنهما من السنن المؤكدة ، اراد بذلك الوجوب .

ولكن المشهور عند الحنفية انهما من السنن لا الواجبات .

ولا فرق عندهم بين الأذان والاقامة من حيث تكرار الألفاظ . وعند المالكية ، والحنابلة ، والشافعي ، ان الاقامة بالافراد إلا لفظ قد قامت الصلاة . فقال احمد ، والشافعي : إنها مرتان » (١) .

---

(١) الامام الصادق والمذاهب الأربعة .

جاء في كتاب (الامام زين العابدين) تأليف العلامة المتبحر السيد عبد الرزاق المقرم) تحت عنوان (فقه الشريعة) ما نصه :

« وحكاية الأذان في المعراج جاءت به رواية محمد بن الحنفية عن ابيه (١) وخرجه الطبراني من طريق سالم بن عبدالله بن عمر ، والدارقطني في الافراد من حديث انس (٢) وابو بكر احمد بن عمر بن عبد الخالق البزار من حديث زياد ابن المنذر عن ابي جعفر محمد بن علي عن ابيه عن الحسين عن ابيه علي بن ابي طالب (٣) والشيخ الكليني من طريق زرارة ، والفضيل عن ابي جعفر محمد الباقر عليه السلام قال : « لما اسري برسول الله صلى الله عليه وآله إلى السماء وبلغ البيت المعمور أذن جبرئيل وأقام وتقدم النبي صلى الله عليه وآله فصلى بالأنبياء والملائكة » .

ومن طريق منصور بن حازم عن ابي عبدالله الصادق عليه السلام « إن جبرئيل هبط بالأذان على النبي صلى الله عليه وآله وكان رأسه في حجر امير المؤمنين ، فأذن وأقام ، فلما انتبه النبي سأل امير المؤمنين عما سمعه ووعاه من الأذان ، فقال : نعم قال : علمه بلالا » .

من هذا يتجلى ان الأذان كبقية الأحكام الموحى بها إلى نبي الاسلام ، وهو (صلوات الله عليه وعلى آله) وإن كان مسدداً بالفيض الأقدس ومستغني بالارادة الالهية عن الاستعانة بأي احد ، فقد صدرت منه المشاورة مع اصحابه لأجل ان يعرفهم خطأ الاستبداد بالرأي والتعريف بأن الرجل مهما بلغ الرتبة

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٠٣ .

(٢) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ج ١ ص ٣٧٩ .

(٣) الروض الأنف للسهيلي ج ٢ ص ٢٠ . وشرح الشفا للخفاجي ج ٢ ص ٣٠٧ . والفتاوي الحديثة لابن حجر ص ١٥٢ .

العالية في الادراك ، قد يضل في الرأي ، فكانت الصحابة تبصر من اشعة امره بالاستشارة فوائد مهمة ، إلا ان مشاورته مع اصحابه مقصورة على الأمور العادية وما يتعلق بمصالح الحرب ، وأما الاحكام الالهية الشرعية فلا مجال للتشاور فيها (١) .

ومنها الولاية لأمير المؤمنين عليه السلام الثابتة بقوله تعالى : « إنما وليكم الله ورسوله والمؤمنون ... » وغيره ، لأنها لا تصدر إلا من حكيم عليم بالمصالح الباعثة عليها ، والمفاسد الموجبة للزجر بوحيها إلى من حباه بالسفارة الكبرى فيبلغها العباد ويرشدهم إلى الطريقة المثلى .

والأذان بما أنه نداء للأمة ودعوة للانقياد إلى (الحق) عز شأنه وبه التأهب لما هو (معراج المؤمن) لا يعدوه الوحي الالهي ، مضافاً إلى وقوف الرسول الأطهر صلى الله عليه وآله عليه ليلة الاسراء التي صلى فيها بالأنبياء والملائكة ، غير أن تدرج التشريع في الأحكام ارجأ الأمر به إلى بعد الهجرة كغيره من الفرض والمندوب والمكروه ، إن لم نقل به قبل الهجرة ، كما يدل عليه قوله تعالى في حم السجدة ٣٣ : « ومن احسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين » .

ففي السيرة الحلبية ج٢ ص ١٠٠ نقلا عن الدر المنثور (للسيوطي) ، إنها نزلت بمكة في شأن المؤذنين ، ووافقه ابن العربي في احكام القرآن ج ٢ ص ٢١٣ والآلوسي في روح المعاني ج ٢٤ ص ١٢٢ ، والشيخ الطوسي في التبيان ج ٢ ص ٥٤٧ . غاية الأمر ذهبوا إلى تأخر حكمه إلى ما بعد الهجرة .

وقد اجمعت الامامية على كون الأذان مما نزل به الوحي الالهي كبقية

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي .

الأحكام ، حتى عدوه من ضروريات مذهبهم ، واليه تنبه الشهاب الخفاجي ، فقال : « الظاهر أن الأذان ثبت بحديث الاسراء ، ولم يبين زمانه ، ولم يمكن إعلامه قبل الهجرة ، فأخر ذلك حتى يستقر ظهور الدين » (١) ويشهد له حديث أنس ابن مالك قال : لما تذاكر الناس فيما يعلمون به وقت الصلاة من إشمال النار أو الضرب بالناقوس ، امر النبي ﷺ بلالا أن يشفع الأذان ويوتر الاقامة (٢) .

وإني لم ارتئي هذه الكيفية للأدلة القوية على خلافه ، إلا أن المماشاة مع احاديثهم دعت إلى تسجيله ، فالنبي ﷺ لو لم يكن واقفاً على كيفية الأذان لا يسعه الأمر به ، وذكر الزمخشري والفخر الرازي : إن قوله تعالى في المائدة ٥٨ : « وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً » دال على ثبوت الأذان بنص الكتاب لا بالمنام وحده (٣) .

وقال البيضاوي : فيها دلالة على مشروعية الأذان للصلاة (٤) .

ونقل العيني عن الداودي : إن جبرئيل نزل بالأذان على النبي ﷺ قبل أن يخبره عبدالله وعمر بثمانية أيام (٥) وعليه فهل يبقى مجال للتشاور في الاعلام

---

(١) شرح الشفا ج ٢ ص ٣٠٧ ط سنة ١٣٢٦ .

(٢) صحيح البخاري ج ١ ص ١٠٠ . وصحيح مسلم ج ١ ص ١٥٠ . وسنن البيهقي ج ١ ص ٣٩٠ . وسنن النسائي ج ١ ص ١٠٢ . وعمدة القاري ج ٢ ص ٦١٨ عن ابن حيان . ومسند ابي عوانه ج ١ ص ٣٢٦ عن ابن عمر .

(٣) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٤٨ . وتفسير الرازي ج ٣ ص ٤٢٣ .

(٤) تفسير البيضاوي ج ١ ص ٣٤٦ .

(٥) عمدة القاري شرح البخاري ج٢ ص ٦٢٣ . والزرقاني على المذاهب اللدنية ج ١ ص ٣٧٨ .

بالوقت بحضرة الرسول ﷺ وقد عرف الأذان بالوحي .

هذا ما وقفنا عليه مما دل على تشريع الأذان كما هو مذهب الامامية .

ولكن الطائفة الأخرى من المسلمين خرقوا قدس التشريع باخراج الأذان عن سنن الوحي ، معتمدين على رؤيا عبدالله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري ، بتلفيق ما يحط من كرامة الاسلام وصاحب الدعوة الالهية ، فقالوا : إن النبي ﷺ لما دخل المدينة بقي مدة يصلي بلا أذان ، فشق على المسلمين معرفة الوقت وتشاوروا بحضرة الرسول الأعظم ﷺ فيما يرشدهم إلى اوقات الصلاة ، فارتأى بعضهم الضرب بالناقوس ، وآخر النفخ بالشبور (بتشديد الموحدة) وهو البوق وثالث إشعال النار ، ورابع رفع الراية ، وخامس النداء بالشوارع ، فلم يرغب فيها (نبي التشريع الالهي) ، وبقي متحيراً لا يدري ما يصنع ، إلى أن كشف هذه الكربة منام عبدالله بن زيد ، فانه رأى رجلا يحمل ناقوساً فأراد ابتياعه منه ليضرب به النبي ﷺ في الأوقات فأرشده الرجل إلى الأذان ، وتعلمه منه ثم قصه على النبي ﷺ ففرح وامره أن يعلمه بلالا ؛ فلما نادى به بلال خرج (عمر) يجر رداءه صارخاً إني رأيت كما رأى عبدالله (١) . وتصرح بعض رواياتهم أن عمر وبلالا سمعا أذان جبرئيل في السماء ، فسبق عمر بلالا وأخبر رسول‌الله بما سمعه ، فقال ﷺ لبلال : سبقك عمر (٢) . وتكلف السيوطي في

---

(١) مسند احمد . صحيح الترمذي . موطأ مالك . سنن البيهقي . سنن السجستاني . شرح الزرقاني على المواهب اللدنية . سيرة بن هشام . نور اليقين للخضري .

(٢) شرح ابن العربي على صحيح الترمذي . والزرقاني على المواهب اللدنية . والروض الأنف . والسيرة الحلبية .

إخراج القصة عن المنام بأنها مكاشفة تعتري الأولياء وارباب المشاهد (١) . ولا يدري المنجم وجه اختصاص الكشف بعبدالله دون (من كان من ربه قاب قوسين أو أدنى) .

هذا كل ما في علبة القوم مما هو ملحق بخرافة الغرانيق وأمثالها ، المنزه عنه جلال النبوة ، لو لم تكن القصة مدبرة بليل ، ارادوا من إثبات التشاور في الأحكام الالهية بحضرة من تنزل عليه ، التوصل إلى تصحيح الشورى في الخلافة الكبرى . وحكاية سماع عمر أدان جرئيل في السماء وتصديق النبي ﷺ إياه ، مما يهون التصرف في الأحكام بالوضع والرفع ، ولا يكون من العسير تشريع التراويح التي يقول فيها نعمت البدعة هذه (٢) . ومعلوم أن البدعة ما حدث في الشريعة ولم يسنه الشارع (٣) كتحريم المتعتين وإحداث التثويب (وهو قول المؤذن في صلاة الصبح الصلاة خير من النوم) (٤) وإسقاط حي على خير العمل من الأذان ، مع أنه ثابت على عهد رسول الله ﷺ وابي بكر ، ولم يعبأ في الاسقاط زيد بن ارقم وابن عمر وابو أمامة سهل بن حنيف ، والامام السجاد يجاهر بثبوته في الأذان الأول بعد حي على الفلاح ، فكان هؤلاء الجماعة يأتون به في أذانهم (٥) . ويتحدث برهان الدين الحلبي : أن زين العابدين وابن

---

(١) السيرة الحلبية ، ج ٢ ص ١٠١ .

(٢) صحيح البخاري ج ١ باب التراويح .

(٣) عمدة القاري ج ٥ ص ٣٥٦ .

(٤) نيل الاوطار ج ٢ ص ٣٣ .

(٥) المحلى لابن حزم ج ٣ ص ١٦٠ . وسنن البيهقي ج ١ ص ٤٢٥ . ونيل الاوطار ج ٢ ص ٣٣ .

عمر يأتيان به ، ولم تتركه الرافضة ايام البويهيين إلى تملك السلجوقيين سنة ٤٤٨ فألزموهم بالترك (١) . ولكن اهل كرخ بغداد بالرغم من اعمال السلطان قوته لم يتطامنوا إلى تركه ، واستمرؤا ذعاف الموت في سبيل إقامة هذا الشعار الالهي وهان عليهم ما يلاقونه من الحرق والنهب والتنكيل بأزاء مظاهر التشيع ، ومن ذلك ما كتبوه على ابواب الدور والأزقة (علي خير البشر) ، ولا أهمهم إنكار الفرقة المقابلة لهم ، كما لم يوافقوهم على رواية الحديث « محمد وعلي خير البشر فمن رضي فقد شكر ومن ابى فقد كفر » حتى ثارت من جرائه فتنة ادت إلى النهب في الطرقات (٢) . كل ذلك بأزاء تركيز اسم امير المؤمنين صاحب الخلافة الالهية ، وأقاموا في جامع (براثا) الذي يسميه ابن كثير الحنبلي (معدن الرفض) الخطبة يوم الجمعة ، وذكروا امير المؤمنين عليه السلام بما وصفه الله تعالى ، وانه محيي الموتى ومكلم الجمجمة ، ومكلم اهل الكهف ، وجهروا في الأذان (بحي على خير العمل) فلم يهضم ذلك مقابلوهم وثاروا على القادر العباسي ، فأرسل الخطيب ابن تمام فأقام الخطبة في جامع (براثا) وقصر من مدح امير المؤمنين عليه السلام فثار عليه رجال من الشيعة بالآجر حتى كسروا أنفه وأدموا وجهه وخُلع كتفه وذهبوا إلى داره فنهبوها (٣) . وفي هذا الجامع كان ابو العباس احمد بن عقدة (من اعاظم رجال الشيعة) يحدث في فضل اهل البيت (عليهم السلام) فانه يحفظ ستمائة الف حديث ، ثلاثمائة الف منها في فضائل المعصومين من ابناء النبي صلى الله عليه وآله ويذكر

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٠٥ .

(٢) المنتظم لابن الجوزي ج ٨ ص ١٤٩ حوادث ٤٤٣ .

(٣) مرآة الجنان لليافعي ج ٣ ص ٣٥ حوادث سنة ٤٢٠ .

ما ورد عنه ﷺ في الصحابة (١) . وكانت هذه المظاهرات بمرأى من اكابر الطائفة وأعلام الدين ، كالمفيد والسيد المرتضى والشيخ الطوسي مع نفوذهم وسيطرتهم ، حتى أصابهم من جرائها نهب دورهم وحرق كتبهم ، ولم يسلم المرتضى حتى عبر إلى دار الخلافة (٢) ونفي عميد الجيوش الشيخ المفيد إلى خارج بغداد ولم يرجعه إلا بشفاعة علي بن مزيد الحلي (٣) وهرب الشيخ الطوسي إلى مشهد أمير المؤمنين علي عليه السلام بعد أن أحرقت كتبه ونهب أثاث بيته (٤) . مع أن أحاديث التقية بمرأى من هؤلاء الأعلام أقطاب المذهب ، لكنهم علموا أن إبقاء المعاندين لهم على ما هم عليه مما يقضي على التشيع ويزلزل العقائد عن مراكزها ، ويذهب كل ما تحمله الأئمة في سبيل تثبيت الدين الحنيف أدراج الأضاليل ، فرأوا من الصلاح المجاهرة بدعوة الحق حتى لا يعذر الغافل يوم الدين ، وهذه

---

(١) تاريخ بغداد ج ٥ من ص ١٤ إلى ص ٢٣ . والبداية لابن كثير ج ١١ ص ٣٣٢ .

(٢) المنتظم لابن الجوزي ج ٨ ص ٢٥ سنة ٤١٧ .

(٣) مختصر تاريخ دول الاسلام للذهبي ج١ ص ١٨٦ ذكر نفيه من بغداد وفي كامل بن الأثير ج ٩ ص ٧٢ حوادث سنة ٣٩٨ ذكر شفاعة ابن مزيد .

(٤) البداية ج ١٢ ص ٦٩ قال : نهبت دار ابي جعفر الطوسي وفي ص٧١ قال : كبست العامة داره وأحرقت كتبه ودفاتره التي كان يستعملها في ضلالته وبدعته ويدعو اليها أهل ملته ونحلته والحمد لله ، وفي ص ٩٧ قال : توفي فقيه الشيعة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي سنة ٤٦٠ في مشهد علي عليه السلام وكان مجاوراً فيه حين أحرقت داره بالكرخ وكتبه سنة ٤٤٨ إلى محرم هذه السنة فتوفي ودفن هناك ا هـ ، فتكون مدة مجاورته في النجف سنتان .

الناحية هي التي ألزمت حجر بن عدي وعمرو بن الحمق وميثم التمار و كميل بن زياد والفرزدق والكميت ودعبل ، إلى أمثالهم من رجالات الشيعة بالنهضة وخرق التقية وإلا فالتقية كما تمضي على أهل الكرخ وغيرهم تمضي على أولئك الرجال (عمد الاسلام) ، والعمل بالتقية في تلك الأزمان إماتة للمبدأ الصحيح ، مع إنا لا نقول بطرح أخبار التقية بل لها تخريج آخر » .

ألفاظ الأذان :

لاخلاف بين المسلمين بأن للأذان ـ وهو الاعلام بدخول وقت الصلاة ـ ألفاظاً مخصوصة ، ولكن الخلاف في لفظين وهما : (حي على خير العمل) بعد قول (حي على الفلاح) كما يذهب اليه الشيعة .

والثانية قول : (الصلاة خير من النوم) بعد قول : (حي على الفلاح) وصورة الأذان عند الشيعة بالاجماع :

الله اكبر أربع مرات ، أشهد أن لا إله إلا الله مرتان ، وأشهد أن محمداً رسول الله مرتان ، حي على الصلاة مرتان ، حي على الفلاح مرتان ، ثم حي على خير العمل مرتان ، ثم الله اكبر مرتان ، ثم لا إله إلا الله مرتان . والاقامة كذلك ، إلا أن فصولها مرتان ، وقول لا إله إلا الله في آخرها مرة واحدة . ويزاد فيها بعد حي على خير العمل وقبل التكبيرات : قد قامت الصلاة مرتان .

ولا خلاف عند جميع المذاهب في ذلك إلا في أمرين :

١ ـ تكرار الألفاظ في الأذان والاقامة ، فمنهم من يوافق الشيعة في ذلك ، ومنهم من يقول : بأن الأذان مرتان ، والاقامة مثلها . ومنهم من يقول : إن الأذان مرتان ، والاقامة مرة ، وعند المالكية أن التكبير الأول في الأذان مرتان .

٢ ـ كلمة (حي على خير العمل) كما تذهب الشيعة إلى جزئيتها . وكلمة (الصلاة خير من النوم) كما تذهب اليه بقية المذاهب ، ولابد لنا من الاشارة هنا حول ذلك .

أما كلمة (حي على خير العمل) : فان الثابت من طريق أهل البيت (عليهم السلام) أنها جزء من الأذان والاقامة ، وقد قال الامام زين العابدين عليه السلام : إنه هو الأذان الأول (أي على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله) كما أخرجه البيهقي في سننه الكبرى .

وقال الامام الباقر عليه السلام : وكانت هذه الكلمة (حي على خير العمل) في الأذان فأمر عمر بن الخطاب أن يكفوا عنها مخافة أن تثبط الناس عن الجهاد ، ويتكلوا على الصلاة . (انظر البحر الزخار) .

وحكى سعد الدين التفتازاني (في حاشيته على شرح العضد) عن عمر أنه كان يقول : « ثلاث كن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله أنا أحرمهن ، وأنهى عنهن : متعة الحج ، ومتعة النكاح ، وحي على خير العمل » .

وذكر (القوشجي) في أواخر مباحث الامامة من (شرح التجريد) وهو من أئمة المتكلمين على مذهب الأشاعرة : « ثلاث كن على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأنا أنهى عنهن ، وأحرمهن ، وأعاقب عليهن : متعة النساء ومتعة الحج ، وحي على خير العمل » .

وروى البيهقي بسند صحيح عن ابن عمر أنه كان يؤذن بحي على خير العمل.

وقال ابن حزم : وقد صح عن ابن عمر ، وأبي أمامة أنه كانوا يقولون : حي على خير العمل . (المحلى) .

وروى المحب الطبري في أحكامه عن زيد بن أرقم : إنه أذن في حي على خير العمل .

وقال الشوكاني نقلا عن كتاب الأحكام : وقد صح لنا أن حي على خير العمل كانت على عهد رسول الله ﷺ يؤذن بها ، ولم تطرح إلا في زمان عمر. وهكذا قال الحسن بن يحيى . (نيل الأوطار) .

وروى محمد بن منصور في كتابه (الجامع) عن أبي محذور أحد مؤذن رسول الله ﷺ إنه قال : « أمرني رسول الله ﷺ أن أقول في الأذان حي على خير العمل » .

وفي الشفاء عن هذيل بن بلال المدائني قال : سمعت ابن أبي محذور يقول : حي على خير العمل . (البحر الزخار) .

وفيه أيضاً عن الامام علي عليه السلام إنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن خير أعمالكم الصلاة » وأمر بلالا أن يؤذن حي على خير العمل .

وقال برهان الدين الشافعي في (سيرته) : ونقل عن ابن عمر وعن علي بن الحسين إنهما كانا يقولان : حي على خير العمل ، بعد حي على الفلاح (السيرة) .

والخلاصة أن الشيعة قد أجمعوا على لزوم الاتيان بلفظ حي على خير العمل لأنها ثابتة على عهد الرسول الأعظم ﷺ . وقد أمر أهل البيت (عليهم السلام) أتباعهم بذلك ، فكانت شعارهم في جميع أدوار التاريخ .

والأمر الثاني هو : كلمة (الصلاة خير من النوم) والشيعة لا يجيزون ذلك وذهب الشافعي في قوله الجديد إلى الكراهة .

إذ من المعلوم أن هذه اللفظة لم تكن على عهد رسول الله ﷺ وأول من جعلها في الأذان عمر بن الخطاب .

جاء في موطأ مالك أن المؤذن جاء عمر بن الخطاب يؤذنه لصلاة الصبح فوجده نائماً ، فقال المؤذن : الصلاة خير من النوم فأمره عمر أن يجعلها في نداء الصبح . (موطأ مالك في هامش مصابيح السنة للبغوي) .

وقال الامام علي عليه السلام عندما سمع ذلك : لا تزيدوا في الأذان ما ليس منه .

وأما ما يدعى من أن النبي صلى الله عليه وآله أمر بلالا أن يقول : الصلاة خير من النوم في الأذان ، فهو غير صحيح لا يقره التحقيق وذلك : أن الذي روى عن بلال ذلك هو عبدالرحمن بن أبي ليلى ، وهذا غير صحيح ، لأن ولادة عبدالرحمن كانت سنة ١٧ من الهجرة النبوية ، وتوفي سنة ٨٤ (انظر تهذيب الأسماء واللغات لمحيي الدين النووي) . ووفاة بلال سنة ٢٠ من الهجرة ، فكيف يصح أن يروي عن بلال وعمره ثلاث سنين ، هذا شيء غريب ؟!.

وادعي أيضاً بأن بلالا أتى النبي صلى الله عليه وآله فوجده راقداً ، فقال : الصلاة خير من النوم . فقال النبي صلى الله عليه وآله : ما أحسن هذا اجعله في أذانك . وهذا لا يصح أيضاً ، لأن الراوي هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم المتوفى سنة ٢٨٢ عن أبيه زيد بن أسلم عن بلال . وعبد الرحمن ضعيف الحديث لا يعتمد عليه ، كما نص على ذلك أحمد ، وابن المديني ، والنسائي ، وغيرهم .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أن زيداً لم يسمع من بلال ، لأن ولادة زيد كانت سنة ٦٦ هجرية ووفاته سنة ١٢٦ هجرية . فكيف يصح سماعه من بلال ، وهو لم يولد إلا بعد وفاة بلال بست وأربعين سنة ؟!!.

وعلى أي حال فان المقطوع به أن التثويب لم يكن على عهد النبي صلى الله عليه وآله وأن هذه الكلمة كانت في أيام عمر . وبدون شك أن الأذان كان بأمر من الله ووحي أنزله على نبيه صلى الله عليه وآله .

وقد أنكر الحسين بن علي عليه السلام عندما سمع الناس يتحدثون عن رؤيا عبدالله بن زيد في تشريع الأذان ، فغضب وقال : « الوحي ينزل على الرسول ويزعمون أنه أخذ الأذان عن عبدالله بن زيد ! والأذان وجه دينكم ، ولقد

سمعت أبي علي بن أبي طالب يقول : أهبط الله ملكا عرج برسول الله ﷺ إلى السماء ... الحديث » .

* * *

ضبط الشهادة الثالثة :

والمجال وسيع لتخطيط الشهادة الثالثة التي يقيمها الشيعة في الأذان والاقامة (أشهد أن علياً ولي الله) ولعلها المسألة المفتقرة للبحث والتمحيص ، لماوقع حولها من الملابسات وطول الكلام بين الشيعة وغيرهم ، ونكتفي هنا بتدوين كلمة العلامة المتبحر السيد عبد الرزاق المقرم (حفظه الله) ، التي رسمها في كتابه (سر الايمان) حيث استوفى الغرض وألمّ به من جميع نواحيه ، ولم يترك فوهة لقائل او متردد . قال (أبقاه الله) :

« واني لا اظن بمن يفقه اسرار مانصت به الأحاديث وما اقتضته ملابسات الأحوال ، التباعد عن الايمان باستحباب الجهر بالولاية (لسيد الأوصياء) عليه السلام بعد الشهادتين ، وهو يعرف انها من كمال الدين وإتمام النعمة على الأمة ، كما يقرأ ليله ونهاره « اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي » . وعلى هذا فقد جاء الأمر من ابي عبدالله الصادق عليه السلام : « إن من قال : لا إله إلا الله محمداً رسول الله ، فليقل علي امير المؤمنين » (١) والحديث لم يتقيد بزمان ولا مكان ولا في فعل خاص ، فهو عام يشمل (الأذان والاقامة) وغيرها . والعلماء الأعلام ساندوا الروايات الواردة في المستحبات المحتملة الصدق بأخبار صحح بعضها شيخنا المجلسي ، عرفت بينهم بأخبار التسامح في ادلة السنن ، منها ما يرويه الشيخ الجليل

---

(١) الاحتجاج .

الثقة ابو جعفر احمد بن محمد البرقي المتوفى سنة ٢٧٤ هجرية عن ابيه عن علي بن الحكم عن هشام بن سالم عن ابي عبدالله عليه السلام إنه قال: «من بلغه عن النبي صلى الله عليه وآله شيء من الثواب فعمله كان له اجر ذلك وإن كان رسول الله لم يقله» (١).
فأصبح ما تضمنته هذه الأحاديث قاعدة مطردة بينهم.

والآراء وإن كانت حرة، وباب الاجتهاد مفتوح لكل من درس العلم وبحث في اصول الشريعة، بيد أن الخطأ في الرأي لم يتنزه عنه إلا من اودع الله العصمة فيهم وبوأهم اوعية العلم ما كان وما يكون (صلوات الله عليهم)، فمن لم يؤمن بهذه الأخبار لضعفها عنده لا نضايقه على ما يرتئيه، ولكن لا يصح له أن يفرض رأيه على من ثبت لديه صحة إسناد هـــذه الروايات ووضحت له دلالتها ومغزاها.

وعلى هذا الأساس الذي قررناه ترى أعلام الامامية من عهد بعيد يصارحون في رجحان الشهادة بالولاية لعلي بن ابي طالب مع الشهادتين في الاذان والاقامة وغيرها، لا يردعهم عنها وقفة غيرهم مهما عظمت مكانته في العلم. نعم لم يذهبوا إلى عدها من أجزاء فصولها، وإن لم يستبعد الجزئية المجلسي وصاحب الحدائق والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء. وآية الله السيد ميرزا ابراهيم الاصطهباناتي النجفي يعتقد الجزئية واقعاً، ولكن الظرف لم يساعد النبي على إعلام الأمة بها، والشهادة بالولاية بناء على عدم كونها من أجزاء الاذان لا تفقد الاستحباب المطلق والرجحان الذاتي الذي أفادته الأخبار المتضمنة للدعوة إلى

---

(١) المحاسن ج ١ ص ٢٥. وروى الكليني نحوه في الكافي على هامش مرآة العقول ج ٢ ص ١٠٦ باب من بلغه ثواب. والخطيب في تاريخ بغداد ج ٨ ص ٢٩٦. والمناوي في الفيض القدير ج ٦ ص ٩٥.

الولاية على اختلاف ألفاظها ، ولا يرمى فاعلها بالضلالة والبدعة .

رأي الشيخ الصدوق :

يتجلى للمتأمل في كلام الشيخ الصدوق عدم تباعده عن الاذعان بمحبوبية الشهادة لأمير المؤمنين عليه السلام على الاطلاق ، فانه في كتابه (من لا يحضره الفقيه) بعد أن روى عن ابي بكر الحضرمي وكليب الأسدي عن الصادق عليه السلام فصول الأذان والاقامة ، وكانت الرواية خالية عن ذكر الشهادة الثالثة ، قال ماهذا نصه : « هذا هو الأذان الصحيح لا يزاد فيه ولا ينقص ، والمفوضة وضعوا أخباراً وزادوا في الأذان محمداً وآله خير البرية مرتين ، وفي بعض رواياتهم بعد أشهد أن محمداً رسول الله اشهد ان علياً امير المؤمنين مرتين ، ومنهم من روى بدل ذلك اشهد ان علياً امير المؤمنين حقاً مرتين ، ولا شك ان علياً ولي الله وانه امير المؤمنين وان محمداً وآله خير البرية ، ولكن ليس ذلك من اصل الأذان ، وإنما ذكرت ذلك ليعرف بهذه الزيادة المتهمون بالتفويض المدلسون انفسهم في جملتنا » انتهى بحروفه .

ولم يخف على القارىء النابه غرضه ومراده ، فانه بصدد نفي جزئية الشهادة الثالثة في الأذان رداً على المفوضة المثبتين جزئيتها فيه من جهة خلو ما استصحه من الأخبار الشارحة لفصوله ، ولم يكن غرضه نفي محبوبية الشهادة بالولاية على نحو يحكم بالضلال على من يأتي بها لأجل الرجحان المطلق المستفاد من كثير من الأخبار المقارنة بين الشهادتين والشهادة الثالثة كما عرفتها فيما تقدم ، بل قوله الأخير : (لاشك ان علياً ولي الله وانه اميرالمؤمنين ، وان محمداً وآله خيرالبرية ولكن ليس ذلك من اصل الأذان) . يفسر لنا رأيه وإيمانه في رجحان الشهادة

بالولاية حتى في الأذان ، لكن لا على أن يكون من أصله بل من جهة المحبوبية المطلقة ، وعلى هذا فلا يصح أن ينسب اليه (نور الله ضريحه) اعتقاد عدم رجحان الشهادة بالولاية في الأذان لا بقصد الجزئية .

وليت شيخنا الصدوق ذكر لنا تلك الأخبار التي نسبها إلى المفوضة ، لنعرف مقدار ما نصت به من الجزئية أو غيرها ، ولننظر في رجال السند لنعرف الثقة في النقل من غيره ، فان كثيراً من الأخبار ناقش المتقدمون من العلماء (رضوان الله عليهم) في أسانيدها ودلالتها ، وخالفهم المتأخرون فصححوا السند كما استوضحوا الدلالة (وكم ترك الأول للآخر) على أنه (أعلا الله مقامه) اعترف بورود الأخبار الدالة على جزئية الشهادة الثالثة ، غاية الأمر ردها بأنها من وضع المفوضة ، فاعترافه بورودها رواية ورده لها دراية (والرواية لاتعارضها الدراية) . ورأيه وإن كان محترماً لأنه من أقطاب المذهب وأعلام الملة ، ولولاه وأمثاله لاندرست أحاديث الشريعة الحقة ، إلا أن العصمة عن الخطأ مختصة بالمعصومين (عليهم السلام) .

وبالجملة لم يظهر من كلام الصدوق أنه يرى نفي محبوبية الشهادة الثالثة في الأذان وإنما كان بصدد نفي الجزئية ، لأنه في مقام الرد على المفوضة القائلين بالجزئية في زعمه كما قال : « إنما ذكرت ذلك ليعرف المتهمون المدلسون أنفسهم في جملتنا » ، واسم الاشارة يعود إلى الجزئية التي رواها المدلسون ، ولا يكاد يشك متأمل فيما أوضحناه من غرضه ومراده ، ولو تنازلنا وقلنا بأن له رأياً في المنع عن الشهادة الثالثة حتى بنحو الرجحان المطلق ، فلايكون رأيه حجة ولايجب علينا تقليده فيما ذهب اليه ، خصوصاً لم نجد أحداً من أعلام الامامية من عهد المجلسي المتوفى سنة ١١١٠ إلى اليوم من يفتي بعدم الاستحباب المطلق للشهادة الثالثة في الأذان ، ونصوص فتواهم التي ستقرأها تنادي بالرجحان المطلق الذي

دلت عليه العمومات ، فهل يعقل خفاء الحكم عليهم أجمع ، وسيتبين لك من الشيخ الطوسي والشهيدين الذهاب إلى عدم المنع منها أيضاً .

ثم إن جملة من الرجال رماهم (القميون) بالتفويض والغلو لاكثارهم من ذكر فضائل الأئمة بما يرفعهم إلى فوق مستوى البشر كما هو كذلك حسب النصوص المتواترة معنىً ، ولم يكن غرضهم من ذكر تلك الروايات إثبات تفويض الخلق والرزق اليهم (عليهم السلام) كما هو رأي (المفوضة) . وحديث أهل البيت صعب مستصعب لا يتحمله إلا نبي مرسل أو ملك مقرب أو مؤمن امتحن الله قلبه بالايمان ، وليس كلما يذكر من المنازل العالية لأهل البيت (عليهم السلام) مستلزم للقول بالغلو والتفويض ، فلقد ورد في أحاديث كثيرة « نزهونا عن الربوبية وقولوا فينا ما شئتم » .

ولعل هؤلاء الذين نسبهم الصدوق إلى التفويض من هذا القبيل ، فكان من المناسب ذكر أسمائهم ليعرفهم أهل التنقيب من أي طائفة ، ولقد أوضح المحققون من العلماء سلامة جماعة من الرجال المنسوبين إلى الغلو والتفويض ، كما يتجلى ذلك لمن نظر في كتب الرجال .

رأي الشيخ الطوسي والشهيد :

إن شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي وإن نفى جزئية الشهادة الثالثة في الأذان ، لكنه حكم بعدم عصيان من يأتي بها ، قال في كتابه (المبسوط) في فصل الأذان : « فأما قول أشهد أن علياً أمير المؤمنين وآل محمد خير البرية على ما ورد في شواذ الأخبار ، فليس بمعمول عليه في الأذان ولو فعله الانسان لم يأثم به » .

وهذه العبارة حكاها الشهيد الأول محمد بن مكي المتوفى سنة ٧٨٦ في (البيان) من دون تعقيب ، فلو كان الاتيان بالشهادة بولاية علي عليه السلام بدعة وضلالة لكان المؤذن عاصياً بفعله ، فحكمها بعدم الاثم يدلنا على المحبوبية عندهما ، غاية الأمر لا بقصد الجزئية ، ودعوى شذوذ الأخبار لا يخرجها عن احتمال الصدق ، فتكون مشمولة لأخبار التسامح في أدلة السنن ومعه تتم دعوى جزئيتها من الأذان إن كان لسانها الجزئية ، فيقال : قام الخبر على جزئية الشهادة بالولاية من الأذان ، والعمل به مجبور بأخبار التسامح ، فتكون النتيجة صحة العمل على طبقه ولو بعنوان الجزئية على نحو الاستحباب .

فتوى الشهيد الثاني :

وقد اقتفى أثرها الشهيد الثاني زين الدين علي بن احمد العاملي الجبعي المتوفى سنة ٩٦٦ في (الروضة) ، فانه بعد أن منع من إدخال قول ان محمداً وآله خير البرية أو خير البشر ، وان علياً ولي الله في فصول الأذان لكونه من العبادة المفوضة شرعاً قال : « ولو فعل هذه الزيادة أو أحدها أثم في اعتقاده ولا يبطل الأذان بفعله وبدون اعتقاد ذلك لا حرج عليه » .

فدل هذا الكلام على أن هذه الشهادة محبوبة في الواقع للشارع ، غاية الأمر لا تعد من أجزاء الأذان وفصوله لكونه عبادة محدودة الأجزاء والشرائط فالمؤذن إذا جاء بهذه الزيادة : وهي أن محمداً وآله خير البرية ، وأن علياً ولي الله لم يأت بما هو مبغوض للشارع ، لكون هذه الشهادة محبوبة له بمقتضى العمومات إلا أنه إذا قصد كونها من جملة فصول الأذان وأجزائه أثم في هذا الاعتقاد خاصة لكونه نوى شيئاً لم يجعله الشارع جزءاً ، وهذا معنى قوله رحمه الله :

« أثم في اعتقاده ولا يبطل الأذان بفعله » وإذا لم يقصد المؤذن جزئية الشهادة لعلي بالولاية ، بأن قصد المحبوبية المطلقة فلم يتعد الحدود الشرعية . وإلى هذا أشار (أعلا الله مقامه) بقوله : « وبدون ذلك لا حرج عليه » فتحصل أن الشهيد الثاني في هذا الكلام لا يمنع من الاتيان بالشهادة الثالثة إذا لم يكن بقصد الجزئية ، وما ذكرناه يفهمه كل أحد من هذه العبارة المذكورة في شرح اللمعة .

وإذا كان الشيخ الطوسي في المبسوط ، والشهيد الأول في البيان ينفيان ارتكاب الاثم والعصيان عمن يأتي بالشهادة الثالثة في الأذان . والشهيد الثاني ينفي الحرج عمن يأتي بها لا باعتقاد الجزئية فهل يسوغ المذهب أن ينسب إلى هؤلاء الأعلام الحكم بعصيان كل من يأتي بالشهادة الثالثة حتى مع عدم اعتقاد الجزئية .

فتوى العلماء فى الشهادة الثالثة :

لقد استضاء العلماء الأعلام من الأحاديث المستفيضة الحاكمة برجحان الشهادة لأمير المؤمنين بالولاية ، فصارحوا في الحكم بمحبوبيتها وجهروا بها ، ولم يسمع من احد إنكارها ولاردع من جاء بها ، وجلهم لم يعتقد الجزئية من الأذان التي لم يستبعدها المجلسي (المولى محمد باقر ، والشيخ يوسف البحراني ، والمحقق النراقي ، والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (قدس الله أسرارهم) والجميع اعلنوا الفتوى باستحبابها بعد الشهادتين . وإلى القراء اسماء العلماء الماضين (رحمهم الله) الذين سجلوا في كتبهم الاستدلالية ورسائلهم العملية آراءهم واعتقادهم مرتبين على سني وفياتهم :

١ ـ شيخنا مجدد المذهب المجلسي محمد باقر المتوفى سنة ١١١٠ قال في البحار ج ١٨ ص ١٦٢ : « لايبعد كون الشهادة بالولاية من الاجزاء المستحبة في الأذان

لشهادة الشيخ الطوسي والعلامة والشهيد ، بورود الأخبار بها ، غاية الأمر لم يعملوا بها لدعواهم شـــذوذها ، ومما يؤيد هذه الأخبار ما رواه الطبرسي في الاحتجاج عن القاسم بن معاوية عن الصادق عليه السلام وذكر الحديث إلى أن قال في آخره : « إذا قال احدكم لا إله إلا الله محمداً رسول الله فليقل علي امير المؤمنين » ثم قال المجلسي : وهذا الخبر يدل على الاستحباب عموماً ، والأذان من هذه المواضع ، ولو قال المؤذن والمقيم لا بقصد الجزئية بل بقصد البركة ، لم يكن آثماً وهذا من اشرف الأدعية والأذكار » انتهى .

٢ ـ وبعد ان نقل هذا الكلام الشيخ يوسف البحراني المتوفى سنة ١٢٨٦ في (الحدائق) في فصل الأذان قال : هو (جيد) .

٣ ـ وقال الوحيد البهبهاني المولى محمد باقر المتوفى سنة ١٢٠٦ في حاشيته على المدارك عند ذكر الترجيع : « لقد ورد في العمومات متى ذكرتم محمداً صلى الله عليه وآله فاذكروا آله ، ومتى قلتم محمداً رسول الله قولوا علي امير المؤمنين ، كما رواه في الاحتجاج ، فيكون حال الشهادة بالولاية حال الصلاة على محمد وآله بعد قول المؤذن اشهد ان محمداً رسول الله في كونه خارجاً عن الفصول ومندوب » .

٤ ـ السيد محمد مهدي الطباطبائي المشتهر ببحر العلوم المتوفى سنة ١٢١٢ قال في المنظومة في الفصل المتعلق بالأذان :

واكمل الشهادتين بالتي ... قد اكمل الدين بها في الملة
وانها مثل الصلاة خارجة ... عن الخصوص بالعموم والجة

فالسيد (نور الله ضريحه) جعل الشهادة الثالثة من مكملات الشهادة لله تعالى بالوحدانية ، ولمحمد صلى الله عليه وآله بالرسالة ، واستدل على هذا بأن الله (جل شأنه) اكمل بها الدين حيث يقول : « اليوم اكملت لكم دينكم » ثم قارن (رضوان الله عليه) بين الشهادة بالولاية في الأذان وبين الصلاة على محمد وآله فيه عند ذكر اسمه ،

فكما يستحب للمؤذن إذا قال : اشهد ان محمداً رسول الله ان يقول : اللهم صل على محمد وآله ، فكذلك يستحب ان يقول : اشهد ان علياً ولي الله ، وكما ان الصلاة على محمد وآله عند شهادة المؤذن بالرسالة لا تخل بالأذان ، فكذلك الشهادة لعلي ﷺ بالولاية لا تخل فيه ، والدليل عليهما معاً العمومات الدالة على الرجحان .

٥ ـ الشيخ الاكبر الشيخ جعفر المتوفى سنة ١٣٢٨ في (كشف الغطاء) بعد ان منع من جعل الشهادة الثالثة من فصول الأذان قال : « ومن قصد ذكر اميرالمؤمنين لاظهار شأنه ، او لمجرد رجحانه لذاته او مع ذكر رب العالمين اوذكر سيد المرسلين ، كما روي ذلك فيه وفي باقي الأئمة الطاهرين أثيب على ذلك » .

٦ ـ الشيخ محمد رضا جد الشيخ محمد طه نجف من تلامذة الشيخ الاكبر كاشف الغطاء ، على ما ذكره الحجة الشيخ اغا بزرك الطهراني ، قال في (العدة النجفية) شرح اللمعة الدمشقية) عند ذكر كيفية الأذان : « الذي يقوى في النفس ان السر في سقوط الشهادة بالولاية في الأذان إنما هو التقية ، ومعه فقد يكون هو الحكمة فيطرد ، نعم لو قيل لا بقصد الجزئية لم يبعد رجحانه » .

٧ ـ السيد علي الطباطبائي المتوفى سنة١٢٣١ قال في (الرياض) عند الكلام على الترجيع : « التشريع المحرم هو ان يعتقد شرعية شيء من دون استناد إلى شيء ، واما مع الاستناد إلى سبب فلا يكون بدعة ، ومنه يظهر جواز زيادة ان محمداً وآله خير البرية ، وكذا علياً ولي الله مع عدم قصد الشرعية في خصوص الأذان ، إلى ان قال : بل يستفاد من بعض الأخبار استحباب الشهادة بالولاية بعد الشهادة بالرسالة » .

٨ ـ الميرزا ابو القاسم القمي صاحب (القوانين) المتوفى سنة ١٢٣١ قال في (الغنائم) ص ١٧٠ بعد نقل كلام الصدوق والشيخ الطوسي : « ويظهر من هؤلاء الأعلام ورود الرواية بها ، فلايبعد القول برجحان الشهادة الثالثة بالولاية

سيما مع المسامحة في أدلة السنن ، ولكن بدون اعتقاد الجزئية ، ومما يؤيد ذلك ما ورد في الأخبار المطلقة ، متى ذكرتم محمداً ﷺ فاذكروا آله ، ومتى قلتم محمداً رسول الله فقولوا علياً ولي الله ، والأذان من جملة تلك الأخبار على ما رواه الطبرسي في الاحتجاج وفي آخره « إذا قال أحدكم لا إله إلا الله محمداً رسول الله فليقل علي أمير المؤمنين ... » .

٩ ـ ملا أحمد النراقي المتوفى سنة١٢٤٤ في (المستند) ج ١ ص ٣١٤ طبع سنة ١٣٢٥ بعد أن ذكر كلام الصدوق والشيخ وما استفاده المجلسي من نفي البعد عن كون الشهادة بالولاية من الأجزاء المستحبة قال : « أما القول بالتحريم فما لا وجه له والأصل ينفيه ، وعمومات الحث على الشهادة بها ترده وليس من كيفيتها (الأذان والاقامة) اشتراط التوالي وعدم الفصل بين فصولها حتى يخالفها الشهادة كيف ولا يحرم الكلام اللغو بينهما فضلا عن الحق ، وتوهم الجاهل الجزئية غير صالح لاثبات الحرمة كما في سائر ما يتخلل بينهما من الدعاء ، بل التقصير على الجاهل حيث لم يتعلم ، بل وكذا التحريم مع اعتقاد المشروعية ، إذ لا يتصور اعتقاد إلا مع دليل ومعه لا إثم ، إذ لا تكليف فوق العلم ، ولو سلم تحقق الاعتقاد وحرمته فلا يوجب حرمة القول ولا يكون ذلك القول تشريعاً وبدعة كما حققناه في موضعه .

وأما القول بكراهتها (أي الشهادة بالولاية) فان أريد بخصوصها فلا وجه لها أيضاً ، وإن أريد من حيث دخولها في التكلم المنهي عنه في خلالهما فلا وجه له لو لا المعارض ، ولكن يعارضه عمومات الحث على الشهادة مطلقاً ، والأمر بها بعد ذكر التوحيد والرسالة بخصوصه كما في المقام ورواه الاحتجاج عن الصادق عليه السلام إذا قال أحدكم لا إله إلا الله محمداً رسول الله فليقل علي أمير المؤمنين عليه السلام بالعموم من وجه ، فيبقى أصل الاباحة سليما عن المزيل ، بل الظاهر من شهادة

الشيخ الطوسي والفاضل والعلامة والشهيد كما صرح به في البحار ورود الأخبار بها في الأذان بخصوصه أيضاً ، قال في (المبسوط) : فأما قول أشهد أن علياً أمير المؤمنين على ما ورد في شواذ الأخبار فليس بمعمول عليه ، وقال في (النهاية) قريباً من ذلك ، وعلى هذا فلا بعد في القول باستحبابها - الشهادة بالولاية - فيه للتسامح في أدلته ، وشذوذ الأخبار لا يمنع إثبات السنن بها ، كيف وتراهم كثيراً يجيبون عن الأخبار بالشذوذ ويحملونها على الاستحباب » .

فقد دلنا هذا الكلام بطوله على ما يعتقده من رجحان الشهادة بالولاية لعلي بعد الشهادتين استناداً إلى عموم الأخبار الدالة عليها ومنها خبر الاحتجاج ، وان القول بتحريمها في الأذان من جهة أنها خارجة عن تحديد فصوله ، لا وجه له كما لا وجه للقول بكراهتها أيضاً لأنها كلام حق ورد في أثناء عبادة ، بل لم يستبعد كونها جزءاً مستحباً .

١٠ - ميرزا ابراهيم الكرباسي المتوفى سنة ١٢٦٩ قال في (المناهج) ص ٤٥ عند ذكر كيفية الأذان : « الشهادة بالولاية ليست من أجزاء الأذان والاقامة ، ولكن لو شهد بها بقصد رجحانها بنفسها أو بعد ذكر الرسول كان حسناً » . وله رسالة عملية أسماها (النخبة) ذكر فيها كما في المناهج ؛ ورأيت منها ثلاثة نسخ على أحدها حاشية الشيخ مرتضى الأنصاري والسيد الميرزا الشيرازي والسيد اسماعيل الصدر ، ولم يعلقوا على الفتوى المذكورة ، والثانية عليها حاشية الميرزا الشيرازي الكبير السيد محمد حسن والشيخ زين العابدين الحائري وولده الشيخ حسين طبعت سنة ١٣١٥ والفتوى ذكرت في ص ٦٥ وأمضى كلهم الفتوى ، والثالثة عليها حاشية السيد اسماعيل الصدر والحاج ميرزا حسين الخليلي وميرزا محمد تقي الشيرازي والآخوند ملا محمد كاظم الخراساني ، ذكرت الفتوى في ص ٥٢ وأمضاها كلهم .

١١ ـ الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر المتوفى سنة ١٢٦٦ قال في (نجاة العباد) عند ذكر كيفية الأذان ما هذا نصه : « يستحب الصلاة على محمد وآله عند ذكر اسمه وإكمال الشهادتين بالشهادة لعلي بالولاية لله وإمرة المؤمنين في الأذان وغيره » .

وقد أمضى هذه الفتوى الصريحة في استحباب الاتيان بالشهادة الثالثة في الأذان كل من كتب حاشية على (نجاة العباد) كالشيخ مرتضى الأنصاري والسيد ميرزا محمد حسن الشيرازي والسيد اسماعيل الصدر العاملي والسيد محمد كاظم اليزدي والميرزا محمد تقي الشيرازي والشيخ محمد طه نجف والميرزا محمد مهدي الشهرستاني ، فاني رأيت ثلاثة نسخ من نجاة العباد عليها حواشي هؤلاء الأعلام .

وذكر صاحب (الجواهر) عين هذه الفتوى في رسالة عملية بالعربية ص٩٢ طبعت في إيران سنة ١٣١٣ عليها حاشية الشيخ مرتضى الأنصاري والسيد ميرزا محمد حسن الشيرازي والحاج ميرزا حسين الخليلي ، وكلهم أمضوا الفتوى بلا تعقيب . وقال (نور الله ضريحه) في نفس كتابه (الجواهر) الذي لم يؤلف مثله في الفقه الجعفري وعليه مدار الاستنباط ما هذا نصه : « لا بأس بذكر الشهادة بالولاية لا على سبيل الجزئية عملا بالخبر المزبور (هو خبر الاحتجاج) ولا يقدح مثله في الموالاة والترتيب ، بل الشهادة بالولاية كالصلاة على محمد وآله عند سماع اسمه ، وإلى هذا أشار السيد بحر العلوم (نور الله ضريحه) في منظومته وذكر البيتين المتقدمين ، ثم قال : لولا تسالم الأصحاب لأمكن دعوى الجزئية بناءاً على دعوى العموم لمشروعية الخصوصيتين والأمر سهل » . فصاحب الجواهر (قدس سره) يقوي في نفسه دعوى جزئية الشهادة بالولاية في الأذان ، غير أن إعراض العلماء عن الجزئية أوقفه عن الفتوى بها ، وهـــذا المعنى فوق القول باستحباب الاتيان بالشهادة .

١٢ ـ الشيخ مرتضى الأنصاري المتوفى سنة ١٢٨١ في رسالته العملية المسماة (بالنخبة) بالفارسية ص ٥٢ قال : « الشهادة بالولاية لعلي عليه السلام ليست جزء من الأذان ، ولكن يستحب أن يؤتى بها بقصد الرجحان ، أما في نفسه أو بعد ذكر الرسول صلى الله عليه وآله » .

١٣ ـ الشيخ مشكور الحولاوي النجفي المتوفى سنة ١٢٨٢ في (كفاية الطالبين) ص ٨٧ قال : « ويستحب الصلاة على محمد وآله عند ذكر اسمه وإكمال الشهادتين بالشهادة لعلي عليه السلام بالولاية لله تعالى وإمرة المؤمنين في الأذان وغيره » وأمضاه ولده الشيخ محمد جواد المتوفى سنة ١٣٣٤ فيما علقه على الرسالة .

١٤ ـ ملا أقا الدربندي من تلامذة شريف العلماء توفي سنة ١٢٨٥ قال في رسالته الفارسية المطبوعة سنة ١٢٨٢ : « لا بأس بالشهادة لعلي عليه السلام بإمرة المؤمنين ، وقول ان محمداً وآله خير البرية إذا لم يكن بقصد الجزئية ، وبقصد الجزئية وإن كان حراماً إلا أنه لا يبطل الأذان به » .

١٥ ـ السيد علي الطباطبائي آل بحر العلوم المتوفى سنة١٢٩٨ قال في البرهان القاطع ج ٣ عند ذكر كيفية الأذان ، ونصه : « وبالجملة بالنظر إلى ورود تلك العمومات يستحب كلما ذكر الشهادتين تذكر الشهادة بالولاية ، وإن لم ينص باستحبابه في خصوص المقام ، إذ العموم كاف له ومنه الأذان والاقامة فيستحب الشهادة بالولاية بعد الشهادتين فيهما لا بقصد جزئيتهما منهما لعدم الدليل وفاقاً (للدرة) » ثم ذكر أبيات السيد بحر العلوم المتقدمة .

١٦ ـ سيد حسين الترك المتوفى سنة ١٢٩٩ في رسالته العملية بالفارسية طبع إيران قال : « ويستحب بعد الشهادة بالرسالة الشهادة لعلي بالولاية . وقال في رسالة أخرى سؤال وجواب بالفارسية بعد وصف الشهادة لأمير المؤمنين وبيان معناها : « هذه الكلمة الطيبة لم تكن جزء من الأذان والاقامة ، ولكن تذكر

تيمناً وتبركا باسمه الشريف » . وللسيد اسماعيل الصدر العاملي والشيخ محمد الشربياني حاشية على هذه الرسالة ولم يعلقا على ما أفتى به .

١٧ ـ الشيخ جعفر الشوشتري المتوفى سنة ١٣٠٣ في (منهج الرشاد) بالفارسية ص ١٧٥ طبع بمبيء سنة١٣١٨ وعليه حاشية للسيد اسماعيل الصدر العاملي وتعريب ما أفتى به : « إن الشهادة بالولاية ليست جزء من الأذان ، ولكن يستحب الاتيان بها فيه تيمناً وتبركا للرجحان المطلق » وأمضاه السيد الصدر .

١٨ ـ ميرزا محمد حسن القمي المتوفى سنة ١٣٠٤ في (مصباح الفقاهة) المطبعة العلمية في النجف الأشرف سنة ١٣٧٣ ص٣٦ ج١ قال في الشهادة بالولاية : « لا بأس بذكر اسمه الشريف لا على سبيل الجزئية » .

١٩ ـ الفاضل الأقا شيخ محمد الايرواني المتوفى سنة ١٣٠٦ في(نجاة المقلدين) ص ١١٦ بالفارسية وتعريبه : « من الجائز أشهد أن علياً ولي الله ، وأن آل محمد خير البرية في الأذان والاقامة ، لكن بدون قصد الجزئية ، والأحوط الاكتفاء دفعة واحدة في هذه الشهادة » .

وللسيد علي النخجواني حاشية عليها ، ولم يتعقب هذه الفتوى بشيء .

٢٠ ـ الشيخ زين العابدين الحائري المازندراني المتوفى سنة ١٣٠٩ في (ذخيرة المعاد) بالفارسية ص ٣١٦ طبع بمبيء وعليها حاشية للسيد محمد كاظم اليزدي مطبوعة ، وللشيخ محمد تقي الشيرازي خطية قال : وهذا تعريبه « لا بأس بالشهادة لعلي بن أبي طالب بالولاية بقصد الاستحباب لا بقصد الجزئية » وأمضى هذه الفتوى المحشيان . وذكر الشيخ زين العابدين مثله في رسالة عملية أسماها (مختصر زينة العباد) ص ١٢٤ طبع إيران سنة ١٢٨١ .

٢١ ـ الميرزا الكبير السيد محمد حسن الشيرازي المتوفى سنة ١٣١٢ في رسالته (مجمع الرسائل) عليها حاشية للسيد اسماعيل الصدر العاملي ، قال في ص ٩٨

طبع بمبيء وتعريبه : « الشهادة بالولاية لعلي ليست جزء من الأذان ولكن يؤتى بها أما بقصد الرجحان في نفسه ، وأما بعد ذكر الرسالة فانه حسن ولا بأس به ».

وأمضاه السيد اسماعيل الصدر العاملي ، وفي نسخة أخرى من (مجمع الرسائل) طبع سنة ١٣١٥ عليها حاشية السيد اسماعيل الصدر والآخوند صاحب الكفاية محمد كاظم الخراساني ، والحاج ميرزا حسين الخليلي والسيد كاظم اليزدي والحاج محمد تقي الاصفهاني المعروف بآقا نجفي ، وكلهم أمضى ما أفتى به السيد الشيرازي من استحباب الشهادة بالولاية لعلي عليه السلام . وفي (مجمع المسائل) للسيد الميرزا الشيرازي الكبير طبع إيران سنة ١٣٠٩ عليها حاشية لتلميذه الشيخ عبد النبي النوري المتوفى سنة ١٣٤٤ وقد أمضى ما أفتى به السيد ، وكانت الفتوى عين ما ذكره (أعلا الله مقامه) في (مجمع الرسائل) .

٢٢ ـ الشيخ محمد بن محمد مهدي الأشرفي المتوفى سنة ١٣١٥ في رسالة عملية بالفارسية ص ٦٣ طبع بمبيء سنة ١٢٨٣ قال وهذا تعريبه : « أما الشهادة بالولاية لعلي عليه السلام وإمرة المؤمنين لم تكن جزء ولكنه في محله وموجب لرضى الله تعالى ».

٢٣ ـ ميرزا محمد حسين الشهرستاني المتوفى سنة ١٣١٥ له حاشية على نجاة العباد لصاحب الجواهر ، ولم يعلق على فتوى صاحب الجواهر بالاستحباب .

٢٤ ـ الحاج شيخ محمد علي بن الحاج محمد باقر بن الشيخ محمد تقي صاحب الحاشية على المعالم ، المتوفى سنة ١٣١٨ له حاشية على مجمع الرسائل للسيد حسن الشيرازي الكبير ، طبعت في سنة ١٣١٥ وفي ص ١٦٠ ذكر السيد رجحان الشهادة لعلي عليه السلام بإمرة المؤمنين ، ولم يعلق عليها الحاج شيخ محمد علي .

٢٥ ـ السيد اسماعيل النوري المتوفى سنة ١٣٢١ قال في (شرح نجاة العباد) عند ذكر الماتن كيفية الأذان : « المتصفح للروايات الواردة في فضائل امير المؤمنين عليه السلام يحصل له القطع بمحبوبية اقتران اسمه المبارك والشهادة له بولايته باسم الله

تعالى واسم رسوله ، كلما يذكران لفظاً وكتابة وذكراً ، ولا معنى للاستحباب إلا رجحانه الذاتي النفس الأمري » .

٢٦ ـ الشيخ محمد الشربياني المتوفى سنة ١٣٢٢ له حاشية على رسالة بالفارسية للسيد حسين الترك تقدم ما فيها ، ولم يعلق عليه ، وله حاشية على رسالة الشيخ محمد الأشرفي طبعت في إيران سنة ١٣١٦ وأمضى ما أفتى به الأشرفي من رجحان الشهادة واستحبابها .

٢٧ ـ الشيخ أغا رضا الهمداني المتوفى سنة ١٣٢٢ في (مصباح الفقيه) ص ٢٢١ المطبعة المرتضوية سنة ١٣٤٧ قال : « الأولى أن يشهد لعلي بالولاية وإمرة المؤمنين بعد الشهادتين قاصداً به امتثال العمومات الدالة على استحبابه ، كالخبر المتقدم (خبر الاحتجاج) لا الجزئية من الأذان ، كما أن الأولى والأحوط الصلاة على محمد وآله بعد الشهادة بالرسالة بهذ القصد » .

٢٨ ـ الشيخ محمد طه نجف المتوفى سنة ١٣٢٣ تقدم أن له حاشية على نجاة العباد وأمضى ما أفتى به صاحب الجواهر .

٢٩ ـ الشيخ حسن المامقاني المتوفى سنة ١٣٢٣ في رسالة عملية بالفارسية طبع إيران سنة ١٣٠٧ قال في ص ١٥٥ وتعريبه : « يستحب بعد الشهادة بالرسالة الصلاة على محمد وآله ، والشهادة بالولاية لعلي بن أبي طالب وأمير المؤمنين ، لكن لم يكن جزءاً منها » .

٣٠ ـ السيد محمد بحر العلوم صاحب (بلغة الفقيه) المتوفى سنة ١٣٢٦ قال في رسالته (الوجيزة) ص ٨٩ طبع سنة ١٣٢٤ هـ عند ذكر فصول الأذان والاقامة : « ويستحب فيهما إكمال الشهادتين بالشهادة بالولاية لعلي عليه السلام وإن كانت خارجة عن فصولها » . وعلى هذه الرسالة حاشية للسيد محمد كاظم اليزدي ولم يعلق على هذه العبارة .

٣١ ـ الحاج ميرزا حسين الخليلي المتوفى سنة ١٣٢٦ فقد أمضى جميع ما علقه على الرسالة التي تضمنت استحباب الشهادة بالولاية لعلي عليه السلام مثل نجاة العباد لصاحب الجواهر ، ومجمع الرسائل للميرزا الشيرازي الكبير ، والنخبة للميرزا الكرباسي .

٣٢ ـ الآخوند شيخ محمد كاظم الخراساني صاحب (كفاية الأصول) المتوفى سنة ١٣٢٩ قال في (ذخيرة العباد) ص ٥٣ طبع بمبى، سنة ١٣٢٧ بالفارسية وتعريبه : « الشهادة بالولاية لأمير المؤمنين عليه السلام لم تكن جزءاً من الأذان ، ولكن لا بأس بذكرها بقصد القربة المطلقة بعد ذكر الشهادة لرسول الله صلى الله عليه وآله » ولم يعلق عليها الحجة الشيخ عبد الحسين الرشتي فيما كتبه من الحواشي عليها .

٣٣ ـ شيخ عبدالله المازندراني المتوفى سنة ١٣٣٠ لم يعلق على فتوى ملا محمد الأشرفي من استحباب الشهادة بالولاية لعلي عليه السلام .

٣٤ ـ شيخ محمد تقي بن محمد باقر بن صاحب الحاشية على المعالم المعروف بأقا نجفي الاصفهاني المتوفى سنة ١٣٣٢ قال في رسالة عملية بالفارسية ص ٧٨ طبع بمبى، سنة ١٢٩٦ وتعريبه : الشهادة بالولاية لعلي عليه السلام ليست جزء من الأذان ، ولكن يستحب أن يؤتى بها بقصد الرجحان ، أما في نفسه أو بعد ذكر الرسول صلى الله عليه وآله » .

٣٥ ـ ملا محمد علي الخونساري الامامي المتوفى ١٣٣٢ قال في رسالته الفارسية طبع سنة ١٣٢٣ : « الشهادة لعلي عليه السلام ليست جزء بل يؤتى بها بقصد الرجحان ، أما في نفسه أو لما ورد بعد ذكر الرسول صلى الله عليه وآله » .

٣٦ ـ ميرزا أبو القاسم الأوردبادي المتوفى سنة ١٣٣٣ في كتابه الاستدلالي في الفقه مخطوط ، وكان من تلامذة النهاوندي والفاضل الايرواني ، قال : « لقد ورد الاقرار بأن علياً أمير المؤمنين كلما أقرّ بالتوحيد والرسالة ، وهو بعمومه

يقتضي الاستحباب في الأذان والاقامة » .

٣٧ ـ محمد علي مدرس چهاردهي المتوفى سنة ١٣٣٤ في رسالة (زبدة العبادات) طبع بمبىء سنة ١٣٢٤ قال في ص ١٥٥ وتعريبه : « لم تكن الشهادة بالولاية جزء من الأذان والاقامة ، بل يؤتى بها بعد الشهادة بالرسالة بعنوان الرجحان المطلق ، لدلالة الروايات عليها بعد الرسالة في كل وقت » .

٣٨ ـ شيخ محمد جواد الشيخ مشكور الحولاوي المتوفى سنة ١٣٣٤ له حاشية مطبوعة على رسالة والده المسماة (كفاية الطالبين) وقد أمضى ما أفتى به والده .

٣٩ ـ السيد مهدي بن السيد أحمد بن السيد حيدر الكاظمي المتوفى سنة ١٣٣٦ له رسالة عملية طبعت في بمبىء سنة ١٣٢٧ قال في ص ٧٦ : « ويستحب الشهادة لعلي عليه السلام بالولاية لله وإمرة المؤمنين بعد الشهادتين لابعنوان الجزئية » وللميرزا النائيني حاشية خطية عليها وقد أمضى هذه الفتوى .

٤٠ ـ السيد محمد كاظم اليزدي المتوفى سنة ١٣٣٧ في (طريق النجاة) قال في ص ٢٨ طبع بغداد سنة ١٣٣٠ : « الشهادة لعلي بالولاية لم تكن جزءاً من الأذان ، وبعنوان القربة حسن » . وقد عرفت في حواشيه على (نجاة العباد) وغيرها الموافقة على الاستحباب .

٤١ ـ السيد اسماعيل الصدر العاملي المتوفى سنة ١٣٣٨ قال في (أنيس المقلدين) ص ١٥ طبع بمبىء سنة ١٣٢٩ : « الشهادة لعلي عليه السلام بالولاية وإمرة المؤمنين في الأذان والاقامة بقصد القربة لا بقصد الجزئية لا إشكال فيه » . وقال (أعلا الله مقامه) في رسالته (مختصر نجاة العباد) ص ٤٤ طبع بمبىء سنة ١٣١٨هـ : « وإكمال الشهادتين بالشهادة لعلي بالولاية لله وإمرة المؤمنين حسن لابأس به » .

٤٢ ـ ميرزا محمد تقي الشيرازي المتوفى سنة ١٣٣٨ قال في رسالة عملية

طبعت في بغداد مطبعة الآداب سنة ١٣٢٨ قال في ص ٦٠ : « ويستحب الصلاة على محمد وآله عند ذكر اسمه الشريف وإكمال الشهادتين بالشهادة لعلي بالولاية وإمرة المؤمنين في الأذان وغيره » . وقد مرّ عليك مصادقته على ما نصت به الرسائل التي علق عليها .

وعلى هذه الرسالة حاشية خطية للشيخ موسى الأردبيلي المتوفى سنة ١٣٥٧ ولم يعلق عليها .

٤٣ ـ الشيخ الشريعة الاصفهاني المتوفى سنة ١٣٣٩ في (الوسيلة) طبع تبريز سنة ١٣٣٧ ص ٦٨ بالفارسية وتعريبه : « والشهادة لعلي عليه السلام لم تكن جزء من الاذان ، وبقصد القربة بعد الشهادة بالرسالة حسن جيد » .

٤٤ ـ الشيخ أحمد كاشف الغطاء المتوفى سنة ١٣٤٤ في (سفينة النجاة) ج ١ ص ٢٠٦ المطبعة الحيدرية سنة ١٣٣٨ قال : « ويستحب في الأذان والاقامة إكمال الشهادتين بالشهادة بالولاية لعلي مرتين ، وان كانت خارجة عن فصولها » .

٤٥ ـ الشيخ عبد النبي النوري من تلامذة الميرزا الشيرازي الكبير المتوفى سنة ١٣٤٤ له تعليقة على رسالة أستاذه (مجمع المسائل) ، ووافقه على الفتوى بالاستحباب .

٤٦ ـ السيد محمد الفيروزأبادي المتوفى سنة ١٣٤٦ في (ذخيرة العباد) المطبعة الحيدرية سنة ١٣٤٢ ص ٦٢ بالفارسية وتعريبه : « الشهادة بالولاية لعلي عليه السلام لم تكن جزء من الأذان ، والاتيان بها بعد الشهادة بالرسالة بقصد القربة جيد » .

٤٧ ـ شيخ شعبان الرشتي المتوفى سنة ١٣٤٧ قال في (وسيلة النجاة) ص ٧٨ المطبعة الحيدرية سنة ١٣٤٦ وتعريبه : « الشهادة بالولاية لم تكن جزء من الأذان ، ولكن يؤتى بها بقصد القربة المطلقة بعد الشهادة لرسول الله » .

٤٨ ـ شيخ عبدالله المامقاني المتوفى سنة ١٣٥١ قال في (مناهج المتقين) ص ٦٢ المطبعة المرتضوية سنة ١٣٤٤ : « لو أتى بالشهادة بالولاية لعلي عليه السلام مرتين بعد الشهادة بالرسالة تيمناً بقصد القربة المطلقة لا بقصد الجزئية لم يكن به بأس وكان حسناً » .

٤٩ ـ السيد حسن الصدر الكاظمي المتوفى سنة ١٣٥٤ في (المسائل المهمة) ص ٢٢ طبع صيدا سنة ١٣٣٩ قال : « ويستحب الصلاة على محمد وآله عند ذكر اسمه الشريف وإكمال الشهادتين بالشهادة لعلي عليه السلام بالولاية وإمرة المؤمنين في الأذان وغيره » .

٥٠ ـ الشيخ موسى الأردبيلي المتوفى سنة ١٣٥٧ له حاشية على رسالة ميرزا محمد تقي الشيرازي المتقدمة ، ولم يتعقب ما أفتى به الميرزا » .

٥١ ـ السيد محمد مهدي الصدر الكاظمي المتوفى سنة ١٣٥٨ في (بغية المقلدين) طبع حيدر أباد الدكن سنة ١٣٤٩ قال في ص ٥٢ وهذا تعريبه : « الشهادة بولاية أمير المؤمنين وإن لم تكن جزء من الأذان والاقامة ، لكنه حسن جداً وإعلاء لكلمة الايمان ، وفعلا هو من شعار الشيعة ، وأحسن كيفيات الشهادة لعلي أن يقول بعد الشهادة بالرسالة : وأن علياً أمير المؤمنين وولي الله » .

٥٢ ـ الميرزا محمد حسين النائيني المتوفى سنة ١٣٥٥ في (وسيلة النجاة) ص ٥٦ المطبعة الحيدرية سنة ١٣٤٠ : « يستحب الصلاة على محمد وآله عند ذكر اسمه الشريف ، وإكمال الشهادتين بالشهادة لعلي عليه السلام بالولاية وإمرة المؤمنين في الأذان وغيره » .

٥٣ ـ الشيخ محمدحسين الاصفهاني الكمپاني المتوفى سنة ١٣٦١ في (وسيلة النجاة) نفس ما ذكره النائيني ، لأنه علق عليها وأدخل الحواشي في الأصل .

٥٤ ـ السيد أبوالحسن الموسوي الاصفهاني المتوفى سنة ١٣٦٥ في (ذخيرة

العباد) بالفارسية مطبعة الراعي في النجف سنة ١٣٦٤ ص١١٢ قال وهذا تعريبه :
« والشهادة بالولاية لعلي عليه السلام ليست جزء من الأذان ، ولكن حسن إذا أتى بها بعد الشهادة بالرسالة بقصد القربة » .

٥٥ ـ السيد حسين القمي المتوفى سنة١٣٦٦ في (مختصر الأحكام) بالفارسية المطبعة العلمية سنة ١٣٥٥ ص ٢٦ وتعريبه : « ويستحب الصلاة على محمد وآله بعد الشهادة بالرسالة في الأذان والاقامة ، ومن كمال الشهادتين الشهادة بالولاية وإمرة المؤمنين لعلي » ومثله في رسالته (ذخيرة العباد) بالفارسية المطبعة العلمية سنة ١٣٦٦ ص ١٠٧ .

٥٦ ـ الشيخ محمد رضا آل ياسين المتوفى سنة ١٣٧٠ له حاشية على (بغية المقلدين) للسيد محمد مهدي الصدر خطية ، ووافقه على ما أفتى به من الاستحباب .

٥٧ ـ السيد صدر الدين الصدر المتوفى سنة ١٣٧٣ له حاشية على (منتخب المسائل) للسيد حسين القمي طبع دار النشر والتأليف سنة ١٣٦٥ ص ٧٢ ووافق السيد على قوله : « وأما الشهادة بالولاية لعلي فليست جزء من الأذان ، ولو أتى بها بقصد القربة بعد الرسالة كان حسناً » .

٥٨ ـ الشيخ عبد الحسين الرشتي المتوفى سنة ١٣٧٣ له حاشية خطية على (ذخيرة العباد) للآخوند الخراساني ، صاحب (كفاية الأصول) ، ووافقه على ما أفتى به من الاستحباب .

٥٩ ـ الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء المتوفى سنة ١٣٧٣ في (حاشيته على العروة الوثقى) ص ٦٣ المطبعة المرتضوية في النجف قال : « يمكن استفادة كون الشهادة بالولاية والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله أجزاء مستحبة في الأذان والاقامة من العمومات » .

هذه كلمات فطاحل العلماء المحققين ، والكل ينادون بصوت واحد رفيع

في الأذان والاقامة بعد الشهادتين (أشهد أن علياً ولي الله) غير هيابين ولا محابين في ذلك ، استناداً إلى عمومات الأخبار الآمرة بالشهادة الثالثة بعد الشهادتين ، وانها مكملة لها ، ولم تتقيد تلك العمومات بزمان ولا مكان ولا فعل خاص ، والأذان من جملة تلك الموارد ، وهذا الاتفاق منهم كما قرأته في فتواهم التي قدمناها لك ، يشهد بثبوت هذا الحكم في الشريعة المقدسة ، بل قد عرفت رجحان الاتيان بالشهادة الثالثة حتى عند الصدوق والشيخ الطوسي والشهيد الأول والشهيد الثاني فتسالم الشيعة على الاعلان بهذه الشهادة في أوقات صلاتهم لم يكن جزافاً وإنما أخذوا هذا الحكم الالهي كبقية الأحكام الشرعية من علماء أبرار وحفظة للدين أتقياء لا يردعهم عما علموه وقفة غيرهم ، والذي يوضح ما قلناه (أولا) اتفاقهم على عدم جزئية الشهادة الثالثة ، وإن لم يستبعدها بعضهم ، واتفاقهم (ثانياً) على رجحانها المطلق واستحباب الاتيان بها في الأذان بقصد القربة ، وان الواقف على تراجمهم يتجلى له تورعهم عن الاسراع في الفتوى من دون تثبت ، كيف وقد أحيوا الليالي وقطعوا الأيام الطوال في التنقيب عن مستند الأحكام فلا تراهم يهابون أحداً في نشر ما صح لديهم من الأخبار الدالة على الشريعة الحقة والمذهب الصحيح ، ولا تأخذهم في تثبت الدعوة الالهية لومة لائم ، وهذه مؤلفاتهم الاستدلالية ورسائلهم العملية تشهد بجهودهم الجبارة في درس حقائق الشريعة الراهنة ، والغاية المتواخاة لهم ، انتشال الأمة من هوة المخالفة للدين المستتبعة للخزي يوم يقوم الناس لرب العالمين ، فقدموا إلى الملأ الديني نتائج أفكارهم ليسيروا على ضوء التعاليم القدسية فيفوزوا بالرضوان الأكبر، وما ضرهم إذا أبت النفوس إلا النكوص على الأعقاب والتردد في الطغيان ونبذ المبادىء الصحيحة ، فتقلبوا في هذه الدنيا الذميمة آمنين مناقشة الحساب « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون » .

فتوى علماء العصر الحاضر :

على ضوء تلك العمومات الدالة على رجحان الشهادة بالولاية لعلي ﷺ وما نص به خبر الاحتجاج المتقدم ذكره ، وتسالم عليه أعلام الامامية من عهد يرتقي على عهد الشيخ الصدوق المتوفى سنة ٣٨١ ، ولم يتباعـــد عنهم الشيخ الطوسي والشهيدان .

أفتى علماء الأمة وفقهاء العصر الحاضر باستحباب الشهادة بالولاية في الأذان لا بقصد الجزئية : منهم السيد البروجردي في رسالته العملية التي أسماها (المسائل الفقهية) ص ١٢٦ . والسيد عبد الهادي الشيرازي . والسيد محمود الشاهرودي . والسيد حسين الحمامي . والسيد ميرزا أغا الشيرازي الاصطهباناتي في رسالته (ذخيرة العباد) ص ٤٦ طبع سنة ١٣٦٦ . والسيد محمد جواد الطباطبائي التبريزي والسيد محمد البغدادي . والشيخ محمد حسن مظفر في رسالته (وجيزة المسائل) ص ٢٦ طبع سنة ١٣٧٠ .

فتوى السيد محسن الحكيم :

قال في (مستمسك العروة الوثقى) ج ٤ ص ١٤ : « لا بأس بالاتيان بالشهادة بالولاية بقصد الاستحباب المطلق ، لما في خبر الاحتجاج ، « إذا قال أحدكم لا إله إلا الله محمداً رسول الله ، فليقل علي أمير المؤمنين » ، بل ذلك في هذه الأعصار معدود من شعائر الايمان ورمز إلى التشيع ، فيكون من هذه الجهة راجحاً شرعاً ، بل قد يكون واجباً ، لكن لا بعنوان الجزئية من الأذان ،

ومن ذلك يظهر وجه مافي البحار من أنه لايبعد كون الشهادة بالولاية من الأجزاء المستحبة للأذان ، لشهادة الشيخ والعلامة والشهيد وغيرهم بورود الأخبار بها ، وأيد ذلك بخبر القاسم بن معاوية المروي عن الاحتجاج للطبرسي عن الصادق » .

وقال في (منهاج الصالحين) ص ١٢٩ الطبعة السابعة : « وتستحب الصلاة على محمد وآله عند ذكر اسمه الشريف ، وإكمال الشهادتين بالشهادة لعلي عليه السلام بالولاية وإمرة المؤمنين في الأذان وغيره » .

فتوى ميرزا باقر الزنجاني :

قال في جواب من سأله عن هذه المسألة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وجوب الاذعان بولاية علي (صلوات الله عليه) وإمرته للمؤمنين من صلة الدين الاسلامي ، وبها اكمل الله تعالى ديننا ورضي لنا الاسلام ديناً ، والاقرار بها في اللسان والشهادة بها في الاسرار والاعلان ، أمر مطلوب لا شك فيه ، وقد شهد بولايته (صلوات الله عليه) ملائكة السماء رديف شهادتهم له سبحانه وتعالى بالوحدانية ، ولمحمد صلى الله عليه وآله بالنبوة ، وسمعها النبي منهم ليلة (الاسراء) وقد بلغنا عن أئمتنا الهداة (صلوات الله عليهم) الأمر عقيب قول لا إله إلا الله محمد رسول الله أن يقول : (علي أمير المؤمنين) بنحو الاطلاق وبه أخذ الامامية خلفاً عن سلف فجهروا بتلك الشهادة عقيب الشهادتين في الأذان على المآذن وفي المساجد وأوقات الصلوات ، حتى صار ذلك شعاراً لهم ، كل ذلك بمرأى ومسمع من أكابر الفرقة وأعلامها في الأعصار البعيدة ، ولم ينكر ذلك عليهم أحد منهم ممن له شأن يذكر ، ومن أنكر منهم فانما أنكر الافتاء بمضمون بعض الأخبار الظاهرة في كون الشهادة بالولاية من فصول الأذان وأجزائه .

فالعلماء الأعلام مع ما لهم من المساعي المشكورة في إبطال البدع الباطلة وإن اتفقت كلمتهم على أن الشهادة الثالثة لم تكن من أجزاء الأذان وفصوله المأثورة إلا أنهم أطبقوا على الجهر بها بأنفسهم وعرفوا من يقلدهم باستحباب الاتيان بالشهادة الثالثة وانها من مكملات الشهادتين .

فالامامية يعلمون أن هذه الشهادة كالصلاة على النبي وآله عقيب ذكر اسمه الشريف في خروجها عن فصول الأذان ، وإنما هما من الآداب المطلوبة على الاطلاق المرغوب فيها بمقتضى الأخبار ، فكما أن الصلاة على النبي ﷺ راجحة ومستحبة عند ذكر اسمه الشريف سواء في ذلك الأذان وغيره ، فكذلك الشهادة بالولاية لعلي عليه السلام مستحبة في الأذان وغيره كلما ذكرت الشهادتان ، وكما لا تعد الشهادة بها من فصول الأذان ، لا تعد الصلاة عليه ﷺ من فصول الأذان .

نعم للصلاة على النبي ﷺ خصوصية تفارق الشهادة بالولاية ، وهي جواز الاتيان بالصلاة على الرسول ﷺ أثناء الصلاة ، وأما الشهادة بالولاية فلا يؤتى بها في أثناء الصلاة للأخبار الخاصة الناهية عن إدخال الكلام في أثناء الصلاة ، إلا ما كان ذكراً أو قرآناً أو دعاء ، والصلاة على النبي من الدعاء دون الشهادة بالولاية .

فعلى أبناء الشيعة (ثبتهم الله تعالى بالقول الثابت) أن يقتفوا أثر أسلافهم التابعين لفتاوي علمائهم الابرار ، أن لا يتركوا هذا الشعار المشروع الذي لا مطعن فيه ولا مغمز ، وليستقيموا كما أمروا . وفقهم الله لما يحب ويرضى » .

فتوى السيد الخوئي :

ممن سئل عن الشهادة الثالثة في الأذان السيد أبو القاسم الخوئي ، فكتب في الجواب ما نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لاريب في أن الشهادة لعلي (عليه وعلى أولاده الطاهرين أفضل التحية والسلام) بالولاية ، وإن لم تكن جزءاً من الأذان والاقامة إلا أنها في نفسها مستحبة بلا إشكال ، وقد ورد(١) الأمر بها لخصوص عند الشهادة بالرسالة بلاتقييد بحال دون حال ، بل الشهادة بالولاية مكملة للشهادة بالرسالة ، فكما أن الايمان بالله وبرسوله ﷺ لا يتم إلا بالايمان بالولاية ، لأنه بها كمل الدين وتمت النعمة ، فكذلك لا تتم الشهادة بالرسالة إلا بالشهادة بالولاية ، وقد جرت سيرة العلماء والأبرار على الشهادة بالولاية في الأذان والاقامة لا بقصد الجزئية منذ عهد بعيد من دون نكير من أحدهم حتى أصبح ذلك شعاراً للشيعة ومميزاً لهم عن غيرهم ، ولا ريب في أن لكل أمة أن تأخذ ما هو سائغ في نفسه بل راجح في الشريعة المقدسة شعاراً لها ، نعم لا يجوز ذلك فيما هو ممنوع منه في الدين ، ومن هنا لا تجوز الشهادة الثالثة في الصلاة ، لأن الدين منع عن كل كلام فيها غير القرآن والذكر والدعاء ، فليس كل كلام مستحب في نفسه يجوز في الصلاة ما لم يكن قرآناً أو ذكراً أو دعاءاً ، وتفصيل ذلك موكول إلى محله » .

---

(١) راجع هامش الصفحة ١٣٤ .

فتوى السيد علي مدد القائيني :

« بسم الله الرحمن الرحيم لاريب ولا إشكال في رجحان الشهادة بالولاية لعلي بن أبي طالب في الأذان والاقامة لا بقصد الجزئية ، للأصل وعدم المانع والأخبار المطلقة الآمرة بذكر الآل بعد ذكر الرسالة ، وما رواه في الاحتجاج من اقتران الشهادة بامرة المؤمنين لعلي عليه السلام بعد الشهادتين ، والأخبار الخاصة التي شهد بها الصدوق والشيخ الطوسي ، ولأجلها ذهب المجلسي وبعض من تأخر عنه إلى استحباب الشهادة الثالثة ولو بقصد الجزئية ، وبعد اعتراف هذين العلمين ، الصدوق والطوسي بوجود الأخبار الآمرة بالشهادة الثالثة في الأذان لا وجه لرفع اليد عنها . وأما رميهم لها بالشذوذ فيرده ما تسالم عليه العلماء من جبر الخبر الضعيف بالتسامح في أدلة السنن ، مع أن مسألة الولاية من كمال الدين كما نص عليه الكتاب « اليوم اكملت لكم دينكم » ومما بني عليها الاسلام ، فقد ورد في الحديث : « بني الاسلام على خمس » وعدّ منها الولايه ، ولم يناد بشيء كما نودي بالولاية ، أما رواية الاحتجاج « إذا قال أحدكم لا إله إلا الله محمداً رسول الله فليقل علي أمير المؤمنين » وإن كان لسانها العموم فتشمل حتى الأذان إلا أن العارف بأساليب كلام المعصومين لا يفوته الجزم بأن غرض الامام عليه السلام الاشارة إلى جزئية الشهادة الثالثة في الأذان الذي يكرره الانسان فى اليوم والليلة ، ولكن لما أوصد سلطان الضلال الأبواب على الأئمة (عليهم السلام) كما تشهد به جدران الحبوس وقمر السجون المظلمة لم يجد الامام بداً من اختيار هذا النحو من البيان لعلمه بتأثير كلامه في نفوس الشيعة وقيامهم بما يأمرهم به في كل الأحوال وأهمها حال الأذان ، لأنه وجه العبادة ومفتاح الأصول

إلى ساحة الجلال الالهي ، وهذا لطف من إمام الأمة ﷺ بشيعته لينالوا الدرجات العالية وأقصى المثوبات ، ومن هنا يمكن دعوى اتصال سيرة العلماء والمتدينين على الجهر بالولاية في الأذان في صلواتهم بزمان المعصوم ﷺ وهـذه السيرة من العلماء مع العمومات الآمرة بالولاية في كل الأحوال في السر والعلانية ، تصد دعوى البدعة . فالشهادة بالولاية لأمير المؤمنين في الأذان والاقامة مما لا ريب في رجحانه » .

فتوى الشيخ مرتضى آل ياسين :

« بسم الله الرحمن الرحيم : لا ينبغي الاشكال في استحباب الشهادة لعلي ﷺ بالولاية عقيب ذكر الشهادتين في كل من الأذان والاقامة ، إذا لم يقصد بها الجزئية ، كما عليه سيرة المؤذنين من أبناء الشيعة الامامية في كل زمان وكل مكان وذلك للأخبار الدالة بكل صراحة على استحباب القرآن بين الشهادتين : الشهادة للنبي ﷺ بالرسالة ، والشهادة لعلي أمير المؤمنين ﷺ بالولاية . ودعوى لزوم التشريع من ذكرها زيادة على الفصول المعتبرة في الأذان والاقامة ، مدفوعة بعدم لزومه قطعاً مع عدم قصد الجزئية فيهما كما هو المفروض .

وأما الأخبار الدالة على كراهة التكلم في الأذان والاقامة فلاتصلح معارضاً لتلك الأخبار الدالة على استحباب القرآن بين الشهادتين مطلقاً ، لأن مورد الكراهة حسبما هو المستفاد من أدلتها مختص بالتكلم بعد إقامة الصلاة (أي بعد قول المقيم قد قامت الصلاة ، أو فيمابين الأذان والاقامة في خصوص صلاة الغداة) وليس فيها ما يدل على كراهته في الاقامة قبل إقامة الصلاة ، كما ليس فيها ما يدل على كراهته في الأذان مطلقاً كما لا يخفى ذلك على من راجع أخبار الباب . هذا

بعد تسليم كون الشهادة الثالثة من الكلام الخارج عن عنوان الكلام المرخص فيه شرعاً في مثل الصلاة ، فضلا عن غيرها من الوظائف الشرعية ، كالتكلم بذكر الله (جل شأنه) وذكر النبي ﷺ ، مع أن للمنع من خروجه عن هذا العنوان مجالا واسعاً : أما أولاً فلامكان دعوى انصراف الكلام المحكوم عليه بالكراهة أو الحرمة عن مثل الشهادة بالولاية لعلي عليه السلام كما اعترف به غير واحد من أهل العلم ، وأما ثانياً فلما دل على أن ذكره وذكر الأئمة من ولده (عليهم أفضل الصلاة والسلام) من ذكر الله تعالى ، وذلك ما رواه في الكافي عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام : « ما اجتمع قوم في مجلس لم يذكروا الله ولم يذكرونا إلا كان ذلك المجلس حسرة عليهم يوم القيامة ، ثم قال قال أبو جعفر عليه السلام : ذكرنا من ذكر الله وذكر عدونا من ذكر الشيطان » . وهذا التنزيل المستفاد صريحاً من هذه الرواية الشريفة يقضي بخروج ذكرهم (صلوات الله عليهم) عن دائرة الكلام المكروه والمحرم ولحوقه بذكر الله سبحانه وتعالى في جميع ما رتب عليه من الأحكام ، وقد جاء في رواية الحلبي عن أبي عبدالله عليه السلام : « كل ما ذكرت الله (عزوجل) به والنبي فهو من الصلاة » . ومن هنا يظهر لك وجه القول بجواز ذكر الشهادة الثالثة في الصلاة فضلا عن الأذان والاقامة ، والله العالم » .

ما جعل الله للمؤذن من الأجر :

يتحدث الينا الشيخ الصدوق (ره) في كتابه (من لا يحضره الفقيه) قال رسول الله ﷺ : « للمؤذن فيما بين الأذان والاقامة مثل أجر الشهيد المتشحط بدمه في سبيل الله (عز وجل) ، فقال علي عليه السلام : إنهم يجتلدون على الأذان . فقال : كلا إنه يأتي على الناس زمان يطرحون الأذان على ضعفائهم فتلك لحوم

حرمها الله على النار » .

وقال ﷺ : « من أذن في مصر من أمصار المسلمين سنة وجبت له الجنة» .

وقال أبو جعفر ؑ : « المؤذن يغفر الله له مد بصره ومد صوته في السماء ويصدقه كل رطب ويابس يسمعه ، وله من كل من يصلي معه في مسجد سهم ، وله بكل من يصلي بصوته حسنة » .

وقال ؑ : « من أذن سبع سنين محتسباً جاء يوم القيامة لا ذنب له » .

وقال الصادق ؑ في المؤذنين : « إنهم الأمناء » .

وروي عن عبدالله بن علي قال : « حملت متاعي من البصرة إلى مصر ، فقدمتها فبينما أنا في بعض الطريق إذا أنا بشيخ طويل شديد الأدمة أبيض الرأس واللحية ، عليه طمران أحدهما أبيض والآخر أسود . فقلت : من هذا ؟ فقالوا : هذا بلال مولى رسول الله ﷺ فأخذت ألواحاً فأتيته فسلمت عليه فقلت له : السلام عليك أيها الشيخ فقال : وعليك السلام . قلت : يرحمك الله تعالى حدثني بما سمعت من رسول الله ﷺ فقال : وما يدريك من أنا . فقلت : أنت بلال مؤذن رسول الله . قال : فبكى وبكيت حتى اجتمع الناس علينا ونحن نبكي ، قال : ثم قال : يا غلام من أي البلاد أنت ؟ قلت : من أهل العراق ، قال : بخ بخ ثم سكت ساعة ، ثم قال : اكتب يا أخا أهل العراق ، بسم الله الرحمن الرحيم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : المؤذنون أمناء المؤمنين على صلواتهم وصومهم ولحومهم ودمائهم ، لا يسألون الله عز وجل شيئاً إلا أعطاهم ، ولا يشفعون في شيء إلا شفعوا . قلت : زدني يرحمك الله . قال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم سمعت رسول الله ﷺ يقول : من أذن أربعين عاماً محتسباً بعثه الله عز وجل يوم القيامة وله عمل أربعين صدّيقاً ، عملا مبروراً متقبلا . قلت : فزدني يرحمك الله قال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : من أذن

عشرين عاماً بعثه الله عز وجل يوم القيامة وله من النور مثل زنة السماء ، قلت : زدني يرحمك الله . قال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : من أذن عشر سنين أسكنه الله عز وجل مع ابراهيم الخليل ﷺ في قبته أو في درجته . قلت : زدني يرحمك الله عز وجل . قال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : من أذن سنة واحدة بعثه الله عز وجل يوم القيامة وقد غفرت ذنوبه كلها بالغة ما بلغت ، ولو كانت مثل زنة جبل أحد قلت : زدني يرحمك الله ، قال : نعم فاحفظ واعمل واحتسب ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : من أذن في سبيل الله صلاة واحدة إيماناً واحتساباً وتقرباً إلى الله عز وجل غفر الله له ما سلف من ذنوبه ، ومنّ عليه بالعصمة فيما بقي من عمره ، وجمع بينه وبين الشهداء في الجنة . قلت : زدني يرحمك الله . حدثني بأحسن ما سمعت من رسول الله ﷺ . قال : ويحك يا غلام قطعت أنياط قلبي ، وبكى وبكيت حتى اني والله لرحمته ، ثم قال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : إذا كان يوم القيامة وجمع الله عزوجل الناس في صعيد واحد ، بعث الله عز وجل إلى المؤذنين بملائكة من نور ومعهم ألوية وأعلام من نور ، يقودون نجائب أزمتها زبرجد أخضر وخفائفها المسك الأذفر ، يركبها المؤذنون فيقومون عليها قياماً تقودهم الملائكة ، ينادون بأعلا صوتهم بالأذان ، ثم بكى بكاءاً شديداً حتى انتحب وبكيت ، فلما سكت قلت : مم بكاؤك ؟ فقال : ويحك ذكرتني أشياء سمعت حبيبي وصفيي ﷺ يقول : والذي بعثني بالحق نبياً انهم ليرون على الخلق قياماً على النجائب ، فيقولون : الله اكبر الله اكبر ، فاذا قالوا ذلك سمعت لأمتي ضجيجاً ، فسأله أسامة بن زيد عن ذلك الضجيج ما هو ؟ قال : الضجيج التسبيح والتحميد والتهليل ، فاذا

قالوا : أشهد أن لا إله إلا الله قالت أمتي : نعم إياه كنا نعبد في الدنيا ، فيقال لهم : صدقتم ، فاذا قالوا : أشهد أن محمداً رسول الله ، قالت أمتي : هذا الذي أتانا برسالة ربنا جل جلاله ، وآمنا به ولم نره ، فيقال لهم : صدقتم هذا الذي أدى اليكم الرسالة من ربكم وكنتم به مؤمنين ، فحقيق على الله عزوجل أن يجمع بينكم وبين نبيكم ، فينتهى بهم إلى منازلهم وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ثم نظر إلي فقال : إن استطعت ولا قوة إلا بالله أن لا تموت إلا وأنت مؤذن فافعل . . » .

نوادر المؤذنين :

قيل : استؤجر رجل في قرية على أن يؤذن بعشرة دراهم ، فاستزادهم فقالوا : ليس لنا ما نزيدك ولكن قد سامحناك في حي على الفلاح فلا معنى له مع قولك حي على الصلاة .

وقال بعضهم : مررت برجل يقول في أذانه : أشهد أن لا إله إلا الله وهم يشهدون أن محمداً رسول الله . فقلت : ما لك لا تشهد شهادتهم ؟ فقال : إنه يهودي مستأجر .

وقال بعضهم : دخلت قرية فحان وقت الصلاة ، فدخلت مسجدها فأذنت وأقمت وصليت بجماعة منها دخلوا المسجد ، فلما سلمت ودعوت قال أحدهم : أمسلم أنت أم يهودي ؟ فقلت : هل رأيت يهودياً صلى بمسلمين ؟ قال : إنما نقول : لأن يهودكم خير من مسلمينا .

شوهد مؤذن يؤذن من رقعة ، فقيل له : ما تحفظ الأذان ؟ فقال : سلوا القاضي . فأتوه فقالوا : السلام عليكم . فأخرج دفتراً وتصفحه ، وقال : وعليكم السلام . فعذروا المؤذن .

---

(١) أقول ولعلّ سيّدنا الاستاذ ادام الله ظله الشريف يشير الى خبر الاحتجاج وقد ذكره الفقيد السعيد السيّد الحكيم قدس سره فى كلامه المتقدم . وهنا رواية اخرى لا بأس بذكرها وهى ما رواه ثقة الاسلام سندا عن سنان بن طريف عن ابيعبد الله عليه السلام،يقول قال : أنا أوّل اهل بيت نوّه الله بأسمائنا (اى دعاه برفع الصوت ورفع ذكره ومدحه وعظمه) أنه لمّا خلق السموات والارض أمر مناديا فنادى : أشهد أن لا اله الا الله ثلاثا ، أشهد أن محمدا رسول الله ثلاثا ، أشهد أنّ عليّا أمير المؤمنين حقا ثلاثا . (اصول الكافى مولد النبى "ص" ـ الحديث ٨ ومرآة العقول ط ٢ ـ ٥/ ٢٩٤ وأخرجه الصدوق فى أماليه كما فى البحار ٣٧/ ٢٩٥) . ويصحّ تأييد ذلك بجملة من الروايات منها مادلّ على كتابة اسم الامام أمير المؤمنين عليه السّلام مع كلمة التوحيد ورسالة نبيّنا على ساق العرش كما فى جملة منها أوباب الجنّة كما فى جملة أخرى ونحو ذلك .

وأرى من الجميل ذكر شهادة الحجة الثانى عشر صاحب العصر (عج) ، قال روحى فداه (بعدما قال له أبوه الامام الحسن العسكرى ـع ـ : تكلّم يابنيّ) : أشهد أن لا اله الاّ الله وأن محمدا رسول الله (ص) وأنّ عليّا أمير المؤمنين (ع) . وهذا اوّل كلامه حينما ولد . (اثبات الوصية للمسعودى ص ٢٢٠) . م ـ مراغى

حق الامام

قوله (عليه السلام) :

« وأما حق امامك في صلاتك ، فأن تعلم أنه تقلد السفارة فيما بينك وبين ربك عز وجل ، وتكلم عنك ولم تتكلم عنه ، ودعا لك ولم تدع له ، وكفاك هول المقام بين يدي الله عزوجل ، فان كان نقص كان عليه دونك ، وإن كان تماماً كنت شريكه ، ولم يكن له عليك فضل ، فوقى نفسك بنفسه وصلاتك بصلاته ، فتشكر له على قدر ذلك » .

• • •

المدخل :

إن الأمة تقوى وتعز بقدر ما تترابط وتتماسك ، وتنتصر فيها الروح الجمعية ، وتنعدم الأثرة والأنانية وحب الذات .

فالأمة المتفرقة التي يسير كل فرد فيها وراء أهوائه ورغباته الخاصة ، هدف قريب المنال ، ولقمة سائغة المذاق ، الكل من تحدثه نفسه باذلالها واستعبادها ، بل إن ضعف الأمة وتفرقها شيعاً وأحزاباً ، ليغري بها الغاصبين والمستعمرين .

وصدق رسول الله ﷺ : « فانما يأكل الذئب من الغنم القاصية » .

وصدق علي أمير المؤمنين عليه السلام : « الشاذ من الجماعة للشيطان ، كما أن الشاذ من الغنم للذئب » وأمة هذا شأنها يتعذر توجيهها وإرشادها إلى ما فيه خيرها وصلاحها ، فلا يرجى منها سمع ولا طاعة ، ولا تثار فيها غيرة ولا كرامة .

وهنا نستطيع أن نلمس الفائدة التي يمكن أن تعود على الأمة الاسلامية من صلاة الجماعة ، فهي عامل فعال من عوامل التكتل والترابط ، على أساس فاضل متين تلغى فيه الفوارق بين الطبقات ، ولا يذكر فيه كل إنسان عن نفسه إلا أنه لبنة صالحة في مجتمع قويم ، يشعر كل واحد بأنه أخ الكل من في المسجد ، وأنه مساو له ، فتنمو روح المساواة الحقيقية ، لا فرق بين غني وفقير ، ولا بين عظيم وحقير ، فكلهم عباد الله اجتمعوا في بيته يظللهم ظلال المحبة والأخوة في الله .

وبهذه الممارسة العملية للمساواة تنتفي فوارق اللون وفوارق الثراء وفوارق الدم فيشعر الفرد شعوراً حقيقياً بأنه للجماعة ، وتشعر الجماعة بأنها للفرد ، وهذه الغاية هي أسمى الغايات التي يجهد العلماء الحكماء ، والمربون والفلاسفة أنفسهم في تحقيقها ، ليعم البشرية الأمن والسلام .

ويلاحظ أن هذه الحكم لايمكن أن تتحقق إلا إذا أقبل المصلي على صلاته بوعي كامل ويقظة تامة ، وتأمل حقيقي في أقوال الصلاة وأفعالها .

في ظل هذا المجتمع يتلقى المسلمون أيضاً درساً عملياً في النظام ، من وحدة الشعور وتوحيد المشاعر ، والمفاداة في سبيل نصرة الحق والاعتزاز بالدين والتمرين على النظام الالهي ، والطاعة والانقياد للامام ، (كجيش مرابط) فليس لهم أن يقفوا كيفما اتفق ، ولكن الشارع يفرض أوضاعاً دقيقة لا تستطيع المدنية أن تتحداها مهما طال عليها العمر .

وبالتالي يقف هذا المجتمع المنظم ليتدرب مرة ثالثة على الطاعة ، وليراقب بسمعه وبصره تصرفات إمامه وحركاته ، فيتابعه غير متقدم ولا متراخ .

في هذا الجو من الوحدة والطاعة والنظام ، والتناسق والاقبال والصفاء ، يطرق الهدي الالهي باب القلب المؤمن فيملؤه رحمة ونوراً ، ويطرق العمل الانساني باب الرب العلي فيتقبله غفوراً شكوراً .

فامام الجماعة بهذا الاعتبار ، كالقائد الحربي أو غير الحربي عند الناس ، فهو يقود المصلين لا إلى حرب ، ولا إلى عداء ، ولا إلى ظلم وجور ، إنما يقودهم إلى منبع القوة ومصدر الارادة ، إلى المرجع والمنتهى ، يقودهم إلى الله ، يقودهم ـ وهو كأحدهم ـ إلى مغفرة من الله ورحمة ، إلى خير كثير وغنم عظيم .

وهو أيضاً سفير بين الله وبين عباده ، الذين أنابوا اليه وأخبتوا ، على حد تعبير الامام (صلوات الله وسلامه عليه) بقوله : « فأن تعلم أنه قدتقلد السفارة فيما بينك وبين الله » .

والجماعة التي يترأسها الامام إنما هي في الحقيقة وفد إلى الله سبحانه ، يقول ﷺ : « والوفادة إلى ربك » . وهذا الوفد إنما يتكلم بلسان الامام والقائد وإنما يقدم طلباً بلسان الامام ، ويدعو ويرجو ويسأل بلسان الامام ، فالامام ممثل لهذا الوفد المؤلف من هذه الجماعة ، وهو الذي يقود الجماعة وعليه تبعتها ، وهو الذي بقي بنفسه نفوس الجماعة ، كل ذلك يقوم به الامام . فيجب حينذاك شكره والثناء عليه ما وسع ذلك . يقول ﷺ : « فتشكر له على قدر ذلك » .

ويمكن أن يستفاد من قوله تعالى : « واركعوا مع الراكعين » ـ أي أدوا الصلاة وأقيموها جماعة ـ ولا يستبعد ذلك لما في صلاة الجماعة من منافع للناس كما يحسون ويرون .

فمن جملتها : أن الغني والفقير ، والرئيس والمرؤس ، والأعلى والأدنى ، يصلون جميعاً بصلاة واحدة ، متجهين إلى الله وإلى الكعبة على حد سواء ، لا يتفاضل أحد على أحد . وهذا إظهار فعلي للمساواة الحقة وأن البشر كلهم شرع سواء لا تفاضل بينهم بالاعتبارات الدنيوية ، ودعوة فعلية إلى العدل وعدم التفاضل بالاعتبارات الموهومة ، ألا ترى أنه يقوم مرؤس أمام الرئيس ، وأدنى الطبقات مع أعلى الطبقات على حد سواء بل لو قام المرؤس أمام الرئيس من أي

طبقة كان لما صح للرئيس أن يزاحمه .

قال الكاتب (هراس ليف) : ما كان شيء في العالم ليقنعني بأن أي دين من الأديان يدعو إلى المساواة بين الناس ، ولو أن بعضهم يتظاهرون بهذه الدعوة فقد زرت كثيراً من الكنائس والمعابد فرأيت التفريق بين الطبقات داخل المعابد كما هو خارجها ، وكان اعتقادي بالطبع أن الأمر لابد كذلك داخل المساجد الاسلامية ، ولكن ما كان أشد دهشتي حينما رأيت الشعور بالمساواة على أتمه بين المسلمين في عيد الفطر في مسجد (ودكنج بلندن) وهناك وجدت أجناساً مختلطين على اختلافهم في المراتب اختلاطاً لك أن تسميه بحق أخوياً ، ولم اكن شاهدت مثل ذلك ، ترى في المسجد (نوبياً) من بلاد (ممباسا) يصافح عظيما من رجال الأعمال المصريين أو سياسياً من بلاد العرب ، وقد ارتفعت الكلفة بين الجميع ، فلا يأنف أحدهم مهما عظم قدره من أن يجاوره في الصلاة أقل الناس شأناً وانك لا تجد أقل محاولة لتخطي الصفوف إلى مكان ممتاز بالمسجد ، لأنه ليس هنالك أي مكان ممتاز ، فالكل عند الله سواء ، لا فضل لأحد على سواه ، وعندما صرح لي إمام المسجد بأن المسلمين يعتقدون رسالة جميع الأنبياء ويؤمنون بما أنزل اليهم كدت لا أصدق أذني ، وكان هذا جديداً استفدته عن الاسلام ، لذلك لم أعد أشك في ان هذا الدين يصلح لأن يكون ديناً عاماً .

ومنها تفقد حال الفقراء والضعفاء والمظلومين ، فيمان الفقراء و يُنعش حالهم و يُدر عليهم من الخير مايلم شعثهم ويخفف البؤس عنهم ، وينتصر للمظلوم وتدفع ظلامته ويرفع كابوس الضغط عنهم ، ويعلّم الجاهل ويرشد الضال ، ويكون كلهم بالنسبة إلى كل فرد منهم بمنزلة الأب والأخ والولد .

يقول الامام السجاد ﷺ في بعض وصاياه : « أن تجعل كبيرهم بمنزلة ابيك ، ومن يساويك سناً بمنزلة اخيك ، ومن هو اصغر منك بمنزلة ولدك » .

ومنها ان صلاة الامام تقع اول الوقت ، وتصعدها الحفظة ، فاذا اتى بها اول وقتها صعدت مع صلاة الامام في وقت واحد ، فلعل الله سبحانه ان يمن عليه بقبول تلك الصلاة المردودة بسبب صعودها مع تلك الصلوات المقبولة ، لأنها صارت كأنها صفقة واحدة فلابد من قبول الكل بسبب الاتفاق في الصعود ، لأن صلوات المؤمنين إذا اجتمعت كلها وصعدت إلى جناب الحق تعالى ، فاما ان يقبلها بأجمعها او لا يقبل شيئاً منها ، ولكن لابد من القبول ، لأن الجماعة الكثيرة إذا تعاونوا على العبادة كان بينهم من هو مقبول الصلاة .

ومنها ما روي في الأخبار : إن صلاة المتزوج تعدل صلاة العزب بسبعين مرة ، وكذلك صلاة المتطيب تفضل على غيره سبعين مرة ، ومن قدّم شيئاً من الصدقة قبل صلاته كانت صلاته افضل من غيرها إلى غير ذلك من الأمور الباعثة لمزيد الثواب ، وقل ان يكون واحد من المصلين مستجمعاً لهذه المقدمات كلها ، اما إذا اجتمع جماعة كثيرة على عبادة واحدة كان واحد منهم متطيباً والآخر متزوجاً والثالث متصدقاً إلى غير ذلك فتكون صلاتهم كلها كأنها صلاة واحدة مستجمعة لتلك الأمور والمقدمات ، فيكون لكل واحد منهم ثواب الصلاة الكاملة.

ومنها ان المصلي إذا اخذ في الصلاة تقدمت اليه الشياطين ووقفت أمامه ليلقوه في الوسواس والغفلة عن الصلاة فيقوم بين المصلي والشيطان الجهاد العظيم ومن هذا سمي محراب الصلاة به ، لأنه مكان الحرب مع الشيطان ، اما إذا كان المؤمنون مجتمعين متعاضدين ظهروا على الشياطين وأبعدوهم عن امكنة العبادة ، ولهذا امر الله سبحانه بالاستعاذة حال قراءة القرآن ، وأكده في قراءة الصلاة ، وذلك ان الشيطان كالكلب العقور الجاثي على باب صاحبه يمنع الداخلين من دخول البيت ، فمن اراد الوصول إلى منزل ذلك الرجل والدخول فيه فلابد له من ان يلجأ إلى صاحب الكلب ويدعوه ويناديه حتى يخرج هو او احد خدامه

ليمنع الكلب ، فكذا ههنا فان الشيطان كلب ، والصلاة باب من اعظم ابواب الله تعالى ، واكثر حضور الشيطان إنما يكون عندها ، فلهذا فلابد ان يلجأ المصلي وينادي الله تعالى ويقول : يا رب استعيذ بك من شر هذا الكلب العقور .

ومنها ما جاء في كتاب (الصلاة جامعة المسلمين) : « انها إرهاب عظيم دونه كل إرهاب للكافرين واعداء الاسلام ، فانهم عندما ينظرون إلى وحدة المسلمين وتمسكهم بدينهم وإطاعتهم لاوامر مشرعهم واقتدائهم بأئمتهم ، تستولي على كل من يكيد للاسلام ويناويه الرهبة منهم . وهذه وقعة القادسية تقدمت فيها جيوش الفرس ، والفرس يومئذ مستولين على الشرق وما العرب إلا مستعمرة صغيرة من مستعمراتهم ، واخذوا يستهزئون بكتاب النبي ﷺ مذ دعاهم إلى الاسلام او الجزية وإلا إعلان الحرب ، فقد حدثنا التاريخ ان كسرى ابرويز بن هرمز لما جاءه كتاب النبي ﷺ مزقه واستخف به وامر باخراج رسول النبي بعدما حمله وقراً من التراب فأثقلوه وقراً من التراب على رأسه وساقه حتى اخرجه وقال : سأكتب إلى رستم ان يدفنه وجنده بالخندق ، وبعث القائد (رستم) عيوناً إلى جيش الاسلام فانغمسوا فيه من اجل الاطلاع على عددهم وعدتهم ، فرأوهم يقفون صفوفاً ـ وكان عدد المسلمين سبعين الفاً ـ يتقدمهم قائدهم فيركع ويركع معه سبعون الفاً ويسجد ويسجد معه سبعون الفاً ، ويقوم ويقومون معه فظنت ربايا الفرس ان هذه رياضة حربية ، فذهلوا من وحدة المسلمين وتآلفهم ، ولما فرغوا جعلوا يستاكون بعود الأراك ثم ينتشرون إلى مواقفهم ، فرجع هؤلاء إلى القائد الفارسي واخبروه بخبرهم متعجبين من تآلفهم وطاعتهم لقوادهم وكبرائهم ، فسأل القائد عن طعامهم ، فقالوا : مكثنا فيهم ليلة ما رأينا احداً يأكل شيئاً إلا انهم يمصون عيداناً لهم حين يمسون وحين يصبحون ، فذهل القائد وجعل يصيح كالمذهول من شدة تعجبه ، واستولى الرعب على الفرس فكان

كلما تقدم المسلمون الأشاوس في جبهة من الجبهات تصايح الفرس : (ديوانه ها امدند) اي جاء المجانين » .

وفي كتابنا (نزهة الخاطر) تحت عنوان (حكمة تشريع صلاة الجماعة) ما نصه :

« إن الدين الاسلامي الحنيف ، دين اجتماع وائتلاف ، دين سلام ووداد دين سعادة ووئام ، ولأجل هذه الغاية السامية فقد شرع صلاة الجماعة لأمور نذكر منها ما بلغ اليه العقل البشري ، ونترك ما لم نصل اليه إلى الزمن ، فنقول : اراد الشارع بها .

١ ـ استيلاء عظمة الله تعالى على النفوس ، واخذ رهبته بمجامع القلوب بما تحدثه هيئة المصلين وقيامهم في صعيد واحد للعبادة .

٢ ـ ظهور جماعة المسلمين مظهر القوة والشوكة بهذه الاجتماعات المتكررة التي تنبىء بائتلافهم ووحدتهم مما يدعو إلى تعظيم امر الدين ورجوع مناوئيه بالخيبة والخسران .

٣ ـ تنبيههم إلى الانتظام في امورهم والاعتدال في اعمالهم بطاعتهم للامام في الصلاة ، وما يرونه من استقامة صفوفهم واتحادهم في تلك المتابعة .

٤ ـ أنس بعضهم ببعض في تلك الاجتماعات ، وحصول الصلة والالفة فيما بينهم إذا ما اجتمعوا في كل يوم خمس مرات مؤتلفين مرتبطين متحدين في عمل واحد وصعيد واحد .

٥ ـ حصول الاعتماد من بعضهم لبعض في اداء شهادة او معاملة او غير ذلك إذا ما رأوهم يصلون ملتزمين بأداء الوظائف الدينية ، لاسيما هذا الركن الجليل .

٦ ـ لأن العبادة في الجماعة عبادة ظاهرة لخلق الله تعالى ، مكشوفة للناس ، وذلك ادعى لتكون حجة لله على خلقه بالغة يوم الحساب .

٧ ـ إن الصلاة لمن اقرب مواضع القرب من الله ، ومن ابلغ مظان استجابة الدعاء وطلب الغفران ، فاذا اراد العبد الاعتذار إلى ربه وطلب رضاه كان هذا الجمع من المسلمين شفعاء له عنده ، وكان العفو عنه اقرب .

٨ ـ الاقبال على الله بانتظارها ، والاعراض عن الدنيا بالمشي اليها .

٩ ـ تأدية هذه الاجتماعات للصلاة إلى إنشاء المساجد او عمارة خرابها ، ولولاها لحصل التساهل والتسامح لعدم الحاجة إلى ذلك .

١٠ ـ إدراك الصلاة التي هي عمود الدين في اول وقتها بسبب هذا الالتزام فان المنفرد ربما تكاسل او تسامح حتى يفوت وقتها .

١١ ـ إن صلاة المسلمين بعضهم وراء بعض مما يبعد الكبر ويخضع النفس وهي خلة محمودة لدى الله والناس ، محببة لصاحبها في القلوب .

١٢ ـ تعلم من لا يحسن الصلاة بدخوله مع الجماعة .

١٣ ـ اجتماع الاخوان المسلمين مع بعضهم ، وتفقد كل حال الآخر وإفشاء السلام فيما بينهم ، وإظهار الأخوة والعطف على بعضهم ، إلى غير ذلك مما لا حاجة إلى الاطالة فيه .

ثواب صلاة الجماعة :

منها ما جاء في الرواية عن ابي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : « اتاني جبرئيل ﷺ ومعه سبعون الف ملك بعد صلاة العصر ، فقال : يا محمد إن الله يقرؤك السلام واهدى اليك هديتين لم يهدهما إلى نبي قبلك . قال : يا جبرئيل وما تلك الهديتان ؟ قال : الوتر ثلاث ركعات ، والصلوات الخمس في الجماعات . قلت : يا جبرئيل وما لأمتي في الجماعة ؟ قال : يا محمد إذا كانا اثنين

كتب الله تعالى لكل واحد منهما بكل ركعة مائة وخمسين صلاة ، وإذا كانوا ثلاثة كتب الله تعالى لكل واحد بكل ركعة مائتين وخمسين صلاة ، واذا كانوا اربعاً كتب الله تعالى لكل واحد بكل ركعة الفاً ومائتي صلاة ، وإذا كانوا خمسة كتب الله لكل واحد بكل ركعة الفاً وثلثمائة صلاة ، وإذا كانوا ستة كتب الله لكل واحد بكل ركعة الفين واربعمائة صلاة ، واذا كانوا سبعة كتب الله تعالى لكل واحد بكل ركعة اربعة آلاف وثمانمائة صلاة ، واذا كانوا ثمانية كتب الله لكل واحد بكل ركعة تسعمائة الف صلاة وستمائة صلاة ، وإذا كانوا تسعة كتب الله لكل واحد بكل ركعة تسعة عشر الف صلاة ، وإذا زادوا على عشرة فلو صارت بحار السموات والارض كلها مداداً والاشجار اقلاماً والثقلان والملائكة كتاباً لم يقدروا ان يكتبوا ثواب ركعة واحدة ، يامحمد تكبيرة يدركها المؤمن مع الامام خير له من سبعين حجة والف عمرة سوى الفريضة » .

وعن عبد الله بن مسعود : « إنه فاتته تكبيرة الافتتاح يوماً فأعتق رقبة ؛ وجاء الى النبي ﷺ وقال يارسول الله قد فاتتني تكبيرة الافتتاح يوماً فأعتقت رقبة هل كنت مدركاً فضلها ؟ فقال : لا . فقال ابن مسعود : ثم أعتقت أخرى فقلت : يارسول الله هل كنت مدركاً فضلها ؟ . فقال : لا يا ابن مسعود لو أنفقت ما في الارض جميعاً لم تكن مدركاً فضلها » .

وقال ﷺ : « صلاة الرجل في جماعة خير من صلاته في بيته أربعين سنة قيل يارسول الله صلاة يومه ؟ قال : صلاة واحدة ، وإذا كان العبد خلف الامام كتب الله له مائة ألف وعشرين درجة » (١) .

---

(١) انوار النعمانية .

وجاء في (العروة الوثق) للسيد (محمد كاظم اليزدي) : « وفي رواية محمد ابن عمارة » قال : أرسلت إلى الرضا عليه السلام أسأله عن الرجل يصلي المكتوبة وحده في مسجد الكوفة أفضل ، أو صلاته مع جماعة ؟ فقال (ع) : الصلاة في جماعة أفضل » مع أنه ورد أن الصلاة في مسجد الكوفة تعدل ألف صلاة وفي بعض الأخبار ألفين .

وعن الامام الصادق (عليه السلام) : الصلاة خلف العالم بألف ركعة ، وخلف القرشي بمائة » .

ولا يخفى أنه إذا تعددت جهات الفضل تضاعف الأجر ، فاذا كانت في مسجد السوق الذي تكون الصلاة فيه باثنتي عشرة صلاة يتضاعف بمقداره ، وإذا كانت في مسجد القبلة الذي تكون الصلاة فيه بخمسة وعشرين فكذلك ، وإذا كانت في المسجد الجامع الذي تكون الصلاة فيه بمائة يتضاعف بقدره وكذا إذا كانت في مسجد الكوفة الذى بألف ، أو كانت عند علي (ع) الذي فيه بمائتي ألف ، وإذا كانت خلف العالم أو السيد فأفضل ، وإن كانت خلف العالم السيد فأفضل ، وكلما كان الامام أوثق وأورع وأفضل ، فأفضل ، وإذا كان المأمومون ذوي فضل فتكون أفضل ، وكلما كان المأمومون أكثر كان الاجر أزيد .

ولا يجوز تركها رغبة عنها ، أو استخفافاً بها . ففي الخبر لا صلاة لمن لا يصلي في المسجد إلا من علة ، ولا غيبة لمن صلى في بيته ورغب عن جماعتنا ومن رغب عن جماعة المسلمين وجب على المسلمين غيبته وسقطت بينهم عدالته ، ووجب هجرانه ، وإذا رفع إلى إمام المسلمين أنذره وحذره فان حضر جماعة المسلمين وإلا أحرق عليه بيته ، وفي آخر ان أمير المؤمنين (عليه السلام) بلغه أن قوماً لا يحضرون الصلاة في المسجد ، فخطب فقال : إن قوماً لا يحضرون

الصلاة معنا في مساجدنا فلا يوا كلونا ولا يشار بونا ولا يشاورونا ولا ينا كحونا أو يحضروا معنا صلاتنا جماعة ، واني لأوشك بنار تشعل في دورهم فأحرقها عليهم أو ينتهون . قال فامتنع المسلمون من موا كلتهم ومشاربتهم ومنا كحتهم حتى حضروا جماعة المسلمين . إلى غير ذلك من الاخبار الكثيرة . فمقتضى الايمان عدم الترك من غير عذر لا سيما مع الاستمرار عليه ، فانه كما ورد لا يمنع الشيطان من شيء من العبادات منعها ويعرض عليهم الشبهات من جهة العدالة ونحوها حيث لا يمكنهم انكارها لأن فضلها من ضروريات الدين » .

نوادر أئمة الجماعة :

قرأ إمام في الصلاة : ألم غلبت الترك ، فلما فرغ قيل له إنما الآية غلبت الروم ، فقال : كلهم أعداء لا نبالي من ذكر منهم .

قرأ إمام في صلاته إذا الشمس كورت فلما بلغ قوله فأين تذهبون أرتج عليه وجعل يرددها ، وكان خلفه رجل معه جراب فضرب به رأس الامام وقال : أما أنا فأذهب الى دارنا . وأما هؤلاء السفهاء فلا أدري الى أين يذهبون .

صلى رجل خلف إمام بمكة فقرأ ومالي لا أعبد الذي فطرني . فقال الرجل : ما أدري والله فضحك الناس وقطعوا الصلاة .

صلى أعرابي مع إمام في الصف الأول ، وكان اسمه مجرماً ، فقرأ ألم نهلك الاولين . فتأخر الاعرابي الى الصف الثاني ، فقرأ الامام ثم نتبعهم الآخرين . فتأخر الي الصف الثالث ، فقرأ الامام كذلك نفعل بالمجرمين . فقال الاعرابي : والله ما اراد غيري فأخذ نعله وهرب من المسجد .

اشترك ثلاثة أخوة في بناء مسجد ، اسم احدهم ابراهيم ، والثاني موسى

والثالث الحاج احمد ، وعينوا له إماماً ، فقرأ الامام في الصلاة وهم خلفه في الصف الاول « إن هذا لفي الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى » فلما فرغ من الصلاة دعاه الحاج احمد ، فقال : الم تعلم انني انا واخوتي إبراهيم وموسى بنينا هذا المسجد من مالنا جميعاً ، ونقوم بنفقتك كلنا . فقال : نعم . قال : فلماذا تذكر اسماء إخوتي في الصلاة ولا تذكر إسمي . قال : ان هذا قرآن ولا تجوز الزيادة فيه . قال: بل هذه محاباة منك لأخوتي ، والله لئن لم تذكر إسمي بعد هذه المرة لأوجعنك ضرباً . فلما كانت الصلاة الثانية قرأ الامام ان هذا لفي الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى والحاج احمد . فلما فرغ سأله الناس عن ذلك وقالوا هذه الزيادة ليست في القرآن قال : انها نزلت البارحة بعصا غليظة .

قرأ امام في الصلاة : « إنا ارسلنا نوحاً الى قومه » وأرتج عليه ، فجعل يرددها فلما طال الأمر قال له اعرابي من خلفه إذا لم يذهب نوح فأرسل غيره وأرحنا .

اشترى امام سطلا فأستحي ان يجعله قدامه في الصلاة فجعله خلفه ، فلما ركع شغل قلبه به فظن انه سرق فأراد ان يقول ربنا لك الحمد ، فقال : ربنا لك السطل . فقال : له بعض المأمومين السطل خلفك لا بأس عليه .

كان رجل يصلي خلف امام فقرأ الامام الفاتحة ثم ارتج عليه ، فجعل يقول : اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ويكررها . فقال رجل من خلفه : ليس للشيطان ذنب إلا انك لا تحسن ان تقرأ .

حق الجليس

قوله (عليه السلام) :

« وحق جليسك أن تلين له جانبك ، وتنصفه في مجاراة اللفظ ولا تقوم من مجلسك إلا باذنه ، ومن تجلس اليه يجوز له القيام عنك بغير إذنك ، وتنس زلاته وتحفظ خيراته ، ولا تسمعه إلا خيراً »

* * *

تمهيد :

الايمان قوة عاصمة عن الدنايا ، دافعة الى المكرمات . ومن ثم فان الله عندما يدعو عباده الى خير أو ينفرهم من شر ، يجعل ذلك مقتضى الايمان المستقر في قلوبهم . وما اكثر ما يقول في كتابه : « يا ايها الذين آمنوا » . ثم يذكر ـ بعد ـ ما يكلفهم به : « .. اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » .

وقد وضح صاحب الرسالة ان الايمان القوي يلد الخلق القوي حتماً ، وان انهيار الاخلاق مرده الى ضعف الايمان ، او فقدانه ، بحسب تفاقم الشر أو تفاهته .

فالرجل الصفيق الوجه ، المعوج السلوك ، الذي يقترف الرذائل غير آبه لأحد . يقول رسول الاسلام في وصف حاله : « الحياء والايمان قرناء جميعاً فاذا رفع أحدهما رفع الآخر » .

والرجل الذى ينكب جيرانه ويرميهم بالسوء . يحكم الدين عليه حكماً قاسياً فيقول فيه الرسول ﷺ : « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن . قيل : من يارسول الله ؟ قال : الذي لا يؤمن جاره بوائقه !! » .

وتجد الرسول ـ عند ما يعلم أتباعه الاعراض عن اللغو ، ومجانبة الثرثرة والهذر ـ يقول : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت »

وهكذا يمضي في غرس الفضائل وتعهدها حتى تؤتي ثمارها ، معتمداً على صدق الايمان وكماله ..

على ان بعض المنتسبين الى الدين ، قد يستسهلون أداء العبادات المطلوبة ويظهرون في المجتمع العام بالحرص على إقامتها وهم - في الوقت نفسه - يرتكبون اعمالا يأباها الخلق الكريم والايمان الحق .

إن نبي الاسلام توعد هؤلاء الخالطين ، وحذر امته منهم

ذلك ان التقليد في أشكال العبادات يستطيعه من لم يشرب روحها ، أو يرتفع لمستواها .

ربما قدر الطفل على محاكات صلاة وترديد كلمات .

ربما تمكن الممثل من اظهار الخضوع وتصنع اهم المناسك ..

لكن هذا وذاك لا يغنيان شيئاً عن سلامة اليقين ، ونبالة المقصد . والحكم على مقدار الفضل وروعة السلوك يرجع الى مسبار لا يخطىء ، وهو الخلق العالي ! وفي هذا ورد عن النبي ﷺ « ان رجلا قال له : يارسول الله ان فلانة تذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها ، غير انها تؤذي جيرانها بلسانها . فقال : (هي في النار) قال : يارسول الله فان فلانة تذكر من قلة صلاتها وصيامها ، وانها تتصدق « بالاثوار من الاقط » (بالقطع من الجبن) ولا تؤذي جيرانها . قال : « هي في الجنة !! »

في هذه الاجابة تقدير لقيمة الخلق العالي ، وفيها - كذلك تنويه بأن الصدقة عبادة اجتماعية ، يتعدى نفعها الى الغير ، ولذلك لم يفترض التقلل منها كما افترض التقلل من الصلاة والصيام ، وهي عبادات شخصية في ظاهرها .

ان رسول الاسلام ، لم يكتف بالاجابة على سؤال عارض ، في الابانة عن ارتباط الخلق بالايمان الحق ، وارتباطه بالعبادة الصحيحة ، وجعله أساس

الصلاح في الدنيا والنجاة في الاخرى .

إن أمر الخلق اهم من ذلك ، ولابد من إرشاد متصل ، ونصائح متتابعة ليرسخ في الافئدة والافكار ، ان الايمان والصلاح والاخلاق ، متلازمة متماسكة لا يسطيع أحد تمزيق عراها ،

لقد سأل (ص) أصحابه يوماً : « أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ، ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، واكل مال هذا ، وسفك دم ذاك وضرب هذا ، فيعطي هذا من حسناته ، وهذا من حسناته فان فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار ذلك هو المفلس : إنه كتاجر يملك في محله بضائع بألف ، وعليه ديون قدرها الفان ، كيف يعد هذا المسكين غنياً » ؟ .

والمتدين الذي يباشر بعض العبادات ، ويبقى بعدها بادي الشر ، كالح الوجه ، قريب العدوان ، كيف يحسب أمرءاً تقياً ؟ .

روي ان النبي ﷺ ضرب لهذه الحالات مثلا قريباً . قال : « الخلق الحسن يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد ، والخلق السوء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل »

فاذا نمت الرذائل في النفس ، وفشا ضررها ، وتفاقم خطرها ، انسلخ المرء من دينه كما ينسلخ العريان من ثيابه ، وأصبح ادعاؤه للايمان زوراً ، فما قيمة دين بلا خلق ؟ وما معنى الافساد مع الانتساب لله ؟ .

وتقريراً لهذه المبادىء الواضحة في صلة الايمان بالخلق القويم ، يقول النبي الكريم ﷺ : « ثلاث من كن فيه فهو منافق ، وإن صام وصلى وحج واعتمر ، وقال اني مسلم : إذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا اؤتمن

خان » . وقال في رواية أخرى « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف ، واذا عاهد غدر وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم » ! وقال كذلك : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كان فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، واذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » . .

* * *

ظهر من هذه التعاليم أن الاسلام جاء لينتقل بالبشر خطوات فسيحات الى حياة مشرقة بالفضائل والآداب ، وانه اعتبر المراحل المؤدية الى هذا الهدف النبيل من صميم رسالته ، كما أنه عد الاخلال بهذه الوسائل خروجاً عليه وابتعاداً عنه .

فليست الاخلاق من مواد الترف التي يمكن الاستغناء عنها ، بل هي أصول الحياة التي يرتضيها الدين ، ويحترم ذويها ..

وقد أحصى الاسلام الفضائل ، وحث أتباعه على التمسك بها واحدة واحدة . ولو جمعنا أقوال صاحب الرسالة في التحلي بالاخلاق الزاكية لخرجنا بسفر لا يعرف مثله ، لعظيم من أئمة الاصلاح .

وقبل ان نذكر تفاصيل هذه الفضائل ، وما ورد في كل منها على حدة ، نثبت طرفاً من دعوته الحارة الى محامد الاخلاق ، ومحاسن الشيم :

عن أسامة ابن شريك قال : كنا جلوساً عند النبي ﷺ كأنما على رؤوسنا الطير ما يتكلم منا متكلم ، إذ جاءه أناس فقالوا : من احب عباد الله الى الله تعالى ؟ قال : « أحسنهم خلقاً » . وفي رواية « ما خير ما اعطي الانسان ؟ قال خلق حسن » . وقال (ص) « إن الفحش والتفحش ليسا من الاسلام في شيء ، وان احسن الناس إسلاماً احسنهم خلقاً » . وسئل : « اي المؤمنين اكمل ايماناً ؟ قال :

« أحسنهم خلقاً » وقال (ص : « الا اخبركم بأحبكم الي ، واقربكم مني مجلساً يوم القيامة ؟ _ فأعادها مرتين أو ثلاثاً _ قالوا نعم يارسول الله . قال : أحسنكم خلقاً » . وقال : « ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن إن الله يكره الفاحش البذيء . وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة » .

هذا التصريح لو صدر عن فيلسوف يشتغل لشؤن الاصلاح الخلقي لحسب لما كان مستغرباً منه ، وجه العجب أن يصدر عن مؤسس دين كبير ، والأديان _ عادة _ ترتكز في حقيقتها الأولى على التعبد المحض .

ونبي الاسلام (ص) دعا الى عبادات شتى ، واقام دولة ارتكزت على جهاد طويل ضد أعداء كثيرين ، فاذا كان _ مع سعة دينه وتشعب نواحي العمل امام اتباعه _ يخطرهم بأن ارجح ما في موازينهم يوم الحساب ، هو الخلق الحسن فان دلالة ذلك على منزلة الخلق في الاسلام لا تخفى ..

والحق ان الدين ان كان خلقاً حسناً بين إنسان وإنسان ، فهو _ في طبيعته السماوية _ صلة حسنة بين الانسان وربه ، وكلا الامرين يرجع الى حقيقة واحدة .

إن هناك اديانا تبشر بأن اعتناق عقيدة ما ، يمحو الذنوب ، وان اداء طاعة معينة يمسح الخطايا .

لكن الاسلام لا يقول هذا ، إلا ان تكون العقيدة المعتنقة محوراً لعمل الخير ، واداء الواجب ، وان تكون الطاعة المقترحة غسلا من السوء ، واعداداً للكمال المنشود ، اي انه لا يمحق السيئات إلا الحسنات التي يضطلع بها الانسان ويرقى صعداً الى مستوى افضل .

وقد حرص النبي (ص) على توكيد هذه المبادىء العادلة حتى تتبينها امته

جيداً ، فلا تهون لديها قيمة الخلق ، وترتفع قيمة الطقوس .

قال (ص) : « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة ، واشرف المنازل ـ وانه لضعيف العبادة ـ وانه ليبلغ بسوء خلقه اسفل درجة في جهنم » . وقال : « ان المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم » . وفي رواية « ان المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجات قائم الليل وصائم النهار » . وقال : « ان المسلم المسدد ليدرك درجة الصوام والقوام بآيات الله . بحسن خلقه وكرم طبيعته » . وقال : « كرم المؤمن دينه ، ومروءته عقله ، وحسبه خلقه » .

وروى عنه ابو ذر (ره) : « قد افلح من اخلص قلبه للايمان ، وجعل قلبه سليما ، ولسانه صادقاً ، ونفسه مطمئنة ، وخليقته مستقيمة » .

وحسن الخلق لا يؤسس في المجتمع بالتعاليم المرسلة ، او الاوامر والنواهي المجردة ، اذ لا يكفي في طبع النفوس على الفضائل ان يقول المعلم لغيره : إفعل كذا اولا تفعل كذا ، فالتأديب المثمر يحتاج تربية طويلة ، وتعهداً مستمراً

ولن تصلح تربية إلا اذا اعتمدت على الاسوة الحسنة ، فالرجل السيء لا يترك في نفوس من حوله اثراً طيباً وإنما يتوقع الاثر الطيب ممن تمتد العيون الى شخصه ، فيروعها ادبه ، ويسبيها نبله ، وتقتبس ـ بالاعجاب المحض ـ من خلاله ، وتمشي ـ بالمحبة الخالصة ـ في آثاره .

بل لابد ـ ليحصل التابع على قدر كبير من الفضل ـ ان يكون في متبوعه قدر اكبر ، وقسط اجل .

وقد كان رسول الله (ص) بين اصحابه مثلا اعلى للخلق الذي يدعو اليه فهو يغرس بين اصحابه هذا الخلق السامي ، بسيرته العاطرة قبل ان يغرسه بما يقول من حكم وعظات . وكان يقول : « خياركم احاسنكم اخلاقاً » .

وعن أنس قال: خدمت النبي عشر سنين، والله ما قال لي: أف قط، ولا قال لشيء: لم فعلت كذا، وهلا فعلت كذا؟.

وعنه: إن كانت الامه لتأخذ بيد رسول الله فتنطلق به حيث شاءت. وكان إذا استقبله الرجل فصافحه، لا ينزع يده من يده، حتى يكون الرجل ينزع يده ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون الرجل هو الذي يصرفه ولم يرمقدماً ركبتيه بين يدي جليس له، يعني انه يتحفظ مع جلسائه فلا يتكبر ولا يطوي عن أحد بشره ولا خلقه. يتفقد اصحابه ويعطي كل جلسائه نصيبه لا يحسب جليسه ان احداً اكرم عليه منه. من جالسه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، فصار لهم اباً، وصاروا عنده فى الحق سواء.

على ضوء هذه السيرة ـ سيرة النبي العطرة ـ ركز الامام السجاد عليه السلام سيرته النيرة مع الجليس، باسلوب سائغ من الاقناع والمحبة، وتعليقة بالفضائل الجليلة، استثارة الى السمو والكمال.

إن الامام (صلوات الله عليه) يتحسس النفوس بين الحين والحين، ليغسلها من أدران الحقد الرخيص، وليجعلها حافلة بمشاعر ازكى وأنقى نحو الناس ونحو الحياةفتراه قائلا: «وحق جليسك أن تلين له ..» فمداراة الجليس ومعرفة حقه دعامة ركينة في خلق المسلم، وصبغة ثابتة في سلوكه. فقيام الانسان والتزامه بحفظ حقوق جليسه اساس كرامته في الدنيا، وسعادته في الأخرى.

قال سعيد بن العاص: لجليسي علي ثلاث: إذا دنا رحبت به، وإذا حدث أصغيت اليه، وإذا جلس أوسعت له وقد قال تعالى: «رحماء بينهم» إشارة الى الشفقة والاكرام.

كان القعقاع بن شور اذا جالسه رجل فعرفه بالقصد اليه جعل له نصيباً في ماله، واعانه على عدوه، وشفع له في حاجته وغدا اليه بعد المجالسة شاكراً

وقسم معاوية يوماً آنية فضة ، ودفع الى القعقاع حظه منها ، فآثر به القعقاع اقرب القوم اليه . فقال :

وكنت جليس قعقاع بن شور ولا يشقى بقعقاع جليس
ضحوك السن إن نطقوا بخير وعند الشر مطراق عبوس

فالامام في هذه الفقرات اللامعة يضع بذور الود والاخاء ، فهو يدعو الى لين الجانب مع الجليس ، وحسن الخلق والالتزام بأدب اللفظ واختياره معه ، وانصافه واعطاء حقه ، وان يغض ويتجاوز عن أي كلام يصدر منه يشم منه رائحة الخشونة ويجتنب القسوة والغلظة ويبتعد عن العنف والشدة ، ويسلك معه الايناس واللطف والمداراة والتجمل ، فيجتنب الصراحة إن كانت مؤلمة ، ويترك الحقيقة ان كانت منفرة ، ويبذل الجهد في الاسباب التي تقربه منه وتدنيه اليه .

واذا أراد الانصراف فعليه ان يستأذن منه ، فليس من أدب الاسلام ان ينصرف بدون استئذان ، فانه يشعر منه عدم الاعتناء والاحترام ، وعدم الاهتمام بشأن الجليس ، وقد يؤدي الى النفورة والاشمئزاز بينهما فيؤدي الى البعد .

وقد أمر الله سبحانه حبيبه المختار من خيار خلقه أن يجالس الفقراء ويصبر نفسه معهم وحبسها على صحبتهم ومجالستهم ، فقال في محكم كتابه : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً » قال المفسرون المراد بهم فقراء المؤمنين مثل عمار وخباب وسلمان وابي ذر وغيرهم . وقيل أصحاب الصفة وكانوا نحو سبعمائة رجل قيل انه قال قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله (ص) نح هؤلاء الموالي الذين

كأن ريحهم ريح الضان حتى نجالسك . كما قال قوم نوح (ع) « أنؤمن لك واتبعك الارذلون » .

وروي عن سلمان وخباب قالا : جاء الاقرع بن حابس التميمي وعيينة ابن الحصين الفزاري وعباس بن مرداس وذووهم من المؤلفة قلوبهم ، فوجدوا النبي (صلى الله عليه وآله) جالساً مع ناس من ضعفاء المؤمنين ، فلما رأوهم حوله (صلى الله عليه وآله) حقروهم ، فأتوه (ص) فقالوا : يا رسول الله لو جلست في صدر المجلس ونفيت عنا هؤلاء وارياح جبابهم (وكانت عليهم جباب من صوف) جالسناك وحادثناك واخذنا عنك . فقال (ص) : ما انا بطارد المؤمنين قالوا فانا نحب ان تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا فيه العرب فضلنا ، فان وفود العرب تأتيك فنستحي ان ترانا مع هؤلاء الاعبد (يعنون فقراء المسلمين) فاذا نحن جئناك فأقمهم عنا فاذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت قال نعم : قالوا : فاكتب لنا بذلك كتاباً . فدعا بالصحيفة وبعلي (ع) ليكتب ونحن قعود في ناحية ، فنزل جبرئيل (ع) بقوله تعالى : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي » الى آخر الآية ، فرمى (ص) بالصحيفة ودعانا فأتيناه وجلسنا عنده وكنا ندنوا منه حتى تمس ركبتنا ركبته وكان يقوم عنا إذا أراد القيام ، فنزلت « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم » الآية ، فترك القيام عنا الى أن نقوم عنه وقال : الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمتي ، معكم الحياة ومعكم الممات .

وينبغي للانسان أن يختار الجليس . فليس كل أحد يصلح للمجالسة ولا كل أحد يصلح ان يكون جليساً ، فرب جليس يكون ضرره اكثر من نفعه ، ورب جليس يجلب السوء ويجلب تشويه السمعة وسوء الخلق ، ورب جليس يحطم كيان الانسان .

قال رسول الله (ص) : « مثل الجليس الصالح مثل الداري إن لم يحذك من طيبه علقك من ريحه ، ومثل الجليس السوء مثل الكير إن لم يحرقك بشرار ناره علقك من نتنه » .

قال علي أمير المؤمنين (عليه السلام) : « مجالسة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار ، ومجالسة الاخيار تلحق الاشرار بالأخيار ، ومجالسة الابرار للفجار تلحق الابرار بالفجار ، فمن اشتبه عليكم أمره ولم تعرفوا دينه فانظرو الى خلطائه فان كانوا أهل دين الله فهو على دين الله وان كانوا على غير دين الله فلا حظ له من دين الله إن رسول الله كان يقول : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يواخين كافراً ولا يخالطن فاجراً ، ومن آخى كافراً أو خالط فاجراً كان كافراً أو فاجراً »

وعن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال : « لا تصحبوا أهل البدع ولا تجالسوهم فتصيروا عند الناس كواحد منهم ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : المرء على دين خليله وقرينه » .

وعن سليمان الجعفري قال : سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول لأبي : مالي رأيتك عند عبد الرحمن بن يعقوب . قال : إنه خالي . فقال له أبو الحسن عليه السلام إنه يقول في الله قولا عظيما ، يصف الله ويحده والله لا يوصف ، فأما جلست معه وتركتنا وأما جلست معنا وتركته . فقال : إن هو يقول ما شاء أي شيء عليّ منه إذا لم أقل ما يقول . فقال له أبو الحسن عليه السلام : أما تخاف أن تنزل به نقمة فتصيبكم جميعاً ، أما علمت بالذي كان من أصحاب موسى عليه السلام وكان أبوه من أصحاب فرعون ، فلما لحقت خيل فرعون موسى تخلف عنه ليعظه وأدركه موسى وأبوه يراغمه حتى بلغا طرف البحر فغرقا جميعاً ، فأتى موسى الخبر فسأل جبرئيل عن حاله فقال له : غرق رحمه الله . ولم يكن على رأي أبيه لكن النقمة إذا نزلت لم يكن لها عمن قارب المذنب » .

* * *

وينبغي أن يكون الجليس رحب الملاقاة حسن المحاضرة خفيف الطبع والأريحية ، آخذاً بأربع ، تاركا لأربع ، آخذاً بأحسن الحديث إذا حدث ، وبأحسن الاستماع إذا حُدِّث ، وبأحسن البشر إذا لقي ، وبأيسر المؤونة إذا خولف . ويكون تاركا لمحادثة اللئيم ، ومنازعة اللجوج ، ومماراة السفيه ، ومصاحبة المأبون . وأن لا يكون فظاً غليظاً يكره الناس مجالسته . ولا ثقيلا يورث الضجر والألم النفسي .

مجالسة الثقلاء :

قال بختيشوع للمأمون : لا تجالس الثقلاء فانا نجد في كتب الطب ، أن مجالسة الثقيل حمى الروح .

وقال بعضهم : سخنة العين النظر بها إلى الثقلاء . ودخل أبو حنيفة على الأعمش يوماً فأطال جلوسه ، فقال : لعلي قد ثقلتُ عليك . قال : واني لأستثقلك وأنت في منزلك فكيف وأنت عندي .

قال بعض الشعراء :

إني أجالس معشراً نوكى أخفهم ثقيل
قوم إذا جالستهم صدئت بقربهم العقول
لا يُفهموني قولهم ويدق عنهم ما أقول
فهم كثير بي وأعلم أنني بهم قليل

وقال آخر :

فما الفيل تحمله ميتاً بأثقل من بعض جلاسنا

ومر رجل بصديق له ومعه رجل ثقيل ، فقال له : كيف حالك ؟ فقال :

وقائل كيف أنت قلت له هذا جليسي فما ترى حالي

وقال بشار :

ربما يثقل الجليس وإن كان خفيفاً في كفة الميزان
ولقد قلت حين وتد في الأر ض ثقيل أربى على ثهلان
كيف لم تحمل الأمانة أرض حملت فوقها أبا سفيان

وقال آخر :

هل غربة الدار منك منجيتي إذا اغتدت بي قلائص ذمل
وما أظن الفلاة تنجيني منك ولا الفلك أيها الرجل
ولو ركبت البراق أدركني منك على نأي دارك الثقل
هل لك فيما ملكت نافلة تأخـذه جملة وترتحل

وقال آخر :

ثقيل يطالعنا من أمم إذا سره رغم أنفي ألم
لطلعته وخزة في الحشا كوخز المشارط في المحتجم
أقول له إذ بدا طالعاً ولا حملته الينا قدم
فقدت خيالك لا من عمى وأذني كلامك لا من صمم

وأتى رجل ابن المقفع في حاجة فلم يصل اليه ، وكان مستثقلا له ، فكتب بيتاً في رقعة وأرسل به اليه :

هل لذي حاجة اليك سبيل وقليل تلبثي لا كثير

فوقع اليه :

أنت يا صاحب الكتاب ثقيل وقليل من الثقيل كثير

فأجابه الرجل :

قد بدأت الجواب منك بفحش أنت بالفحش والبذاء جدير

فضحك وقضى حاجته .

وكتب أعرابي إلى حماد الراوية المعروف بعجرد ، وكان حماد يستثقله :

إن لي حاجة فرأيك فيها ... لك نفسي الفدا من الأوصاب
وهي ليست مما يبلغها غيري ... ولا أستطيعها في كتاب
غير أني أقولها حين ألقاك ... رويداً أسرها باكتئاب

فكتب اليه اكتب بالحاجة يا ثقيل . فكتب :

إنني عاشق لجبتك الدكناء ... عشقاً قد حال دون الشراب
فاكسنيها فدتك نفسي وأهلي ... أتعزى بهـا على أصحابي
ولك الله والأمانة إني ... أجعلنها عمري أمير ثيابي

وقال آخر :

سألتك بالله إلا صدقت ... وعلمي بأنك لا تصدق
أتبغض نفسك من ثقلها ... وإلا فأنت إذاً أحمق

وقال آخر :

قل للبغيض أخي البغيض ابن البغيض ابن البغيضه
أنت الذي حملتك أمك ... بين فاحشة وحيضه
ضاقت على الثقلين من ... بغضائك الأرض العريضه
ودعت ملائكة السماء ... عليك دعوى مستفيضه

ولآخر :

يا من تبرمت الدنيا بطلعته ... كما تبرمت الأجفان بالسهد
يمشي على الأرض مجتازاً فأحسبه ... من بغض طلعته يمشي على كبدي

وقال آخر :

شخصك في مقلة النديم ... أثقل من رعية النجوم

يا رائحاً روحة علينا أثقل من سبة اللئيم
إني لأرجو بما أقاسي منك خلاصاً من الجحيم

وقال آخر :

يا مفرغاً في قالب البغض بغضك يشكوك إلى بغض
كأنما تمشي على ناظري إذا تخطأت على الأرض

وقال آخر :

يا من له حركات على النفوس ثقيله
وليس يعرف معنى قصيره من طويله
أورثتني بجلوسي اليك حمى مليله
فاصفع لنفسك عني فان كفي عليله

وقال آخر :

مشى فدعا من ثقله الحوت ربه وقال إلهي زيدت الأرض ثانيه

وأنشد آخر :

تحمل منه الأرض أضعاف ما يحمله الحوت من الأرض

وأنشد آخر :

مشتمل بالبغض لا تنثني اليه لحظاً مقلة الرامق
يظل في مجلسنا قاعداً أثقل من واش على عاشق

قال القيرواني في زهر الآداب .

وقد كثر الناس في الثقلاء ، وأنا أستحسن قول جحظة ، وإن كان غيره قد تقدمه في مثله :

يا لفظة النعي بموت الخليل يا وقفة التوديع بين الحمول
يا شربة اليارج يا أجرة المنزل يا وجه العذول الثقيل

يا طلعة النعش ويا منزلا أقفر من بعد الأنيس الحلول
يا نهضة المحبوب عن غضبة يا نمة قد آذنت بالرحيل
ويا كتاباً جاء من مخلف للوعد مملوءاً بعذر طويل
يا بكرة الثكلى إلى حفرة مستودع فيها عزيز الثكول
يا وثبة الحافظ مستعجلا بصرفه القينات عند الأصيل
ويا طبيباً قد أتى باكراً على أخي سقم بماء البقول
يا شوكة في قدم رخصة ليس إلى إخراجها من سبيل
يا عثرة المجذوم في رحله ويا صعود السعر عند المعيل
يا ردة الحاجب عن قسوة ونكسة من بعد برء العليل

ألفاظ لأهل العصر في صفات الثقلاء :

فلان ثقيل الطلعة ، بغيض التفصيل والجملة ، بارد السكون والحركة ، قد خرج عن حد الاعتدال ، وذهب من ذات اليمين إلى ذات الشمال . يحكي ثقل الحديث المعاد ، ويمشي في القلوب والأكباد ، ولا أدري كيف لم تحمل الأمانة أرض حملته ؟ وكيف احتاجت إلى الجبال بعدما أقلته ؟ كأن وجهه ايام المصائب ، وليالي النوائب ، وكأنما قربه فقد الحبائب ، وسوء العواقب . وكأنما وصله عدم الحياة ، وموت الفجأة ، وكأنما هجره قوة المنة ، وريح الجنة . يا عجبي من جسم كالخيال ، وروح كالجبال . كأنه ثقل الدين ، على وجع العين . هو ثقيل السكون بغيض الحركة ، كثير الشؤم ، قليل البركة . هو بين الجفن والعين قذاة ، وبين الأخمص والنعل حصاة . ما هو إلا غداة الفراق ، وكتاب الطلاق ، وموت الحبيب وطلوع الرقيب . ما هو إلا اربعاء لا تدور في صفر ، والكابوس في وقت السحر

وانقل من خراج بلا غلة ، وداء بلا علة ، وابغض من مثل غير سائر ، واجمع للعيوب من بغلة ابي دلامة ، وحمار طيار ، وطيلسان ابن حرب ، واير ابي حكيمة.

حق الجار

قوله (عليه السلام) :

« وحق جارك حفظه غائباً ، وإكرامه شاهداً ، ونصرته إذا كان مظلوماً ، ولا تتبع له عورة ، فان علمت عليه سوء سترته عليه ، وإن علمت أنه يقبل نصيحتك نصحته فيما بينك وبينه ، ولا تسلمه عند شدائده ، وتقيل عثراته وتغفر ذنبه ، وتعاشره معاشرة كريمة . ولا تدخر حلمك عنه إذا جهل عليك ، ولا تخرج أن تكون سلماً له ، ترد عنه لسان الشتيمة وتبطل فيه كيد حامل النصيحة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

° ° °

تمهيد :

الأعمال الاختيارية من الانسان إنما تصدر عن بواعث النفس وميل القلب فان كانت النفس زكية والقلب طاهراً نقياً صدرت من الانسان أعمال الخير والصلاح وتجنب الشر والمكروه والفساد ، وإن كانت النفس خبيثة والقلب دنساً صدرت منه اعمال الشر وظهر منه الفساد ، ومع ذلك فليس شيء من الخير او الشر يصدر من الانسان بفعل فاعل غيره ، وكل ما يصدر عن المكلف إنما هو باختياره ، ففاعل الشر يستطيع ان يفعل الخير وإن كانت نفسه أمارة بالسوء ، وفاعل الخير يقدر على فعل الشر وإن كانت نفسه مطمئنة راضية مرضية ، ولذلك استحق العقاب على الشر فاعله والثواب على الخير عامله .

قال بعض علماء النفس : (قد يكون الانسان مجرماً بالذات فاعلا للشر وإن لم يقصده لخبث نفسه ، وقد يكون محسناً بالطبع فاعلا للخير وإن لم ينوه به وذلك لطيب نفسه) .

واتبع بعض علماء الحقوق ورؤساء المحاكم هذا الرأي فدونوا العقوبات وحكموا بالأحكام الجزائية جرياً على هذه القاعـدة ، فان ارادوا ان الانسان قد يكون مجبولا على الشر بحيث لا يستطيع فعل الخير وقد يكون مقهوراً على الخير بحيث لا يقدر على فعل الشر ، فهذا مما يأباه العقل والوجدان ، وتنفيه التجارب والاختبارات المعمولة في اصول التربية ، ويرده الطب والفسيولوجيا واصول علم النفس وكل ما يبحث عن الدماغ والعصب من علم وفن . وإن ارادوا ان الانسان قد يكون متمايلا إلى الخير اكثر من الشر او إلى الشر اكثر من الخير فذلك حق ولـكن لا يوجب التفاوت في العقوبات والأحكام .

وما قاله الأطباء من وجود غدد في الجسم تفرز مواداً هرمونية تؤثر في توجيه الانسان وسلوكه ، وقالوا : نستطيع ان نرتب الناس بحسب امزجتهم ، فالمزاج الأدرينالي للشخص الانفجاري الذي يمتاز بالنزوة والاندفاع ، والمزاج الدرقي للشخص الصبور المتجلد المثابر ، والمزاج النخامي للشخص الذكي المتزن ، وهذا الترتيب ناتج عن وجود تلك الغدد ، من جملتها الغدد المنوية التي تترتب عليها صفات الرجولة العضوية والمزاجية ، وكذا المبيضان بالنسبة للمرأة . وإن الغدة الدرقية الواقعة إلى جانبي قصبة العنق يؤدي نقص الافراز منها إلى تعطل النمو وخمول الذهن ، وهي تزود الجسم بقوة المثابرة على الجهد . اما الغدتان الادرناليتان الواقعتان فوق الكليتين فتزودان الجسم بالانبعاث الفجائي وقت الغضب او الخوف . والغدة النخامية في اسفل المخ تؤثر في بقية الغدد وتدفع الانسان للاتجاه في سلوكه وجهة معينة .

فنعلم من هذا أننا لا نتصرف في الحياة بالعقل فحسب ولـكن بكل الجسم وفي الحقيقة أن العقل هو الضابط أو الحارس لأعمالنا واتجاهاتنا . فالأعمال الجسمية تؤثر على قلة وزيادة إفراز تلك الغدد كما يؤثر عليه التوجيه العقلي ، فللتربية والمحيط أثر كأثر الرياضة ، والمآكل والمشارب والصحة والمرض والراحة والتعب ، وما قالوه في هذا الصدد ليس معناه أن الانسان مجبور على عمل الخير أو الشر المتولد من الغضب والشهوة والوهم بحيث لا يستطيع مخالفته والجري على خلاف مقتضاه ، بل معناه أن للتركيب الجسمي أثراً في ميول الانسان إلى الشر اكثر من الخير أو إلى الخير اكثر من الشر ميلا لا يفقد معه الاختيار والقدرة على مخالفته ، وهذا الميل تؤثر فيه التربية والتفكير والمحيط وحمل النفس على ضده وترويضها والأكل والشرب والأعمال البدنية الأخرى فتخرجه عن اعوجاج الافراط والتفريط إلى استقامة الاعتدال .

وقد ذكر علماء الأخلاق قديماً وعلماء علم النفس حديثاً طرقاً لـكسر هذا الميل وتوجيهه إلى الصراط المستقيم من فعـل الخير في مورده والشر في محله ، ولـكنهم لم يأتوا بالمفيد ، وخير الطرق لتوجيه الانسان وجهة صحيحة في نفسه وقلبه وترويض روحه وهواه بحيث يكون تابعاً لعقله (غالباً) على شهواته وغضبه غير مغلوب لهواه ووهمه ، هو ما ذكر في الشرع الشريف ونطق به القرآن المجيد وبينته السنة الصريحة الصحيحة ، وهو أن يكون الانسان دائماً مفكراً في عقاب الله على الشر وثوابه على الخير واطلاعه على ما يفعل الانسان في السر والخفاء ، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها «وما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها» وكل ذلك علمه عند الله في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى .

هذا التفكير هو الذي يوقف القوة الغضبية عند حدها من الشجاعة ولا يدعها تميل إلى الافراط من التهور أو التفريط من الجبن ، وهو الذي يقود القوة

الشهوية إلى الصلاح فلايدعها تميل إلى الافراط من الشره والبطر ولا إلى التفريط من الخمول والـكسل ، وهوالذي يهذب القوة العاقلة ويمنعها أن تتردى في مساوي الجربزة أو تهوي في حضيض البله .

ومع ذلك فقد وردت في الشرع أحكام وآداب وأعمال تعين على حفظ تلك القوى وسلامة المزاج والسير بها إلى الصراط المستقيم والنهج القويم الذي يأمن معه المكلف من أليم العقاب وشديد العذاب ، ويحظى فيه بجزيل الاجر وعظيم الثواب ، وتنتظم به أمور الجامعة البشرية وأفرادها حتى تدرك السعادة في الدنيا والآخرة .

فمن تلك الأحكام والآداب التي أعارها الشرع أهمية كبرى حفظ الجار ورعاية حقوقه والقيام بواجبه وحرمة إيذائه والتعدي عليه ، وجعل حقه من أعظم حقوق الانسانية .

° ° °

الجار بتخفيف الراء ، يجيء لمعان : منها الجنب القريب : وهو الذي يجاورك في المسكن ويميل ظل بيته إلى بيتك .

والجار الذي يجير غيره (أي يؤمنه مما يخاف) .

والجار يطلق على الشريف والحقير، والزوج والزوجة ، والضرة ، والحليف والناصر ، والملاصق .

وقد عني الاسلام بحق الجار وجعله عظيما يكاد يكون من أعظم الحقوق الانسانية . والتدليل عليه قول الرسول الأعظم محمد ﷺ : « ما زال جبرئيل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه فمن قصر في حقه عداوة أو بخلا فهو آثم » .

وأمر الجليل (جل وعلا) بحفظه والقيام بحقه ، والوصاية برعي ذمته في كتابه وعلى لسان نبيه . ألا تراه سبحانه أكد ذكره بعد الوالدين والأقربين ،

فقال تعالى في الآية الخامسة والثلاثين من سورة النساء : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب ... » .

وعلى هذا فالوصاية بالجار مأمور بها مندوب اليها مسلماً كان أو كافراً .

والاحسان قد يكون بمعنى المواساة ، وقد يكون بمعنى حسن العشرة وكف الأذى والمحاماة دونه ، فيحسن أن يتعاون الجاران ويكون بينهما الرحمة والاحسان ، فاذا لم يحسن أحدهما إلى الآخر فلا خير فيهما لسائر الناس .

قال رسول الله ﷺ : « والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن ، قيل : يا رسول الله ومن ؟ قال : الذي لا يأمن جاره بوائقه » وهـذا عام في كل جار .

وقد أكد ﷺ ترك إذايته بقسمه ثلاث مرات ، وانه لا يؤمن الايمان الكامل من آذى جاره . فينبغي للمؤمن أن يحذر أذى جاره ، وينتهي عما نهى الله ورسوله عنه ، ويرغب فيما رضياه وحضا العباد عليه .

وورد عنه ﷺ أنه قال : « الجيران ثلاثة : فجار له ثلاثة حقوق ، وجار له حقان ، وجار له حق واحد ، فأما الجار الذي له ثلاثة حقوق فالجار المسلم القريب ، له حق الجوار وحق القرابة وحق الاسلام . والجار الذي له حقان فهو الجار المسلم ، فله حق الاسلام وحق الجوار . والجار الذي له حق واحد ، الكافر له حق الجوار » .

وهنا أمور :

الأولى : جاء عن عائشة قالت : يا رسول الله إن لي جارين فالى أيهما أهدي قال : « إلى أقربهما منك باباً » فذهب جماعة من العلماء إلى أن هذا الحديث يفسر المراد من قوله تعالى : « والجار ذي القربى » وأنه القريب المسكن منك .

« والجار الجنب » هو البعيد المسكن منك .

الثانية : اختلف الناس في حد الجيرة ، فكان بعضهم يقول : أربعون داراً من كل ناحية .

ورووا أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال : إني نزلت محلة قوم وإن أقربهم إلي جواراً أشدهم لي أذى ، فبعث النبي ﷺ من يصيح على أبواب المسجد : ألا إن أربعين داراً جار ولا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه .

وقال أمير المؤمنين علي (سلام الله عليه) : « من سمع النداء فهو جار » .

وقالت فرقة : من سمع إقامة الصلاة فهو جار ذلك المسجد .

وقالت فرقة : من ساكن رجلا في محلة أومدينة فهوجار . والجيرة مراتب بعضها ألصق من بعض أدناها الزوجة . قال الأعشى :

أيا جارتا بيني فانك طالقه

الثالثة : ومن إكرام الجار ما جاء عن أبي ذر (ره) قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك » فحض ﷺ على مكارم الأخلاق لما يترتب عليها من المحبة وحسن العشرة ودفع الحاجة والمفسدة ، فان الجار قد يتأذى بقتار قدر جاره ، وربما تكون له ذرية فتهيج من ضعفائهم الشهوة ، ويعظم على القائم عليهم الألم والكلفة ، لاسيما إذا كان القائم ضعيفاً أو أرملة فتعظم المشقة ويشتد منهم الألم والحسرة . وكل هـذا يندفع بتشريكهم في شيء من الطبيخ يُدفع اليهم ، ولهذا المعنى خص ﷺ الجار القريب بالهدية ، لأنه ينظر إلى ما يدخل دار جاره وما يخرج منها ، فاذا رأى ذلك أحب أن يشارك فيه وأيضاً فانه أسرع إجابة لجاره عندما ينوبه من حاجة في أوقات الغفلة والغرة فلذلك بدأ به على من بعد بابه وإن كانت داره أقرب .

الرابعة ـ قال العلماء : لما قال ﷺ : « فأكثر ماءها » نبه بذلك على تيسير الأمر على البخيل تنبيهاً لطيفاً ، وجعل الزيادة فيما ليس له ثمن وهو الماء ،

ولذلك لم يقل إذا طبخت مرقة فأكثر لحمها ، إذ لا يسهل ذلك على كل أحد ، ولقد أحسن مسكين الدارمي بقوله :

قدري وقدر الجار واحدة والیه قبلي ترفع القـدر

ولا يُهدى النزر اليسير المحتقر لقوله ﷺ : « ثم انظر أهل بيت من جيرانك فأصبهم منها بمعروف » أي بشيء يُهدى عرفاً فان القليل وإن كان مما يهدى فقد لا يقع ذلك الموقع ، فلو لم يتيسر إلا القليل فليهده ولا يحتقره ، وعلى المهدى اليه قبوله .

الخامسة ـ ورد حديث جمع النبي ﷺ فيه مرافق الجار ، وهوحديث معاذ بن جبل قال : قلنا : يا رسول الله ما حق الجار ؟ قال : « إن استقرضك أقرضه ، وإن استعانك أعنه ، وإن احتاج أعطيته ، وإن مرض عدته ، وإن مات تبعت جنازته ، وإن أصابه خير سرك وهنيته ، وإن أصابته مصيبة ساءتك وعزيته ، ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها ، ولا تستطل عليه بالبناء لتشرف عليه وتسد عليه الريح إلا باذنه ، وإن اشتريت فاكهة فاهد له منها وإلا فأدخلها سراً ، لايخرج ولدك بشيء منه يغيظون به ولده ، وهل تفقهون ما أقول لكم ، لن يؤدي حق الجار إلا القليل ممن رحم الله » .

على هذا النهج القويم من القرآن ، وهذا الاسلوب المنير من السنة سار الامام زين العابدين (سلام الله عليه) في هذا الفصل من رسالته الخالدة في التنويه بحق الجار والعناية والاهتمام به ألا تنظر اليه قائلا : « وحق جارك حفظه غائباً وإكرامه شاهداً ونصرته إذا كان مظلوماً و ... » ، ولم يكن الامام ممن يقتصر في روايته عن القرآن وعن النبي ، بل يستنبط ويدرك ويفيض عن علم ذاتي توحيه عبقريته ويثيره فيه محيطه ومجتمعه .

يعني : يجب حفظه إذا ... ـ بمعنى أن لا يخونه ـ وأن يكون أميناً على

ما أتمنه عليه ، وإكرامه واحترامه والحفاوة به إذا حضر ، ونصره ومعونته إذا ألم به خطب أو نزل به ضر .

ويجب على ما قرره (روحي فداه) ستره ما أمكن ، فالله يحب الساترين ويكره الفضيحة والافشاء ، ويكره التجسس والمراقبة ، فان ظهر على الجار شيء ما من دون تجسس أو مراقبة فعلى جاره أن يكتم كل ما عرف ، وأن يكون حصناً حصيناً لهذا السر الذي بيده مفتاحه .

ويجب أن ينصره إذا سمع عليه مقالة سوء ، ويكره الله أن يستمع إلى قوم ينوشون جاره بالسوء وفسق اللسان وهو عنهم راض ، وأن يقيل عثرته وينهضه من كبوته ، ويغضي عن بعض ما قد يسوء من أعماله ، فان الانسان معرض للخطأ ، وأن يحميه ويذود عنه ويدفع كل ما يضر به .

قال رسول الله ﷺ : « أحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمناً » .

وقال ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره ، ومن آذى جاره حرّم الله عليه الجنة » .

وقال ﷺ : « جار السوء في دار المقامة قاصمة الظهر » .

وقال ﷺ : « من جهد البلاء جار سوء معك في دار مقامه ، إن رأى حسنة دفنها ، وإن رأى سيئة اذاعها وافشاها » .

ومن ادعيتهم : « اللهم إني اعوذ بك من مال يكون عليّ فتنة ، ومن ولد يكون عليّ كلاً ، ومن حليلة تقرب الشيب ، ومن جار تراني عيناه وترعاني اذناه ، إن رأى خيراً دفنه ، وإن سمع شراً طار به » .

وعن ابن مسعود يرفعه : والذي نفسي بيده لا يسلم العبد حتى يسلم قلبه ولسانه ويأمن جاره بوائقه ، قالوا : ما بوائقه ؟ قال : غشمه وظلمه » .

قال لقمان : « يا بني حملت الحجارة والحديد فلم ار شيئاً اثقل من جار السوء » .

وأنشدوا :

ألا من يشتري داراً برخص　　كراهة بغض جيرتها تباع

وكان يقال : من تطاول على جاره حرم بركة داره .

وكان يقال : من آذى جاره ورثه الله داره .

وقالوا : ليس حسن الجوار كف الأذى ، ولكن حسن الجوار الصبر على الأذى .

استعرض أبو مسلم صاحب الدولة فرساً محضيراً ، فقال لأصحابه : لماذا يصلح هذا ؟ فذكروا سباق الخيل وصيد الحمر والنعام واتباع الفار من الحرب ، فقال : لم تصنعوا شيئاً يصلح للفرار من الجار السوء .

وكان يقال : الجيران خمسة : الجار الضار السيء الجوار ، والجار الدمث الحسن الجوار ، والجار اليربوعي المنافق ، والجار الراقشي المتلون في أفعاله ، والجار الحسد الذي عينه تراك وقلبه يرعاك .

وعن أمير المؤمنين علي (سلام الله عليه) : إن رسول الله ﷺ كتب بين المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من أهل يثرب : إن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وحرمة الجار على الجار كحرمة أمه .

وقال ﷺ : « إن يعقوب ﷺ لما ذهب عنه بنيامين نادى يا رب أما ترحمني أذهبت عيني وأذهبت ابني ؟ فأوحى الله تبارك وتعالى اليه : لو أمتهما لأحييتهما لك ، أجمع بينك وبينهما ، ولكن تذكر الشاة التي ذبحتها وشويتها وأكلت ، وفلان إلى جانبك صائم لم تنله منها شيئاً ، فكان يعقوب بعد ذلك ينادي مناديه كل غداة ومساء من منزله على فراسخ ألا من أراد الغداء أو العشاء فليأت إلى يعقوب .

وفي بعض الأخبار : إن الجار الفقير يتعلق بجاره الغني يوم القيامة ،

ويقول : سل يا رب هذا لِمَ منعني معروفه وسد بابه دوني ؟ .

وقال ﷺ : « من آذى جاره فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله تعالى ومن حارب جاره فقد حاربني ومن حاربني فقد حارب الله » .

ونزل به ﷺ أضياف فلما توضأ ﷺ شربوا ما فضل منه ومسحوا وجوههم بما وقع منه على الأرض . فقال ﷺ : ما حملكم على ذلك ؟ قالوا : حب الله ورسوله لعل الله ورسوله يحبنا فقال : المرء مع من أحب إن كنتم تحبون الله ورسوله فحافظوا على ثلاثة خصال : صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وحفظ الجوار ، فان أذى الجار يمحو الحسنات » .

وقال ﷺ : « لا يشبع الرجل دون جاره » .

وقال ﷺ : « خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره » .

وجاء عن الامام الصادق عليه السلام قال : « حسن الجوار زيادة في الأعمار ، وعمارة الديار » .

وقال عليه السلام : « ليس منا من لم يحسن مجاورة من جاوره » .

حدود الجار وحقه :

معرفة الجار موكولة إلى العرف ، فأي دار يطلق عليها الجار عرفاً ، يلزم مراعاة حقوق أهلها ، والمستفاد من بعض الأخبار إن كل أربعين دار من كل من الجوانب الأربعة جيران ، كما تقدم ذكره .

ثم لا ينحصر حق الجار في مجرد كف الأذى ، إذ ذلك يستحقه كل أحد

بل لابد من الرفق وإهداء الخير والمعروف ، وتشريكه فيما يملكه ويحتاج اليه من المطاعم .

وينبغي أن يبدأه بالسلام ، ولا يطيل معه الكلام ، ولا يكثر عن حاله السؤال ، ويعوده في المرض ويعزيه في المصيبة ، ويقوم معه في العزاء ، ويهنئه في الفرح ، ويصفح عن زلاته ويستر ما اطلع عليه من عوراته ، ولا يضايقه في وضع الجذع على جداره ، ولا في صب الماء في ميزابه ، ولا في مطرح التراب في فنائه ولا في المرور عن طريقه ، ولا يمنعه ما يحتاج اليه من الماعون ، ويغض بصره عن حرمه ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته ، ويتلطف لأولاده في كلمته ، ويرشده إلى ما يصلحه من أمر دينه ودنياه ، ولا يستطيل عليه بالبناء فيحجب عنه الريح إلا باذنه ، وإذا اشترى شيئاً من لذائذ المطاعم وطرفها فليهد له ، وإن لم يفعل فليدخلها بيته سراً ، ولا يخرج بها أولاده حتى يطلع عليها بعض أولاد جاره فيشتهيه وينكسر لذلك خاطره .

فكل جار يتصف بهذه الصفات فجاره يكون في راحة وطمأنينة وأمن ، لذلك أول ما يسأل عن الجار قبل الدار . قال لقمان في وصيته لولده : « يا بني الجار ثم الدار » .

باع أبو الجهم العدوي داره ، وكان في جوار ـ سعيد بن العاص ـ بمائة الف درهم ، فلما أحضرها المشتري قال له : هذا ثمن الدار فاعطني ثمن الجوار . قال : أي جوار ؟ قال : جوار سعيد بن العاص قال : وهل اشترى أحد جواراً قط ؟ فقال : رد عليّ داري وخذ مالك لا أدع جوار رجل إن قعدت سأل عني وإن رآني رحب بي ، وإن غبت عنه حفظني ، وإن شهدت عنده قربني ، وإن سألته قضى حاجتي ، وإن لم أسأله بدأني ، وإن نابني نائبة فرج عني ، فبلغ ذلك سعيداً فبعث اليه مائة الف درهم وقال : هذا ثمن دارك ، ودارك لك .

وكان كعب بن مامة إذا جاوره رجل قام له بما يصلحه وحماه ممن يقصده ، وإن هلك له شيء أخلفه عليه ، وإن مات وداه لأهله . فجاوره أبو دؤاد الأيادي فزاره على العادة ، فبالغ في إكرامه . وكانت العرب إذا حمدت جاراً قالت : جار كجار أبي دؤاد . قال قيس بن زهير :

أطوف ما أطوف ثم آوي إلى جار كجار أبي دؤاد

ثم تعلّم منه أبو دؤاد وكان يفعل لجاره فعل كعب به .

قال طرفة بن العبد :

إني كفاني من أمر هممت به جار كجار الحذاقي الذي اتصفا

الحذاقي هو أبو دؤاد ، وحذاق بطن من أياد هكذا في مجمع الأمثال تحت المثل « جار كجار أبي دؤاد » .

وقال مسكين الدارمي :

ما ضر جاري أن أجاوره أن لا يكون لبابه ستر

أعمى إذا ما جارتي خرجت حتى يواري جارتي الخدر

ناري ونار الجار واحدة واليه قبلي ينزل القدر

قال رجل لعبدالله بن المبارك : إن جارنا يشتكي من عبدي ولعله يكذب عليه . فقال له : إذا أذنب عبدك ذنباً فاحفظه عليه فاذا شكاه جارك فأدبه على ذلك ، فتكون قد أرضيت جارك وأدبت عبدك .

وإكرام الجار من شيم العرب وعاداتهم التي اشتهروا بها ومدحوا من أجلها وجاء الاسلام فأقر ذلك وزاده توكيداً بما جاء في الكتاب والسنة ، حتى ضرب المثل بعدي بن حاتم الطائي حيث كان يفت الخبز لمن جاوره من النمل ، ويقول : له علينا حق الجوار .

وضرب المثل بمجير الجراد فقيل : (أحمى من مجير الجراد) .

قالوا : هو مدلج بن سويد الطائي ، ومن حديثه فيما ذكر ابن الأعرابي عن ابن الكلبي أنه خلا ذات يوم في خيمته فاذا هو بقوم من طيء ومعهم أوعيتهم فقال : ما خطبكم ؟ قالوا : جراد وقع بفنائك لجئنا لنأخذه ، فركب فرسه وأخذ رمحه وقال : والله لا يعرضن له أحد منكم إلا قتلته ، إنكم رأيتموه في جواري ثم تريدون أخذه فلم يزل يحرسه حتى حميت عليه الشمس وطار ، فقال : شأنكم الآن فقد تحول عن جواري . هكذا جاء في مجمع الأمثال .

ومن أجل ذلك هاج حرب البسوس بين بني بكر وتغلب بن وائل أربعين سنة .

ومن خبرها أن كليب بن ربيعة اشتهر بحماية الجار حتى صار يضرب به المثل ، وكان لايدخل أحد حماه مخافة منه ، وكان يحمي مواقع السحاب فلايرعى حماه أحد ، وكان يحمي من المرعى مدى صوت كلب فيختص به ويشارك قومه في غيره ويجير على الدهر فلا تخفر ذمته ، ويقول : وحش أرض كذا في جواري فلا يهاج ، ولا يورد مع إبله أحد ولا توقد نار مع ناره ، حتى قالت العرب : (أعز من كليب وائل) . دخل يوماً حماه فرأى قنبرة قدباضت فلما رأته فزعت منه وطارت فلما رأى ذلك كليب تنحى عنها فقال لها :

يا لك من قنبرة بمعمري ... خلا لك الجو فبيضي واصفري
ونقري ما شئت أن تنقري ... لا ترهي خوفاً ولا تستنكري
فأنت جاري من صروف الحذر ... إلى بلوغ يومك المقــــدر

ومنع الناس بالتعرض لها ، وكانت إبل جساس (وهو رئيس وائل) ترعى في حمى كليب ومع إبل جساس ناقة للبسوس (وهي خالة جساس واسمها هيلة ولقبها البسوس وناقتها تسمى السراب وقد كانت جاورت ابن اختها جساس) ، فأقبلت السراب فرعت من شجرة القنبرة فأفزعت أفراخها وكسرت بيضها ، فلما بصر بها

كليب رماها بسهم فوقع في ضرعها فأقبلت وضرعها يشخب دماً ولبناً إلى مناخ البسوس ولها رغاء وعويل ، فسمعتها البسوس فخرجت وإذا ضرعها يشخب دماً ولبناً ، فصاحت وا جوار مرة (وهو أبو جساس) وا جوار جساس وا جوار همام ، ثم أقبلت عليهم وهم في مجالسهم قالت :

لعمري لو أصبحت في دار منقذ   لما ضيم سعد وهو جار لأبياتي
ولكنني أصبحت في دار غربة   متى يعدو فيها الذئب يعدو على شاتي
فيا سعد لا تغرر بنفسك وارتحل   فانك في قوم عن الجار أموات

فخرج اليها جساس وقال لها : مهلا يا خالة لا بأس عليك وأعطاها عشرة من الابل بدل ناقتها ، وقال لها : أنا أقتل جملا من جمال كليب أحسن من جملك . وكان عند كليب جمل يقال له عُليان وهو أحسن جماله . فلما سمع كليب قال : دون عُليان ودون عقره خرط القتاد في الليلة الظلماء . فبلغ جساس ذلك فأخذ ينتهز الفرص ويدبر الحيلة في قتل كليب ، وأخذ يتوقع خروجه إلى الحمى ووضع عليه العيون ، فلما بلغه أن كليباً خرج إلى الحمى ركب جساس فرسه وتبع كليب فلما دخل الحمى حس كليب بوقع الفرس التفت اليه قال جساس : هذا ، قال : نعم قال : يابن عمي (وكان كليب قد تزوج أخته) إن كنت من رجالي فأتني من قدامي لأنك تعلم أني قد حلفت لا ألتفت إلى أقل من أربعين ، (وكان كليب من شجاعته وفراسته لايلتفت إلا إلى أربعين فارس) فلم يلتفت جساس إلى ذلك دون أن طعنه بالرمح في ظهره ؛ فوقع كليب وجعل يفحص الأرض برجليه وهو يقول : يا جساس أغثني بشربة ماء ، فولى جساس عنه وتركه صريعاً يخور بدمه ، فأقبل يُركض فرسه وقد بدت ركبتاه ، فلما نظر أبوه مرة إلى ذلك قال لقومه لقد أتاكم جساس بداهية . قالوا : كيف ذاك ؟ قال : ما رأيته بادي الركبتين قط فلما وقف على أبيه وأخبره بأنه قد قتل كليباً لامه أبوه على ذلك ، وخاف مرة

خذلان قومه لما كان من لأعته إياه ، فالتزم محاربة بني تغلب ، فدعا قومه إلى نصرته فأجابوه ، وجلوا الأسنة وشحذوا السيوف وقوموا الرماح وتأهبوا الرحلة إلى جماعة قومهم . وكان همام بن مرة (أخو جساس) و (مهلهل بن ربيعة أخو كليب) متنادمين وكانا في ذلك الوقت يشربان ، فبعث جساس إلى همام جارية له تخبره الخبر ، فانتهت اليهما وأشارت إلى همام فقام اليها فأخبرته الخبر ، فلما عاد قال له مهلهل : ماقالت لك الجارية (وكان بينهما عهد لايكتم أحدهما صاحبه شيئاً) فذكر له ما قالت الجارية . فقال مهلهل : أست أخيك أضيق من ذلك ، إشرب فاليوم خمر وغداً أمر . فأقبلا على شربهما فشرب همام وهو حذر خائف ، وشرب مهلهل شرب الآمنين ، فلما سكر مهلهل انصرف همام إلى أهله ، فساروا من ساعتهم إلى جماعة قومهم . وأما مهلهل فانه لما صحا من سكره لم يرعه إلا النساء يصرخن وقد شقوا الجيوب وخمشوا الوجوه ، فجز شعره وقصر ثوبه وهجر النساء وترك اللعب والطرب ، وحرم القمار والشراب ، ثم جمع قومه وأرسل رجالا منهم إلى بني شيبان فأتوا مرة بن ذهل (أبو جساس) وهو في نادي قومه ، فقالوا له إنكم أتيتم عظيما بقتلكم كليباً بناقة وقطعتم الرحم وانتهكتموا الحرمة ، وإنا نعرض عليك خلالا أربع لكم فيها مخرج ولنا مقنع : إما أن تحيي كليباً أو تدفع لنا قاتله جساس نقتله به أو همام فانه كفؤ له أو تمكنا من نفسك فان فيك وفاء من دمه . فقال لهم : أما إحيائي كليباً فلست بقادر عليه ، واما جساس فانه غلام طعن طعنة ثم ركب فرسه فلا ندري اي البلاد احتوت عليه ، واما همام فانه ابو عشرة واخو عشرة وعم عشرة كلهم فرسان قومهم فان يسلموه ادفعه اليكم يقتل بجريرة غيره ، واما انا فهل هو إلا ان تجول الخيل جولة فأكون اول قتيل بينهما ، ولكن لكم عندي خصلتان : إما احدهما فهؤلاء ابنائي الباقون فخذوا ايهم شئتم بصاحبكم ، واما الأخرى فأنا ادفع لكم الف ناقة سود الحدق حمر الوبر . فغضب

القوم وقالوا : لقد اسأت تبذل لنا صغار ولدك وتسومنا اللبن من دم كليب .
ونشبت الحرب بينهم ودامت بين الفريقين اربعين سنة ، وفي كل هذه السنين تكون الغلبة لبني تغلب على وائل ، وقتل همام اخو جساس ، وكانت تغلب تطلب جساس اشد الطلب فقال له ابوه مرة : إلحق بأخوالك بالشام فامتنع فألح عليه وسيره سراً في خمسة نفر ، فبلغ الخبر مهلهل فندب ابا نويرة ومعه ثلاثون رجلا من شجعان اصحابه فساروا مجدين فأدركوا جساساً فقاتلهم فقتل جساس ابا نويرة واصحابه ولم يبق منهم سوى رجلين ، وجرح جساس جرحاً شديداً مات منه وقتل اصحابه فلم يسلم منهم غير رجلين فعاد كل منهم (من السالمين) إلى اهله ، فلما سمع مرة بقتل ابنه جساس قال : إنما يحزنني إن لم يقتل منهم . فقيل له انه قتل بيده ابا نويرة رئيس القوم وقتل معه خمسة عشر رجلا ما شركه منا احد في قتلهم . فقال : ذلك مما يسكن قلبي . فلما قتل جساس دعا مرة مهلهل وقال له : إنك قد ادركت ثارك وقتلت جساساً وهمام فاكفف عن الحرب ودع اللجاج والاسراف وأصلح ذات البين فهو أصلح للحيين . فلم يجب مهلهل إلى ذلك . فلما مضت على حربهم هذه السنون وكبر الصغير وهرم الكبير وفني الحيان وثكلت الأمهات ويُتم الأولاد وناحية لا تزال تصرخ بالنواحي ، ودموع لا ترقى واجساد لا تدفن ، وسيوف مشهورة ورماح مشرعة ، جزع الفريقان مهلهلا . وكان له عبدان يخدمانه فملاه ، وخرج بهما إلى سفر فبينما هو في بعض الفلوات عزما على قتله لتهدأ الحرب ، فلما عرف ذلك اوصاهما ان يقرءا هذا البيت على ابنته :

من مبلغ الحيين ان مهلهلا لله دركما ودر ابيكما

ثم قتلاه ورجعا إلى قومه فقالا لابنته إنه مات ، وانشداها البيت . فقالت : إن مهلهلا لا يقول مثل هذا ، ولكن امكثا على الباب ، ثم صعدت على السطح واشرفت على الحي ونادت :

من مبلغ الحيين أن مهلهلا أمسى قتيلا في الفلاة مجدلا
لله دركما ودر أبيكما لا يبرح العبدان حتى يقتلا

فأسرعوا إلى العبدين فضربوهما حتى أقرا ثم قتلوهما .

وكانت العرب بعد ذلك تضرب المثل في كليب وحماه حتى قالوا : (أعز من كليب وائل) .

ولم يقفوا عند هذا الحد من حفظ الجوار بل تعدى إلى غير ذلك فمنعوا من استجار بقبور أشرافهم وأسلافهم . فقد روي أن رجلا من بني حنظلة قتل رجلا من بني تميم فخافهم على نفسه فلم يدر ما يصنع ، فقيل له عذ بقبر قيس بن عاصم المنقري ، فجاء إلى قبره ليلا فضرب خيمته عليه ، فلما أصبح جاء بنو منقر فسألوه عن شأنه فأخبرهم ، فقالوا له : أمنت ، ثم رحل ومعه مشائخ قومه إلى أهل القتيل فودوه عنه بدية مشمرة .

وولى الحجاج تميم بن زيد القيني على السند ، فأخرج من شاء معه من الرجال ، فجاءت عجوز إلى الفرزدق فقالت له : إني استجرت بقبر أبيك غالب وهذه حصيات من قبره فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : خرج تميم بابني ولا قرة لعيني سواه ولا كاسب لي غيره . فقال : هو عائد اليك ما اسمه ؟ قالت : خنيس . فكتب مع بعض من شخص إلى السند :

تميم بن زيد لا تكونن حاجتي بظهر فلا يعيى عليّ خرابها
فهب لي خنيساً واحتسب فيه منة لعبرة أم لا يسوغ شرابها

فلما وردت الأبيات على تميم شكك بالاسم هل هو خنيس أو حبيش (لأن العرب كانوا لا ينقطون الحروف) ثم قال لأصحابه : انظروا من له مثل هذا الاسم فارجعوه ، فوجدوا ستة أو سبعة فأرجعوهم .

وهجا الكميت الأسدي بني أمية في قصائده (الهاشميات) بقوله :

ألا أبلغ أمية حيث حلت ولا تخشى المهند والقطيما

أجاع الله من أشبعتموه وأشبع من بجوركم أجيعا

فلما بلغ هشام بن عبدالملك أهدر دمه ، فكتب إلى خالد بن عبدالله القسري ليقتله ، فأخذه خالد وحبسه ، فجاءت اليه امرأته فناقلته ثيابها بثيابه فخرج من الحبس ولم يعرفه السجان ، وبعد ساعة نادى السجان الكميت فلم يجبه فدخل ليعرف خبره صاحت به زوجة الكميت ورائك لا أم لك . فشق ثوبه ومضى صارخاً إلى باب خالد فأخبره الخبر ، فأحضر خالد المرأة قال لها : يا عدوة الله احتلت على أمير المؤمنين واخرجت عدوه من السجن لأثكلنك بنفسك . فاجتمع بنو أسد (قومها) وقالوا له : لا سبيل لك على امرأة خدعها زوجها . وبقي الكميت خائفاً سنة كاملة متخفياً في دار أبي الوضاح ، فسقط يوماً غراب على حائط أبي الوضاح ونعب ، فقال له الكميت : إني لمأخوذ وإن حائطك لساقط . فقال : سبحان الله هذا لا يكون إن شاء الله . وكان الكميت خبيراً بالرجز ، فقال له : لابد أن تحولني نخرج به إلى بني علقمة وكانوا يتشيعون ، فأقام فيهم ولم يصبح حتى سقط الحائط الذي سقط عليه الغراب . قال المستهل : وأقام مدة متوارياً حتى أيقن أن الطلب خف عنه ، خرج ليلا في جماعة من بني أسد على خوف ووجل ، وأخذ الطريق على القطقطانية . وكان عالماً بالنجوم مهتدياً بها ، فلما صار السحر صاح بنا هو موا يا فتيان فهومنا ، وقام يصلي . قال المستهل : فرأيت شخصاً فتضعضعت له فقال : ما بالك ؟ قلت : أرى شخصاً مقبلا فنظر اليه فقال : هذا ذئب قد جاء يستطعمكم ، فجاء الذئب فربض ناحية فأطعمناه جزوراً فتعرقها ، ثم أهوينا له بأناء فيه ماء فشرب منه ، فارتحلنا وجعل الذئب يعوي فقال الكميت : ماله ويله ألم نطعمه ونسقه وما أعرفني بما يريد هو يدلنا إنا لسنا على الطريق تيامنوا يا فتيان فتيامنا فسكن عواؤه ، فلم نزل نسير حتى جئنا الشام ، فضرب الكميت

جيمة له على قبر معاوية بن هشام (وقد مات قريباً) وقد جزع عليه هشام جزعاً شديداً ، فجاءه ولد هشام وسألوه عن شأنه فقال : أنا الكميت أهدر هشام دمي فلما أصبحوا ربطوا ثيابهم بثيابه وأقبل هشام على عادته منطلقاً من قصره إلى قبر ولده فلما رأى الخيمة مضروبة على قبر ولده قال : ما هذه ؟ فقالوا : لعله مستجيراً في القبر ، فقال : يجار كائناً من كان إلا الكميت فانه لا جوار له فقيل له إنه الكميت فأمر أن يحضر بأعنف إحضار فخرج أولاده وقد ربطوا ثيابهم بثياب الكميت وقالوا له : إن أردت قتله فلقتلنا قبله . فلما نظر هشام إلى أولاد معاوية اغرورقت عيناه واستعبر باكياً ، وقالوا له : يا أمير انه استجار بقبر أبينا وقد مات ومات حظه من الدنيا فاجعله هبة له ولنا ولا تفضحنا فيمن استجار بقبر أبينا . فبكى وقال : إني قد أجرته ، ونجى الكميت .

* * *

هي في النار ، هي في النار

« قالها (صلوات الله عليه) لمن قال له : إن فلانة يا رسول الله تقوم ليلها وتصوم نهارها وتكثر من الصدقات ، ولكنها تؤذي جيرانها ، فقال ﷺ : « هي في النار . . . » يقول بعض أصحابه : ما زال ﷺ يوصينا بالجار حتى ظننا أنه سيورثه .

وقد كانت العرب في الجاهلية تتبارى في إكرام الجار ، في حمايته حتى عد ذلك من مزاياهم الخاصة ، وحتى قال شاعرهم الكريم حاتم يخاطب زوجته :

إذا ما وضعت الزاد فالتمسي له ... أكيلاً فاني لست آكله وحدي
أخاً طارقاً أو جار بيت فانني ... أخاف مذمات الأحاديث من بعدي

فالاسلام لا يجب ما قبله من محاسن الأخلاق ، وإنما يقرها ويعززها ، وكذلك ليس من فطرة الاسلام أن يقضي السجايا السيئة التي تتقوم بها الغرائز ،

كسجية القتل بغير حق الذي كانوا يقترفونه بدافع الثار أو الغضب .

أقول : ليس حجر هذا من طبع الاسلام ، وإنما طبع الاسلام على تحوير هذه السجايا وصرفها عن الباطل ثم توجيهها إلى الحق ، فالاسلام يدرك أن هذه السجايا ذخيرة حية خالدة وثمينة في العرب ، فأبقى عليها وعززها ثم وجهها إلى خير الانسانية وفق نظامه العادل ودستوره الحي وناموسه الاعلى .

فالغضب الذي كان يستغله العربي في جاهليته لنفسه أو قومه أو وطنه ، بدافع الأنانية الجائرة ، ابقاه عليه ولكنه دفعه إلى العمل به لدينه او ربه او إنسانيته ، وهكذا اصبح الغزو المشروع في طبيعة العرب الجاهليين للانتقام ، او العيش بالباطل ، اصبح غزواً مشروعاً في الاسلام للدعوة إلى الحق ، او الجهاد في سبيل الانسانية وتعزيز الدين .

من هنا نصل إلى الخلق العربي القائم على حماية الجار وتعزيزه وإكرامه ، كالخلق الداعي لاكرام الضيف وحمايته ، والدفاع بالنفس والمال عن كل خلق كريم تأصل فيهم ، مثل الشجاعة والكرم والوفاء والحمية .

وإكرام الجار يكاد يكون احظى ما تبناه الاسلام في اهله من اخلاق الجاهليين ، لما فيه من توثيق عرى الصلة بين الانسان والانسان ، ولما فيه من وسائل التضامن والتآلف ومن شد اواصر المجتمع البشري ، لذلك اهتم به ـ صلوات الله عليه ـ فجعله (اي حسن الجوار) إحدى دعامات المجتمع التي يقوم عليها بناء الوجوب الانساني ، ولقد كان ـ صلوات الله عليه ـ يربي في نفوس قومه عامة واصحابه الأدنين واهل بيته خاصة ، معاني الحياة الكريمة التي لا جفاء فيها ولا تنازع ، ولهذا قال الله تعالى : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيراً » .

ولقد كان ﷺ يتفقد اصحابه إذا غابوا ، ويتعهدهم بتحببه وتودده إذا

حضروا ، وقد سأل بعضهم ، وقد عادوا في تجارة لهم من الشام ، سألهم عما رأوا فقالوا : جاء معنا يا رسول الله رجل اتقى ما يكون يقوم الليل ويصوم النهار ، في جبهته كثفنة البعير من السجود لا يفتر عن ذكر الله . فقال ﷺ وقد رأى في وجوههم تأثراً بالغاً مما رأوا في هذا العابد ، وحسب انهم لا يرون الدين إلا في مثل هذه الصفات ، فسألهم : ومن اين كان يأكل ؟؟ فقالوا : نحن اطعمناه وخدمناه . فقال : انتم افضل منه عند الله . يعلمهم بذلك ان الدين ليس قاصراً على الآخرة ، وانما هو ثمرة الدنيا .

وقد اثر نهجه هذا في توجيه اهل بيته من الأئمة الهداة المعصومين بعده ، فقد سأل الامام بعضهم عن اصحابه فقالوا : قد اعلق عليه بابه وقال : لأعبدن الله حتى يأتيني رزقي . فسأل عليه السلام مخبره من اين يأكل ؟؟ فقال : ان بعض الجيران يتصدق عليه من نافذة صغيرة في جدار بيته . فقال عليه السلام : « ان الذي يقوته اشد عبادة منه » .

في هذا كله وامثاله كثير تربية وتوجيه وتعاليم لنا كيف ندين لله برسالة محمد ﷺ فليس الدين قاصراً على التهذيب الروحي فيما نعمل او نقول ، ولكنه الى ذلك توجيه عملي يضمن لنا الحياة الدنيا التي نجتازها الى حياتنا الأخرى .

فقوله ﷺ : هي في النار وان صامت وان برت وتصدقت ، من قبيل قوله : « لا صلاة لمن جاره المسجد » . وقوله في الحديث السابق : « انتم افضل منه » والحديث الذي تلاه . « والذي يقوته اشد عبادة لله منه » . ومن قبيل قوله ﷺ : « الدين المعاملة » « والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده » وقوله : « لا يؤمن المرء حتى يأمن الناس بوائقه » وامثال هذا كثير في سيرته عليه السلام .

كل ما مر بك هو من مميزات الاسلام التي فقدها العصر الحديث ؛ من اجل ذلك فقد بفقده الاطمئنان الى الحياة ، اذ شغل الانسان بحراسة نفسه

من ظلم اخيه الانسان وبطشه واستعباده عن التفرغ الى الحياة الكريمة الهادئة الشريفة التي يعيش بها الانسان مع اخيه كريماً هادئاً ، مطمئناً شريفاً .

اذكر وانا في مدينة السيارات (ديترويت) تحت سماء امريكا الشمالية ، مرت بي سيارة بعض المواطنين العرب ، في شارع تكاد هيبة الحياة وجلالها يكونان مفرغين على ذلك الشارع ، ولاحظت ان اكثر الأبنية فيه خال من اهله إلا الأشجار الباسقة والطيور المغردة ، فسألت مرافقي سبب ذلك فقال : إنه سوء الجوار بسبب الأنانية الطبقية والعنصرية ، ففيما يعتاد الناس هنا ان الغني لا يجاور فقيراً ، والأبيض لا يجاور اسوداً والنبيل لا يجاور صعلوكاً ، ثم الرفيع لا يجاور وضيعاً ، وقد شاء الله ان يثري بعض السود من هنود امريكا ، وان يبنوا او يشتروا قصوراً في هذا الشارع ، فتركه اهله البيض واقفلوه كما ترى لسوء الجوار كما يزعمون .

من عادات العرب التي يمتازون بها ، احتفاؤهم بالنزيل إذا جاورهم ، فقد شهدت ذلك إذ زرت البداة ، ومكثت فيهم اكثر من عام ، فكنت ادعى احياناً لولائم ، واسأل السبب في إقامتها فأجاب بأن جاراً جديداً نزل في الحي ، وهذا الجار له حقان : حق على القبيلة او الحي الذي ينزل فيه ، وحق على من لاصق داره داره ، فالأول يدعى جار الحي او القبيلة ، فعلى القبيلة ان تكرمه وتحميه إذا كان لاجئاً . والثاني يدعى جار فلان ، فعلى فلان ان يكرمه ويحميه ، فهو إذ ذاك عزيز فيهم محترم بينهم ، كواحد منهم او اعزه .

ولا تزال هذه العادة جارية في العرب البداة حتى اليوم . واما في بلاد الغرب فهم على عكس ذلك ، وخاصة في بريطانيا ، فانك ان تنزل فيهم وتجاورهم يتعمدون اجتناب التعرف اليك ، ويفرون من مواجهتك والتحدث معك ، ولو قطعت حياتك فيهم فانت غريب عنهم منكور لديهم ، وقد تجاور الشخص في شقة

واحدة من العمارة يفتح بابه فيراك اوتفتح بابك فتراه ، وكذلك يحصل بين اهلك واهله واولادك واولاده . وقد يستمر هذا الجوار اعواماً كثيرة قد تستهلك حياتك وحياته ثم لا يكون بينك وبينه تعاون ولا تآلف ولا محاولة ذلك منه او منك . وقد يحصل جناية في بيتك من لص عدا عليك وتهتز العمارة من هول تلك الجناية ولا يشعر جارك ؛ او لا تحب ان يشعر بما يدور حولك .

كل ذلك عندهم يقع تحت المثل العربي القائل : (من دخل فيما لا يعنيه وقع فيما لا يرضيه) فهم يعتبرون هذا المثل دستوراً تقوم حياتهم عليه ، بينما نحن وضعنا هذا المثل وليس في بلاد العرب كلها عربي يعمل به او يرى فيه ضرورة لحياته ، وعلى العكس نرى العربي عامة والمسلم خاصة يرى الدستور الأول والناموس الأعلى في قوله تعالى: « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » فالتعارف عندنا سنة طبيعية تقوم عليها حياتنا ، واما عندهم فالحياة انما تقوم على القوانين التي يحميها سلطانهم ويسهر عليها رجال الحكم فيهم . ذلك ما خبرته ، ولابد فيهم من الشواذ ، والشاذ لا قياس عليه .

من هذا النادر : ان شخصاً قد يألفك لأنك تعرضت لالفته فوجدت فيه ميزة التعارف ، ورب امرأة ألفتك لنظرة اعلقتها بجمالك اومالك ، ورب شخص آخر احس بمهنته السيئة انك ثري ويريد ان يتقرب اليك في سبيل التحايل عليك لأنهم يعبدون المادة ، والتعارف بين الأشخاص عندهم للانسانية او للدين او للأخلاق الفاضلة يكاد يكون مفقوداً ، فلا تعارف إلا لمصالح مادية تجمع بين شركاء او عملاء حتى اذا انتهت المعاملة او الشركة انتهى التعارف ، اما الصداقة البريئة من المادة والتي يبني الشرقيون عامة والعرب والمسلمون خاصة عليها رابطة انسانيتهم ، والتي يعززها الدين بقوله : « المسلم اخو المسلم احب ام كره » والتي اكدها الرسول بعد كتاب الله بأقواله واعماله في مواطن كثيرة .

اقول : اما هذه الصداقة فليس لها اصل عندهم ولا فرع . لذلك تمزقت عندهم الأنانية الشخصية ، اذ يرى الغربي نفسه قبل كل شخص والأنانية الجماعية اذ ترى كل امة منهم عنصرها قبل كل عنصر لمجرد الشخصية والعنصرية ، وعلى هذا قام تناحرهم وتفانيهم في الحروب ، وعلى هذا سيقوم دمارهم آخر الأمر » (١) .

---

(١) دين وتمدين .

حق الصاحب

قوله (عليه السلام):

«وحق الصاحب: أن تصحبه بالتفضل والانصاف، وتكرمه كما يكرمك، ولا تدعه يسبق الى مكرمة، فان سبق كافيته. وتوده كما يودك، وتزجره عما يهتم به من معصية، وكن عليه رحمة ولا تكن عليه عذاباً. ولا قوة إلا بالله».

* * *

لا شيء يعمر القلوب بالسعادة والهناء، ويضاعف من أفراحها إن كانت مسرورة مبتهجة، ويبدد من أحزانها إن كانت بائسة يائسة .... مثل الصحبة والاصحاب.

لا شيء أجمل وأثمن من الصحبة، لأنها أعظم نعم الحياة عند من يفهم الحياة.

لا شيء أقوى وأمتن من الصحبة، لأنها أرواح متآلفة متكاتفة بالذات لا بتوسط المشاركة في الدماء والانساب

لا شيء يغني عن الاصحاب أبداً حتى الجاه والمال، وحتى النساء والعيال بل وحتى الصحة والامان.

لا شيء يوازي الصحبة، لانها حب وولاء، وتضامن واصطفاء، وصدق وصفاء وتفاعل الروح مع الروح، وانجذاب القلب للقلب، واستجابة العقل للعقل.

ومن عاش بدون أصحاب فقد عاش في مفازة موحشة مظلمة، وإن كان في جنة تجري من تحتها الأنهار، ومن عاش بهم فهو في نعيم الله والانسانية،

وإن كان في قفر مخيف لا سبيل فيه ولا دليل .

فالانسان بمعناه الانساني ، وإن كثر ماله ، وامتد جاهه ، يظل يحس ويشعر أن في حياته فراغاً ونقصاً إذا فقد الأصفياء والاوفياء ، لأنهم يمنحون الحياة البهجة والمسرة .

وهي أيضاً أهم الدعامات التي يشيد عليها بناء الوحدة الاسلامية ، فانك لا يمكنك أن تتصور وجود التضامن بين أناس لم يكن الشعور بالصحبة أظهر مميزاتهم .

وهي نفسان تحابا حباً معتدلا ثابتاً ، وتعاقدا على الوقوف جنباً لجنب حيال عاديات الدهر ، وتعاهدا على السير كتفاً لكتف في طريق هذه الحياة .

ويبتدىء شعور الانسان بالصحبة وهو في مهده ، فإن الطفل الصغير ليبتسم لمن يداعبه ويحنو عليه ، ويخفق فؤاده طرباً لا بتسامة والديه ، ولا تزال هذه العاطفة التي هي أساس الشعور بالصحبة تنمو بنموه الى ان تصبح طبيعة ثانية ، فان الانسان حتى وهو على حافة القبر ليماق قلبه بمن يوليه الجميل .

« وكل امرىء يولي الجميل محبب »

فالصحبة بصفتها أس التضامن هي أساس العمران ، وسر تقدم الأمم ، فما كان لقوم ـ كل فرد منهم غير ذي إحساس بفكرة التضامن مع غيره من الأفراد ـ نصيب من السعادة والوفاء ، وهل كان الخط غير مجموع نقط ؟ بل أو ليس السطح مجموع خطوط ؟ هكذا طبيعة التضامن في الأمم .

ويمكننا أيضاً أن نعبر عنها بأنها معنى من معاني السعادة الفردية ، فانك ليوليك سروراً ويعلاك جذلا أن تعلم ان هناك من يفرح بحق لفرحك ويألم لألمك ، بل من قد يؤثرك على نفسه ، وهل فوق هذا الشعور ما يحبب الحياة إلى الانسان ويجعله يحرص على البقاء ؟

هذا ولنفهم ان الصحبة شيء آخر يختلف عن تلك الصور التي ألفناها ممن

يحيط بنا من أدعياء الصحبة ، فليست الصحبة مدلولا لعبارات لحمتها الرياء ، ولا حنواً كاذباً ولا ثغراً باسماً فوق أتون من الحقد ، بل هي حكمة ربانية في طيها أسرار الصدق والنبل والشهامة ، وأسمى مراتب التضحية .

ولقد عمت الشكوى من فقدان الصاحب الصالح ، وأصبح اليأس من وجوده أمراً مألوفاً ، فانك لا تسمع في المجالس عن ذكر الصاحب المخلص إلا كل متذمر لعدم وجود من هو كفؤ للصحبة ، وكذلك لا ترى على صفحات الجرائد والكتب إذا خاض كاتب في هذه القضية إلا مثالا لا يخرج عن حد الشكوى من فقدان الصاحب النزيه قد كتب فوقه بالقلم العريض : (أين الصاحب) .

فكأن الصاحب المطلوب خرافة من خرافات الأقدمين ، أو خاطر جادبه خيال شاعر عبقري اودع به الحسرة في قلوب الناس . وما كان الامر كذلك ، بل إنما تلك الصورة الشعرية التي تكيفت بها إحساساتنا وامتلأت به عواطفنا من الوفاء المطلق والايثار المحض ، هي التي جعلتنا نعتبر الصاحب اسماً لغير مسمى ، إذ يتعذر علينا تحقيقه في الواقع بل هو جهلنا بطبائع النفوس الذي جعلنا نتلمس الصاحب في ديجور من خدعة العواطف فلا نعثر عليه .

وللصحبة بأبعد غايات الكلمة صفات الباحث عن الصحبة . ثم إنها تنقسم الى قسمين قسم يجب ان يتصف به كلا المتصاحبين ، وقسم يجب ان يتصف به احدهما دون الآخر ، وبقدر ما تتمشى هذه القاعدة الثابتة على حالة المتصاحبين كان الأمل ببقاء الصحبة كبيراً والوثوق بمتانة دعامتها عظيماً والعكس بالعكس ولنضرب مثلا لكلتا الحالتين :

الأولى أنه لا يمكن أن تكون الصحبة مقيمة بين أديب مؤدب وغر رقيع بل لابد لكي يتصاحبا صحبة صحيحة من ان يشارك احدهما الآخر في صفته .

الثانية انه لا ينتظر ان تدوم الصحبة بين اثنين اتصفا بحدة الطبع ، بل لابد من ان يكون احدهما لين العريكة وإلا انفصمت عرى صحبتهما لأول

خطوة ، وعلى هذين القياسين تتمشى كافة الطبائع والنزعات . ولما كانت هذه الحقائق لا ينفع في إدراكها القياس النظري عند الاحساس بالصحبة بين اثنين ، بل لابد من التجربة العملية لمعرفة نصيبها منها ، لذلك كانت التجربة هي القياس الوحيد لدرجة استعداد كل من الصاحبين لصحبة الآخر ، فانه كلما طالت مدة الوفاق بين الأصحاب كان ذلك فألاً حسناً يبشر بدوام الصحبة ، لانه دليل على توفر الصفات المطلوبة في كل منهم .

ولقد تعترض الصحبة في كافة أدوارها أمور تافهة تقضي في بعض الاحيان على ذلك الاحساس الشريف قضاء مبرماً ، ولكن الضمانة الوحيدة التي تعترض لتلافي تلك ، هي التسامح والأناة وسعة الصدر وحسن التفاهم ، وإن أهمية اتخاذ الأصحاب كما قال أحد أباطرة الرومان : لا يضاهيها إلا أهمية الحرص عليهم .

تالله ما حياة المرء بغير صاحب إلا كلفظ خلا من المعنى ، وما الحياة التي يرفرف عليها ملاك الصحبة إلا كالبيت العامر من الشعر يملأ مشاعر النفس ويملك الوجدان .

بل ليس لامرىء أن يشكو من الحياة وله صاحب يبدل من صور الايام ويغير من طعم الليالي اذا مجتها الأذواق ، بل حسب المرء في الوجود نفس تثير لنفسه طريق الحياة ، وأن امرأ يشعر بفراغ عظيم في حياته لا يعرف له سبباً وما سببه غير إحساسه الطبيعي بالصحبة

فللصحبة الخاصة إذن أثر عميق في توجيه النفس والعقل . ولها نتائج هامة فيما يصيب الجماعة كلها من تقدم او تأخر ، ومن قلق او اطمئنان .

فالانسان مولع بالتقليد ، فكما يقلد من حوله في أزيائهم ، يقلدهم في أعمالهم ، ويتخلق بأخلاقهم . قال حكيم : « نبئني عمن تصاحب أنبئك من

أنت » . إن مصاحبة الاخيار تغرس في النفس الاخلاق الطيبة ، وتدفعها الى معالي الامور . أما مصاحبة الاشرار فانها تقود الى الاستهانة بالاخـلاق ، وتجرىء على اقتراف الآثام ، وتباعد بين الانسان وبين القيام بالاعمال العظيمة فالصاحب الصالح يعتبر بحق افضل نعم هذه الحياة ، فهو الملاذ في الملمات ، وهو المرشد الامين لطريق الحق وللنجاح في هذه الحياة ، فكثير من النابغين وعظماء الناس والمتفوقين في هذه الحياة يعزون سبب نجاحهم الى أنهم وفقوا في اختيار قرين صالح ساروا على إرشاده واقتبسوا من نصحه .

وقد عني الاسلام بهذه الصحبة التي تربط الانسان بأشخاص يؤثرون فيه ويتأثرون به ، ويقتربون من حياته اقتراباً خطيراً لأمد طويل .

إن الصحبة إن بدأت ونمت نبيلة خالصة تقبلها الله وباركها ، وان كانت رخيصة مهينة ردها في وجوه اصحابها .

« الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ، ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون » .

إن الاسلام دين تجمع وألفة ، ونزعة التعرف الى الناس والاختلاط بهم أصيلة في تعاليمه . وهو لم يقم على الاستيحاش ، ولا دعا أبناءه الى العزلة العامة والفرار من تكاليف الحياة . ولا رسم رسالة المسلم في الارض على انها انقطاع في دير ، او عبادة في صومعة . كلا كلا ، فان الدرجات العالية لم يعدها الله عز وجل لامثال أولئك المنكمشين الضعاف .

قال رسول الله ﷺ : « المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم ، خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على اذاهم » .

والانسان يشعر في قرارة نفسه انه محتاج الى اصحاب تربطه بهم روابط وثيقة ، من تقارب طباع وتناسب اخلاق ، واتفاق مشارب ، كما انها –

أي الصحبة ـ تجعل الشخص محبوباً الى كل إنسان ، مكرماً في كل مكان ينزل به ، مثنياً عليه في المحافل ، بل كثيراً ما يلق أناساً يهوى ان يكون بينه وبينهم قديم ود ، وسابق عهد ، ليجاذبهم الحديث ، ويغتنم شرف صحبتهم .

إن الصحبة التي تكون الحد الأعلى من المحبة والايثار ، أمر مستصعب طمع اليه الفلاسفة فلم يبلغوه وفتشوا عنه فلم يجدوه ، وحاولوا خلقه وإبداعه فوقفوا حيارى عاجزين ، لان للحياة فروضاً وأحكاماً فوق احكام الفلاسفة . ولكننا نجد بين الحد الأعلى للصحبة ، وبين الحد الأدنى ، مراتب كثيرة نستطيع ان نصل إليها بقليل من الجهد ويسير من العناء ، ولا زالت الحياة ترضينا بأقل قليل مما نطلب ، وأيسر امر مما نرغب ، فكسب الاصحاب وزيادة الاحباء لا يحصل إلا بالعمل والسعي ، كما علمنا وأرشدنا اهل البيت ـ عليهم السلام ـ قال الامام الصادق (ع) عن جده الرسول الأعظم (ص) قال : « يابني عبد المطلب إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فالقوهم بطلاقة الوجه وحسن البشر » . ولا ريب ان من تلقاه بوجه مشرق وأسارير مستنيرة وثغر باسم ، طبعاً تنعكس ملامحك في وجهه ، ويشرق سرورك على نفسه ، فيرتد اليك النور قوياً مضاعفاً ، فاذا لقي الانسان صاحباً له بوجه طلق وثغر مشرق ، فلابد ان يجذب اليه قلبه ، فاذا جذب قلبه والتفاته اليه ، فلابد ان يكون متهيأً القلب لخلق ألفة ومحبة بينه وبينه ، ويستعد لان ينفذ الى قلبه بالوسائل الممكنة ، وأهمها بعد انبساط الوجه وابتسامة الثغر ، أن يكون رفيقاً بصاحبه يعتمد اللين والسهولة ، ويتجنب القساوة والخشونة ، ويبتعد عن العنف والشدة ويسلك معه الانس واللطف والمداراة . قال رسول الله (ص) : « إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطي على الرفق مالا يعطي على العنف » .

وكان أهل البيت (عليهم السلام) يبذلون جهدهم في حمل الناس على الحب

والصحبة ، حيث ان غرض الاسلام وهدفه توثيق الصلة والمحبة ، ويعلمون الناس حقوق الصحبة وواجباتها .

قال الامام الصادق عليه السلام : « لا تكون الصداقة إلا بحدودها ، فمن كانت فيه هذه الحدود أو شيء منها فانسبه إلى الصداقة ، ومن لم يكن فيه شيء منها ، فلا تنسبه الى الصداقة ، فأولها : أن تكون سريرته وعلانيته لك واحدة والثاني : ان يرى ما يضرك يضره ، وزينك زينه ، وشينك شينه ، وأن لا يغيره عليك ولاية ولا مال ، وان لا يمنعك شيء تناله مقدرته ، وان لا تسلمك عنه النكبات » .

فاذا كانت هذه واجبات الصحبة فكل مسلم لكل مسلم أخ وصحيب ، وقال (ع) : « وطن نفسك على حسن الصحابة لمن صحبت ، في حسن خلقك وكف لسانك واكظم غيظك وأقل لغوك ، وتفرش عفوك وتسخو نفسك » .

وعلى ضوء هذا البيان نفهم قول الامام السجاد ـ عليه السلام ـ في كلماته العبقة حيث يقول : « ان تصحبه بالتفضل والانصاف ، وتكرمه كما يكرمك ، وتوده كما يودك ، وكن عليه رحمة ولا تكن عليه عذاباً » . لأنه صحيبك ، أو هو اخوك ، يجب ان تحسن صحبته ومعاشرته وان لم تستطع أن تصحبه بالفضل ، فليس اقل من ان تنصفه من نفسك .

فالامام (وعلى ذكره السلام) أول ما دعى الى الصحبة بالفضل ـ وهي فوق الانصاف ـ فأما إذا لم تحصل الصحبة بالفضل ، فالامام يجيز التنزل الى الانصاف على الاقل ، وهل يجيز الامام بعد ذلك شيئاً كلا : فهو لا يجيز ان تصحبه بغير الحق والانصاف ، ولا يجيز ان تصحبه بالسوء .

ولا يلزم احد المتصاحبين بالانصاف او الصحبة بالخير ، وإنما على المتصاحبين كليهما يقع عبء الصحبة ، فيجب ان تكرمه كما يكرمك اولأنه يكرمك

وان تحفظه وتمنعه وتدفع عنه كما يحفظك ويمنعك ويدفع عنك . وان تسبقه الى كل ما تجد له فيه خيراً ، فان سبقك هو كان عليك ان تكافئه . وان تحب له ماتحب لنفسك وتكره له ما تكره لها . وان تبذل له نصحك ، وتحوطه وتعضده وتساعده على عبادة ربه ، وتكون متحداً معه في كفاح نفسه ان همت بمعصية . ويعرف من هذا كله ان الصاحب إنما يجب ان يكون رحمة ورأفة ، لا نقمة وعذاباً

وحق الصحبة : ان تكون بالمال والنفس ، واللسان ، والقلب . بالعفو والدعاء والاخلاص والوفاء والتخفيف ، وترك التكلف والتكليف ، وتجمعها ثمانية امور :

الاول المال . وله مراتب ثلاث :

أولها : وهي ادناها ان تنزله منزلة عبدك وخادمك في القيام بحوائجه واموره من دون ان تحوجه الى سؤال .

الثانية : وهي اوسطها ان تنزله منزلة نفسك ، وترضى بمشاركته إياك في مالك .

الثالثة : وهي اعلاها ان تؤثره على نفسك ، وتقدم حاجته على حاجتك قال الله تعالى : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » .

قال الامام (ع) لرجل : هل يدخل أحدكم يده في كم أخيه وكيسه فيأخذ منه مايريده من غير اذن ؟ قال : لا . قال : فلستم باخوان .

الثاني ـ في الإعانة بالنفس في قضاء حاجاته ، والقيام بها قبل السؤال . وهذه ايضاً لها درجات : أدناها القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة مع البشاشة .

جاء عن الامام الصادق (ع) « قال : إني لأتسارع الى قضاء حوائج اعدائي مخافة ان أردهم فيستغنوا عني » . هذا في الاعداء فكيف في الاصدقاء .

الثالث والرابع : على اللسان بالسكوت عن ذكر عيوبه في حضرته وغيبته

والمماراة والمنافسة معه إلا في الله ، وعن أسراره التي تنهى اليه ، ولو بعد القطيعة ، فان ذلك من لؤم الطبع ، وأن يسكت عن القدح في أحبائه وأهله وولده ، وعن حكاية قدح غيره فيه ، فان الذي سبك من بلغك . وبالنطق باظهار التودد والتفقد والدعاء والثناء ، وينصحه ويخوفه إذا ارتكب حراماً ، وينبهه على عيوبه ، ويقبح القبيح في عينه ويحسن الحسن . قال رسول الله (ص) : « المؤمن مرآة المؤمن » أي يرى منه مالا يرى من نفسه كما يستفيد بالمرآة الوقوف على عيوب صورته الظاهرة .

الخامس : العفو عن زلاته وهفواته ، وهفوته ان كانت في الدين نصحته وأرشدته ، وإن كانت لتقصير في الاخوة عفوت عنه ولا تعاقبه ، وإذا اعتذر اليك فاقبل عذره .

قال النبي (ص) : « من اعتذر اليه أخوه فلم يقبل ، فعليه مثل إثم صاحب المكس »

السادس : الدعاء له في حياته ومماته بكل ما يحبه لنفسه ولأهله ، ولا تفرق بين نفسك وبينه ، فان دعاءك له دعاء لنفسك . قال النبي (ص) : « إذا دعا رجل لأخيه في ظهر الغيب قال الملك : ولك مثل ذلك » .

وعن الامام الباقر (ع) في قوله تعالى : « ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله » قال : هو المؤمن يدعو لأخيه بظهر الغيب ، فتقول له الملائكة : آمين . ويقول الله العزيز الجبار : ولك مثلا ماسألت ، ولقد أعطيت ما سألت بحبك إياه » .

السابع : الوفاء والاخلاص ، والوفاء هو الثبات على الحب وإدامته الى الموت معه وبعد الموت مع اولاده واصدقائه ، فان الحب إنما يراد للآخرة ، فان انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعي ، ولذلك قيل : « الوفاء بعد

الوفاة خير من كثير الوفاء في حال الحياة ». ومن الوفاء مراعات جميع أقاربه وأصدقائه وأن لا يتغير حاله في التواضع مع أخيه وإن ارتفع شأنه واتسعت ولايته، وأن لا يصاحب أعداءه.

جاء في شرح الصحيفة السجادية تأليف السيد علي خان المدني - : « إن من حق الصحبة مع الاصحاب مطلقاً : طلاقة الوجه والبشاشة والكلام والسلام والمصافحة والمعانقة والمواكلة، وتحصيل ما يحتاجون اليه ورفع ما يغتمون منه ومخالفة من خالفهم وموافقة من وافقهم، وتعظيمهم وتوقيرهم وعدم التهجم عليهم والصفح عن عثراتهم ومداراتهم، وأن لا يحتجب عنهم ولا يهجرهم، ويبسط لهم معروفه، ويعاشرهم ببسط الكف وصدق الوعد ودوام العهد وحفظ الاسرار وإيثار الارفاق وقبول العذر واحتمال الاذى وصدق الوفاء ونشر المحاسن وستر المقابح، وبذل النصيحة وقبولها منهم، وأن يحب لهم ما يحبه لنفسه ويكرم كل واحد منهم على قدره، ويسترسل معه على سجيته ويكون طوع أمره ونهيه ووفق قوله وفعله، ويعود من مرض منهم ويشهد جنازة من مات منهم».

الثامن : التخفيف وترك التكليف، وذلك بأن لا يكلف من يصحبه مايشق عليه، ولا يستمد منه من جاه ولا مال.

عن أحمد القلانسي (وكان من مشايخ الجنيد) قال : صحبت أقواماً بالبصرة فاكرموني، فقلت : مرة لبعضهم أين أزاري فسقطت عن أعينهم.

وعن أبي علي الرباطي قال : صحبت عبد الله المروزي وكان يدخل البادية قبل أن أصحبه بلا زاد فلما صحبته، قال لي أيما أحب اليك تكون أنت الأمير أم أنا. فقلت لا بل أنت الأمير. قال : وعليك الطاعة. قلت نعم. فأخذ مخلاة ووضع فيها الزاد وحملها على ظهره فاذا قلت له اعطني حتى احملها. قال لي ألست أنا الأمير فعليك الطاعة. قال : فأخذنا المطر ليلة فوقف على رأسي طول الليل

الى الصباح وعليه الكساء وانا جالس يمنع عني المطر ، فكنت أقول في نفسي ليتني مت ولم أقل له انت الأمير ، ثم قال : إذا صحبك إنسان فاصحبه يا أخي كما رأيتني صحبتك ، أو انفرد .

وكان شرط إبراهيم بن أدهم مع من يصحبه أن تكون الخدمة والاذان له وأن يكون يده في جميع ما يفتح الله به عليهم من الدنيا كيدهم .

على هذا الأساس نتخير الاصحاب ، ونرغب في الصحبة أو نزهدها .

وأول شرائط الصحبة الكريمة أن تبرأ من الأغراض ، وأن تخلص لوجه الحق وان تولد وتكبر في طريق الايمان والاحسان . وهذا هو معنى الحب لله .

إن الانسان إذا رسخ في فؤاده اليقين ، وخالطت بشاشة الايمان قلبه وأحس بحلاوته في مذاقه ، أصبح ينظر للأحياء قاطبة على ضوء العقيدة التي تمحص لها . فهو يحب لمبدأ لا لشهوة ، ويكره لمبدأ لا لحرمان .

قد تتجمع القطعان على مورد عذب أو كدر . وقد يلتقي الناس على دنيا عارضة او دائمة . وربما تأسست بينهم علاقات متينة . بيد ان هذا الضرب من التعارف والتواد لا يقاس بما ينشأ بين أصحاب المثل العليا من محبة وصفاء ، وتعاون وتفان .

ولذلك احتفى الاسلام بمشاعر الصحبة النقية . ورغب المؤمنين في إخلاصها لله ، وإبقائها لوجهه ، وجعل لها من جميل المثوبة ما هي له أهل .

* * *

دعوة أهل البيت (عليهم السلام) الى الصحبة :

في كل نفس حلم جميل ساحر ، وأمنية ملازمة مغرية .

في نفس كل انسان يذهب ويجيء ويروح ويغدو ، رغبة صادقة أن يكون محبوباً الى كل إنسان ، مكرماً في كل مكان ينزل به ، مثنياً عليه في المحافل والاندية ، بل كثيراً ما يلقى أناساً يهوى أن يكون بينه وبينهم قديم ود ، وسابق عهد ، ليجاذبهم الحديث ويربح مجالستهم ويغنم شرف صحبتهم وأعرب المتنبي عن هذا بقوله :

وكاد سروري لا يفي بندامتي على تركه في عمري المتقادم

إن صحبة الناس وأخوتهم ليست بالشيء الذي يترك الى القضاء والقدر ، وليس القانع بصحبة النزر اليسير من الناس ، بعيد الهمة كبير القلب طامح النفس فسيح الأمل ، إنما أرحب الناس صدراً وأوسعهم أفقاً من كان له في كل أرض منازل ، وفي كل قبيلة أصحاب ، وفي كل مجتمع معارف يسرون بقربه ويبتهجون لمنظره .

نحن نريد أصحاب ، ونريد أصدقاء ، ونريد أحباباً ، ولا نصل الى ما نريد إلا بالعمل والسعي لا كتساب الاصحاب . وقد علمنا الاسلام وأهل البيت (عليهم السلام) عن جدهم كيف نعامل الناس لنربح عطفهم ، ونكسب صحبتهم ، وننعم بودتهم .

قال الامام موسى الكاظم عليه السلام . « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : حسن البشر يذهب بالسخيمة » .

وقال الامام الباقر عليه السلام : « أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وآله فقال يا رسول الله أوصني ، فكان فيما اوصاه : ان الق أخاك بوجه منبسط » .

وروي عن أهل البيت (عليهم السلام) : « صنائع المعروف وحسن البشر يكسبان المحبة ويدخلان الجنة ، والبخل وعبوس الوجه يبعدان من الله ويدخلان النار » .

« فالصاحب هو شريك الحياة ، هو الذي يجري في الانسان مجرى الروح في البدن ، هو المرآة التي تنعكس عليها حسنات المرء وسيئاته ، هو محط الأسرار ومبعث الآمال ، لذلك يجب ان يكون حسن السيرة ، طيب السريرة طاهر الذات جميل الصفات ، حتى يقتدي به صاحبه ، ويهتدي به رفيقه ، فان تأثير الصاحب عظيم جداً ، لا أغالي لو قلت إنه اعظم مؤثر في حياة الانسان وأهم مكيف له ، فكم من رجل صالح أثر في أصحابه ورفقائه فأصبحوا صالحين هذا أمر ثابت لا ريب فيه ، يؤيده الوجدان وتدعمه الحوادث الواقعة ، وينص عليه المفكرون قديماً وحديثاً . يقول الشاعر :

صاف الكرام فخير من صافيته   من كان ذا أدب وكان ظريفا
واحذر مصاحبة اللئيم فانه   يبدي القبيح وينكر المعروفا
إن الكريم وان تضعضع حاله   فالخلق منه لا يزال شريفا
والناس مثل دراهم قلبتها   فأصبت منها فضة وزيوفا

وقال آخر :

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه   فأبصر بعين منك أمراً فيعتمد
ولن يصحب الانسان إلا نظيره   وإن لم يكونوا من قبيل ولا بلد
وما الغي إلا أن تصاحب غاوياً   وما الرشد إلا ان تصاحب مرتشد

وقال آخر :

أخو الفسق لا يغررك منه تودد ... فكل حبال الفاسقين مهين
وصاحب إذا ما كنت يوماً مصاحباً ... أخا ثقة بالغيث منك امين

وقال آخر :

اجعل قرينك من رضيت فعاله ... واحذر مقارنة اللئيم الشائن
كم من قرين شائن لقرينه ... ومهجن منه لكل محاسن

ونظراً لاهمية هذا الامر وتأثيره البالغ في حياة الانسان من حيث السعادة والشقاء ، جاءت النصوص عن اهل البيت (عليهم السلام) متوافرة تحث الناس على اتخاذ الاصحاب الصالحين ، وتحذرهم من مصاحبة المجرمين والمفسدين .

لم يكتف أهل البيت بالحديث عن الصحبة والدعوة إليها ، حتى بينوا للناس صفات الصاحب الصالح ومن هو الجدير بالصحبة والمودة ثم بينوا صفات صاحب السوء ، ومن هم الذين يجب على الانسان ان يبتعد عنهم ، ويفر منهم . والاحاديث في مثل هذه الظاهرة كثيرة ، نرسم جملة منها :

قال رسول الله ﷺ : « سائلوا العلماء ، وخاطبوا الحكماء ، وجالسوا الفقراء » .

وما ذلك إلا لأن في مسائلة العلماء تهذيباً للنفس ، وتنويراً للعقل ، وزيادة في المعارف . وكذلك مخاطبة الحكماء فان فيها اكتساباً للحكمة ، «ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » . ومجالسة الفقراء رياضة للنفس وتحليتها بالتواضع والتذلل ، والتأسي بهم في القناعة باليسير من حطام الدنيا ، والرضا بالقليل من متاعها ، وصيانة النفس عن الانهماك في شهواتها ولذاتها .

وسئل (ص) أي الاصحاب افضل ؟ فقال : « إذا ذكرت اعانك وإذا نسيت ذكرك » .

وقال في وصيته لأبي ذر (ره) : « يا أبا ذر لاتصاحب إلا مؤمناً » . وقال (ص) : « أسعد الناس من خالط كرام الناس » . وقال (ص) في صفة من يجب أن يؤآخى ويصاحب : « من عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم ، فهو ممن كملت مروءته ، وظهرت عدالته ، ووجبت أخوته » .

كل ذلك حتى يكتسب الانسان منه هذه الصفات الحميدة ، لذلك قال (صلى الله عليه وآله) : « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « لا تصحب إلا عاقلا تقياً ، ولا تخالط إلا عالماً زكياً ، ولا تودع سرك إلا مؤمناً وفياً » . وقال عليه السلام : « واعلموا أن صحبة العالم واتباعه دين يدان به ، وطاعته مكسبة للحسنات ممحاة للسيئات ، وذخيرة للمؤمنين ورفعة في حياتهم ومماتهم ، وجميل الأحدوثة عند موتهم » .

وقال لكميل بن زياد النخعي : « يا كميل : قل الحق على كل حال ، ووازر المتقين واهجر الفاسقين ، يا كميل جانب المنافقين ولا تصاحب الخائنين ، يا كميل لا بأس أن تعلم أخاك سراً . يا كميل من أخوك ؟ أخوك الذي لا يخذلك عند الشدة ، ولا يقعد عنك عند الجريرة ، ولا يخذلك حين تسأله » . وقال : « لا تصحبن أبناء الدنيا فانك إن أقللت استقلوك ، وإن أكثرت حسدوك » وقال : « لا تصحبن من لا عقل له » وقال : « مصاحبة الأبرار توجب الشرف ومصاحبة الاشرار توجب التلف » وقال : « لا تصحب المائق فانه يزين لك فعله ويود أن تكون مثله » .

وهب أنك لا تتأثر بأفكاره الفاسدة ومعتقداته الباطلة ، وأخلاقه السافلة ولكن لا شك أنه يؤثر على سمعتك ، ويشوه ذكرك ، فلا تذكر إلا معه . ولا يذكر إلا معك .

لذلك حذرنا عليه السلام من وخامة هذه العاقبة بقوله : « إياك وقرين السوء فانك به

تعرف » . وقال (ع) : « لا تصحب همازاً فتعد مرتاباً ، ولا تخالط ذا فجور فترى متهماً » .

ومما ينسب اليه (ع) من الشعر قوله :

فلا تصحب أخا الجهل وإياك وإياه
فكم من جاهل أردى حكيماً حين آخاه
يقاس المرء بالمرء إذا ماهو ما شاه
وللمرء من المرء مقاييس وأشباه
وللقلب على القلب دليل حين يلقاه

وقال الامام الحسن السبط (عليه السلام) يوصي جنادة بن أبي أمية : « وإذا نازعتك نفسك الى مصاحبة الرجال ، فأصحب من إذا صحبته زانك وإذا خدمته صانك، وإذا أردت معونة أعانك ، وإن قلت صدق قولك وان صلت شد صولك وإن مددت يدك بفضل مدها ، وإن بدت منك ثلمة سدها وإن رأى منك حسنة عدها ، وان سألته أعطاك ، وإن سكت عنه ابتداك ، وان نزلت بك احدى الملمات واساك ، من لا تأتيك منه البوائق ، ولا تختلف عليك منه الطرائق ، ولا يخذلك عند الحقائق ، وإن تنازعتما منقسماً آثرك » .

وقال الامام زين العابدين (عليه السلام) : « إياك ومصاحبة القاطع لرحمه فاني وجدته ملعوناً في كتاب الله » . وقال : « اياك ومصاحبة العاصين ، ومعونة الظالمين ، ومجاورة الفاسقين ، احذروا فتنتهم وتباعدوا من ساحتهم » .

وقال الامام الصادق (ع) : « لا تصحبوا أهل البدع ولا تجالسوهم ، فتصيروا عند الناس كواحد منهم » . وقال (ع) . « صاحب بمثل مايصاحبونك به تزدد ايماناً ، ولا تصحب الفاجر فيعلمك من فجوره ، وشاور في أمر الله الذين يخشون ربهم »

وقال (ع) : « لا تصحب خمسة : الكذاب فانك منه على غرور ، وهو مثل السراب يقرب منك البعيد ويبعد منك القريب . والأحمق فانك لست منه على شيء ، فانه يريد أن ينفعك فيضرك . والبخيل فانه يقطع بك أحوج ماتكون اليه . والجبان، فانه يسلمك ويفر عند الشدة . والفاسق فانه يبيعك بأ كلة أو اقل منها » . ـ ١ ـ

الصفات المشروطة في الصاحب :

لا يصلح للصحبة كل إنسان ، قال رسول الله ﷺ : « المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل » . فالصاحب الكامل يقود صحيبه الى النجاح في الدنيا والفوز في الأخرى . أما الصاحب الغبي المفتون فهو شؤم على صاحبه وكم من غر قرع سن الندم على هذه الصحبة السيئة ، لأنها وضعته على شفا جرف هار فانهار به « يوم يعض الظالم على يديه يقول : ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ، يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلا ، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني ، وكان الشيطان للانسان خذولا » .

إن الطبع يسرق من الطبع ، وما أسرع أن يسير الانسان في الاتجاه الذي يهواه صاحبه . وللعدوى قانونها الذي يسري في الأخلاق كما يسري في الاجسام ، بل إن الروح الذي يسود المجلس قد يكون مصدره من شخص قوي ، يغمر من حوله بفيض مما يتفجر من باطنه . قد شوهد أن عدوى السيئات أشد سرياناً

ـ ١ ـ كيف تكسب الاصدقاء في نظر أهل البيت .

وأقوى فتكاً من عدوى الحسنات ، ففي أحيان كثيرة تنتقل عدوى التدخين من المصاب بها الى البريء منها ، ويندر ان يقع العكس .

وتقديراً لهذه الآثار ، وحماية للخلق الحسن والعادات الكريمة ، أمر رسول الله ﷺ بتخير الجليس ، فقال (ص) : « مثل الجليس الصالح كمثل صاحب المسك إن لم يصبك منه شيء أصابك من ريحه ، ومثل الجليس السوء كمثل صاحب القير إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه » . فان كانت تلك حال الجليس الذي قد تجتمع به في لقاء عابر في ساعة يسيرة من ليل أو نهار فكيف بك مع صاحب العمر الذي يخالطك في السراء والضراء ؟ ... إن صحبة الاذكياء الأتقياء قد ترفع الى القمة ، أما صحبة السفهاء البله فهي منزلق سريع الى الحضيض .

إن الصحبة يجب ان تعتمد على قوة العقائد وسمو الاعمال ، وخير من يستديم المرء عشرتهم ، ويستبقي - للدنيا والآخرة - مودتهم أولئك الذين عناهم الاثر : « من عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ، ووجبت اخوته » .

لذلك يشترط في الصاحب خمس خصال : ان يكون عاقلا ، حسن الخلق غير فاسق ، ولا مبتدع ، ولا حريص على الدنيا .

اما العقل : فهو رأس المال ، وهو الاصل ، فلا خير في صحبة الاحمق فالى الوحشة والقطيعة ترجع عاقبتها وإن طالت . كيف والاحمق قد يضرك وهو يريد نفعك وإعانتك من حيث لا يدري .

قال الشاعر :

إني لآمن من عدو عاقل ... واخاف خلا يعتريه جنون
فالعقل فن واحد وطريقه ... ادرى فأرصدو الجنون فنون

ولذلك قيل مقاطعة الاحمق قربان الى الله . ونعني بالعاقل الذي يفهم الامور على ما هي عليه ، اما بنفسه ، واما اذا فهم .

واما حسن الخلق · فلابد منه ، إذ رب عاقل يدرك الاشياء على ما هي عليه ، ولكن اذا غلبه غضب او شهوة او بخل او جبن ، اطاع هواه وخالف ما هو المعلوم عنده ، لعجزه عن قهر صفاته وتقويم اخلاقه فلا خير في صحبته

واما الفاسق المصر على الفسق فلا فائدة في صحبته ، لان من يخاف الله لا يصر على كبيرة ، ومن لا يخاف الله لا تؤمن غائلته ولا يوثق بصحبته ، بل يتغير بتغير الاغراض ، قال الله تعالى : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه » وقال تعالى : « فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه » وقال تعالى · « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا » . وفي مفهوم ذلك زجر عن الفاسق .

واما المبتدع : ففي صحبته خطر سراية البدعة وتعدي شؤمها اليه ، فالمبتدع مستحق للهجر والمقاطعة ، فكيف تؤثر صحبته .

واما الحريص على الدنيا ، فصحبته سم قاتل ، لان الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء ، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لايدري صاحبه ، فمجالسة الحريص على الدنيا تحرك الحرص ، ومجالسة الزاهد تزهد في الدنيا ، فلذلك تكره صحبة طلاب الدنيا . ويستحب صحبة الراغبين في الآخرة .

محاسن كرم الصحبة:

ذكر البيهقي في كتابه (المحاسن والمساوي‌ء) : « حدث من حضر مجلس المأمون وقد امر باحضار العباس صاحب الشرطة ببغداد ، وبين يديه رجل مكبل بالحديد فلما حضر قال : يا عباس خذ هذا اليك واستوثق منه ولا يفوتنك ، وبكر به واحذر كل الحذر .

قال العباس : فدعوت جماعة حملوه ولم يكن يقدر أن يتحرك ، فقلت في نفسي مع هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معي في بيتي ، ثم سألته عن قصته وحاله من أين هو ، فقال : من دمشق . فقلت : جزى الله دمشق وأهلها خيراً ، فمن انت من اهلها ؟ قال : لا تزد ان تسألني . فقلت له أتعرف فلاناً ؟ فقال : ومن أين عرفت ذلك الرجل . فقلت كانت لي قصة معه · فقال · ما أنا بمعرفك خبره او تعرفني قصتك . فقال : ويحك كنت مع بعض الولاة بها ، فخرج علينا اهلها حتى اراد الوالي ان يدلى في زنبيل من قصر الحجاج وهرب هو وجميع اصحابه ، وهربت فيمن هرب فأني لفي بعض الطريق إذا جماعة يعدون خلفي ، فما زلت أحاضرهم حتى مررت على هذا الرجل الذي ذكرته لك ، وهو جالس على باب داره ، فقلت : أغثني اغاثك الله . فقال : لا بأس عليك ادخل الدار ، فد خلت ، فقالت لي امرأته ادخل الحجلة ، فدخلتها ، وأتى الرجال خلفي ، فما شعرت إلا به وهم معه يقولون: هو والله عندك . فقال : دونكم الدار ، ففتشوها حتى لم يبق إلا البيت الذي كنت فيه . فقالوا ها هنا . فصاحت المرأة وانتهرتهم ، فانصرفوا ، وخرج الرجل فجلس على باب داره ساعة وأنا قائم في الحجلة خائفاً . فقالت المرأة اجلس :

لا بأس عليك ، فجلست فلم البث ان دخل الرجل وقال : لا تخف فقد صرت الى الأمن والدعة إن شاء الله تعالى . فقلت له جزاك الله عني خيراً . ثم مازال يعاشرني احسن المعاشرة واجملها ، ولا يفتر من القصف والاكل والشرب والفرح اربعة اشهر ، الى ان سكنت الفتنة وهدأت . فقلت له : اتأذن لي في الخروج لأتعرف خبر غلماني ومنزلي فلعلي ان اقف لهم على اثر او خبر ، فأخذ علي المواثيق بالرجوع اليه ، فخرجت وطلبت غلماني فلم ار لهم اثراً ، فرجعت اليه وأعلمته الخبر ، وهو مع هذا لا يعرفني ولا يعرف اسمي ولا يخاطبني بغير الكنية ، ثم قال لي : ما تعزم فقلت قد عزمت على الشخوص الى بغداد ، فان قافلة تخرج بعد ثلاثة ايام ، وقد تفضلت علي هذه المدة ، فأسألك ان تعطيني ما أنفقه في طريقي وما ألبسه . فقال : يصنع الله عزوجل ، ثم قال لغلام له أسود : انعل الفرس الفلاني ، وتقدم الى من في منزله باعداد السفر . فقلت في نفسي ما أشك إلا انه يخرج الى ضيعة له او ناحية من النواحي ، فوقعوا يومهم ذلك في تعب وكد ، فلما كان يوم خروج القافلة جاءني في السحر ، وقال : يا ابا فلان قم فان القافلة تخرج الساعة واكره ان تنفرد عنها فقلت في نفسي ما اعطاني شيئاً مما سألته ، ثم قمت فاذا هو وامرأته يحملان إلي خفاتين مقطوعة جدداً ورانات وآلة السفر ثم جاءني بسيف ومنطقة فشدهما في وسطي ثم قدم البغل فحمل عليه الصناديق وفوقها مفرشين ، ودفع إلي نسخة بما في الصناديق ، وفيها خمسة آلاف درهم ، وقدم إلي الفرس الذي كان انعله بسرجه ولجامه ، وقال : لي اركب وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس دوابك ، اقبل هو وامرأته يعتذران من تقصيرهما في أمري ، وركب معي فشيعني ، وانصرفت الى بغداد وانا على مكافأته ومجازاته ، فعاقنا عن ذلك ما نحن فيه من الشغل بالأسفار واتصالها والتنقل من مكان الى مكان .

فلما سمع الرجل الحديث قال : قد اتاك الله عزوجل بمن تريد مكافأته بلا مؤنة عليك . فقلت : وكيف ذلك . قال : انا والله ذلك الرجل . ثم قال لي : أثبتك ، فتعرف إلي واقبل يذكرني باشياء يتعرف بها إلي حتى اثبته وعرفته ، فما تمالكت ان قمت اليه فقبلت رأسه وقلت له ما الذي أصارك الى هذا ؟ .

فقال : هاجت فتنة بدمشق مثل الفتنة التي كانت في ايامك فنسبت إلي وبعث امير المؤمنين بجيوش فأصلحوا البلد وحملت اليه وامري عنده غليظ جداً وهو قاتلي لا محالة ، وقد خرجت من عند اهلي بلا وصية ، وقد تبعني من عبيدي من ينصرف الى منزلي بخبري وهو نازل عند فلان ، فان رأيت ان تنعم وتبعث اليه حتى يحضر فأتقدم اليه بما اريد ، فاذا انت فعلت ذلك فقد جاوزت حد المكافأة لي . قال فقال العباس يصنع الله . ثم قال علي بحدادين فأتوا بهم لحل قيوده وما كان عليه من انواع الانكال ، ودعا بالحجام فاحضر واخذ من شعره ، ثم قال علي بمولاه فانفذ في طلبه من يحضره . قال الرجل فلما ان اخذ شعري ادخلني الحمام فطرح علي من ثيابه ما اكتفيت به ، ثم حضر مولاي وقعد يبكي ، فقال العباس : علي بفرسي الفلاني والفرس الفلاني والبغل الفلاني حتى عد عشراً ، ثم قال : علي من الصناديق والكسوة بكذا ، ومن صناديق بكذا ، ثم امر لي ببدرة فيها عشرة آلاف درهم وكيس فيه خمسمائة دينار ، وقال : لصاحب شرطته خذه واعبر به الى جسر الانبار . فقلت له إن امري غليظ وان انت احتججت باني هربت بعث امير المؤمنين في طلبي كل من على بابه فأرد واقتل . فقال : انج بنفسك ودعني ادبر امري . فقلت : والله لا ابرح من بغداد او اعلم ما يكون من خبرك فان احتجت الى حضوري حضرت ، فقال : لصاحب الشرطة ان كان الأمر على هذا فليكن في موضع كذا وكذا ، فان سلمت في غداة غد فسبيل المحبة ، وان قتلت كنت قد وقيته

بنفسي كما وقاني بنفسه ، وأنشدك الله ان تذهب من ماله شيئاً قيمته درهم وتخلصه حتى تخرجه من بغداد . قال الرجل : فأخذني صاحب الشرطة فصيرني في مكان يثق به ، وتفرغ العباس لنفسه واغتسل وتحنط وتكفن .

قال العباس : فلم أفرغ من ذلك حتى وافتني رسل المأمون في السحر وقالوا : امير المؤمنين يقول هات الرجل . فسكت واتيت الدار واذا امير المؤمنين جالس عليه ثيابه امام فراشه ، فقال الرجل ، فسكت . فقال : ويحك الرجل . فقلت يا امير المؤمنين اسمع مني . فقال : اعطي الله عهداً لئن ذكرت انه هرب لأضربن عنقك . فقلت : لا والله ما هرب ، فاسمع مني حديثي وحديثه ، ثم انت اعلم بما تفعله في امرنا . قال : قل . فقلت يا امير المؤمنين كان من حديثي معه كذا و كذاوقصصت عليه القصة وعرفته إني كنت أريد مكافأته فشغلت عن ذلك حتى إذا كان البارحة عرفته وعبرت به جسر الأنبار ، وقلت أنا من سيدي أمير المؤمنين بين أمرين : إما صفح عني واما قتلني واكون قد كافيته ووقته بنفسي كما وقاني بنفسه .

فلما سمع المأمون الحديث قال ويحك لا جزاك الله خيراً عن نفسك وعنا وعن هذا الفتى الحر انه فعل بك ما فعل من غير معرفة وتكافيه بعد المعرفة بهذا لم لا عرفتني خبره فكنت أكافيه عنك . فقلت يا امير المؤمنين إنه والله هاهنا قد حلف انه لا يبرح حتى يعرف سلامتي ، فان احتيج الى حضوره حضر . قال : وهذه والله منه أعظم من الأولى فاذهب اليه الآن وطيب نفسه وسكن روعه وتصير به إلي حتى أتولى مكافأته عنك . فصرت اليه وقلت ليسكن روعك ان أمير المؤمنين قال كيت وكيت . فقال : الحمد لله الذي لا يحمد على السراء والضراء غيره ، ثم تهيأ للصلاة فصلى ركعتين ثم جئنا ، فلما مثل بين يدي المأمون أدناه حتى أجلسه الى جانبه وآنسه وحدثه حتى حضر الغداء ، ثم قال :

الطعام فأكل معه وخلع عليه وعرض عليه أعمال دمشق فاستعفاه ، ثم قال المأمون: علي بعشرة أفراس بسروجها ولجمها ، وعشرة بغال بجميع آلاتها ، وبعشرة بدر وبعشرة تخوت ، وعشرة مماليك بذواتهم وجميع آلتهم ، فدفع ذلك اليه ، وكتب الى عامله بالوصاية عليه وأوغر خراجه ، وكتب الى صاحب البريد ان ينفذ كتبه وصرفه الى بلده . قال العباس : فكان إذا ورد له كتاب في خريطة يقول لي المأمون : يا عباس هذا كتاب صديقك .

حق الشريك

قوله (عليه السلام) :

«وحق الشريك : فان غاب كفيته ، وإن حضر رعيته ، ولا تحكم دون حكمه ، ولا تعمل برأيك دون مناظرته ، وتحفظ عليه ماله ، ولا تخنه فيما عز أو هان من أمره ، فان يد الله تبارك وتعالى على الشريكين ما لم يتخاونا ، ولا قوة إلا بالله » .

* * *

كثيراً ما يفشل الفرد وتتلاشى رغائبه عندما ينفرد بعمل لا يمكن تحقيقه إلا للجماعات ، وقليلا ما تفشل الجماعات إلا عند ما ترافقها أسباب من شأنها ارتجاج الكيان العام الذي تتأثر منه كافة العوامل التي كانت في الأصل رابطة الافراد متفرقين صيرتهم بحكم التقارب جماعة يعملون لوحدة الغاية ـ فالفرد وان توفرت لديه كل الوسائل التي قد يمكن أن لا تتوفر بعضها للجماعة ، نراه وقد أسقط في يده عند إقدامه على إنفاذ فكرة أو عمل مهما كان نوعها أن يقصد النفع أو الضرر بحسن النية أو بسيئها ، لان العمل اللاتعاوني سريع التلاشي ، كما أنه لا يحدث فراغاً يفتقر لمثله ، وقد أثبتت الاختبارات صحة هبوط عمل الفرد ، عاجلا إذا عجز عن إتمام كافة نواحيه أو آجلا إذ يموت بموته ، وبكلا الحالتين فهو بعيد عن الخلود ، وإذا استثنينا بضعة أفراد قاموا بالأعمال الخطيرة التي تتشابه مع أعمال الجماعة ، فليس هذا بمقياس يعتمد على صحته ، فالفرد الذي يوفق لتحقيق عمل كبير كان للزعامة والهمة والمادة شأنها للوصول الى النتيجة بيد أن هذه الاعتبارات وكثيراً غيرها لا يمكن أن تتخذ أساساً لنجاح الفرد ولو توفرت لديه مالم يستخدم معارفه ويتجلبب بالأناة ويجعل وقته وقفاً على العمل

الذي يعود عليه وحده بتحقيق الامنيات لأجل محدود ، إذ بعد هذا يندثر باندثار هذا الفرد ، وما أشبه الدور الذي يلعبه بمرور جمل في صحراء .

وإذا نظرنا الى عمل الفرد من ناحية العلم ، نراه يختلف كثيراً عن مثله في العمل الذي بينا فشله ، إذ قد يمكن الفرد المتعلم أن يتحف المجتمع بأبحاثه العلمية التي إذا حققتها الجماعة بالعمل جاءت بالنتيجة المتوخاة ، فالفلاسفة الذين قلبوا بنظرياتهم وجه العالم هم أفراد ، كما أن الفضل بانتشارها يرجع الى الجماعات التي اقتنعت بصوابيتها وأخذت في نشرها وتبيان صحة نفعها يوم وضعتها موضع التنفيذ .

فيتضح مما تقدم أن كل مشروع يقوم به الفرد فاشل إذا استأثر به وحده دون أن يكون للجماعة اشتراك في تحقيقه الأمر الذي أهاب بالكثيرين في أرجاء العالم الى إنشاء الشركات والجمعيات وما إليها ، رغبة في إحياء نواح عامة في جسم المجتمع الانساني ، ولا يجاد كيان من مجموع أفراد يعملون تحت إسم واحد ولغاية واحدة لتبادل المنفعة بينهم ، ناهيك عن التآلف والتكاتف وما اليها من الاسباب التي تساعد الاقوام على إحياء المبادىء الشريفة التي تثبت فيهم رغبة العمل وتولد في نفوسهم طموحا نحو الحياة المستقلة الحرة .

وإذا أسهبنا بوصف الفوائد التي جنتها الانسانية من عمل الجماعات لضاقت بها المجلدات ، ولكننا نستعرض ما نراه بأم العين من نتائج العمل المشترك لعلنا نعي لأمر جهلناه أو عرفناه فتجاهلناه .

فالشركات على اختلاف أنواعها من رأسمالية ودينية وغيرها كانت ولم تزل السبب الاوحد في تعريف أمة لغيرها من حيث الرسوخ في المبدأ ، والثبات في ميدان التزاحم الاقتصادي وبث الدعايات المختلفة لترويج ما تصبو لتحقيقه ، ومن جهة أخرى فهي القوة الوحيدة لتحقيق المشاريع العامة ، إذ هي التي تشق بطن

الارض وتستخرج خيراتها المدفونة ، وهي التي يمكنها تسخير عناصر الطبيعة لنيل مبتغاها فتستفيد وتفيد ، وإذا نظرنا المدنية الحديثة وتطورها ، وانتشار العلوم بين الشعوب وتسهيل مختلف سبل الحياة أمام الناس ، تتحقق قوة عمل الجماعات وتتراءى لنا عظمة الاتحاد وحسن نتائج العمل المشترك التعاوني ، إذاً فالشركات قوة أوجدها اتحاد الافراد وأبقاها حسن التفاهم ، فهي تحيا طويلا لان الجماعة لن تموت طالما شريمة التواتر ترافق الاحياء .

وما يقال عن الشركات يقال عن الجمعيات على اختلاف غايتها ومراميها ، فكم لها من الفضائل على الانسانية ، وكم سدت من ثلمات كان المجتمع يتألم منها وكم للخيرية منها حسنات ادتها للمعوزين وللذين أخنى عليهم الدهر فأبقت بذلك على حياة الكثيرين من الافراد العاجزين القابعين في الزوايا المظلمة فضلا عن المآوي والمستشفيات التي تضم بين جدرانها من الكهول وذوي العاهات العدد الكبير ، واذا استرسلنا في تعداد مناقب هذا العمل الخيري الصادر عن الجماعة ضاقت الصفحات عن استيعابه ، لكننا نستعرض باختصار ما نراه من أعمال الجمعيات الاخرى كالأدبية والاخلاقية ، فالمشاهد المدقق يمكنه أن يعطي عن كثب حكماً عادلا اذ أنها أحدثت في الاوساط التي نشأت فيها نوعاً جديداً من الحضارة والتهذيب وجرفت بأساليبها كثيراً من المهيمنات المستأثرة بقلوب الافراد من جراء فطرتهم الحيوانية ، فاستبدلت الشراسة باللين وصقلت الغرائز الشاذة بتنوع طرق التعاليم التهذيبية فقومت بذلك اعوجاج فطرة الفرد الهمجية وأوجدت منه إنساناً يحسن التدبير نحو نفسه ومقربيه وبني جلدته ، وإذا كانت المدارس هي التي تهيء ، فالمجتمع بواسطة جمعياته يوصل الى بعض الكمال المنشود ويزيل التعجب عند المقابلة بين حالة الفرد بالامس وحالته اليوم ، فقد كان مصدر الشرور وعلتها حتى على الارض التي يطأها ، وكان الغد فاذا به نعم الرجل ،

نسبة الى إمكان تهذيبه وقابليته للتطور ، ففضائل الجمعيات أزالت عجزاً بيناً من صفوف أفراد أمة يشكلون خير فئة من مجموعها ، ولم تقف عند هذا الحد فحسب بل تناولت المخلوقات الاعجمية ، إذ أنها أوجدت لها جنوداً مسالمين يعلمون القساة الرفق بها ، وتحرت خفايا كثيرة كانت تنخر في جسم المجتمع ، فعملت على إزالتها قبل تهوره بما لديها من الوسائل السلمية التي تتذرع بها لا ظهار الحقائق والقضاء على الاباطيل .

أما وقد بينا الضعف في عمل الفرد ، والظفر والقوة اللذين يرافقان الجماعة أفلا يحق لنا ان نعمل بدستور الامام السجاد عليه السلام ونعتبره قوة لرجالنا وجماعتنا إذاً متى نبدأ أن نفاخر الغير بجديد أو جدناه وعمل مفيد أنجزناه ، قد نتفاءل إذا طبقناه ومشينا على ضوئه . ولعل المستقبل يحقق آمالنا .

أفليس دعوة الامام السجاد عليه السلام - وفقاً لتعاليم الاسلام - تكوين مجتمع تنتصر فيه قوى الخير ، وتنتظم أفراده تحت روح التعاون بالمال والعمل والنصيحة ، ويحاول من الناس أن يقضوا على قوى الشر وانتزاعها من نفوسهم ، وتطهير القلوب من قذاراتها ، وسلامة النفوس من أمراضها .

إن الاسلام يأمر بحسن المعاملة ، وجعل هناك مقياساً شاملا ألا وهو : « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك » . وهذا مقياس لا يترفع عنه الخاصة ، بل يتقبلونه ويعجبون به ، وتفهمه العامة حق الفهم ، فالفيلسوف في مكتبته ، وراعي الضأن في قطيعه يفهمه حق الفهم ، فهو يحب ان يصدق الناس معه ، ويحب أن يحفظ الناس أمانته ، ويحتقر من يحتال عليه ، أو يسرق شيئاً من قطيعه ، ويحب ان ينصره الناس اذا عدا عليه ذئب ، أو تعرض له سارق ، ويحب أن يعرف الناس له قدره ، ويرعوا عهوده ، فلذلك ينبغي ان يلزم نفسه بما يحب أن يعامله الناس .

وهنا يأتي الامام زين العابدين عليه السلام يستعرض الشريك من إعطائه حقه ، ويستعرض الصفات التي يجب أن يتحلى بها ، من أداء الامانة وترك الخيانة ، وحفظ شريكه في حال حضوره وحال غيبته ، وأن يحب له ما يحب لنفسه .

ولنصغ الآن الى ما يقوله عليه السلام في هذا الدرس : « وتحفظ عليه ما له ولا تخونه فيما عز أوهان من أمره ، فان يد الله تبارك وتعالى على الشريكين ما لم يتخاونا » .

فالشريك الذي يعنيه الامام عليه السلام هو الشخص الذي حدثت شركته مع إنسان آخر بسبب تعترف به الشريعة . فان الشركة كما نصت الشريعة تنقسم الى شركة أموال ، وشركة أعمال ، وشركة مفاوضة ، وشركة وجوه .

والمعتبر من هذه الاقسام في مذهب الامام (ع) هو شركة الاموال ، وتسمى شركة العنان .

جاء في كتاب (فقه الامام جعفر الصادق) ـ سلام الله عليه ـ تأليف العلامة (الشيخ محمد جواد مغنية) :

« للشركة معنيان : لغوي ، وشرعي ، والاول اجتماع حقوق الملاك في الشيء الواحد على سبيل الشياع فيه ، وقد يكون سببها اضطرارياً ، كالارث أو اختلاط مالين من غير قصد اختلاطاً لا يمكن الفصل معه بينهما ، وقد يكون السبب اختيارياً كما إذا اشترك إثنان في شراء عين ، أو قبلاها من الغير بالهبة أو الوصية ، أو نصبا معاً شبكة أو فخاً لها للاصطياد .

وتسمى هذه الشركة شركة الملك وشركة الشيوع ، ولاشأن بها للفقيه بما هو فقيه لأن وظيفته البحث عن الحكم التكليفي كالوجوب والحرمة ، أو الحكم الوضعي كالصحة والفساد . والشركة بمعنى الملك والشيوع ليست من الحكم التكليفي ولا الوضعي

في شيء ، لأن الحقوق إن اجتمعت في الشيء تحققت الشركة ، وإن لم تجتمع لم تتحقق .

أجل إن شأن الفقيه أن يبين الاحكام المترتبة على شركة الملك ، من أن ناتج المال المشترك هو للجميع ، وإن أحد الشريكين لا يتصرف إلا باذن الآخر وأن له أن يطالب بالقسمة ، ولا يجب عليه الصبر على الشركة .

أما بيان معنى المال المشترك وتحديده ، فليس من اختصاصه كفقيه .

أما المعنى الثاني ، (أي الشرعي الذي يبحث عنه الفقيه) : فهو عقد بين اثنين أو أكثر ، أنشىء ليكون كل من المالين أو الاموال إشاعة بين جميع الشركاء ، والأغلب ان يكون الغرض من شركة العقد ، هو التجارة .. وهذه الشركة هي التى يبحث عنها الفقيه .

أقسام الشركة أربعة :

١ ـ شركة العنان : وهي شركة في الأموال ، فيأتي كل من الشريكين بماله ، ويمزجه بمال الآخر ، ويعملان فيه معاً على أن يكون الربح لكل على قدر ماله والخسارة عليه كذلك ، وهذه الشركة جائزة بالاجماع ، بل قيل : لا يجوز غيرها .

٢ ـ شركة الابدان : وهي أن يتفق إثنان أو اكثر على أن يعمل كل واحد بأجر ، ثم يقتسمون الأجور بين الجميع حسبما يتفقون عليه ، ولا فرق بين ان يكون عمل الجميع من جنس واحد كمحاميين ، أو من اكثر من جنس ، كمحام وطبيب .

وقد اتفق الفقهاء (بشهادة صاحب الجواهر ، والحدائق ، ومفتاح الكرامة) على بطلان هذه الشركة ، لأن الاصل عدم الشركة ، ومجرد التراضي غير كاف مالم يرد النص على جوازه ، كما قال صاحب الجواهر .

٣ ـ شركة المفاوضة : وهي أن يلتزم كل منهما للآخر بأن الذي يحصل له من غنم يكون شركة بين الاثنين ، ولا يستثني من ذلك إلا قوته وثياب بدنه وان ما يلزمه من غرم يكون عليهما معاً ، وهذه الشركة باطلة ايضاً بالاجماع ، لان لكل نفس ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت .

٤ ـ شركة الوجوه : قال (صاحب الجواهر ، والحدائق ، ومفتاح الكرامة) : إن لها اكثر من معنى ، وأشهر معانيها ان يجتمع إثنان ممن ليس لهما رأس مال ، ويتفقا على ان ما يشتريه احدهما نسيئة يكون بينهما ، ثم يبيعان ويؤديا ما على كل كل ، والزائد بينهما شراكة ، وهذه الشركة باطلة إن قصد كلُّ الشراء لنفسه ، والنتيجة ان يكون الربح له ، والخسارة عليه وحده ، أما إذا وكل كل منهما الآخر بالشراء فانها تدخل في شركة العنان . وقد جاء في (مفتاح الكرامة) ج ٧ ص٣٩٢ : « مما انفردت به الامامية ان الشركة لا تصح إلا في الاموال » وهي شركة العنان ، وعلى هذا فما نذكره من الشروط والاحكام مختص بالشركة في الاعيان الناشئة عن عقد الشركة بالذات .

* * *

الشروط :

١ ـ الصيغة : وهي من المقومات . وتتحقق بقول كل من الاثنين : اشتركنا في كذا ، أوقول أحدهما : شاركتك في كذا ، وقبول الآخر ، وما الى ذلك مما يدل على الشركة بوضوح .

٢ ـ ان يكون كل من الشريكين أو الشركاء اهلا للتوكيل والتوكل ، لانه لا يتصرف إلا باذن من صاحبه ، فيكون وكيلا عنه ، وموكلا له .

٣ ـ ان يكون محل الشركة مالا من الشريكين ، وموجوداً بالفعل ، وأهلا للالتزام به شرعاً ، فلا يصح ان يحدثا شركة على مال في الذمة ، ولا في الخمر والخنزير .

٤ ـ أن يمتزج المالان مزجاً لا يمكن الفصل بينهما ، قال صاحب (مفتاح الكرامة) : « إن كلمة الفقهاء متفقة على المزج شرط في الصحة ، فاذا لم يخلطاه لم تصح الشركة » .

وقال (صاحب الجواهر) : « التحقيق ان يقال : بعد الاجماع على كون الشركة عقداً : إن قول اشتركنا لانشاء تحقق الشركة ، وصيرورة كل من المالين بين الشريكين على الاشاعة ، الا أنه يشترط في صحة ذلك تحقق المزج ومتى حصل مزج بقصد انشاء الشركة من دون قول تحققت ، وكانت كالمعاطاة أما المزج القهري المجرد عن ارادة انشاء الشركة فلا يترتب عليه ملك كل منهما الحصة المشاعة في نفس الامر ، وانما يفيد الاشتباه في كل أجزاء المال » .

والمعنى المتحصل من هذه العبارة : ان الشركة الشرعية التي يتكلم الفقيه عنها ، تتحقق بمزج المالين مع قصد الشركة وارادتها ، سواء أقال الشريكان

(اشتركنا) اولم يقولا ، فان قالا كانت الشركة بالعقد ، والا فهي شركة بالمعاطاة ، والنتيجة واحدة ، اما مزج المالين من غير قصد الشركة فلا تتحقق به الشركة الشرعية لعدم قصدها ، لا أن كل جزء هو ملك مشاع بين الاثنين .

اذن فالشركة شرعاً لا توجد بالقصد وحده ، ولا بالمزج وحده ، بل بهما معاً ، كما ان المزج لا يحقق الشركة بمعنى الشيوع في نفس الأمر والواقع وإنما يصير مجموع المالين شركة بين المالكين لعدم إمكان الفصل بين المالين بعد الخلط والامتزاج .

وإذا باع إنسان حصة شائعة من ماله بحصة من مال الآخر كذلك ، او باعه اياها بثمن ، واشترى بالثمن حصة من الثاني تتحقق الشركة في المالين حتما وان يتحقق المزج ويتحد المالان ، ولكن هذه الشركة ليست محلا للبحث هنا ، لانها تستند الى غير عقد الشركة .

احكام الشركة :

متى توفر في الشركة جميع ما يعتبر فيها صحت ، وترتب عليها الاحكام التالية :

١ ـ الشركة جائزة من الجانبين ، فللشريك أن يرجع عنها ويطالب بالقسمة متى شاء ، لان الناس مسلطون على أموالهم بشتى انواع السلطة ، ومنها إفراز ملكه عن ملك الغير .. ولو اشترط التأجيل وتحديد الشركة الى أمد معين لم يلزم ذلك ، وله العدول عنه ، لأنه شرط في عقد جائز ، والشرط يتبع المشروط في الحكم .

٢ ـ إذا اشترطا أن يكون العمل لاحدهما دون الآخر ، أو أن يعمل كل

منها دون مراجعة الآخر صح . ولكن الشرط غير لازم ، فيجوز الرجوع عنه متى شاء الشريك ، وإن لم يشترطا ذلك فلا يجوز لأحدهما التصرف في مال الشركة إلا باذن الثاني ، لحرمة التصرف في مال الغير ، ومجرد الاشتراك لايدل على إباحة التصرف في مال الشريك .

٣ ـ إذا أطلقا عقد الشركة ، ولم يبينا مقدار الاسهم يقسط الربح على اصحاب الأموال بنسبة أموالهم ، وقد سئل الامام الصادق (ع) عن رجل يشارك في السلعة ؟ قال : « إن ربح فله ، وإن وضع ـ أي خسر ـ فعليه » .

وقال (صاحب الجواهر) : « بلا خــلاف في ذلك ، سواء أتساوى الشريكان في العمل ، او تفاوتا فيه ، بل الاجماع على ذلك والسنة مستفيضة أو متواترة ، مضافاً الى اقتضاء أصول المذهب وقواعده في المشاع ذلك بل هو مقتضى الاصول العقلية ايضاً » .

واختلف الفقهاء فيما اذا اشترط احد الشريكين الزيادة له في الربح مع تساوي المالين ، أو اشترط التساوي في الربح والخسران مع تفاوت المالين ، دون أن يكون لمن اشترط الزيادة اية ميزة من نشاط او أثر في زيادة الارباح .

فذهب جماعة الى صحة الشركة والشرط ، وآخرون الى بطلانهما معاً ، وثالث الى بطلان الشرط فقط .

واختار (صاحب الجواهر) القول الاول ـ أي صحة الشركة والشرط لانه شرط عن تراض ، ولا يحلل حراماً ، أو يحرم حلالا ، وقد سئل الامام الصادق (ع) عن رجل شارك رجلا في جارية له ، وقال : إن ربحنا فيها فلك النصف ، وإن كانت وضيعة ـ أي خسارة ـ فليس عليك شيء ؟ فقال الامام : « لا أرى بهذا بأساً اذا طابت نفس صاحب الجارية » .

انتهاء الشركة :

فرق بين انتهاء الشركة ، وبين انتهاء الاذن للشريك بالتصرف في المال المشترك فان الشركة لاتنتهي إلا بالقسمة أو تلف المال ، ولا أثر لقول الشركاء أنهينا الشركة مالم يحصل الافراز .. أجل ، تنتهي بذلك شركة العقد ، لانه من العقود الجائزة .

أما شركة الملك والشيوع فلا ... وينتهي الاذن بالتصرف بانتهاء الشركة أو بجنون المأذون له أوموته، أو التحجير عليه لسفه ، أو فلس ، وتنتقل الشركة الى الوارث بموت الشريك ، وينوب عنه الولي مع الجنون او السفه » .

أوصاف الشريك :

ثم ان الشريك في نظر الامام (ع) ـ كما هو في نظر الشريعة ـ ان يكون موضع ثقة واطمئنان ، فلا يخون ولا يغدر ، وان يكون حيث يظنه الشريك فاذا غاب قام مقامه يكفيه امره ويحفظ ماله ، ويصرف ثروته حسبما يجب ان يصرفها ، ويستثمرها كما يجب ان يستثمرها ، وان لا يقطع امراً دون مشاورة شريكه ، كما ان الامانة اصل مهم من الاصول التي ترتكز عليها الشركة فلا شيء يفسد الشركة كما تفسدها الخيانة وترك الامـــانه . والله سبحانه يحب حفظ الامانة ويدعو اليها ، فهو ثالث الشريكين وعينه ترعاه ويده مع ايديهم ما أمن الشريك شريكه ، فان تخاذلا وتخاونا رفع الله عنهما يده وتركهما لشأنهما » .

* * *

«قال رسول الله ﷺ : « إن الله يقول : أنا ثالث الشريكين ، مالم يخن احدهما الآخر ، فاذا خان احدهما الآخر خرجت من بينهما » .

قال صاحب لي وهو يتحدث إلي · هذا من الاحاديث القدسية المرفوعة الى الله سبحانه بلسان رسوله ، وكثير من مثل هذا مروي عنه ﷺ كقوله : « يا عبدي اطعني تكن مثلي .. » وقوله : « مازال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه .. » . وهو ﷺ صادق فيما يقول ، لان الله جعل قوله من الوحي ولو لم يتنزل به الروح الامين ، حيث قال جلت عظمته يصف نبيه : « وما ينطق عن الهوى ، ان هو إلا وحي يوحى » .

وانما اتصفت هذه الاحاديث بالقدسية ، لانها مرفوعة الى ذات القدس على لسان الرسول الاعظم ، والذات القدسية هي القوة الاولى التي يتقوم بها الكون . ولنعد بعد هذا التمهيد الى صلب الحديث الاقدس ، والمجمل بمعناه ان الله بين كل شريكين ، إلا اذا خان أحدهما الآخر ، فالاحاديث القدسية مفصلة لما اجمله القرآن ، فقد ورد في الكتاب العزيز قوله تعالى : « ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا ادنى من ذلك ولا اكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم ... » فالله مع كل احد ، بل مع كل شيء ، فاذا كان هذا الاحد مؤمناً بربه كان هادياً له ، واذا كان كافراً بربه كان مضلا له ، فاذن هو معه على أي حال ، وانما قال : خرجت من بينهما فهو من التجوز ، او يقصد بذلك انه تعالى خرج من عونهما والعمل على هديهما ، وإلا فهل يخلو منه مكان ؟؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وليس معنى قولنا : لا يخلو منه مكان ، انه موجود بذاته في كل شيء ، وانما علمه وهيمنته وقدرته مسيطرة على كل شيء ومتغلغلة فيه ·

والحديث القدسي المذكور في صدر هذا البحث ، انما اختص بالشركة

في كونه ثالث الشريكين مع أنه ثاني كل اثنين ، وثالث كل ثلاثة ، ورابع كل أربعة ، وما يكون من شيء إلا وهو معه أينما كان .

أقول : انما اخص الشركة هنا ايذاناً بأن التضامن والتكافل والتعاضد والتعاون والتكاتف ، التي نطلق عليها لفظ الشركة ، هي القوام الاول لحياة الانسان والقرآن الشريف ، بله الحديث المأثور والحكمة السائرة فياض بالنداء على أن الانسان أخو الانسان أحب أم كره ، والأخوة التي هي مشروعة في الاسلام تستدعي التحابب والتآلف وكثيراً من التعارف ، وهذه هي عين الشركة التي يكون الله بها ثالث الشريكين .

فالشركة في الحياة إذن هي من صميم الحياة إذا لم تكن عنصرها الاول الذي تتقوم به ومن هنا نصل إلى أن الخيانة هدم لهذه الشركة التي هي بناء للانسانية ، وعلى مقدار ما يتقوم به الحي من مشاركة نزيهة في الحياة ، يتقوم انهيار هذا الحي بالخيانة التي يصدع الشريك بها شريكه ، فالله إذن مع الشريكين في عونه وتوفيقه ، إذا استعانا به والتمسا توفيقهما منه ، وأحسنا الأمانة التي يقوم عليها الحق في تعزيز كرامة الانسان العزيز على خالقه ، والله إذن مع الشريكين في بطشه وانتقامه إذا خان أحدهما الآخر ، وهذا البطش والانتقام هو عين تخليه عنهما ، لأن الراعي إذا تخلى عن رعيته ضلت السبيل الذي تسلكه إلى حياتها ، وفي رعاء البهيمة إذا اهملها الراعي مثل لما نحن بصدده من تخلي الحق الذي يرعى الانسان ، عن الرفق به والهيمنة عليه .

اما قوله ، جلت عظمته : « خرجت من بينهما » فهو إشارة جلية إلى انه كان الصلة بينهما ، وإذا كان الله صلة بين كل إثنين من عباده سادت المحبة بينهما ، وكانت هذه المحبة سبباً في سعادتهما والعمل على توثيق الأواصر بينهما ، فاذا زاغت قلوبهما كان هذا الزيغ سبباً في زوال تلك الصلة ، وانفصام العروة الوثقى بينهما ،

وذلك هو الدمار الذي يساور الشركة التي هي علة اتحادهما وتعاضدهما ، وقديماً ضرب الانسان مثلا أعلى في التضامن بين الزوجين اللذين هما شريكان في الحياة ، ضرب مثلا في ان الولد صلة وثقى بين الزوجين ، وانه سبب اول في تركيز دعائم الأسرة التي يقوم عليها بناء المجتمع الانساني .

فالولد الذي هو خلاصة المحبة بين الزوجين ، والذي هو مزيج من دمهما المعبر عنه بالروح ، والذي هو النقطة الحساسة في استدرار عطفهما عليه والرفق به والحنين اليه والتضامن في سبيل حياته ، هذا الولد هو الصلة الوثقى بين ابويه ، فاذا تزعزعت الثقة بين الزوجين كان خروج الولد من بينهما اول ضحية لزعزعة تلك الثقة التي قد تنضي بهما الى الفراق الأبدي فيكون هذا الفراق سبباً في انهيار الأسرة بزوال الأبوة والبنوة من صميم ذلك الكيان القائم على التضامن في الحياة .

وإذا كان الولد الذي هو مزيج من دم الأبوين ، والذي هو خلاصة المحبة التي كانت وليدة اشتراكهما في الحياة .

أقول : إذا كان هذا الولد الصلة الوثقى بين أبويه تربطهما في العمل على الخير بين خلودهما في الحياة ، فكم تكون الصلة بينهما وثيقة إذا كانت وليدة الخلق الانساني القائم فيهما ؟؟ فان الله الذي جمل بين عباده المودة والرحمة ، واقام على هاتين الدعامتين بناء العوالم التي تعمر الوجود الحي ، هو اقرب اليهما من الولد الذي يؤلف بينهما فيخلق من هذا التأليف شركة يؤسسان بها نظام الأسرة وبناء الكيان العاصم لهم جميعاً من فساد الحياة المفضي بهم إلى تلاشي ذلك الوجود .

فالله إذن هو صلتنا الوثقى بالروح التي تحاول رفعنا إلى السماء ، والشيطان إذن هو صلتنا الوثقى بمادتنا التي تخلدبنا الى الارض ، فحيث يكون الشيطان لايكون الرحمن ، وحيث يكون النور لاتكون الظلمة ، ومناط كون هذا النور

او تلك الظلمة هو المسيطر علينا إنما يعود لحسن اختيارنا او سوئه بين يدي سلطان العقل او النفس علينا » .

وصفوة القول : إن معونة الله وتوفيقه يكونان مع الشريكين الأمينين ، فاذا خان احدهما صاحبه ارتفع اثرهما من تجارتهما بالحرمان منها ، وهذاامر شاهد، فان صفة الأمانة في التاجر توطد ثقة اخوانه فيه واقبالهم على معاملته ، فتزداد أرباحه وتغزر ثروته ، وبالعكس إذا كان خائناً خرب الذمة ، حل به الافلاس والسقوط من عيون الناس . ومن ثم قال رسول الله (ص) : « الأمانة غنى » ، « الأمانة تجلب الرزق ، والخيانة تجلب الفقر » . وقال (ص) : « من أخذ اموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن اخذها يريد اتلافها أتلفه الله » .

من الأمور المشاهدة التي تقع تحت أسماعنا وابصارنا ، بين الآونة والاخرى ، نهوض بعض التجار ونجاحهم ، وسقوط آخرين وخسارهم ، فيستغرب الناس ذلك ، وبعد مدة يظهر لهم ان سبب نجاح الأولين حسن نياتهم ، وعزمهم على اداء الحقوق التي ائتمنوا عليها لأصحابها ، لذلك جعل الله تجارتهم رابحة وأدى عنهم . وسبب سقوط الآخرين وخسارهم سوء نياتهم ، وعزمهم على أكل اموال الناس التي ائتمنوا عليها ، فخسرت تجارتهم ، واتلفهم الله باتلاف اموالهم، وكانت عاقبة امرهم خسرا .

أجل إذا لم يكن الشريك اميناً ، ولم يكن موضع ثقة واطمئنان ، انحلت عقد التعاون ، وشلت ايدي التجارة وكسد العمل وتحطمت اركانه ، وتأخر سيره عن الركب الذي شرعه الحكيم لخير عباده ، وهو ان جعل العمل روح الحياة وأساس العمران ، وسبيل الكمال ومنبع الثروة والمال ، وجعله من ضروريات الحياة فلولاه مارأيت قصوراً شاهقة ، ولاحقولا ناضرة ، ولاحدائق يانعة تؤتي اكلها كل حين ، وتبعث إليك بأريج ازهارها ، وتمدك بفاكهة كثيرة لامقطوعة

ولاممنوعة . ولولاه مارأيت طائرات تحلق في الجو ، ولا فلكا تمخر في عباب اليم ، ولا عرفت البخار وآثاره ، ولا الكهرباء وعجائبها ، ولاحصلت على ثوب تلبسه، ولارغيف تأكله ، ولاماء صاف تشربه ، ولا كتاب مفيد تقرؤه ، ولوجدت كل شيء على حاله منذ ابتدأ الله خلقه . واذا كانت حياة الانسان الخلقية وقيمته الأدبية متوقفتين على واجب الصدق ، فان حياته وقيمته ـ مادة وأدباً ـ متوقفتان على تأدية واجب السعي والعمل . وفي هذا قال بعض الكتاب الغربيين : « ليست الحياة يوم عيد ولا يوم حداد ، وإنما هي يوم عمل » .

وإن عظمة الأمم إنما تقاس بمقدار سعي ابنائها ، وثمرة اعمالهم ، وكل امة انفت من الأعمال واستحلت طعم الراحة والبطالة اسرع اليها الفناء والاضمحلال، وخلفها غيرها من الأمم العاملة النشيطة . فالرومانيون مثلا لم يبيدوا أو يذهب سلطانهم إلا حين احتقروا العمل ، واخلدوا إلى البطالة واللهو والترف ، حتى كانوا يرون ان الاعمال لاتليق إلا بعبيدهم .

وقد جعل الشرع الاسلامي حظ كل إنسان في حياتيه الدنيوية والأخروية منوطاً بعمله ومتوقفاً على مقدار سعيه لها ، فقال تعالى : « وان ليس للانسان إلا ما سعى ، وان سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » أي ان حظه من النجح والمكافأة في الدنيا والآخرة على قدر ما يبذله من العمل والسعي خيراً او شراً قليلا أو كثيراً . وجاء هذا المعنى أيضاً في قوله (ص) : « ان الله يعطي العبد على قدر همته ونهمته » وهمته عزمه ، ونهمته حاجته وقصده .

روي ان النبي (ص) كان جالساً مع اصحابه ذات يوم ، فنظروا إلى شاب ذي جلد وقوة قد بكر يسعى ، فقالوا : ويح هذا ، لو كان شبابه وجلده في سبيل الله ، فقال رسول الله (ص) : « لاتقولوا هذا فانه إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على ابوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله

وان كان خرج يسعى على نفسه ليعفها فهو في سبيل الله ، وان كان خرج يسعى رياءاً ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان » وقال(ص) ، في التحذير من البطالة وسوء نتائجها : «اذا قصر العبد في العمل ابتلاه الله بالهم » .

لاجرم ان الهموم والأكدار والأماني الباطلة إنما تكون من ذوي البطالة والفراغ والعطلة عن العمل . قال (ص) : «اخشى ماخشيت على امتي كبر البطن ومداومة النوم والكسل ». كبر البطن كناية عن انتفاخه وامتلائه بالطعام مما يكون مجلبة للكسل والعجز عن متابعة العمل . فالشارع عاب الكسل عن العمل ومايؤدي إليه من الافراط في النوم والأكل . وبالجملة فان اعدى اعداء العمل الاتكال المقرون بالاهمال والتقاعد وترك السعي ، واقوى اركان العمل واشد انصاره التوكل الصحيح الشرعي المقرون بالسعي والحركة والنشاط ، واتخاذ الاسباب الظاهرة التي امرنا الله ونبيه بمراعاتها والسير على سننها .

فمن كرس حياته للحق والخير فعمله عبادة . وكل قطرة عرق تبذل فيه فهي آية جهاد ، توضع في موازين المرء مع صلاته وزكاته .

وقد نبه النبي (صلى الله عليه وآله) إلى ان العمل للدنيا من الدين ، وانه شيمة الانبياء والمرسلين ، سواء كان هذا العمل زراعة اوصناعة اوتجارة او حرفة .

وهناك بعض الآثار الشواهد على منزلة الاحتراف والكدح والسعي في طلب الرزق بالوسائل الشريفة : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : « ما اكل احد طعاماً قط خيراً من ان يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده » .

وقال « طلب الحلال واجب على كل مسلم ».

وقال : « أيما رجل كسب مالا من حلال فأطعم نفسه او كساها . فمن دونه

من خلق الله فان له به زكاة ».

وسئل (ص) : « اي الكسب افضل ؟ قال : عمل الرجل بيده ، وكل بيع مبرور ».

وروي عنه : « إن الله يحب المؤمن المحترف ».

ان الاسلام يجعل العمل سمة المسلم ، ومظهر تجاوبه مع رسالة الوجود ، وانقياده لأمر الله ، وفقهه لطبيعة الدنيا وحقيقة الدين .

ولايجوز ان يكون حب الحياة باباً الى طلبها بوسائل رديئة ، فان العمل الذي امر الله به محكوم باطار سميك من اخلاق العفة والصدق والعدالة والرحمة ..

وعندما يسر الله لعباده خيرات هذه الارض نبههم الى ان ذلك لايجوز ان يعدو الحلال الطيب .

فليس الانسان وحشاً منطلقاً في برية يلتهم ماوقع في براثنه ، كلا ، انه انسان محاسب على سلوكه ، مسئول عن نيته ووسيلته وغايته .

ولذلك لايجوز ان يقع فريسة الغرائز الخسيسة والوساوس الدنيا .

« ياأيها الناس كلوا مما في الارض حلالا طيباً ، ولاتتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين » . وقد يستحلي المرء طعاماً وصل الى يده مريب المصدر ، ولو علم عقباه في آخرته لفضل ان يأكل الطين بدل ان يدخل هذا الطعام في جوفه .

يقول رسول الله (ص) لهذا الانسان : « ... لأن يأخذ تراباً ـ يجعله في فيه ـ خيرله من ان يجعل في فيه ماحرم الله عليه » . وروي عنه (ص) : « ايما عبد نبت لحمه من سحت فالنار اولى به ». وعقبى إلتهام الحرام عار الدنيا ونار الآخرة .

« إن الذين يأكلون اموال اليتامى ظلماً ، انما يأكلون في بطونهم ناراً

وسيصلون سعيرا » .

والعمل الصحيح هو السبب الاول للملكية الصحيحة .

والاسلام يحترم هذا العمل ويصون ثمراته ويجعل المدوان عليها جريمة .

أما الكسب السيء فلا حرمـة له ، بل ان الاسلام يطلب من كل امرىء حصل على القليل أو الكثير من المال الحرام أن يتخلص منـه فوراً حتى تكون علاقته بالله سليمة وتوبته اليه مقبولة .

فان الغش والغصب والقمار والسرقة والربا والاحتكار والاستغلال وجميع انواع الكسب الحرام لايمكن عدها وسائل للتملك المحترم ، انها ـ في حقيقتها ـ اعتداء على التملك الصحيح ، وطرق ملتوية لوضع اليـد الجائرة على حقوق الآخرين .

وجماع القول : ان الاسلام يرى ان العمل ركن من اركان سعادة الفرد والجماعة ، وانه ينبغي للمربين والمعلمين ان يذكروا للصغار : ان الطريق المحفوف بالأزهار لايوصل الى المجد والعز والفخار ، وان نجاحكم ونجاح وطنكم منوطان بعمل كل واحد منكم ، ومتوقفان على مقدار مايبذله من الحركة والسعي والنشاط ، وانه ليس من الانصاف ولا العدل ان يعيش الانسان كلا على ثمرات اعمال غيره ، فيتمتع بنتائج كدهم وكدحهم وشتى جهودهم ، ثم لايشاركهم في عمل ما هو واجب عليه حتى يستفيدوا منه كما استفاد منهم .

من اجل ذلك اوعد الشارع هذا الفارغ الكسلان بأشد وعيـد بقوله (ص) : « اشد الناس عذاباً يوم القيامة المكفي الفارغ » . ويعني بالمكفي الذي يكفيه غيره ضرورات حياته . وبالفارغ المتعطل المخلد الى البطالة والكسل ، ومن شعب العمل : الكسب والتجارة .

اما الكسب : فتحصيل المال من اي طريق عدى المحرمات . واما التجارة :

فتحصيل المال من طريق تقليب البضائع والسلع ، بيعاً وشراء ، اوهي شراء الشيء بأرخص ما يمكن من الثمن ، ثم بيعه بأغلى ما يمكن منه .

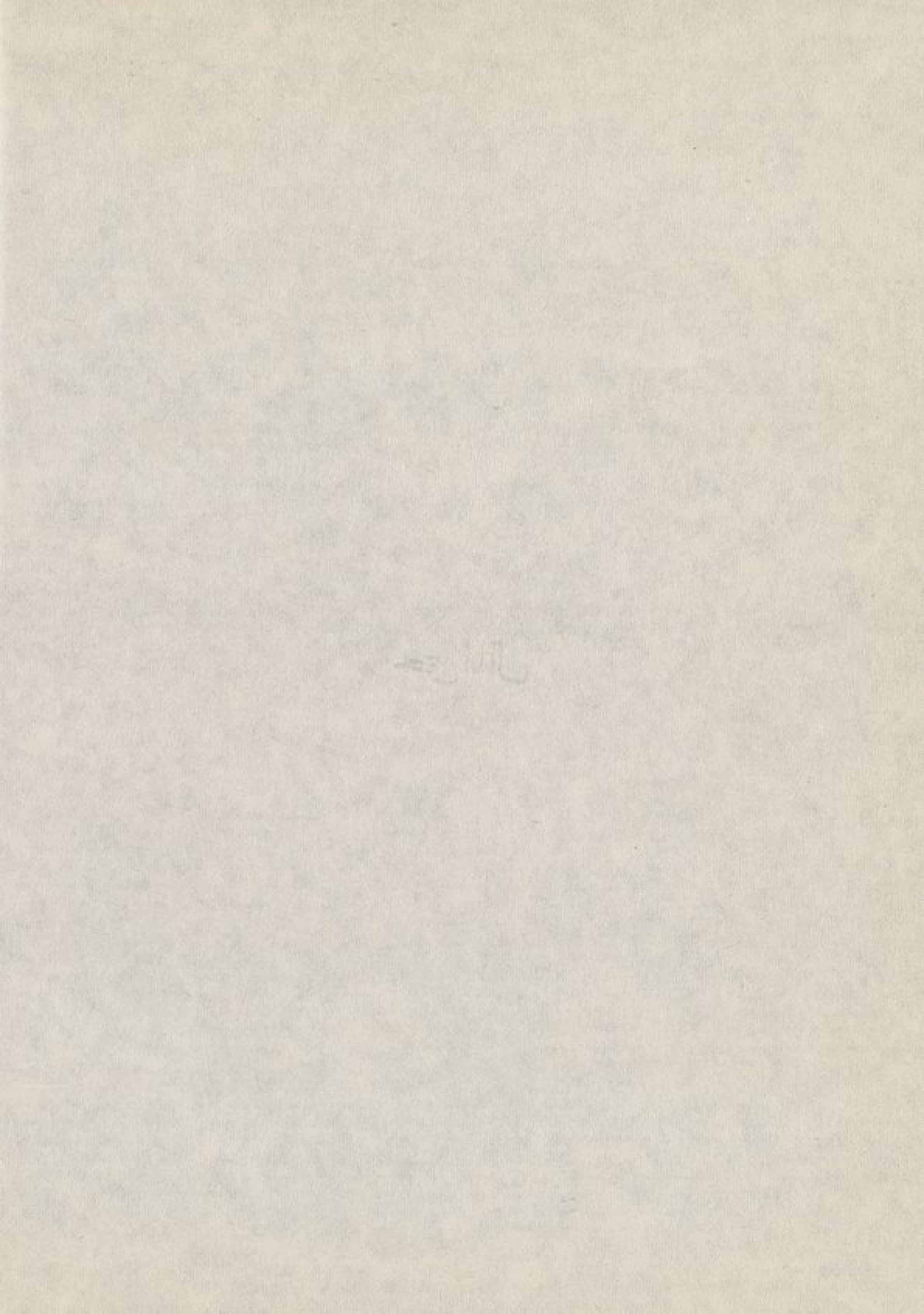
واشتغال فريق من ابناء الامة في هذا النوع من العمل واجب محتوم عليهم مادام امر معاشهم متوقفاً عليه بحيث يستغنون به عن المسألة واراقة ماء الوجه . ومهما يكن في طلب المعاش والكد في تحصيل الرزق من تعب ومشقة فان التعرض لصدمات الناس وانتظار صلاتهم اشق على النفس واصعب . جاء في الحديث الشريف : « لأن يأخذ احدكم حبلا ، ثم يغدو الى الجبل فيحتطب ، فيبيع فيأكل ويتصدق ، خيرله من ان يسأل الناس » . بل ان الامام الصادق (عليه السلام) جعل المنفق من ماله على ناسك يعبد ربه اشد عبادة من ذلك الناسك .

روى المعلى بن خنيس عن ابيه عن الصادق (ع) قال « سأل ابو عبد الله عن رجل وانا عنده ، فقيل اصابته الحاجة . قال : فما يصنع اليوم قيل في البيت يعبد ربه . قال فمن اين قوته ؟ قيل من عند بعض اخوانه . فقال ابو عبد الله : والله للذي يقوته اشد عبادة منه » . وكان (ع) يجعل المعرض عن ابتغاء المال فاقداً للخير . روى عمرو بن جميع قال : « سمعت ابا عبد الله يقول : « لاخير فيمن لا يحب جمع المال من الحلال ، يكف به وجهه ، ويقضي به دينه ، ويصل به رحمه » .

واثنى الصحابة ذات يوم على رجل ، فقالوا : يارسول الله ، ان فلاناً يصوم النهار ويقوم الليل ويكثر الذكر . فقال (ص) : «ايكم يكفيه طعامه وشرابه ؟ فقالوا : كلنا يارسول الله . فقال : كلكم خير منه » .

فهذا يدل على ان الانقطاع للعبادة اذا كان يشوبه شيء من الضيق والحاجة الى الناس ، لايكون فضيلة دينية مالم يعضدها فضيلة كسب المال والاستغناء به عما في ايدي الناس وهكذا كان دأب الصحابة والسلف ، فهم يعتبرون الكسب وطلب الحلال من المال من مقتضيات المروءة التي لامندوحة عنها.

حق المال



قوله (عليه السلام):

« وحق مالك فأن لا تأخذه إلا من حله، ولا تنفقه الا في وجهه، ولا تحرفه عن مواضعه، ولا تصرفه عن حقائقه، ولا تجعله اذا كان من الله الا اليه، وسبباً إلى الله، ولا تؤثر به على نفسك من لا يحمدك، فاعمل به بطاعة ربك، ولا تبخل به فتبوء بالحسرة والندامة مع التبعة. ولا قوة الا بالله ».

* * *

المال نعمة، يعطيها الله للانسان، وقد يكون نقمة. وإنما المدار في المال هو نوعية اكتسابه، ونوعية صرفه.

لا ينظر الاسلام الى المال من حيث هو مال، إنما ينظر اليه من حيث اكتسابه، فيبيحه إن كان مشروعا، ويحرمه ان كان غير مشروع. وينظر اليه من حيث صرفه ايضاً، فان صرف في غير محل مشروع كان ذلك إثماً، وان صرف فيما يجوز كان مباحاً. والنتيجة هي ان يكون المال مأخوذاً من حله مصروفاً في حله.

وليس المال اساسياً في ذاته إنما هو وسيلة اما إلى الخير، واما إلى الشر.

وليس هو نعمة الا إذا صرف في سبيل الخير.

ليس المال ـ كما يقول بعض الغلاة من علماء تدبير المال ـ غاية في ذاته، وإنما هو ذريعة الى تجميل حال بني الانسان، واشتراك ذوي الاقلال والاكثار، في الاستمتاع بخير الدنيا ونعيمها، فيقل بينهم التحاسد، وينتفي عنهم تباغض المدم، وتكثر المواساة والتواصل، وتنبسط النفوس، فتتفرغ للذود عن حريتها،

وتنهض للضرب في الارض ، وشق عباب البحار ، وامتطاء متن الهواء تقتنص شوارد العلم ، وتتلقن ضروب الصناعة والتجارة ، فتتسع آمالهم ويتممون من العمران ماقصرت أعمال السلف عن استيعابه ، ويرمون ماأحدثوه من شعث . وهكذا تكون احوال امتهم على الأعصار ملتئمة ، وامورها على ممر الدهور منتظمة ومن تم له ذلك فأحرى به ان يحيا حياة اساسها الفضيلة ، وثمرها رغد العيش في الدنيا ، والنعيم المقيم في الآخرة .

هذا العمل والمال علمنا اهل البيت (عليهم السلام) ان نسهر في طلبه ونثابر ونهاجر ونتاجر لنكون في غنى عن الناس ، وفي ذلك غفران الذنوب وطاعة الله وجهاد في سبيله ،فاذا تيسرت لنا اسباب الثروة وأخذنا بأطراف الغنى فماذا نصنع ؟

لوفتشت المجتمع الحاضر ، اورجعت في نظرك القهقرى الى ادوار التاريخ وعصوره وتتبعت سيرة الانسان- ذلك المخلوق الاجتماعي-فلا يمكن ان تجد بخيلا حقيقياً ، وإنما هي امور نسبية ، وبخلي نسبي ، والبخل الحقيقي الذي هو قبض اليد عن كل إنسان ما عدا اسرته ، فهذا لفظ لامصداق له في الحياة ، ولا معنى له في قاموس الحياة نعم معناه مشروح ومفسر في قاموس اللغة .

ان الانسان مهما سيطر عليه حب المال ، واستأثرت به الكزازة لابد ان تحل عقدته مناسبات . وتستثير نخوته ملابسات ، وتحيط به ظروف وتقتضيه أوضاع ان يكون باذلا لماله مسعفاً لمن يهيج عاطفته وينبه وجدانه ويحرك حماسته ، وإن الحياة الواقعية التي رايناها دلتنا في كثير من الأحيان على سخاء وبذل من أناس عرفوا بالبخل والشح ، وتحدث الناس عنهم في المحافل ، ونعتهم الشعراء بأنهم لواستطاعوا لتنفسوا من منخر واحد .

في النفس اشياء تنسب الى الطبع والجبلة قبل ان تنسب إلى التفكير والتدبير . فمن كان عالماً لابد ان يرشد جاهلا في الناحية التي يعرفها العالم ويجهلها

الجاهل . ومن كان قوياً لابد ان يعين ضعيفاً ومن كان غنياً لابد ان يسعف فقيراً . ولكن ترك هذه الأمور الى الموافقات والمناسبات لايظهر في المجتمع أثرها ، ولايحسن في النفوس وقعها ولاتأتي بالنتيجة المطلوبة والنفع المأمول ، ولم تخفف من شقاء الانسانية المعذبة ولم تقلل من متاعبها .

أهل البيت (عليهم السلام) كان اقصى همهم في الحياة ، تعليم الجاهل وإرشاد الضال وايقاظ الغافل الى السعادة ليكون المجتمع تنتظمه السعادة في سائر مرافقه بجميع افراده لافرق يقوم على تمايز وتفاضل واستئثار .

قال الصادق (عليه السلام) : « إنما اعطاكم الله هذه الفضول من الاموال لتوجهوها حيث وجهها الله ولم يعطكموها لتكنزوها . فاذا كان لابد للانسان من إنفاق وبذل . إذا كان ميسوراً فأفضل الناس من كان بذله في خير الذي يعين على تخفيف ويلات المجتمع وإنقاذ أكبر عدد من انياب الشقاء ومخالب البؤس ، وان يكون البذل في طريق الفضيلة لافي طريق الرذيلة والنقيصة ولا في طريق يشجع الطبقة المجرمة الآثمة .

قال الصادق (ع) : « إذا أردت ان تعرف إلى خير يصير الرجل ام إلى شر ؟ فانظر أين يضع معروفه؟ فان كان يضعه عند اهله فاعلم انه يصير الى خير وان كان يضع معروفه مع غير اهله فاعلم ان ليس له في الآخرة من خلاق » .

من هذا الحديث نسترشد إلى ان إنفاق المال ينبغي ان يكون لتخفيف بؤس البائسين وإصلاح الفاسد وتقويم المعوج .

يقول الصادق (ع) : « أربع تذهب ضياعاً : مودة تمنح من لاوفاء له ، ومعروف يوضع عند من لايشكره ، وعلم يعلم من لايستمع له ، وسر يوضع عند من لاحصانة له » ،

قال علي (عليه السلام) : « من كان منكم له مال فإياه والفساد فان إعطاءه في غير حقه تبذير وإسراف وهو يرفع ذكره في الناس ويضعه عند الله ، ولم يضع

امرء ماله في غير حقه وعند غير اهله ، إلا حرمه الله شكرهم ، وكان لغيره ودهم ، فان بقى معه بقية ممن يظهر الشكر له ويريد النصح ، فانما ذلك ملق وكذب ، فان زلت به النعل ثم احتاج الى معونتهم ومكافاتهم لألئم خليل ، وشر خدين ، ولم يضع امرء ماله في غير حقه ، وعند غير اهله لم يكن له من الحظ فيما أتى إلا محمدة اللئام ، وثناء الاشرار مادام منعماً مفضلا ، ومقال الجاهل ما أجوده ، وهو عند الله بخيل فأي حظ ابور واخسر من هذا الحظ ؟ واي فائدة معروف أقل من هذا المعروف ؟ فمن كان منكم له مال فليصل به القرابة وليحسن منه الضيافة وليفك به العاني والأسير ، وابن السبيل ، فان الفوز بهذه الخصال مكارم الدنيا وشرف الآخر »

وكل مسلم يعرف ان الانفاق على المشاريع العامة : كالمساجد والمدارس الدينية ، والقناطر وسائر الاوقاف ، أجرها أعظم وثوابها أجزل . وهذا مصداق الحديث المعلن عن الصدقة الجارية الباقي ثوابها مابقيت ، ينتفع الناس بها ويستفيدون منها .

والامام السجاد (سلام الله عليه) في هذه الظاهرة يرى ان المال سبب إلى الله وسبيل إليه ليس غير . فمن حق هذا المال على صاحبه ان يؤثر به على نفسه من لا يرجو نفعه ولا ينتظر خيره ، ولعله لا يحمده ولا يحسن خلافته من بعده ، ولعل من يخلفه ان لا يتخذ هذا المال سبيلا إلى الله . فيؤكد الامام (سلام الله عليه) على ان الانسان عليه أن لا يفكر فيمن يخلفه ما كان أمامه سبيل الله مفتوحاً ، فلينفقه وليصرفه في وجوه المعروف والاحسان لينفع نفسه ، اما ورثته فليس هو كفيل لهم ، او مسئول عنهم ، ومن كان كفيلا له حينما مات والده هو ، وهو بعد في دور الطفولة ، إنما الله كفيل له ولهم جميعاً ، وعليه رزقه ورزقهم جميعاً .

قيمة المال

المال : إذا اعتبر بكونه احد اسباب قوام الحياة الدنيوية فهو عظيم الخطر، واذا اعتبر بسائر القنيات فهو صغير الخطر، اذ القنيات ثلاثة : نفسية، وبدنية وخارجة. والخارجة ادونها، وادون الخارجات المال، لأنه خادم غير مخدوم، وسائر القنيات خادم من وجه ومخدوم من وجه، لأن النفس يخدمها البدن، والبدن يخدم المأكل والملبس، وهما يخدمها المال.

فالمال من حقه ان يكون خادماً لغيره من القنيات، وان لايكون شيء من القنيات خادماً له، وان كان كثير من الناس لجهلهم يجعلون جاههم وابدانهم ونفوسهم خدماً للمال وعبيداً، وهم الذين ذمهم النبي (ص) بقوله : « تعس عبد الدينار ».

ولعظم منافع المال في الامور الدنيوية قال تعالى : « ولا تؤتوا السفهاء اموالكم ». وخوف من اعجب باقتنائه : فقال : «ايحسبون ان مانمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لايشعرون ». فحق الانسان ان يعد المقتنيات الدنيوية آلات موضوعة في فندق يصلح للانتفاع بها المسافر مادام نازلا في ذلك الفندق، فيتناول منها مقدار ما يتبلغ به، ويتسلى عنها عندما يرحل، ويستهجن لنفسه ان يكذب، ويغضب ويحزن، ويرتكب القبائح في سبيلها.

ان المال الذي هو العين جعله الله سبحانه سبباً للتعامل به كما تقدم آنفاً، وخادماً كما ذكرناه، فقبيح بالحر المترشح لنيل الفضائل والاقتداء بالباريء جل ثناؤه، والوصول الى الغني الاكبر، ان يتهافت على المال باكثر مما يحتاج اليه، ويجعل نفسه اقل رفيق واخسه كما قيل :

فرق ذوي الاطماع رق مخلد

الحق ان المال في ايدي الناس عارية ، لأن الله تعالى اوجد اعراض الدنيا بلغة ، فاعتدها الناس عدة ، وصير الدنيا ممرا محلا وممراً ، فصيروها موطناً ومقراً الا قليلا أزلوها حيث أنزلها الله تعالى ، وهم الذين وصفهم الله تعالى بقوله : « وقليل من عبادي الشكور » تاجروا بها ربهم . كما قال تعالى : « ياايها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم » .

وأعراض الدنيا من وجه عارية في ايدي الناس مستردة كما قال الشاعر :

وما الناس والاهلون الاودائع ... ولابد يوماً ان ترد الودائع

ومن وجه منحة منحها الانسان لينتفع بها في حياته ، وينتفع بها غيره بعد مماته ، غير ان الانسان اغتربها فظن أنها جعلت له هبة مؤبدة ، فركن اليها ولم يؤد أمانة الله تعالى ، ثم لما طولب بردها تبرم وضجر ، وسخط وجزع . وبعضهم ـ وهم الاقلون ـ حفظوا ماعهد اليهم ، فتناولوها تناول العارية والمنحة والوديعة ، فأدوا فيها الامانة ، وعلموا أنها مستردة ، فلما خرجت منهم لم يغضبوا ولم يجزعوا ، وردوها شاكرين لما نالوه منها ، ومشكورين لأداء الأمانة فيها .

وقد ذكر بعض العارفين في ذلك مثلا فقال : انما مثل أرباب الدنيا فيما اعطوه من اعراضها كرجل دعا قوماً الى داره ، واخذ طبق ذهب عليه بخور ورياحين ، فكان اذا دخل احدهم ناوله اياه لاليتملكه بل ليشمه ويناوله لمن بعده ، فمن كان جاهلا ظن أنه يملكه ، فلما استرجع منه ضجر ، ومن كان عالماً تناوله فشمه ثم أعاده بانشراح صدر .

تملق النفس بالمال :

لا شك أن النفوس جبلت على حب المال : قال تعالى : « وانه لحب الخير لشديد » . « ويحبون المال حباً جماً » وهو أمر ضروري لا يحتاج لبيان ، ولذلك سببان :

أحدهما : حب الشهوات العاجلة ، ولا وصول اليها إلا بالمال مع طول الأمل ، فان علم الانسان انه يموت بعد يوم فقد لا يبخل بماله ، وقد يبخل به إن كان له أولاد ، لأنه يقدر بقاءهم كبقاء نفسه ، والى ذلك يشير قوله ﷺ: « الولد مبخلة مجبنة مجهلة » ، وقد يسخو مع ذلك إذا أحسن الظن بالله وتيقن الخلف .

قال علي أمير المؤمنين (ع) : « من أيقن بالخلف جاد بالعطية) » وذلك حق ، لان من يوقن بالخلف يعلم أن مادته دائمة غير منقطعة .

قال الشاعر :

من ظن بالله خيراً جاد مبتدءاً — والبخل من سوء ظن المرء بالله

ثانيهما : حب عين المال : فمن الناس من معه ما يكفيه طول عمره ويزيد على جميع مطالبه ، وهو شيخ بلا ولد ، ولا تسخو نفسه باخراج شيء في مصالح دنياه وآخرته ، ولا بمداواة نفسه عند المرض ، وما دفعه الى ذلك إلا حبه للمال وعشقه له : ومثله في ذلك كمثل رجل عشق شخصاً فأحب رسوله لنفسه ثم نسي محبوبه واشتغل برسوله ، لان المال رسول يبلغ الى الحاجات فصارت محبوبة ، وقد تنسى الحاجات ويصير الذهب محبوباً في نفسه .

وحب المال لا يخلو منه أحد ، وربما يكون كامناً في النفس فتثيره

مشاهدة النعمة عند غيره ، لانها تثير الشوق اليه ، وتجعل الشخص يتنبه لألم الحرمان ، وقد كان غافلا عنه قبل ذلك ، وهـذا من مقتضيات الامور التي لا تدخل تحت الاختيار ، ولم يعر منه أحد عدا من عصم الله من أوليائه ، لأن ذلك من مقتضيات البشرية ، وإنكار حبه مكابرة ، وقد يتعدى حب المال والدنيا الى حب أهل المال بالطبع .

قال علي أمير المؤمنين (ع) : « الانسان عبد للدنيا ولمن في يديه شيء منها » .

ومن وجوه ذم المال أن الولع به قد يؤدي الى أمور محظورة ، كالبخس في الوزن والتطفيف في الكيل ، والجحود للحق ، والمغالطة في الحساب ، والشتم والاهانة ، واحتمال أشباه ذلك طلباً للكسب واللؤم وهو الامساك عن الانفاق في أبواب الجميل ، ويؤتى صاحبه من قبل أنه لا يعرف طرق الجميل . ومنها التقتير وهو التضييق فيما لا بد منه ، كالانفاق على الابناء ووجوه الخير ويؤتى صاحبه من قبل أنه لا يعرف الواجب والسرف : وهو الانهماك في الشهوات واللذات . والبذخ : وهو أن يتعدى المرء ما يتخذه اهل طبقته مباهات . وسوء التدبير : وهو ان ينفق في غير ضرورة ، ويهمل الاهم من أموره ، ويؤتى من قبل أنه لا يعرف مقادير النفقة ومن أراد ان يجانبه الذم في شأن المال فليراع ما يأتي :

١ ـ ان يعرف أبواب الجميل ويرغب فيها ويبتغيها .

٢ ـ ان يعرف الحق اللازم ويوجبه على نفسه .

٣ ـ ان يتوخى القصد في الانفاق على لذاته المشروعة .

٤ ـ ان لا يتعدى ما يفعله اهل طبقته .

٥ ـ ان يعرف استحقاق كل حال مما يحتاج اليه

٦ ـ ان يكون إنفاقه كرماً لا تبذيراً واسرافاً ، فاذا فعل ذلك نسب الى كل خلق محمود .

القناعة والمال :

المال ضروري للحياة ، والحاجة اليه لازمة لا يعرى منها بشر ، ومن عدم المال ـ الذي هو مادة الحياة ـ لم يستقم له دين ولا دنيا ، ولحقه الوهن في نفسه ومروءته وأخلاقه ، وأسباب كسبه كثيرة متنوعة ترجع الى أصول ثلاثة : هي الزراعة ، والتجارة ، والصناعة . وما عداها من الاعمال متفرع عنها وراجع إليها .

والمال ليس من الكمال الذي يطلب لذاته : كالعلم وفضائل الاخلاق ، وإنما يطلبه من يطلبه لامور :

منها منازعة الشهوات التي لا تنال إلا بوفر المال ، وليس لشهوات المرء حد تقف عنده ، ولا غاية تصل اليها ، ولهذا يكون ما يصيب من اللذة بما جمعه من المال غير واف بما يعانيه من استدامة كده وتعبه : مع ما قد لزمه من ذم الانقياد لمتابعة الشهوات ، وهذه حال لا يكف المرء عنها في الغالب عقل زاجر ولا قانون وازع ، فقد روي عن النبي ﷺ انه قال : « من أراد الله به خيراً حال بينه وبين شهواته » .

ومنها ان يطلب المال ويلتمس كثرته لينفقه في وجوه البر ويصطنع به المعروف عند أهله ، وصاحب هذا أجدر بالحمد وأحرى بالتبجيل واولى باحترام الناس ، وبقدر ما يبذل في ذلك من الافادة والاستفادة يكون حظه من الخير وحسن العاقبة ، ومن فعل هذا فقد أصاب بالمال وجهه ووضعه في موضعه ، لان المال آلة

للمكارم وعوناً على الدين ومتألف للاخوان ، ومن فقده من الناس قلت الرغبة فيه والرهبة منه ، ومن لم يكن موضع رغبة ولا رهبة استهان به الناس ولو كانوا أقاربه الادنين وخلانه الاوفين ، ولهذا قيل : « من استغنى كرم على أهله » ، ولعظم خطره سماه الله تعالى خيراً في كثير من آياته ومدحه فيها . قال تعالى : « إني اراكم بخير » وقال تعالى : « وكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً » وقال : « وإنه لحب الخير لشديد » وقال : « إن ترك خيراً الوصية » وقال في مقام الامتنان : « ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهاراً » . وقال رسول الله (ص) : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » .

وتواترت اقوال الحكماء والكتب السماوية في مدحه وتحبيب الناس في طلبه. قال بعض الحكماء : « من أصلح ماله فقد صان الاكرمين : الدين والعرض » .

قال بشر الضرير :

كفى حزناً أني أروح واغتدي ... ومالي من مال اصون به عرضي
واكثر ما القى الصديق (بمرحباً) ... وذلك لا يكفي الصديق ولا يرضي

وقال آخر :

اجلك قوم حين صرت الى الغنى ... وكل غني في العيون جليل
وليس الغنى إلا غنى زين الفتى ... عشية يقري او غداة ينيل

وقد اعتبره القرآن الكريم زينة الحياة ، وجعله في منزلة البنين قال تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » . وعد العلماء الغنى خيراً من الصبر ، فقالوا : « غني شاكر أفضل من فقير صابر » ، لأن الغني وأجد من المال مايسعفه بحاجته في الخير والشر ، فانصرف عن الشر الى الخير .

وأما الفقير فقد غل يده الفقر ولم يجد مواتاة من حاله على الخير والشر ، فانصرف عنهما جملة ، وليس يعلم إلا الله ماذا كانت تكون حاله لو اتسع له ماله

ورفهت حاله .

ومنها : أن يطلب المال ليدخره لولده مع ضنه به على نفسه وانفاقه فيما يكسبه الحمد ويدفع عنه اللؤم إشفاقاً عليهم من الطلب ، وخوف أن يبتذلهم ذل السؤال . وهذا من الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، لأنه مأخوذ بما جمع ، سيء الظن بالله واثق ببقاء هذا المال على ولده ، وهو عرض زائل وظل منتقل ودولة بين الناس .

وأسوأ ما يعقبه هذا العمل أن يصرف الابناء عن السعي في طلب العلم والمال لا عتمادهم على ما يصير اليهم من مال آبائهم ، ولقد كان سبباً في فساد أخلاق كثير من الشبان وانصرافهم الى اللهو واللعب حتى أضاعوا كل ما ورثوه من مال ، وتبع هذا فقدان الشرف والصحة .

ومنها أن يجمع المال حباً فيه واستحلال لجمعه ، وهذا أسوأ الناس حالا واقلهم حظاً من دنياه ، وأكثرهم عناء بما جمع من المال وما يستلزمه من التدبير والقيام عليه ، والعمل لتنميته ، لأن من كانت رغبته هذا لا يجد ما يصرفه عنها أو يقلل تلك الرغبة في نفسه حتى يلقى حتفه .

وفي هذا يقول سبحانه وتعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » .

ومن كانت غايته جمع المال وادخاره استولى عليه بعد الأمل ، وهو سبب الشح الذي يصيب كثيراً من الناس فيصرفهم عن أداء الحقوق الواجبة لله ولانفسهم وللناس ، ويبعثهم على التورط في المحرمات ومـــا يستهلك دينهم وأعراضهم وأخلاقهم ، إذ ليس للحريص غاية يقف عنـدها ولا نهاية يقنع بالوصول اليها .

وليس ينجي الانسان من شرك استعباد المال وخطر استهوائه للأفئدة

غير القناعة ، فانه لا غنى إلا بغنى النفس ، ومن لزم القناعة زالت عنه صفة الفقر ولهذا قيل :

غنى النفس ما يكفيك من سد خلة فان زاد شيء عاد ذاك الغنى فقرا

وملاك القناعة الرضا والانصراف عما يثير في النفس الحرص والجشع ، وطلب الدنيا بأسباب لا تحل مباشرتها . وتتفاوت درجات القناعة في الناس :

فمنهم من يرضى بما يتبلغ به من دنياه ، وينصرف عن كل ما سواه ، وهذه حال وإن كانت ترتاح اليها نفوس كثير من الناس أشبه بالعجز وأليق بالنوكى والكسالى ، ومن لا يرون لهم حظاً من دنياهم يجب أن يحرصوا على طلبه ويجدوا في إدراكه .

ومنهم من يطلب ما يكفيه من الدنيا لنفسه ولاهله ولاصحاب الحقوق عليه ولا يمدن عينيه الى ما وراء ذلك مما يزيد عناءه ويكثر آلامه ، وهذه حال لا بأس بها لمن أراد أن يبقي على نفسه وشرفه .

ومنهم من يقنع بما سنح له قليلا كان أو كثيراً ، وتقر عينه بما صار اليه من متاع الدنيا وإن فاته شيء منها لم يجد فى طلبه ، ولم يحزن لفوته ، لعلمه أن لا شيء من خير الدنيا وشرها إلا وهو بقدر ، وما كان له منها أصابه على على ضعفه ، وما كان عليه منها لم يدفعه بقوته ، وهذه حال كثير من العقلاء ممن فيهم أناة وصبر وحسن تصريف للامور ، ونظر في العواقب مع عدم استسلام لهوى النفس وخدعها الكاذبة وبها يصيرون الى الراحة واطمئنان النفس وعدم المؤاخذة .

وفي هذا يقول أبو تمام :

لا تأخذني بالزمان فليس لي تبعاً ولست على الزمان كفيلا

من كان مرعى عزمه وهمومه روض الاماني لم يزل مهزولا

ومن قنع اتصف بكثير من صفات الكمال : كعزة النفس ، والمروءة ، والشرف ، والسخاء ، واستبق لنفسه راحة البال والطمأنينة .

مدح المال وذمه :

مدح المال :

هذا موضع قد اختلف الناس فيه كثيراً ففضل قوم الغنى ، وفضل قوم الفقر .

فقال أصحاب الغنى : قد وصف الله تعالى المال فسماه خيراً ، فقال : « إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي » وقال ممتناً على عباده واعداً لهم بالانعام والاحسان : « ويمددكم بأموال وبنين » وقال : « وجعلت له مالا ممدوداً » . وقال النبي (ص) : « المال الحسب ، إن أحساب أهل الدنيا هذا المال » وقال : « نعم العون على تقوى الله المال » .

قالوا : ولا ريب أن الاعمال الجليلة العظيمة الثواب لا يتهيأ حصولها إلا بالمال : كالحج والوقوف والصدقات والزكوات والجهاد .

وقد جاء في الخبر « خير المال سكة مأبورة أو مهرة مأمورة » .

وقالت الحكماء : المال يرفع صاحبه وإن كان وضيع النسب قليل الادب وينصره وإن كان جباناً ، ويبسط لسانه وإن كان عياً . به توصل الارحام وتصان الاعراض وتظهر المروءة وتتم الرياسة ويعمر العالم وتبلغ الاغراض وتدرك المطالب وتنال المآرب ، يصلك إذا قطعك الناس ، وينصرك إذا خذلوك ويستعبد لك الاحرار ، ولولا المال لما بان كرم الكريم ولا ظهر لؤم اللئيم ، ولا

شكر جواد ولا ذم بخيل ولا صين حريم ولا أدرك نعيم .

قال الشاعر :

المال أنفع للفتى من علمه ... والفقر أقتل للفتى من جهله
ماضر من رفع الدراهم قدره ... جهل يناط الى دناءة اصله

وقال آخر :

دعوة أخي فولى مشمئزاً ... ولي درهمي لما دعوت

وقال آخر :

ولم أر أوفى ذمة من دراهمي ... وأصدق عهداً في الامور العظائم
فكم خانني خل وثقت بعهده ... وكان صديقاً لي زمان الدراهم

وقال آخر :

أبو الاصفر المنقوش أنفع للفتى ... من الاصل والعلم الخطير المقدم
وما مدح العلم امرؤ ظفرت به ... يداه ولكن كل مقو ومقدم

وقال آخر :

ولم أر بعد الدين خيراً من الغنى ... ولم أر بعد الكفر شراً من الفقر

وقال الحريري في مقالته الدينارية في وصف الدينار :

أكرم به أصفر راقت صفرته ... جوّاب آفاق ترامت سفرته
مأثورة سمعته وشهرته ... قد أودعت سر الغنى أسرته
وقارنت نجح المساعي خطرته ... وحببت الى الانام غرته
كأنما من القلوب نقرته ... به يصول من حوته صرته
وإن تفانت او توالت عترته ... يا حبذا نضاره ونضرته
وحبذا مغناته ونصرته ... كم آمر به استتبت امرته
ومترف لولاه دامت حسرته ... وجيش هم هزمته كرته

وبدر تم انزلته بدرته ومستشيط تتلظى جمرته .
أسر نجواه فلانت شرته وكم اسير اسلمته اسرته
انقذه حتى صفت مسرته وحق مولى ابدعته فطرته
لولا التقى لقلت جلت قدرته

وقال ابن ميثم البحراني :

قد قال قوم بغير فهم ما المرء إلا بأكبريه
فقلت قول إمرىء حكيم ما المرء إلا بدرهميه
من لم يكن درهمه لديه فعرسه لا تلتفت اليه

وقال العتابي : الناس لصاحب المال ألزم من الشعاع للشمس ، وهو عندهم ارفع من السماء واعذب من الماء واحلى من الشهد واذكى من الورد ، خطؤه صواب ؛ وسيئه حسنة ، وقوله مقبول ، يغشى مجلسه ولا يمل حديثه .

والمفلس عندهم اكذب من لمعان السراب ، ومن رؤيا الكظة ، ومن مرآة اللقوة ، ومن سحاب تموز ، لا يسأل عنه إن غاب ، ولا يسلم عليه إذا قدم إن غاب شتموه ، وإن حضر طردوه ، مصافحته تنقض الوضوء ، وقراءته تقطع الصلاة ، أثقل من الامانة ، وابغض من السائل المبرم .

قال بعض الشعراء الظرفاء واحسن كل الاحسان مع خلاعته :

اصون دراهمي واذب عنها لعلمي انها سيفي وترسي
واذخرها واجمعها بجهدي ويأخذوارثي منها وعرسي
فيأكلها ويشربها هنيئاً على النغمات من نقر وجس
ويقعدفوق قبري بعد موتي ولا يتصدقن عني بفلس
احب الي من قصدي عظيماً كبيراً اصله من عبد شمس
امد اليه كفي مستميحاً واصبح عبدخدمته وامسي

ويتركني اجر الرجل مني   وقدصارت كنفس المكاب نفسي

ذم المال :

الكتاب والسنة متظاهران في ذم المال وكراهة حبه ، قال الله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا لا تلهكم اموالكم ولا اولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » وقال : « اعلموا انما اموالكم واولادكم فتنة » وقال · « إن الانسان ليطغى ان رآه استغنى » وقال : « واذا انعمنا على الانسان اعرض ونئا بجانبه » .

وقال رسول الله (ص) : « حب المال والشرف ينبتان النفاق كما ينبت الماء البقل » وقال ﷺ : « ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر فساداً من حب المال والجاه في دين الرجل المسلم » .

وقال ﷺ : « يقول الله تعالى · يا ابن آدم تقول مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت ، أو اكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت » وقال (ص) « أخلاء ابن آدم ثلاثة : واحد يتبعه الى قبض روحه وهو ماله ، ، وواحد يتبعه الى قبره وهو أهله ، وواحد يتبعه الى محشره وهو عمله » وقال (ص) : « إن الدينار والدرهم أهلكا من كان قبلكم وهما مهلكاكم » وقال : « لكل أمة عجل ، وعجل هذه الامة الدينار والدرهم »

ووضع أمير المؤمنين عليه السلام درهما على كفه ، ثم قال : « أما انك مالم تخرج عني لا تنفعني » .

وروي ان اول ما ضرب الدينار والدرهم رفعها إبليس ثم وضعها على جبهته ثم قبلها ، وقال من أحبكما فهو عبدى حقاً » وقال عيسى عليه السلام : « لا تنظروا الى أموال اهل الدنيا فان بريق أموالهم يذهب بنور ايمانكم » .

وقال اصحاب الفقر : « الغنى سبب الطغيان قال الله تعالى : « كلا إن الانسان ليطغى ، أن رآه استغنى » . وكان يقال : الغنى يورث البطر ، وغنى النفس خير من غنى المال .

قال محمود النعال :

الفقرخير واقنمن واقتصد   إن من العصمة أن لا تجد
كم واحد اطلق وجدانه   عنانه في بعض مالم يرد
ومدمن للخمر غاد على   سماع عود وغناء غرد
لو لم يجد خمراً ولا مسمعاً   برد بالماء غليل الكبد
كم من بدللفقرعندامرىء   طأطأ منه رأسهحتى اقتصد

وكان يقال : الفقر شعار الصالحين ، والفقر لباس الأنبياء

قال البحتري :

فقر كفقر الانبياء وغربة   وصبابة ليس البلاء بواحد

وكان يقال : الفقر مخف ، والغنى مثقل ، وفي الخبر نجا المخفون . وما احسن قول أبي العتاهية :

ألم تر ان الفقر يرجى له الغنى   وان الغنى يخشى عليه من الفقر

وكان يقال : المال ملول ، المال ميال ، المال غاد ورائح ، طبع المال كطبع الصبي لا يوقف على وقت رضاه ولا وقت سخطه ، المال لا ينفعك حتى يفارقك . والى هذا المعنى نظر القائل :

وصاحب صدق ليس ينفع قربه   ولا وده حتى تفارقه عمدا

يعني الدينار .

وما احسن ماقيل :

وقد يهلك الانسان حسن رياسة   كما يذبح الطاووس من أجل ريشه

وقال آخر :

رويدك أن المال يهلك ربه إذا جم واستعلى وسد طريقه
ومن جاوز الماء الغزير بجمه وسد طريق الماء فهو غريقه

الجمع بين المدح والذم

وجه الجمع بين الظواهر المادحة والذامة : هو ان المال قد يكون وسيلة الى مقصود صحيح هو السعادة الاخروية ، إذ الوسائل اليها في الدنيا ثلاث : وهي الفضائل النفسية ، والفضائل البدنية ، والفضائل الخارجية التي عمدتها المال . وقد يكون وسيلة الى مقاصد فاسدة : وهي المقاصد الصادة عن السعادة الأخروية والحياة الابدية ، والصادة عن سبيل العلم والعمل .

فهو إذن محمود ومذموم بالاضافة الى المقصودين . فالظواهر الذامة محمولة على صورة كونه وسيلة الى مقاصد فاسدة ، والمادحة على صورة كونه وسيلة الى مقاصد صحيحة . ولما كانت الطبائع مائلة الى اتباع الشهوات القاطعة لسبيل الله ، وكان المال مسهلا لها وآلة اليها، عظيم الخطر في ما يزيد على قدر الكفاية استعاذ طوائف الانبياء والاولياء من شره ، حتى قال نبينا (ص) : « أللهم اجعل قوت آل محمد كفافا » وقال(ص) «أللهم احيني مسكيناً وامتني مسكيناً»

عن هرب الانبياء والاولياء من المال :

وهرب الانبياء والاولياء من المال وفرارهم عنه ، وترجيحهم فقده على وجوده كما تشير الاخبار والآثار ، إما نزول منهم الى درجة الضعفاء ليقتدوا بهم في الترك ، إذ الكمال في حقهم حب الترك وبغض الوجود ، لان مع وجوده يتعذر في حقهم استواء وجوده وفقده ، وكونه عندهم كماء البحر ، فلو لم يظهر الانبياء والاولياء النفار والكراهية من المال ، ويقتدي الضعفاء بهم في الاخذ لهلكوا ، فمثل النبي كمثل المعزم الحاذق يفر بين يدي اولاده من الحية لالضعفه عن أخذها بل لعلمه بأنه لو اخذها لأخذها اولاده ايضاً إذا رأوها وهلكوا فالسيرة بسيرة الضعفاء صفة الانبياء والاوصياء . او غير الهرب والنفار اللازمين للبغض والكراهة وخوف الاشتغال به ، بل كان نفارهم منه كنفارهم من الماء على معنى أنهم شربوا منه بقدر حاجتهم ، وتركوا الباقي في الشطوط والانهار للمحتاجين من غير اشتغال قلوبهم بحبه وبغضه ، فقد حملت خزائن الارض الى رسول الله (ﷺ وخلفائه المعصومين (سلام الله عليهم) فأخذوها ووضعوها في مواضعها من غير هرب منه وبغض له ، وذلك لاستواء المال والماء والحجر والذهب عندهم .

وجهة أهل البيت (ع) نحو المال :

« لو أراد أهل البيت الثروة لسمت اليهم دون أن يسعوا اليها ، فقد كان شيعتهم منتشرين في عهد الأئمة (عليهم السلام) في بلاد العرب والعجم ، وما

من شيعي يملك كثيراً أو قليلا من المال إلا ويعتقد أن للامام فيه الخمس حقاً مفروضاً في كتاب الله وسنة نبيه ، هذا الى أن ما من خليفة أو سلطان أو وزير أو أمير إلا يود أن يشتري رضاهم وسكوتهم بكل ثمين ، وقد استفاد كثيرون من الصحابة أموالا طائلة لا لسبب سوى اسم الصحبة .

روى المؤرخون : إنه كان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومأة ألف دينار ، وألف الف درهم ، وقيمة ضياعه مئة الف دينار ، خلف إبلا وخيلا كثيرة . وبلغ الثمن من متروك الزبير خمسين الف دينار ، وخلف الف فرس والف أمة وكانت غلة طلحة من العراق الف دينار كل يوم ، ومن ناحية السراة أكثر من ذلك .

وكان على مربط عبد الرحمن ألف فرس ، وله ألف بعير ، وعشرة آلاف من الغنم وخلف زيد بن ثابت من الذهب والفضة ما يكسر بالفؤوس .

هذا في حين ان أمير المؤمنين علي عليه السلام وهو من أخص الاصحاب بالرسول وأفضلهم ، قد باع سيفه ، وقال : لو كان عندي عشاء ما بعته ،

إن علياً عليه السلام لا يتنكر لمبدأه ، ولا يناقض نفسه بنفسه ، قاتل مع الرسول أهل الثراء على شركهم وثرائهم ، فكيف يفعل اليوم ما أنكره بالأمس كما فعل بعض الاصحاب .

إن اهل البيت ينظرون الى المال على أنه وسيلة لا غاية ، وسبيل الى سد حاجة لا تقضى بدونه ، فما أدى الى الواجب فهو خير وصلاح ، وما زاد عنه فهو شر وفساد .

قال رجل للامام الصادق عليه السلام . إنا لنحب الدنيا . قال : تصنع بها ماذا ؟ قال : أتزوج منها ، وأحج ، وأنفق على عيالي ، وأنيل اخواني واتصدق . قال : ليس هذا من الدنيا ، هذا من الآخرة .

إن طلب الدنيا سداً لحاجاتها المادية والروحية ، طلب لحياة البقاء والنعيم

وطلبها ابتغاء علو أو فساد في الارض ، طلب لحياة الفناء والجحيم .

فالمال ، إذن ، وسيلة لغيره لا غاية في نفسه ، يكون طيباً ، إذا حقق العدالة والمساواة ، ورفع حياة المجتمع الى مستوى أعلى ، ويكون خبيثاً ، إذا أدى الى الظلم والطغيان ، وعاق الحياة عن التقدم والتطور .

أما الفقر فهو كالظلم والاعانة على الاثم ، خبيث بذاته لا يكون طيباً بحال من الاحوال ، لأنه مصدر المرض والجهل . قال الرسول الاعظم محمد ﷺ : « الفقر هو الموت الاكبر » وقال : « الفقر سواد الوجه في الدارين » . وقال الامام علي عليه السلام لولده محمد بن الحنفية : « يابني اني اخاف عليك الفقر ، فاستعذ بالله منه ، فان الفقر منقصة للدين ، مدهشة للعقل ، داعية للمقت » وقال : الغنى في الغربة وطن ، والفقر في الوطن غربة » كاد الفقر ان يكون كفراً ، فكيف يرضى به العادل الحكيم لمخلوق ! إن الله سبحانه يريد لعباده القوة والكرامة ، ولا يريد لهم الضعف والهوان وبامكاننا ان نتصور التفاوت والتفاضل بين الناس في الرزق ، ومايزيد عن قدر الحاجة لسبب معقول عند الله والعدالة ، فيرزق هذا عشرة ، وذاك ألف . أما التفاوت في أصل الرزق والعيش فيأخذ هذا بين مئآت الملايين ، ويحرم الألوف من قوت يومهم ، فقضاء الله وعدله بريئان من هذا الظلم والاجحاف .

وبعد هذا نستمع الى بعض الاحاديث المنسوبة الى الرسول الاعظم في فضل الفقر

في كتاب (إحياء العلوم) للغزالي ، ـ باب الفقر ـ عن النبي ﷺ إنه قال : « إذا أحب الله عبداً الحب البالغ لم يترك له أهلا وولداً » .

ولو صح هذا الحديث لكان علينا ، إذا حرصنا على طاعة الله ومرضاته أن نبتهل اليه ، ونسأله ان يهلك الحرث والنسل ، ويسلط علينا الفقر والمرض . أبهذا الحديث وامثاله دعا النبي الى الاسلام ! واقنع الناس بصدقه ورسالته ، ودخلوا في دين الله افواجاً ! لقد كان النبي والانبياء من قبله ، والاولياء من

بعده يستعيذون بالله من الفقر . من بلاء الدنيا والآخرة . قال أحد الاصحاب المقربين الى الرسول · اللهم إني اسألك الصبر . فقال له الرسول : لقد سألت الله البلاء ، فاسأله العافية .

أراد ولاة الحكم ان يدوم لهم النفوذ والسيطرة ، والظلم والطغيان فأوعزوا الى أذنابهم الخونة ان يضعوا أحاديث يصوغون للناس منها قيوداً واغلالا تساعدهم على استعباد الاحرار ، واستغلال الجماهير ، فلفقوا أحاديث على لسان الانبياء مرغبين في الخنوع والخضوع ، والخدمة والاستسلام .

وقد روى الرواة عن الرسول ﷺ انه قال : خير الامة فقراؤهـا . الفقراء أحباء الله ، وجلساؤه يوم القيامة · اطلبوا الله عند الفقراء . إن الله يستحي من سؤال الفقير وحسابه . إن اكثر اهل الجنة الفقراء ، واكثر أهل النار الاغنياء . الى ما هنالك من الاحاديث الدالة على ان الفقراء ـ وهم الاكثرية الغالبة ـ اطيب العناصر واقربها الى الحق ، وابعدها عن الباطل .

كان الفقراء ، وما زالوا القوة والعدة في يد كل مصلح يريد الخير والنفع لأمته ، فيهم انتصر محمد ﷺ على الظلم والشرك ، ومنهم حواريوا المسيح ﷺ ولولاهم لما تحررت الشعوب من طغاة الاستعمار ، ولما عمل بحق من حقوق الانسان ، اما المترفون الذين لا يتورعون عن الحرام فهم اعداء الانبياء والانسانية ، وحجر عثرة في سبيل كل تقدم واصلاح ، قال الله سبحانه : « وما ارسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوهـا إنا بما أرسلتم به كافرون » كفروا بالعدالة والحرية . وآمنوا بالسلب والنهب ، بكسب المال من غير حل وإنفاقه في غير حله ، بكسبه من الغش والتدليس والاحتكار ، وتبذيره على الفسق والفجور .

واذا كان الغنى أو الافراط فيه يبعث على الطغيان ، فأن الفقر يضعف المرء

عن القيام بالواجب . والخير كل الخير عند اهل البيت ان يكون للانسان رزق حلال يكفيه ، لاغنى يطغيه ، ولا فقر يشقى به ، وكان الامام يقول في دعائه : « اسألك اللهم الرفاهية في معيشتي ما أبقيتني ، معيشة اقوى بها على طاعتك ، وأبلغ بها رضوانك ، واصير بها إلى دار الحيوان ، وارزقني رزقاً حلالا يكفيني ولا ترزقني رزقاً يطغيني ،ولا تبتلني بفقر أشقى به ».

وقال الامام الصادق (ع) : ان النبي (ص) قال : « ماقل و كفى خير مما كثر والهى . . . اللهم ارزق محمداً ومن احب محمداً وآل محمد العفاف والكفاء ».

وصل الى أيدي اهل البيت اموال طائلة فوزعوها على المعوزين ، وابقوا منها لأنفسهم الكفاف ، كانت غلة الامام أربعين الف دينار جعلها كلها صدقة . مر ذات يوم على جماعة من قريش ، وعليه قميص مخرق ، فسمعهم يقولون : اصبح علي ولا مال له فارسل الى وكيله على املاكه ان لايوزع من الناتج شيئاً كما كان يفعل ، وان يبيعه بكامله ويرسل اليه الثمن ، ولما اجتمعت عنده الأموال بعث الى رجل رجل منهم يدعوه ، ولما حضروا ضرب المال برجله فانتشر هنا وهناك ، فقالوا : ما هذا ياابالحسن ؟ قال : هذا مال من لامال له ، ثم امر وكيله ان يوصل المال الى من كان يصلهم به .

وسمع الحسن (عليه السلام) رجلا يسأل الله ان يرزقه عشرة آلاف درهم فذهب الى منزله وبعث بها اليه .

وكان معاوية يرسل الى الحسين (عليه السلام) مليون درهم في كل سنة فيأخذها ويوزعها على الأرامل والايتام الذين قتل معاوية آباءهم في صفين ، ويعيش هو عيش الكفاف .

وكان الامام زين العابدين (عليه السلام) يعول مئة بيت ، ولما مات قال اهل المدينة مافقدنا صدقة السر حتى مات زين العابدين .

وكان الامام الباقر(ع) يطعم الناس ويكسوهم ويوزع الاموال من خمس مئة الى الف لكل انسان .

وكان الامام الصادق(ع) يطعم الناس ولايبقي لعياله شيئاً .

وكان الامام الكاظم (ع) يعول اكثر من خمس مئة نفس .

وبالتالي ، فان طلب المال في نظر اهل البيت يكون حسناً ، ويكون قبيحاً لانه مقدمة لغيره ، وليس بغاية في نفسه ، فان أدى حتماً الى الحرام فهو قبيح مذموم ، وان كان مقدمة لواجب فحسن مشكور . (١)

---

(١) أهل البيت ، تأليف محمد جواد مغنية .

حق الغريم

قوله (عليه السلام):

« وحق غريمك الذي يطالبك، فان كنت مؤسراً أعطيته، ولم تردده وتمطله، فان رسول الله (ص) قال: « مطل الغني ظلم ». وان كنت معسراً أرضيته بحسن القول، وطلبت إليه طلباً جميلا، ورددته عن نفسك رداً لطيفاً، ولم تجمع عليه ذهاب ماله وسوء معاملته، فان ذلك لؤم، ولا قوة إلا بالله ».

* * *

من الصعب جداً على معظم الناس أن تكلفهم مزاولة الفضائل، والتحلي بها، والسير في حياتنا وعلاقتنا تحت إشرافها ورعايتها.

إن فهم الفضيلة حق الفهم، ومعرفة حدودها حق المعرفة، والانقياد لها في المواقف الزلقة، حيث تتوفر المغريات، وتتعارض المنافع، وتنشط دواعي الجريمة والسوء، شيء صعب وتكليف للناس بما لا يطيقون، وإنما غاية ماتؤثر الفضيلة في فئة قليلة من الناس، تمارس الفضائل وتتلقن المبادىء وتؤخذ انفسها برياضة شاقة حقبة من الزمن، لتكون لها ممارسة الفضيلة عادة مألوفة، وعملا بينها وبينه نسب وصلة من الممارسة والتمرين، ولا بد أن تكون تلك النفوس كما قال أرسطو: «قلوبها شريفة بالفطرة، اصدقاء للفضيلة، اوفياء بعهدها». هؤلاء الناس قليلون جداً في خضم الحياة الزاخر بالشهوات والاندفاعات والمنافع والأغراض.

إذن نستطيع ان نوفر على الناس الجهود، ونقدم لهم من كتاب الله وسنة رسوله، وحديث اهل البيت، مايكون زاداً لكل راغب وعدة لكل خائض معترك الحياة، عدة وافية تقيه الغرق في تياراتها العنيفة، وتقيه الزلق إذا مشى

على مزالقها التي تزل فيها الاقدام ، وتتهاوى الرجال صرعى ، اوغرقى او ملوثة .

الانسان بما انه اجتماعي لابدله من تعاون قهري ليس له فيه اختيار ، بل هو ملزم ان يبادل المنافع ليستطيع ان يحيا بين الناس ، وهناك التعاون الاختياري ، وهذا هو فضيلة لها اثرها الحميد وعطرها الدائم وشرفها المرموق بين الناس

قال الله تعالى : «وتعاونوا على البر والتقوى ».

وقال رسول الله (ص) « الخلق عيال الله وأحب الخلق الى الله من نفع عيال الله وادخل على بيت أهل الله سروراً » .

وقال (ص) : « خصلتان من الخير ليس فوقهما شيء من البر : الايمان بالله والنفع لعباد الله » وسئل من أحب الناس لله ؟ قال انفع الناس للناس » .

وقال الامام الصادق (عليه السلام) في تفسير «وجعلني مباركاً أينما كنت»: جعلني نفاعاً .

وقال « من كان وصولا لاخوانه بشفاعة في دفع مغرم أوجر مغنم ثبت الله قدميه يوم تزل فيه الاقدام » .

وقال : تنافسوا في المعروف لاخوانكم ، وكونوا من اهله ، فان للجنة باباً يقال له المعروف ، فان العبد ليمشي في حاجة اخيه المؤمن ، فيوكل الله به ملكين: واحد عن يمينه وآخر عن شماله يستغفران له ربه ويدعوان بقضاء حاجته ، ثم قال: والله لرسول الله اسر بقضاء حاجة المؤمن إذا وصلت اليه من صاحب الحاجة»

وقال : من مشى في حاجة اخيه المؤمن يطلب بذلك ماعند الله حتى يقضي له ، كتب الله له بذلك مثل اجر حجة وعمرة مبرورتين ، وصوم شهرين من اشهر الحرم ، واعتكافها في المسجد الحرام ، ومن مشى فيها بنية ولم يقض كتب الله له بذلك حجة مبرورة فارغبوا في الخير » .

وقال : « أيما مؤمن نفس عن مؤمن كربة ، وهو معسر يسر الله له حوائجه

في الدنيا والآخرة ، ومن ستر على مؤمن عورة يخافها ستر الله عليه سبعين عورة من عورات الدنيا والآخرة والله في عون المؤمن ما كان المؤمن في عون اخيه ، فانتفعوا بالعظة ، وارغبوا في الخير » .

وقال : من أغاث اخاه المؤمن اللهفان عند جهده ، فنفس كربته واعانه على نجاح حاجته ، كتب الله له بذلك اثنتين وسبعين رحمة ، يعجل له منها واحدة يصلح بها امر معيشته ، ويدخر له احدى وسبعين رحمة لافزاع يوم القيامة واهواله »

هذه الأحاديث تعطينا درساً على ان الدين الاسلامي غرضه سعادة المجتمع ، والتعاون على متاعب الحياة ، وهي ارفع قدراً من الأمور العبادية ، حيث ان العبادة نفعها شخصي وهذه الأعمال تعم المجتمع .

وتدلنا هذه الأحاديث ايضا على التعاون الاختياري ، سواء كان الباعث قوياً على التعاون ام كان ضعيفاً ؟ فالمعين على قضاء حوائج الناس له عند الله منزلة رفيعة وإن لم تكن الحاجة شديدة إلى المعاونة ، فاذا كان الانسان في ضيق من الامر ، قد احاطت به مفاجئة الحوادث بما يضيق الخناق عليه ، عند ذاك تكون المعاونة الزم .ولو فرضنا ان رجلا استعان بآخر على دفع مظلمة ، او قضاء حاجة ،او كشف غمة اوإزاحة مصيبة ، وهو قادر على ان يقوم بحقه ولم ينقذه مما هو فيه ، فقد تعرض لمقت الله .

روى علي بن جعفر عن أبي الحسن قال : سمعته يقول : « من قصد اليه رجل من إخوانه مستجيراً به في بعض احواله فلم يجره بعد ان يقدر عليه، فقد قطع ولاية الله » .

معنى قطع ولاية الله: ان المسلم بمقتضى إسلامه فقد التزم أن كل مسلم هو أخ له ، يشاركه شعوره ويشاطره همومه ، يفرح لفرحه ويحزن لحزنه ، فاذا لم

يقم بالواجب الذي يدعو اليه الاسلام ، فقد قطع ولاية الله ، ولم يكن متحلياً بالصفات الاسلامية التي ينبغي ان يكون عليها ، وهذا هو بلاؤنا الذي نكابده ونعانيه ، فلو أن المسلمين يحملون هذه المزايا ، لم نبلغ هذا الوهن ، وهذا التفكك ولم تصبح اوطاننا مسرحاً ومرتعاً لقوم آخرين ، وسياستنا وإدارتنا بتوجيهات أعدائنا ، وصح قول القائل :

ولنحن أعلم من هم ولمن هم ولمن تمثل هذه الأدوار
ومن المصرف من فضول عنانهم ولمن يعود الورد والاصدار

قال رسول الله (ص) : « من احتاج اليه أخوه المسلم في قرض وهو يقدر عليه فلم يفعل ، حرم الله عليه ريح الجنة » .

وقال : « من أقرض مؤمناً قرضاً ينتظر به ميسوره ، كان ماله في زكاة ، وكان هو في صلاة من الملائكة حتى يؤديه اليه ».

وقال علي زين العابدين (عليه السلام) : « إني لأستحي من ربي ان ارى الأخ من إخواني ، فأسأل الله الجنة ، وابخل عليه بالدينار والدرهم ، فاذا كان يوم القيامة قيل لي : لو كانت الجنة لك لكنت بها ابخل » .

وقال الامام الصادق (عليه السلام) : « على باب الجنة مكتوب : القرض بثمانية عشر ، والصدقة بعشرة ، وذلك ان القرض لايكون إلا في يد المحتاج ، والصدقة ربما وقعت في يد غير محتاج ».

وقال : « من أقرض قرضاً فضرب له اجلا فلم يؤت به عند ذلك الأجل ، فان له من الثواب في كل يوم يتأخر عن ذلك الأجل بمثل صدقة دينار واحد في كل يوم » .

هذه الايحاءات الايمانية التربوية الكريمة من ائمة الهدى ـ سلام الله عليهم اجمعين ـ تستفز النفوس وتحفز الهمم بالدعوة إلى القرض ، الذي هو عبارة عن

إعطاء الانسان شيئاً من المال ، على ان يرد اليه مثله ، وان هذا المال لايذهب بالقرض ، إنما هو قرض حسن لله ، مضمون عنده يضاعفه اضعافاً كثيرة . يضاعفه في الدنيا مالا وسعادة وراحة ، ويضاعفه في الآخرة نعيماً ومتاعاً ورضى .

ولا شك ان القرض لون من الوان التعاون والبر بين الناس : كالهبة والوصية ، حيث يضع صاحب المال ماله في حاجة المحتاج ، يمده به ، ويصبر على الاداء الى ان يؤسر المدين وليس كهذا العمل عمل يؤلف بين الناس ، ويوثق روابط المودة والرحمة بينهم .

هذا اللون من التعاون هو الذي ينمي المودة ، ويليق بالمروءة ، ويكفل التضامن بين الجماعة : غنيها وفقيرها ، قادرها وعاجزها ، فلا فضل للمال في ذاته ، إنما هو الانتفاع به والجهد فيه ، فوجوده في يد لا يبرر ان تحصل به لذاته على فائدة ، والذي يقترضه هو الذي يجهد فيه ، فيجب أن تعود غلة الجهد ، وأن يعود المال مفرداً - بلا زيادة - لصاحب المال .

وإنه ليستوي أن يكون القرض للاستهلاك أو الانتاج في عرف الاسلام ، فانه إن كان للاستهلاك - أي لينفقه المستقرض على حاجاته الضرورية - فانه لا يجوز أن يرهق برد فائض عن قرضه ، فحسبه ان يرد أصل القرض عند الميسرة ، وإن كان للانتاج فالاصل أن الجهد الذي يبذله هو الذي ينال عليه الربح ، لا المال الذي يستقرضه فالمال لا يربح إلا بالجهد ، والجهد هو المعول عليه في الاسلام . لذلك يحرم الربا في جميع الاحوال ، ويحتم إقراض المستقرض لضروراته في جميع الاحوال .

ولست الآن في صدد التكلم حول هاتين المسألتين - القرض والربا - من جهة الحكم فيهما . فان استحباب الاول وحرمة الثاني معلوم بالضرورة من الشرع الاسلامي والنص فيهما من الكتاب والسنة مستفيض صريح . واليكم البعض مما جاء في ذلك.

فمما جاء في استحباب القرض من الكتاب قوله تعالى في آية ٢٤٥ من سورة البقرة : « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط واليه ترجعون »

وفي آية ١٨ من سورة الحديد « إن المتصدقين والمتصدقات واقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم » .

وفي الآية ١٣ من سورة المائدة في حكاية خطابه لبني اسرائيل « لئن اقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لا كفرن عنكم سيئاتكم ولادخلنكم جنات تجري من تحتها الانهار »

وفي الآية ١٧ من سورة التغابن : « إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم » .

ومما جاء في الحث على القرض من السنة ما روي عن أبى عبد الله جعفر ابن محمد الصادق (ع) : « ما من مسلم أقرض مسلماً قرضاً حسناً يريد به وجه الله إلا حسب له أجرها ـ أي تلك الدراهم التى قرضها ، كحساب الصدقة حتى يرجع اليه » . يعني ذلك القرض .

هذه جملة وجيزة مما جاء في الكتاب والسنة في الحث والترغيب على القرض

ومما جاء في تحريم الربا من الكتاب قوله تعالى في آية ٢٧٥ من سورة البقرة : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا ، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وامره الى الله ، ومن عاد فأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون ، يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار اثيم » .

وفي آية ٢٧٨ منها : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ، فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم

رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » .

وفي آية ١٣٠ من سورة آل عمران : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

وفي آية ١٥٩ من سورة النساء : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات احلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الربا وقد نهوا عنه واكلهم أموال الناس بالباطل واعتدنا للكافرين عذاباً أليماً » .

ومما جاء في تحريم الربا من السنة ما عن امير المؤمنين علي (ع) عن رسول الله ﷺ حيث قال : « يا علي درهم ربا اعظم عند الله من سبعين زنية كلها بذات محرم في بيت الله الحرام » .

وجاء عنه (ع) : « شر المكاسب كسب الربا » .

وعنه (ع) : « لعن رسول الله ﷺ الربا وآكله وبايعه ومشتريه وكاتبه وشاهديه » والاخبار في ذلك كثيرة والاستقصاء خروج عن الموضوع والجهة التي نحن بصددها الآن هو التنبيه على الحكمة في استحباب القرض وحرمة الربا :

فان كثيراً من الناس في هذا العصر لايكادون يؤمنون بالشيء حتى يقفوا على حكمته ، والسر الداعي إلى تشريعه ، وهذا وإن كان منهم خروجاً عن الادب مع الله ورسوله ، بل خروجاً عن الايمان والاستسلام لاوامر الله ونواهيه ، وذلك أنه ليس على الله إلا بيان امره ونهيه ، وعلى العباد امتثال ذلك ، سواء علموا المصلحة والحكمة أم لم يعلموا ، ولو فرضنا محالا انه يجوز على الله المالك ان يأمر بشيء لا مصلحة فيه ، او ينهى عن شيء لا مفسدة له ، فهل يجوز للعبد المملوك ان يعارض مالكه فيما امره ونهاه ، وهل يصح له الامتناع عن طاعته معتذراً عن ذلك بعدم المصلحة فيما امر ، وعدم المفسدة فيما نهى ، وهل

يجتمع هذا مع الايمان ، « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » . فهذا وان كان خروجاً منهم ، والله سبحانه يريد الايمان به والتصديق برسله والاستسلام لأمره على كل حال إلا انه لطفاً منه لم يبخل على العباد في بيان الحكم والمصالح الملحوظة في تشريع ما اوجب وحرم .

والذي نفهمه في تشريع استحباب القرض مضافاً الى انه إفضال وإحسان والاحسان حسن على كل حال ، إن الله اراد ان يقوي المسلمين ويزيد في عددهم ومددهم ، وذلك امر لا يحصل إلا بالاجتماع والتعاون ، والاجتماع والتعاون وليد الحب والحب وليد الافضال والاحسان .

ذكر ابن خلكان في ترجمة الربيع بن يونس : ان المنصور العباسي قال له يوماً : يا ربيع سل حاجتك . قال حاجتي ان تحب الفضل ابني . فقال له ويحك ان المحبة تقع بأسباب . فقال له : قد امكنك الله من ايقاع سببها . قال : وما ذاك . قال : تفضل عليه فانك اذا فعلت ذلك احبك ، واذا احبك احببته . والله تعالى اراد ان يجري الامور بأسبابها ، ولما بالقرض من التسبيب للمحبة امر به .

فاذن هو يوجب القوة في المسلمين من جهتين : تارة من جهة انه افضال يولد المحبة ، والمحبة تستدعي الاجتماع والتعاون ، وهما يقتضيان القوة . وتارة من جهة انه تعاون بالفعل وقوة بالبداهة ، فان الغني اذا امد الفقير بما هو زائد عنده من المال كان ذلك قوة للغني بالرجال وللفقير بالمال ، ومن هنا ترى الله تعالى حيث اراد تقوية المسلمين حثهم على الاسباب التي تقتضي ذلك ، وما المؤاخاة التي دعاهم اليها والمواساة التي حثهم عليها وغير ذلك من كثير مما امر إلا امور تأخذ بأيدي المسلمين الى هذا الغرض ، وترفعهم على ذلك العرش ، ألا تنظرون

الى قول رسول الله ﷺ : « لن تدخلوا الجنة حتى تسلموا ولن تسلموا حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا » كيف يبين لكم أن التحابب أصل يتفرع عليه الايمان وأساس تبتني عليه حقائق الاسلام . وهل استطاع ﷺ أن يصنع ما صنع وان يفتح بتلك المدة اليسيرة ما فتح إلا بما عقد في قلوب المسلمين من عقد الاخاء ، واحكم فيما بينهم من محكمات المودة التي جعلتهم على اختلاف نزعاتهم وتباعد بيئاتهم وتباين قومياتهم كتلة واحدة ومجتمعاً واحداً .

ثم نعود الى بيان الحكمة في تشريع تحريم الربا مجملا ، حيث استوفينا موضوعه في المجلد الثاني من (كتابنا الجواهر الروحية) فنقول : الربا لما كان يضاد ذلك ويعارضه ، ويغرس في نفوس المسلمين من العداوة والبغضاء ، عكس ما يغرسه القرض من المودة والاخاء ، نهى الله تعالى عنه وشدد النكبة على أهله بما سمعتم من البيان ، حتى جاء في الحديث عن أبي عبد الله الصادق (ع) إنه قال : « إذا أراد الله بقوم هلاكاً ظهر فيهم الربا » . ومما يوضح ما قررنا من الحكمة في تشريع تحريم الربا ما جاء في الخبر عن سماعة قال : « قلت لابي عبدالله عليه السلام إني قد رأيت الله تعالى قد ذكر الربا في غير آية وكرره ، قال : أوتدري لم ذلك قلت لا : قال : لئلا يمتنع الناس من صنائع المعروف » .

وأوضح من ذلك ماجاء عن الامام الرضا (ع) حيث يقول : فيما روي عن محمد ابن سنان « وعلة تحريم الربا بالنسيئة لعلة ذهاب المعروف وتلف الاموال - يعني بترك التجارة ورغبة الناس في الربح وتركهم القرض ، والقرض صنائع المعروف »

ويشير الى ذلك أيضاً ما نراه في سياق الآيات المترادفة في تحريم الربا بعد الآيات المتتالية في الحث على الصدقات، فقال في آخر آيات الانفاق : « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية ، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ثم أتبعها بلا فصل بقوله تعالى شأنه : « الذين يأكلون الربا

لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » الآية .

ومن هذا البيان يفهم ان ما يحاوله المسلمون اليوم من التقدم الى ما بلغه المسلمون بالأمس لا يكون إلا بالسير على الطريقة التي دلهم الله عليها ، والقيام بالاعمال التي ندبهم اليها ، وانهم لم يتأخروا إلا بتضييعها والتنكب عنها . وما ربك بظلام للعبيد .

ولنعد الى اصل الموضوع (القرض) : واذا اقترض واعسر « فنظرة الى ميسرة » وهذه الصيغة تفيد الامر لا الندب ، وبجوارها التحبيب في التيسير والسماحة ، كقول الرسول ﷺ : « رحم الله رجلا سمحاً اذا باع ، واذا اشترى واذااقتضى » فالسماحة في الاقتضاء تحفظ للمقرض كرامته ، وتغرس المودة في نفسه لمستقرضه ، وتحثه على الجهد في الاداء قدر طاقته . قال ﷺ : « من سره ان ينجيه الله من كرب يوم القيامـــة ، فلينفس عن معسر أو يضع عنه » .

وقال : « من أنظر معسراً أو وضع له ، أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله » .

ويفرض الاسلام في مقابل هذا على المستقرض أن يجتهد في رد القرض إبراء لذمته ، ورداً لفضل الاقراض بفضل الوفاء ، وتمكيناً للثقة في المعاملات بين الافراد .

قال ﷺ : « من أخذ أموال الناس يريد اداءها أدى الله عنه ، ومن اخذها يريد اتلافها اتلفه الله » .

فمن اخذها يريد اداءها جد وكد ليكتسب ويسترزق ، وغالباً ما يكسب المجد الصادق العزيمة . ومن اخذها يريد إتلافها استمرأ ان يعيش بأموال الناس وقعد عن العمل والجهد ، فاسترخى وسقطت همته وآض الى تلف وبوار .

قال ﷺ : « مطل الغني ظلم » .

إن من يقترض اموال الناس لحاجة من حاجه ، عازماً على اداءها في الموعد المضروب ، او حين يقع في يده مال ، فهذا يؤدي الله عنه ديونه ، فيفتح له من ابواب الرزق مالم يكن يحتسبه ، مكافاة له على نيته الصالحة وعزمه المحمود .

على أن لتلك الارادة أثراً في اكتساب الرزق ، فانها لا تزال بصاحبها تدفعه الى تلمس أبواب المكاسب ، والبحث عن طرق المال ، حتى يهتدي اليها ويؤدي ديونه . ومثل هذا من يشتري من التجار طعامه وشرابه وحاجياته الأخرى ، أو بضاعة يتجر فيها الى أجل ، وليس بيده ما يدفعه نقداً ، فان عزم على الاداء والوفاء يسر الله له المال حتى يوفي بما عاهد . أما من استقرض أو اشترى شيئاً قرضاً ، أو طلب الى الناس أن يودعوه أموالهم أو استعار أو استأجر عازماً على الجحود والانكار ، أو الاتلاف والاهلاك ، فان الله تعالى يتلفه فيوقعه في خبث نيته وسوء ظنه ، ويفتح له من أبواب النفقات ما يذهب بماله ، طارفه وتليده ، أو يسلط عليه من البلايا والمصائب ما يستأصل ملكه ، أو يرسل اليه جيشاً من الامراض الفتاكة يعمل في نفسه واهله وولده ما يحرمهم لذة الحياة ونعيمها الى عذاب في الآخرة شديد .

وهل رأيت غنياً في مال غيره المغصوب متنعماً ؟ ولئن ضحكت له الدنيا أياماً أو سنيناً استهزاء به واستدراجاً ، لهي كاشرة له عن أنيابها ، ثم تلتهمه التهاماً ، « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون » . « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار » فالنية الصالحة والارادة الصادقة لها أثرها في كسب المال والهداية لسبله . والنية الخبيثة جائحة المال ومبددة الثروة ، والقاضية على صاحبها بالفقر والمتربة .

فلا تستقرض إلا عند الحاجة ، وإن استقرضت فاعزم على الوفاء ، ومهد

لتنفيذ العزم بتذليل الاسباب ، والبحث عن مسالك المال ، وحذار ان تأخذ أموال الناس في صورة قرض ، وطوية نفسك غصب وسرقة وانتهاب وخيانة ، فتكون غشاشاً لمن أعانك بل تكون منافقاً تبدي للناس غير ما تضمر ، ولاتنس قول الله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى اهلها ».

فالحديث يحض على الاخلاص في النية ، وعلى أداء الحقوق ، ويتوعد من يضمر الشر او يستاب أموال الناس بالطرق الخفية .

ولحرص الاسلام على هذا اللون من المعامـلات بين الناس ، ورغبته في إبقائها سليمة تؤدي وظيفتها الانسانية في الحياة ، أخذ كلا من المقرض والمقترض بأدب سمح كريم ، به تتم هذه النعمة ـ نعمة التعاون ـ وتدوم .

فأولا : حث المؤسرين على إمهال المعسرين من المقترضين ، ومطالبتهم بالحسنى ، لقول الله تعالى : « وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة » . ولقول الرسول الكريم محمد ﷺ : « رحم الله رجلا سمحاً اذا باع سمحاً إذا اشترى سمحاً اذا اقتضى » . ـ أي طلب قضاء قرضه في سماحة ويسر ـ .

ثانياً : وصى المقترض بحسن أداء ما اقترض في أول فرصة تسنح له ، وذلك أقل ما يجب عليه تلقاء من مد اليه العون في ساعة العسرة ، يقول الرسول الاكرم محمد (ص) : « مطل الغني ظلم » وكيف لا يعتبر ظلماً ؟ إنه إزراء بالمروءة والفضل ، واعتداء على شريعة الوفاء والانصاف ، وإذا مطل الانسان والتوى في أداء القرض كان مسبباً في حرمانه من الاستدانة مرة اخرى ، لأن المقرض سوف لا يطمئن ولا يثق بمثل هذا الشخص الملتوي .

هذا إذا كان المستقرض مؤسراً ، أما اذا كان معسراً فلا أقل من أن يرضي صاحبه بلين القول ولطف الكلام : على وجه يشعره بالحمد لصنيعه والشكر لمعروفه ، على ما أوضح الامام ؑ بقوله : « إرضيه بحسن القول ، واردده

رداً لطيفاً ، ولم تجمع عليه ذهاب ماله وسوء معاملته » . فان لم يكن كذلك فانه يترك أثراً بعيداً في نفس المقرض ، بأن تأخذ ماله ، ثم لا تعيده اليه بل تقابله حتى المطالبة بالقول الغليظ والكلام الخشن ، فليس شيء أدل على اللؤم وخسة النفس من أن تجمع على غريمك ذهاب ماله وسوء المعاملة .

وجماع القول : مما يحقق الثقة بالمرء أداؤه لحقوق الناس ، ولو لم يكن من كبار المثرين . ومما يزلزل الثقة او يزيلها تلكؤه في اداء الحقوق ، ولو كان في مقدمة الاغنياء المؤسرين . والثقة رأس مال كبير ، تسهل للمرء طرق أبواب التجارة وإن كان ماله قلا ، وتقرب اليه جيوب الناس وخزائنهم ، وان لم يكن ملياً ، فلا جرم حذر الرسول (ص) مما ينزع الثقة بالمرء من نفوس الناس ، وهو المماطلة .

ولقد عرف علماء الاخلاق : العدل بأنه إعطاء كل ذي حق حقه .

ولما كانت مماطلة الغني القادر على الدفع ، وتأخره في اداء الحقوق منعاً للحق عن صاحبه ، عدها الرسول (ص) ظلماً بقوله « مطل الغني ظلم » .

وقال ابن الفضل :

أثروا ولم يقضوا ديون غريمهم والليؤم كل اللؤم مطل المؤسر

وقال آخر :

إذا اتت العطية بعد مطل فلا كانت وإن كانت سنية

ومن كلام الحسن بن سهل : المطل يذهب رونق البر ، ويكدر صفو المعروف ، ويحبط اجر الصدقة ، ويعقل اللسان عن الشكر ، وللتعجيل حلاوة وإن قلت العارفة ، ولذة وان صغرت الصنيعة ، وربما عرض ما يمنع الانجاز من تعذر الامكان وتغير الزمان ، فبادر المكنة وعاجل القدرة ، وانتهز الفرصة

قال الشاعر :

لو علم الماطل ان المطال　　فقد به يذهب طعم النوال
وإن أعلى البر ما ناله　　طالبه نقداً عقيب السؤال

فالماطل ظلم غيره بتأخير حقه بدون عذر ، بل ظلم نفسه إذ حرمها الثقة ، وعرضها للطعن والثلب في الحياة ، ولعقوبة الله في الآخرة .

فمن كان مديناً في تجارة أو متاع اشتراه ، أو كان قبله حقوق لرعيته أو لمن تحت يده ، إن كان ملكا أو أميراً أو رئيساً او وزيراً ، أو كان عليه نفقة لزوجه ، او والده او ولده او قريبه او عبده ، او كان عليه زكاة وغيرها من الحقوق الشرعية ، وحل موعد الدفع وتلكأ والمال في جيبه او تحت يده كان ظالماً ، ولو أمكنه الاكتساب لسداد قرضه فتركه كان ظالماً فاسقاً . فالواجب على المستطيع بأي طريق كان أداء الحق متى حل أجله ، ولو لم يطالبه به اهله ، بل لو أمكنه الدفع قبل الموعد بادر اليه تبرئة لذمته ، ورحمة لنفسه من ذل الدين وهمه ، وربما تعسر عليه غداً ما تيسر له الساعة ، والمال غاد ورائح . أما إذا كان عاجزاً عن الأداء فليس بظالم ، بل لا يعد مماطلا .

والاسلام لا يعترف بالقرض كمعاملة تجارية رابحة ، وانما هو يعرفه معونة ومساعدة وايثاراً لا غير . فما على المستقرض إلا ان يقابل ذلك بالحمد وعرفان الجميل ، يقابل ذلك الايثار بايثار مثله ، يقابل المعونة والمساعدة بمعونة ومساعدة مثلها ، حين يكون غريمه بحاجة الى شيء ، وأن يكون لغريمه كما كان غريمه له وليس بين الغريم وغريمه منافع متبادلة من حيث المال المستقرض ، إنما الربح والزيادة تكون في الاجر الآجل في الآخرة .

وبالتالي يجب ان يعلم صاحب المال انه حين يقرض أخاه المحتاج ، فانما يجعل له يداً عند الله وانه يقصد ان تزيد تجارته وتنمو أرباحه مع الله

وينتظر من الله الثواب الجزيل والمغفرة والرحمة .

ذلك أدب الاسلام الذي يربط بين المسلمين بروابط المحبة والتعاون والمودة

ثم ان الاسلام ـ الذي هو دين واقعي ـ يعلم ان بعض النفوس قد تضعف فتتنكر للمعروف ، وتلق الخير بالشر ، ويقع الجحود والانكار ، وتقع الفتنة والشحناء ، وتشوه معالم هذه المعاملة الانسانية ، وينكمش ظلها بين الناس فيرتفع بارتفاعها من بينهم خير كبير ٠ أمر ان تكتب هذه المعاملة وتدون .

يقول سبحانه :

« يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بـــدين الى أجل مسمى فا كتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب ان يكتب كما علمه الله ، فليكتب وليملل الذي عليه الحق ، وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً ، فان كان الذي عليه الحق سفيهاً او ضعيفاً اولا يستطيع ان يمل هو فليملل وليه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ان تضل إحداهما فتذكر إحداهما الاخرى ، ولا يأب الشهداء اذا مادعوا ، ولا تسأموا ان تكتبوه صغيراً او كبيراً الى اجله ، ذلكم اقسط عند الله واقوم للشهادة وادنى ألا ترتابوا » .

حق الخليط

قوله (عليه السلام) :

« وحق الخليط ان لا تغره ولا تغشه ولا تخدعه ، وتتقي الله تبارك وتعالى فى أمره . ولا تكذبه ولا تغفله ، ولا تعمل فى انتقاصه عمل العدو الذي لا يبقي على صاحبه ، وان اطمأن اليك استقصيت له على نفسك ، وعلمت ان غبن المسترسل ربا » .

* * *

ليس من أخلاق الانسان وعاداته ومعتقداته ، إلا وهو قابل للتغيير والتبديل ، كما هو مشاهد معلوم .

أما الاخلاق فيقع التغيير في بعضها ببطء ، وفي بعضها بسرعة ، تبعاً لقوة المؤثر وضعفه . وأما العادات وكثير من المعتقدات ، صائرة الى الانسان من مزاولة العمل أو القول مرة بعد أخرى ، وبقاء اثر له في النفس يزداد ثباتاً فيها بازدياد تكرره ثم يستقر ويصبح عادة لازمة واعتقاداً راسخاً .

وسبب هذا أن الاعصاب في الانسان تأثرت بذلك العمل وتلك الفكرة ، حتى أخذت شكلا خاصاً ، وكلما تكرر ذلك ازداد تأثر الاعصاب حتى يكون لتلك الأعمال فيها مجرى تجري فيه وتتجه اليه .

وينشأ من هذا ان يألف الانسان الأعمال ، ويجد مباشرتها أمراً سهلا عليه ، حتى لقد يفعلها بدون تفكير ولا معاناة مشقة ، ولا نظر الى ما تفعله يداه أو رجلاه ، وتوافق اوضاعها او اختلافها ، إذ كان الشأن في هذا كالماء الذي يجري الى المنحدرات فيشق لنفسه فيه وادياً ينحدر اليه بسهولة ، ويجري فيه كلما تدفق من نحو سيل او مطر .

ومما يوضح هذا ان القول يمر بسمعك ، والأمر تشهده وهو يخالف منك دينك اوعاداتك او اعتقادك فترى من نفسك إنكاراً له وثورة عليه فاذا تكرر ذلك فقد تألفه وتنجذب اليه ، وربما تفعله راضياً له ، مسروراً به ، إذ كثيراً ما نرى إنساناً يحاكي آخر في قول او فعل ، إزدراء به ومقتاً له ، ثم لا يلبث ان يدرج على ما حاكاه ويصبح من عاداته ، لا سيما إذا وجد ممن يحيطون به من يستحسنون ذلك منه او يطلبونه اليه للتسلية واللهو .

واذا وجدت العادة او الاعتقاد ما يعارض الميل الذي من اجله نشأ ، فانها يضعفان في الانسان وقد يزولان تبعاً لقوة العارضة وضعفها ·

ومن أهم ما يعارض ذلك الميل المخالطة : إذ هي التي تغير في الانسان كثيراً من اخلاقه وعاداته من حيث يدري ولا يدري ، ومن حيث يريد ولا يريد . واثرها فينا لا يستطيع إنكاره منكر ، بل انك لتجد اثرها في الجماد والحيوان وهما دون الانسان قبولا للتأثر ، فالماء يطيب ريحه ، ويعذب في الفم مذاقه ، اذا جاور الازهار ، ويخبث ريحه وتشتد عصفه اذا جاور الجيف ، والحصان الشرود اذا قرن بآخر ذلول صار ذلولا سهل القياد .

وقديماً قيل :

والريح آخذة مما تمر به   نتناً من النتن او طيبا من الطيب

وان العوامل التي تتخذ في التربية لتجعل الشرير خيرا ، والفاسد صالحا : من وعد ووعيد ، وتحذير وترغيب ، وثواب وعقاب ، قد لا تأتي في الغالب على ما في نفس الانسان ولا تنتقل به من حال الى حال . أما المخالطة فانها لا تحصل بدون ان يكون لها اثر ظاهر في حال الانسان الخلقية والاعتقادية والفكرية ؛ وكل انواع التربية تعرض وتزول : كالمدرسة والبيت إلا المخالطة فانها تربية لا تنقضي إلا بالموت ، فان حسنت أثمرت طيبا ، وان ساءت كانت شرا وبلاء .

اختيار الخلطاء :ـ

عنى الباحثون وعلماء الاخلاق والدين والمثقفون في كل أمة وعصر بوصف الخلطاء، وأرسلوا القول في ذلك شعراً ونثراً ، ماشائت لهم البلاغة ووحي البيان ولم تفرط الشريعة الاسلامية في شيء من ذلك ، والأحاديث الواردة فيها أكثر من ان تعيها أذن واعية ، او يلم بها قلب حافظ او راوية ٠

من ذلك قول الرسول (صلى الله عليه وآله) « مثل الجليس الصالح كمثل الداري إن لم يجدك من عطره يعلقك من ريحه ، ومثل الجليس السوء كمثل القير إن لم يحرقك بشرره يؤذك بدخانه » .

وقوله (ص) : « من اراد الله به خيراً رزقه خليلا صالحاً ، إن نسي ذكره ، وإن ذكر أعانه » .

من اجل ذلك افرد الامام السجاد(سلام الله عليه) فصلا خاصاً للخليط مستعرضاً حاله من إعطاء حقه من العناية والاهتمام والقيام بالواجب . فتراه قائلا : « أن لاتغره ولا تخدعه ، وتتقي الله في امره ، ولاتكذبه ولاتعمل في انتقاصه وإن إطمأن اليك استقصيت له على نفسك » .

ومفهوم هذه الظاهرة : ان الخليط معناه ، الذي يخلص لخليطه وينصح له ويرشده ويهديه ، ويدعوه إلى صالحه الانساني ٠ وان يترك فيما بينه وبينه الغدر والغش والكذب والخداع وكل مايدعو الى التمادي أو يخلقه ويجعله متحققاً .

ويبين (عليه السلام) أنه ليس للخليط أن ينتقص من قدر خليطه امام احد ، لأن هذا لايمكن ان يجري بين الخلطاء ، وإنما يكون بين العدو وعدوه ، ونحن نعرف أن صفة الغدر والغش وأمثالها كلها تؤدي إلى إفناء الطرف المقابل،

أو إنزال الضرر به على الأقل ، وذلك مما يقصده العدو بعدوه ، لاما يتطلبه الخليط بخليطه .

يريد (عليه السلام) ان يسود الخير بين الخليطين ، ويعم المعروف ، وتكون القلوب منطوية على الصفاء ، منزوعاً عنها كل غل ودغل .

لهذا ينبغي للانسان أن يعرف -فيمن يختارهم لمخالطته- أموراً لابد منها لتستقيم المخالطة وتدوم الألفة .

خصال الخليط :-

فمن ذلك أن يكون موفور العقل ، كامل التجربة ، لأن الأحمق لاتدوم مودته ، ولاتطول مخالطته ، وقد يصيب الانسان بضرره أكثر مما يصيبه بخيره وقد أبان القرآن الكريم عن هذا أوضح بيان ، قال تعالى : « ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ، ياويلتى ليتني لم اتخذ فلاناً خليلا ، لقد أظلني عن الذكر بعد إذجاءني وكان الشيطان للانسان خذولا » .

وقال رسول الله (ص) : « البذاء لؤم ، وصحبة الأحمق شؤم » .

وقال بعض الحكماء : « عداوة العاقل أقل ضرراً من مودة الأحمق » .

ومنها :

أن يكون ذا دين يقف به على الخير وينهاه عن الشر ، لأن تارك الدين عدو نفسه ، فكيف يكون صديق غيره . ولهذا قال بعض الحكماء : « إصطف من الاخوان ذا الدين والحسب ، والرأي والادب ، فانه رده لك عند حاجتك ، ويدلك عند نائبتك ، وأنس عند وحشتك ، وزين عند عافيتك » .

ومنها :

أن يكون رضي الاخلاق حميد الفعال ، يؤثر الخير على الشر ، ويفعله ويأمر به ، فان مخالطة سيء الخلق تكسب العداوة وتفسد الاخلاق ، ولا خير في مودة تجلب عداوة ، وتورث صاحبها مذمة وملامة .

قال بعض العقلاء : « مخالطة الاشرار على خطر ، والصبر على صحبتهم كركوب البحر ، من سلم منه ببدنه من التلف ، لم يسلم بقلبه من الحذر منه » .

ومنها :

أن يكون ذا ميل إلى المخالطة ، ورغبة في المعاشرة ، فان ذلك اوكد لها ، وأمد لأسباب المصافاة ، وأدعى إلى الاستفادة .

هل يكثر الانسان من الخلطاء ؟

سؤال يتردد في جوانب نفس كل إنسان ، فاذا ألقيت به على قوم انقسموا فيه ثلاث فرق : فرقة ترى الاكثار ، وفرقة ترى الاقلال ، وفرقة ترى ألا يكون واحد منها . ولا بد لمن يريد علم هذا أن يقف على رأي المتقدمين من علماء الأخلاق والدين ، ممن بلوا الايام ، وعركوا الحوادث ، فعرفوا خيرها وشرها ، فان ذلك أدعى الى إطمئنان النفس ، وأهدى الى سبيل الخير .

يرى بعض هؤلاء ان الاستكثار من الخلطاء ضرورة تدعو اليها حاجة الانسان إلى المعاضدة والمعاونة ، وفي هذا قيل : « حلية المرء كثرة إخوانه » وقيل : « المرء قليل بنفسه كثير باخوانه » وفي الامثال : (يد واحدة لاتصفق)

ويرى فريق آخر أن الاقلال منهم خير من الاكثار ، لأنه أخف مؤنة وايسر كلفة ، واذهب للبغضة والتنازع الذي يحدث من الكثرة ، ولهذا قال

الاسكندر : « المستكثر من الاخوان من غير اختيار كالمستوقر من الحجارة ، والمقل من الاخوان المتخير لهم كالذي يتخير الجوهر » • وقيل :(من كثر إخوانه كثر غر ماؤه). وقال ابراهيم بن العباس : (مثل الاخوان كالنار : قليلها متاع ، وكثيرها بوار).

ومايتسب لعلي امير المؤمنين (ع) في هذا من الشعر :

عدوك من صديقك مستفاد　　فلا تستكثرن من الصحاب
فان الداء اكثر ما تراه　　يكون من الطعام او الشراب
ودع عنك الكثير فكم كثير　　يعاف وكم قليل مستطاب
فما اللجج الملاح بمرويات　　وتلقى الري في النطف المذاب

ولما نزل(عليه السلام) القيروان • اجتمع مع جميل كاتب انوشروان ، سأله (ع) فقال له ياجميل : كيف ينبغي ان يكون عليه الانسان ؟ قال : يجب ان يكون قليل الصديق كثير العدو .

قال (ع) : ابدعت ياجميل ، فقد اجمع الناس على ان كثرة الاصدقاء اولى . فقال : ليس الامر على ما ظنوا . وذكرماحاصله انهم إذا كثروا كلفوا التبعة في حاجة ، ولايمكن ان ينهض الانسان بها كما يجب وينبغي ،وفي المثل ـ من كثرة الملاحين غرقت السفينة ـ . قال امير المؤمنين (ع) فما منفعة كثرة الاعداء . فقال : إن الأعداء إذا كثروا يكون الانسان ابداً متحرزاً متحفظاً ان ينطق بما يؤخذ عليه اوتبدو منه زلة يؤخذ عليها ، فيكون ابداً على هذه الحالة سليماً من الخطايا والزلل .فاستحسن ذلك امير المؤمنين (ع) .

وفريق ثالث يرى الخير في الوحدة ، والانصراف عن الناس جملة ، فان هذا اصون للدين ، واحفظ للوقت ، واضمن لراحة الانسان وسلامته ، واذهب

للعناء الذي يجده الانسان عادة من تكلف مايترضى به كل واحد من إخوانه .

وخير الآراء ثانيها ، وهو الاجدر بالتقدمة والاولى بالاتباع ، إذ لا إفراط فيه ولا تفريط ، ولكن على الانسان ان يتعرف فيمن يختاره لمخالطته ماتقدم من الصفات ، وألا يثق به قبل ابتلائه ، لاسيما في هذا الزمان الذي كثر شره ، وقل خيره ، واتقن الناس فيه التصنع ولباس الرياء ، حتى انه ليعجز اعقل الناس واكثرهم دهاءاً وحزماً عن كشف ما انطوت عليه نفوسهم من خبث وسوء نية ، وإن في الحوادث التي يسوقها الدهر كل يوم عظات بالغة لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد .

آثار المخالطة الصالحة :

للمخالطة الصالحة نتائج حسنة ، إذ يستحي الانسان في الغالب من إظهار عيوبه أمام رفقائه والمتصلين به ، لاسيما من عرفوا منهم بالترفع عن الدنايا ، وفي هذا مايبعده عن الشر ويدنيه من الخير ، كما يأمن على اخلاقه بمعاشرتهم . ومن آثارها ان يذكره خلطاؤه بالخير فيفعله ، والشر فيجتنبه وانه يكتسب بمخالطتهم شرفاً ، ويجدمنهم عونا في الملمات وعضداً في النائبات .

فالمخالطة عامل من عوامل التربية ، ومن أجل ذلك يجب على الآباء والمربين ان يعيروا المخالطة عنايتهم كلها . لأن اثرها في التربية تنقطع دونه جميع الاسباب ولتحقيق الغرض الصالح منها يجب ان يمنع الاطفال من مخالطة من ساءت أخلاقهم ، ولو زمناً قليلا ، وان يمنعوا من الذهاب إلى المجتمعات العامة وحدهم لاسيما التي يغشاها ذوو الدناءة والاخلاق السيئة ، وأن يختار لهم آباؤهم وأولياؤهم إذا بعثوهم ليتعلموا في بلد بعيد ، اناساً ممن عرفوا بكرم الأخلاق

وصحة الادب ، ليشرفوا عليهم وألايتركوا لهم الحبل على الغارب في اختيار الخلطاء والخلان ، فان قلة خبرتهم ونقص تجربتهم تدعوهم في الغالب إلى اختيار من يضرون ولاينفعون ، ويفسدون ولا يصلحون .

وقد ادرك الناس على اختلاف منازلهم ومنازعهم خطر المخالطة واتصال عدواها بالدين والاخلاق والعادات والمعتقدات ، فانتحى كل فريق ناحية في اسلوب معيشته ؛ وسلك سبيلا خاصة به ، في تربيته وتعليمه وعاداته وآدابه ، واسلوبه في مأكله ومشربه وحديثه وملبسه ، حتى في إشاراته وحركاته وسكناته ليمتاز عن سواه .

فوائد المخالطة :

وللمخالطة فوائد لا تحصل بدونها : كالتعليم والتعلم والنفع والانتفاع ، والتأديب والتأدب والاستئناس والايناس ، ونيل الثواب وإنالته في القيام بالحقوق ، واعتياد التواضع واستفادة التجارب من مشاهدة الاحوال والاعتبار بها ، فلنستعرض ذلك على سبيل الاجمال فانها من فوائد المخالطة وهي سبعة امور :

١ ـ التعليم والتعلم : وهما من أعظم العبادات في الدنيا ، ولا يتصور ذلك إلا بالمخالطة .

٢ ـ النفع والانتفاع : أما الانتفاع بالناس فبالكسب والمعاملة ، وذلك لايتأتى إلا بالمخالطة . واما النفع فهو ان ينفع الناس إما بماله أو ببدنه ، فيقوم بحاجاتهم على سبيل الحسبة . ففي النهوض بقضاء حوائج المسلمين ثواب ، وذلك لاينال إلا بالمخالطة .

٣ ـ التأديب والتأدب : ونعني به الارتياض بمقاساة الناس والمجاهدة

في تحمل أذاهم كسراً للنفس وقهراً للشهوات ، وهي من الفوائد التي تستفاد بالمخالطة ولأجل هذا انتدب خدام الصوفية في الرباطات فيخالطون الناس بخدمتهم، واهل السوق للسؤال منهم ، كسراً لرعونة النفس . اما التأديب : فإنما نعني به ان يروض غيره ؛ فانه لايقدر على تهذيب المجتمع إلا بمخالطتهم ، وحاله حال المعلم وحكمه حكمه .

٤ ـ الاستئناس والايناس .

٥ ـ نيل الثواب وإنالته ، أما النيل فبحضور الجنائز وعيادة المرضى ، وحضور العيدين ، وحضور الجمعة والجماعة في سائر الصلوات . واما إنالته فهو ان يفتح الباب لتعوده الناس او ليعزوه في المطالب او يهنوه على النعم ، فانهم ينالون بذلك ثوابا .

٦ ـ التواضع فانه من افضل المقامات . فقد روي في الاسرائيليات ان حكيماً من الحكماء صنف ثلثمائة وستين مصحفاً في الحكمة حتى ظن انه قد نال عند الله منزلة ، فأوحى الله الى نبيه قل لفلان انك قد ملات الارض نفاقاً ، واني لاأقبل من نفاقك شيئاً . قال فتخلى وانفرد في سرب تحت الارض ، وقال الآن قد بلغت رضا ربي فأوحى الله إلى نبيه قل له إنك لن تبلغ رضاي حتى تخالط الناس وتصبر على اذاهم فخرج فدخل الاسواق وخالط الناس وجالسهم وواكلهم واكل الطعام بينهم ، ومشى في الاسواق معهم ، فأوحى الله تعالى إلى نبيه الآن قد بلغ رضاي .

٧ ـ التجارب فانها تستفاد من المخالطة للخلق ومجاري احوالهم ، والعقل الغريزي ليس كافياً في تفهم مصالح الدين والدنيا ، وإنما تفيدها التجربة والممارسة

حق الخصم

ويشمل ١ ـ حق المدعي ـ ٢ ـ حق المدعى عليه

١ ـ حق المدعي

قوله عليه (السلام):

« وحق الخصم المدعي عليك ، فان كان مايدعي عليك حقاً كنت شاهده على نفسك ولم تظلمه وأوفيته حقه ، وان كان مايدعي باطلا رفقت به ، ولم تأت في أمره ، ولا قوة إلا بالله ».

٢ ـ حق المدعى عليه

قوله (عليه السلام):

« وأما حق خصمك الذي تدعي عليه ، ان كنت محقاً في دعواك أجملت مقاولته ولم تجحد حقه . وإن كنت مبطلا في دعواك اتقيت الله عزوجل وتبت إليه وتركت الدعوى . فان للدعوى غلظة في سمع المدعى عليه ، وقصدت قصد حجتك بالرفق ، وأمهل المهلة ، وأبين البيان ، وألطف اللطف ، ولم تتشاغل عن حجتك بمنازعته بالقيل والقال ، فتذهب عنك حجتك ولا يكون لك في ذلك درك ».

* * *

في ثنايا هذه التوجيهات المتقدمة ،يتألف المنهج الرباني الكامل للحياة البشرية .

في هذه التوجيهات يجد الناظر منهجاً للتربية قائما على الخبرة المطلقة بالنفس الانسانية ، ومساويها الظاهرة والخفية، يأخذ هذه النفس من جميع اقطارها ، كما يتضمن رسم نماذج من نفوس البشر ، واضحة الخصائص جاهرة السمات ، حتى ليخيل للانسان وهو يتصفح هذه الخصائص والسمات ، انه يرى ذوات بعينها تدب في الارض ، وتتحرك بين الناس ، ويكاد يضع يده عليها وهو يصيح : هذه هي بعينها التي عناها الامام السجاد(عليه السلام) .

في هذا الدرس تجد الملامح الواضحة لنموذجين من نماذج اعتدال البشر: الاول نموذج المدعي . الثاني نموذج المدعى عليه ، وتجد حل الخصومة الواقعة بينهما واضحة ، والحق الذى يقيد كلا منهما سافراً ، لاغموض فيه ولاالتباس .

ولنضع بين يديك مقدمة تمهيدية لهذا الدرس ترتبط بالمقصود ، فنقول :

ليس أروح للمرء ولا أطرد لهمومه ، ولاأقر لعينه من ان يعيش سليم القلب ، مبرأ من وساوس الضغينة ، وثوران الاحقاد . إذا رآى نعمة تنساق إلى أحد رضي بها ، واحس فضل الله فيها ، وفقر عباده إليها ، وذكر قول رسول الله (ص) : « اللهم ماأصبح بي من نعمة اوبأحد من خلقك فمنك وحدك لاشريك لك ، فلك الحمد ولك الشكر » . وإذا رآى أذى يلحق احداً من خلق الله رثى له ورجا الله ان يفرج كربه ويغفر ذنبه .

وبذلك يحيا المسلم ناصع الصفحة ، راضياً عن الله وعن الحياة ، مستريح النفس من نزعات الحقد الأعمى . فان فساد القلب بالضغائن داء عياء . وماأسرع ان يتسرب الايمان من القلب المغشوش ، كما يتسرب السائل من الاناء المثلوم ! ونظرة الاسلام إلى القلب خطيرة . فالقلب الأسود يفسد الأعمال الصالحة ويطمس بهجتها ويعكر صفوها .

أما القلب المشرق فان الله يبارك في قليله ، وهو اليه بكل خير اسرع :

قيل : يارسول الله أي الناس افضل ؟ قال : « كل مخموم القلب صدوق اللسان . قيل : صدوق اللسان نعرفه ، فما مخموم القلب ؟ قال : هو النقي النقي ، لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولاحسد » .

ومن ثم كانت الجماعة المسلمة حقاً هي التي تقوم على عواطف الحب المشترك والود الشائع ، والتعاون المتبادل ، والمجاملة الدقيقة . لامكان فيها للفردية المتسلطة الكنود ، بل هي كما وصف القرآن : « والذين جاؤا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ، ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنو ربنا إنك رؤوف رحيم » .

* * *

إن الخصومة إذا نمت وغارت جذورها ، وتفرعت اشواكها ، اشلت زهرات الايمان الغض ، وأذوت مايوحي به من حنان وسلام .

وعندئذ لايكون في اداء العبادات المفروضة خير ولاتستفيد النفس منها عصمة . وكثيراً ماتطيش الخصومة بألباب ذويها ، فتتدلى بهم إلى اقتراف الصغائر المسقطة للمروءة والكبائر الموجبة للمنة ، وعين السخط تنظر من زاوية داكنة ، فهي تعمى عن الفضائل ، وتضخم الرذائل . وقد يذهب بها الحقد إلى التخيل وافتراض الأكاذيب . وذلك كله مما يسخطه الاسلام ويحاذر وقوعه ، ويرى منعه افضل القربات :

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «ألا اخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ قالوا : بلى ! قال إصلاح ذات البين . فان فساد ذات البين هو الحالقة، لااقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين .

ربما عجز الشيطـان ان يجعل من الرجل العاقل عابد صنم . ولكنه ـ هو

الحريص على إغواء الانسان وايراده المهالك - لن يعجز عن المباعدة بينه وبين ربه ، حتى يجهل حقوقه اشد مما يجهلها الوثني المخرّف ، وهو يحتال لذلك بايقاد نيران المداوة في القلوب . فاذا اشتعلت استمتع الشيطان برؤيتها وهي تحرق حاضر الناس ومستقبلهم ، وتلتهم علائقهم وفضائلهم :

قال رسول الله (ص) : « ان الشيطان قد يئس ان يعبده المصلون في جزيرة العرب ، ولكنه لم ييأس من التحريش بينهم » . ذلك ان الشر اذا تمكن من الأفئدة فتنافر ودها ، وانكسرت زجاجتها ارتد الناس الى حال من القسوة والعناد ، يقطعون فيها ، ما أمر الله به ان يوصل ويفسدون في الارض.

وقد تيقظ الاسلام لبوادر الحقد ، فلاحقه بالعلاج قبل ان يستفحل ويستحيل الى عداوة فاجرة . والمعروف ان البشر متفاوتون في امزجتهم وافهامهم وان التقاءهم في ميادين الحياة قد يتولد عنه ضيق وانحراف - إن لم يكن صدام وتباعد - ولذلك شرع الاسلام من المبادىء مايرد عن المسلمين عوادي الانقسام والفتنة ، ومايمسك قلوبهم على مشاعر الولاء والمودة ، فنهى عن البغض والحقد وقد يحدث أن تشعر باساءة موجهة اليك ، فتحزن لها وتضيق بها وتعزم على قطع صاحبها . ولكن الله لايرضى ان تنتهي الصلة بين مسلم ومسلم الى هذا المصير .

قال النبي (صلى الله عليه وآله) : « لاتدابروا ولاتباغضوا ».

والانسان في كل نزاع ينشب ، احد رجلين : اما ان يكون ظالماً واما ان يكون مظلوماً . فان كان عادياً على غيره ، ناقصاً لحقه ، فينبغي أن يقلع عن غيه وأن يصلح سيرته . وليعلم أنه لن يستل الغل والضغن من قلب خصمه ، الا اذا عاد عليه بما يطمئنه ويرضيه ، وقد أمر الاسلام - والحالة هذه - ان يستصلح صاحبه ويطيب خاطره :

قال رسول الله (ص) ، « من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض اومن

شيء فليتحلله منه اليوم ، مـن قبل الايكون دينار ولادرهم ، إن كان له عمل صالح اخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه » .

ذلك نصح الاسلام لمن عليه الحق . أما من له الحق فقد رغب اليه ان يلين ويسمح .

وبهذا الارشاد المبين للطرفين جميعاً يحارب الاسلام الأحقاد ، ويقتل جرثومتها في المهد ، ويرتقي بالمجتمع المؤمن إلى مستوى رفيع ، من الصداقات المتبادلة او المعاملات العادلة . وقد اعتبر الاسلام من دلائل الصغار وخسة الطبيعة ، أن يرسب الغل في اعماق النفس فلا يخرج منها ، بل يظل يموج في جوانبها كما يموج البركان المكتوم .

وكثير من اولئك الذين يحتبس الغل في أفئدتهم ، يتلمسون متنفساً له في وجوه من يقع معهم ، فلا يستريحون إلا إذا أرغوا وازبدوا ، وآذوا وافسدوا :

روي عن ابن عباس ان رسول الله (ص) قال : « ألا أنبئكم بشرار كم ؟ قالوا : بلى إن شئت يارسول الله قال : ان شرار كم الذي ينزل وحده ويجلد عبده ويمنع رفده . افلا أنبئكم بشر من ذلك ؟ قالوا : بلى إن شئت يارسول الله قال : من يبغض الناس ويبغضونه . قال : افلا انبئكم بشر من ذلك ؟ قالوا : بلى إن شئت يارسول الله ، قال : الذين لايقبلون عثرة ولايقبلون معذرة ، ولايغفرون ذنباً . قال : افلا أنبئكم بشر من ذلك ؟ قالوا : بلى ، يارسول الله . قال : من لايرجى خيره ولا يؤمن شره » .

والأصناف التي احصاها هذا الحديث ، امثلة لأطوار الحقد ، عند ما تتضاعف علته ، وتفتضح سوأته . ولاغرو ، فمن قديم ، احسّ الناس ـ حتى في جاهليتهم ـ ان الحقد صفه الطبقات الدنيا من الخلق ! وأن ذوي المروءات

يتنزهون عنه ! قال عنترة :

لايحمل الحقد من تعلو به الرتب ولاينال العلا من طبعه الغضب

وسلامة الصدر فضيلة تجمل المسلم لايربط بين حظه من الحياة ومشاعره مع الناس ، ذلك انه ربما فشل حيث نجح غيره ، وربما تخلف حيث سبق آخرون فمن الغباء اومن الوضاعة ان تلتوي الأثرة بالمرء ، فتجمله يتمنى الخسار لكل إنسان ، لالشيء إلا لأنه لم يربح !! .

إن المسلم يجب ان يكون اوسع فكرة ، واكرم عاطفة ، فينظر الى الامور من خلال الصالح العام ، لامن خلال شهوته الخاصة .

ولا ريب ان الخصومة تورث الحقد وتبعث على الشحناء والبغضاء وتباعد بين الطرفين . وهي داء وبيل يقطع الاواصر وينشر الجرائم ، ويفتك بالاخلاق ان الخصوم فاجرفي الخصومة ينكر حق صاحبه ويستحل ماله وعرضه ولايترك باباً من أبواب الاضرار به إلا اقتحمه ، ولواضاع في سبيل ذلك المال الكثير ، بل ولو شغله ذلك عن القيام بواجباته . وانت جد عليم بما يكون بين ارباب القضايا وبين الحزبين من بلد واحد ، وبين الاحزاب السياسية وغيرها . والمراد من المخاصم : من يخاصم في باطل . أو يجادل بغير علم .

قال رسول الله ﷺ : « إن أبغض الرجال الى الله الألد الخصم »

وقال ﷺ : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، إذا ائتمن خان ، واذا حدث كذب ، واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر » .

وقال الامام الصادق عليه السلام : « إياكم والخصومة فانها تشغل القلب وتورث النفاق وتكسب الضغائن »

فاذا وقعت لابد من رفعها وارجاعها الى قوة فوق قوتها لتحكم بينهما بالعدل

وحلها حلا عدلا لا مراء فيه ولا محاباة .

لا بد من رفعها الى القاضي العدل الورع النزيه من كل شائبة رذلة .

والقاضي يجب عليه أن لا يستثار ، وعليه ألا يتعجل . وعليه ألا يأخذ بظاهر قول واحد ، قبل ان يمنح الآخر فرصة للادلاء بقوله وحجته ، فقد يتغير وجه المسألة كله ، أو بعضه وينكشف ان ذلك الظاهر كان خادعاً او كاذبا أو ناقصاً ! .

ويجب ان ينطبع على صفاء النفس ، وسمو الروح ورقة الوجدان ، ولمحة الخاطر وانتباهة الضمير ، وحسن التقدير ، وروعة المنطق وحسم الدليل .

جاء في عهد الامام امير المؤمنين علي عليه السلام للاشتر النخعي يوم ولاه مصر ما نصه : « ثم اختر للحكم بين الناس افضل رعيتك في نفسك ، ممن لا تضيق به الأمور ، ولا تمحكه الخصوم ، ولا يتمادى في الزلة ، ولا يحصر من الفيء الى الحق إذا عرفه ، ولا تشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفي بأدنى فهم دون اقصاه ، اوقفهم في الشبهات ، وآخذهم بالحجج ، واقلهم برماً بمراجعة الخصم ، واصبرهم على تكشف الامور ، واصرمهم عند اتضاح الحكم ، ممن لا يزدهيه إطراء ، ولا يستميله إغراء . واولئك قليل » .

وحاجة الناس الى القاضي ضرورية ، فان مشاكل الخلاف بين الناس وتنازع البقاء والاستئثار والتزاحم على موارد الحياة جبلة في الانسان وطبيعة فيه ، لا يمكن ان يتخلى عنها ولا ان يتعرى ويتجرد منها .

فالانسان بدون القاضي لا يتمكن من الحياة ، ولا يقدر على الوصول الى حقوقه ولا على تحصيل غرض الله من إيجاده . والانسان ليس له من العلم ما يعرف به الحكم الحق .

ينقسم القضاء الى خمسة أقسام

جاء في كتاب (دليل القضاء الشرعي) تأليف العلامة السيد محمد صادق بحر العلوم ـ ما نصه :

« طلب القضاء ينقسم الى خمسة اقسام : واجب ، ومباح ، ومستحب ، ومكروه ، وحرام .

(فان كان) طالبه من اهل الاجتهاد ، او من اهل العلم والعدالة ، ولا يكون هناك قاض غيره ، أو يكون ولكن لا تحل ولايته او ليس في البلد من يصلح للقضاء غيره ، او لكونه إن لم يل القضاء وليه من لا تحل ولايته ، مع فرض حاجة الناس الى القاضي ، وعدم إمكان رفع التنازع بالمصالحة ونحوها ، وكذا اذا كان غيره ، لكن لم يكن بقدر كفايتهم ، او كان ، ولكن لم يكن ممن يعرفه الناس ولم يمكن تعريفه لهم ، فيتعين حينئذ عليه التصدي للقضاء والسعي فيه اذا قصد بطلبه حفظ الحقوق وجريان الأحكام على وفق الشرع لان في تحصيله القيام بفرض الكفاية .

(وان كان) فقيراً وله عيال فيجوز له السعي في تحصيل القضاء ليسد خلته ، وكذلك ان كان يقصد به دفع ضرر عن نفسه فيباح له ايضاً تولي القضاء

(وان كان) هناك عالم خفي علمه عن الناس فأراد الأمام ان يشهره بولاية القضاء ليعلم الجاهل ويفتي المسترشد ، او كان هو خامل الذكر لا يعرفه الامام ولا الناس ، فأراد السعي في القضاء ليعرف موضع علمه ، فيستحب له تحصيل القضاء والدخول فيه بهذه النية .

(وان كان) سعيه في طلب القضاء لتحصيل الجاه والاستعلاء على الناس فهذا يكره له السعي ، (ولو قيل) إنه يحرم كان وجهه ظاهراً لقوله تعالى : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الارض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » .

ويكره ايضاً تولي القضاء ان كان طالبه غنياً عن اخذ الرزق على القضاء وكان مشهوراً لا يحتاج ان يشهر نفسه وعلمه بالقضاء .

(وان كان) سعيه في طلب القضاء ـ وهو جاهل ليس له أهلية القضاء ، او هو من اهل العلم لكنه متلبس بما يوجب فسقه ، او كان قصده بالولاية الانتقام من اعدائه او قبول الرشوة من الخصوم ، وما اشبه ذلك من المقاصد ـ فهذا يحرم عليه السعي في القضاء ' ـ ١ ـ

ما يشترط في القاضي

يشترط في القاضي أمور :

« الاول والثاني » البلوغ والعقل ، فلا ينفذ قضاء الصبي وان كان مراهقاً ، بل ومجتهداً جامعاً للشرائط ، بل وان كان اعلم من غيره . ولا المجنون ولو كان أدوارياً في دور جنونه وان كان عالما عارفا بالأحكام وكان جنونه في غير هذا ، فان الجنون فنون (للاجماع) كما عن جماعة من الفقهاء ، ولانصراف الأخبار عنه ، (مضافا) الى التقييد بالرجل في خبري ابي خديجة فقد جاء في روايته الاولى قال قال لي ابو عبد الله عليه السلام : « إياكم ان يحاكم بعضكم

ـ ١ ـ معين الحكام للطرابلسي ص ٩ ـ ١٠ .

بعضا الى اهل الجور ، ولكن انظروا الى رجل منكم يعلم شيئا من قضايانا فاجعلوه حكما بينكم فاني قد جعلته قاضيا فتحا كموا اليه » .

وجاء في روايته الاخرى . قال : بعثني ابو عبد الله عليه السلام الى أصحابنا فقال لهم : « إياكم اذا وقعت بينكم خصومة او تدارى بينكم في شيء من الاخذ والعطاء ان تتحا كموا الى احد من هؤلاء الفساق ، اجعلوا بينكم رجلا ممن قد عرف حلالنا وحرامنا فاني قد جعلته قاضيا ، واياكم ان يتحاكم بعضكم بعضا الى السلطان الجائر » .

(مع) كون نفوذ الحكم وترتب الآثار من عدم جواز نقضه ورده على خلاف الاصل ، والقدر المتيقن من الخارج منه هو البالغ العاقل كما لا يخفى .

« الثالث والرابع » الاسلام والايمان ، (للاجماع) ، (ولقوله) عليه السلام في رواية أبي خديجة الاولى المتقدمة : « انظروا الى رجل منكم » و (لقوله) تعالى : « لن يجعل الله للكافرين على المسلمين سبيلا » . (وللأخبار المتواترة المانعة من الرجوع الى غير المؤمن في رفع التنازع

(الخامس) العدالة ، (للاجماع ، (والمنع) من الركون الى الظالم إذ هو ظالم لنفسه ، (ولقصوره) عن مرتبة الولاية على الصبي والمجنون فكيف بهذه المرتبة الجليلة ، ففي رواية لأبي بصير قال قلت لابى عبد الله عليه السلام : قول الله تعالى في كتابه : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام » فقال : يا أبا بصير إن الله تعالى قد علم ان في الامة حكاماً يجورون ، أما إنه لم يعن حكام اهل العدل ، ولكنه عنى حكام أهل الجور ، يا أبا محمد انه لو كان لك على رجل حق فدعوته الى حكام أهل العدل فأبى عليك إلا ان يرافعك الى حكام أهل الجور ليقضوا له كان ممن حاكم الى الطاغوت ، وهو قول الله عز وجل : « ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك

يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت » .

وقد تقدم مافي روايتي أبي خديجة من النهي عن المحاكمة الى أهل الجور وسيأتي ما في رواية عمر بن حنظلة من النهي عن ذلك أيضاً .

والعدالة ـ كما ذكرها بعض المحققين من الفقهاء ـ : هي عبارة عن الملكة المانعة ـ غالباً ـ عن الوقوع في المعاصي الكبيرة التي وعد الله سبحانه عليها النار والمراد أنها مانعة اقتضاءاً ، فلا يقدح في وجودها وقوع المعصية نادراً ، لغلبة الشهوة أو الغضب ، نعم من لوازم وجودها حصول الندم بمجرد سكون الشهوة أو الغضب مع الالتفات الى وقوع المعصية منه ، وإذا حصلت الملكة المذكورة لكن كانت ضعيفة مغلوبة للمزاحم من شهوة أو غضب على نحو يكثر صدور المعاصي ، ـ وإن كان يحصل الندم بمجرد سكون المزاحم ـ ، فمثل هذه الملكة لا تكون عدالة ، ولا تترتب عليها أحكامها ، وأما اذا صدرت المعصية الصغيرة فان التفت العاصي الى وجوب التوبة ـ ومع ذلك لم يتب ـ كان عاصياً بترك التوبة ولم يكن عادلا ، وإن غفل عن ذلك فلم يندم لم يقدح صدور الصغيرة في بقاء العدالة وترتيب أحكامها ، وأما إذا صدرت المعصية الكبيرة فلم يندم ولم يتب غفلة عن صدور المعصية فقد خرج عن صفة العدالة ، وبذلك افترقت المعصية الكبيرة عن الصغيرة .

(السادس) طهارة المولد ، (لفحوى) ما دل على عدم قبول شهادة ولد الزنا وعدم صحة امامته .

(السابع) الذكورة ، فلا يصح قضاء المرأة ولو للنساء ، والدليل عليه (الاجماع) ، و (الحديث) المروي عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يفلح قوم وليتهم امرأة » .

وروى جابر (رضي الله عنه) عن الامام الباقر (ع) أنه قال : « ولا تولى

المرأة القضاء ولا تولى الامارة » .

وروى الصدوق ابن بابويه في « من لا يحضره الفقيه » باسناده عن حماد ابن عمر ، وأنس بن محمد عن أبيه عن جعفر بن محمد عن آبائه في وصية النبي ﷺ لعلي (عليه السلام) انه قال : « ياعلي ليس على المرأة جمعة ولا جماعة ـ الى ان قال ـ ولا تولى القضاء » وفي رواية اخرى ، « لا تولى المرأة القضاء ولاتولى الامارة » (مضافاً) الى التقييد بالرجل في روايتي أبي خديجة المتقدمتين و (الانصراف) في سائر اخبار الاذن عن قضاء المرأة .

(الثامن) العلم بأحكام القضاء ، (لما تقدم) في روايتي أبي خديجة من قوله (ع) ـ في الرواية الأولى ـ : « أنظروا الى رجل منكم يعلم شيئاً من قضايانا فاجعلوه حكماً بينكم » الخ ، وقوله (ع) ـ في الرواية الثانية ـ « اجعلوا بينكم رجلا ممن عرف حلالنا وحرامنا » الخ ، ولما في موثقة عمر بن حنظلة الآتية (مضافاً) الى ما رواه البرقي عن ابيه رفعه الى الامام ابي‌عبد الله الصادق (ع) قال : « القضاة : أربعة ، ثلاثة في النار وواحد في الجنة ، رجل قضى بجور ـ وهو يعلم ـ فهو في النار ، ورجل قضى بجور وهو لا يعلم فهو في النار ، ورجل قضى بالحق وهو لا يعلم فهو في النار ، ورجل قضى بالحق وهو يعلم فهو في الجنة ».

(التاسع) الحرية عند جماعة من الفقهاء بل نسب الى الاكثر ، ولا دليل على اعتبارها إلا (دعوى) كون المملوك مولى عليه ، و (قصوره) عن هذا المنصب و (كون) اوقاته مستغرقة في خدمة مولاه ، و (دعوى) دلالة قوله تعالى : « ضرب الله مثلا عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء » ويؤيد ذلك عدم نصب الائمة (عليهم السلام) أحداً من عبيدهم او عبيد غيرهم على منصب القضاء ولكن في ذلك كله تأملا ، والأظهر عدم اشتراط الحرية إذا اذن المولى .

(العاشر) الاجتهاد ، فلا ينفذ قضاء غير المجتهد وإن بلغ من العلم والفضل ما بلغ ، (للاجماع) ، كما عن جماعة من الفقهاء ، (ولأن) نفوذ الحكم وترتيب آثاره على خلاف الاصل ، والقدر المتيقن هو حكم المجتهد .

(وايضاً) يظهر من الآيات والاخبار ان منصب القضاء مختص بالنبي والائمة (عليهم السلام) ، كقوله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » وقوله تعالى : « فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول » وقوله تعالى : « إنا أنزلنا اليك الكتاب لتحكم بين الناس » الآية . وقوله (عليه السلام) : « إتقوا الحكومة فان الحكومة إنما هي للامام العالم بالقضاء العادل في المسلمين ، لنبي او وصي نبي » وقول الامام أمير المؤمنين علي ابن ابي طالب (ع) لشريح القاضي : « يا شريح قد جلست مجلساً لا يجلسه إلا نبي او وصي نبي او شقي » . فيتوقف جوازه من غيرهم على الاذن منهم (عليهم السلام) : والاخبار الدالة على الاذن مختصة بالعلماء ورواة الاخبار الظاهرة في القادر على استنباط الحكم منها ، كمقبولة عمر بن حنظلة : قال سألت ابا عبد الله (ع) عن رجلين من اصحابنا تكون بينهما منازعة في دين او ميراث فتحاكما الى السلطان او الى القاضي أيحل ذلك ؟ فقال (ع) : من تحاكم الى طاغوت ـ اي الى جائر ـ فحكم له فانما يأخذ سحتاً وإن كان حقه ثابتاً ، لانه اخذ بحكم الطاغوت وقد امر الله ان يكفر به . قلت كيف يصنعان ؟ قال : انظروا الى من كان منكم قد روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف احكامنا فارضوا به حكما فاني قد جعلته حاكماً ، فاذا حكم بحكمنا فلم يقبل منه فانما بحكم الله استخف وعلينا رد والراد علينا الراد على الله وهو على حد الشرك بالله ، قلت فان كان كل واحد منهما اختار رجلا وكلاهما اختلفا في حديثنا ؟ قال الحكم ما حكم به اعدلهما ، وافقههما واصدقهما في الحديث ، واورعهما ، ولا يلتفت الى ما يحكم به الآخر . قال فقلت

فانهما عدلان مرضيان عند اصحابنا ليس يتفاضل واحد منهما على صاحبه . قال : فقال : تنظر الى ما كان من روايتهما في ذلك الذي حكما به ، المجمع عليه عند اصحابك فتأخذ به من حكمنا وتترك الشاذ النادر الذي ليس بمشهور عند اصحابك فان المجمع عليه لا ريب فيه . الخ » ـ ١ ـ

وكالتوقيع الرفيع الذي رواه الصدوق ابن بابويه في ـ اكمال الدين ـ والشيخ الطوسي في كتاب ـ الغيبة ـ والطبرسي في ـ الاحتجاج ـ والكشي في ـ الرجال ـ بسند صحيح عال عن اسحاق بن يعقوب قال سألت محمد بن عثمان العمري ان يوصل لي كتابا قد سألت فيه عن مسائل أشكلت علي ، فورد التوقيع بخط مولانا الصاحب (ع) : أما ما سألت عنه ارشدك الله ووفقك ـ الى أن قال : ـ « وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها الى رواة حديثنا فانهم حجتي عليكم وأنا حجة الله عليكم » .

وكالخبر الذي رواه الحراني في كتابه ـ تحف العقول ـ قال ﷺ : « ومجاري الامور والأحكام على أيدى العلماء بالله ، الامناء على حلاله وحرامه » وخبر أبي خديجة الآخر المتقدم « انظروا الى رجل منكم يعلم شيئاً من قضايانا فاجعلوه حكماً بينكم فاني قد جعلته قاضياً فتحاكموا اليه » .

وخبر أبي خديجة الآخر المتقدم ايضاً : « اجعلوا بينكم رجلا ممن قد عرف حلالنا وحرامنا فاني قد جعلته قاضياً » والخبر المرسل : « اللهم ارحم خلفائي ، قيل يا رسول الله من خلفاؤك ؟ قال ﷺ : الذين يأتون بعدي يروون حديثي وسنتي » .

والخبر المروي في الفقه الرضوي : « منزلة الفقيه في هذا الوقت كمنزلة

ـ١ـ الطبرسي في الاحتجاج ج ٢ ص ١٠٦ طبع النجف الاشرف .

الانبياء في بني اسرائيل » الى غير ذلك من الروايات .

ومن المعلوم ان العامي لا يصدق عليه اسم العالم ولا الراوي ، ولا يصلح ان يكون خليفة لرسول الله ﷺ ولا ان يكون بيده مجاري الامور ، ولا ان يكون بمنزلة الانبياء ، فمقتضى هذه الاخبار المذكورة عدم جواز تصدي غير المجتهد للحكم والمرافعة ، من غير فرق بين ان يكون من اهل العلم ـ مع عدم بلوغه حد الاجتهاد ويحكم بمقتضى ظاهر الاخبار وكلمات الفقهاء ـ ، او كان مقلداً لمجتهد جامع للشرائط ويحكم بمقتضى فتوى ذلك المجتهد بعد اطلاعه على جميع ما يتعلق بتلك الواقعة بالتقليد .

ثم إنه قد ظهر مما ذكرناه لك أن المقلد (بكسر اللام) لا أهلية له للتصدي للمرافعة وإن اذن له مجتهد و نصبه قاضياً ، فان نصبه له لا ينفعه في أهليته .

والحاصل انه لا فرق في عدم جواز قضاء غير المجتهد ، بين ان يكون من أهل العلم ـ ولم يكن بالتقليد من مجتهد ـ ، أو يكون بفتوى مقلده (بفتح اللام) ـ وبين أن ينصبه المجتهد للقضاء ، اولا ، وبين ان يكون المترافعان رفعا أمرهما الى المجتهد في خصوص واقعة وأرجعها الى مقلده (بكسر اللام) العادل العالم بفتاواه ، وغيره .

وأما المجتهد المتجزي ـ بناء على إمكانه ـ فالاحوط عدم نفوذ قضائه خصوصاً مع وجود غيره ، وإن كان لا يبعد جوازه اذا كان مجتهداً في أحكام القضاء ، (لخبر) أبي خديجة المتقدم .

ثم إنه ، لا يجوز الترافع الى قضاة الجور اختياراً ، ولا يحل ما أخذه بحكمهم ـ إذا لم يعلم بكونه محقاً ـ إلا من طرف حكمهم ، وأما إذا علم بكونه محقاً ـ واقعاً ـ فيحتمل حليته (ويحتمل) الفرق بين العين والدين ، حيث أن الدين كلي في الذمة ويحتاج في صيرورة المأخوذ ملكاً له الى تشخيص المديون

بخلاف العين . وظاهر مقبولة عمر بن حنظلة المتقدمة حرمته مطلقاً ـ عيناً كان أم ديناً ـ (لقوله) (عليه السلام) : « من تحاكم الى طاغوت (أي الى جائر) فحكم له فانما يأخذ سحتاً ـ وإن كان حقه ثابتاً ـ لانه أخذ بحكم الطاغوت ـ وقد أمر الله ان يكفر به » لكنه مشكل خصوصاً في العين .

ثم إنه إذا توقف استنقاذ حقه المعلوم ـ واقعاً ـ على الترافع الى غير الآهل من قضاة الجور ، أو غيرهم ، إما لعدم رضى الطرف المقابل إلا بالترافع اليهم ، أو لعدم وجود الحاكم الشرعي ، او لعدم إمكان اثبات الحق عنده او نحو ذلك فالظاهر جوازه وحلية ما يأخذه ، لان الاخبار المانعة منصرفة عن هذه الصورة ، بل ظاهرها صورة إمكان الرجوع الى الآهل للقضاء .

ما يجب ان يسير عليه القاضي

يجب على القاضي ان يسير السير الذي يرضي الله ورسوله ﷺ فيأخذ بآداب الشرع الشريف فيتوقى ما يشينه في دينه ومروءته وعقله ، فانه أهل لأن ينظر اليه ويقتدى به ، فيتقي الله في جميع أعماله ، ويقضي بالحق ، ولا يقضي لهوى يضله ، ولا لرغبة تغيره ، ولا لرهبة تزجره بل يؤثر طاعة ربه ، ويعمل لمعاده ، طمعاً في جزيل ثوابه ، وهرباً من أليم عذابه ، فيتبع الحكمة وفصل الخطاب ، ولا ينبغي ان يكون فظاً غليظاً ، جباراً عنيداً ، بل يكون شديداً من غير عنف ، ليناً من غير ضعف ، ومتى رفعت اليه دعوى يلزمه ان يسوي بين الخصمين في الجلوس والاقبال عليهما ولا يسار اليهما ، ولا يضحك في وجهه ولا يلقنه حجته ، ولا يذهب الى ضيافته ، ولا يقول لأحدهما كلاماً خفياً ، ولا بلسان لا يفهمه الآخر ولا يلقن الشاهد شهادته ، لقوله ﷺ : « إذا ابتلى

احد كم بالقضاء فليسو بينهم في المجلس والاشارة والنظر » ولانه اذا قدم احدهما يجترىء على خصمه فتفتر همة صاحبه ، فربما يؤدي ذلك الى ترك حقه ، ..... ولا فرق في ذلك بين الاب والابن ، وبين الخليفة والرعية ، وبين الدنىء والشريف وبين المسلم والذمي .

(وبالجملة) فالذي يلزم القاضي هو التخلي عن كل ما يشينه ، والتحلي بجميع صفات الكمال ، لانه لا يسعه ما يسع غيره ، فالعيون اليه مصروفة ، وتقوى الخاصة على الاقتداء به موقوفة ... »

قال علاء الدين الطرابلسي في (معين الحكام) : اعلم انه يجب على من ولي القضاء ان يعالج نفسه على آداب الشرع ، وحفظ المروءة ، وعلو الهمة ، ويتوق ما يشينه في دينه ومروءته وعقله ، او يحطه في منصبه وهمته ، فانه اهل لان ينظر اليه ويقتدى به ، وليس يسعه في ذلك ما يسع غيره ، ولا ينبغي له ـ بعد الحصول في هذا المنصب سواء وصل اليه برغبته فيه ، أم امتحن به وعرض عليه ـ ، ان يزهد في طلب الحظ الاخلص والسنن الاصلح .

وقال بعضهم : ومن حقه ان يكون غير متكبر عن مشورة من معه من اهل العلم ، ورعاً ذكياً فطناً ، غير عجول ، نزهاً عما في ايدي الناس ، عاقلا ، مرضي الاحوال ، موثوقاً به في دينه غير مخدوع ، وقوراً مهيباً ، عبوساً من غير غضب ، متواضعاً من غير ضعف ، كثير التحرز من الحيل ، ولا ينبغي ان يكون فظاً غليظا جباراً ... » .

وقد كتب الامام امير المؤمنين ﷺ الى محمد بن ابي بكر حين قلده مصر : « فاخفض لهم جناحك ، وألن لهم جانبك وابسط لهم وجهك ، وآس بينهم في اللحظة والنظرة حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم ، ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم » .

انتهى ما اقتطفناه من كتاب (دليل القضاء الشرعي) .

ومن هذا المعين معين النبوة والامامة إرتشف الامام السجاد (ع) مقاله الوضاء ، وندب اليه وحض عليه بقوله : « وامهل المهلة ، وابين البيان ، والطف اللطف » . هناك يكون القضاء العادل ، هناك يكون القول الفصل ، باعطاء كل من الجانبين (المدعي ، والمدعى عليه) حقه في الامر وحريته في عرض المسألة .

اذا تنازع طرفان في قضية ، وطرق سمعك ما ادلى به واحد منها من الادلة فانك قد تندفع بسرعة لاصدار حكمك عليه ، وقد اتفق مثل ذلك كثيراً ولكنه كان على الاكثر حليفاً للندامة ، إذ قد تحيف عليه في مثل هذا الحكم المستعجل . والواقع ان العدل يفرض عليك سماع الدعوى والدفاع معاً ، وانت هادىء البال ، متجرد عن التحيز ، باحث عن الصواب ، متأن في افعالك ، خاضع للنظم الصحيحة مقتصد في عقيدتك ، بدون افراط او تفريط ، وعليك ان ترى طرفي الدعوى بمستوى واحد الى حين صدور الحكم ، وأن تفسح مجال الدفاع ، وان لا تضار احداً في استعجال ، وان تعطيه المجال المعقول للتروي ثم النظر في صحة وفساد كلا القولين بالنسبة للنظام او القانون العدل .

وايضا لا يبيح الامام (ع) للمدعي ان يكون بموقف المدعى عليه إن كان يعتقد ببطلان الدعوى وحقيتها للخصم ، فالدعوى من اساسها واصلها باطلة ، بل يفرض عليه ان لا يحسب نفسه مدعياً ، فليس هناك ادعاء في الواقع وانما يجب ان يكون خصماً على نفسه وحاكماً وشاهداً عليها .

واذا كان المدعى عليه كاذباً لا يريد ان يعترف بالواقع وحقيقة الامر ، بل يريد ان يداجي ويداهن ، فالامام (ع) يلزم خصمه (أي المدعي) ان لا يقابله بالمثل ، بل يقابله بالملاينة والرفق ويقابله بأن يناشده بدينه الذي يدين به ، ويذكره بالله الذي يعبده ويخلص له ، دون اللجوء الى اساليب الغلظة

والفظاظة ، فليست الامور الراهنة تحل بمثل هذه الاساليب إلا في القليل النادر

تاريخ القضاء في الاسلام

وتاريخ القضاء في الاسلام مثله كمثل تاريخ التشريع يبتدىء من هجرة الرسول ﷺ الى يثرب ، لأن التشريع المكي كان بمثابة سن الدستور الاساسي للدولة ، ولا تأتي القوانين عادة في الدولة إلا بعد توطيد أركانها واستقرار جهازها الحكومي . وظل القضاء في المدينة (عاصمة الدولة الاسلامية) الناشئة بسيطاً ساذجاً لم يفرق بينه وبين قوى الدولة الاخرى ، والنبي ﷺ لم يكن شارعاً وحاكماً فحسب ، بل كان قاضياً فوق ذلك أيضاً واليه مرد الامر كله . وقد انعدمت الخصومات في هذا العهد بين الناس او كادت فلا تجد أحداً يجترح إثماً ويرم به بريئاً . ولا تجد مدرهاً يأكل اموال الناس بالباطل ليدلي بها الى الحكام . ويأكل فريقاً من اموال الآخرين ظلماً وزوراً ، لان تعاليم الاسلام الحنيف كانت من المنعة والقوة بحيث أصبحت ملء القلوب والاسماع والابصار حتى اذا حاد أحدهم عن سبيل الحق جاء الرسول يسأله اقامة الحد ويلتمس منه العفو والغفران .

ولما تعدى الاسلام الحرمين الشريفين ورفعت رايته على بلاد اليمن بعث اليهم الرسول امير المؤمنين علياً (ع) عاملا وقاضياً . ثم بعث معاذبن جبل .

مصدر قضاء الرسول

وكان مصدر قضاء الرسول : هو القرآن الكريم وحده ، وكان إذا شجر خلاف بين المسلمين سألوا الرسول فيجيبهم بآية من كتاب الله أو بما يوحيه اليه الحق وتوجبه العدالة من أعمال واقوال . فان ادت تلك الاعمال والاقوال الى التباس وارتباك ارشده الله الى الصواب بآية ينزلها عليه . ولقد اوسع شرع الجاهلية تحويراً وتمديلا ونقضاً حتى إذا جاءه بعض المسلمين يريدون ان يتحاكموا الى الجبت والطاغوت ، وقد نهوا عنه نعى اليهم ذلك بقوله تعالى : « أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » .

نوادر القضاة

قرأت في المجلد الرابع من شرح النهج (لابن ابي الحديد) :

« اتي ابن شبرمة بقوم يشهدون على قراح نخل ، فشهدوا وكانوا عدولا فامتحنهم فقال : كم في القراح من نخلة . قالوا : لا نعلم . فرد شهادتهم . فقال له احدهم : انت ايها القاضي تقضي في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة ، فأعلمنا كم فيه من اسطوانه ؟ فسكت وأجازهم .

خرج شريك وهو على قضاء الكوفة ، يتلقى الخيزران وقد اقبلت تريد الحج ، وقد كان استقضي وهو كاره ، فأتى شاهي فأقام بها ثلاثاً فلم توافِ فخف زاده وما كان معه فجعل يبله بالماء ويأكله بالملح . فقال العلاء ابن المنهال الغنوي :

فان كان الذي قد قلت حقاً　بأن قد اكرهوك على القضاء
فمالك موضعاً في كل يوم　تلقى من يحج من النساء
مقيماً في قرى شاهي ثلاثاً　بلا زاد سوى كسر وماء

وتقدمت كلثم بنت سريع مولى عمرو بن حريث : وكانت جميلة ، وأخوها الوليد بن سريع ، الى عبد الملك بن عمير ، وهو قاض بالكوفه . فقضى لها على اخيها . فقال هذيل الاشجعي :

أتاه وليـــد بالشهود يسوقهم　على ما ادعى من صامت المال والخول
وجاءت اليـــه كلثم وكلامها　شفاء من الداء المخامر والخبل
فأدلى وليد عند ذاك بحقه　وكان وليد ذا مراء وذا جدل
فدلهت القبطي حتى قضى لها　بغير قضاء الله في محكم الطول
فلو كان من في القصر يعلم علمه　لما استعمل القبطي فينا على عمل
له حين يقضي للنساء تخاوص　وكان وما فيه التخاوص والحول
إذا ذات دل كلمته لحاجــة　فهم بأن يقضي تنحنح او سعل
وبرق عينيه ولاك لســانه　يرى كل شيء ما خلا وصلها جلل

وكان عبد الملك بن عمير يقول لعن الله الاشجعي والله لربما جائتني السعلة والنحنحة وانا في المتوضأ فاردها لما شاع من شعره .

شهد رجل عند سوار القاضي ، فقال : ما صناعتك . فقال : مؤدب . قال أنا لا أجيز شهادتك قال : ولم ؟ قال لانك تأخذعلى تعليم القرآن أجراً . قال وانت ايضاً تأخذ على القضاء بين المسلمين اجراً . قال : إنهم اكرهوني . قال نعم اكرهوك على القضاء فهل اكرهوك على اخذ الاجر قال : هلم شهادتك .

ودخل ابو دلامة ليشهد عند ابن ابي ليلى ، فقال حين جلس بين يديه :

اذا الناس غطوني تغطيت عنهم　وإن بحثوا عني ففيهم مباحث

وإن حفروا بئري حفرت بئارهم ليعلم ما تخفيه تلك البثابث

فقال : بل نعطيك يا أبا دلامة ولا نبحثك ، وصرفه راضياً واعطى الشهود عليه من عنده قيمة ذلك الشيء .

كان عامر ابن الضرب العدواني حاكم العرب وقاضيها ، فنزل به قوم يستفتونه في الخنثى وميراثه فلم يدر ما يقضي فيه ، وكانت له جارية اسمها خصيلة ربما لامها في الابطاء عن الرعي وفي الشيء يجده عليها ، فقال لها يا خصيلة : أسرع هؤلاء القوم في غنمي وأطالوا المكث . قالت : وما يكبر عليك من ذلك اتبع مباله وخلاك ذم . فقال لها :

إمسي خصيل بعدها أو روحي .

ودخل أياس بن معاوية الشام وهو غلام ، فقدم خصماً الى باب القاضي في أيام عبد الملك ، فقال القاضي : أما تستحي تخاصم وانت غلام شيخاً كبيراً . فقال : الحق اكبر منه . فقال : اسكت ويحك . قال : فمن ينطق بحجتي إذاً قال : ما أظنك تقول اليوم حقاً حتى تقوم فقال : لا إله إلا الله . فقام القاضي ودخل على عبد الملك وأخبره . فقال : إقض حاجته وأخرجه من الشام كي لا يفسد علينا الناس .

دعا رجل لسليمان الشاذكوني فقال : أرانيك الله يا أبا ايوب على قضاء اصبهان . قال : ويحك ان كان ولابد فعلى خراجها فان اخذ أموال الأغنياء أسهل من أخذ اموال الايتام .

ترافعت جميلة بنت عيسى بن جراد ، وكانت جميلة كاسمها ، مع خصم لها الى الشعبي وهو قاضي عبد الملك ، فقضى لها . فقال هذيل الاشجعي :

فتن الشعبي لما رفع الطرف إليها
فتنته بثناياها وقوسي حاجبيها
ومشت مشياً رويداً ثم هزت منكبيها

فقضى جوراً على الخصم ولم يقض عليها

فقبض الشعبي عليه وضربه ثلاثين سوطاً . قال ابن إبي ليلى ثم انصرف الشعبي يوماً من مجلس القضاء وقد شاعت الابيات وتناشدها الناس ونحن معه ، فمررنا بخادم تغسل الثياب وتقول :(فتن الشعبي لما)ولا تحفظ تتمة البيت ، فوقف عليها ولقنها ، وقال : (رفع الطرف إليها) . ثم ضحك وقال ابعده الله والله ماقضيت لها إلا بالحق .

جاءت إمرأة الى قاض ، فقالت : مات بعلي وترك ابوين وابناً وبني عم . فقال القاضي : لأبويه الثكل ولابنه اليتم ولك اللائمة ولبني عمه الذلة ،واحملي المال إلينا إلى ان ترتفع الخصوم .

لقي سفيان الثوري شريكاً بعد ما استقضى ، فقال له : ياأبا عبدالله بعد الاسلام والفقه والصلاح تلي القضاء . قال : ياابا عبدالله فهل للناس بد من قاضي قال : ولابد ياابا عبدالله للناس من شرطي » .

قرأت في معادن الجواهر تأليف (السيد محسن الأمين العاملي) :

«دخل عدي بن أرطاة على شريح القاضي، فقال له أين أنت اصلحك الله؟فقال: بينك وبين الحائط . قال استمع مني . قال : قل أسمع . قال : اني رجل من اهل الشام . قال : من مكان سحيق . قال : وقد تزوجت عندكم . قال : بالرفاء والبنين . قال : وأردت ان ارحلها . قال : الرجل احق بأهله . قال : وشرطت لها دارها . قال : الشرط املك قال : فاحكم الآن بيننا . قال : قد فعلت . قال: فعلى من حكمت ؟ قال على ابن امك.قال: بشهادة من.قال: بشهادة ابن اخت خالتك .

قال المأمون لقاضي القضاة يحيى بن اكثم ، وكان يرمى بفعل قوم لوط اخبرني من الذي يقول :

قاض يرى الحد في الزناء ولا يرى على من يلوط من باس

وأغراضها نواظر الحدق ، وقلما يستظهر المقلبون الخيل بالدرق .

ما قيل في القضاة من الشعر

في كتاب المستطرف : عن عبد الملك بن عمير عن رجل من أهل اليمن قال : أقبل سيل باليمن في خلافة أبي بكر ، فكشف عن باب مغلق فظنناه كنزاً فكتبنا الى أبي بكر فكتب الينا لا تحركوه حتى يقدم اليكم كتابي ، ثم فتح فاذا برجل على سرير عليه سبعون حلة منسوجة بالذهب وفي يده اليمنى لوح مكتوب فيه هذان البيتان :

إذا خان الأمير وكاتباه وقاضي الارض داهن في القضاء

فويل ثم ويل ثم ويل لقاضي الارض من قاضي السماء

وفيه قول بعضهم :

أبكي وأندب ملة الاسلام إذ صرت تقعد مقعد الحكام

إن الحوادث ماعلمت كثيرة وأراك بعض حوادث الايام

وفيه إن المضروب بهم المثل في الجهل وتحريف الاحكام قاضي منى ، وقاضي كسكر ، وقاضي أيدج ، وهو الذي قال فيه ابو اسحق الصابي :

يا رب علج أعلج مثل البعير الاهوج

رأيتـــه مطلعاً من خلف باب مرتج

وخلفه عـــذيبة تذهب طوراً وتجى

فقلت من هذا ترى فقيل قاضي أيدج

وقاضي شلبة وهو الذي قال فيه أبو الحسن الجوهري :

رأيت رأساً كدبه ولحيـة كالمذبه

فقلت من أنت فقل فقال قاضي شلبه

وفي المجلد الرابع من شرح ابن ابي الحديد (لنهج البلاغة) :

يا أهل بغداد قد قامت قيامتكم مذ صار قاضيكم نوح بن دراج

لو كان حياله الحجاج ماشلمت صحيحة يده من وسم حجاج

وفي كتاب (معادن الجواهر) :

لبعضهم أورده في الريحانة :

وقاض لنا حكمه مامضى وأحكام زوجته ماضية

فيا ليته لم يكن قاضياً ويا ليتها كانت القاضية

وللصاحب بن عباد في قاض ، أورده في اليتيمة :

لنا قاض له راس من الخفة مملوء

وفي أسفله داء بعيد منكم السوء

وأورد له أيضاً :

إن قاضينا لأعمى أم على عمد تعامى

سرق العيد كأن العيد أموال اليتامى

وأورد له ايضاً :

يا قاضياً بات اعمى عن الهلال السعيد

أفطرت في رمضان وصمت في يوم عيد

وفي ثمرات الاوراق للحمويني :

إن قاضياً أسمه تاج الدين ، وله غلامان يعلوانه احدهما اسمه ياقوت والثاني جوهر ، فقال بعضهم فيه :

قلت لتاج الدين في خلوة وقد علاه عبده الاكبر

التاج يعلو فوقه غيره قال نعم ياقوت اوجوهر

ونقل لي الاخ فضيلة الشيخ اسماعيل الشيخ محمد صالح الجزائري ان أباه الشيخ محمد صالح (رحمه الله) كتب الى ولده الشيخ نور الدين بيتين من الشعر :

أنور الدين ان تطلب علوماً تفقه فالفقيـــه له مزيه
ولا تك قاضياً ما دمت حياً فان به كما يروى قضية

قرأت في كتاب (اخبار القضاة) :

قال ابو هفان : جاء أعرابي من بني تميم الى يحيي بن اكثم فمدحه فحرمه فقال :

قل لابن اكثم يحيي خبت من رجل يرى الى اقبح الافعال منسوبا
فسقاً وبخلا واخلاقا مذممـــة إن كنت في الجنبر كاباوس كوبا
لا تفخرن فلولا عظم ما اجترحت ايدي البرية ما اصبحت محجوبا
إني لراج سريعاً ان اراك به في الدين والمال محزوناً ومسلوبا

فما مضى عليه شهر حتى اوقع به المتوكل .

وفيه ايضاً :

وانشدنا احمد بن ابي خيثمة لموسى شهوات ، يهجو سعد بن ابراهيم

قل لسعد وجه العجوز لقد كنت لما اتيت سعد مخيلا
إن تكن ظالماً جهولا فقد كا ن ابوك الادنى ظلوماً جهولا

وقال موسى يهجوه :

لعن الله والعباد نطيط الوجه لا يرتجى قبيح الجواري
يتقي الناس فحشه واذاه مثل ما يتقون بول الحمار
لا يغرنك سجدة بين عينيه حذاراً منها ومنها حـذار
إنها سجدة بها يخدع الناس عليها من سجدة بالدبار

وقال موسى ايضاً يهجوه ، انشدنيها عبد الله بن الحسين ، عن النميري :

هلال بن يحيى غرة لاخفا بها   على الناس في عسر الزمان وفي اليسر
وسعد بن ابراهيم ظفر موسخ   متى يستريح الناس من وسخ الظفر

وفيه ايضاً :

روي لنا ان الملك العزيز كتب الى القاضي ابي الطيب الطبري :

يا ايها العالم ماذا ترى   في عاشق ذاب من الوجد
من حب ظبي اهيف اغيد   سهل المحيا حسن القد
فهل ترى تقبيله جائزاً   في النحر والعينين والخد
من غير ما فحش ولا ريبة   بل بعناق جائز الحـــد
إن انت لم تفت فاني اذاً   اصيح من وجدي واستعدي

فأجابه :

يا ايها السائل اني ارى   تقبيلك العين مع الخد
يفضي الى ما بعده فاجتنب   تقبيله بالجد والجهـد
فان من يرتع في روضة   لابد ان يجني من الورد
وان من تحسبه ناسكا   يغلب عند الانس بالمرد
فاستعمل العفة واعص الهوى   يسلم لك الدين مع الود
تغنيك عنه كاعب ناهد   تضمه بالملك وبالعقـد
تبلغ منها كلما تشتهي   من غير ما فحش ولا رد
هذا جوابي لقتيل الهوى   فلا تكن في الحق تستعدي

في الجزء الرابع ص ٤٠٣ من يتيمة الدهر للثعالبي :

ابو جعفر البحاث ، محمد بن الحسين بن سليمان من (زوزن) احدى كور (نيسابور) مشهور بالأدب والعلم ، وكان له محل من الشعر وتصرف في القضاء ببلاد خراسان وانشد قول ابن المنجم :

فلا تجعلني للقضاة فريسة   فأن قضاة العالمين لصوص
مجالسهم فينا مجالس شرطة   وايديهم دون الشصوص شصوص

فقال مجيزاً لها :

سوى عصبة منهم تخص بعفة   ولله في حكم العموم خصوص
خصوصهم زان البلاد وإنما   يزين خواتيم الملوك فصوص

لعبد الباقي العمري :

وقاض بجور ماله من مضارع   على انه في العسف اقطع من ماضي
يقولون يقضي قلت لكن بباطل   وقالوا يقص الحق قلت بمقراض

حق المستشير

قوله (عليه السلام) :

« أما حق المستشير ان علمت له رأياً حسناً أشرت عليه بما تعلم انك لو كنت مكانه عملت به ، وليكن ذلك منك في رحمة ولين ، فان اللين يؤنس الوحشة ، وإن الغلظة توحش موضع الأنس ، وان لم يحضرك له رأي وعرفت له من تثق برأيه وترضى به لنفسك دللته عليه وارشدته اليه فكنت لم تأله خيراً ، ولم تدخره نصحاً ، ولا قوة إلا بالله » .

* * *

إن الحياة تقضي على الناس بالمشاورة ، لأن الفرد الواحد ينظر الى الدنيا بعينين ، والمستشير ينظر اليها بعيون كثيرة ، فاذا خفي عليه جانب من جوانبها وضح ذلك الجانب للمستشار ، على أن الانسان لا يخلو أحيانا من ارتباك فكر واضطراب نفس ، وقلق خاطر ، وتفاجئه أحياناً حوادث وهو في هم يزعجه وألم يمضه ، وشغل يأخذ من انتباهه وشعوره .

ومن المعروف عند الشعوب عامة ، إن الاستبداد في الرأي والتدبير باب للخطأ وعرضة للغلط ، ومظنة التقصير ، لأن العقول لا تحيط بكل شيء ، ولا تضمن النجاح في كل فكر ، ولذلك اخذت الشعوب بالشورى في الرأي بالسياسة وكان لها مجالس لمبادلة الآراء ومناقشة الاقتراحات .

لهذا النقص الواضح في الاستبداد كان الاسلام يدعو الى الشورى ، وكان اهل البيت (عليهم السلام) يدعون الى المشاورة ومبادلة الرأي .

ولكن المشاورة لا ينبغي ان تكون مجازفة تطلع كل إنسان على سرك ، وتكشف مضمراتك لكل احد ، كما ان المشاورة لاينبغي ان تطلبها ممن ليس هو

اهل لها ، وليس له مواهب ولا ملكات ترشحه لأن يكون مستشاراً مؤتمناً .

قال الامام الصادق عليه السلام : « إن المشورة لا تكون إلا بحدودها وإلا كانت مضرتها على المستشير اكثر من منفعتها له فأولها ان يكون الذي تشاوره عاقلا . والثانية ان يكون حراً متديناً . والثالثة صديقاً مؤاخياً . والرابعة ان تطلعه على سرك فيكون علمه به كعلمك بنفسك ثم يسر ذلك ويكتمه . فانه إذا كان عاقلا انتفعت بمشورته ، وان كان حراً متديناً اجهد نفسه في النصيحة لك ، وإذا كان صديقاً مؤاخياً كتم سرك اذا اطلعته عليه ، واذا اطلعته على سرك فكان علمه به كعلمك به تمت المشورة وكملت النصيحة . فاذا تكاملت هذه الاوصاف ، واجتمعت هذه الشروط فالاستشارة لا معدى عنها ولا معرة فيها لمن يحاول نجاح الامور والظفر بالفوز .

اجل فليس كل فرد صالحاً لهذه المهمة ، وإنما الرأي الحصيف مختمر عند من خبروا الحياة وبلوها ، وعرفوا خيرها وميزوا شرها .

واذا استشارك شخص فسر على ضوء قول الامام السجاد عليه السلام : بأن تعلم ان قد اولاك ثقته واطمئنانه الى حسن رأيك ، فاجهد ان تعطيه الرأي السديد ، والذي تستطيع ان تعمل به لو كنت مكانه . ويجب ان تبدي رأيك واضحا من غير غموض ، برفق ولين من غير عنف وغلظة ، فلست بمكره لمستشيرك على ان يعمل ما ترى ، وانما الذي دفعه الى استشارتك ظنه انك تملك رأيا حسنا وتجربة في الحياة وخبرة ، اما اذا لم تجد عندك رأيا ، فليس بأقل من ان ترشده الى شخص تثق به ويثق بك ذو الرأي من الناس ، فتكون قد قمت بحقه ، واديت ما عليك من الواجب .

ومن اروع ماجاء في حكم الامام الحسن عليه السلام في الشورى قوله :

« الرجال ثلاثة : رجل رجل ، ورجل نصف رجل ، ورجل لا رجل ،

فالرجل الذي هو رجل من كان ذا عقل واستشار ذوي العقول ، والذي هو نصف رجل ، من كان ذا عقل واستبد بعقله ، والذي هو لا رجل : من لم يكن ذا عقل ولم يستشر ذوي العقول » .

فالمشورة اذن هي عنوان كمال الانسان ، وكرامته ، وعصمته من التهافت وهي الوقاية الاولى للرجل الكبير من الخطأ باللسان والخطل في الجنان ، وكم تهافتت الملوك وتهاوت الارؤس من سوء ما يستبدون بعقولهم ، او من سوء ما يختارون من مستشاريهم .

والله سبحانه ، وان لم يكن رسوله مفتقراً بمشاورة من هو دونه من اصحابه ولا الى حاجة منه الى رأيهم ، ولكن ليعلم ما في المشاورة من بركة . وقيل امره بذلك تألفا لهم وتطييبا لنفوسهم . وقيل ليستن بذلك المسلمون . فهو في غير حاجة الى عقولهم ما دام رسولا يوحى اليه ما يسدد فكره ويغنيه عن فكر غيره ، وانما يريد بذلك تعليمنا . ان الانسان ناقص ما استقل عن اخيه الانسان فاذا شاركه في الرأي كان كاملا ، يعلمنا كيف نحيا ، وان الحياة فينا انما تقوم على التضامن والتكافل والتعاون في كل شيء من اشياء هذه الحياة .

ومن المعلوم ان لكل نبي مستشاراً ، ولكل ملك مستشار ، ولكل وزير كذلك مستشار يفضون اليهم بما يرون من تدبير الرعية وحماية الملك .

وفي الاخبار « ان لكل نبي اوصياء يتعاقبون على تعزيز شريعتـه » . والوصي الاول هو مستشاره ، ثم يأتي بعد ذلك توارثهم هذا التشاور واحداً بعد واحد .

فالذي يصلنا من التاريخ المجهول على لسان الوحي : ان سليمان النبي كان له مستشار حكيم هو الذي اجابه حين طلب منهم ان ينقلوا اليه عرش ملكة سبأ من اليمن الى البيت المقدس حيث كان سليمان ، كما عبر الله عن ذلك بقوله :

« قال الذي عنده علم من الكتاب ، انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك » هذا مستشار سليمان ، وتسميه قصص الانبياء (آصف بن برخيا) .

والنبي موسى بن عمران عليه السلام كان له مستشار هو اخوه هارون ، إذ ناجى موسى ربه يسأله وزيراً من اهله يشركه في امره ويشد به ازره .

وعيسى عليه السلام كان له مستشارون هم حواريوه ، إذ شاورهم في امره وسألهم نصرته على اعدائه .

وهكذا نصل الى نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد كان يستشير اصحابه حين امره الله تعالى بذلك في قوله عز من قائل : « وشاورهم في الامر » .

وقد جمع اصحابه بعد يوم الاحزاب يستشيرهم في ماذا يصنع باليهود الذين خانوه ونكثوا عهده معهم ، وقد اخرجهم من معاقلهم ، فلما مثلوا بين يديه قال : اين السعود ؟؟ فجاءه سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، وسعد بن ابي وقاص ، واستشارهم في الناكثين . فقالوا نقتل رجالهم ونستحي نساءهم وذراريهم . فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « لقد حكمتم بحكم الله فيهم » .

ومنها لما نزل ببدر بأدنى ماء هناك ، قال له الحباب بن المنذر يا رسول الله أرأيت هذا المنزل امنزل انزلكه الله تعالى ليس لنا متقدم ولا متأخر عنه ، ام هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فقال بل الرأي والحرب والمكيدة . فقال الحباب : فان هذا ليس بمنزل فانهض يا رسول الله بالناس حتى تأتي ادنى منزل من القوم ، فتنزل على مائه ، ثم تغير ما ورائه من القلب والآبار ، وتعمل لك حوضاً فتملأه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربوا . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ولقد اشرت بالرأي . فنهض صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه وسار حتى اتى ادنى ماء من القوم فنزل عليه ، وعمل ما اشار به الحباب بن المنذر .

ولقد كان الامام علي (ع) مستشاره الاول إذ قال صلى الله عليه وآله وسلم : « انا مدينة

العلم وعلي بابها ، فمن اراد المدينة فليأت الباب » .

وفي هذا دليل على انه كان يشارك وصيه في امره ويفضي اليه بسره .
ولهذا قال ﷺ : « اقضاكم علي » فكان علي اثبت الخلفاء الراشدين على ولايته للرسول ، واحفظهم لعهده ، واوفاهم لرسالته من بعده ، وقول الخليفة الثاني في حقه : « لولا علي لهلك عمر ، وقوله : لا ابقاني الله لمعضلة ليس لها ابو حسن » .

والمشورة التي يأمر الله بها رسوله ليعلم بها عباده ، قاصرة على ذوي العقول والايمان ، لان العاقل لا يخطىء والمؤمن لايغش ، ومن استشار ذوي العقول شاركهم في عقولهم ، فان العقل الى العقل الهام رباني وقد قيل في الكلام المأثور (الذود الى الذود إبل) يشير الى ضم الفرد الى الفرد يشكل جماعة ، والجماعة اقوى من الفرد في تعزيز الحياة ، فاذا اردت ان تقدم على امر وانت قدوة لغيرك كان عليك ان تتصرف باكثر من عقل ، لان امر القائد ليس مفروضاً على فرد وإنما هو فرض على جماعة قد تكون شعباً او امة .

لهذا كانت الشورى من لوازم السيادة ، وكان مستشار الملك او القائد شريكا له في سيادته بما ينصح ويعظ ، وبما يسدي الى السيد من رأي حصيف يستعين به على رعاية شعبه وتوجيه امته ، هكذا يفهم الحريص على الانسانية من قوله تعالى مخاطباً رسوله : « واستغفر لهم وشاورهم في الامر » ونعت عباده المؤمنين بقوله عز من قائل : « وامرهم شورى بينهم » .

واستشار امير المؤمنين علي (عليه السلام) اصحابه عندما اراد المسير الى حرب معاوية : قال ابن ابي الحديد في المجلد الاول من شرح النهج من الطبعة الاولى : « لما اراد علي (ع) المسير الى الشام دعا من كان معه من المهاجرين والانصار ، فجمعهم ثم حمد الله واثنى عليه وقال : « اما بعد فانكم ميامين الرأي

مراجيح الحلم مقاويل بالحق ، وقد عزمنا على المسير الى عدونا وعدوكم ، فأشيروا علينا برأيكم :

فقام هاشم بن عتبة بن ابي وقاص ، فحمد الله واثنى عليه وقال : أما بعد يا امير المؤمنين فأنا بالقوم جد خبير ، هم لك ولاشياعك اعداء ، وهم لمن يطلب حرث الدنيا اولياء وهم مقاتلوك ومجادلوك ، لا يبغون جهداً مشاحة على الدنيا وضناً بما في أيديهم منها ليس لهم اربة غيرها إلا ما يخدعون به الجهال من طلب دم ابن عفان ، كذبوا ليسوا لدمه ينفرون ولكن الدنيا يطلبون ، انهض بنا اليهم فان اجابوا الى الحق فليس بعد الحق إلا الضلال ، وان ابوا الا الشقاق فذاك ظني بهم ، والله ما اراهم يبايعون وفيهم احد ممن يطاع اذا نهى ولا يسمع اذا امر .

وقام عمار بن ياسر (ره) فحمد الله واثنى عليه وقال : يا امير المؤمنين ان استطعت ان لا تقيم يوماً واحداً فافعل ، اشخص بنا قبل استعار نار الفجرة واجتماع رأيهم على الصدود والفرقة ، وادعهم الى حظهم ورشدهم فان قبلوا سعدوا وان ابوا إلا حربنا فو الله ان سفك دمائهم والجد في جهادهم لقربة عند الله وكرامة منه .

وقام قيس بن سعد بن عباده فحمد الله واثنى عليه ثم قال : ياأمير المؤمنين انكمش بنا الى عدونا ولا تعرج ، فو الله لجهادهم احب الي من جهاد الترك والروم ، لادهانهم في دين الله واستذلالهم اولياء الله من اصحاب محمد ﷺ من المهاجرين والانصار والتابعين باحسان ، اذا غضبوا على رجل حبسوه وضربوه وحرموه وسيروه ، وفيؤنا لهم في انفسهم حلال ونحن لهم فيما يزعمون قطين .

ثم قام سهل بن حنيف فحمد الله واثنى عليه ثم قال يا امير المؤمنين نحن سلم لمن سالمت وحرب لمن حاربت ورأينا رأيك ونحن يمينك ، وقدر رأينا ان تقوم في اهل الكوفة فتأمرهم بالشخوص وتخبرهم بما صنع لهم في ذلك من الفضل

فانهم اهل البلد وهم الناس فان استقاموا لك استقام لك الذي تريد وتطلب ، فاما نحن فليس عليك خلاف منا ، متى دعوتنا أجبناك ومتى امرتنا اطعناك .

وقام الاشتر فقال : ياأمير المؤمنين إن جميع من ترى من الناس شيعتك لايرغبون بأنفسهم عن نفسك ولايحبون البقاء بعدك ، فان شئت فسر بنا الى عدوك فو الله ماينجو من الموت من خافه ولايعطى البقاء من احبه ، وانا لعلى بينة من ربنا وان انفسنا لن تموت حتى يأتي اجلها ، وكيف لانقاتل قوماً هم كما وصف امير المؤمنين ، وقد وثبت عصابة منهم على طائفة من المسلمين بالامس وباعوا خلاقهم بعرض من الدنيا يسير .

وقام عدي بن حاتم الطائي بين يدي علي (ﷺ) فحمد الله واثنى عليه ، وقال : ياامير المؤمنين ماقلت إلا بعلم ولادعوت إلا الى حق ولا أمرت إلا برشد ، ولكن إذا رأيت ان تستأني هؤلاء القوم وتستديمهم حتى تأتيهم كتبك وتقدم عليهم رسلك فعلت فان يقبلوا يصيبوا رشدهم والعافية اوسع لنا ولهم ، وإن يتمادوا في الشقاق ولاينزعوا عن الغي نسير اليهم وقد قدمنا اليهم بالعذر ودعوناهم الى مافي ايدينا من الحق ، فو الله لهم من الحق ابعد وعلى الله اهون من قوم قاتلناهم امس بناحية البصرة لما دعوناهم الى الحق فتركوه ، ناوخناهم براكاء القتال حتى بلغنا منهم مانحب ، وبلغ الله منهم رضاه فيما يرى .

وقام زيد بن حصين الطائي وكان من اصحاب البرانس المجتهدين ، فقال : الحمد لله حتى يرضى ولا إله الا الله ربنا ، اما بعد فوالله إن كنا في شك من قتال من خالفنا ، لاتصلح لنا النية في قتالهم حتى نستديمهم ونستأنيهم ، ماالاعمال إلا في تباب ولاالسعي إلا في ضلال والله تعالى يقول : «وأما بنعمة ربك فحدث» إننا والله ماارتبنا طرفة عين فيمن يتبعونه فكيف بأتباعه القاسية قلوبهم القليل من الاسلام حظهم اعوان الظلمة واصحاب الجور والعدوان ليسوا من المهاجرين

والانصار ولاالتابعين باحسان .

وقام يزيد بن قيس الارحبي ، فقال : ياامير المؤمنين نحن اولو جهاز وعدة وأكثر الناس اهل قوة ، ومن ليس به ضعف ولاعلة ، فمر مناديك فليناد الناس يخرجوا الى معسكرهم بالنخيلة ، فان اخا الحرب ليس بالسؤم ولاالنؤم ولا من اذا أمكنته الفرص اجلها واستشار فيها، ولا من يؤخر عمل الحرب اليوم لغد وبعدغد .

وقام زياد بن النضر وقال لقد نصح لك يزيد بن قيس ياامير المؤمنين وقال مايعرف ، فتوكل على الله وثق به واشخص بنا الى هذا العدو راشداً معاناً فان يرد الله بهم خيراً لايتركوك رغبة عنك الى من ليس له مثل سابقتك وقدمك ، وإلا ينيبوا ويقبلوا وابوا إلا حربنا نجد حربهم علينا هينا ونرجو ان يصرعهم الله مصارع اخوانهم بالأمس .

وقام عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي ، فقال : ياامير المؤمنين ان القوم لوكانوا الله يريدون ولله يعملون ماخالفونا ولكن القوم إنما يقاتلوننا فراراً من الأسوة وحباً للاثرة وضناً بسلطانهم وكرها لفراق دنياهم التي في ايديهم وعلى إحن في نفوسهم وعداوة يجدونها في صدورهم لوقائع اوقعتها ياامير المؤمنين بهم قديمة قتلت فيها آباءهم واعوانهم . ثم التفت إلى الناس فقال : كيف يبايع معاوية علياً وقد قتل اخاه حنظلة وخاله الوليد وجده عتبة في موقف واحد والله ماأظنهم يفعلون ولن يستقيموا لكم دون ان تقصف فيهم قنا المران وتقطع على هامهم السيوف وتنثر حواجبهم بعمد الحديد وتكون امور جمة بين الفريقين.

وقال عمرو بن الحمق : والله ياامير المؤمنين اني ما أحببتك ولابايعتك على قرابة بيني وبينك ولاإرادة مال تؤتينيه ولاالتماس سلطان ترفع ذكري به ، ولكنني احببتك بخصال خمس : إنك ابن عم رسول الله ﷺ ووصيه وابو الذرية التي بقيت فينا من رسول الله ﷺ واسبق الناس الى الاسلام واعظم

المهاجرين سهماً في الجهاد ، فلو اني كلفت نقل الجبال الرواسي ونزح البحور الطوامي حتى يأتي علي يومي في امر أقوي به وليك واهين عدوك مارايت اني قد اديت فيه كل الذي يحق علي من حقك . فقال علي ﷺ : اللهم نور قلبه بالتقى واهده إلى صراطك المستقيم » ليت في جندي مائة مثلك .

وقام حجر بن عدي فقال يا امير المؤمنين نحن بنو الحرب واهلها الذين نلقحها ونتنتجها ، قد ضارستنا وضارسناها ، ولنا اعوان وعشيرة ذات عدد ورأي مجرب وبأس محمود ، وأزمتنا منقادة لك بالسمع والطاعة ، فان شرقت شرقنا وإن غربت غربنا ، ومامرتنا به من امر فعلنا . فقال علي (عليه السلام) أكل قومك يرى مثل رأيك . قال مارايت منهم إلا حسناً وهذه يدي عنهم بالسمع والطاعة وحسن الاجابة . فقال له علي (عليه السلام) خيراً . فمند ذلك عزم (عليه السلام) على المسير وكتب الى الامصار يدعوهم للجهاد .

وشاور عمر بن الخطاب امير المؤمنين علياً (عليه السلام) في خروجه الى غزو الروم بنفسه . فأشار عليه امير المؤمنين بعدم الخروج فأخذ برأيه والتزم به .

ادرك عمر مالعلي من اثر بليغ في الشريعة والسنة ، ومن قضاء حكيم ، ورأي صحيح ومشورة محترمة فاندفع لليه مسترشداً ، ووضع بين يديه امهات المسائل يلتمس حلها ويوفي عمراً امرها .

ذكر ابن ابي الحديد ، في المجلد الثاني من شرح النهج ص٣٨٩ من الطبعة الاولى

ان علياً (عليه السلام) قال له « وقد توكل الله لأهل هذا الدين باعزاز الحوزة ، وستر العورة ، والذي نصرهم وهم قليل لاينتصرون ، ومنعهم وهم قليل لايمتنعون ، حي لايموت إنك متى تسر الى هذا العدو بنفسك فتلقهم فتنكب لاتكن للمسلمين كانفة دون اقصى بلادهم ، ليس بعدك مرجع يرجعون اليه ، فابعث اليهم رجلا محرّباً ، وأحفز

معه اهل البلاء والنصيحة ، فان اظهر الله فذاك ماتحب ، وان تكن الأخرى كنت ردءاً للناس ومثابة للمسلمين » .

اشار (عليه السلام) عليه ان لايشخص بنفسه حذراً ان يصاب فيذهب المسلمون كلهم لذهاب الرأس ، بل يبعث اميراً من جانبه على الناس ويقيم هو بالمدينة فان هزموا كان مرجعهم اليه .

واستشاره ايضاً في الشخوص لقتال الفرس بنفسه . قال ابن ابي الحديد في المجلد المذكور ص ٤٢٤ اشار عليه علي (عليه السلام) ان لايخرج بنفسه ، وقال له : « إن هذا الامر لم يكن نصره ولاخذ لانه بكثرة ولا بقلة ، وهو دين الله الذي أظهره ، وجنده الذي اعده وامده حتى بلغ ما بلغ وطلع حيثما طلع ، ونحن على موعود من الله والله منجز وعده وناصر جنده ، ومكان القيم بالامر مكان النظام من الخرز يجمعه ويضمه ، فاذا انقطع النظام تفرق الخرز وذهب ثم لم يجتمع بحذافيره ابداً ، والعرب اليوم وان كانوا قليلا فهم كثيرون بالاسلام عزيزون بالاجتماع ، فكن قطباً واستدر الرحى بالعرب واصلهم دونك نار الحرب فانك إن شخصت من هذه الارض انتقضت عليك العرب من اطرافها واقطارها ، حتى يكون ماتدع وراءك من العورات اهم اليك مما بين يديك . ان الاعاجم ان ينظروا اليك غداً يقولوا : هذا اصل العرب فاذا اقتطعتموه استرحتم فيكون ذلك اشد لكلبهم عليك وطمعهم فيك ، فأما ماذكرت من مسير القوم الى قتال المسلمين فان الله سبحانه هو اكره لمسيرهم منك ، وهو اقدر على تغيير مايكره ، واما ماذكرت من عددهم فانا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة وانما كنا نقاتل بالنصر والمعونة » .

واستشاره ايضا في تعيين التاريخ الاسلامي ، فاشار عليه امير المؤمنين (عليه السلام) ان يكون من هجرة النبي (ص) فعمل به .

قال ابن جرير الطبري في تاريخه ج٢ ص٢٥٣ الطبعة الاولى الحسينية ما نصه: « حدثني عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم قال حدثنا نعيم بن حماد قال حدثنا الدراوردي عن عثمان بن عبيد الله بن ابي رافع قال سمعت سعيد بن المسيب يقول: جمع عمر بن الخطاب الناس فسألهم فقال من اي يوم نكتب؟ فقال علي (عليه السلام) من يوم هاجر رسول الله (ص) وترك ارض الشرك ففعله عمر.

وذكره المتقي في كنز العمال ج ٥ ص ٢٤٤ ماذكره الطبري في تاريخه من رجوع عمر الى امير المؤمنين (ع) في تعيين التاريخ الهجري.

وذكره السيوطي في تاريخ الخلفاء ص ٩٤ مانصه: وأخرج البخاري عن ابن المسيب قال: اول من كتب التاريخ عمر بن الخطاب لسنتين ونصف من خلافته، فكتب لست عشرة من الهجرة بمشورة علي.

وقال ابن كثير في البداية والنهاية ج ٧ ص ٧٣ مانصه: وفي ربيع الاول من هذه السنة - أعني سنة ست عشرة - كتب عمر بن الخطاب التاريخ وهو اول من كتبه، ثم قال ابن كثير: قلت: قد ذكرنا سببه في سيرة عمر وذلك انه رفع الى عمر صك مكتوب لرجل على آخر بدين يحل عليه في شعبان فقال: أي شعبان؟ أمن هذه السنة ام التى قبلها ام التى بعدها؟ ثم جمع الناس فقال: ضعوا للناس شيئاً يعرفون منه حلول ديونهم، فيقال انهم أراد بعضهم ان يؤرخوا كما تؤرخ الفرس بملوكهم كلما هلك ارخوا من تاريخ ولاية الذي بعده فكرهوا ذلك، ومنهم من قال: ارخوا بتاريخ الروم من زمان اسكندر فكرهوا ذلك ولطوله ايضا، وقال قائلون: ارخوا من مولد رسول الله (ص) وقال آخرون: من مبعثه (ص) وأشار علي بن ابي طالب (ع) وآخرون ان يؤرخ من هجرته من مكة الى المدينة لظهوره لكل احد فانه اظهر من المولد والمبعث، فاستحسن عمر والصحابة فأمر عمر ان يؤرخ من هجرة

رسول الله (ص) وارخوامن اول تلك السنة من محرمها ».

وقال رسول الله (ص) : « ماندم من استشار ، ولاخاب من استخار ».

وقيل له (ص) : « ماالحزم قال مشاورة ذوي الرأي واتباعهم » .

وقال : « ماشقي عبد قط بمشورة ، ولاسعد باستغناء رأي » .

وفي كتاب (نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة) .

قال : « إذا كان أمراؤكم خياركم ، وأغنياؤكم سمحاءكم ، وأمركم شورى بينكم ، فظهر الأرض خير لكم من بطنها ، واذا كان امراؤكم شراركم ، وأغنياؤكم بخلاءكم ، ولم يكن امركم شورى بينكم ، فبطن الارض خير لكم من ظهرها » .

وقال : « المستشار مؤتمن ، والمستشير معان »

وقال : « لامظاهرة أوثق من المشاورة ، ولاعقل كالتدبير » .

وقال : «الحزم ان تستشير ذا الرأي وتطيع امره » .

وقال : « استرشدوا العاقل ترشدوا ولاتعصوه فتندموا » .

وقال : « إذا أشار عليك العاقل الناصح فاقبل ، واياك والخلاف عليه فان فيه الهلاك » .

وقال امير المؤمنين علي (عليه السلام) : « من استبد برأيه هلك ، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها » .

وقال : «استشر أعداءك تعرف من رأيهم مقدار عداوتهم ومواضع مقاصدهم » .

وقال : « لاظهير كالمشاورة » .

وقال : « ولامظاهرة أوثق من المشاورة » .

وقال : « والاستشارة عين الهداية ، وقد خاطر من استغنى برأيه ».

وقال : « ماعطب امرء استشار » .

وقال : « من لم يستشر يندم » .

وقال : « لارأي لمن انفرد برأيه » .

وقال : « من شاور ذوي الألباب دل على الرشاد » .

وفي كتاب (محاسن البرقي) عن الامام الباقر (عليه السلام) إنه قال : « في التوراة أربعة أسطر : من لايستشر يندم ، والفقر الموت الأكبر ، كما تدين تدان ، ومن ملك استأثر » .

وفي كتاب (أخلاق آل محمد)

قال الامام الصادق (عليه السلام) : « ما يمنع احدكم إذا ورد عليه مالاقبل له به ان يستشير رجلا عاقلا له دين وورع . ثم قال (ع) : أما انه إذا فعل ذلك لم يخذله الله ، بل يرفعه الله ، ورماه بخير الامور ، واقربها إلى الله » .

وقال : « استشر العاقل من الرجال الورع فانه لايأمر الابخير ، وإياك والخلاف فان مخالفة الورع العاقل مفسدة في الدين والدنيا » .

وفي كتاب (نهج السعادة) قال (ع) : « المستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل » .

وقال : « لن يهلك امرؤ عن مشورة » .

وقال الامام الكاظم (عليه السلام) : « من استشار لم يعدم عند الصواب مادحاً ، وعند الخطأ عاذراً » .

وقال لقمان الحكيم في مواعظه لابنه : « يابني شاور الكبير ، ولاتستحي من مشاورة الصغير » .

وقال : « يابني اجعل عقل غيرك لك فيما تدعوك الحاجة إلى فعله ،

فقال ابنه : كيف اجمل عقل غيري ؟ قال تشاوره في أمرك » .

ومن بديع ما قالوه في المشورة

خاطر من استبد برأيه . المشورة راحة لك وتعب على غيرك . المستشير على طرف النجاح . الاستشارة من عزم الأمور . المشورة لقاح العقول ورائد الصواب .وقال بعض البلغاء : إذا أنكرت من عقلك شيئاً فاقدحه بعاقل . وقالوا : مادة العقل من العقول كمادة النهر من السيول . ومن كلامهم: ينبغي للعاقل أن يجمع إلى عقله عقل العقلاء ، وإلى رأيه رأي الحكماء . ومن امثال العرب : اول الحزم المشورة . وقال بعضهم : الرجال ثلاثة : رجل ينظر في الأمور قبل ان تقع فيصدرها مصادرها ، ورجل متواكل لايتأمل ، فاذا نزلت به نازلة شاور اصحاب الراي وقبل قولهم ، ورجل حائر بائر ، لايأتم راشداً ولا يطيع مرشداً . سئل بعض الحكماء : اي الأمور أشد تأييداً للعقل ، وايها اشد إضراراً به ؟ فقال : اشدها تأييداً له ثلاثة اشياء : مشاورة العلماء ، وتجربة الأمور ، وحسن التثبت ، واشدها إضراراً به ثلاثة اشياء : الاستبداد ، والتهاون والعجلة .

واشار حكيم على حكيم برأي فقال : لقد قلت بما يقول الناصح الشفيق الذي يخلط حلو كلامه بمره ، وسهله بوعره ، ويحرك الاشفاق منه ماهو ساكن من غيره ، وقد وعيت النصح وقبلته إذ كان مصدره عند من لايشك في مودته ، وصفاء غيبه ، ونصح حبيبه ، ومازلت بحمد الله إلى الخير طريقاً واضحاً ومناراً بيناً .

وقال او شنهج في وصاياه للملوك وولده : اربع خصال ضعة في الملوك

والاشراف : التعظم ، ومجالسة الاحداث والنساء ومشاورتهن ، وترك مايحتاج اليه من الامور فيما يعمله بيده ويحضره بنفسه ، لايكون الملك ملكا حتى يأكل من غرسه ، ويلبس من طرازه ، وينكح من تلاده ، ويركب من نتاجه ، واحكام هذه الامور بالتدبير ، والتدبير بالمشورة ، والمشورة بالوزراء الناصحين المستحقين لرتبهم . وقيل اذا استشرت انساناً صار عقله لك . وقال اعرابي : ما غبنت قط حتى يغبن قومي . قيل : وكيف ذاك ؟ قال لاافعل شيئا حتى اشاورهم .

وفي آداب ابن المقفع : لايقذفن في روعك انك اذا استشرت الرجال ظهر منك للناس حاجتك الى رأي غيرك فيقطعك ذلك عن المشاورة ، فانك لاتريد الرأي للفخر ، ولكن للانتفاع به ولوانك اردته للذكر ، لكان احسن الذكر عند العقلاء ان يقال انه : لاينفرد برأيه دون ذوي الرأي من إخوانه .

وفي المجلد الخامس (من نهاية الارب في فنون الادب) قال بشار :

اذا بلغ الرأي المشورة فاستعن   برأي نصيح او نصيحة حازم
ولا تحسب الشورى عليك غضاضة   فان الخوافي رافدات القوادم

قال الاصمعي : قلت لبشار : ان الناس يعجبون من ابياتك في المشورة ، فقال : ياابا سعيد ، ان المشاور بين صواب يفوز بثمرته ، وخطأ يشارك في مكروهه . فقلت : انت والله في قولك اشعر منك في شعرك .

وقال برز جمهر : افره مايكون من الدواب لاغنى به عن السوط ، واعقل مايكون من النساء لاغنى بها عن الزواج ، وادهى مايكون من الرجال لاغنى به عن المشورة .

وفي كتاب ابرويز الى ابنه شيرويه وهو في حبسه : « عليك بالمشاورة فانك واجد في الرجال من ينضج لك الكي ويحسم عنك الداء ويخرج لك المستكن ، ولا يدع لك في عدوك فرصة الا انتهزها ، ولا لعدوك فيك فرصة الا حصنها ،

ولا يمنعك شدة رأيك في ظنك ولا علو مكانك في نفسك من ان تجمع الى رأيك رأي غيرك ، فان احمدت اجتنيت وان ذممت نقيت ، فان في ذلك خصالا : منها انه ان وافق رايك ازداد رايك شدة عندك ، وان خالف رايك عرضته على نظرك ، فان رأيته معتليا لما رايت قبلت ، وان رايته متضعاً عنه استغنيت ، ومنها انه يجدد لك النصيحة من شاورت وان اخطأ ، ويمحض لك مودته وان قصر » .

قرأت في كتاب (عيون الاخبار) لابن قتيبة : « ان ملكاً استشار وزراء له ، فقال احدهم : الملك الحازم يزداد برأي الوزراء الحزمة كما يزداد البحر بمواده من الانهار ، وينال بالحزم والرأي مالا يناله بالقوة والجنود ، وللاسرار منازل : منها ما يدخل الرهط فيه ، ومنها مايستعان فيه بقوم ، ومنها مايستغنى فيه بواحد . وفي تحصين السر الظفر بالحاجة والسلامة من الخلل . والمستشير وإن كان افضل راياً من المشير ، فانه يزداد برأيه رأيا كما تزداد النار بالسليط ضوءاً . واذا كان الملك محصنا لسره بعيداً من ان يعرف مافي نفسه متخيراً للوزراء مهيبا في انفس العامة ، كافيا بحسن البلاء لايخافه البريء ولا يأمنه المريب مقدراً لما يفيد وينفق ، كان خليقا لبقاء ملكه . ولا يصلح لسرنا هذا الا لسانان واربع آذان . ثم خلا به » .

وفي تفسير (مجمع البيان) للطبرسي ان بلقيس (ملكة سبا) استشارت اشراف قومها لما وقفت على كتاب سليمان فقالت لهم بعد ان جمعتهم اشيروا علي بالصواب ماكنت قاطعة امراً الا بحضرتكم ومشورتكم . فقالوا الامر اليك فانظري ماذا تأمرين (أي ماالذي تامريننا به لنمتثله فان امرت بالصلح صالحنا ، وان امرت بالقتال قاتلنا) . قالت : اني مرسلة اليه بهدية أصانعه بذلك عن ملكي ، فناظرة بم يرجع المرسلون ، بقبول ام رد . وانما فعلت ذلك لانها عرفت

عادة الملوك في حسن موقع الهدايا عندهم ، وكان غرضها ان يتبين لها بذلك انه ملك او نبي فان قبل الهدية تبين انه ملك وعندها مايرضيه ، وان ردها تبين انه نبي .

فعمدت الى خمسمائة غلام وخمسمائة جارية ، فالبست الجواري الاقبية والمناطق ، وألبست الغلمان في سواعدهم اساور من ذهب وفي اعناقهم اطواقا من ذهب ، وفي آذانهم اقراطا وشنوفا مرصعات بانواع الجواهر وحملت الجواري على خمسمائة رمكة والغلمان على خمسمائة برذون على كل فرس لجام من ذهب مرصع بالجواهر ، وبعثت اليه خمسمائة لبنة من ذهب وخمسمائة لبنة من فضة ، وتاجا مكللا بالدر والياقوت المرتفع . وعمدت الى حقة فجعلت فيها درة يتيمة غير مثقوبة وخرزة جزعية مثقوبة معوجة الثقب ، ودعت رجلا من اشراف قومها اسمه المنذر بن عمرو وضمت اليه رجالا من قومها اصحاب رأي وعقل ، وكتبت اليه كتابا بنسخة الهدية قالت فيها : ان كنت نبيا فميز بين الوصفاء والوصائف وأخبر بما في الحقة قبل ان تفتحها ، واثقب الدرة ثقبا مستويا وادخل الخرزة خيطا من غير علاج انس ولا جن . وقالت للرسول انظر اليه ان دخلت عليه فان نظر اليك نظرة غضب فاعلم انه ملك فلا يهولنك امره فانا اعز منه ، وان نظر اليك نظر لطف فاعلم انه نبي مرسل . فانطلق الرسول بالهدايا ، واقبل الهدهد مسرعا الى سليمان فأخبره الخبر ، فأمر سليمان الجن ان يضربوا لبنات الذهب ولبنات الفضة ففعلوا ، ثم امرهم ان يبسطوا من موضعه الذي هو فيه الى بضع فراسخ ميدانا واحداً بلبنات الذهب والفضة ، وان يجعلوا حول الميدان حائطا شرفه من الذهب والفضة ففعلوا ، ثم قال : للجن علي باولادكم فاجتمع خلق كثير فاقامهم على يمين الميدان ويساره ، ثم قعد سليمان في مجلسه على سريره ووضع له اربعة آلاف كرسي عن يمينه ومثلها عن يساره ، وامر الشياطين ان يصطفوا صفوفا فراسخ ، وامر الانس والجن فاصطفوا فراسخاً

وامر الوحش والسباع والهوام والطير فاصطفوا فراسخ عن يمينه ويساره . فلما دنا القوم من الميدان ونظروا الى ملك سليمان تقاصرت اليهم انفسهم ورموا بما معهم من الهدايا ، فلما وقفوا بين يدي سليمان نظر اليهم نظراً حسنا بوجه طلق وقال ماوراءكم فاخبره رئيس القوم بما جاؤا له واعطاه كتاب الملكة ، فنظر فيه وقال : اين الحقة فأتي بها وحركها وجاءه جبرائيل (ع) فاخبره بما في الحقة فقال · ان فيها درة يتيمة غير مثقوبة وخرزة مثقوبة معوجة الثقب . فقال الرسول صدقت فاثقب الدرة وادخل الخيط في الخرزة . فارسل سليمان الى الارضة فجاءت فاخذت شعرة في فيها فدخلت فيها حتى خرجت من الجانب الآخر ، ثم قال من هذه الخرزة يسلكها الخيط فقالت دودة بيضاء انا لها يارسول الله فاخذت الدودة الخيط في فيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر ، ثم ميز بين الجواري والغلمان بان امرهم ان يغسلوا وجوههم وايديهم فكانت الجارية تاخذ الماء من الآنية باحدى يديها ثم تجعله على اليد الاخرى ثم تضرب به الوجه ، والغلام كان ياخذ من الآنية يضرب به وجهه ، وكانت الجارية تصب الماء على باطن ساعدها والغلام على ظهر الساعد ، وكانت الجارية تصب الماء صبا والغلام يحدر الماء على يده حدرا فميز بينهما بذلك . وقيل انها انفذت مع هداياها عصا كان يتوارثها ملوك حمير ، وقالت اريد ان تعرفني رأسها من اسفلها وبقدح ماء وقالت تملأها ماء رواء ليس من الارض ولا من السماء . فارسل سليمان العصا الى الهواء وقال أي الرأسين سبق الى الارض فهو اسفلها ، وامر الخيل فاجريت حتى عرقت وملأ القدح من عرقها وقال ليس هذا من ماء الارض ولا من ماء السماء ·

قال سليمان : « اتمدونني بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم » أي ماأعطاني الله من الملك والنبوة والحكمة خير مما اعطاكم من الدنيا واموالها « بل انتم بهديتكم تفرحون » ثم قال للرسول ارجع اليهم بما جئت من الهدايا « فلنأتينهم بجنود

لاقبل لهم بها » .

وفي كتاب للهند : « من التمس من الاخوان الرخصة عند المشورة ، ومن الاطباء عند المرض ، ومن الفقهاء عند الشبهة ، اخطأ الرأي وازداد مرضاً وحمل الوزر » .

وقال عمر بن الخطاب : « الرأي الفرد كالخيط السخيل ، والرأيان كالخيطين المبرمين ، والثلاثة مرار لايكاد ينتقض » .

وكان يقال : من اعطي اربعا لم يمنع اربعاً : من اعطي الشكر لم يمنع المزيد ، ومن اعطي التوبة لم يمنع القبول ، ومن اعطي المشورة لم يمنع الصواب ، ومن اعطي الاستخارة لم يمنع الخيرة .

وسئل بعض العلماء : مابال العاقل ذي اللب لاتصيب مشورته على نفسه وتقصر عن اصابة الصواب وادراك المطلوب ، ومشورة غيره له تظفره بذلك ، فقال : ان مشورة الانسان لنفسه ممزوجة بالهوى ، ومشورة غيره له سالمة من ذلك ، ولا اصابة مع الهوى .

وفي هذا المعنى قال بعضهم :

إذا عنّ امر فاستشر فيه صاحباً وإن كنت ذا رأي تشير على الصحب
فاني رايت العين تجهل نفسها وتدرك ما قد حل في موضع الشهب

وقال الارجاني :

شاور سواك اذا نابتك نائبة يوما وان كنت من اهل المشورات
فالعين تنظر منها ما نأى ودنا ولا ترى نفسها الا بمرآة

وله ايضاً :

اقرن برأيك رأي غيرك واستشر فالحق لايخفى على الاثنين
فالمرء مرآت تريه وجهه ويرى قفاه بجمع مرآتين

وقال آخر :

الرأي كالليل مسود جوانبه ... والليل لاينجلي إلا باصباح
فاضمم مصابيح آراء الرجال الى ... مصباح رأيك تزدد ضوء مصباح

وقال آخر :

شاور صديقك في الخفي المشكل ... واقبل نصيحة ناصح متفضل
فالله قد اوصى بذاك نبيه ... في قوله شاورهم وتوكل

وقال آخر :

اذا كنت في حاجة مرسلا ... فارسل حكيماً ولا توصه
وان باب امر عليك التوى ... فشاور لبيبا ولا تعصه
ونص الحديث الى اهله ... فان الوثيقة في نصه
إذا المرء اضمر خوف الآله ... تبين ذلك في شخصه

وقال آخر :

تأن وشاور فان الامور ... منها مضيء ومستغمض
فرأيان افضل من واحد ... ورأي الثلاثة لاينقض

ولما اراد نوح بن مريم قاضي مرو أن يزوج ابنته ، استشار جاراً له مجوسياً ، فقال : سبحان الله الناس يستفتونك وانت تستفتيني . قال لابد ان تشير علي . قال : ان رئيس الفرس كسرى كان يختار المال ، ورئيس الروم قيصر كان يختار الجمال ، ورئيس العرب كان يختار الحسب ، ورئيسكم محمد كان يختار الدين ، فانظر لنفسك بمن تقتدي . وحكي ان رجلا من اهل يثرب يعرف بالاسلمي ، قال : ركبني دين اثقل كاهلي وطالبني به مستحقوه ، واشتدت حاجتي الى مالابد منه ، وضاقت علي الارض ، ولم اهتدي الى ما اصنع . فشاورت من اثق به من ذوي المودة والرأي ، فاشار علي بقصد المهلب بن ابي صفرة بالعراق . فقلت له

تمزمني المشقة وبعد الشقة ، وتيه المهلب . ثم اني عدلت عن ذلك المشير الى استشارة غيره فلا والله مازادني على ماذكره الصديق الاول . فرأيت ان قبول المشورة خير من مخالفتها . فركبت ناقتي وصحبت رفقة في الطريق وقصدت العراق ، فلما وصلت دخلت على المهلب فسلمت عليه ، وقلت له اصلح الله الامير اني قطعت اليك الدهناء وضربت اكباد الابل من يثرب ، فانه اشار علي بعض ذوي الحجى والرأي بقصدك لقضاء حاجتي . فقال : هل اتيتنا بوسيلة او بقرابة وعشيرة . فقلت : لا ولكني رأيتك اهلا لقضاء حاجتي فان قمت بها فأهل لذلك أنت ، وإن يحل دونها حائل لم أذم يومك ولم أيأس من غدك .

فقال المهلب : لحاجبه اذهب به وادفع اليه مافي خزانة مالنا السلعة . فأخذني معه فوجد في خزانته ثمانين ألف درهم فدفعها إلي ، فلما رأيت ذلك لم أملك نفسي فرحاً وسروراً . ثم عاد الحاجب بي لليه مسرعاً ، فقال : هل ماوصلك يقوم بقضاء حاجتك . فقلت . نعم ايها الامير وزيادة . فقال : الحمد لله على نجح سعيك واجتنائك جني مشورتك وتحقق ظن من اشار عليك بقصدنا . قال الاسلمي : فلما سمعت كلامه وقد احرزت صلته ، أنشدته وأنا واقف بين يديه :

يامن على الجود صاغ الله راحته فليس يحسن غير البذل والجود
عمت عطاياك اهل الارض قاطبة فانت والجود منحوتان من عود
من استشار فباب النجح منفتح لديه فيما ابتغاه غير مردود

ثم عدلت الى المدينة فقضيت ديني ووسعت على اهلي وجازيت المشير علي ، وعاهدت الله تعالى ان لا اترك الاستشارة في جميع اموري ماعشت .

وقلما رغب احد في المشورة وعمل بها إلا غنم ، ولا زهد فيها واعرض عن قبولها إلا ندم .

وصفوة القول من استشار ذوي الرأي والمعرفة في فعل ماعناه ، فقبل المشورة منهم ، واقتدى بآرائهم فيها . ولم يعدل عنها وعن قويم نهجها ، قل ان يخفق في مسعاه ; ويفوت مطلبه ، فان اعجزه القدر فهو معذور غير ملوم .

حكي عن منصور الدوانيقي : انه كان صدر من عمه عبد الله بن علي بن عبد الله ابن العباس امور مؤلمة لا تتحملها حراسة الخلافة ، ولا تتجاوز عنها سياسة الملك ، فحبسه عنده ، ثم بلغه عن ابن عمه عيسى بن موسى بن علي . ـ وكان والياً على الكوفه ـ ما افسد عقيدته فيه ، وصرف وجه ميله اليه عنه ، فتألم المنصور من ذلك ؛ وساء ظنه ، وتأرق جفنه ، وقل أمنه ، وتزايد خوفه ، فأدته فكرته إلى أمر دبره ، وكتمه عن جميع حاشيته ، واستحضر ابن عمه عيسى ابن موسى واجراه على عادة اكرامه ، ثم اخرج من كان بحضرته ، واقبل على عيسى وقال له : ياابن العم ، اني مطلعك على امر لا اجد غيرك من اهله ، فهل انت في موضع ظني بك ، وعامل مافيه بقاء نعمتك التي هي منوطة ببقاء ملكي ؟ فقال له عيسى بن موسى : انا عبد أمير المؤمنين ونفسي طوع أمره ونهيه . فقال : إن عمي وعمك عبد الله قد فسدت بطانته واعتمد على مابعضه يبيح دمه ، وفي قتله صلاح ملكنا ، فخذه اليك واقتله سراً . وعزم المنصور على الحج مضمراً ان ابن عمه عيسى إذا قتل عمه عبد الله ألزمه القصاص ، وسلمه إلى اعمامه إخوة عبد الله ليقتلوه ، فيكون قد استراح من الاثنين . قال عيسى : فلما اخذت عمي وفكرت فى قتله رأيت من الصواب ان اشاور في ذلك من له رأي عسى ان اصيب الصواب ، فأحضرت يونس بن قرة ، وكان لي حسن ظن في رأيه ، فقصصت عليه القصة ، وقلت له : مارأيك في ذلك وما تشير به ؟ فقال : ايها الامير : احفظ نفسك بحفظ عمك وعم امير المؤمنين فاني ارى لك ان تدخله في مكان داخل دارك وتكتم امره على كل احد من عندك ، وتتولى بنفسك حمل

طعامه وشرابه اليه ، وأظهر لأمير المؤمنين انك قتلته ، وانفذت امره فيه ، وانتهيت الى العمل بطاعته ، فكأني به إذا تحقق منك انك فعلت ما امرت به وقتلت عمه امرك باحضاره على رؤس الأشهاد ، فان اعترفت انك قتلته بأمره انكر امره لك ، واخذك بقتله ،قال عيسى : فقبلت مشورة يونس ، وعملت بها ، واظهرت لأمير المؤمنين اني نفذت امره .

ثم قدم المنصور من حجه ، وقد استقر في نفسه أني قتلت عمه عبد الله ، فدس الى عمومته (اخوة عبد الله) وحثهم على ان يسألوه في عبد الله ، فقال : نعم إن حقوقكم تقتضي إسعافكم بحاجتكم ، ثم امر باحضار عيسى بن موسى فأحضر لوقته ، فقال : يا عيسى ، كنت دفعت اليك عمي قبل خروجي الى الحج ليكون عندك في منزلك الى حين رجوعي ، فقال عيسى : قد فعلت يا امير المؤمنين . فقال المنصور : قد سألني فيه عمومتك ، وقد رأيت الصفح عنه فأتنا به الساعة قال عيسى : ألم تأمرني يا امير المؤمنين بقتله والمبادرة الى ذلك ؟ قال : كذبت لم آمرك بذلك ، ولو اردت قتله لأسلمته الى من يتولى ذلك . ثم اظهر الغيظ ، وقال لعمومته : قد اقر بقتل أخيكم مدعياً اني امرته بقتله ، وقد كذب علي قالوا يا امير المؤمنين فادفعه الينا لنقتله به . فقال : شأنكم به . فأخذوني ، واجتمع الناس علي ، فقام واحد من عمومتي ، وسل سيفه ليضربني به ، فقلت ياعم : أفاعل انت ؟ قال : إي والله ، كيف لا اقتلك وقد قتلت اخي ، فقلت لهم : لا تعجلوا وردوني الى امير المؤمنين فردوني اليه ، فقلت له : يا امير المؤمنين ، إنما اردت قتلي بقتله ، وهذا عمك باق حي فان امرتني بدفعه اليهم دفعته اليهم الساعة . فأطرق المنصور ، وعلم ان ريح فكره قد اصابت إعصاراً وإن انفراده بتدبيره قارف خسارا ، ثم رفع رأسه وقال إئتنا به . فمضى عيسى

واحضر عبد الله ، فلما رآه المنصور قال لعمومته اتركوه عندي وانصرفوا حتى أرى فيه رأياً . قال عيسى فتركته وانصرفت وانصرف اخوته . فسلمت روحي وزالت كربتي ،وكان ذلك ببركة الاستشارة بيونس وقبول مشورته والعمل بها

شروط الاستشارة :

ويشترط في الاستشارة شرائط أربعة ، وهي : النصح والشفقة ، والعقل والتجربة ، وذلك لقول امير المؤمنين علي عليه السلام في بعض خطبه : « أما بعد فان معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة وتعقب الندامة » .

وهذه القيود الأربعة من صفات المشير معتبرة في حسن الرأي ووجوب قبوله . وقد نظم بعض الأدباء بعضاً منها ، فقال :

خصائص من تشاوره ثلاث   فخذ منها جميعاً بالوثيقة
وداد خالص ووفور عقل   ومعرفة بحالك في الحقيقة

أما كونه ناصحاً فلأن الناصح يصدق الفكر ، ويمحض الرأي .

وأما كونه شفيقاً فلأن الشفقة تحمل على النصح ، فتحمل على حسن التردي في الامر ، وإيقاع الرأي من تثبت واجتهاد ، والباعث على هذين إما الدين او محبة المستشير .

واما كونه عالماً ففائدته إصابته بعلمه وجه المصلحة في الأمر ، فان الجاهل في الامر اعمى لا يبصر وجه المصلحة فيه .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: « استرشدوا العاقل ترشدوا ولاتعصوه فتندموا »

واما كونه مجرباً فلأنه لا يتم رأي العالم ما لم تنضم اليه التجربة ، وذلك انه وإن علم وجه المصلحة في الامر قد يشتمل على بعض وجوه المفاسد ، ولا يطلع عليها إلا بالتجربة مرة بعد اخرى .

وكان يقال : إياك ومشاورة رجلين : شاب معجب بنفسه قليل التجارب في غيره ، وكبير قد اخذ الدهر من عقله كما اخذ من جسمه .

حق المشير

قوله (عليه السلام) :

« وحق المشير عليك ان لا تتهمه فيما لا يوافقك من رأيه إذا أشار عليك ، فانما هي الآراء وتصرف الناس فيها واختلافهم ، فكن عليه في رأيه بالخيار إذا اتهمت رأيه ، فأما تهمته فلا تجوز لك إذا كان عندك من يستحق المشاورة ، ولا تدع شكره على ما بدا لك من إشخاص رأيه وحسن وجه مشورته ، فاذا وافقك حمدت الله وقبلت ذلك من أخيك بالشكر والارصاد بالمكافأة في مثلها إن فزع اليك ، ولا قوة إلا بالله » .

* * *

هذه لفتة من لفتات الامام السجاد (عليه السلام) التي تتجلى فيها الانسانية بتمامها وكمالها .

كلمات خطها يراع الامام فأفضت بما لم تفض به طوال الكتب ، وهذا ما تبنته احدث الدساتير العالمية في عصرنا هذا .

كلما اوثر عنه (ع) إنما هو مأثور خالد في الكتاب والسنة ، حيث ان الانسان بطبعه وبتطور معارفه ينظر ليومه غير ما ينظر لأمسه ، ولو بسطنا آراء الفلاسفة في شتى العصور لرفعنا وعظمنا منهم من امكننا هظم آرائه ، ولا يتأتى الخلود لانسان إذا لم يسبقه اليه خلود في آرائه ومعتقداته ، ولو تناولنا آراء الامام السجاد (ع) (في الفصول التي مرت والتي سوف تمر) تدقيقاً وتحقيقاً لرأيناها كليات لازمة للبشرية قاطبة في اي زمان وأي مكان ، لأنها ماثلة بالحق المطلق

من حيث هو خير مطلق لا يحده وطن ولا قومية ولا لغة ولا عقيدة ولا سياسة

نراه في جل فصوله يتعمق في التوجيه حتى يرتفع بالانسان الى روحانية لائقة في عالم واقعي تنبعث عنها اواصر اجتماعية مبنية على الحب والتسامح .

ومن حكمياته وشمول وصاياه التي يحملها بقلب طاهر مشبع بحب الانسانية والعمل لأجلها : ما حواه هذا الفصل من حق المشير وهو قوله : « وحق المشير عليك ان لا تتهمه فيما يوافقك من رأيه إذا اشار عليك ، فأنما هي الآراء وتصرف الناس فيها ... » .

هذه اسس الحياة حيث المجتمع الكامل في اوفى معنى واقصر تعبير .

المشير حينما يمحض الرأي يرى المستشير كفؤاً ، لذلك يوليه أهميته واعتناءه ، فما على المستشير إلا أن يأخذ رأيه ويقبل نصحه ، دون ان يتهمه في شيء ، فان كان الصواب في رأيه اخذ به وإلا تركه من غير مذمة أو انتقاص فراراً من مقابلة الاحسان بالاساءة ، والمعروف بالمنكر .

فالرجل الذي يشير عليك لم يأخذ بالعمل برأيه وانما صور رأيه في الموضوع ووضعه أمامك فان شئت اخذت به وإلا فأنت غير ملوم على تركه ، فانه ليس ما يشير به باكثر من رأي يمكن ان يصيب ويمكن ان يخطأ ، وما انت تجاهه إلا بالخيار من امرك ولست بمكره على العمل به .

وعلى هذا فالمشير ذو فضل عليك مهما كان رأيه ، لأنه قدم لك ما عنده عن حسن نية واخلاص ، فيجب ان تشكره على ما قدم لك من حسن الرأي ، وتقوم بما له عليك من حق فان اتفقتما في الرأي حمدت الله وتقبلت رأيه بالشكر وأخذت على نفسك المكافاة له مهما استطعت ، وإن لم يوافقك في الرأي وكان أصح منك رأياً فيصيبك منه خير ما ترجو وتأمل .

كتب بعض الكتاب : « اعلم ان الناصح لك المشفق عليك من طالع لك ما وراء العواقب برؤيته ونظره ، ومثل لك الاحوال المخوفة عليك ، وخلط لك الوعر بالسهل من كلامه ومشورته ، ليكون خوفك كفؤاً لرجائك وشكرك إزاء النعمة عليك ، وأن الغاش لك الحاطب عليك من مدّ لك في الاغترار ووطأ لك مهاد الظلم وجرى معك في عنانك منقاداً لهواك » .

استشار زياد بن عبيد الله الحارثي عبيد الله بن عمر في اخيه أبي بكر ان يوليه القضاء ، فأشار عليه به ، فبعث الى ابي بكر فامتنع عليه ، فبعث زياد الى عبيد الله يستعين به على ابي بكر ، فقال ابو بكر لعبيد الله : انشدك بالله أترى لي ان ألي القضاء ؟ قال : اللهم لا . قال زياد : سبحان الله ! استشرتك فأشرت علي به ثم اسمعك تنهاه ! قال ايها الأمير استشرتني فاجتهدت لك رأيي ونصحتك واستشارني فاجتهدت له رأيي ونصحته .

كان نصر بن مالك على شرط ابي مسلم ، فلما جاءه إذن ابي جعفر في القدوم عليه استشاره فنهاه عن ذلك وقال : لا آمنه عليك ، قال له ابو جعفر لما صار اليه : استشارك ابو مسلم في القدوم علي فنهيته ؟ قال نعم : قال وكيف ذاك قال : سمعت اخاك ابراهيم الامام يحدث عن ابيه محمد بن علي قال : « لا يزال الرجل يزاد في رأيه ما نصح لمن استشاره » وكنت له كذلك وانا اليوم لك كما كنت له .

ويجدر بنا ان نشير في المقام الى أن المشورة ليست مقصورة بين الاصدقاء والاخوان فيما يجري بينهم من تبادل الامور ، وإنما المشورة وضعت كذلك تمهيداً واساساً لنظام حكم عادل منصف ، اي انها اساس من اسس النظام الاسلامي كما انها اساس من اسس النظام في كل الانظمة الديموقراطية ، فما المجالس النيابية التي تعقد بين حين وحين إلا من اجل التشاور في مهام الامور ، وما المجالس العليا

الوزارية إلا من اجل النظر في مصالح الشعوب واسباب رفاهيتها .

فما ندب اليه الامام (ع) وما استعرضه في مطلع هذا الدرس حسنة من حسنات النظام الديموقراطي الصحيح ، والنظام الديموقراطي الصحيح حسنة من حسنات النظام الاسلامي الاكمل .

ومن الجدارة بمن انزل منزلة المستشار واحل محل الناصح المواد حتى صار مأمول النجح مرجو الصواب ، ان يؤدي حق هذه النعمة باخلاص السريرة ، ويكافىء على الاستسلام ببذل النصح ، فقد روي عن النبي ﷺ انه قال : « إن من حق المسلم على المسلم اذا استنصحه ان ينصحه » . وربما ابطرته المشاورة فأعجب برأيه فاحذره في المشاورة فليس للمعجب رأي صحيح ولا روية سليمة ، وربما شح في الرأي لعداوة او حسد او مكر ، فاحذر العدو ولا تثق بحسود ولا عذر لمن استشاره عدو او صديق ان يكتم رأياً إذا استرشد ولا يخون وقد أو تمن . فقد ورد عن النبي ﷺ : «المستشير معان والمستشار مؤتمن » .

قال سليمان بن دريد :

واجب اخاك اذا استشارك ناصحاً وعلى اخيك نصيحة لا تردد

ولا ينبغي ان يشير قبل ان يستشار إلا فيما مست الحاجة واقتضت الضرورة ولا ان يتبرع بالرأي إلا فيما لزم ، فانه لا ينفك من ان يكون رأياً متهماً ، وفي اي هذين كان وصمة ، وانما يكون الرأي مقبولا اذا كان عن رغبة وطلب ، او كان لباعث وسبب .

قال لقمان لابنه : « يا بني اذا استشهدت فاشهد ، واذا استعنت فأعن واذا استشرت فلا تعجل حتى تنظر » .

قال بيهس الكلابي :

من الناس من ان يستشرك فتجتهد له الرأي يستغششك مالا تبايعه

فلا تمتحن الرأي من ليس اهله   فلا انت محمود ولا الرأي نافعه

وبالتالي على المشير ان يكون ناصحاً ، على الاخص اذا عرف وجه الصواب وسبل السداد ، ولم يعلن نصيحته ولم يوقف اخاه على الرأي السديد عدّ خائناً ومتهاوناً في الحقوق التي فرضها الاسلام من التعاون والتناصح ، وعدّ تهاونه عند ذاك مثلبة ومنقصة يذم عليها ويتحمل تبعاتها وتلصق به شناعتها .

قال الامام الصادق (ع) : « اخبرني ابي عن آبائه عن علي بن ابي طالب عن رسول الله ﷺ انه قال : من استشاره اخوه المؤمن فلم يمنحه النصيحة سلبه الله لبه » .

وقال الصادق (ع) : « أيما مؤمن مشى في حاجة اخيه ولم يناصحه فيها كان كمن خان الله ورسوله وكان الله خصمه » .

وقال : « ايما رجل من اصحابنا استعان به رجل من إخوانه في حاجة فلم يبالغ فيها بكل جهده فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » .

ويقول : « عليكم بالنصح لله في خلقه فلن تلقاه بعمل افضل منه » .

وإذا كانت النصيحة امراً لازماً ، فالمشاورة ينبغى ان تكون من الاخلاق التي يدعو اليها الاســـلام ، ويرغب اهل البيت اتباعهم ومحبيهم وعامة المسلمين فيها .

لذلك قالوا : اذا عزم المرء على المشورة ارتاد لها من اهلها من قد استكملت فيه خمس خصال : احداهن عقل كامل مع تجربة سالفة ، فانه بكثرة التجارب تصح الروية .

فقد قال النبي ﷺ : « استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا »

وقال عبد الله بن الحسن لابنه محمد : « احذر مشورة الجاهل وان كان ناصحاً كما تحذر عداوة العاقل اذا كان عدواً ، فانه يوشك ان يورطك بمشورته

فيسبق اليك مكر العاقل وتوريط الجاهل » .

وقيل لرجل من عبس : ما اكثر صوابكم . قال : نحن الف وفينا حازم ونحن نطيعه ، فكأنا الف حازم .

وفي منثور الحكم : كل شيء يحتاج الى العقل والعقل يحتاج الى التجارب ولذلك قيل : الايام تهتك لك عن الاستار الكامنة . وقال بعض الحكماء : التجارب ليست لها غاية والعاقل منها في زيادة . وقال بعضهم : من استعان بذوي العقول فاز بدرك المأمول .

والخصلة الثانية : ان يكون ذا دين وتقى ، فان ذلك عماد كل صلاح ، وباب كل نجاح ، ومن غلب عليه الدين فهو مأمون السريرة موفق العزيمة . قال رسول الله (ص) : « من اراد امراً فشاور فيه امرأً مسلماً وفقه الله لارشد اموره » .

والخصلة الثالثة : ان يكون ناصحاً ودوداً ، فان النصح والمودة يصدقان الفكرة ويمحضان الرأي ، قال بعض الحكماء : لا تشاور إلا الحازم غير الحسود واللبيب غير الحقود ، وإياك ومشاورة النساء فان رأيهن الى الافن ، وعزمهن الى الوهن . وقال بعض الادباء : مشورة المشفق الحازم ظفر ، ومشورة غير الحازم خطر .

قال بعض الشعراء :

اصف ضميراً لمن تعاشره ... واسكن الى ناصح تشاوره
وارض من المرء في مودته ... بما يؤدي اليك ظاهره
من يكشف الناس لا يجد احداً ... تصح منهم له سرائره
اوشك ان لا يدوم وصل اخ ... في كل زلاتـــه تنافره

والخصلة الرابعة : ان يكون سليم الفكر من هم قاطع وغم شاغل ، فان

من عارضت فكره شوائب الهموم لايسلم له رأي ولا يستقيم له خاطر .

وكان كسرى اذا دهمه امر بعث الى مرازبته فاستشارهم ، فان قصروا في الرأي ضرب قهارمته وقال : ابطأتم بأرزاقهم فأخطؤا في آرائهم .

قال صالح بن عبد القدوس :

ولا مشير كذي نصح ومقدرة   في مشكل الامر فاختر ذاك منتصحا

والخصلة الخامسة : ان لا يكون له في الامر المستشار غرض يتابعه ولا هوى يساعده ، فان الاغراض جاذبة والهوى صاد ، والرأي اذا عارضه الهوى وجاذبته الاغراض فسد .

قال الفضل بن العباس بن عتبة بن ابي لهب :

وقد تحكم الايام من كان جاهلا   ويردي الهوى ذا الرأي وهو لبيب
ويحمد في الامر الفتى وهو مخطىء   ويعذل في الاحسان وهو مصيب

فاذا استكملت هذه الخصال الخمس في رجل ، كان اهلا للمشورة ومعدناً للرأي فلا تعدل عن استشارته اعتماداً على ما تتوهمه من فضل رأيك وثقة بما تستشعره من صحة رؤيتك ، فان رأي غير ذي الحاجة اسلم وهو من الصواب اقرب ، لخلوص الفكر وخلو الخاطر مع عدم الهوى وارتفاع الشهوة .

وقد جاء عن النبي (ص) : انه قال : « رأس العقل بعد الايمان بالله التودد الى الناس ، وما استغنى مستبد برأيه وما هلك احد عن مشورة ، فاذا اراد الله بعبد هلكة كان اول ما يهلكه رأيه » .

من استبد برأيه واعرض عن رأي المشير فهلك :

من ذلك ما رواه المؤرخون ان من تقدم من ملوك اليونان كان يخشى على جزيرة الاندلس من البربر ، فاتفقوا وعملوا الطلاسم في وقت اختاروا إرصادها واودعوها في تابوت من الرخام وتركوه في بيت بمدينة طليطلة ،

وركبوا على ذلك البيت باباً واقفلوه قفلا ، فكان كل من ملك منهم بعد صاحبه زاد على ذلك البيت قفـلا تأكيداً لحفظه ، الى ان جاء وقت انقراض دولتهم ودخول العرب والبربر الى جزيرة الاندلس ، وذلك بعد مضي ستة وعشرين ملكا منهم ، فلما قام السابع والعشرون منهم وهو (الزريق) خطر بباله ان يفتح ذلك ويرى ما فيه ، استشار وزرائه واهل الرأي من دولته وقال لهم : انه قد وقع في نفسي من امر هذا البيت الذي عليه ستة وعشرون قفلا شيء واريد ان افتحه لأنظر ما فيه ، فانه لا يعمل عبثاً ، فقالوا ايها الملك صدقت إن هذا لم يعمل عبثاً ولا اقفل سدى ، بل المصلحة ان تلقي عليه قفلا وتتركه كما قد فعل من تقدمك من الملوك ، لأن آبائك واجدادك لم يهملوا هذا فلا تهمله وسر سيرهم فقال : إن نفسي تنازعني على فتحه فلابد منه ، فقالوا له إن كنت تظن فيه مالا فقدره ونحن نجمع لك من اموالنا نضيره ولا تحدث علينا بفتحه حدثاً لا تعرف عاقبته فانا نخشى عليك ذهاب الملك ، فأصر على ذلك وكان رجلا مهاباً فلم يقدروا على مهاجرته ، فأمر بفتح الاقفال وكان على كل قفل مفتاحه ، فلما فتح الباب لم ير في البيت شيئاً إلا مائدة عظيمة من ذهب وفضة مكللة بالجواهر مكتوب عليها هذه مائدة سليمان بن داود عليه السلام ورآى في البيت ذلك التابوت وعليه قفل ومفتاحه معلق عليه فلما فتحه لم يجد فيه سوى رق ورآى في جوانب التابوت صور فرسان مصورة بأصباغ محكمة التصوير على اشكال العرب ، معممون على ذوائب جعد ، ومن تحتهم الخيل العربية وبأيديهم القسي العربية وهم مقلدون بالسيوف المحلات معتقلون بالرماح ، فأمر بتفتيش ذلك الرق فاذا مكتوب فيه من فتح هذا البيت وهذا التابوت المقفلان بالحكمة دخل الذين صورهم في التابوت الى جزيرة الاندلس وذهب ملك اليونان من ايديهم ودرست حكمتهم ، فهذا هو بيت الحكمة ، فلما سمع (الزريق) ما في الرق ندم على ما فعل وتحقق انقراض

دولتهم ، فلم يلبث إلا قليلا حتى سمع ان جيشاً وصل من المشرق وقد جهزه الوليد بن عبدالملك ، وكان النصر للمسلمين وانهزام اليونانيون حتى لم تقف هزيمتهم على موضع ، بل كانوا يسلمون البلدان بلداً بلداً ومعقلا معقلا ، فأسقط عند ذلك ما في يدي (الزريق) وتيقن ان هذه البلية ما دهمته إلا من ترك المشورة وعدم الأخذ بها .

ومنهم عمر بن سعد بن ابى وقاص الزهرى :

قال الطبري في التاريخ : لما كان من امر الحسين ما كان دعا عبيد الله بن زياد عمر بن سعد فقال : سر الى الحسين فاذا فرغنا مما بيننا وبينه سرت الى عملك فقال عمر بن سعد ان رأيت ان تعفيني فافعل ، فقال له عبيدالله : نعم على ان ترد لنا عهدنا ، قال فلما قال له ذلك ، قال له عمر بن سعد امهلني اليوم حتى انظر . قال فمضى عمر يستشير أصحابه فلم يكن يستشير احداً إلا نهاه . قال وجاء حمزة بن المغيرة بن شعبة (وهو ابن اخته) فقال انشدك الله يا خال ان تسير الى الحسين فتأثم بربك وتقطع رحمك فو الله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الارض كلها لو كان لك خير لك ان تلقى الله بدم الحسين فقال له عمر افعل إن شاء الله وعن عمار بن عبد الله الجهني عن ابيه قال دخلت على عمر بن سعد وقد امر بالمسير الى الحسين ، فقال لي ان الامير امرني بالمسير الى الحسين فأبيت ذلك عليه . فقلت : له اصاب الله بك مراشدك اجل فلا تفعل ولا تسر اليه قال فخرجت من عنده فأتاني آت وقال هذا عمر بن سعد يندب الناس الى الحسين ، قال فأتيت فاذا هو جالس فلما رآني اعرض عني بوجهه فعرفت انه قد عزم على المسير اليه فخرجت من عنده .

وذكر فخر الدين الطريحي في (المنتخب) والفاضل المجلسي في (البحار) ما لفظه ثم ان ابن زياد نادى في عسكره معاشر الناس من يأتيني برأس الحسين

وله الجائزة العظمى واعطه ولاية الرأي سبع سنين . فقام اليه عمر بن سعد وقال اصلح الله الامير انا امضي اليه وامنعه من شرب الماء وآتي برأسه ، ثم مضى من وقته وساعته ودخل منزله فدخل عليه اولاد المهاجرين والانصار وقالوا : يا ابن سعد تخرج الى حرب الحسين وابوك سادس الاسلام (١) فقال لست افعل ذلك ثم جعل يفكر في ملك الرأي وقتل الحسين فأضله الشيطان واعمى قلبه واختار قتل الحسين عليه السلام .

ولفظ (المجلسي (ره) لما جمع ابن زياد قومه لحرب الحسين كانوا سبعين ألف فارس ، فقال ابن زياد : ايكم يتولى قتل الحسين وله ولاية أي بلد شاء فلم يجبه أحد منهم فاستدعى بعمر بن سعد (لعنه الله) وقال ياعمر اريد ان تتولى حرب الحسين بنفسك ، فقال له اعفيني من ذلك فقال ابن زياد قد اعفيتك فاردد علينا عهدنا الذي كتبنا لك بولاية الرأي . فقال عمر أمهلني الليلة فقال قد أمهلتك ، فانصرف عمر بن سعد الى منزله وجعل يستشير قومه واخوانه ومن يثق به من أصحابه فلم يشر عليه أحد بذلك ، وكان عند عمر بن سعد رجل من أهل الخير يقال له كامل (وكان كاملاً كاسمه) ذا رأي وعقل ، ودين كامل ، وكان صديقا لأبيه من قبله فقال له ياعمر مالي اراك بهيئة وحركة ، فما الذي أنت عازم عليه فقال عمر اني قد وليت امر هذا الجيش في حرب الحسين وانما قتله عندي واهل بيته كأكلة آكل او كشربة ماء ، واذا قتلته خرجت الى ملك الرأي . فقال له كامل أف لك ياعمر بن سعد تريد ان تقتل الحسين بن بنت رسول الله أف لك ولدينك اسفهت الحق وضللت

---

(١) هذا مشهور وهو غير صحيح ، وكثيراً ما يشتهر شيء وهو خلاف الواقع . سادس الاسلام هو حباب بن الارت لاسعد بن ابي وقاص .

عن الهدى ، اماتعلم الى حرب من تخرج ولمن تقاتل إنا لله وانا اليه راجعون ، والله لوأعطيت الدنيا بما فيها على قتل رجل واحد من امة محمد (ص) لما فعلت فكيف تريد تقتل الحسين ابن بنت رسول الله ، وما الذي تقول غداً لرسول الله اذا وردت عليه وقد قتلت ولده وقرة عينه وثمرة فؤاده وابن سيدة نساء العالمين وابن سيد الوصيين ، وهو سيد شباب اهل الجنة من الخلق اجمعين وانه في زماننا هذا بمنزلة جده في زمانه ، وطاعته علينا كطاعته وانه باب الجنة والنار فاختر لنفسك ماانت مختار فاني اشهد بالله لأن حاربته وقتلته أو أعنت عليه اوعلى قتله لاتلبث بعده في الدنيا الا قليلا . فقال له عمر فبالموت تخوفني واني اذا فرغت من قتله اكون أمير على سبعين ألف واتولى ملك الري . فلم يلتفت ابن سعد الى ما اشار عليه وخرج الى ان قتل الحسين (عليه السلام) فلم يلبث بعد ذلك إلا برهة قليلة من الزمن فلم يحض بملك الري واذا برأسه يجر بالحبل في سكك الكوفة والاطفال خلفه يرمونه بالحجارة ويقولون هذا رأس عمر بن سعد قاتل الحسين بن علي .

ومنهم محمد الامين

حكى المؤرخون انه لما قصده عبد الله بن طاهر بعساكر المأمون وحصره ببغداد واشتد عليه الامر وضاق بين يديه المسلك للنجاة ، قال : من استشار ذا رأي ومعرفة وخالفه وقع فيما يكره وندم على التفريط ، فاني قد أحضرت الشيخ أبا الحسن القطيفي ، وكان ذا رأي ومعرفة بموارد الحوادث ومصادرها ، فحادثته في اخي المأمون وما الذى اعتمده حتى يقع في يدي ، واطلعته على الحقيقة واستشرته في كيفية العمل في ذلك فقال ان استعجلت لم تنتفع برأي ولافعل وان تمهلت وقبلت مشورتي تمكنت من اخيك وبلغت ماتأمل وذلك انك تدعو المترددين على خراسان وتجلس لهم مجلساً عاماً وتقول لهم : ان اخي كتب الي يمدحكم ، ويظهر حسن انقيادكم وجميل طاعتكم ، ثم تقول لهم قد

اطلقت عنكم الخراج سنة ، واخوك في خراسان وهي بلاد رجال بلا مال وليس له في رد قولك حيلة ، وسينا له من ذلك خلل عظيم ، ثم ينتقض عليه اكبر امره ، ثم تفعل في السنة المقبلة مثل ذلك ، وتسقط عنهم خراج سنتين ، فان لم يؤت بأخيك في السنة الثالثة في وثاق فاضرب عنقي . فخالفته وعجلت إلى خلع المأمون وعقد الأمر لابني ، فوقع ماوقع .

ومنهم عمرو بن العاص :

فانه استشار عبده وردان على ان يلتحق بمعاوية فأشار عليه بالمدم نخالفه ، فندم وخسر الخسران المبين في الدنيا والآخرة قال ابن عبد ربه في (الجزء الثالث) من العقد الفريد تحت عنوان خبر (عمرو بن العاص مع معاوية):

« لما علم معاوية أن الأمر لم يتم له إن لم يبايعه عمرو ، فقال له : ياعمرو اتبعني قال : لماذا للاخرة فوالله مامعك آخرة ، أم للدنيا فوالله لا كان حتى اكون شريكك فيها . قال : فأنت شريكي فيها . قال : فاكتب لي مصرو كورها فكتب له مصرو كورها ، وكتب في آخر الكتاب وعلى عمرو السمع والطاعة قال عمرو : واكتب ان السمع والطاعة لاينقصان من شرطه شيئاً ، قال معاوية : لاينظر الناس إلى هذا . قال عمرو : حتى تكتب . قال فكتب ووالله مايجد بداً من كتابتها . ودخل عتبة ابن أبي سفيان على معاوية وهو يكلم عمراً في مصر وعمرو يقول له : إنما أبايعك بها ديني . فقال عتبة ائتمن الرجل بدينه فانه صاحب من أصحاب محمد . وكتب عمرو الى معاوية :

معاوية لاأعطيك ديني ولم انل ... به منك دنياً فانظرن كيف تصنع
وما الدين والدنيا سواء وانني ... لآخذ ما تعطي ورأسي مقنع
فان تعطني مصراً فأربح صفقة ... أخذت بها شيخاً يضر وينفع » .

قال ابن ابي الحديد في المجلد الأول من (شرح النهج) ص١٣٥ من الطبعة الأولى « لما نزل علي (عليه السلام) الكوفة بعد فراغه من امر البصرة كتب الى

معاوية يدعوه إلى بيعته ، فقرأه فاغتم بما فيه وذهبت به افكاره كل مذهب فاستشار اخاه عتبة بن ابي سفيان ، فقال له : استعن بعمرو بن العاص فانه من قد علمت في دهائه ورأيه وقد اعتزل عثمان في حياته ، وهو لأمرك اشد اعتزالاً إلا ان يثمن له دينه فسيبيعك فانه صاحب دنيا . فكتب اليه معاوية: اما بعد فانه كان من امر علي وطلحة والزبير ما قد بلغك ، وقد سقط الينا مروان بن الحكم في نفر من اهل البصرة ، وقدم علينا جرير بن عبد الله في بيعة علي ، وقد حبست نفسي عليك فاقبل أذاكرك أموراً لاتعدم صلاح مغبتها إن شاء الله فلما قدم الكتاب على عمرو استشار ابنيه عبدالله بن عمرو ومحمد بن عمرو فقال لهما : ماتريان فقال عبدالله : أرى ان رسول الله (صلى الله عليه وآله) قبض وهو عنك راض والخليفتان بعده ، وقتل عثمان وأنت عنه غائب ، فقر في منزلك فلست مجعولا خليفة ولاتريد ان تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة اوشك ان تهلك فتشقى فيها . وقال محمد : ارى انك شيخ قريش وصاحب امرها ، وإن تصرم هذا الامر وانت فيه غافل تصاغر امرك ، فالحق بجماعة اهل الشام وكن يداً من ايديها طالباً بدم عثمان فانه سيقوم بذلك بنوامية . فقال عمرو : اما انت ياعبد الله فأمرتني بما هو خير لي في ديني ، وأنت يامحمد فأمرتني بما هو خير لي في دنياي ، وانا ناظر فلما جنه الليل رفع صوته وأهله يسمعون فقال :

تطاول ليلي بالهموم الطوارق ... وخوف التي تجلو وجوه العوائق
وإن ابن هند سالني ان أزوره ... وتلك التي فيها بنات البوائق
أتاه جرير من علي بخطة ... أمرت عليه العيش ذات مضائق
فان نال مني مايؤمل رده ... وإن لم ينله ذل ذل المطابق
فوالله ماأدري وما كنت هكذا ... أكون ومهما قادني فهو سائقي

اخادعه إن الخداع دنية ام أعطيه من نفسي نصيحة وامق
ام اقعد في بيتي وفي ذاك راحة لشيخ يخاف الموت في كل شارق
وقد قال عبد الله قولا تعلقت به النفس ان لم تقتطعني عوائقي
وخالفه فيه اخوه محمد واني لصلب العود عند الحقائق

فقال عبد الله رحل الشيخ ودعا عمرو غلامه وردان وكان داهياً مارداً ، فقال ارحل ياوردان ، ثم قال احطط ياوردان ، ثم قال ارحل ياوردان احطط ياوردان . فقال له وردان : خلطت اباعبد الله اما انك إن شئت انبأتك بما في قلبك . قال هات ويحك . قال اعتركت الدنيا والآخرة على قلبك ، فقلت علي معه الآخرة في غير دنيا وفي الآخرة عوض من الدنيا ، ومعاوية معه الدنيا بغير آخرة وليس في الدنيا عوض من الآخرة ، وانت واقف بينها . قال قاتلك الله ما اخطأت ما في قلبي فما ترى ياوردان . قال ارى ان تقيم في بيتك فان ظهر اهل الدين عشت في عفو دينهم وان ظهر اهل الدنيا لم يستغنوا عنك . قال الآن لما شهرت العرب سيري الى معاوية . فارتحل وهو يقول :

ياقاتل الله وردانا وفطنته ابدي لعمرك ما في النفس وردان
لما تعرضت الدنيا عرضت لها بحرص نفسي وفي الاطباع اذهان
نفس تعف واخرى الحرص يغلبها والمرء يأكل تبناً وهو غرثان
اما علي فدين ليس يشركه دنيا وذاك له دنيا وسلطان
فاخترت من طمعي دنيا على بصر وما معي بالذى اختار برهان
إني لأعرف ما فيها وابصره وفيّ ايضاً لما اهواه الوان
لكن نفسي تحب العيش في شرف وليس يرضى بذل العيش إنسان

فسار حتى قدم على معاوية وعرف حاجة معاوية اليه فباعده من نفسه

وكايد كل منها صاحبه ، فقال له معاوية يوم دخل عليه : اباعبدالله طرقتنا في ليلتنا ثلاثة اخبار ليس فيها ورد ولا صدر . قال وما ذاك . قال : منها ان محمد بن ابي حذيفة كسر سجن مصر فخرج هو واصحابه وهو من آفات هذا الدين . ومنها ان قيصر زحف بجماعة الروم ليغلب على الشام . ومنها ان علياً نزل الكوفة وتهيأ للمسير الينا . فقال عمرو : ليس كل ماذكرت عظيما اما ابن ابي حذيفة فما يتعاظمك من رجل خرج من اشباهه ان تبعث اليه رجلا يقتله اوبأتيك به وإن قاتل لم يضرك . واما قيصر فاهدله الوصائف وآنية الذهب والفضة وسله الموادعة فانه اليها سريع . واما علي فلا والله يامعاوية مايسوي العربي بينك وبينه في شيء من الاشياء وان له في الحرب لحظاً ماهو لأحد من قريش ، وانه لصاحب ماهو فيه إلا ان تظلمه .

وفي رواية قال معاوية لعمرو ياابا عبدالله اني ادعوك إلى جهاد هذا الرجل الذي عصى الله وشق عصا المسلمين وقتل الخليفة واظهر الفتنة وفرق الجماعة وقطع الرحم فقال عمروا : من هو ؟ قال : علي . قال والله يا معاوية ما انت وعلي حملي بعير ليس لك هجرته ولا سابقته ولا صحبته ولا جهاده ولا فقهه ولا علمه ، ووالله ان له مع ذلك لحظاً في الحرب ليس لاحد غيره ، ولكنني قد تعودت من الله تعالى احساناً وبلاءاً جميلا فما تجعل لي ان شايعتك على حربه ، وانت تعلم ما فيه من الغرر والخطر . قال حكمك . فقال : مصر طعمة فتلكأ عليه معاوية ثم قال يا ابا عبد الله اني اكره لك ان تتحدث العرب عنك انك انما دخلت في هذا الأمر لغرض الدنيا . قال عمرو : دعني عنك . فقال معاوية اني لو شئت ان امنيك واخدعك لفعلت . قال عمرو لا لعمر الله مامثلي يخدع لأنا اكيس من ذلك قال معاوية ادن مني اسارك فدنا منه عمرو ليساره فعض معاوية اذنه وقال هذه خدعة هل ترى في البيت احداً ليس غيري وغيرك . فأنشأ عمرو يقول .

معاوية لا اعطيك ديني ولم انل ‌ ‌ ‌ به منك دنيا فانظرن كيف تصنع

وما الدين والدنيا سواء وانني | لآخـــذ ما تعطي ورأسي مقنع
ولكنني اغضي الجفون وانني | لاخدع نفسي والمخادع يخدع
واعطيك امراً فيه للملك قوة | وألفي به إن زلت النعل اصرع
وتمنعني مصراً وليست برغبة | واني بذا الممنوع قدماً لمولع

وكانت مصر في نفس عمرو بن العاص لانه هو الذي فتحها في سنة تسع عشرة من الهجرة في خلافة عمر ، فكان لعظمها في نفسه وجلالتها في صدره وما قد عرفه من اموالها وسعة الدنيا ، لا يستعظم ان يجعلها ثمناً من دينه ، وهذا معنى قوله : (واني بذا الممنوع قدماً لمولع) · فقال له معاوية ابا عبد الله اما تعلم ان مصراً مثل العراق قال بلى ولكنها انما تكون لي اذا كانت لك وانما تكون لك اذا غلبت علياً على العراق . وحضر عتبة ابن ابي سفيان فقال لمعاوية اما ترضى ان تشتري عمراً بمصر ان هي صفت لك ليتك لا تغلب على الشام . فقال معاوية : يا عتبة بت عندنا الليلة ، فلما جن الليل على عتبة رفع صوته ليسمع معاوية وقال :

ايها المانع سيفاً لم يهز | إنما ملت على خز وقز
انما انت خروف مائل | بين ضرعين وصوف لم يجز
اعط عمراً ان عمراً تارك | دينه اليوم لدنيا لم تحز
يالك الخير فخذ من دره | شخبه الاولى وابعد ما غرز
واسحب الذيل وبادر فوتها | وانتهزها ان عمراً ينتهز
اعطه مصراً وزده مثلها | إنما مصر لمن عز فبز
واترك الحرص عليها ضلة | واشبب النار لمقرور يكز
ان مصراً لعلي او لنا | تغلب اليوم عليها من عجز

فلما سمع معاوية قول عتبة ارسل الى عمرو فأعطاه مصراً ·

وندم عمرو على ذلك عند موته اشد الندم وباء بالخسران لانه لم يعمر بعد ذلك إلا ثلاث سنين فخسر مصر وخسر معها الآخرة .

قال اليعقوبي في تاريخه ج٣ ص١٩٨ لما حضرت عمراً الوفاة قال لابنه : لودّ ابوك انه كان مات في غزوة ذات السلاسل ، اني قد دخلت في امور لاادري ما حجتي عند الله فيها . ثم نظر الى ماله فرآى كثرته فقال : يا ليته كان بعراً ياليتني مت قبل هذا اليوم بثلاثين سنة ، اصلحت لمعاوية دنياه وافسدت ديني ، آثرت دنياي وتركت آخرتي ، عمي علي رشدي حتى حضرني اجلي ، كأني بمعاوية قد حوى مالي وأساء فيكم خلافتي » .

فمن ترك المشورة وعدل عنها لم يظفر بحاجته ، وصار هدفاً لسهام اللائمين ومضغة في أفواه العاذلين .

* * *

فان قلت قد ذكرت في حسب المشورة وحسنها ، والاقوال الواردة في مدحها ونجاح من تمسك بها ، فهل قيل في عكس ذلك ونقيضه شيء قلت نعم هناك اقوال وآراء أخر تخالف هذه النظرية وتعتبر المشورة ضعفا في الرأي ونقصاً في التفكير .

قال بعض اهل العلم : لو لم يكن في المشورة إلا الاستحقار من صاحبها لك وظهور فقرك اليه ، لوجب اطراح ما تفيده المشورة والقاء ما يكسبه الانسان ، وما استشرت احداً قط إلا كبر عندي وتصاغرت له ، ودخلته العزة ودخلتني الذلة ، فاياك والمشورة وان ضاقت بك المذاهب واختلفت عليك المسالك وأداك الاستبهام الى الخطأ الفادح ، فان صاحبها ابداً مستذل مستضعف ، وعليك بالاستبداد فان صاحبه ابداً جليل في العيون مهيب في الصدور ، ولن تزال كذلك ما استغنيت عن العقول ، فاذا افتقرت اليها حقرتك العيون ورجفت بك

اركانك وتضعضع شأنك وفسد تدبيرك واستحقرك الصغير واستخف بك الكبير وعرفت بالحاجة اليهم .

كان عبد الله بن طاهر يذهب الى هذا المذهب ويقول : ماحك جلدك مثل ظفرك ، ولئن اخطىء مع الاستبداد الف خطأ احب الي من ان استشير وأرى بعين النقص والحاجة .

وكان يقال : الاستشارة إذاعة السر ومخاطرة بالامر الذي ترومه بالمشاورة فرب مستشار اذاع عنك ما كان فيه فساد تدبيرك . وقد قيل نعم المستشار العلم ، ونعم الوزير العقل . وممن اقتصر على رأيه دون المشاورة ابو جعفر المنصور : فانه لما حدث من امر ابراهيم ومحمد ابني عبد الله بن الحسن ما حدث امسك المنصور عن المشاورة واستبد برأيه ، واقبل على السهر والخلوة ولم يذكر امرهما لأحد من اهله وخاصته ، وكان تحته مصلى قد تفزر لحمته وسداه وكان جلوسه ومبيته عليه فلم يغيره ، وعليه جبة خز دكناء قد درن جيبها ، فلم يغيرها حتى ظفر . وكان يقول في تلك الحال : واياك والمشورة فان عثرتها لاتستقال ، وزلتها لاتستدرك ، فكم قد رأيت من نصيح عاد نصحه غشاً .

ومنهم الرشيد : فانه حكي عنه إنه بعث ذات ليلة إلى جعفر بن يحيى اني قد سهرت فوجه إلي بعض سمارك . فوجه اليه بسمير له كوفي ، فسامره ليلته ، فلما رجع سأله جعفر عن خبره ، فقال : سامرته ليلتي كلها فانشدته فما رأيته استحلى إلا بيتين من شعر أنشدتهما إياه فانه أولع بهما وما زال يأمرني بتكريرهما عليه حتى حفظهما . فقال جعفر وماهما . قال :

ليت هنداً أنجزتنا ماتعد ... وشفت انفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة ... إنما العاجز من لايستبد

فقال له جعفر : أهلكتني والله واهلكت نفسك . قال وكيف ذاك ؟ قال :

إنه كان يرى ان لاغنى به عني وعن مشورتي ولم يكرر البيتين إلا وقد عزم على ترك مشاورتي والاستبداد بالرأي . فقتله بعد حول .

قال الشاعر في مثله :

بـديهته وفكرته سواء إذا مانابه الخطب الكبير
واحزم مايكون الدهر رأياً إذا عمي المشاور والمشير
وصدر فيه للهم اتساع إذا ضاقت بما فيها الصدور

ومنهم الشعبي : فانه خرج مع ابن الاشعث ، فقدم به على الحجاج فلقيه يزيد بن ابي مسلم كاتب الحجاج ، وكان صديقاً له . فقال له : اشر علي فقال : لادري بما اشير ، ولكن اعتذر بما قدرت عليه . . واشار عليه بذلك جميع اصحابه . قال الشعبي : فلما دخلت خالفت مشورتهم ورأيت والله غير الذي قالوا . فسلمت عليه بالامرة ثم قلت اصلح الله الامير ان الناس قد امروني ان أعتذر بغير مايعلم الله انه الحق ، وأيم الله لاقول في مقامي هذا إلا الحق ، قد جهدنا وحرصنا فما كنا بالاقوياء الفجرة ولا بالاتقياء البررة ، ولقد نصرك الله علينا واظفرك بنا فان سطوت فبذنوبنا وان عفوت فبحلمك والحجة لك علينا . فقال الحجاج : انت والله احب الينا قولا ممن يدخل علينا وسيفه يقطر من دمائنا ، ويقول والله مافعلت وما شهدت ، أنت آمن ياشعبي . فقلت ايها الامير اكتحلت والله بعدك السهر واستحلست الخوف وقطعت صالح الاخوان ، ولم اجد من الامير خلفا . فقال : صدقت فانصرف فانصرفت .

قال المهلب بن ابي صفرة . لو لم يكن في الاستبداد بالرأي إلا صون السر وتوفير العقل لوجب التمسك به .

وقال برز جمهر : اردت نصيحاً اثق به فما وجدت غير فكري ، واستضأت بنور الشمس والقمر فلم استضىء بشيء أضوأ من قلبي .

وقال علي بن الحسين : الفكرة مرآة تري المؤمن سيئاته فيقلع عنها ، وحسناته فيكثر منها ، فلا تقع مقرعة التقريع عليه ، ولا تنظر عيون العواقب شزراً اليه .

وما زال المنصور يستشير أهل بيته حتى مدحه ابن هرمة بقوله .

يزرن امرأ لايصلح القوم امره ولا ينتجي الادنين فيما يحاول

فاستوى جالساً وقال : أصبت والله واستماده ، وما استشار بعدها .

قالوا : وعلى المستبد أن يتروى في رأيه ، فكل رأي لم تتمخض به الفكرة ليلة فهو مولود لغير تمام .

قال الشاعر :

إذا كنت ذا رأي فكن ذا أناءة فان فساد الرأي أن تتعجلا

وما العجز إلا أن تشاور عاجزاً وما الحزم إلا ان تهم فتفعلا

ومما مدح به ذو الرأي قول بعض الشعراء :

بصير بأعقاب الامور كأنما يخاطبه من كل أمر عواقبه

وأين مقر الحزم منه وإنما مرائي الامور المشكلات تجاربه

وقال البحتري في سليمان بن عبد الله :

كأن آراءه والحزم يتبعها تريه كل خفي وهو إعلان

ماغاب عن عينه فالقلب يكلؤه وإن تنم عينه فالقلب يقظان

وقال أيضاً :

كأنه وزمام الدهر في يده يرى عواقب مايأتي وما يذر

حق المستنصح

قوله (عليه السلام) :

وحق المستنصح أن تؤدي اليه النصيحة ، وليكن مذهبك الرحمة له والرفق به « وتكلمه من الكلام بما يطيقه عقله ، فان لكل عقل طبقة من الكلام يعرفه ويجتنبه » .

* * *

قد تفنن اللغويون في مفهوم هذه الكلمة (النصيحة) :

قال صاحب النهاية : « النصيحة كلمة تعبر عن جملة هي : إرادة الخير للمنصوح له ، وليست كلمة تعبر عن هذا المعنى سواها » .

وقال الخطابي : « النصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الحظ للمنصوح له »

وقال الطريحي : « النصيحة لفظ حامل لمعان شتى » .

وقال صاحب تاج العروس : « النصيحة الارشاد إلى مافيه صلاح المنصوح له » .

وقال الجرجاني في (التعريفات) : « النصح إخلاص العمل عن شوائب الفساد والنصيحة هي الدعاء إلى مافيه الصلاح ، والنهي عما فيه الفساد » .

الى غير ذلك من المفاهيم والتعبيرات .

ومفهوم النصيحة عند رجال الفلسفة : هي تحري الصلاح والخير للمنصوح له ، والاخلاص فيه قولا وعملا .

وقد مضت سنة الله تعالى بما عرف بالتجارب ، أن تقع النصح له شرطان ، او طرفان : هما الفاعل للنصح ، والقابل . وانما يقبله المستعد للرشاد ، ويرفضه من غلب عليه الغي والفساد بمفارقة اسبابه من الغرور بالغنى والجاه والكبر .

قال رسول الله (ص) : « الدين النصيحة » قالوا : لمن يارسول الله ،

قال : لله ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم » .

فالنصيحة لله الاعتقاد في وحدانيته ، واخلاص النية في عبادته ، ونصرة الحق فيه ، ووصفه بأوصاف الكمال ، وتنزيهه عن النقائص ، وطاعة امره واجتناب نهيه ، وموالاة من اطاعه ، ومعاداة من عصاه ؛ وغير ذلك مما يجب له . وجميع هـــذه الاشياء في الحقيقة ترجع مصلحتها الى العبد ، فهي نصيحة لنفسه وكسب خير لها .

والنصيحة للرسول (ص) : تصديقه فيما جاء به ، واتباعه فيما امر به ونهى عنه ، وتعظيم حقه ، وتوقيره حياً وميتاً ، ومعرفة سنته والعمل بها ، وإحياء طريقته في بث الدعوة وتأليف الكلمة ، والتخلق بالاخلاق الطاهرة .

والنصيحة لأئمة المسلمين : إعانتهم على الحق ، وطاعتهم فيه . وأمرهم به ، وتذكيرهم بحوائج العباد ، ونصحهم في رفق وعدل ، وتنبيههم عنـد الغفلة ، وإرشادهم عنـد الهفوة ، وتعليمهم ما جهلوا ، وتحذيرهم ممن يريد بهم السوء ، وإعلامهم باخلاق عمالهم وسيرتهم في الرعية ، وسد خلتهم عنـد الحاجة ، ورد القلوب النافرة اليهم .

والمراد بأئمة المسلمين قادتهم في تنظيم شؤون الدنيا وفي إقامة معالم الدين ونشره بين الناس ، فتشمل الملوك والامراء والرؤساء والعلماء .

والنصيحة لعامـة المسلمين : إرشادهم إلى مصالحهم في دنياهم وأخراهم ، وكف الاذى عنهم ، وتعليمهم ماجهلوه وامرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، والشفقة عليهم ، وتوقير كبيرهم ، والرحمة لصغيرهم ، وتفريج كربهم ، وتوقي مايشغل خواطرهم ، ويفتح باب الوسواس عليهم .

وليكن اداء النصيحة بعبارة لينة رقيقة ، بالحكمة والموعظة الحسنة ؛ واسلوب يغري بالامتثال ، وبطريقة تبعد عن ذهن المستنصح ان الناصح هو

اعلى منه فذلك يكون اعمق اثراً واقوى تركيزاً .

وينبغي ان تكون النصيحة ـ على ماعبر الامام ـ (ع) بعبارة تلائم معقولية المستنصح ولا تسمو عليه ، لأن لكل عقل كلاماً ولكل انسان منطقاً يفهمه ويتأثر به ، فلا يمكن ان تكلم الرجل الرشيد بما تكلم به الشاب النزق ، وكذلك العكس ، فان الناس طبقات تتفاوت عقولهم ومداركهم .

إن جرعة النصيحة مرة لايقبلها إلا أولوا العزم . قال ميمون بن مهران : قال لي عمر بن عبد العزيز : قل لي في وجهي ماأكره فان الرجل لاينصح اخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره . وفي منثور الحكم : ودك من نصحك ، وقلاك من مشى في هواك . قال ابو الدرداء : « إن شئتم لانصحن لكم : إن احب عباد الله الى الله الذين يحببون الله تعالى الى عباده ، ويعملون في الارض نصحاً » .

وقال رسول الله (ص) : « ثلاث لايغل عليهن قلب امرء مسلم إخلاص العمل لله ، والنصيحة لأئمة المسلمين ، واللزوم لجماعتهم » .

وقال : « أعظم الناس منزلة يوم القيامة ، امشاهم في ارضه بالنصيحة لخلقه »

وقال : « لينصح الرجل منكم اخاه كنصيحته لنفسه » .

وقال الامام الباقر (عليه السلام) : « يجب للمؤمن على المؤمن النصيحة »

وقال الامام الصادق (عليه السلام) : « يجب للمؤمن على المؤمن النصيحة له في المشهد والمغيب » .

وقال عليك بالنصح لله في خلقه ، فلن تلقاه بعمل افضل منه » .

قال ورقة بن نوفل :

لقد نصحت لاقوام وقلت لهم ... إني النذير فلا يغرركم احد
لاشيء مما ترى تبقى بشاشته ... إلا الاله ويردى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوماً ذخائره ... والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

وقال بعض الخلفاء لجرير بن يزيد : إني قد اعددتك لأمر · قال ياامير إن الله تعالى قد اعد لك مني قلبا معقوداً بنصيحتك ، ويداً مبسوطة لطاعتك ، وسيفاً مجرداً على عدوك .

وأنشد الاصمعي :

النصح ارخص ماباع الرجال فلا ... تردد على ناصح نصحاً ولا تلم
إن النصائح لاتخفى منافعها ... على الرجال ذوي الالباب والهمم

لمعاذ بن مسلم :

نصحتك والنصيحة إن تعدت ... هوى المنصوح عز لها القبول
فخالفت الذي لك فيه حظ ... فغالك دون ماأملت غول

ونصح فيروز بن حصين ، يزيد بن المهلب ، ان لايضع يده في يد الحجاج ، فلم يقبل منه ولم يعمل بنصحه وسار الى الحجاج فحبسه وحبس اهله . فقال فيروز :

امرتك امراً حازماً فعصيتني ... فأصبحت مسلوب الامارة نادما
امرتك بالحجاج اذ انت قادر ... فنفسك اولى اللوم ان كنت لائما
فما انا بالباكي عليك صبابة ... وما انا بالداعي لترجع سالما

ويقال : من اصفر وجهه من النصيحة ، اسود لونه من الفضيحة

وقال طرفة :

ولاترفدن النصح من ليس اهله ... وكن حين تستغني برأيك غانيا
وإن امرءاً يوماً تولى برأيه ... فدعه يصيب الرشد أويك غاويا

وقال احمد سعيد :

إن كنت ترغب في قبول نصيحتي ... والنصح يقبله اللبيب فينفع
لاتحسدن على تكاثر ماله ... احداً ولا تغتم فيما يجمع

ليس الحسود يضر إلا نفسه　　وغليله بفؤاده لاينفع
لكنها الدنيا ومن عاداتها　　هذا يحط بها وآخر يرفع
لاتطمعن بها فتلك دنيئة　　ومن الغرور المحض انك تطمع
والتف في برد القناعة صابراً　　إن الغني برزقه من يقنع
كم معشر سكنوا القصور أنيقة　　وتفكهوا بمعاشهم وتوسعوا
فاذا هم أجسامهم تحت الثرى　　وإذا قصورهم الانيقة بلقع

ما يجب ان يكون في النصيحة :

بيد ان النصيحة لاتجدي إلا باستيفائها شروطها من الصدق والاخلاص واللين في القول والمحبة ، والتجرد عن شوائب الخشونة والبذاءة في اللسان بالسباب والشتم مماتنفر منه الطباع السليمة .

وعلى المنصوح له ان يكون ممن راض نفسه على الاستماع والقبول لكلمة الحق من غير مشاحة ولاتعصب ، فتوجد إذ ذاك القابلية التامة لما بعد ذلك من التخلق بالاخلاق الحميدة والتحلي بحلي الآداب الصحيحة ، وإلا فما دام العناد في قبول كلمة الحق مستولياً على القلب بجنود التعصب ، فمن المحال ان يرجى لدائه شفاء ، ولا لاندمال جرحه دواء ، ومهما بلغت الانفس من الكمال شأواً كبيراً وحصلت من السعادة على درجة عظيمة ، فهي في حاجة إلى النصح والارشاد ، وما الطف ما قال بعض الأخيار في هذاالموضوع :

الدعوة الى الهدى بنور الله ورسوله من اهم الاعمال واكبر الوظائف الدينية ، وتعليم الدين وبث اصله في نفوس اهله فريضة لايصح تركها والتقاعس عن ادائها بوجه من الوجوه ، ولامجال للنزاع في ان احكم الوسائل واقوم السبل لتربية الشعوب وترقية الامم ، هو قيام كبار الاخيار وقادة الافكار بدعوتها للبحث في اسرار الشرائع ، وفي مذاهب الحياة والنظر في طبائع

الكون وسنن العمران ، وانه ينبغي على من يأنس من نفسه القدرة على أداء هذا الواجب الملي وبث روح اليقظة بين افراد تلك الأمة ان يسعى لخير قومه ، سالكا سبيل الجرأة والاقدام والثبات ، فلا يسأم من تكرار الدعوة وموالاة الارشاد الى مايتوسم البلوغ بسببه الى الغاية المبتغاة من التقدم ومناهج الترقي ، فقد قالوا : « إن مقاليد القلوب بأيدي الخطباء وازمة النفوس بأيدى الكتاب » وقال الصاحب بن عباد : « إذاتكرر الكلام على السمع تقرر في القلب » .

وناهيك بالخطابة والكتابة اللتين يعدان من اهم دعائم العمران التي قام عليها بناء المجتمع الانساني ، فانك لاتجد جماعة تألفت او دولة قامت او ديناً انتشر او شرعاً تقرر إلا على إحدى هاتين الدعامتين وعليهما معاً ، فهما الأداة المؤثرة في النفوس للاقتناع بالغرض الذي تحاول جذبها اليه بمؤثرات الترغيب والترهيب ، والزجر والحض والوعد والوعيد ونحو ذلك .

وهكذا كان حال السلف من أئمتنا ومرشدينا ممن أوتوا سحر البيان وفصل الخطاب ، وبذلك جاء قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

الجهر باسداء النصح :

يتجلى ذلك فيما روي أن المنصور الدوانيقي كان يطوف ليلا بالبيت ، إذ سمع قائلا يقول : اللهم اني اشكو اليك ظهور البغي والفساد في الارض ، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع . فترك المنصور الطواف وجلس ناحية من المسجد وارسل الى الرجل يدعوه ، فصلى الرجل ركعتين واستلم الركن ، ثم اقبل مع الرسول ، فسلم على المنصور بالخلافة ، فقال له المنصور : ماالذي سمعتك تقوله من ظهور البغي والفساد في الارض ، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع ؟

فوالله لقـد حشوت مسامعي ماأرمظني . قال : ياأمير المؤمنين إن أمنتني على نفسي أنبأتك بالامور من أصولها ، وإلا أجادل عن نفسي . قال له المنصور : انت آمن على نفسك فقل . فقال . إن الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين إصلاح ماظهر من البغي والفساد ، انت . قال : ويحك وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي ، والحلو والحامض عندي ؟ قال : وهل دخل احداً من الطمع مادخلك ؟ إن الله تعالى استرعاك على المسلمين واموالهم فغفلت عن امورهم واهتممت بجمع اموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر ، وابواباً من الحديد ، وحجبة معهم السلاح ، وامرتهم الايدخل عليك إلا فلان وفلان نفراً سميتهم ، ولم تأمر بايصال المظلوم الملهوف ، ولا الجائع والفقير ، ولا العاري والضعيف ، ولا احد ممن له في هـذا المال حق . فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك ، وآثرتهم على رعيتك ، وامرت ان لايحجبوا عنك ، تجبي الاموال فلا تعطيها ، وتجمعها ولا تقسمها ، قالوا : هذا رجل خان الله ، فما لنا لانخونه ، وقد سخر لنا نفسه ؟ فاتفقوا على ألا يصل اليك من اخبار الناس الا ما ارادوا ولا يخرج لك عامل فيخالف امرهم الا بغضوه عندك وبغوه الغوائل حتى تسقط منزلته ، ويصغر قدره ، فلما اشتهر ذلك عنك وعنهم اعظمهم الناس وهابوهم ، فكان اول من صانعهم عمالك بالهدايا والاموال ليقووا بها على ظلم رعيتك لينالوا به ظلم من دونهم ، فامتلات بلاد الله بالطمع بغياً وفساداً ، وصار هؤلاء القوم شركاؤك في سلطانك ، وانت غافل ، فان جاء متظلم حيل بينه وبين الدخول عليك ، فان اراد رفع قصته اليك عند ظهورك وجدك وقد نهيت عن ذلك ، ووقفت رجلا ينظر في مظالمهم ، فان جاء ذلك المظلوم الى الرجل وبلغ بطانتك سألوا صاحب المظالم الا يرفع اليك مظلمته ، فيجيبهم خوفاً منهم ، فلا يزال المظلوم يختلف اليه ويلوذ به ويشكو ويستغيث وهو يدفعه ولا يقبل عليه ،

واذا جهد واخرج وخرجت انت وصرخ بين يديك يضرب ضرباً مبرحاً ليكون نكالا لغيره ؛ وانت تنظر ولا تنكر ، فما بقاء الاسلام على هذا ؟

وقد كنت يامير المؤمنين ايام شبيبتي اسافر الى الصين ، فقدمتها مرة وقد اصيب ملكها بسمعه ، فبكى بكاءاً شديداً فحثه جلساؤه على الصبر ، وقالوا له على م تبكي ، وقد عهدناك صبوراً تتحمل الشدائد ولا تكترث بالنوائب ، ولاتوهنك المصائب ؟ فقال : لست ابكي للبلية النازلة ولكن ابكي للمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته وانينه ، ومع هذا فلئن ذهب سمعي فان بصري لم يذهب ، نادوا في الناس ان يلبس كل مظلوم ثوباً احمر . ثم صار يركب الفيل طرفي النهار يدور في الشواع عله يرى مظلوما ، فأنصف رعيته وحكم بينهم بالعدل ، وعاش محبوباً ومات محبوباً ، فهذا مشرك بالله غلبت رأفته بالمشركين على شح نفسه ، وأنت مؤمن بالله واليوم الآخر ، من اهل بيت رسول الله فلا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شح نفسك :

فان كنت إنما تجمع المال لولدك . فقد اراك الله عبراً في الطفل يسقط من بطن امه ، وماله علي الارض مال ، وما من مال يومئذ الا ودونه يد شحيحة تحويه ، فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس اليه ، ولست الذي تعطي ، بل الله يعطي من يشاء مايشاء . وان قلت انما اجمع المال لتدعيم الملك وتقوية السلطان ، فقد اراك الله عبراً في بني امية ما اغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة وما اعدوا من الرجال والكراع والسلاح حين اراد الله بهم ما اراد .

وان قلت انما اجمع المال لطلب غاية هي اجسم من الغاية التي انا فيها ، فوالله مافوق ما انت فيه منزلة الا منزلة لاتنال الا بخلاف ما انت عليه ! ! يامير المؤمنين هل تعاقب من عصاك بأشد من القتل او الصلب ؟ قال : لا قال :

فان الملك الذي اعطاك ما اعطاك وخولك ماخولك من ملك الدنيا لايعاقب من عصاه بالقتل ، بل بالخلود في العذاب الاليم ، وقد رآى ماقد عقدت عليه قلبك وعملته جوارحك واجترحته يداك ومشت اليه رجلاك ، فانظر ياامير المؤمنين هل يغني عنك ماشححت عليه من ملك الدنيا اذ انتزعه من يـدك ودعاك الى الحساب على ماخولك ؟ فبكى المنصور بكاء عاليا وقال ليتني لم اخلق ، ويحك كيف احتال لنفسي . فقال ان للناس اعلاما يفزعون اليهم في دينهم ويرضون بقولهم ، فاتخذهم بطانة لك يرشدوك ، واستعن بآرائهم وأقوالهم يسددوك . قال قد بعثت اليهم فهربوا مني . قال : خافوا منك أن تحملهم على طريقك فلم يرضوا بها ، ولكن افتح بابك ، وسهل حجابك ، وانظر في أمور الناس ، وانصر المظلوم واقمع الظالم وخذ الفيء والاموال مما حل وطاب ، واقسم ذلك بالحق والعدل على اهله ، وانا الضامن لك أنك إذا فعلت ذلك أن يأتوك ويساعدوك على إصلاح هذه الامة . فبينما هو كذلك وإذا بالمؤذنين ، فنادوا بالأذان فقام فصلى ، فلما فرغ من صلاته طلب الرجل فلم يوجد .

قرأت في كتاب للهنـد : أن رجلا دخل على بعض ملوكهم ، فقال له : أيها الملك نصيحتك واجبة في الحقير والصغير ، بله الجليل الخطير ، ولولا الثقة بفضيلة رأيك واحتمالك مايسوء موقعه من الاسماع والقلوب في جنب صلاح العاقبة وتلافي الحادث قبل تفاقمه ، لكان خرقاً مني أن أقول ، وإن كنا إذا رجعنا الى أن بقاءنا موصول ببقائك وأنفسنا معلقة بنفسك لم أجد بداً من أداء الحق اليك ، وان أنت لم تسألني أو خفت ان لاتقبل مني ، فانه يقال : من كتم السلطان نصحه ، والاطباء مرضه ، والاخوان بثه ، فقد خان نفسه .

جاء في كتاب فرائد الغوالي تأليف العلامة (الشيخ محسن الجواهري) .

أورد ابو الفرج حكاية عن خالد بن صفوان الأهتم ، قال : اوفـدني

يوسف بن عمر الي هشام بن عبد الملك ، في وفد أهل العراق ، قال : فقدمت عليه وقد خرج بقرابته وحشمه وحاشيته وجلسائه ، فنزل في ارض قاع ، منيف أفيح ، في عام قد بكر وسميه ، وتتابع وليه ، وأخذت الارض فيه زينتها ، على اختلاف من الوان نبتها ، من نور ربيع مونق ، فهو في احسن منظر ومخبر ومستمطر بصعيد كأن ترابه قطع الكافور ، وقد ضرب له سرادق من حبرة كان يوسف بن عمر صنعه له باليمن فيه فسطاط ، فيه اربعة أفرشة من خز احمر مثلها مرافقها ، وعليه دراعة من خز أحمر مثلها عمامتها ، وقد اخذ الناس مجالسهم .

قال : فأخرجت رأسي من ناحية السماط ، فنظر الي شبه المستنطق لي ، فقلت : اتم الله عليك — يا أمير المؤمنين — نعمه ، وجعل ما قلدك من هذا الأمر رشدا ، وعاقبة ما يؤل اليه حمدا ، وأخلصه لك بالتقى ، وكثره لك بالنماء ، ولا كدر عليك منه ما صفا ، ولا خالط سروره بالردى ، فلقد أصبحت للمؤمنين ثقة ومستراحا ، اليك يقصدون في مظالمهم ، ويفزعون في أمورهم ، وما اجد شيئاً — يا أمير المؤمنين — هو ابلغ في قضاء حقك وتوقير مجلسك وما منّ الله عز وجل علي به من مجالستك من ان اذكرك نعم الله عليك ، وانبهك لشكرها ، وما أجد في ذلك شيئاً هو ابلغ من حديث من سلف قبلك من الملوك فان اذن امير المؤمنين اخبرته به . قال فاستوى جالساً ، وكان متكئاً ، وقال : هات يابن الأهتم ، قال : قلت : يا امير المؤمنين إن ملكا من الملوك قبلك خرج في عام مثل عامك هذا الى الخورنق والسدير في عام قد بكر وسميه وتتابع وليه واخذت الارض فيه زينتها على اختلاف ألوان نبتها ، في ربيع مونق ، فهو في ابهج منظر ، وأحسن مخبر ، بصعيد كأن ترابه قطع الكافور ، وقد كان اعطي فتاء السن مع الكثرة والغلبة والقهر ، فأبعد النظر ، ثم قال لجلسائه :

لمن مثل هذا ؟ وهل رأيتم مثل ما انا فيه ؟ وهل اعطي احد مثل ما اعطيت ؟ قال : وكان عنده رجل من بقايا حملة الحجة ، والمضي على ادب الحق ومنهاجه ولم تخل الارض من قائم لله عز وجل بحجة في عباده ـ فقال : أيها الملك إنك سألت عن أمر ، افتأذن لي في الجواب عنه ، قال : نعم ، قال أرأيت هذا الذي انت فيه ، أشيء لم تزل فيه ، أم شيء صار اليك ميراثاً وهو زائل عنك وصائر الى غيرك كما صار اليك ؟ قال : كذلك هو ، قال : فلا اراك اعجبت إلا بشيء يسير تكون فيه قليلا وتغيب عنه طويلا وتكون غداً بحسابه مرتهناً ، قال : ويحك فأين المهرب وأين المطلب ؟ قال : إما ان تقيم في ملكك فتعمل بطاعة الله ربك على ما ساءك وسرك ، وامضك وارمضك ، وإما ان تضع تاجك ، وتخلع اطمارك ، وتلبس امساحك ، وتعبد ربك حتى يأتيك اجلك . قال : فاذا كان السحر فاقرع علي بابي فاني مختار احد الرأيين ، فان اخترت ما انا فيه كنت وزيراً لا تعصى ، وان اخترت فلوات الارض وقفر البلاد كنت رفيقاً لا تخالف قال فقرع عليه بابه عند السحر ، فاذا هو قد وضع تاجه ، وخلع اطماره ، ولبس امساحه ، وتهيأ للسياحة . فلزما ـ والله ـ الجبل حتى اتاهما الاجل . فهو حيث يقول عدي بن زيد اخو بني تميم :

ايها الشامت المعير بالدهر أأنت المبرأ الموفور
ام لديك العهد الوثيق من الايام بل انت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلدن ام من ذا عليه من ان يضام خفير
اين كسرى كسرى الملوك انوشر وان ام اين قبله سابور
وبنو الاصفر الكرام ملوك الروم لم يبق منهم مذكور
واخو الحضر إذ بناه واذ دجلة تجبى اليه والخابور
شاده مرمراً وجلله كلساً فللطير في ذراه وكور

لم يهبهم ريب المنون فباد الملك عنهم فبابهم مهجور
وتذكر رب الخورنق اذ اشرف يوماً وللهدى تفكير
سره ماله وكثرة ما يملك والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قلبه وقال وما غبطة حي الى الممات يصير
ثم بعد الفلاح والملك والامة وارتهم هناك القبور
ثم صاروا كأنهم ورق جف فألوت به الصبا والدبور

قال : فبكى هشام حتى اخضلت لحيته ، وبلت عمامته ، وامر بنزع ابنيته وانتقال قرابته واهله وحاشيته من جلسائه ولزم قصره ، فأقبلت الموالي والحشم على خالد بن صفوان ، فقالوا له : ما اردت الى امير المؤمنين ؟ افسدت عليه لذته ونغصت عليه مأدبته ، فقال : اليكم عني ، فاني عاهدت الله عز وجل ان لا اخلو بملك إلا ذكرته الله عز وجل .

معاتبة من لم يقبل النصح :

من لم يقبل نصح اصحابه وان حزنوه ، عاد ضرره عليه ، كالمريض الذي يترك ما يصف له الطبيب ، ويعمد لما يشتهيه فيهلك .

قال الله تعالى حكاية عن صالح النبي ﷺ : « لقد ابلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين » .

وفي كتاب الامالي (لأبي اسماعيل القالي) ، قال : أخبرنا عبدالرحمن عن عمه قال سمعت اعرابياً يقول لأخ له : اعلم ان الناصح لك المشفق عليك من طالع لك ماوراء العواقب برويّته ونظره ، ومثل لك الاحوال المخوفة عليك ، وخلط الوعر بالسهل من كلامه ومشورته ، ليكون خوفك كفاء رجائك وشكرك إزاء

النعمة عليك ، وأن الغاش لك والحاطب عليك من مدّ لك في الاغترار ووطأ لك مهاد الظلم تابعاً لمرضاتك منقاداً لهواك .

وفي كتاب (عصر سلاطين المماليك) تأليف محمود رزد سليم ـ كان ابو الحسين الجزار المصري يقول في النصيحة : بألا يقطع المرء عادة برّ جرى عليها ، وألا يمسك يده عمن اعتاد منه بذل المعاونة ، عقاباً له على جريرة ارتكبها ، او خلف اقترفه ، وينبغي ألا يعاقب المرء بقطع رزقه ، فهذا ادعى الى إثارة حقده وكراهيته ، وينبغي ان يحرص الانسان على بذل العفو للمسيء ، فذلك ادعى الى استبقائه ...

ويقول في شعره مستدلا لقوله ويضرب المثل له :

لا تقطعن عادة بر ولا   تجعل عقاب المرء في رزقه
واحرص على المفوفان الذي   ترجوه عفو الله عن خلقه
وإن بدت من صاحب زلة   فاستره بالاغضاء واستبقه
فان إثم الافك من مسطح   يحط قدر النجم من افقه
وقد جرى منه الذي قد جرى   وعوتب الصديق في حقه

وهذا عبد العزيز بن محمد القيسراني المخزومي نزيل القاهرة يتحدث في نصحه :ان كل امرىء يطلب الرزق من غير الله يكون قد ضل سبيل الهدى وحاد عن نيل الاماني ، لان الذي يعجز عن رزق نفسه كيف يستطيع ان يرزق غيره ويحقق له امنيته فيه . يقول :

من طلب الارزاق من عند من   يطعمه الله ويسقيـــه
يكون قد ضل سبيل الهدى   وحاد عن نيل أمانيه
لان من يعجز عن نفسه   يعجز عن ارزاق راجيه

وتحدث تقي الدين السبكي رأس شافعية زمانه في نصحه: بأن دعا الى العلم والتزود بالمعرفة والتخلق بمكارم الاخلاق . ورأى ان كمال الفتى بعلمه لا بمنصبه

وان العلم هو علم الشريعة الاسلامية السمحة وما يتصل بها من بحث وتحقيق وتحرير البراهين وقطع المغالب ، ورآى ان رتبة العلم هي اعلى الرتب وانها اسمى من المال وغيره ، وان العالم لا بأس عليه اذا ادبرت عنه الدنيا ومفاتنها ، فانه قد اصاب من مشاربها صفوها . ويقول في هذه المعاني :

كمال الفتى بالعلم لا بالمناصب ... ورتبة اهل العلم اسنى المراتب
هم ورثوا علم النبيين فاهتدى ... بهم كل سار في الظلام وسارب
ولا فخر إلا إرث شرعة احمد ... ولا فضل إلا باكتساب المناقب
وبحث وتحقيق وإيضاح مشكل ... وتحرير برهان وقطع مغالب
واحكام آيات الكتاب وسنة ... اتت عن رسول من لؤي بن غالب
إذا المرء امسى للعلوم محالفاً ... اضاء له منها جميع الغياهب
وينزاح عنه كل شك وشبهة ... وتبدو له الأنوار من كل جانب
هي الرتبة العليا تسامى بأهلها ... الى مستقر فوق متن الكواكب
فدونكها ان كنت للرشد طالباً ... تنل خير مرجو الدنا والعواقب
ولا تعد لن بالعلم مالا ورفعة ... وسمر القنا اومرهفات القواضب
وهب ادبرت دنياك عنك فلا تبل ... فعنها لقد عوضت صفو المشارب
فما قدر ذي الدنيا وما قدر اهلها ... وما اللهو بالاولاد او بالكواعب
اذا قست ما بين العلوم وبينها ... بعقل صحيح صادق الفكر صائب
فما لذة تبقى ولا عيش يقتنى ... سوى العلم اعلى من جميع المكاسب

ولما ولي تاج الدين السبكي توقيع الدست بالشام لدى الامير علاء الدين الماردني نائبها ، نصحه ابوه تقي الدين السبكي بعدة نصائح تتصل بهذه الصناعة في مقدمتها: ألا يكتب بكفه شيئاً يخشى ان يراه ماثلا امامه يوم القيامة فيحاسب عليه حساباً عسيرا ، وألا يتناول من الاموال إلا الحلال الطيب ، وأن ينآى

بمجانبه عن المال الحرام ، وان يكون شعاره تقـــديم النصح الخالص لصاحب الدست ، وان تكون التقوى رأس ماله في كل ما يأخذ وفي كل مايدع .

قال تقي الدين السبكي :

اقول لنجلي البر المفدى ... مقالا وثقت منه عراه
وليت كتابة اودست ملك ... رست احكامه وسمت ذراه
فلا تكتب بكفك غير شيء ... يسرك في القيامة ان تراه
ولا تأخذ من المعلوم إلا ... حلالا طيباً عطراً نراه
ونصحك صاحب الدست اتخذه ... شعارك فالسعادة ما تراه
ثلاث يا بني بها اوصي ... فمن يأخذ بها تحمد سراه
وتقوى الله رأس المال فالزم ... فما للعبد إلا من براه

ويحذر (لاحين بن عبد الله الذهبي) في نصائحه من الدنيا وزخارفها ومتعها وباطلها ، ويهون من شأنها ويحقر من امرها ، وينبه الخاطر الى ان اطيب مأكول فيها مجنى من حشرة هي النحلة ، وأفخر ملبوس فيها مأخوذ من حشرة هي الدودة ، واولى بالمرء ان يتبع الحق ويعيش لاجله ، ويتيقظ الى ان ايام الدنيا محدودة ، وانفاسه فيها معدودة ، ولا خلود فيها ، ومن بعدها الحساب . يقول :

ميلوا عن الدنيا ولذاتها ... فانها ليست بمحمودة
اتبعوا الحق كما ينبغي ... فانما الانفاس معدودة
واطيب المأكول من نحلة ... وافخر الملبوس من دوده

وهذا الشاعر البارع زين (الدين بن الوردي) يحذر المرء في حكمه ونصائحه ويرسم له مسالك الحياة ويصور له اخلاق الناس وما ينبغي له عمله إزاءها . ويوصيه بأن يكون في غفلة عنهم ، لا في يقظة لاعمالهم !! وهذا اتجاه غريب ونصيحة تحتاج الى نظر وتعليل : فلعله يريد الا يشغل المرء نفسه بأعمال الناس ، وألا يتنبه

لهم حتى لا يثير ذلك في نفسه حفيظة عليهم او حقداً لهم او يدفعه الى تدبير امر لهم ، او يثير في نفسه اي شاغل يشغله بهم وبأعمالهم . وهو يرمي من وراء ذلك الى ان يكون المرء في شبه عزلة عن الناس حتى يعيش في طمأنينة بال وبلهنية حال

وهو ينصح ويوصي بحفظ الود واحتمال الاساءة من الصديق وغفرانها له والاسراع الى فعل الجميل ، فذلك ادعى الى رده عند المناسبة ، وهو يدعو الى ان يغتنم المرء فرصة الحياة فيبادر الى تقديم ما ينفعه في الآخرة فالدنيا مزرعة لها ، وليكن تقوى الله إماماً له ، وليعلم ان الدنيا مليئة بالمساوىء ولا مجال الى ملافاتها إلا بمداراة اهلها ومعاونتهم حتى يسلم من اذاهم ، الى آخر ما ينصح به . يقول :

واحذر بني الدنيا و كن في غفلة	عنهم وجانب كل كلب ضاري
واحفظ لصاحبك القديم مكانه	لا تترك الود القديم لطاري
واذا اساء وفيك حمل فاحتمل	ان احتمالك اعظم الانصار
سارع الى فعل الجميل وقلد الاعناق	حسنى فالزمان عواري
واجعل الى الاخرى بدارك بالتقى	تغنم فما الدنيا بدار بدار
واعمل لتلك الدار ما هي اهله	عمل المداري اهل هذي الدار
وتوخ فعل المكرمات تبرعاً	فالمكرمات حميدة الآثار
لا تأسفن لما مضى واحرص على	اصلاح ما ابقيت باستكثار
فالمسرون بنو كلاب عندهم	واليوم اهل الفضل اهل يسار
جلور اذا جاورت بحراً او فتى	فالجار يشرف قدره بالجار
كن عالماً في الناس او متعلما	او سامعاً فالعلم ثوب فخار
من كل فن خذ ولا تجهل به	فالحر مطلع على الاسرار

ولم يترك في قصيدته تلك الفرصة السانحة للدعوة الى مبدئه ومذهبه

الذي اعتنقه اخيراً . وهو الخمول !! وينصح باتباعه ، لان الخمول مع غنى النفس والقناعة ، سعادة كاملة وعز شامل ، اذ يعصم المرء من رجاء فلان واستعطاف فلان ، وفي سعي المرء الى الشهرة خطر عليه فهو يعرضه للرجاء والاذلال .

وهو يطلب في الابيات التالية ان يعجل المرء الى التوبة والندم اذا ابتلى بزلة وتردى في خطيئة ، ويدعوه الى ألا يظلم الناس حذراً من دعواتهم في الأسحار على الظالم ، وينبغي عليه ان يطيل الفكر في عواقب تصرفه حذراً من ان يقف مرة موقف الاعتذار ، فهو موقف الضعف على كل حال وليتجه بوجهه الى الله سبحانه وتعالى فهو مصدر المعروف دون سواه ، وها هي ذي الدنيا قد خلت من الأخلاء الذين يرتجون في الشدة ويقصدون في المحنة ، ولم يجد بينهم من يتأبى عن الاوزار والخطايا .

ويردد ابن الوردي النصيحة الخالدة القديمة وهي الحذر من العدو مرة ومن الصديق مرارا ، لان الصديق ادرى بالسر واعرف بالثغرة واكشف للعيب الى آخر ما نصح به . وفي ذلك كله يقول :

ما العيش الا في الخمول مع الغنى	وبالاشتهار نهاية الاخطار
واقنع فما كنز القناعة نافذاً	وكفى بها عزاً لغير مماري
واسال الملك عصمة وحماية	فالسيئات قواصف الاعمار
وان ابتليت بزلة وخطيئة	فاندم وبادرها بالاستغفار
اياك من عسف الانام وظلمهم	واحذر من الدعوات في الاسحار
اطل افتكارك في العواقب واجتنب	اشياء محوجة الى الاعـــذار
ودع الورى وسل الذي اعطاهم	لا تطلب المعروف من انكار
جمد الندى لجمودة الكبرا وما	جمد الندى لبرودة الاشعار
لم يبق خل للشدائد يرتجى	في نشر إحسان وطي عوار

من اين يوجد صاحب مستحسن — للخير اوزار على الاوزار
احذر عدوك والمعاند مرة — واحذر صديق الصدق سبع مرار
فالاصدقاء لهم بسرك خبرة — ولهم به سبب الى الاضرار
واصبر على الحساد صبر مدبر — قد اظهر الاقبال في الادبار
كم نال بالتدبير من هو صابر — مالم ينله بعسكر جرار

قال ابو ساسان :

امرتك أمراً حازماً فعصيتني — فأصبحت مسلوب المبارة نادما

وقال آخر :

لو كنت تقبل نصحي غير متهم — ملأت سمعك من وعظ وانذار

وقال العرجي :

عرضت نصيحة مني ليحيى — فقال غششتني والنصح مر

ضياع النصح لمن لا يقبل :

قال الشاعر :

وما خير نصح قيل لا يتقبل . . . .

وقال الآخر :

إن كان حمدي ضاع في نصحكم — فان اجري ليس بالضائع

وقيل اخذ رجل ذئباً ، فجعل يعظه ويقول : إياك وأخذ اغنام الناس فيعاقبك الله ، والذئب يقول : خفف واختصر ، فقدامي قطيع من الغنم لئلا يفوتني .

قال الشاعر :

لددتهم النصيحة أي لد فمجوا النصح ثم ثنوا وناؤا

معاتبة من يستنصح الناس ويستغش الناصح :

قال عبد الله بن همام :

ألا رب من تغتشه لك ناصح ومؤتمن بالغيب غير امين

وله ايضاً :

وقد يستغش المرء من لا يغشه ويأمن بالغيب امرءاً غير ناصح

يزيد بن الحكم :

تصافح من لاقيته ذا عداوة صفاحاً وحقد بين عينيك منزو

وقال آخر :

والعجز ان تجعل الموتور منتصحا . .

وقال آخر :

ألا رب نصح يغلق الباب دونه وغش الى جنب السرير مقرب

وقال آخر :

نصحت فلم افلح وخانوا فأفلحوا فأنزلني نصحي بشر مكان

وصف غاش في نصحه :

قيل : (فلان شولة الناصح ، وشولة أمة ، (كانت ترى ان تنصح موالبها وهي تسعى في إهلاكهم .)

قال معاوية يوماً لعمرو بن العاص : هل غششتني منذ استنصحتك . قال : لا فقال : ولا يوم اشرت علي بمبارزة علي وانت تعلم من هو . فقال : كيف وقد

دعاك رجل عظيم الخطر ، كنت من مبارزته الى احدى الحسنيين ، ان قتلته فزت بالملك وازددت شرفاً الى شرف ، وإن قتلك تعجلت من الله تعالى ملاقاة الشهداء والصديقين . فقال : وهذا اشد من الأول . فقال : او كنت من جهادك في شك فقال : دعني من هذا .

قال النابغة :

يخبركم انه ناصح ... وفي نصحه ذنب العقرب

الموسوي :

يروم نصحي اقوام رأوا كيدي ... والعجز ان تجعل الموتور منتصحا

حق الناصح

قوله (عليه السلام) :

« وحق الناصح أن تلين له جناحك ، وتصغي اليه بسمعك ، فان أتى بالصواب حمدت الله عز وجل ، وإن لم يوفق رحمته ولم تتهمه ، وعلمت أنه أخطأ ، ولم تؤاخذه بذلك إلا أن يكون مستحقاً للتهمه ، فلا تعبأ بشيء من أمره على حال ، ولا قوة إلا بالله » .

* * *

نحن الآن في الجولة الثانية بعد الجولة الأولى في ساحة النصح وينبوعه .

جولة مباشرة للوجدان الانساني ، لعل ينتفض ضميره ، ولعل يرتعش وجدانه ، فيتأثر بهـــذه اللمسة التي فيها معنى الانسانية والتكريم العلوي لهذا المخلوق .

ولابد هنا من فقرة تفسح لنا المجال للتحدث عن الموضوع :

من تأمل مقاصد الأوامر والنواهي الدينية . وتغلغل في أسرارها عرف انها ترمي الى غرض واحد ، هو طهارة النفس وكمالها الانساني الذي تسعد به في الدنيا والآخرة

أنظر قوله تعالى : « والعصر إن الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » . تجد ان فلاح الانسان منوط بسلامة عقيدته وصلاح أعماله ومتانة أخلاقه .

قال رسول الله ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » فقـد جعل مكارم الاخلاق الغاية من بعثته الشريفة . وأثار الاهتمام بالاخلاق بقوله : « أثقل ما يوضع في الميزان الخلق الحسن » .

وقال الحكماء : « إن اعتدال الاخلاق في الانسان قد يكون السبب وحده في سعادته » .

من البديهي أنه كلما انتشرت الامراض ، اشتدت الحاجة الى علم الطب لمقاومتها وانقاذ الناس من فتكها ، وكذلك كلما انتشرت المفاسد ، ازدادت الحاجة الى علم الاخلاق ، ومضاعفة العناية بتهذيب النفوس وصقلها ، فهو طبها وواصف أدوائها .

ولئن كان الانسان في حاجة الى العلوم ، فهو الى الاخلاق احوج لأن ما يصيبه من الظلم وما يفشو بين أفراده من الاجرام منشؤه نقص الاخلاق اكثر من ان يكون منشوه نقص العلم ، فان العلم يخدم الفضيلة والرذيلة على حد سواء . أما علم الاخلاق فظهير الفضيلة وخصيم الرذيلة .

الفضيلة لا تكون إلا بالقيام الفعلي بالواجب . ولا يكون المرء فاضلا لمجرد انه يعلم ما يجب عمله ، بل الفضل في ان يعمل ما يجب عمله ويترك ما يجب تركه فكأي من عالم مؤسر يمر بذي الحاجة فيعرض عنه مع علمه بفضل مساعدة المحتاج واغاثة الملهوف . وكم من جاهل سليم القلب تحمله سلامة قلبه على قضاء حاجته .

لست أحاول أن أبخس العلم حقه ، ولكني اريد ألا تتجه رغبتنا الى محاربة الجهل فقط ، فالمتعلم السيء الخلق أضر من الجاهل .

ولقد كان يسرنا ان تكون الاخلاق شنشنة المتعلمين ، ولكن كثيراً ما نرى غير هـذا . قال أحد المستشرقين : (إن غير المتعلمين ازكى اخلاقاً من المتعلمين) وليس هذا من سبب سوى أنهم لم يأخذوا قسطاً من العلم الصحيح ، ولم يتزودوا من الاخلاق الفاضلة ، لأن القوى الموهوبة ان لم يأخذ زمامها قائد الاخلاق الفاضلة كانت آلات الشرور : فمن كان ذا جاه وكرمت أخلاقه استخدم جاهه في مساعدة الضعفاء وقضاء حاجات المحتاجين ، واذا ساءت اخلاق ذي الجاه توصل به الى الشر ، كذلك من أعطي المال ، إن كان حسن الاخلاق بذله في صنوف الخير ، وإن كان شريراً ابتاع به شراً .

والكاتب اذا لم يكن أميناً كانت معرفته الكتابة وسيلة تمكنه من تزوير العقود والوثائق وايقاع الناس في المشاكل . والحداد اذا لم يكن أميناً اشترك مع اللصوص وصنع لهم المفاتيح التي تساعدهم على السرقة . والفتاة المتعلمة ان لم تكن كريمة الاخلاق فانها لا تجني من تعلمها سوى الخلاعة والخروج على الاخلاق والآداب المرعية وكانت ضررها اكبر اذا تولت مهنة التعليم . والمدّره اذا لم يكن صادقاً اضل القاضي وضيع الحقوق وساعد على أكل أموال الناس بالباطل .

والناصح اذا لم يكن عاقلاعفيفا صدوقاً ذا حياء وسلامة ذات . وفوق ذلك كله (الدين) قد حنكته الامور وغذته التجارب ، اذا لم يوصف بهذه الصفات لايؤخذ بنصحه ولا يعمل برأيه ولا يترتب الأثر على مايبديه من النصح لما ينتج من الضرر الكبير والاختلال في الامور .

لأنه إن كان عفيفاً يأنف من الغش حتى لعدوه ، وان كان من اهل الحياء يمنعه حياؤه من نسبة الغش اليه . وان كان صدوقا لايكذب ، لعلمه ان الكذوب ممقوت لايوصف بالخير .

وان كان سليم الذات لايري النصح الا لازما له لنقاوة نفسه وفطرته .

والمتدين يرى الواجب الديني المبالغة في النصح لكل فرد في أي عمل أو قول يقوم به .

فمن كان موصوفا بهذه الصفات كان من اللازم ان تلين له جناحك ، وتصغي اليه بسمعك وتعرف حقه وتشكر له نصحه ، ولا تتهمه في ابداء النصح ، وتوجه القلب والسمع والبصر نحوه لتستفاد من نصحه ورشده . هذا اذا كان مصيبا في الرأي ، اما اذا لم يصب الرأي فيعذر ، اذ ليس من الناس من يصيب دائما ، وليس في الناس من لايخطأ ابداً ، فالانسان يصيب مرة ويخطأ احيانا ، فاذا علم خطؤه فله العذر ولايتهم فقد قدم النصيحة عن اخلاص راجيا ومؤملا الصلاح والخير والنفع .

جاء في الاثر الحث على قبول النصيحة ، ففي رواية الكليني في اصول الكافي عن ابي جعفر الباقر (عليه السلام) قال : « ياصالح اتبع من يبكيك وهو لك ناصح ، ولا تتبع من يضحكك وهو لك غاش ، وستردون جميعا الى الله » .

وفي محاضرات الراغب الاصبهاني في باب الحث على قبول النصيحة وان كان مراً (قيل من أحبك نهاك ، ومن ابغضك اغراك) . وقال بعض الحكماء : (من اوجرك المر لتبرء اشفق عليك ممن اوجرك الحلو لتسقم) . وقيل : (النصيحة أمن الفضيحة) .

والانسب للعاقل ابداء النصيحة وابرازها صادفت قبولا ام لا ، فانها ان صادفت قبولا فقد نال حمداً وان لم تصادف قبولا فقد اكتسب اجراً وعذراً .

قال الخيزارزي :

إن كان حمدي ضاع في نصحكم فان اجري ليس بالضائع

وقال أوس :

وإن قال لي ماذا ترى يستشيرني فلم يك عندي غير نصح وارشاد

رد النصيحة مقرون بالنكبة والحسرة :

قال أمير المؤمنين علي (عليه الصلاة والسلام) في بعض خطبه . « اما بعد فان معصية الناصح الشفيق العالم المجرب ، تورث الحسرة وتعقب الندامة » .

هذه القيود من صفات الناصح معتبرة ، في حسن الرأي ووجوب قبوله .

وقد نظم الادباء بعضا منها :

قال أحدهم :

خصائص من تشاوره ثلاث فخذ منها جميعا بالوثيقه

وداد خالص ووفور عقل ومعرفة بحالك في الحقيقه

أما كونه ناصحا : فلأن الناصح يصدق الفكر ويمحض الرأي ، وغير الناصح ربما يشير بالرأي الفطير فيوقع بالمضرة .

وأما كونه شفيقا : فلأن الشفقة تحمل على النصح ، فتحمل على حسن التروي في الأمر وإيقاع الرأي من ثبت واجتهاد . وفي امثال العرب : (اسمع ممن لايجد منك بـــدآ) : يعني اقبل نصيحة من يطلب نفعك ، كالابوين ، ومن لايستجلب بنصحك نفعا الى نفسه بل الى نفسك .

يقول الشاعر :

اذا ماعرى خطب ورمت وروده فشاور فكم نجح هدته المشاوره
وأنفع من شاورت من كان ناصحا شفيقاً فأبصر بعده من تشاوره

وأما كونه عالما : ففائدته اصابته ، لعلمه وجه المصلحة في الامر ، فان الجاهل في الأمر أعمى لايبصر وجه المصلحة فيه .

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : « استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا » .

قال عبد الله بن الحسين لابنه محمد : (احـذر مشورة الجاهل وان كان ناصحا كما تحذر عداوة العـدو العاقل ، فانه كما يوشك ان يقع بك مكر العاقل ، كذلك يوشك ان يورطك شور الجاهل) .

وأما كونه مجرباً : فلانه لا يتم رأي العالم مالم تنضم اليه التجربة ، وذلك ان العالم وان علم وجه المصلحة في الامر إلا ان ذلك الأمر قد يشتمل على بعض وجوه المفاسد ولا يطلع عليها إلا بالتجربة مرة ومرة ، فالنصيحة من دون تجربة مظنة الخطأ .

وقيل في منثور الحكم : (كل شيء محتاج الى العقل والعقل محتاج الى

التجارب) أو كما يقال : (إياك ومناصحة رجلين : شاب معجب بنفسه قليل التجارب في غيره ، وكبير قد اخذ الدهر من عقله كما اخذ من جسمه ، وقال لقمان لابنه : « يا بني استنصح من جرب الامور فانه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالغلا ، وتأخذه انت بالمجان » .

وإذا عرفت ان طاعة الناصح الموصوف بالصفات المذكورة مستلزمة في أغلب الاحوال للسرور بحسن ثمرة رأيه والفوز بها ، لاجرم كانت معصيته ومخالفة رأيه مستلزمة للحسرة مستعقبة للندامة .

وقد شهد التاريخ على جماعة تركوا نصيحة الناصح ، فأصيبوا بالعطب الدنيوي والديني :

منهم يزيد بن المهلب الأزدي :

نصحه (فيروز حصين) على ان لا يضع يده في يد الحجاج ، فلم يقبل منه فسار اليه فحبسه وحبس اهله ، فقال فيروز حصين :

أمرتك امراً حازماً فعصيتني   فأصبحت مسلوب الامارة نادما
امرتك بالحجاج إذ انت قادر   فنفسك اولى اللوم ان كنت لائما
فما انا بالباكي عليك صبابة   وما انا بالداعي لترجع سالما

ومنهم عبد الله بن الصمة (فارس هوازن) :

قال ابن عبد ربه في (العقد الفريد) : أغار عبد الله بن الصمة على غطفان فأصاب منهم إبلا عظيمة فاطردها ، فقال له اخوه دريد : النجاء فقد ظفرت .

فأبى عليه وقال لا ابرح حتى انتقع نقيعتي . والنقيعة ناقة ينحرها من وسط الابل فيصنع منها طعاماً لاصحابه ويقسم ما اصاب على اصحابه ـ فأقام وعصى اخاه ولم يعبأ بنصحه ، فتتبعته فزارة فقاتلوه وهو بمكان يقال له اللوى ، فقتل عبد الله وارتث دريد فبقي في القتلى فلما كان في نصف الليل اتاه فارسان فقال احدهما لصاحبه إني أرى عينيه تبص فانزل فانظر الى نفسه ، فنزل فكشف ثوبه فاذا هي تزمر فطعنه فخرج دم قد كان احتقن ، قال دريد فأفقت عندها ، فلما جاوزوني نهضت قال فما شعرت إلا وانا عند عرقوبي جمل إمرأة من هوازن ، فقالت من انت ؟ اعوذ بالله من شرك . فقلت : لابل من انت ويلك قالت امرأة من هوازن سيارة . قلت وانا من هوازن وانا دريد بن الصمة . قال وكانت في قوم مجتازين لا يشعرون بالوقعة ، فضمته وعالجته حتى افاق ، قال دريد يرثي عبدالله اخاه ويذكر عصيانه له وعصيان قومه :

أعاذل ان الرزء في مثل خالد ... ولا رزء فيما اهلك المرء عن يد
وقلت لعارض واصحاب عارض ... ورهط بني السوداء والقوم شهدي
علانية ظنوا بألفي مدجج ... سراتهم في السابري المسرد
أمرتهم امري بمنقطع اللوى ... فلم يستبينوا النصح الاضحى الغد
فلما عصوني كنت منهم وقد ارى ... غوايتهم او أنني غير مهتد
وما انا إلا من غزية ان غوت ... غويت وان ترشد غزية ارشد
فان تعقب الايام والدهر تعلموا ... بني غالب أنا غضاب لمعبد
تنادوا فقالوا اردت الخيل فارساً ... فقلت أعبد الله ذلكم الردي
فان يك عبد الله خلى مكانه ... فما كان وقافاً ولا طائش اليد
ولا برماً اذا ما الرياح تناوحت ... يرطب العضاة والضريع المنضد
كميش الازار خارج نصف ساقه ... صبور على الضراء طلاع انجد

قليل التشكي للمصائب حافظ   عليم بأعقاب الاحاديث في غد
وهون وجدي انني لم اقل له   كذبت ولم أبخل بما ملكت يدي

واستعرض التاريخ جماعة من افذاذ الرجال واعاظمهم في الصدر الاول في الاسلام نصحوا الله ولرسوله وآله احياءاً و امواتاً :

منهم سعد بن الربيع :

قتل يوم احد شهيداً ، حين فر المسلمون عن رسول الله ﷺ ونادى ابليس في المعركة قتل محمد ، فقال سعد لا خير في الحياة بعد رسول الله ثم حمل على المشركين وجعل يضرب بسيفه في وجوههم قدماً حتى سقط الى الارض ، ولما تراجع المسلمون قال النبي (ص) : من له علم بسعد بن الربيع فاني رأيته وقد اشرعت اليه اثنا عشر رمح . فقال أبي بن كعب : انا يارسول الله . فأقبل ابي بن كعب وجعل يطوف بين القتلى فوجده وبه رمق ، فناداه ياسعد فما اجابه ، فقال ياسعد إن رسول الله (ص) بعثني اليك لآتيه بخبرك فانه يقول رأيته وقد اشرعت اليه اثنا عشر رمح ، قال : فانتعش سعد كما ينتعش الفرخ وقال أهو حي ؟ قلت : إي والله . قال : الحمد لله وصدق رسول الله (ص) اني طعنت اثنتا عشر طعنة انفذت مقاتلي ، اقرأ رسول الله عني السلام وقل لقومي عني يقول سعد : الله الله على ماعاهدتم عليه رسول الله ، فوالله مالكم عندالله عذر إن خلص إلى نبيكم شيء وفيكم عين تطرف ، ثم مات رحمه الله . فجاء أبي الى رسول الله فاخبره . فقال (ص) : « رحم الله سعداً لقد نصح لله حياً وميتا .

ومنهم عبد الله بن كعب

قتل يوم صفين ، قال نصر بن مزاحم : جاءت خيل لأهل الشام وأهل العراق بصفين فصرع عبد الله بن كعب فمشى لمصرعه الاسود بن قيس فرآه بآخر رمق فقال : عز علي والله مصرعك ، اما والله لوشهدتك لآسيتك ولدافعت عنك ، ولو اعرف الذي قتلك لأحببت ان لا يزايلني حتى يلحقني بك او اقضي عليه . ثم جلس عنده وقال : لو كان جارك لا يأمن بوائقك وان كنت من الذاكرين الله كثيرا اوصني رحمك الله . فقال : يااخي اوصيك بتقوى الله وان تناصح لأمير المؤمنين وتقاتل معه المشركين حتى يظهر الحق او تلحق بالله ، واقرأ أمير المؤمنين عني السلام وقل له يقول عبد الله فليقاتل على المعركة حتى يجعلها خلف ظهره فمن اصبح والمعركة خلف ظهره كان الغالب . ثم مات رحمة الله عليه ، فجاء الاسود بن قيس الى امير المؤمنين (ع) فأخبره فقال أمير المؤمنين : رحم الله عبد الله لقد جاهد معنا عدونا في الحياة ، ونصح لنا عند الممات .

ومنهم مسلم بن عوسجة (ره)

صرع بين يدي الحسين بطف كربلاء .

ومنهم العباس بن علي

صرع بطف كربلاء بين يدي اخيه الحسين (ع) فقد كانت مناصحته قولية وفعلية ، اما القولية فمن اشعاره واقواله مايكفي من مناصحته القولية ، من ذلك قوله لاخوته حاموا عن سيدكم وامامكم الحسين (ع) وقوله : لهم تقدموا يابني امي حتى اعلم انكم قد نصحتم لله ولرسوله .

اما المناصحة الفعلية : فأثرها ظاهر قطعت يمينه وشماله وهو واقف في

خطة الحرب ثابت في ساحة القتال لم يطلب لنفسه ملجأ ولا مأمنا ، ولم يعد لأخيه الحسين (ع) يحتمي به من الأعداء ، حاذر ان يغتم لأجله ، فثبت في مركزه بعد قطع يديه ، ووقف من غير يدين يذب بها عن نفسه ، فكأنه قطعة جبل صلد لايتزعزع او زبرة حديد لم تتحلحل وان هيبته تمنع العدو من الاقتراب اليه حتى اغتاله بعضهم مستتراً بنخلة ، ففضخ هامته بعامود الحديد فانجدل صريعا على وجه الثرى ، فهذه من اعظم المناصحة وأجلها .

وقد مدح بهذه المناصحة ، واثنى عليه الأئمة المعصومون (عليهم السلام) قال الامام ابوعبدالله جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) في زيارته له التى رواها ابن قولويه في كامل الزيارة : « اشهد لك بالتسليم والتصديق والوفاء والنصيحة لخلف النبي المرسل والسبط المنتجب والوصي المبلغ والمظلوم المهتضم .... » وفي محل آخر : « اشهد انك قد بالغت في النصيحة وأعطيت غاية المجهود » وفي محل آخر منها « اشهد أنك قد نصحت لله ولرسوله ولأخيك » وفي محل آخر « اشهد انك قد بالغت فى النصيحة وأديت الأمانة وجاهدت عدوك وعدو اخيك ، فصلوات الله على روحك الطيبة وجزاك الله من أخ خيرا ورحمة الله وبركاته » .

قوله (عليه السلام) : « اديت الأمانة » يحتمل ثلاثة وجوه :

«احدها ان الامامة منصب إلهي ووظيفة ربانية ، قد اخذ عهدها في الميثاق الأول وهي المشار اليها بقوله تعالى : «وعرضنا الأمانة على السموات والارض» الآية ، فكانت هذه الامامة هي الأمانة كما اشار اليها ابن ابي الحديد الكاتب الحنفي المعتزلي في خطاب امير المؤمنين علي (عليه السلام) :

انت الأمانة لايقوم بحملها ... خلقاء هابطة واطلس ارفع
تأبى الجبال الشم عن تقليدها ... وتضج تيهاء وتشفق برقع

وعرضها عبارة عن التعهد والالتزام بواجب طاعة الامام التي افترضها الله على عامة البشر ، فكان هذا العرض على المخلوقات عرض اختبار ، لاعرض اختيار إذ لاخيرة لمخلوق مع إرادة الخالق . وإباء السموات والارض ومن في معناها ليست إباية امتناع ومعصية ، بل إباية عدم تكليف ، فحملها الانسان الذي هو اظهر افراد الأنواع المكلفة من الحيوانات ، لأنه محسوس بخلاف الملك والجن فانها ارواح غير مرئية ولهذا جحدها الجاهلون من الفلاسفة ، فكان الانسان ظلوماً بحملها في العهد السابق ومخالفته لها في العهد اللاحق ، جهولا بما ثبت عن الله تعالى في السابق واللاحق ، فيقول بخ بخ مرة ، ويقول مرة اخرى وسعوها في قريش تتسع ، وكل من قام بطاعة الامام ونصره فقد ادى الامانة ، وأبو الفضل من اعظم افراد هذا القسم .

ثانيها : إن الحسين (عليه السلام) من العترة التي هي احد الثقلين الذين اوصى رسول الله (ص) امته في التمسك بها وبحفظها والاقتداء بها وجعلها امانة عند امته ، وابو الفضل العباس (عليه السلام) في طليعة الاوفياء بتأدية هذه الأمانة وإيصالها لرسول الله (ص) محترمة معظمة ، بذل دون حفظها نفسه النفيسة ، وجعل يتلق السلاح بوجهه وصدره ونحره لئلايصل الى وديعة رسول الله منه شيء ، وضحى اخوته وولده لفداء الحسين (عليه السلام) .

ثالثها : البيعة للحسين (ع) والبيعة امانة عند المبايع ، وإن التزامه بشرائطها تأدية لها ، والقتل من اظهر مصاديق الوفاء وأجلى مظاهر التأدية للامانة ، ولهذا كل من اراد الشهادة من اصحاب الحسين (ع) يقف امامه ويستأذن للبراز ويقول : السلام عليك ياأبا عبدالله اوفيت يابن رسول الله .

فيقول (عليه السلام) نعم انت امامي الى الجنة فاقرأ جدي وأبي وأمي عني السلام ، وقل لهم تركت حسيناً وحيداً فريداً لاناصر له ولامعين .

ويحتمل في تأدية الامانة وجه رابع وهو : مارواه بعض ارباب المقاتل من ان مولانا امير المؤمنين (عليه السلام) اوصى ولده العباس بنصرة اخيه الحسين (ع) فكانت هذه التوصية امانة عنده من ابيه (ع) فقد اداها وسقط عنه فرض التكليف بها ، وكل هذه الوجوه صالح للحمل عليه ، ولامانع من إرادة الجميع وإن كان الحمل على الامامة اظهر لمصير اكثر المفسرين الى ان المراد بالأمانة هي الامامة » . ـ١ـ

ـ١ـ بطل العلقمي .

حق الكبير

قوله (عليه السلام):

« وحق الكبير توقيره لسنه ، وإجلاله لتقدمه في الاسلام قبلك ، وترك مقابلته عند الخصام ، ولا تسبقه الى طريق ، ولا تتقدمه ، ولا تستجهله وان جهل عليك احتملته وأكرمته لحق الاسلام وحرمته ، (فانما هي حق السن بقدر الاسلام ، ولا قوة إلا بالله) » .

* * *

هكذا يضع الامام (عليه السلام) الأمور في نصابها ، ويكشف عن سنن الله في الدنيا والآخرة ، ويقرر حقيقة القيم كما هي عند الله ثابتة راسخة .

هكذا يرسي القواعد الأسياسية والحقائق الكلية التي لاتضطرب ولا تتغير ، ولاتؤثر فيها تطورات الحياة واختلاف النظم وتعدد المذاهب وتنوع البيئات .

فهناك سنن للحياة ثابتة تتحرك الحياة في مجالها ، ولكنها لا تخرج عن إطارها . والذين تشغلهم الظواهر المتغيرة عن تدبر الحقائق الثابتة ، لايفطنون لهذا القانون الخالد (الذي رسمه الامام) (عليه السلام) والذي يجمع بين الثبات والتغير في صلب الحياة وفي اطوار الحياة ، ويحسبون ان التطور والتغير يتناول حقائق الأشياء كما يتناول اشكالها ويزعمون ان التطور المستمر يمتنع معه ان تكون هناك قواعد ثابتة لأمر من الأمور ، وينكرون ان هناك قانون ثابت غير قانون التطور المستمر

فهذا قانون الامام الخالد الذي لايمكن لأحد من ذوي النباهة ان يحيد عن ثباته ورسوخه ، ونحن نرى في واقع الحياة مصداق مايقرره ويرسمه

في كل زاوية من زوايا الكون وفي كل جانب من جوانب الحياة . وأقرب مابين ايدينا هذا المشهد الذي استطرده في حق الكبير ، وكشف فيه واقع الحياة . فذهب قائلا : « وحق الكبير توقيره ...... »

وهذه ظاهرة ثابتة ليس إلا توقير الكبير لسنه ولقدمه في الاسلام وسبقه في الايمان ، وأن لايسبق إلى طريق او يؤم في طريق اوينسب إليه جهل ، وأن يتحمل مايصدر منه من جهل اوخطأ .

وينبه الامام عليه السلام أن السن ليست فقط هي المدار في العناية والاحترام إنما تنظر مع الاسلام ، فكلما زاد وقوي ورسخ إيمانه إزداد إجلاله وتوقيره وكلما قل كان الاحترام والاجلال بقدر الاسلام .

مضافاً إلى ماصرحت به الأحاديث من إجلال الشيخ الكبير وتوقيره فقد روى المجلسي (اعلا الله مقامه) فى المجلد السادس عشر من بحار انواره) عن الرسول الأعظم محمد (ص) : انه قال : « من عرف فضل شيخ كبير فوقره لسنه ، آمنه الله من فزع يوم القيامة » .

وقال (ص) : « البركة مع أكابركم » .

وعن انس قال : أوصاني رسول الله (ص) بخمس خصال ، فقال فيها : ووقر الكبير تكن من رفقائي يوم القيامة » .

وقال : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ولم يوقر كبيرنا » .

وفيما أوصى به امير المؤمنين علي (عليه السلام) عند وفاته : «وارحم من اهلك الصغير ووقر الكبير » .

ونقل عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله (ص) : «بجلو المشايخ فان من إجلال الله تبجيل المشايخ »

وقال (ص) : « من تعظيم الله عزوجل إجلال ذي الشيبة المؤمن » .

وإجلاله توقيره وتعظيمه في جميع الاحوال والاوقات ، بالسلام والاحترام والـكلام وحسن المعاشرة والمعاملة والمعاونة والمصادقة والنصرة والمدارات والمحبة وترك كل ما يؤذيه من المخاصمة والمناقشة والمها رات وغيرها من الامور المنافية لتعظيمه . كل ذلك لكونه اكبر سناً واضعف بدناً واعظم تجربة واكيس حزماً واقدم إسلاماً واكثر عبادة وأقرب خروجاً من الدنيا ورجوعاً الى المولى .

وقال (ص) : « ماأكـرم شاب شيخاً إلاقضى الله له عند سنه من يكرمه » .

وقال (ص) : « الشيخ في اهله كالنبي في امته » .

وعن الامام موسى بن جعفر عن آبائه (عليهم السلام) قال : قال رسول الله (ص) : « إن الله جواد يحب الجواد ومعالي الأمور ، ويكره سفسافها ، وإن من عظم اجلال الله إكرام ثلاثة : ذي الشيبة في الاسلام ، والامام العادل ، وحامل القرآن غير الغالي ولاالجافي » .

وقال (ص) : « ثلاثة لايستخف بهن إلا منافق : إمام مقسط ،وذو شيبة في الاسلام ، وذو علم » :

وقال (ص) : « إن الله تعالى ينظر في وجه الشيخ المؤمن صباحاً ومساءاً ، فيقول : ياعبدي كبر سنك ودق عظمك ورق جلدك وقرب اجلك وحان قدومك علي ، فاستح مني فانا استحي من شيبتك ان اعذبك بالنار » .

وقال ارد شير لابنه : وقر المشايخ فهم مواطن الوقار ، ومعادن الآثار ، ورواة الأخبار وحفظة الأسرار ، إن رأوك في قبيح منعوك اوجميل ايدوك وإياك واغمار الشباب فهم اهل الصبوة إلى الشهوات .

وأوصى يزيد بن المهلب ابنه فقال : ليكن جلساؤك ذوي الأسنان ، فالشباب شعبة من الجنون . ومر الحسن بفتيان فقال : شوبوا مجلسكم بشيخ .

وقيل من عرف حق من فوقه عرف حقه من دونه .

تأمل حكيم شيبة في رأسه ، فقال مرحباً بزهرة الحنكة وثمرة الهدى ومقدمة العفة ولباس التقوى .

وروي أن إبراهيم الخليل (عليه السلام) لما بدا الشيب بعارضيه قال : يارب ماهذا قال : هذا وقار في الدنيا ونور في الآخرة . قال : يارب زدني وقاراً فابيضت لحيته .

وعيّر حكيم بالشيب . فقال : الشيب نور يورثه تعاقب الليالي والايام وحلم يفيده مر الشهور والأعوام ، ووقار تلبسه مدة العمر ومضي الدهر .

وقال ابن المعتز : عظم الكبير فانه عرف الله قبلك ، وارحم الصغير فانه اغر بالدنيا منك .

ما قيل في مدح الشيب من الشعر

قرأت في سفينة البحار تأليف المرحوم (الشيخ عباس القمي) : عن ابراهيم بن محمد الحسني قال : بعث المأمون الى أبي الحسن الرضا (عليه السلام) جارية ، فلما ادخلت إليه اشمأزت من الشيب ، فلما رآى كراهتها ردها الى المأمون وكتب اليه بهذه الابيات :

نعى نفسي الى نفسي المشيب ... وعند الشيب يتعظ اللبيب
فقد ولى الشباب الى مداه ... فلست ارى مواضعه تؤب
سأبكيه وأندبه طويلا ... وأدعوه إلي عسى يجيب
وهيهات الذي قد فات منه ... تمنيني به النفس الكذوب

اری البيض الحسان يحدن عني — وفي هجرانهن لنا نصيب
فان يكن الشباب مضى حبيباً — فان الشيب ايضاً لي حبيب
سأصحبه بتقوى الله حتى — يفرق بيننا الأجل القريب

وقال دعبل الخزاعي :

اهلاً وسهلاً بالمشيب فانه — سمة العفيف وحلية المتحرج
ضيف الم بمفرقي فقريته — رفض الغواية واقتصاد المنهج

وفي نهاية الأرب في فنون الادب ، تأليف (شهاب الدين النويري):

وقال آخر :

اهلا وسهلا بالمشيب ومرحبا — اهلا به من وافد ونزيل
اهدى الوقار وزال كل جهالة — كانت وساق الي كل جميل
فصحبت في اهل التقى اهل النهى — ولقيت بالتعظيم والتبجيل
ورآى لي الشبان فضل جلالة — لما اكتهلت وكنت غير جليل
فاذا رأوني مقبلا نهضوا معاً — فعل المقر لهيبة التفضيل
إن قلت كنت مصدقاً في منطقي — ماضي المقالة حاضر التمديل

وقال علي بن محمد الكوفي :

بكى للشيب ثم بكى عليه — وكان أعز من فقد الشباب
فقل للشيب لاتبرح حميداً — إذا نادى شبابك بالذهاب

وقال ابن المعتز :

قد يشيب الفتى وليس عجيباً — ان يرى النور في القضيب الرطيب

وقال أبو الفتح البستي :

ياشيبتي دومي ولاتترحلي — وتيقني اني بوصلك مولع
قد كنت اجزع من حلولك مرة — فالآن من خوف ارتحالك اجزع

وقال آخر :

فأما المشيب فصبح بدا ... وأما الشباب فليل أفل

سقى الله هذا وهذا معاً ... فنعم المولي ونعم البدل

وقال أبو العلاء السروي ، شاعر اليتيمة :

حي شيباً أتى لغير رحيل ... وشباباً مضى لغير إياب

أي شيء يكون احسن من ... عاج مشيب في آبنوس شباب

وقال ابوعوانة الكاتب :

هزئت إذ رأت مشيبي وهل ... غير المصابيح زينة للسماء

وتولت فقلت قولا بافصاح ... لها لا بالرمز والايماء

إنما الشيب في المفارق كالنـو ... ر بدا والسواد كالظلماء

لامحيص عن المشيب اوالموت ... فكـن للحوباء او للنماء

إن عمراً عوضت فيه عن الموت ... بشيب من اعظم النعـماء

وقال ابو عبدالله الأسباطي :

لايرعك المشيب يا ابنة عبدالله ... فالشيب زينة ووقار

إنما تحسن الرياض إذاما ... ضحكت في ظلالها الأنوار

وفي المجلد الرابع عشر من (دائرة المعارف) تأليف (الشيخ محمد حسين سليمان الاعلمي) الحائري :

قول الشاعر :

الشيب في رأس الفتى حلم به ... والشيب في راس الفتاة قبيح

والخال في خد الفتى عيب به ... والخال في خد الفتاة مليح

وقال آخر :

إن المشيب رداء الحلم والادب ... كان الشباب رداء الجهل واللعب

وقال ابو تمام :

ست وعشرون تدعوني فاتبعها إلى المشيب ولم تظلم ولم تحب
ولا يروعك إيماض القتير به فان ذاك ابتسام الرأي و الأدب

وفي عقد الفريد : دخل (ابو دلف) على المأمون ، وعنده جارية ، وقد ترك الخضاب (ابو دلف) ، فغمز المأمون الجارية ، فقالت : شبت ابادلف ، إنا لله وانا اليه راجعون عليك ، فسكت ابو دلف ، فقال له المأمون : اجبها ابادلف ، فأطرق ساعة ، ثم رفع رأسه فقال :

تهزأت ان رأت شيبي فقلت لها لا تهزئي من يطل عمر به يشب
شيب الرجال لهم زين ومكرمة وشيبكن لكن الويل فاكتئبي
فينا لكن وإن شيب بدا أرب وليس فيكن بعد الشيب من ارب

وقال محمود بن مناذر :

لاسلام على الشباب ولا حيا الاله الشباب من معهود
قد لبست الجديد من كل شيء فوجدت الشباب شر جديد
صاحب مايزال يدعو الى العيب وما من دعا له برشيد
ولنعم المشيب والوازع الشيب ونعم المفاد للمستفيد

محاضرات الأدباء ، للراغب الأصبهاني ، قال الموسوي :

رأت شعرات في عذاري تبسمت كما افتر طفل الروض عن خلع الوسمي
فقلت لها ما الشعر سال بعارضي ولكنه نبت السيادة والحلم
يزيد به وجهي ضياء وبهجة وما تنقص الظلماء من بهجة النجم

في المحاسن والمساوي ، تأليف البيهقي ، لابن المعتز :

رفعت طرفها إلي عبوساً واستثارت من المآقي الرسيسا
ورأتني اسرح العاج بالعاج فظلت تستحسن الأبنوسا

ليس شيبي إذا تأملت شيباً ... إنما الشيب ما أشاب النفوسا

وفي ديوان خليل مطران :

ماذاك في الرأس بشيب يرى ... ذاك ابتسام من مضيء الحجى
كم من جهات القطب من موضع ... يرى به الفجر أوان الدجى

وفي عقد الفريد ، قال مؤلفه :

بدا وضح المشيب على عذاري ... وهل ليل يكون بلا نهار
شريت سواد ذا ببياض هذا ... فبدلت العمامة بالخمار
وألبسني النهى ثوباً جديداً ... وجردني من الثوب المعار
وما بعت الهوى بيعاً بشرط ... ولا استثنيت فيه بالخيار

وفي معادن الجواهر ، لمؤلفه السيد محسن الأمين العاملي .

قال الشريف المرتضى من قصيدة :

ياهند ان انكرت لون ذوائبي ... فكما عهدت خلائقي وطرائقي
ووراء ماشنأته عنك خلة ... ماشئت من خلق يسرك رائق
ومعيري شيب العذار ومادرى ... إن الشباب مطية للفاسق
ويقول لو غيرت منه لونه ... هيهات ابدل مؤمناً بمنافق

وله ايضاً :

والشيب داء لربات الحجال إذا ... رأينه وهو داء ماله آسي
ياقربهن وشيبي فاحم رجل ... وبعدهن وشيبي ناصع عاسي
ماذا يريبك من بيضاء طالعة ... جاءت بحلمي وزانت بين جلاسي

وقال السيد محسن امين العاملي :

باتت تعيرني بالشيب حين بدا ... فقلت هيهات ما بالشيب من عار
ماشاب حلمي ولا عزمي ولا نقصت ... ياميّ بالشيب لذاتي وأوطاري

وله ايضاً من جملة ابيات :

قالت علاك الشيب قبل اوانه ‏ فأذل صعبك بعد طول شماس

لاحبذا عصر المشيب وحبذا ‏ عصر وأنت من الشبيبة كاسي

فأجبتها لاتجزعي من شيبة ‏ عجلت علي فما بها من باس

فالشيب عنوان الوقار وآية ‏ لرجوح حلم كالاشم الراسي

قالت وقد ابدت بتسم هازىء ‏ مـا للوقار وقـدي الميـاس

وجاء في كتاب المستطرف ، وكان المأمون يتمثل بقول الشاعر :

رأت وضحاً في الرأس مني فراعها ‏ فريقان مبيض به وبهيم

تفاريق شيب في السواد لوامع ‏ فياحسن ليل لاح فيه نجوم

وفي سفينة البحار . قال ابن الرومي :

كفى بسراج الشيب في الرأس هاديا ‏ لمن قد أضلته المنايا لياليا

شذور من كلام العرب في وصف الشيب ومدحه

إفتر عن ناب القارح ، وقرع ناجذ الحلم . وارتاض بلجام الدهر ، وأدرك عصر الحنكة وأوان المسكة . جمع قوة الشباب الى وقار المشيب . اسفر صبح المشيب ، وعلته ابهة الكبر خرج عن حد الحداثة ، وارتفع عن غرة الغرارة . نفض جرة الصبا ، وولىّ داعية الحجا . لما قام له الشيب مقام النصيح ، عدل عن علائق الحداثة بتوبة نصوح . الشيب حلية العقل وشيمة الوقار . الشيب زبدة مخضتها الايام ، وفضة سبكتها التجارب . سري في طريق الرشد بمصباح الشيب . عصى شياطين الشباب ، وأطاع ملائكة الشيب الشيخ يقول عن عيان ، والشاب عن سماع . في الشيب استحكام الوقار

وتناهي الجلال ، وميسم التجربة ، وشاهد الحنكة . صفا فلان على طول العمر ، صفاء التبر على شغب الجمر . لقد تناهت به الايام تهذيباً وتحليما ، وتناهت به السن تجريباً وتحنيكاً . قد وعظه الشيب بوخطه وخطبه .

ما جاء في مدح الشباب والتحسر على فراقه وذم الشيخوخة

قرأت في زهر الآداب :لمؤلفه (ابي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني) . وقال احمد بن ابي طاهر :

يامـن كلفت بحبـه كلفي بـكاسات العقـار
وحياة ما في وجنتيك من الشقائق والبهار
وولوع ردفك بالترجـر ج تحت خصرك في الأزار
ماأن رأيت لحسن وجهك في البريـة من نجـار
لـما رأيت الشـيب مـن وجهي بمايحكى الجمـار
قالت غـبار قد عـلاك فقـلت ذا غـيرالغبـار
هذا الذي نقل الملوك الى القبور من الديـار
قالت ذهبت بحجتي عني بحسـن الاعتذار
ياهذه ارأيت ليـلا مـذ خلـقت بلانهار

وقال خالد الـكاتب :

نظرت الي بعين من لم يعدل لما تمكن طرفها من مقتلي
لمارأت شيباً الم بمفرقي صدت صدود مفارق متحمل
وظللت اطلب وصلها بتملق والشيب يغمزها بألاتفعلي

وقال ابن الرومي :

كان الشباب وقلبي فيه منغمس ... في لذة لست أدري ما دواعيها
روح على النفس منه كاد يبردها ... برد النسيم ولا ينفك يحييها
كأن نفسي كانت منه سارحة ... في جنة بات ساقي المزن يسقيها
يمضي الشباب ويبقى من لبانته ... شجو على النفس لا ينفك يشجيها
ما كان اعظم عندي قدر نعمته ... لنفسه لا لحلم كان يصبيها
ما كان يوزن إعجاب النساء به ... والنفس اوجب إعجاباً بما فيها

لأبي تمام الطائي :

لعب الشيب بالمفارق بل ... جد فأبكى تماضراً ولعوبا
يا نسيب الثغام ذنبك ابقى ... حسناتي عند الحسان ذنوبا
لو رآى الله في الشيب فضلا ... جاورته الابرار في الخلد شيبا

وقال أبو الفتح كشاجم :

أخي قم فعاوني على نتف شيبة ... فاني منها في عذاب وفي حرب
إذا مامضى المنقاش يأتي بما أتت ... وقد اخذت من دونها جارة الجنب
كجان عل السلطان يجزى بذنبه ... تعلق بالجيران من شدة الرعب

وفي كتاب (المستطرف) :

شيئآن لو بكت السماء عليهما ... عيناك حتى يؤذنا بـذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما ... فقـد الشباب وفرقة الاحباب

وقال آخر :

عريت من الشباب وكنت غصناً ... كما يعرى من الورق القضيب
ونحت على الشباب بدمع عيني ... فما نفـع البكاء ولا النحيب
فيا ليت الشباب يعود يوماً ... فأخبره بما فعـل المشيب

وفي عقد الفريد ، قال ابن ابي حازم :

ولى الشباب فخلى الدمع ينهمل ... فقد الشباب بفقد الروح متصل
لاتكذبن فما الدنيا بأجمعها ... من الشباب بيوم واحد بدل

وقال جرير :

ولى الشباب حميدة أيامه ... لو كان ذلك يشترى او يرجع

وقال صريع الغواني :

واهاً لأيام الصبا وزمانه ... لو كان أسعف بالمقام قليلا
سل عيش دهر قدمضت ايامه ... هل يستطيع الى الرجوع سبيلا

وقال اعرابي :

لله أيام الشباب وعصره ... لم يستعار جديده فيعار
ماكان اقصر ليله ونهاره ... وكذاك ايام السرور قصار

وقال ابن عبد ربه :

قالوا شبابك قد مضت ايامه ... بالعيش قلت وقد مضت ايامي
لله أية نعمة كان الصبا ... لو انها وصلت بطول دوام
حسر المشيب قناعه عن وجهه ... وصحا العواذل بعد طول ملام
فكأن ذاك العيش ظل غمامة ... وكأن ذاك اللهو طيف منام

وقال ايضاً :

شبابي كيف صرت الى نفاد ... وبدلت البياض من السواد
وما ابقى الحوادث منك إلا ... كما ابقت من القمر الدآدي
فراقك عرف الاحزان قلبي ... وفرق بين جفني والرقاد
فيا لنعيم عيش قد تولى ... ويا لغليل حزن مستفاد
كأني منك لم اربع بربع ... ولم ارتد به احلى مراد
سقى ذاك الثرى وبل الثريا ... وغادى نبته صوب الغوادي

فكم لي من غليل فيه خاف وكم لي من عويل فيه باد
زمان كان فيه الرشد غياً وكان الغي فيه من الرشاد
يقبلني بدلّ من قبول ويسعدني بوصل من سعاد
وأجنبه فيعطيني قياداً ويجنبني فأعطيه قيادي

وفي معادن الجواهر ، قال ابن الرومي :

أبين ضلوعي جمرة تتوقد على مامضى أم حسرة تتجدد
خليلي مابعد الشباب رزية يجم لها ماء الشؤون ويعتد
فلا تعجبا للجلد يبكي فربما تفطر عن عين من الماء جلمد
شباب الفتى مجلوده وعزاؤه فكيف وانى بعده يتجلد
وفقد الشباب الموت يوجد طعمه صراحاً وطعم الموت بالموت يفقد
رزئت شبابي عودة بعد بدأة وهن الرزايا باديات وعود
سلبت سواد العارضين وقبله بياضهما المحمود إذ انا أمرد
وبدلت من ذاك البياض وحسنه بياضاً ذميما لايزال يسود
لشتان مابين البياضين معجب انيق ومشنوء الى العين انكد
وكنت جلاء للعيون من القذى فقد جعلت تقذي بشيبي وترمد
هي الاعين النجل التي كنت تشتكي مواقعها في القلب والرأس اسود
فمالك تأسى الآن لما رأيتها وقد جعلت مرمى سواك تعمد
تشكي اذا ما اقصدتك سهامها وتأسى اذا نكبن عنك وتكمد
كذلك تلك النبل من وقعت به ومن صرفت عنه من القوم مقصد
اذا عدلت عنا وجدنا عدولها كموقعها في القلب بل هو اجهد
كفى حزنا ان الشباب معجل قصير الليالي والمشيب مخلد
إذا حل جارى المرء شأوحياته الى ان يضم المرء والشيب ملحد

أأيام لهوى هل مواضيك عود وهل لشباب ضل بالأمس منشد

لابن الرومي أيضاً :

عاصى العزاء عن الشباب فطاوع الدمـــع الغزير
كيف العزاء عن الشباب وغصنه الغصن النضير
كيف العزاء عن الشباب وعيشه الغيش الغريـر
بان الشباب وكان لي نعم المجـاور والعشير
بان الشباب فلا يـد تحـوي ولا عين تشير
ولقـد أسرت به القلوب فقلـــبي اليوم الأسير

لابن الرومي :

لعمرك ما الحياة لكل حي إذا فقد الشباب سوى عذاب
سقى عهد الشبيبة كل غيث أغر مجلجـل داني الرباب
يذكرني الشباب جنان عدن على جنبات انهار عـذاب
فيا اسفا ويا جزعاً عليه ويا حزناً الى يوم الحساب
أفجع بالشباب ولا اعزى لقد غفل المعزي عن مصابي

وقال الشريف المرتضى من قصيدة ،

جزعت لو خطات المشيب وانما بلغ الشباب مدى الكمال فنورا
والشيب ان فكرت فيه مورد لا بـد يورده الفتى إن عمرا
يبيض بعد سواده الشعر الذي إن لم يزره الشيب واراه الثرى
زمن الشبيبة لاعدتك تحية وسقاك منهمر الحيا ما استغزرا
فلطالما اضحى ردائي ساحباً في ظلك الوافي وعودي أخضرا
أيام يرمقني الغزال اذا رنا شغفاً ويطرقني الخيال إذا سرى

وقال ايضاً :

ألا حبذا زمن الحاجر وإذ انا في الورق الناضر
اجرر ذيل الصبا جامحاً بلا آمر وبلا زاجر
الى ان بدى الشيب في مفرقي فكانت اوائله آخري

وقال ايضاً من قصيدة :

وبيض لواهن المشيب عن الهوى فازرن من وصلي واوسعن من هجري
والزمنني ذنب المشيب كأنما جنته يداي عامداً لا يد الدهر
لحا كن ربي إنما الشيب فسحة لما فات في شرخ الشبيبة من امر
سقى الله ايام الشبيبة ريها ورعيا لعصر بان عني من عصر
ليالي لا يعدو جمالي منيتي ولم تردد الحسناء نهي ولا امري
واذ انا في حب القلوب محكم وافئدة البيض الكواعب في اسري

وقال ايضاً من قصيدة :

وغرائر انكرن شيب ذوائبي والبيض مني عندهن السود
يهوى الشباب وان تقادم عهده ويمل هذا الشيب وهو جديد
لا يبعدن عهد الشباب ومن جوى ادعو له بالقرب وهو بعيد
ايام ارمى باللحاظ وأرتمي وأصاد في شرك الهوى وأصيد

وجاء في كتاب (منن الرحمن) تأليف (الشيخ جعفر نقدي) .

قال المفضل حضرت الرشيد وقد دخل عليه منصور النميري فأنشده :

ما تنقضي حسرة مني ولا جزع إذا ذكرت شباباً ليس يرتجع
بان الشباب وفاتتني بلذته صروف دهر وأيام له خدع
ما كنت اوفي شبابي كنه قيمته حتى انقضى فاذا الدنيا له تبع

قال فتحرك الرشيد وقال احسنت والله ، لا يهنأ احد بعيش حتى

يخطر في رداء الشباب .

وفي محاضرات الأدباء

ولّى الشباب وولى العيش والعمر   وأقبل المدبران الشيب والكبر

وقال رسبة بن الأبيض :

بان الشباب بكل ماتهوى   النفوس وتستطيب
طفىء السراج وكلت الاضراس   وانكسر القضيب

وقال علي بن جبلة :

ولما انقضى عصر الشباب وعهده   ذوى ورق الدنيا وأغصانها الهدل

قرأت في المجلد الاول من كتاب النوادر تأليف (أبي مسحل الاعرابي) .
من ابيات له يتحسر على ايام الشباب :

ألا ليس من هـذا المشيب طبيب   وليس شباب بان عنك يؤوب
لعمري لقد بان الشباب وانني   عليه لمحزون الفؤاد كئيب
وليس على باكي الشباب ملامة   ولوانه شقت عليه جيوب
اقول لضيف الشيب لما اناخ بي   جزاؤك مني جفوة وقطوب
حرام عليه ان ينالك عندنا   كرامة بر او يمسك طيب

شذور من الكلام في وصف الشباب وعدمه

ما جاء في زهر الاداب :

ذوى غصن شبابه . بدت في رأسه طلائع المشيب . اخذ الشيب بعنان شبابه . غزاه الشيب بجيوشه . طرز الشيب شبابه . أقمر ليل شبابه ،

الجمه بلجامه ، وقاده بزمامه . علاه غبار وقائع الدهر . بينا هو راقد في ليل الشباب ايقظه صبح المشيب . طوى مراحل الشباب ، وأنفق عمره بغير حساب . جاوز من الشباب مراحل ، وورد من الشيب مناهل . فل الدهر شبا شبابه ، ومحا محاسن روائه . قضى باكورة الشباب ، وانفق نضارة الزمان . اخلق بردة الصبا ، ونهاه النهي عن الهوى . طار غراب شبابه . انتهى شبابه ، وشاب أترابه . استبدل بالأدهم الابلق ، وبالغراب العقعق . انتهى الى اشد الكهل ، واستعاض من حلك الغراب بقادمة النسر . افتر عن ناب القارح ، وقرع ناجذ الحلم ، وارتاض بلجام الدهر ، وادرك عصر الحنكة وأوان المسكة . جمع قوة الشباب الى وقار المشيب . اسفر صبح المشيب ، وعلته ابهة الكبر . خرج عن حد الحداثة ، وارتفع عن غرة الغرارة . نفض جرة الصبا ، وولى داعية الحجا »

ما جاء في ذم الشيب وقبحه

جاء في معادن الجواهر : قال ابو تمام :

غدا الشيب مختطاً بفودي خطة ... طريق الردى منها الى النفس مهيع
له منظر في العين ابيض ناصع ... ولكنه في القلب اسود أسفع

وقال ابو تمام :

شعلة في المفارق استودعتني ... في صميم الفؤاد ثكلا صميما
دقة في الحياة تدعى جلالا ... مثلما سمي اللديغ سليما

وقال المتنبي في مطلع قصيدة :

ضيف ألمّ برأسي غير محتشم ... والسيف احسن فعلامنه في اللمم
أبعد بعدت بياضاً لابياض له ... لأنت اسود في عيني من الظلم

وقال الشريف الرضي :

مالقائي من عـدوي كلقائي من مشبي
وبياض هو عنـد البيض من شر ذنوبي

وقال الشريف المرتضى من ابيات :

يقولون لاتجزع من الشيب ضلة واسهمه إياي دونهم تصمي
واني مذ اضحى عذاري قراره أعاد بلا سقم واجفى بلا جرم
وسيان بعد الشيب عند حبائبي وقفن عليه أو وقفن على رسم
وقد كنت ممن يشهد الحرب مرة ويرمي باطراف الرماح كما يرمي
الى ان علاهذا المشيب مفارقي فلم يدعني الاقوام إلا الى السلم

وقال ايضاً من قصيدة :

لامرحبا بالشيب اظلم باطني لما تجللني واشرق ظاهري
شعر أبى لي في الحسان إصاخة يوم العتاب الى قبول معاذري
لاذنب لي قبل المشيب وانني لمؤاخذ من بعده بجرائر

وقال ايضاً من قصيدة :

هل الشيب إلا غصة في الحيازم وداء لربات الخـدود النواعم
يحدن إذا أبصرنه عن سبيله صدود النشاوى عن خبيث المطاعم
تعممته بعـد الشبيبة ساخطا فكان بياض الشيب شر عمائمي
وهيبني منه كما هاب عائج على الغاب هياب الليوث الضراغم
حنتني منه الحانيات كأنني إذا ظلت يوماً قائما غير قائم

وقال مهيار :

عذلوك في فغيروك سريرة ورأيت شيباً فاستحلت عيانا
عذل يرى عدلا وجور ذوائب سموه لي عزاً فجر هوانا

ماغيرت بالشيب لوناً لمتي حتى تغير صاحبي الوانا
بيضاء سودت الصحيفة عنده واستعجلته بوصلها الهجرانا
إن يجتنب منها الهشيم مصوحا فبما اجتنى ربعانها ريحانا

وقال السيد محسن أمين العاملي :

أفبعد ماابيض القذال وشابا ترجو لوصل الغانيات إيابا
هيهات فاتك ماطلبت وقطعت بيض الكواعب دونك الاسبابا
كانت واوجهها اليك بواسم فاليوم يصرفن الوجوه غضابا
والشيب ذنب ماله من توبة ولربما اعتذر المسيء وتابا
لهفي على عصر الشباب مضى ومن لي بالحمامة ان تعود غرابا

وقال السراج الوراق :

وباخل يشنأ الاضياف حل به ضيف من الصبغ نزال على سقم
سألته ماالذي يشكو فأنشدني (ضيف الم برأسي غير محتشم)

وقال السراج الوراق :

وكنت حبيبا الى الغانيات فألبسني الشيب بغض الحبيب
وكنت سراجاً بليل الشباب فأطفأ نوري نهار المشيب

وقال السراج الوراق :

وقالت ياسراج علاك شيب فدع لجديده خلع العذار
فقلت نهار بعد ليل فما يدعوك انت الى النفار
فقالت قد صدقت وما علمنا بأضيع من سراج في نهار

وفي المحاسن والمساوي ، قال ابن المعتز في الشيب :

قالت وقد راعها مشيبي كنت ابن عم فصرت عما
واستهزأت بي فقلت ايضاً قد كنت بنتا فصرت اما

كني ولا تكثري ملامي ولا تزيدي العليل سقما
من عاب ابصرته الغواني بعين من قد عمى وصما
لو قيل لي اختر عمى وشيبا أيها شئت قلت اعمى
ولآخر :

إذا راقهن خدين الشباب عطفن كما تعطف الوالده
وان هن عاين ذا شيبة فيالك من مقل زاهده
فويح الشباب وويح المشيب عدوان دارهما واحده

وفي « عقد الفريد » قال محمود الوراق :

لا تطلبن اثراً بعين فالشيب احدى الميتتين
ابدى مقابح كل شين ومحاسن كل زين
فاذا رأيت الغانيات رأين منك غراب بين
وربما نافسن فيك وكن طوعا لليدين
أيام عممك الشباب وانت سهل العارضين
حتى اذا نزل المشيب وصرت بين عمامتين
سوداء حالكة وبيضا ء المناشر كاللجين
مزج الصدود وصالهن فكن امراً بين بين
وصبرن ماصبر السوا د على مضاضة ودين
حتى اذا شمل المشيب فجاز قطر الحاجبين
فتقين شر تقية وأخذن منك الاطيبين
فاقن الحيا اوسل نفسك او فناء الفرقدين
ولئن اصابتك الخطوب بكل مكروه وشين
فلقد امنت بأن يصيبك ناظر أبداً بعين

وفي محاضرات الادباء ، قول منصور :

من شاب مات وهو حي   يمشي على الارض وهو هالك
لو كان عمر الفتى حسابا   لكان في شيبه فذالك

شذور من الكلام في ذم الشيب وقبحه

جاء في زهر الآداب :

الشيب مقدمة الموت والهرم ، والمؤذن بالخرف ، والقائد للموت · الشيب رسول المنية الشيب عنوان الفساد · الموت ساحل ، والشيب سفينة تقرب من الساحل · السن بابنه وسبطه ، قدتضاعفتعقود عمره ، واخذت الايام من جسمه . وجد مس الكبر ولحقه ضعف الشيخوخة ، واساء اليه اثر السن واعتراض الوهن · هو من ذوي الاسنان العالية ، والصحبة للايام الخالية . هو هم هرم ، قد اخذ الزمان من عقله كما اخذ من عمره . ثلمه الدهر ثلم الاناء ، وتركه كذي الغارب المنكوب ، والسنام المجبوب . رماه من قوسه الكبر · اريق ماء شبابه ، واستشن اديمه . كسر الزمان جناحه ، ونقض مرته . طوى الدهر منه ماانشر ، وقيده الكبر . يرسف رسفان المقيد ، هو شيخ مجتث الجثة ، واهي المنة ، مغلول القوة ومفلول الفتوة . ثقلت عليه الحركة واختلفت اليه رسل المنية . ماهو الا شمس العصر على القصر . اركانه قد وهت ومدته قد تناهت · هل الغاية منزلة ، او بعد الشيب سوى الموت مرحلة ؟ ماالذي يرجى ممن كان مثله في تعاجزالخطا ، وتخاذل القوى ، وتداني المدى والتوجه الى الدار الاخرى ، ابعد دقة العظم ، ورقة الجلد ، وضعف الحس ، وتخاذل الاعضاء ، وتفاوت الاعتدال ، والقرب من الزوال · والذي بقى منه ذماء يرقبه المنون بمرصد ، وحشاشة هي هامة اليوم او غد قد خلق عمره ، وانطوى عيشه ، وبلغ ساحل الحياة ، ووقف على ثنية الوداع ، واشرف على دار المقام ، فلم يبق الا انفاس معدودة ، وحركات

محصورة نضب غدير شبابه

قيس بن عاصم : الشيب خطام المنية . اكثم بن صيفي : المشيب عنوان الموت الحجاج بن يوسف : الشيب نذير الآخرة . غيره : الشيب نوم الموت . المتبي : الشيب مجمع الامراض ، العتابي : الشيب نذير المنية . محمود الوراق الشيب احد الميتتين . ابن المعتز : الشيب اول مواعد الفناء . غيره : الشيب قناع الموت . الشيب غمام قطره الغموم . الشيب قذى عين الشباب .

* * *

فلنعد الآن الى صلب الحديث من قول الرسول ﷺ : « إن من اجلال الله إجلال ذي الشيبة » .

الشيب : هو تبدل سواد شعر الانسان بالبياض الناصع . وهذا اللون كاشف عن بلوغ الانسان الغاية ووصوله النهاية . فدرجة الشيخوخة آخر خطوة للانسان المخلوق للفناء فاذا تبدلت الشعرات السود بالبياض فينبغي لمن لاحت في عارضيه وعلم أنها نذير عمره الفاني ، وأنها افتراق روحه عن جسده ان يدأب في الطاعة المقربة له من الجنة ، ويتجنب المعصية المشرفة بـه على النار ، وان يتهيء بأحسن هيئة ويستمد باجمل استعداد المسافرين في اسفارهم والراحلين عن أوطانهم ، فان سفره من اعظم الاسفار وخطر رحلته من أهم الاخطار .

ثم الواجب على من لم يبلغ تلك النقطة ، ولم يصل بمسراه الى تلك الخطة ان يعظم ذا الشيبة ويحترمه اعظم احترام ، ويبجله احسن تبجيل ، وذلك (أي احترام ذي الشيبة مما ندب الى حسنه العقل والنقل .

اطبق العقلاء كافة ، وذووا الآراء التي تقتبس منها الحقائق المتبعة على تحبيذ احترام ذي الشيبة ، وإكرام ذي السن العالي . وناهيك بالكتاب المجيد والسنة النبوية المقدسة فيما تضمنتا من الايصاء والتوصية باكرام ذي الشيب

وما تكفلنا من التعطف والتحنن عليه .

جاء في الحديث عنه ﷺ : « إن من إجلال الله تعالى إجلال ذي الشيبة » وقال : من عرف فضل كبير لسنه ووقر شيبته آمنه الله من فزع يوم القيامة . وفي الحديث القدسي الشيب نوري وأنا استحي ان اعذب نوري بناري . وقال ﷺ « من شاب شيبة في الاسلام كانت له نوراً يوم القيامة يسعى به الى الجنة ، يقول الله تعالى : رحمت عبدي لأنه شاب في الاسلام ولم يشرك بي شيئاً » . وعن ابن أبي شيبة قال : نهى رسول الله ﷺ عن نتف الشيب وقال هو نور المؤمن . وجاء رجل من هذيل الى رسول الله ﷺ فقال: يانبي الله قد كبر سني ودق عظمي وضعفت قوتي عما تعودته من الصلاة والصيام فقال ﷺ : اعد كلامك علي فما حولك صخرة ولا مدرة إلا وبكت رحمة لك فكيف لا يرحمك الرحمن .

إن الله تعالى اخر قلب مدائن قوم لوط الى وقت السحر ، فسأله جبرئيل عن سبب ذلك ، فقال تعالى : ان فيهم شيخاً ذا شيبة نائما على قفاه فلحرمة شيبته اخرت ذلك حتى ينقلب على وجهه .

وقال ﷺ : « ان الله تعالى ينظر في وجه الشيخ صباحاً ومساءاً ، فيقول : عبدي كبر سنك ، ودق عظمك ، ورق جلدك وقرب اجلك وحان قدومك علي ، فاستحي مني فأنا استحي من شيبتك ان اعذبك في النار ، ثم بكى ﷺ فقيل له ما يبكيك يا رسول الله ، قال : ابكي ممن يستحي الله منه وهو لا يستحي من الله » .

وعن ابي عبد الله الصادق عليه السلام قال : ان الله ليكرم ابناء السبعين ، ويستحي من ابناء الثمانين فيأمر بأن تكتب لهم الحسنات وتمحى عنهم السيئات . والعلة في ذلك انه اذا بلغ الرجل هذا العمر تنهدم قواه وتكثر امراضه ويحرم

من جميع ملاذ الدنيا » .

يحدثنا الطبرسي في مكارم الأخلاق ، يقول كان الناس في بدء الخليقة لا يشيبون ، ولم تكن ميزة بين الرجال ، فسأل إبراهيم الخليل عليه السلام ربه ، فقال يا رب اجعل لي شيئاً اعرف به فجعل له الشيب ، فقال : يا رب ما هذا . قال : هذا وقار . فقال يا رب زدني وقاراً . فابيضت لحيته .

* * *

كانت اللحية ولا تزال شعار الرجال ومن مميزاتهم ، اذ الفطرة حرمت المرأة من هذا الشعر ، فتولدت من هذه عادة المحافظة على اللحى واكرامها بين اكثر الاجيال والشعوب القديمة ، شرقية كانت أم غربية ، ولم يتفش في الاقوام عادة حلقها بالصورة العامة إلا في هذه القرون الأخيرة . وكانت الاديان ، وكذا الامم المحافظة على آدابها إنما تحتفظ على إكرام اللحى من الجهة الأدبية اكثر منها من الجهة الصحية .

وها إنني اقدم لقراء كتابي هذا وهو الجزء الثاني من (شرح رسالة الحقوق) دلائل الجهتين معاً (اعني جهة الشريعة والطب جميعاً حسبما يفسح الحال والمجال :

أما الاولى وهي جهة المنع من حلق اللحية في شريعة الاسلام ، فالدلائل عليها كثيرة اوردها العلماء في كتبهم الفقهية ورسائلهم العملية ، فلتطلب من مظانها ولتقتبس من محالها ، ونقتصر منها هنا على ثلاث :

أحدها : حديث الاعفاء ، ونصه ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال احفوا الشوارب ، واعفوا اللحى الخبر . وظاهر ان الامر في الوجوب ، وقد رواه الصدوق (محمد بن بابويه القمي) في جامعه المشهور (من لا يحضره الفقيه) ، واعتمد عليه في التحريم اكثر فقهاء المسلمين .

فان قلت هذا الحديث مرسل مقطوع السند ، قلت · قال الشيخ سبط الشهيد الثاني في الدر المنثور (والارسال لا يقدح فيه بعد تعهد الصدوق أن لا يروي في الفقيه الا ما كان حجة بينه وبين ربه . وعن التقي المجلسي قال : ان مراسيل الفقيه كلها مسانيد صحاح . على ان هذا الحديث كاد ان يبلغ من شهرته حد التواتر . وقد روي بالفاظه المتقاربة في صحيح مسلم والبخاري والترمذي والنسائي ، ومسند احمد بن حنبل ، وكتب احاديث المسلمين على اختلاف طوائفهم وطرقهم .

الثاني حديث المسخ : وهو الذي رواه ثقة المحدثين محمد بن يعقوب الكليني في صحيحه المشهور (بالجامع الكافي) في باب ما يفصل به بين دعوى المحق والمبطل من ابواب الاصول وفيه ان امير المؤمنين علياً عليه السلام قال في ضمن حديث طويل : « ان اقواماً من بني اسرائيل حلقوا اللحى وفتلوا الشوارب فمسخوا الخ

وقد استدل به على تحريم حلق اللحية جماعة من الفقهاء : كالمولى محسن الفيض ، والشيخ المجلسي ، والشيخ البحراني في الحدائق ، وقال الأخير : « الظاهر كما استظهره جملة من الاصحاب هو التحريم ، لخبر المسخ ، فانه لا يقع إلا على امر محرم بالغ في التحريم ، وتعويل الفقهاء على هذا الحديث لا يقصر عن تصحيح المحدثين اياه .

الثالث حديث العارضين : وهو الذي يعتمد عليه ويستكفى به دليلا على تحريم حلق اللحى في الشريعة ، وقد رواه شيخ الفقهاء (محمد بن ادريس الحلي) في اواخر كتابه (السرائر) عن كتاب الجامع لاحمد بن محمد البزنطي ، صاحب مولانا علي بن موسى الرضا عليه السلام ، وصاحب أبيه موسى بن جعفر عليه السلام ، وعظيم المنزلة عندهما ، قال : سألت ابا الحسن الرضا (ع) عن الرجل هل يصلح له ان يأخذ من لحيته ، قال : أما من عارضيه فلا بأس وأما من مقدمها فلا .

وروى هذا الحديث الحميري في قرب الا سناد بسنده الصحيح عن مولانا موسى الكاظم ، ورواه ايضاً علي بن جعفر في كتابه عن اخيه الكاظم ، وكما نثق بصدوره نثق ايضاً بظهوره في المنع عن الحلق ، بعد اطلاق قول الامام عليه السلام : « وأما من مقدمها فلا » وكون حلق اللحية اظهر مصاديق الاخذ منها ، وكون الاطلاق في حال البيان، ظاهر وظاهر النهي التحريم ، نعم يخرج من ذلك الاخذ على سبيل التحسين ويبقى باقي الافراد داخلا في المنع ، سيما الفرد الظاهر من ذلك وهو استيصال شعر الفكين والذقن .

هذا ويتلو ذلك كله عمل المسلمين الكاشف عن الاجماع وثبوت الحرمة في الشريعة ، فانه لا ينبغي الريب في ان المتشرعين من أول الاسلام الى هذا الزمان يعرف من امرهم ، ان حلق اللحية عندهم من المنكرات في دين الاسلام ، لا يرتكبه إلا متبع الهوى والشهوات ومن لا يقف عند حدود الشريعة ، ولا يبالي بنكير اهل الدين ، مضافاً الى انه لم يعرف قول عالم معتد به بجواز حلق اللحية ونحوه .

وكفى بذلك دليلا على الحرمة ، دليلا ينادي بتسالم المسلمين في اجيالهم على الحرمة واخذهم لها بالتسليم يداً عن يد الى مصدر الشريعة المطهرة ، هذا مضافاً الى استفادة نقل الاجماع من الشيخ البهائي في رسالته في عقائد الامامية من ان جماعة العلماء ارسلوا الفتوى بالتحريم ارسال المسلمات ولم يشيروا الى خلاف وشبهة خلاف على ما هو ديدنهم في المسائل الخلافية .

ومن ذلك ما حكي عن يحيى بن سعيد الحلي في جامعه ، وفخر المحققين فى الحواشي الفخرية على القواعد ، والشهيد الأول في قواعده ، والشيخ علي في الدر المنثور ، والحر العاملي في بداية الهداية والسيد الداماد في مشارع النجاة والكاشاني في المفاتيح ، والشيخ البحراني في الحدائق ، والشيخ في كشف الغطاء

والشيخ في الجواهر ، والمعروفين بالتقليد من زمن الشيخ الانصاري الى الآن كما في رسائلهم العملية ، بل صرح بعض بأن التحريم متسالم عليه .

وأما الجهة الثانية : وهي البحث عن منافع ابقاء اللحى ومضار حلقها ، وهذا باب واسع المجال نختار منه جملة مما ذهب اليه الاطباء الماهرون :

أ ـ : سجعان افندي الماروني في كتاب (تاريخ امريكا) ما نصه : (وبعضهم يكرهون اللحى ، مع ان اعتبارها اولى ، فقد قال النطاسي الشهير الدكتور (فيكتور جورج) : ان اللحية لها نفع عظيم فانها تحفظ الفم وتمنع عنه الرطوبة وتقي الاسنان والغدد اللعابية ، ثم قال سجعان وقال غيره : انهم حلقوا مرة لحى جميع مستخدمي السكك الحديدية في ايام الشتاء ، فحصل لاكثرهم وجع ونخر في الاضراس والاسنان وورم في الغدد اللعابية ، قال سجعان : ووصف احد الاطباء لبعض الذين اصيبوا بالرشح (اعني داء الزكام) ان يطلقوا لحاهم ففعلوا ذلك وحصلوا على النتيجة المرغوبة .

(ب) ذكر الطبيبان الشهيران الدكتور (يعقوب صروف) والدكتور (فارس نمر) في مجلة المقتطف الشهيرة ص ٥٣٨ سنة ١٩٠٨ م كلاماً نصه : ان للشعر والشوارب واللحى فائدة كبيرة في منع دقائق الغبار من دخول الانف والفم وفي منع الهواء البارد من تبريد الحلق .

وروي ان النوتية (الملاحين) الذين ذهبوا للتفتيش عن الرحالة (فرنكلين) في جهات القطب الشمالي اشتد عليهم البرد القارس ، ولكنهم لم يصابوا بمكروه لان الشعر كان يغطي وجوههم فيدرء عنها البرد ، ثم لما عادوا الى انكلترا حلقوا هذا الشعر فلم يمض اسبوع حتى مرضوا كلهم

(ج) ذكرت جريدة العدل العربية التي كانت تصدر في الاستانة بتاريخ سنة ١٩١١ م بعدد ١٣٢ ما نصه : تألفت جمعية في انكلترا لمقاومة استعمال الموسي

ومن مباديء هذه الجمعية السعي في حمل الناس على ارسال لحاهم بحجة ان الموسي تكون سبباً من اسباب نقل العدوي والامراض المعدية · وقد طبعت هذه الجمعية منشوراً وزعته على كبار الانكليز وأعيانهم دعتهم فيه لتأييدها بارسال لحاهم حتى يتشبه بهم الشعب ، وقد وضعت في المنشور صورتين واحدة تمثل رجلا حليق الذقن والاخرى تمثل رجلا ذا لحية ، وجمعت كل المحاسن في الوجه الثاني كما ملأت الوجه الاول بالقبائح .

هذا بعض ما نشرته المطبوعات عن آراء اطباء الافرنج وكبار الغربيين .

وأما التوجه الى كلمات اطبائنا وضبط التجارب الشرقية ، ونقل كلمات عظمائهم حول المسألة لايسعه كتابنا هذا وهو الجزء الثاني من شرح (رسالة الحقوق) بل يستدعي افراد كتاب في الموضوع .

ومن الواضح لدى التأمل في المقام ، ان وجود الشعر حول الفكين والعارضين يحفظ شطراً كبيراً من الحرارة والابخرة لمنافعها ومحافظة قواها لاداء وظائفها حال المضغ والابتلاع ، وتقوي ادوات الحلق والغدد اللعابية ، وتحسين الكلام وتسويغ الطعام ومنع الاعراض الزكامية والامراض الرشحية ، ورفع التشنج ومنع نخر الاسنان ، وتقوية اللسان وغير ذلك . وربما وجد المتتبع في كتب أعلام الفقه وأركان الطب ما ينير الفكر ويوضح الامر اكثر من هذا القدر سيما في آثار الاواخر إذ القدماء والصدور قلما اهتم منهما احد بالتعرض لهذا الامر أو الاستدلال فيه .

وعليه كان شأنه عنـــدهم أشهر وأوضح من أن يتسائلوا عنه أو يستدلوا عليه .

* * *

جاء في كتاب عجائب الخلق) تأليف (جرجي زيدان) ما نصه :

« طبيعي في الانسان أن يرسل لحيته كما يرسل شعر رأســـه ، بل هي أولى بالارسال ، لانها تميز الرجل من المرأة ، ولكن الامم القديمة اختلفت في هذا الشأن ، فالاسرائيليون كانوا يرسلون لحاهم ويحترمونها ، وقد حافظوا عليها في اثناء عبوديتهم بمصر وهم يفتخرون انهم خرجوا من وادي النيل ولحاهم معهم .

أما المصريون فلم يكونوا يرسلون لحاهم ولكنهم كانوا يوقرون اللحى ، ولذلك كانوا يلبسون لحى مستعارة في الاحتفالات الدينية الكبرى ويصورونها في وجوه آلهتهم الذكور .

والعرب كانوا يرسلون لحاهم مثل سائر الشرقيين ، وظلوا على ذلك بعد الاسلام ، وتفننوا في أشكال اللحى وضروب إصلاحها وانواع خضابها ، وكانت تعد من شعائر التقى والعلم والوجاهة . فالخلفاء والامراء والفقهاء والعلماء كانوا يرسلونها ويحتفظون بما يقع منها في أثناء التمشيط ويحرقونه حتى لا تمس كرامته وأول من خالف هذه القاعدة السلطان سليم الفاتح (سنة ١٥١٢ م ـ ١٥٢٠ م) فقص لحيته ، وامر رجاله بذلك ، فوقع امره كالصاعقة على المسلمين ولاسيما الفقهاء ، وفي مقدمتهم قاضي القضاة ، فشكا الى السلطان من هذا الامر فأجابه مازحاً (قد قصصت لحيتي حتى لا يبقى لوزيري شيء يقودني به) يشير الى استبداد الوزراء في ذلك العهد . ولم يطل قص اللحى ، فعاد الناس الى إرسالها

وكان الاشوريون ومن خلفهم من الفرس يرسلون لحاهم ويتفننون في تطبيقها وخضابها . وذكروا حروبا انتشبت بين شعوب آسيا بسبب اللحى : منها حرب قامت بين التاتار والفرس ، واخرى بين التاتار والصين سفكت فيها دماء غزيرة وسبب الحرب الاولى ان التاتار كانوا يقصون لحاهم فاتهموا الايرانيين بالكفر لانهم لا يقصونها وتخاصموا ثم تحاربوا وهكذا يقال في سبب الحرب الاخرى

وكان اليونان في اعصرهم الاولى يرسلون لحاهم حتى ظهر الاسكندر وحمل على العالم ، فأمر رجاله بقص لحاهم لئلا يستعين الاعداء في ساحة الوغى بالقبض

عليها . وكان لهذه البدعة تأثير في العالم الروماني أيضاً ، فاقتدى الرومان باليونان واصبح ارسال اللحى عندهم دليل الهمجية ولذلك سموا الشعوب الجرمانية التي تساقطت عليهم من الشمال (بربر) من (باربا) في اللاتينية اللحية ، والباربر صاحب اللحية لان اولئك الشعوب كانوا يرسلون لحاهم بلا انظام او ترتيب فتكسبهم هيأة وحشية

ومن تاريخ اللحى في التمدن الحديث ان بطرس الاكبر قيصر الروس وضع ضريبة على اللحى ، والظاهر ان الانكليز سبقوه الى مثلها وهو قلدهم . فمن دفع الرامة اذن له لحيته وإلا فانهم يحلقونها له بالقوة ، ولم يبق لها مثل هذه القيمة عندهم الآن . وكان الاسبانيون يكرمون اللحى كثيراً ومن امثالهم بعد ان بطلت هذه العادة (لما اضعنا لحانا اضعنا انفسنا) وكذلك كان البرتغاليون فان (جوان كاسترو) لما اقترض الف بندقية من مدينة جوا ، رهن عندهم خصلة من لحيته وقال : (ان ذهب العالم كله يساوي هذا الجزء من اكليل بسالتي) .

واما بالنظر الى الطوائف المسيحية ، فالكنيسة الارثوذكسية تدافع عن اللحى وتعد ارسالها ضرورياً . والكنيسة الكاثوليكية ضد ذلك . لا يمكننا ان نتصور بطريركا بدون لحية كما يصعب علينا أن نتصور بابا بلحية ، وكان من العادات القديمة ان من يقصر شعر رأسه ويطيل شعر لحيته يكرمونه لانه يفعل فعل الكهنة ، والاوسمة البابوية التي اصدرها البابوات في نابولي من ايام اكلمندوس السابع الى اسكندر الثاني (أي من سنة ١٥٢٣ ـ ١٦٩١ م) فيها لحية وكانت لحية اكلمندوس المذكور طويلة وسوداء .

والناس في كل عصر يتفاوتون بطول لحاهم وكثافتها باختلاف الامزجة والاعمار والاقاليم . واطول لحية بلغ الينا خبرها لحية رجل فرنساوي اسمه (جول ديمون) ولد في فريلين بالشمال سنة ١٨٥٣م ويقيم الآن في انطريف (فلاندر الغربية بفرنسا) فهو الآن في الثامنة والخمسين من عمره وطول لحيته ثلاثة امتار و٦٥ سنتيمتراً اذا ارسلها انجرت على الارض ولذلك فهو يحبسها في جيب خاص بها »

حق الصغير

قوله (عليه السلام) :

« وحق الصغير رحمته في تعليمه ، والعفو عنه والستر عليه ، والرفق به ، والمعونة له . (والستر على جرائر حداثته فانه سبب للتوبة ، والمدارات له ، وترك مما حكته ، فان ذلك ادنى لرشده » .

* * *

المدخل :

تعبير لطيف يلقي ظل الدعة الرقيق ، وحركة جناح تميل الى جانب التجاوب الندي ، وترخي ريشه في وداعة واطمئنان ، فاذا الجو من حوله جو عطوفة وحنان .

تلك لمسة للمشاعر ، واستعراض صفحة من الواقع ، اودع الامام (ع) فيها الشعور بلذة التجاوب التي لا تعد لها لذائذ الارض كلها .

لذة التجاوب بين الكبير والصغير ، بتوقير احدهما والحنو على الآخر ، ليحلق كل فرد منهما في الآفاق العالية ، في الآفاق المشرقة المضيئة ، وتهيىء الاسباب العملية التي تعرفها طبيعة كل منهما .

فلمسة الامام (وعلى ذكره السلام) نحو الصغير فريضة في الطوق تصاحب الانسان وتلازمه كسائر الفرائض .

والمهم هو تركيز قوة العقيدة والتربية والخلق والتنظيم ، لتمتد روح الصغر وتتصل بالينبوع الدافق الذي لا ينضب .

كذلك ان لا يؤخذ ببعض ما يأتيه من جرائر وعرامة يمكن سدول الحجاب عليها ، فاللين وخفض الجناح سبب للاعتدال والرجوع عن الذنب .

ومن الخطأ الظن بأن العنف والشدة يجديان في مضمار التربية ، فالتجربة تفند هذا الزعم بقولها : إن الكائن الصغير يشعر بكيان مستقل لذاته كلما تقدم في السن ، ويشعر بعزة وكرامة ليس لاحد ان يتعدى حدودها ، لذلك ينبغي ان يعطى بعض الحرية والطلاقة لكي يستطيع ان يشق طريقه كما يريد وكما يفكر .

قال الشاعر :

إن مال طفلك للألعاب مشتغلا بالنقش والحفر والتصوير تزيينا
لاتنهه ربما عادت ملاعبه على الصناعة بالاصلاح تزيينا

وكذلك ان لا يؤخذ بالضعف والقوة إلا في بعض الحالات التي توجب تطبيق وسائل التأديب ، فليس ترك الطفل والغض عنه نهائياً بشيء صحيح ، كما انه لا يؤخذ بالالتزام بكل ما يرتئيه الابوان ، فكلا الامرين خطأ ، إنما الصحيح هو الوسط الذي استعرضه الامام عليه السلام في هذه الظاهرة .

ومن المعلوم ان الصبي بحاجة الى تربية بدنية جيدة ، وتربية نفسية صحيحة ، وتربية ثقافية تعنى بعقله وتفكيره .

قال الشيخ الرئيس ابن سينا في كتابه (السياسات الاهلية) في باب سياسة الرجل ولده : (فاذا فطم الصبي عن الرضاع بدأ بتأديبه ورياضة اخلاقه قبل ان تهجم عليه الاخلاق اللئيمة وتفاجئه الشيم الذميمة . فان الصبي تتبادر اليه مساوىء الاخلاق . . . فينبغي لقيم الصبي ان يجنبه مقابح الافعال ، وينكب عنه معايب العادات بالترهيب والترغيب ، والايناس والايحاش ، وبالاعراض والاقبال ، بالحمد مرة وبالتوبيخ اخرى ما كان كافياً . . . »

التربية

عبارة عن طريقة يتوصل بها الى نمو قوى الانسان الطبيعية والعقلية والادبية ، فينطوي تحتها جميع ضروف التعليم والتهذيب التي من شأنها إنارة العقل وتقويم الطبع وإصلاح العادات والمشارب ، وإعداد الانسان لنفع نفسه وقريبه في مراكزه الاستقبالية ، والاعتناء به في الحالة التي يكون فيها قاصراً عن القيام بالاعتناء بنفسه .

ولا يخفى ان الولد يشبه بالغصن الرطب تميل به الاهواء كيفما مالت ، ولهذا يجب الاعتناء بتدبيره وتدريبه وتهذيبه وتقويمه . وهو بذلك يختلف عن الحيوانات العجم التي لا تحتاج طبعاً إلا الى القوت ، وبهذه الخلة يقوم فضل الانسان عليها ، فانه مخلوق ادبي لا يمكن نمو قواه الادبية إلا بفعل ممتاز عن الفعل الذي يؤثر في بيئته ، ولا يمكن التوصل الى استعمال عقله إلا تدريجياً وببطء ، وذلك لا من تلقاء نفسه بل من قوة خارجية ، فيفتقر الى ان يكون له اتصالية عقلية مع ابناء جنسه الذين وصلوا الى ذلك قبله بنفس الوسائط التي يجب استعمالها نحوه ، وتلك الاتصالية لطيفة ونشيطة ، وتتبع نمو القوى الطبيعية الذي يكون ايضاً تدريجياً وببطء ، وتربية الانسان هي اعظم الاعمال واشرفها ، لانها مع دلالتها على عجزه تدل في الوقت نفسه على سموه . ونفس ضعفه شاهد يشهد للعظمة والاقتدار . فالتربية والحالة هذه ليست عبارة عن تقويم جسم آلي فقط بل عن تقوية نفس عاقلة ايضاً ، ولذلك كانت الامور التي تقوم بها كثيرة ومختلفة تفتقر الى وسائط كثيرة ومختلفة ايضاً ، ومرجعها جميعها الى الانسان من حيث هو مخلوق ادبي ذو قوى عقلية .

وللتربية مبادىء ونواميس توافق طبيعة الانسان إلا انها لا تقدر من نفسها ان تتيح كل النتائج المطلوبة ، والانسان يحتاج الى الانسان من بلوغ الوسائط المكملة له ، ولذلك كان فصل التربية عن احوال الهيئة الاجتماعية ، بأن يربى الولد في حالة الاعتزال ، كأنه قضي عليه بعيشة متوحدة مغايراً لحقوق الانسانية ، ومع ذلك قد جرى عليه (روسو) إذ جعل تلميذه يعتزل عن مخالطة الناس ومعاشرتهم ، وكذلك جرى كثيرون في تربيـة الاولاد في القرن الثامن عشر .

ومما تأباه طبيعة الانسان في هذا العصر الانقياد الى فكر غيره ورأيه دون فكره ، وبناءاً على ذلك قـد رأى البعض ان التربية يجب ان تكون مطلقة غير مقيدة بقيد الاعتقاد الخصوصي السابق والايمان التسليمي والقوانين المقبولة ، فصاروا يربونه تربية توافق رأي ومذهب كل منهم ، ثم يتركون له حرية لكي يختار بعد ذلك بحكم عقله ما يراه موافقاً لطبيعته الادبية . على ان الكثيرين قد خطأوا هذه النظرية وذهبوا الى ان من شأن تربية كهذه ان تزرع في عقول الاولاد اوهاماً فاسدة وتوقعهم في ورطات الضلال وفساد الآداب حتى لا تقول : الدين ، وان مبادىء التربية ونواميسها منحصرة في الدين فقط ، وانه بدون الدين لا يكون للتربية اساس صحيح ، ويردون بعبارات قوية على ذلك النوع من التربية . وعلى الذين يذهبون الى انه لا يجوز ان يكون للدين سلطة على الولد في تربيته ، ولا لخدمته حق في تعاطي تربية الاولاد ، بل يجب ان يكون حق تولية ذلك منحصراً في السلطة المدنية .

ولا يخفى ما في الرأيين المتقدمين من التطرف والاخلال في تربية من قصد ان يكون في مستقبله عضواً مهماً للهيئة الاجتماعية ، باعتبار كونها دينية ومدنية ومعشرية ، وعلى ما نرى ان الانسان إذ كان موضوعاً في هذه الحياة للاحوال

التي تقتضي مراعاة الامرين (أي الدين والسياسة) كان لابد من ان يجتمع فيه الطرفان بطريقة معتدلة موافقة من كل وجه للاحوال التي تقتضيها ظروف التربية ولذلك نرى ان البلدان المتمدنة التي جعلت التربية في المدارس من حقوق الحكومة ورفعتها من يد خدمة الدين ، رأت من مقتضيات الحال ان تكون هيئة تلك المدارس بحيث يستطيع الولد برضى والديه ان يكتسب تربية دينية مع التربية الزمنية ، وبذلك يتخلص الولد من التعصب الذي من شأن بعض المدارس الدينية المحضة ان تغرسه في عقله بحيث يصير غير قادر على ان يكون عضواً متصفاً بالصفات التي تقتضيها حالته بالنظر الى تعلقه مع غيره من ابناء جنسه ، ويتخلص من ورطة التهور في الكفر والضلال وفساد الآداب التي يتلقاها في بعض المدارس المدنية المحضة ، والتي من شأنها ان تجعله ليس فقط قاصراً عن إيفاء حقوق جنسه ، وفي صالح بلاده وطائفته .

ثم إن التربية تبتدىء في العائلة ، وهناك لا دخل للسياسة ولا لأصحاب الآراء الفلسفية ، وتكون السلطة فيها للأب والأم ، وهذه السلطة ليست مؤسسة على قوة جبرية او سيادة سياسية ، بل على مبادىء المحبة التي تربط الولد بوالديه ، فيتعلم بعنايتهما كيف يصير رجلا ، ولا يجب التوهم بأن تركه لحرية الطبيعة كاف لصيرورته كذلك ولا يسلم لمن قال : إن طبيعة الولد غير شريرة ، لان ذلك يكذبه الاختبار ، وكل عاقل يعلم ان ولده يحتاج الى المساعدة في تقويمه والنهوض به عند سقوطه ، وهذا هو الاساس الذي تبنى عليه اركان التربية ، فاننا نرى ان الوالدين وعلى الخصوص الام يقاسيان صعوبات كثيرة في تربية اولادهما ، ويفتقران الى التمليق والتأديب ، واحياناً الحيل في ذلك ، ومهما كانت اخلاق العائلة مرضية وتصرفاتها مستقيمة لا تستغني عن مساعدة الدين في هذا الامر ، فبالدين يعرف الولد متى وصل الى سن معلوم ،

ان فوق سلطة والديه سلطة اعلى واسمى ، وبذلك يكون للتربية قوة عظمى لتقويم الطبيعة المعوجة ومحاربة الاميال الشريرة ، والحث على القيام بالواجبات والشعور بتولد الفضائل ونموها داخل قلبه . وهذا ما جعل الاكثرين يذهبون الى ان الديانة هي المبدأ الاقوى والاسلم للتربية ، لانها تأتي الولد في مهده وتبارك مدخله في ميدان الحياة ، ثم تتبعه بعد ذلك خطوة فخطوة ، وتشجعه وتدربه وتنير عقله لقبول التعاليم السامية ، وتكشف له حقائق لم يتنبه اليها اسمى العقول البشرية . وان فعل الديانة هذا يرافق كل الاعمال التي تقوم بها تربية الولد من دون ان يضر بواحد منها ، وان الديانة يجب ان تكون دائماً مرافقة لهذا العمل العظيم الديني والدنيوي معاً ، وبذلك يتضح الفرق بين التعليم والتربية ، فان الرجل المتعلم قد لا يكون حسن التربية ، والرجل الحسن التربية قد لا يكون متعلماً ، وكمال التربية يقوم بمزج العلم بالادب ، فهذا هو العلم المتحد بالفضيلة ، وهذا هو تثقيف العقل المقرون بتثقيف الطباع .

فمن الامور المهمة والضرورية للتربية ، استخدام اناس لها يليقون بها . هذا وان تربية الاولاد في الاخلاق وتعليمهم الفنون والعلوم من الأمور المهمة ، وأما تربيتهم في الدين فمن الامور الضرورية التي يطالب الآباء والمربون اذا اهملوها أي مطالبة . وقد بحث الناس كثيراً في امر تفضيل التربية في العائلة ، او في المدرسة ، فلو امكن العائلة التفرغ لها لفضلت التربية فيها ، ولهذا يفتقر الاكثرون الى ارسال اولادهم الى المدارس لكي يحصلوا فيها تربية مفيدة لهم وموافقة لمذهب والديهم ومشربهم .

ولا يخفى ما بين المدارس الكثيرة من الاختلاف من هذا القبيل ، ولذلك طالما تحير الوالدان في انتخاب مدرسة لاولادهم تحمل عنهم اثقال المسؤلية في هذا الباب ، وتكسب اولادهم ما يجعلهم قادرين على القيام بما تقتضيه احوالهم

الحاضرة والمستقبلة ، وتكسبهم رضى والديهم ، وقبولا في الهيئة الاجتماعية بحيث يكون من فاز بتربية كهذه قادراً على القيام بوفاء واجباته في احواله المختلفة ، كأب وزوج وابن وصديق .

ومن شأن المدارس الجيدة ان تربي الاولاد تربية حسنة وتغرس في عقولهم مبادىء جيدة ، وتجعل في عاداتهم تثقيفاً وتقوى .

من شأنها ان تجعلهم قادرين عند دخولهم في الهيئة الاجتماعية على دفع ما هناك من الفساد والخلل الادبي ، والاضاليل والاخلاق المغايرة والاجتهاد في اصلاحها ، لان الرذائل والمنكرات والفساد وما شاكل ذلك ليست هي دائماً كما يظن ناشئة عن طبيعة فاسدة ، بل كثيراً ما تنشأ عن سوء تربية ، فحيثما ادت التربية الى اعتبار الادب والظرف واحترامها وحبها ، تولدت الفضائل من نفسها وحيثما ادت الى ما يخالف ذلك ، وعـــدم المبالاة بارتكاب الشرور والمعاصي نما الشر وصار معدياً .

والهيئة الاجتماعية تنهض او تسقط بحسب مبادىء التربيه في أفرادها ، وبحسب صرامة ناموس التربية وسهولته في تهذيب الاخلاق واطلاق عنان الحرية للنفس في اتباع اهوائها ، وهكذا الحال في أمر العيال فان ما يصادفها من النكبات وسقوطها ادبياً ومادياً ينشأ غالباً من سوء تربية اولادها ، فاذا ربت اولادها في الكسل والرخاء تكون كأنها قد ربتهم لكي يسقطوا . لان اطلاق العنان في التنعم والترف التربية من شأنه ان ينزع من النفس اخلاق المرؤة والنخوة ، فاذا حان وقت كسب المعاش بالشغل والكد يكون من تربى بنعيم مستمر يظنه خالداً ، قد تكون عيشة البذخ والكسل فلا يكون ذا نشاط وذكاء بل طالما يخبط خبط عشواء في استهلاك ثروته ، فيقضي به الامر الى حالة الاملاق والحقارة . وطالما نرى الناس يبذلون مجهودهم في المحافظة على صحة اولادهم وراحتهم من كل وجه

ويهملون تهذيب نفوسهم واستخدام الوسائل التي من شأنها تقويمهم وإكسابهم الراحة في مستقبلهم الادبي تاركين ذلك لعناية الطبيعة .

وصفوة القول فان التربية في كل المراكز ، وفي جميع البلدان والازمان هي الواسطة العامة لتبليغ الانسان الى السعادة ومن شأنها ان تحبب اليه الفضيلة والشغل والاعتدال ، وتبعد عنه الاوهام والاباطيل والاميال الشريرة والشهوات الخبيثة ، وترفع نفسه الى ما هو جليل وجميل ، وتجمل فيه كرم أخلاق ، وتبعده عن الحسد والبغضاء والكبرياء ؛ وتزينه بحب الخير والمرؤة والحشمة ، وتغرس في نفسه حب الصدق والطاعة والمحبة وروح التقوى . وبهذه الواسطة تجعله زينة للهيئة الاجتماعية وفخراً لعائلته ووطنه .

وما تقدم من الكلام عن التربية ليس خاصاً بالذكور بل يشمل الاناث ايضاً والامة بأسرها ، وبذلك عمران البلاد وسعادة العباد . وقد استوفينا الموضوع في كتابنا (علي والاسس التربوية) فليراجع .

نشرت مجلة (التضامن الاسلامي) في افتتاحية العدد التاسع من سنتها الثانية ، مقالا بقلم الشيخ محمد باقر الناصري ، تحت عنوان (الدين في المدارس) جاء فيه :

« . . . فالمدارس تلتقي مع أغلب المواطنين ، إن لم نقل كلهم ، فالمواطن إما ان يكون طالباً أو معلماً ، وهما في صميم شؤن المدارس ، وأما أن يكون أباً أو أماً للطالب ، ومعلوم مدى علاقة الأبوين بحياة أبنائهم ، وعمق النتيجة في حياتهم في المستقبل القريب والبعيد ...

لما كان الدين قائماً ولو شكلياً في البلاد الاسلامية ، وكانت البلاد الاسلامية عند تأسيس المدارس الحديثة تنوء بأعباء السيطرة الاجنبية ، ويدير شؤون أغلبها المستعمرون الاجانب والذين يدركون جلياً ان المدارس الحديثة إذا بنيت ثقافتها على أساس الدين ، وتسلح المسلمون بالثقافة الاسلامية الصحيحة

فلا مكان بعدها لمستعمر في بلاد الاسلام .

ولما كان المستعمرون وعملاؤهم لايملكون الجرأة بمصارحة الامة في محاربة دينها وتنحيته عن مركزه القيادي في الناحية الثقافية خوفاً من سخط المسلمين ، وعلماً بأن ذلك لا يتم دفعة واحدة ، وبشكل مفضوح مما حدى بها للتفكير بجدية وعمق حيث اهتدت بمكرها وخبثها ، وبمشورة عملائها في الداخل ، الى وضع مناهج للتربية والتعليم في شتى مراحل الدراسة والتعليم وميادينها . هادفة زعزعة الامة عن تراثها وعن كل مالها من مثل ومقومات ، وخاصة في المناهج الدينية المدارس . فوضعت للدين حصصاً ضئيلة تتدرج في مراحل الدراسة بالنقصان حتى تنعدم في النهاية كما في الكليات والدراسات العالية .

وبالاضافة لضآلة تلك الحصص فقد كانت لا تحمل من الدين إلا اسمه ، فالدروس التي تسمى بدروس الدين خليطة من القصص والوقائع التاريخية المشوهة مضافاً اليها بعض سور من القرآن الكريم لا يطلب اكثر من حفظها أو معرفة معاني مفرداتها اللغوية . أما جوهر الدين والحلول الاسلامية لمشاكل المجتمع ، أما التشريعات الاسلامية في ميادين السياسة والاقتصاد والاجتماع والاخلاق والاسس التربوية في الاسلام وبقية الشؤون التي عالجها الاسلام علاجاً سليماً ، فلا مكان لكل تلك وغيرها في مناهج الدين في المدارس الحديثة ، ولان ذكرت أو بعضها فتذكر عفواً ومن خواطر المعلمين والاساتذة ، أو بالالحاف من الطلاب في الاسئلة عن بعض نواحي الاسلام ، وهذا مالا يسأل عنه التلميذ إن قصر .

ومما يزيد الامر سوءاً ان لم نقل هو ضمن مخطط أعداء الاسلام تهاون إدارات المدارس في اختيار مدرس الدين حتى بلغ هذا التهاون مبلغاً مخجلا للمسلمين ، فصار درس الدين يعطى للمدرس الكسول أو الذي لا اختصاص له ، اما كفاءة ذلك الاستاذ ومدى تمسكه بالدين واندفاعه في نشر الدين فهذا مالا يطرق

حين توزيع الدروس ، وما اكثر من انيط به تدريس الدين وهو لا يعرف من الدين موضع قدمه ولا ترى للدين اثراً في اخلاقه او سلوكه . فمتى يرجى من الطلاب تمسكا بالدين اذا كان استاذهم لا يتحرج عن المنكرات وهو بمرءاً من طلابه يرى ثملا يترنح ، او مقامراً محترفاً ، او فاسقاً مستهتراً .

اولا دينياً تجلت دينيته بانتمائه لاحزاب الكفر والضلال ، واعتقاده آراء تصادم الاسلام ، وهو لا يزال يحن الى كفره وضلاله ، وان اخفته القوة .

أمن الانصاف ان يمكن مثل هذا الخليط الضال من اعداء الاسلام والمسلمين فيناط بهم تربية وتوجيه الناشئة وتعليم معالم دينها ، أليس هـذا هو الضلال المبين والخطر الخطير ! وعلى فرض ان لا دين للناس يدفعهم لعدم تمكين مثل هؤلاء فليكن حب ابنائهم يدفعهم لعدم التهاون الى هذا الحد . ثم ايحق بعد وجود هذا اللون من التخلف عن الثقافة الدينية والبعد عن مناهج الاسلام واسسه التربوية ، ايحق لنا ان ننتظر من الناشئة التي تنمو على مثل هذه التربية اللادينية ، ايحق لنا ان ننتظر صلاح ناشئتنا وضمان بقائها على دينها وتمسكها بقيمها ومثلها كلا ثم كلا ونحن معهم كما قال الشاعر :

القاه في اليم مكتوفا وقال له ... اياك اياك ان تبتل بالماء

ولكن بقية من امل وبصيص من نور يوحيان بامكانية معالجة هذه المشكلة واعادت المناهج الدراسية في البلاد الاسلامية الى نهج الاسلام ووسائـــله التي سجلت النجاح والاطراد يوم كان الاسلام هو الحاكم المحكم ، حتى غدت العواصم الاسلامية مهد حضارة الدنيا ، ومأوى افئدت طلاب العلم من شتى ارجاء المعمورة .

فجدير بالمسلمين اليوم ان يبذلوا جهودهم في تنظيم مناهج التعليم ، سواء

منهم واضعي المناهج الحديثة ، او مؤلفي الكتب الدراسية ، او هيئات التفتيش والاشراف والمراقبة .

وكذلك إدارات المدارس بما تبذله من حسن اختيار المعلمين الاكفاء من ذوي الدين والخلق ، ممن يستطيعون حمل هذه الرسالة المقدسة والمسؤلية الكبرى .

وعدم التسامح مع من لايعطي الدين حقه من معلمين ومتعلمين ، ولايبرىء الآباء من المسؤلية ، فعليهم حق ابنائهم ، وحق امتهم التي تنتظر من ابنائها قادة الغد ورعاة الامة ، فالامة مدعوة لاعداد ابنائها خير اعداد ، وتربيتهم على الدين والفضيلة ليؤدوا دورهم المرقوب على الوجه الاكمل .

فجدير بالآباء ملاحقة ابنائهم والتأكد من دروس الدين في مدارسهم ، ومشاركة المصلحين في الدعوة لتحسين حالة الدراسة الدينية ومراقبة مدى تطبيق المدارس وإدارتها للمناهج ، وعدم القاء الحبل على الغارب .

فاغفال الآباء لشؤون ابنائهم بالاضافة الى انه تقصير بواجبات الأبوة ، هو جريمة بحق البلاد والعباد ، وهو تخلف عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وبالتالي مدعاة للشقاء والمتاعب في الدنيا ، وعذاب في الآخرة وفي الحديث الشريف « كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته » .

حق السائل والمسؤول

قوله (عليه السلام) :

« وحق السائل : إعطاؤه على قدر حاجته ، (والدعاء له فيما نزل به ، والمعاونة له على طلبته ، وإن شككت في صدقه وسبقت اليه التهمة ولم تعزم على ذلك ، لم تأمن أن يكون من كيد الشيطان ، أراد ان يصدك عن حظك ويحول بينك وبين التقرب الى ربك ، تركته بستره ورددته رداً جميلا ، وإن غلبت نفسك في أمره واعطيته على ما عرض في نفسك منه ، فان ذلك من عزم الأمور » .

حق المسؤول

قوله (عليه السلام) :

« وحق المسؤل : إن أعطى فاقبل منه بالشكر والمعرفة بفضله ، وإن منع فاقبل عـذره ، (واحسن به الظن ، واعلم انه إن منع فماله منع ، وان ليس التثريب في ماله وإن كان ظالماً ، فان الانسان لظلوم كفار » .

* * *

تمهيد :

إنه المشهد الكامل المتقابل المناظر ، المنسق الجزئيات ، المعروض بطريقة معجزة في التناسق والارادة .

المشهد الممثل بمناظره الشاخصة لكل خالجة في القلب الانساني وكل خاطرة .

المصور لمصائر المشاعر والوجدانات بما يقابلها من الحالات المحسوسات .

إن هذا التناسق الدقيق الجميل لايقف عند هـذا المشهد ، بل إنه ليمد رواقه فيشمل المشاهد التي رسمها الامام (عليه السلام) جميعا من بدوها إلى مطلع هذا المشهد الى منتهاه . وفي هذا المشهد صورة عميقة الايحاء يرسمها الامام السجاد (عليه السلام) في هـذه الجمل القصيرة التي تكاد تكون لمسة ريشة ترسم الملامح والسمات ، وتشخص المشاعر والحركات . وما يكاد الانسان يتم قراءتها حتى تبدو له تلك الوجوه وتلك الشخصيات كأنما يراها . وهذه هي طريقة الامام (عليه السلام) في رسم النماذج الانسانية ، حتى لتكاد تخطر على الورق نابضة حية .

نلمس الامام في هذا المشهد أنه لايريد ان السؤآل شيء واقعي وأنه سبيل من سبل العيش وطريق من طرق الحياة . لاينظر الامام الى السؤال بأنه شيء له كيانه المستقل في ضوء الاسلام ، كلا لايقر هذا الطريق وهذا اللون ، فان الشريعة معلنة بتحريم السؤال وذم الاستجداء . يقول الرسول الاعظم محمـد (ص) : « مسألة الناس من الفواحش » وإنما يفترض الامام وجود السائل فيعطيه حقوقاً ويوجب عليه كـذلك ، فحق السائل ان تعطيه إذا كنت تملك ماتعطيه ، وإذا تيسر لك ماتسد به حاجته ، ولا اقل من الدعاء له والمعاونة على طلبته ، إن لم يكن عندك من المال مايكفي لتسد حاجته .

هذا اذا كنت معتقداً بصدقه ، أما لوشككت بأنه صادق ، أو عرفت انه ليس فقيراً فما عليك ان تعطيه مما اعطاك الله شيئاً ، فانما هو من كيد الشيطان يريد أن يسلبك مالك الذي اكتسبته بيمينك ، ويريـد ان يصدك عن حظك الذي قسم لك ، ويحول بينك وبين الانتفاع من هذا المال في التقرب به الى الله . فاذا عرفت ذلك منـه رددته عنك رداً جميلا ، ونصحته مخلصاً ، وارشدته الى مايصلح له ، وردعته عما اعتاد عليه من السؤال والاستجداء من غير حاجة ومن غير ضرورة .

وأما حق المسؤول فما يعطيه فهو فضل منه وامتنان ، يجب أن يشكر ويعرف معروفه ، لأنه قد أسدى يداً وعلى اليد الشكران .

وليس من حق السائل ان يستقل ما اعطي ، فليس هذا ادب الشكر ، انما هو نكران الجميل وجهل المعروف ، واذا لم يكن عند المسؤول شيء يعطيه أولا يريد أن يعطي ، فليس للسائل ان يذمه ويلومه ويجهل عليه ، اذ لم يرتكب المسؤول خطيئة ولم يقترف إثماً ، كل ما في الامر أن منع ماله وهو مسلط عليه يفعل به ماشاء في حدود الشرع ، فليس لأحد عليه أمر ولا نهي في ماله الخالص الذي اكتسبه عن طرقه المشروعة .

* * *

قال النبي (ﷺ) : « والذي نفسي بيده ، لأن يأخذ أحدكم حبلا فيحتطب على ظهره خير له من أن يسأل أحداً أعطاه أو منعه » .

قال صاحبي وهو يتحدث الي على عادته في الحديث معي : « قال » وحديث آخر هو في معناه : « مايزال الرجل يسأل الناس حتى يوم يأتي القيامة وليس في وجهه مزعة لحم » هذا من جلال نبوته (ص) ، هذه النبوة التي نزل بها على قلبه روح القدس ليرفع الانسانية من حضيض الهوان الي ذروات العز .

أذكر أنا كنا جماعة في منزل وجيه من اهل بلدي ، وإذا بشابين شديدي السواعد يدخلان ، وعلى رأسيهما شعار النسب الى رسول الله (ص) ، ولما استقر بهما المجلس أبرزا لي وثيقة تثبت نسبهما وانهما يستحقان الخمس ، وقد وقع كثير من الفقهاء على الوثيقة ، وهي موجهة الى المؤمنين . قلت : لهما لقد دخل على رسول الله (ص) شاب في مثل سنكما يستجديه ، فجمع بضعة دراهم واشترى له حبلا وقال : اذهب واحتطب ، ثم التفت الى اصحابه فقال « لأن يأخذ أحدكم حبلا فيحتطب على ظهره خير له من أن يسأل الناس أعطوه او منعوه » فهل بلغكما هذا

الحديث ! ؟ وهل ارضيتما جدكما بهذا الشباب المفتول الساعد مع الاستجداء ؟ إن من وقع لكما على هذه الوثيقة إما ان يكون حظه من الفقه كحظكما من النسب الى رسول الله (ص) وإما أن يكون من محتكري حقوق الله لنفسه .

ويعترض بعض شهود المجلس بأنهما صحيحا النسب وإن كرامة جدهما تقتضي إكرامها، فزجرته وقلت له : إنك تسيء إلي بأن ترى ولدي يستجدي ولا تهينه ، فكيف تقبل الاهانة لرسول الله ؟! إن محمداً (ص) لايريد الاهانة لمسلم قط إذ يقول : « لاينبغي لمسلم ان يذل نفسه » فهل يقبل المذلة بالسؤال لأهل بيته وقد حرم عليهم الصدقات ؟ فلو كان فيهما عجز بأن كانا في عمي او عرج او مرض او شيخوخة لبادرنا الى تلبيتهما ، ولكنهما كما ترى متمتعان بأجود مما نتمتع به من صحة .

قال احدهما : لقد اجريت عملية القرحة ،قلت وماذا في ذلك؟ فاسأل كل هؤلاء وحتى هذا الذي يدافع عنك ـ وهو ابن اخي ـ هل سلم احدهم من العمليات ! ؟ فهل نبيح لهم الاستجداء ونرضى لهم الذل به ! ؟ إن هذا ليس من الاسلام في شيء ، فاذهبا وامتهنا أية حرفة تغنيكما عن الحرفة التي لم يرض بها الله ولا رسوله لكرامة الانسان ، وبعد انفضاض المجلس واجتماعهم لدي في المساء اعرب اكثرهم عن صحة ماأفضيت به ، وقلت لهم : إذا جاء البلد احد من هذا القبيل فارشدوه الى المختار وليقم المختار بواجب البحث عن السائل واستحقاقه ، ثم اذا رآه مستحقاً فليعمل على اسعافه بالعدل ، فان في البلد فقراء والأقربون اولى بالمعروف ، وعند كل منا ارحام فقراء ، وقد قال رسول الله (ص) : « لاصدقة وذو رحم محتاج »

كم يؤلمني ويؤلم كل مسلم فقه الاسلام واضطلع بعبئه ان نرى الفقر المدقع يدفع المسلم وحده للاستجداء بشكل فاضح ، وبشكل يخجل الناظر اليه وهو يمد يده للسؤال والذلة تغمر وجهه بالتراب ثم لانجد غير المسلم يتحمل هذا اللون

من الذل ، فاذا مر القارىء بأي شارع من أية مدينة يجد الذل والاستجداء قاصرين على المسلم ، ذلك لماذا ؟ ؟ أمليس رسولهم هو الذي شرع لهم العزة والكرامة من وراء العلم ؟ ؟ أو ليس محمد هو الذي غضب إذ رآى الشاب المستجدي واعطاه الحبل ليحتطب ويدع السؤال ؟ أهـذا هو رسول المسلمين ام رسول اليهود والنصارى الذين وصلوا بفضل علومهم الى القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ينفقونها علينا في سبيل الانسانية ؟ ؟

أذكر ان طائفة الارمن التي طردها مصطفى كمال ـ عاهل الترك ـ من بلاده لأنها تواطأت مع الاجانب ايام حربه معهم ، وكان الارمن يعملون في داخل تركيا على الضرب من الوراء ، ولما طردهم أتا تورك تلقتهم الحلفاء من دول الاستعمار (بريطانيا وفرنسا) ووزعوهم على العراق وسوريا ومصرولبنان ، وكنا نراهم في أذل حالة من الفقر مطرودين مشردين وعملوا في احقر المهن حتى زاحموا الفقراء منا على صبغ الاحذية وكنس الازقة وحمل المتاع ، ثم لم يمرر بهم بضع سنين حتى رأيناهم يأخذون بأوفر المهن عزة وثراء ، ذلك لأنهم اول مانزلوا بيروت والشام وبغـداد أسسوا المدارس المهنية التي اغنتهم في اقل من ربع قرن عن كل حرفة وضيعة ، ونافسوا كبار التجار واصحاب الشركات والمهن من اهل البلاد .

فما الذي حدا بالارمن واليهود ان لا يمدوا أيديهم للاستجداء ، وأصبح هذا الاستجداء وقفا علينا نحن امة محمد ، ومحمد هو هذا الذى صرخت كلمته او كلماته القائمات على طلب العز والكرامة لنا ؟ ؟ فما هو السر في ذلك ياترى ؟ ؟ السر هو ان عقولنا لم تفقه الاسلام ، وان قلوبنا لم تستشعر العزالقائم عليه ، إن فرقان محمد لايزال الى اليوم يعلمنا الحياة بأسمى معانيها ، ويضع نصب اعيننا وسائل الاشراف عليها ، ثم يشق الطريق المفضية بنا اليها ، ونحن سادرون في الغي عامة ، وقاصرون على السفاسف من تراثنا الزائف خاصة .

ولعلي مررت في هذا السفر بقول الامام الشيخ محمد عبدة مفتي الديار المصرية ، مجيباً سائله عن سبب رقي اهل الكتاب وانحدار المسلمين ، فقال : « إن اهل الكتاب تركوا دينهم فترقوا ، وتركنا ديننا فهبطنا » ولقد صدق الامام بما قال ، لأن ديننا قائم على الناموس الاعظم الذي يهيمن الله به على استقامة الوجود ، فهو اذن حافل بأسباب الرقي ، واما دينهم فلاقانون يضبطه ولا تشريع يهيمن عليه ، كنت ارى الارمني في بيروت ، حين يستجدي ـ وهو نادر ـ لايلبيه أرمني أبداً ثم لايخاطبه إلا بقوله : (سأشكوك) الى جمية التعاون الأرمنية التي تضمن لك النجاة من هذا العار) .

بينما أرى المسلم عند مايستجديه المسلم يبره بالدرهم أو الدرهمين ، أو يدعو له الله بالعون ، ثم لاأسمع منه كلمة تأنيب له ، وقد يكون السائل اغنى من المسؤول ، ولكنه ورث عن مضرب الأمثال (جحا) قوله : (لقد مارست كل مهنة فلم أجد أرفق بي من الاستجداء ، لأن الذي استجديه إن لم يغثني يدعو لي بالغوث) وما أكثر الأمثال التي تقدمها صحافة اليوم للناس عن الكنوز التي يملكها السائلون ، ولولا أن نشق على القارىء لأوردنا طرفاً منها ، فان فيها الطريف النادر من اسرار هذه المهنة التي مني بها الاسلام في عصر النور .

إن عظمة هذه الكلمة التي يراها القارىء عنوان هذا البحث ، اقول : إن عظمتها في نفس محمد لايدركها إلا من شاعت في نفسه روح محمد ومن نضجت في رأسه فكرة محمد ، وإلا من عز في قلبه دين محمد ، هذه العظمة تتجلى في قوله (عليه السلام) . « والذي نفسي بيده . . . » هذا القسم الذي يشعر قارئه عندما يبدأ الحديث ، يشعر برعدة في جسده من جلال مايقسم به محمد وجلال مايقسم عليه ، وقد يقال : إن القسم الذي يشوبه مدح لذات القدرة الآلهية ، لايحول دون الاقتصاص من مقسمه إذا كان غير صادق نور اقسامه ، واما القسم المزيج

من تعظيم الله والحلف به فلا يعقب الجزاء العاجل لصاحبه إن كان كاذباً ، فالأول كقولك : والله المنتقم الجبار ، والثاني يتمثل في قولك : والله العلي العظيم .

وقول الرسول (عليه السلام) في قسمه هـذا : « والذي نفسي بيده » يشعر بأنه يتحدى من يشك في صدقه وايمانه بما يقول ، وقلما نجده (ص) بادئاً قسمه بمثل هـذه الكلمات إلا في مواطن الاصرار على تبليغ مايراه ضروريا في الدين ، وأية ضرورة هي ابلغ اثراً في الدين والتمدين من حمل الامة على النفور في حياتها من الذل ، والاقبال فيها على العز ، إن ذل الامة الاسلامية منذ تنكرت لهذا الحديث الشريف اصبح ديدناً فيها حتى هذا العصر الذي نرى الامم كلها فيه متخمة من المادة ، بينما نرى أمتنا راسبة في حمأة الذل والاستعباد لانرى واحداً ولا واحدة ممن يشهد فيها لله بالربوبية ، ولمحمد بالنبوة إلا وهو يذرع الشوارع ماداً يديه بالسؤآل مستجديا من يراه من عامة الناس ، او ماداً هاتين اليدين للأجنبي المستعمر وهو يستجدي منه الجاه والمال .

ان عظمة محمد تتمثل في كلمته هذه حتى يومنا هذا ، في الذل الذي يغشي وجوه المسلمين ، وفي الضعف الذي يسيطر على اعصابهم ؛ وفي الهوان الذي يهيمن على كيانهم من اعرق المهن فيهم هي الاستجداء باليد من الناس وهدر الكرامة في سبيل العيش الدنيء ، إن محمداً كان يعلم انا سنئول الى مانحن فيه من وراء الفقر ، وما سنئول اليه من الفقر والبؤس والذل من وراء الجهل ، لذلك قال : « اطلبوا العلم من المهد الى اللحد » قبل ان يقول : « والذي نفسي بيده لأن يحتطب احدكم على ظهره خير من ان يسأل الناس اعطوه او منعوه » لأنه ادرك بفطرته القائمة على الحق ان العلم يعصم الأمة من الفقر القائم على الجهل والمفضي بها الى ذل السؤال آخر الامر .

هـذا السؤال الذي حرمه الله علينا ، والذي شدد محمد رسوله النكير على

مرتكبه بقوله في صدر هذا البحث .

أقول : ان هذه المهنة المهينة اصبحت في امة محمد وفي عصر ازدهار الامم بالمال والعلم اصبحت من المهن الحرة التي تسيطر على نفوس الملايين من امة الاسلام ، واصبح المسلمون يتفننون فيها ، فاسمع ماترويه بعض الصحف عن بعض من أثرى الى حد التخمة في الغنى ، وهو مقعد كفيف ، وليس فيه قعدة ولا كفة ، اي انه سليم البصر وسليم الرجلين ، يرى ويمشي كما يرى ويمشي من لاعاهة فيه .

تروي هذه الصحيفة ان سائلين في الشام ملا كثرة السؤال وقلة الانتاج ، فبدا لأحدهما ان يزور مصر ويمارس هذه المهنة ، وبقي الثاني في الشام على ان يلحق به إذا كتب له يخبره بنجاح مهمته .

وتمضي الايام فاذا بالفقير الشامي يتلقى دعوة من زميله في مصر لزيارته ، وان مهمته افلحت ، ويزور هـــذا ذاك على عنوانه فلم يجد إلا مقعداً عاصباً عينيه على ناصية الشارع فيسأله عن زميله فيجيبه : انه يعرفه وانه سيوصله اليه ويركبان معا الى قصر ذي حديقة غناء ويفتح المقعد باب القصر ويدخله بهو الضيوف ، ثم يستأذنه ريثما يأتيه بصديقه ، وبعد فترة قصيرة يدخل صديقه مرحباً به وعليه مظاهر النعمة السابقة ، ويتبادلان التحية والذكريات ، ومن خلال حديثه عرف انه هو المقعد المعصوب العينين الذي قاده ، فقال له : احب ان تطلعني على بعض الطرق التي افلحت بها في مصر ، فقال له : تلاقيني غداً في صلاة الجمعة على باب الجامع الأزهر .

ولدى الظهيرة كان صاحبنا الشامي في الجمع المحتشد للصلاة ، وإذا بضجة تعلو في المصلين وإذا باحـــدهم يصيح بأعلى صوته قائلا : افتحوا طريقا للامانة يؤديها مقعد اعمى للامام ، ويفسح الناس له فاذا هو زميله وفي يده بدرة من المال زحف بها الى المنبر ، وسلمها للامام وهو يقول لقـد وجدتها مع الفجر حيث

اجلس صباح كل يوم للسؤال ، وقـد جئت بها اليك لتنادي عليها في الناس ، ويتحول الامام من خطاب الجمعة الى خطاب آخر ، ويتحول المصلون من راكعين ساجدين الى ثناء على حامل الامانة ومؤديها الى اهلها وهوفقير مدقع ويندفعون جميعاً لبره حتى ملأ جيوبه .

وبعد ان صلى الامام بهم واوشك الجمع ان ينفض ، إذا بصائح آخر ينادي قفوا وافسحوا الطريق لصاحبة الامانة . ونظر صاحبنا الشامي فاذا بامرأة تولول وتصخب وتنادي بالويل والثبور انها فقدت بـدرة فيها مائة دينار من الذهب وان ملتقطها سلمها للامام ففتحها الامام ووجدها كما ادعت فسلمها اياها ، وعاد صاحبنا الشامي وهو يسر في نفسه انه زميلي وان المرأة زوجته ، وان الصائح بالناس ليفسحوا الطريق هو ابنه ، وأنها لمكيدة ما كنا لنفعلها في الشام ولا نستطيع فعلها مع قوم لايؤخذون بالحيل » . ـ ١ ـ

* * *

قد وردت مناه كثيرة عن السؤال ، وتشديدات ، وورد فيه أيضاً مايدل على الرخصة . والكاشف للغطاء فيه :

إن السؤال حرام في الاصل ، وانما يباح بضرورة او حاجة مهمة قريبة من الضرورة ، فان كان عنها بـد فهو حرام . وانما قلنا إن الاصل فيه التحريم لأنه لاينفك من ثلاثة امور محرمة :

الاول : إظهار الشكوى من الله ، إذ السؤال إظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله عليه وهو عين الشكوى . وكما ان العبد المملوك لو سأل كان سؤاله تشنيعاً على سيده ، فكذا سؤال العباد تشنيع على الله تعالى ، وهذا ينبغي ان يحرم ولا يحل إلا بضرورة كما تحل الميتة .

ـ ١ ـ دين وتمدين .

الثاني : ان فيه إذلال السائل نفسه لغير الله ، وليس للمؤمن ان يذل نفسه لغير الله ، « ان الله احل للمؤمن كل شيء عدا إذلال نفسه » بل عليه ان يذل نفسه لمولاه فان فيه عزة . وأما سائر الخلق فانهم عباد أمثاله ، فلا ينبغي ان يذلهم الا بضرورة . وفي السؤال ذل للسائل بالاضافة الى المسؤول .

الثالث : انه لاينفك عن ايـذاء المسؤول غالباً ، لأنه ربما لاتسمح نفسه بالبذل عن طيبة قلب منه ، فان البـذل حياء من المسؤول او رياء حرام على الآخذ ، وان منع ربما استحى وتأذى في نفسه بالمنع اذ يرى نفسه في صورة البخلاء ، ففي البـذل نقصان ماله ، وفي المنع نقصان جاهه وكلاهما مؤذيان ، والسائل هو السبب في الايذاء والايذاء حرام الا بضرورة ، ومن فهم هـذه المحـذورات فهم معنى قوله (ص) : « مسألة الناس من الفواحش ، وما احل من الفواحش غـيرها » اذ كان في استرزاق الناس من الذل والخضوع للمطلوب منه . ومهانة النفس واشتغالها عن التوجه الى المعبود مايجب ان يستعاذ بالله منه ويضرع اليه في الوقاية عنه ، وفي استعطاء الأشرار مايستلذ معه ذو المروة طعم العلقم ، ويستحلي مذاق الصبر وسم الارقم .

والروايات والآثار قد تواترت ، والاخبار والاشعار قد تطابقت على ذم السؤال وكراهية بذل الوجه في الطلب الى الناس خصوصاً ممن لم يكن معروفاً بالمعروف . فمن ذلك مارواه ثقة الاسلام في الصحيح عن ابي عبد الله (ع) قال : قال رسول الله (ص) « ان الله تبارك وتعالى احب شيئاً لنفسه وابغضه لخلقه ، ابغض لخلقه المسألة واحب لنفسه ان يسأل ، وليس شيء احب الى الله عزوجل من ان يسأل ، فلا يستحي احدكم ان يسأل الله من فضله ولو شسع نعله » .

وروي عنه (ع) « اياكم وسؤال الناس فانه ذل في الدنيا وفقر تعجلونه وحساب طويل يوم القيامة » .

وعن الحسين بن ابي العلا قال قال أبو عبد الله (ع) : « رحم الله عبداً عف وتعفف ، وكف عن المسألة فانه يتعجل الدنية في الدنيا ولا يغني الناس عنه شيئاً »

وفي وصية أمير المؤمنين علي (صلوات الله عليه وعلى ابيه) لابنه الحسن (ع) : « اكرم نفسك عن كل دنية وان ساقتك الى الرغائب ، فانك لن تعتاض مما تبذل من نفسك عوضاً ، ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً ، وإن استطعت ان لايكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل فانك مدرك قسمك وآخذ سهمك ، فان اليسير من الله سبحانه اكرم واعظم من الكثير من خلقه وان كان كل منه ، وحفظ مافي يديك احب الي من طلب مافي يد غيرك ، ومرارة اليأس خير من الطلب الى الناس » .

قال بعض السلف : من سأل حاجة فقد عرض نفسه على الرق ، فان قضاها المسؤول استعبده بها ؛ وان رده عنها رجع حراً ، وهما ذليلان : هذا بذل السؤال وذاك بذل الترك .

وفي الديوان المنسوب الى امير المؤمنين علي (ع) :

كدّ كدّ العبدان أحببت ان تصبح حرا
واقطع الآمال عن مال بني آدم طرا
لاتقل ذا مكسب يزري فقصد الناس ازرى
أنت ما استغنيت عن غيرك اعلى الناس قدرا

ومن الشعر المنسوب الى الحسين (ع) :

اغن عن المخلوق بالخالق تغن عن الكاذب بالصادق
واسترزق الرحمة من فضله فليس غير الله من رازق

وأنشد ابن الاعرابي أبا هاني :

لاتسأل الناس والتمس بكفيك فضل الله والله اوسع

فلو سأل الناس التراب لأوشكوا إذا قيل هاتوا أن يملوا ويمنعوا

محمود الوراق :

شاد الملوك قصورهم وتحصنوا من كل طالب حاجة او راغب

فارغب الى ملك الملوك ولا تكن بادي الضراعة طالباً من طالب

الخاسر :

اذا اذن الله في حاجة اتاك النجاح على رسله

فلا تسأل الناس من فضلهم ولكن سل الله من فضله

احمد بن سيف الانباري :

لموت الفتى خير من البخل للفتى وللبخل خير من سؤال بخيل

لعمرك ماشيء لوجهك قيمة فلا تلق انساناً بوجه ذليل

ولبعضهم :

إذا اظمأتك اكف اللئام كفتك القناعة شبعاً وريا

فكن رجلا رجله في الثرى وهامة همته في الثريا

ولا تخضعن إذا ما افتقرت ولا تسأل الرزق ماعشت حيا

فان إراقة ماء الحياة دون إراقة ماء المحيا

وحكي ان أبا حاتم حبيب بن الطائي ، قصد البصرة منتجعاً ، فلما وردها سأل عن شاعرها ، فدل على عبد الصمد بن المعدل ، فقال له : انشدني شيئا من شعرك فأنشده قوله :

لست تنفك طالباً لو صال من حبيب اوطالباً لنوال

أي ماء لحر وجهك يبقى بين ذل الهوى وذل السؤال

فحول راحلته عنها ولم يدخلها .

وقريب من هذا المعنى قول بعضهم في أبي الطيب المتنبي .

أي فضل لشاعر يطلب الفضل من الناس بكرة وعشيا
عاش حيناً يبيع بالكوفة الماء وحيناً يبيع ماء المحيا

عبد الصمد بن المعذل :

تكلفني إذلال نفسي لعزها وهان عليها ان أهون لتكرما
تقول سل المعروف يحيى ابن اكثم فقلت سليه رب يحيى ابن أكثم

القاضي عبد العزيز الجرجاني :

يقولون لي فيك انقباض وانما رأوا رجلاً عن مورد الذل احجما
إذا قيل هذا مورد قلت قد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الظما

وأما سؤال من ليس اهلاً للمعروف ، ومن هو باللؤم موصوف ، فهو أدنى وأمر وأسوء وأضر . وقد روي ان في زبور داود (ع) : « إن كنت تسأل عبادي فاسأل في معادن الخير ترجع مغبوطاً مسروراً ، ولاتسأل معادن الشر ترجع ملوماً محسوراً » .

وفي الأثر ان الله تعالى اوحى إلى موسى (ع) : « لئن تدخل يدك في فم التنين الى المرفق خير من ان تبسطها الى غني قد نشأ في الفقر » .

ومن كلامهم : « لاشيء اوجع للاحرار من الرجوع الى الأشرار » .

وقيل لأعرابي ماالسقم الذي لايبرء ، والجرح الذي لايندمل ؟ قال : « حاجة الكريم الى اللئيم » .

ومن كلام امير المؤمنين علي عليه السلام : « فوت الحاجة اهون من طلبها إلى غير أهلها » .

وقوله : « ماء وجهك جامد يقطره السؤال فانظر عند من تقطره » .

وأوصى بعضهم ابنه فقال : لاتدنس عرضك ، ولا تبذلن وجهك بالطلب الى من إن ردك كان رده عليك عيباً وان قضى حاجتك جعلها عليك مناً ،

واحتمل الفقر بالتنزه عما في ايدي الناس ، والزم القناعة بما قد قسم لك » .

وقال رجل لابنه : « إياك ان تريق ماء وجهك عند من لاماء في وجهه » .

رآى الأصمعي كناساً يكنس كنيفاً وهو ينشد :

وأكرم نفسي انني إن اهنتها   وحقك لم تكرم على احد بعدي

قال فقلت له : ياهذا إنك والله لم تترك من الهوان شيئاً إلا وقد فعلته بنفسك مع هذه الحرفة . فقال : بلى والله اني صنتها عما هو اعظم من هذا من الهوان . قلت وأي شيء هو ؟ قال : سؤال مثلك . قال فانصرفت عنه وأنا اخزى الناس .

وفي الصحيح عن أبي عبد الله (عليه السلام) « قال : إن محمد بن المكندر كان يقول : ماكنت ارى ان علي بن الحسين (ع) يدع خلفاً افضل منه ، حتى رأيت ابنه محمد بن علي (عليه السلام) فأردت ان اعظه فوعظني فقال له اصحابه بأي شيء وعظك . قال : خرجت الى بعض نواحي المدينة في ساعة حارة فلقيني ابو جعفر بن علي (ع) وكان رجلا بادناً ثقيلا ، وهو متكيء على غلامين اسودين ، أوموليين ، فقلت في نفسي سبحان الله شيخ من اشياخ قريش في هذه الساعة على هذه الحالة في طلب الدنيا أما لأعظنه ، فدنوت منه فسلمت عليه فرد علي ببهر وهو ينصاب عرقاً ، فقلت اصلحك الله شيخ من اشياخ قريش في هذه الساعة على هذه الحالة في طلب الدنيا ارأيت لوجاء اجلك وأنت على هذه الحال ماكنت تصنع . فقال لوجائني الموت وأنا على هذه الحال جائني وأنا في طاعة من طاعة الله عزوجل اكف بها نفسي وعيالي عنك وعن الناس ، وإنما كنت اخاف ان لوجائني الموت وانا على معصية من معاصي الله . فقلت : صدقت يرحمك الله اردت ان

أعظك فوعظتني » .

ومما جاء نظماً في هذا المعنى قول عمر بن احمد الباهلي :

ومن يطلب المعروف من غير أهله يجد مطلب المعروف غير يسير

إذا أنت لم تجعل لعرضك جنة من الذم سار الذم كل مسير

وقال آخر :

وإذا بليت ببذل وجهك سائلا فابذله للمتكرم المفضال

إن الجواد إذا حباك بموعد اعطاكه سلساً بغير مطال

ماا عتاض باذل وجهه بسؤاله عوضاً ولونال المنى بسؤال

وإذا السؤال مع النوال قرنته رجح السؤال وخف كل نوال

لهذا ومثله قال رسول الله (ص) : « مسألة الناس من الفواحش ، وما أحل من الفواحش غيرها » .

وقال (ص) : « من سأل وعنده مايغنيه فانما يستكثر من جمر جهنم » . قالوا : يارسول الله وما يغنيه ؟ قال : « مايغديه اويعشيه » .

وقال (ص) : « من سأل وله مايغنيه جاء يوم القيامة وعظم وجهه يتقعقع ليس عليه لحم » . وفي لفظ آخر « كانت مسألته خدوشاً وكدوحاً في وجهه » .

وهذه الالفاظ صريحة في التحريم والتشديد .

وبايع رسول الله (ص) قوم على الاسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ، ثم قال لهم كلمة خفيفة : « ولا تسألوا الناس شيئاً » .

وكان يأمر كثيراً بالتعفف عن السؤال ويقول : « من سألنا أعطيناه ومن استغنى اغناه الله » . وقال : « ومن لم يسألنا فهو احب إلينا » .

وقال : « استغنوا عن الناس ولو بشوص من سواك » . (أي بغسالته

وقيل بما يتفتت منه عند التسوك) .

وقال : « استغنوا عن السؤال ، وماقل من السؤال فهو خير » . قالوا : ومنك يارسول الله ؟ قال : ومني) .

وجاء عن الامام الباقر (عليه السلام) : « لو يعلم السائل ما في المسألة ماسأل احد احداً ، ولو يعلم المعطي مافي المطية مارد احد احداً » .

وعن النبي ﷺ : « الأيدي ثلاث : يد العليا ، ويد المعطي التي تليها ، ويد المعطى اسفل الايدي ، فاستعفوا عن السؤال مااستطعتم ، إن الأرزاق دونها حجب فمن شاء قنى حياءه وأخذ رزقه ، ومن شاء هتك الحجاب وأخذ رزقه ، والذي نفسي بيده لأن يأخذ احدكم عرض الوادي فيحتطب حتى لايلتقي طرفاه ، ثم يدخل به السوق فيبيعه بمد من تمر يأخذ ثلثه ، ويتصدق بثلثيه خير له من أن يسأل الناس اعطوه ام حرموه » .

وعنه (ص) « من فتح على نفسه باب مسألة فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر لايسد ادناها شيء » .

ومن وصيته (ص) لأبي ذر (رضوان الله عليه) : « ياأبا ذر إياك والسؤال فانه ذل حاضر وفقر تتعجله ، وفيه حساب طويل يوم القيامة ، ياأبا ذر لاتسأل بكفك وإن اتاك شيء فاقبله » .

وعن الامام الرضا (ع) : « قال : قال رجل للنبي (ص) علمني عملا لايحال بينه وبين الجنة . قال : « لاتغضب ، ولاتسأل الناس ، وارض للناس ماترضى لنفسك » .

وعنه عن جده (ع) قال : اتخذ الله عزوجل ابراهيم (ع) خليلا لأنه لم يرد احداً ، ولم يسأل احداً غير الله عزوجل » .

وعن ابي عبد الله الصادق (ع) « قال : ما من عبد يسأل من غير حاجة فيموت حتى يحوجه الله اليها ، ويثبت له بها النار » .

وعنه (ع) : « من سأل من غير فقر فانما يأكل الجمر » .

وقال : « من سأل الناس وعنده قوت ثلاثة ايام لقي الله يوم يلقاه وليس في وجهه لحم » .

في المجلد العاشر من البحار تأليف (الشيخ المجلسي) عنه (ع) قال : « إن رجلا مر بعثمان بن عفان ، وهو قاعد على باب المسجد ، فسأله فأمر له بخمسة دراهم ، فقال له الرجل : ارشدني . فقال له عثمان : دونك الفتية الذين ترى ، وأومأ بيده إلى ناحية من المسجد فيها الحسن والحسين وعبدالله بن جعفر ، فمضى الرجل نحوهم حتى سلم عليهم ، وسألهم ، فقال له الحسن (ع) : ياهذا إن المسألة لاتحل إلا في احدى ثلاث : دم مضجع أودين مقرح ، اوفقر مدقع ، ففي ايها تسأل . فقال : في وجه واحدة من هذه الثلاث . فأمر له الحسن (ع) بخمسين ديناراً ، وأمر له الحسين (ع) بتسعة وأربعين ديناراً ، وأمر له عبدالله بن جعفر بثمانية وأربعين ديناراً فانصرف الرجل فمر بعثمان ، فقال له : ماصنعت . فقال مررت بك فسألت فأمرت لي بما امرت ولم تسألني فيما أسأل ، وإن صاحب الوفرة لما سألته قال لي ياهذا فيما تسأل فان المسألة لاتحل إلا فى احدى ثلاث ، فأخبرته بالوجه الذي أسأله من الثلاث فأعطاني خمسين ديناراً ، وأعطاني الثاني تسعة وأربعين ديناراً ، وأعطاني الثالث ثمانية وأربعين ديناراً . فقال عثمان ومن لك بمثل هؤلاء الفتية ، اولئك فطموا العلم فطما ، وجازوا الحكمة والخير » .

ورآى امير المؤمنين علي (ع) رجلا يسأل بعرفات ، فقنعه بالسوط ،

وقال : ويلك في مثل هذا اليوم تسأل احداً غير الله » .

وقال عبدالله بن عباس : المساكين لايعودون مريضاً ، ولايشهدون جنازة ، ولايحضرون جمعة ، وإذا اجتمع الناس في اعيادهم ومساجدهم يسألون الله من فضله ، اجتمعوا يسألون الناس مافي ايديهم . وقال النعمان ابن المنذر : من سأل فوق حقه استحق الحرمان ، ومن ألحف في مسألته استحق المطل ، والرفق يمن ، والخرق شؤم ، وخير السخاء ماوافق الحاجة وخير العفو مع المقدرة .

قال حبيب :

ذل السؤال شجى في الحلق معترض   من دونه شرق من خلفه حرض
ما مال كفك ان جادت وان بخلت   من ماء وجهك إن افسدته عوض

وقال ابو غسان : اخبرني ابو زيد قال : سأل سائل بمسجد الكوفة وقت الظهر فلم يعط شيئاً ، فقال : اللهم إنك بحاجتي عالم لاتعلم ، انت الذي لايعوزك نائل ولايحفيك سائل ولايبلغ مدحك قائل ، اسألك صبراً جميلا وفرجاً ، وبصراً بالهدى ، وقوة فيما تحب وترضى ، فتبادروا إليه يعطونه ، فقال : والله لارزأتكم الليلة شيئاً ، ثم خرج وهو يقول :

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله   عوضاً ولونال الغنى بسؤال
وإذا النوال مع السؤال وزنته   رجح السؤال وخف كل نوال

وقال مسلم بن الوليد :

سل الناس اني سائل الله وحده   وصائن عرضي عن فلان وعن فلا

وقال عبيد بن الابرص :

من سأل الناس يحرموه   وسائل الله لايخيب

وقال ابن ابي حازم :

لطي يوم وليلتين ... ولبس ثوبين باليين
أهون من منة لقوم ... أغض منها جفون عيني
إني وإن كنت ذا عيال ... قليل مال كثير دين
لأحمد الله حين صارت ... حوائجي بينه وبيني

وقال ابن عبد ربه :

سؤال الناس مفتاح عتيد ... لباب الفقر فاكلف بالسؤال

وقال سالم الخاسر :

إذا أذن الله في حاجة ... اتاك النجاح على رسله
فلا تسأل الناس من فضلهم ... ولكن سل الله من فضله

ويقال احب الناس الى الله من سأله، وابغض الناس الى الناس من احتاج اليهم وسألهم . وفي هذا المعنى قيل :

لاتسألن بني آدم حاجة ... وسل الذي ابوابه لاتحجب
الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبني آدم حين يسئل يغضب

وقال ابن دقيق العبد :

وقائلة مات الكرام فمن لنا ... إذا عضنا الدهر الشديد بنابه
فقلت لها من كان غاية قصده ... سؤالا لمخلوق فليس بنابه
اذا مات من يرجى فمقصودنا الذي ... ترجينه باق فلوذي ببابه

وقال بعض اهل الفضل :

لما افتقرت لصحبي ماوجدتهمو ... لجأت لله لباني واغناني
واهاً على بذل وجهي للورى سفهاً ... فلو بذلت الى مولاي والاني

وقال الشافعي ، محمد بن ادريس :

بلوت بني الدنيا فلم أر فيهم ... سوى من غدا والبخل ملء إهابه
فجردت من غمد القناعة صارماً ... قطعت رجائي منهم بذبابه
فلا ذا يراني واقفاً في طريقه ... ولا ذا يراني قاعداً عند بابه
غني بلا مال عن الناس كلهم ... وليس الغنى الا عن الشيء لا به
اذا ظالم يستحسن الظلم مذهباً ... ولج عتواً في قبيح اكتسابه
فكله الى صرف الليالي فانها ... ستبدي له مالم يكن في حسابه
فكم قد رأينا ظالماً متمرداً ... يري النجم تيهاً تحت ظل ركابه
فعما قليل وهو في غفلاته ... اناخت صروف الحادثات ببابه
فأصبح لا مال ولا جاه يرتجى ... ولا حسنات تلتقى في كتابه
وجوزي بالامر الذي كان فاعلا ... وصب عليه الله سوط عذابه

وقال آخر :

لا تسألن الى صديق حاجة ... فيحول عنك كما الزمان يحول
واستغن بالشيء القليل فانه ... ما صان عرضك لا يقال قليل
من عف خف على الصديق لقاؤه ... وأخو الحوائج وجهه مملول
واخوك من وفرت ما في كفه ... ومتى علقت به فأنت ثقيل

وقال آخر .

ليس جوداً أعطيته بسؤال ... قد يهز السؤول غير جواد
إنما الجود ما اتاك ابتداءاً ... لم تذق فيه ذلة الترداد

وقال آخر :

لا تحسبن الموت موت البلا ... فانما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا ... أخف من ذاك لذل السؤال

وقال الشافعي :

قنعت بالقوت من زماني وصنت نفسي عن الهوان
خوفاً من الناس ان يقولوا فضل فلان على فلان
من كنت من ماله غنياً فلا ابالي اذا جفاني
ومن رآني بعين نقص رأيتـــه بالتي رآني
ومن رآني بعين تم رأيته كامل المعاني

وقال امير المؤمنين علي (ع) لولده الحسن (ع) : « يا بني اذا نزل بك كلب الزمان ، وقحط الدهر فعليك بذوي الاصول الثابتة والفروع النابتة من اهل الرحمة والايثار والشفقة ، فانهم اقضى للحاجات وامضى لدفع الملمات ، واياك وطلب الفضل واكتساب الطسايج والقراريط من ذوي الاكف اليابسة والوجوه العابسة فانهم ان اعطوا منوا ، وان منعوا كدوا ثم انشأ يقول :

واسئل العرف ان سألت كريماً لم يزل يعرف الغنى واليسارا
فسؤال الكريم يورث عزاً وسؤال اللئيم يورث عارا
وإذا لم تجد من الذل بدأ فالق بالذل إن لقيت كبارا
ليس اجلالك الكبير بعار إنما العار ان تجل الصغارا

* * *

ثم إن السؤال يباح لضرورة ، لان الشيء إما ان يكون مضطراً اليه او محتاجاً اليه حاجة مهمة ، او حاجة خفيفة ، او مستغني عنه ، فهـــذه أربعة احوال :

اما المضطر اليه فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتاً ومرضاً ، وسؤال العاري وبدنه مكشوف ليس معه مايواريه ، وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط في المسؤول بكونه مباحاً ، والمسؤول منه بكونه راضياً في الباطن ،

وفي السائل بكونه عاجزاً عن الكسب ، فان القادر على الكسب وهو بطال ليس له السؤال الا اذا استغرق طلب العلم اوقاته ، وكل من له حظ فهو قادر على الكسب بالوراقة .

وأما المستغني فهو الذي يطلب شيئاً وعنده مثله وامثاله فسؤآله حرام قطعاً . وهذان طرفان واضحان .

وأما المحتاج حاجة مهمة كمريض محتاج الى دواء ليس يظهر خوفه لو لم يستعمله ولكنه لايخلو عن خوف ، وكمن له جبة ولا قميص تحتها في الشتاء وهو يتاذى بالبرد تاذياً لاينتهي الى حد الضروره ، وكذلك من يسأل لاجل الكراء وهو قادر على المشي بمشقة ، فهذا ايضا ينبغي ان تسترسل عليه الاباحة لانها حاجة محققة ولكن الصبر عنه اولى وهو بالسؤال تارك للاولى ، ولا يسمى سؤاله مكروهاً مهما صدق في السؤال ، وقال ليس تحت جبتي قميص والبرد يؤذيني أذى لاأطيقه ، ولكن يشق علي ، فاذا صدق فصدقه يكون كفارة لسؤاله .

وأما الحاجة الخفيفة : فمثل سؤآله قميصاً ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستتر به الخروق التي في ثيابه عن اعين الناس ، كمن يسأل لاجل الادم وهو واجد للخبز ، وكمن يسأل الكراء لفرس في الطريق وهو واجد كراء الحمار ، أو يسأل كراء المحمل وهو قادر على الراحلة .

فهذا ونحوه ان كان فيه تلبيس حال باظهار حاجة غير هذه فهو حرام . وكذلك لو كان فيه شيء من المحذورات الثلاثة من الشكوى أو الذل أو ايذاء المسؤول فهوحرام ، لان مثل هذه الحاجة لاتصلح لان تباح بها هذه المحذورات ، وان لم يكن فيه شيء من ذلك فهو مباح مع الكراهة .

آداب الفقير في قبول العطاء اذا جاءه بغير سؤال

جاء في كتاب (المحجة البيضاء) تأليف الشيخ الجليل (ملا محسن الفيض) :

« ينبغي ان يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة امور : نفس المال ، وغرض المعطي ، وغرضه في الاخذ :

اما نفس المال : فينبغي ان يكون حلالا خالياً عن الشبهات كلها ، فان كان فيه شبهة فليحترز من اخذه .

وأما غرض المعطي فلا يخلو إما ان يكون غرضه تطييب قلبه وطلب محبته وهو الهدية أو الثواب وهو الصدقة والزكاة ، او الذكر والرياء والسمعة ، إما على التجرد وإما ممزوجاً ببقية الاغراض .

أما الاول وهو الهدية فلا بأس بقبولها . فان قبولها سنة رسول الله (ص) ولكن ينبغي ان لايكون فيها منة ، وإن كان فيها منة فالاولى تركها ، فان علم ان بعضها مما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض ، فقد اهدى رجل الى النبي (ص) سمناً وأقطاً وكبشاً فقبل السمن والأقط ورد الكبش . وكان (ص) يقبل من بعض الناس ويرد على بعض . وفعل هذا جماعة من الصحابة والتابعين . وجيء بصرة الى فتح الموصلي فيها خمسون درهماً فقال : حدثنا عطاء عن النبي (ص) انه قال : « من اتاه رزق من غير مسألة ورده فانما يرده على الله » . ثم فتح الصرة فأخذ منها درهماً ورد سائرها .

الثاني : ان يكون للثواب المجرد ، وذلك صدقة او زكاة فعليه ان ينظر في صفات نفسه انه هل هو مستحق للزكاة فان اشتبه عليه فهو محل شبهة ، وإن كان يعطيه لظنه انه عالم او علوي ولم يكن كذلك فان اخذه حرام محض لا شبهة فيه

الثالث : ان يكون غرضه الشهرة والرياء والسمعة فينبغي ان يرد عليه قصـده الفاسد ولا يقبله ، اذ يكون معيناً له على غرضه الفاسد وكان بعضهم يرد مايعطى ويقول : لو علمت انهم لايذكرون ذلك أفتخاراً به لاخـذت. وعوتب بعضهم في رده ماكان يأتيه من صلة ، فقال : انما ارد صلتهم اشفاقاً ونصحاً لهم لأنهم يذكرون ويحبون ان يعلم به فتذهب اموالهم ويحبط اجرهم.

واما غرضه في الاخذ ، فينبغي ان ينظر أهو محتاج اليه فيما لابد منه ، أو هو مستغني عنه ، فان كان محتاجاً اليه وقـد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرها في المعطي ، فالافضل له الاخذ قال (ص) : « ما المعطي من سعة بأعظم اجراً من الآخذ اذا كان محتاجاً » . وقال (ص) من اتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فانما هو رزق ساقه الله اليه فلايرده » . وقد قال بعض العلماء : من يخاف في الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع او دخول في شبهة او غيره ، فاما اذا كان ما أتاه زائداً على حاجته فلا يخلو اما ان يكون حاله الاشتغال بنفسه او التكفل بأمور الفقراء والانفاق عليهم لما في طبعه من الرفق والسخاء ، فان كان مشغولا بنفسه فلا وجه لأخذه وامساكه ان كان طالباً طريق الآخرة ، فان ذلك محض اتباع الهوى ، وكل عمل ليس لله فهو من سبيل الشيطان اوداع اليه (ومن حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه) . ثم له مقامان :

احدهما : ان ياخذ في العلانية ويرد في السر ، او ياخذ في العلانية ويفرق في السر ، وهذا مقام الصديقين وهو شاق على النفس لايطيقه الا من اطمأنت نفسه بالرياضة .

والثاني ان يترك ولاياخذ ليصرفه صاحبه الى من هو احوج منه ، اوياخذ ويوصله الى من هو احوج منه فيقع كلاهما في السر او كلاهما في العلانية » .

في جامع السعادات تأليف (الفاضل النراقي) :

« قال بعض المجاورين بمكة : كانت عندي دراهم اعددتها للانفاق في سبيل الله ، فسمعت فقيراً قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفي : انا جائع كما ترى ، عريان كما ترى فما ترى فيما يرى يامن يرى ولا يرى ؟ فنظرت فاذا عليه خلقان لاتكاد تواريه ، فقلت : في نفسي لااجد لدراهمي موضعا احسن من هذا ، فحملتها اليه ، فنظر اليها ثم اخذ منها خمسة دراهم فقال : اربعة دراهم ثمن مئزرين ودرهم انفقه ثلاثاً فلا حاجة بي الى الباقي فرده ، قال : فرأيته الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان ، فهجس في نفسي منه شيء فالتفت الي فاخذ بيدي فاطافني معه اسبوعا كل شوط منها في جوهر من معادن الارض يتخشخش تحت اقدامنا الى الكعبين منها ذهب وفضة وياقوت ولؤلؤ وجوهر ، ولم يظهر ذلك للناس ، فقال : هذا كله قد اعطانيه فزهدت فيه وآخذ من ايدي الخلق ، لان هذه اثقال وفتنة ، وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة » .

والمقصود من هذا ان الزيادة على قدر الحاجة انما تأتيك ابتلاء وفتنة ، لينظر الله اليك ماذا تعمل فيه ، وقدر الحاجة يأتيك رفقا بك ، فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء ، قال الله تعالى : « إنا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملا » .

وقال رسول الله (ص) : « لاحق لابن آدم الا في ثلاث : طعام يقيم صلبه ، وثوب يواري عورته ، وبيت يكنه ، فما زاد فهو حساب » .

فاذن انت في اخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب ، وفيما زاد عليه إن لم تعص الله متعرض للحساب ، وان عصيت الله فانت متعرض للعذاب » .

نوادر السائلين

جاء في كتاب (المحاسن والمساوي) تاليف البيهقي - : « قال الجاحظ سمعت شيخا من المكدين وقد التقى مع شاب منهم قريب العهد بالصناعة ، فسأله الشيخ عن حاله ، فقال : لعن الله الكدية ولعن اصحابها من صناعة ، ما اخسها وأقلها انها ما علمت تخلق الوجه وتضع من الرجال ، وهل رأيت مكديا افلح . قال : فرأيت الشيخ قد غضب والتفت اليه فقال : ياهذا اقلل من الكلام فقد اكثرت ، مثلك لايفلح لانك محروم ولم تستحكم بعد ، وان للكدية رجالا فمالك ولهذا الكلام ، ثم التفت فقال : اسمعوا بالله يجيئنا كل نبطي قرنان وكل حائك صفعان ، وكل ضراط كشحان ، يتكلم سبعا في ثمان ، اذا لم يصب احدهم يوما شيئا ثلب الصناعة ووقع فيها ، اوماعلمت ان الكدية صناعة شريفة وهي محببة لذيذة ، صاحبها في نعيم لاينفذ ، فهوعلى بريد الدنيا ومساحة الارض ، وخليفة ذي القرنين الذي بلغ المشرق والمغرب ، حيث ما حل لايخاف البؤس ، يسير حيث شاء يأخذ اطايب كل بلدة ، فهو ايام النرسيان والهيرون بالكوفة ، ووقت الشبوط وقصب السكر بالبصرة ، ووقت البرنى والازاذ والرازقي والرمان المرمر ببغداد ، وأيام التين والجوز الرطب بحلوان ، ووقت اللوز والرطب والسختيان والبرزد بالجبل ، يأكل طيبات الارض ، فهو رخي البال حسن الحال لايغتم لاهل ولا مال ولا دار ولا عقار ، حيث ماحل فملفه طبلي ، اما والله لقد رأيتني وقد دخلت بعض بلدان الجبل ووقفت في مسجدها الأعظم وعلي فوطة قد ائتزرت بها وتعممت بحبل من ليف وبيدي عكازه من خشب الدفلي ، وقد اجتمع الي عالم من الناس كأني الحجاج بن يوسف على منبره ، وأنا اقول : ياقوم رجل

من أهل الشام ، ثم من بلد يقال له المصيصة من ابناء الغزاة والمرابطين في سبيل الله ، من ابناء الركاضة وحرسة الاسلام ، غزوت مع والدي اربع عشرة غزوة سبعاً في البحر وسبعاً في البر ، وغزوت مع الارمني قولوا رحم الله ابا الحسن ، ومع عمر بن عبيد الله ، قولوا رحم الله ابا حفص ، وغزوت مع البطال بن الحسين والربرداق بن مدلول ، وحمدان بن ابي قطيفة ، وآخر من غزوت معه يازمان الخادم ، ودخلت قسطنطينية وصليت في مسجد مسلمة بن عبد الملك ، ومن سمع باسمي فقد سمع ومن لم يسمع فأنا اعرفه نفسي ، انا ابن الغزيل بن الركان المصيصي المعروف المشهور في جميع الثغور ، والضارب بالسيف والطاعن بالرمح ، سد من اسداد الاسلام نازل الملك على باب طرسوس فقتل الذراري وسبى النساء واخذ لنا إبنان وحملوا إلى بلاد الروم ، فخرجت هاربا على وجهي ومعي كتب من التجار فقطع علي وقد استجرت بالله ثم بكم فان رأيتم أن تردوا ركناً من أركان الاسلام الى وطنه وبلده ، فوالله ما أتممت الكلام حتى انهالت علي الدراهم من كل جانب وانصرفت ومعي اكثر من مائة درهم . فوثب اليه الشاب وقبل رأسه وقال انت والله معلم الخير فجزاك الله عن اخوانك خيرا » .

ومن نوادرهم : أنه اتى سائل داراً يسأل منها ، فأشرفت عليه إمرأة من الغرفة ، فقال لها يا أمة الله لله ان تصدقي علي بشيء . قالت اي شيء تريد ؟ قال درهما قالت ليس . قال فدانقاً . قالت ليس . قال ففلساً قالت ليس . قال فكسوة . قالت ليس . قال فكفا من دقيق قالت ليس قال فزيت حتى عد كل شيء يكون في البيوت وهي تقول ليس . فقال لها يا زانية فما يجلسك مري تصدقي معي .

قال الاصمعي وقفت على سائل بالمربد وهو يقول :

قد رهنت القصاع من شهوة الخبز .

فقلت له : أتمه . فقال : أتمه أنت فقلت :

فمن لي بمن يفك القصاعا

فقال : أضمم اليه بيتا فقلت :

مارهنت القصاع ياقوم حتى خفت والله أن اموت ضياعا

فقال : انت والله أحوج الى المسألة وأحق بها مني

ولأبي فرعون الأعرابي السائل :

وصبية مثـــل صغار الذر سود الوجوه كسواد القدر

كلهم ملتزق بصدري حتى إذا لاح عمود الفجر

ولاحت الشمس خرجت أسري اسبقهم الى اصول الجدر

ألافتى يحمل عني إصري هـذا جميع قصتي وامري

فاسمع مقالي وتوق شري فانت انت بغيتي وذخري

كنيت نفسي كنية في شعري أنا أبو الفقر وأم الصقر

قال الاصمعي رأيت سائلا وقـــد تعلق باستار الكعبة من بني تميم وهو يقول :

ايارب رب الناس والمن والهدى أمالي في هـذا الأنام قسيم

اما تستحي مني وقد قمت عاريا اناجيك ياربي وأنت كريم

أترزق ابناء العلوج وقدعصوا وتترك قرما من قروم تميم

قال : ورأيت رجلا آخر من الاعراب ، وقد تعلق باستار الكعبة وهو يقول :

يارب اني سائل كما ترى مشتمل شميلتي كما ترى

وشيختي جالسة فيما ترى والبطن مني جائع كما ترى

فما ترى ياربنا فيما ترى

قال : وأتى سائل من الاعراب الى بني عبد العزيز بن مروان ، فقال :

فقال اتت علينا سنون لم تبق زرعاً حصيداً ، ولا مالا تليداً إلا اجتاحته بزوبرة واصلة ، وانتم ائمة املي وقصد تقي . فلم يعطوه شيئاً ، فقال :

بنو عبد العزيز اذا ارادوا سماحاً لم يلق بهم السماح
لهم عن كل مكرمة حجاب فقدتر كوا المكارم واستراحوا

قال : ومر سائل منهم برجل يكنى أبا الغمر ضخم عريض ، وكان بواباً لبعض الملوك . فقال له : اعن المسكين الضعيف الفقير المحتاج . فقال : ما ألحف جائعكم واكثر سائلكم اراحنا الله منكم . فقال : السائل اسكت فوالله لو فرق قوت جسمك في عشرة اجسام منا لكفانا طعامك ليوم شهراً ، وانك لنبيه الضرطة ، لو ذري بها بيدر لكفته الريح ، عظيم السلحة لو ضربت لبناً لكفت سوراً .

قيل ودخل رجل منهم على هشام بن عبدالملك بن مروان ، فقال : يا امير المؤمنين أتتنا سنون ثلاث : فأما الاولى فأذابت الشحم ، وأما الثانية فأمحضت اللحم واما الثالثة فهاضت العظم ، وعندك اموال فان كانت لله جل وعز فبثها في عباد الله ، وان كانت لهم ففيم تحبسها عنهم ، وان كانت لك فتصدق علينا ان الله يجزي المتصدقين .

وقال : ودخل ازهر السمان على المنصور فشكا اليه الحاجة وسوء الحال ، فأمر له بألف درهم وقال : يا ازهر لا تأتنا في حاجة ابداً . قال : افعل يا امير امؤمنين . فلما كان بعد قليل عاد فقال له يا ازهر ما حاجتك ؟ قال جئت لادعو لامير المؤمنين . قال : بل اتيتنا لمثل ما اتيت له في المرة الاولى . فأمر له بألف درهم وقال يا ازهر لا تأتنا ثالثة فلا حاجة لنا في دعائك قال نعم . ثم لم يلبث ان عاد ، فقال يا ازهر ما جاء بك . قال دعاء كنت سمعته منك احب ان آخذه عنك . فقال : لا ترده فانه غير مستجاب وقد دعوت به الله جل وعز

ان يريحني من خلقتك فلم يفعل .

وممن سأل ايضاً ربيعة بن ربيعة ، ذكروا انه دخل على معاوية بن ابي سفيان فقال : يا أمير المؤمنين زوجني بعض بناتك . فقال : قد شغلناهن باكفائهن . قال : فولني شرطة البصرة . قال : قد وليتها من كفانا . قال : فهب لي قطيفة . قال : أما هذا فنعم .

منهم ابو دلامة :

دخل على المنصور فقال : يا امير المؤمنين تأمر لي بكلب صيد . قال : اعطوه . قال : كلب بلا صقر . قال : اعطوه صقراً . قال : كلب وصقر بلا بازبان . قال : اعطوه غلاماً بازباناً . قال : فلا بد لهم من دار . قال اعطوه داراً . قال : فمن أي شيء يعيشون . قال قد اقطعتك اربعمائة جريب منها مائتا جريب عامر ومائتان غامر . قال : وما الغامر . قال : الخراب . قال : فانا أقطعتك أربعة آلاف جريب بالدهناء غامرة . قال : فقد جعلتها كلها عامرة فهل بقي لك شيء . قال : نعم تدعني أقبل يدك . قال : ليس الى ذلك سبيل . فقال : ما منعتني شيئاً أهون على عيالي من هذا .

قال : وبعث المنصور الى زياد بن عبد الله مالا وامره ان يفرقه في القواعد والايتام والعميان ، فدخل اليه ابو حمزة الرقي ، فقال : اصلح الله امير المؤمنين قد بلغني الكبر فاكتبني في القاعدين . قال : يغفر الله لك إنما القواعد النساء اللواتي قعدن عن الازواج . قال : فاكتبني في العميان فان الله جل ذكره يقول: « فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » وأنا اشهد ان قلبي أعمى ، واكتب ولدي في الايتام فان من كنت أباه فهو يتيم . قال :

اكتبوه في العميان واكتبوا ولده في الايتام .

قرأت في منشورات (حمدي عبيد) : سأل اعرابي فقال : « رحم الله امرءاً لم تمجج اذناه كلامي ، وقدم لنفسه معاذاً من سوء مقامي ، فان البلاد مجدبة ، والحال مصعبة ، والحياء زاجر يمنع كلامكم ، والعدم عاذر يدعو الى إخباركم ، والدعاء احد الصديقين ، فرحم الله امرءاً امر بمير ودعا بخير .

فقال رجل من القوم ممن الرجل ؟ فقال : اللهم غفراً ممن لا تضرك جهالته ، ولا تنفعك معرفته ، ذل الاكتساب يمنع من عز الانتساب .

قدم على زياد نفر من الاعراب فقام خطيبهم فقال : اصلح الله الامير نحن وان كانت نزعت بنا انفسنا اليك وانضينا ركائبنا نحوك التماساً لفضل عطائك ، عالمون بانه لا مانع لما اعطى الله ولا معطي لما منع ، وإنما انت ايها الامير خازن ونحن رائدون ، فان اذن لك فاعطيت حمدنا الله وشكرناك ، وإن لم يؤذن لك فمنعت حمدنا الله وعذرناك . ثم جلس فقال زياد لجلسائه : تالله مارأيت كلاماً ابلغ واوجز ولا انفع عاجلة منه ، ثم امر لهم بما يصلحهم .

وقال نصيب لعمر بن عبد العزيز : يا امير المؤمنين كبرت سني ورق عظمي وبليت ببنيات نفضت عليهن من لوني فكسدن علي ، فرق له عمر ووصله .

لزم بعض الحكماء باب بعض ملوك العجم دهراً فلم يصل اليه ، فتلطف للحاجب في ايصال رقعة ففعل ، وكان فيها اربعة اسطر :

السطر الاول : الامل والضرورة اقدماني عليك .

السطر الثاني : والعدم لا يكون معه صبر على المطالبة .

السطر الثالث : الانصراف بلا فائدة شماتة للاعداء .

السطر الرابع : فأما نعم مثمرة ، واما لا مريحة .

فلما قرأها وقع في كل سطر زه فاعطي ستة عشر الف مثقال فضة .

قال ابو سماك لرجل : لم أصن وجهي عن الطلب اليك ، فصن وجهك عن ردي ، وضعني من كرمك بحيث وضعت نفسي من رجائك .

وقال المنصور لرجل : ما مالك ؟ قال : ما يكف وجهي ويعجز عن بر الصديق . فقال : لقد تلطفت للسؤال ووصله .

وقال أيضاً لرجل أحمد منه أمراً : سل حاجتك . فقال يبقيك الله يا أمير المؤمنين قال : سل فليس يمكنك في كل وقت . فقال : ولم يا أمير المؤمنين فو الله لا أستقصر عمرك ، ولا أرهب بخلك ، ولا اغتنم مالك ، وإن سؤالك لزين ، وإن عطاءك لشرف ، وما على أحد بذل وجهه اليك نقص ولا شين ، فأمر له حتى ملء فوه دراً .

جاء في سفينة البحار تأليف (الشيخ عباس القمي) إن المسعودي ذكر في مروج الذهب : « إن سائلا وقف على عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وقال تصدق بما رزقك الله فاني نبئت ان عبيد الله بن العباس أعطى سائلا الف درهم واعتذر اليه ، فقال : وأين أنا من عبيد الله . قال له : أين أنت في الحسب أو في كثرة المال ؟ قال : فيهما جميعاً . قال : إن الحسب في الرجل مروءته وحسن فعله ، فاذا فعلت ذلك كنت حسيباً . فأعطاه ألفي درهم واعتذر اليه . فقال له السائل : إن لم تكن عبيد الله فأنت خير منه ، وان كنت هو فأنت اليوم خير منك أمس . فأعطاه الفاً أيضاً . فقال : لئن كنت عبيد الله انك لأسمح أهل دهرك وما أخالك إلا من رهط فيهم محمد رسول الله ﷺ فاسئلك بالله أنت هو قال نعم . قال . والله ما أخطأت إلا باعتراض الشك بين جوانحي وإلا فهذه الصورة الجميلة والهيئة المنيرة لا تكون إلا في نبي أو عترة نبي » .

يحدثنا المجلسي (أعلا الله مقامه) في التاسع من (بحار انواره) نقلا عن جابر بن عبد الله الانصاري (ره) « قال كنا جلوساً عند رسول الله

ﷺ إذ ورد علينا أعرابي اشعث الحال عليه اثواب رثة والفقر بين عينيه ، فلما دخل وسلم قال شعرا :

اتيتك والعذراء تبكي برنة	وقد ذهلت ام الصبي عن الطفل
واخت وبنتان وام كبيرة	وقد كدت من فقري اخالط في عقلي
وقد مسني فقر وذل وفاقة	وليس لنا شيء يمر ولا يحلي
وما المنتهى إلا اليك مهرباً	وأين يفر الخلق إلا الى الرسل

قال . فلما سمع النبي ﷺ ذلك بكا بكاءاً شديداً ، ثم قال لأصحابه معاشر المسلمين ان الله تعالى سبق اليكم جزاء والجزاء من الله غرف في الجنة تضاهي غرف إبراهيم الخليل ﷺ فمن كان منكم يواسي هذا الفقير • فقال . فلم يجبه احد وكان في ناحية المسجد علي بن ابي طالب ﷺ يصلي ركعات التطوع كانت له دائماً ، فأومىء الى الأعرابي بيده ، فدنا منه فرفع اليه الخاتم من يده وهو في صلاته ، فأخذه الأعرابي وانصرف وهو يقول بعد الصلاة على الرسول •

انت مولى يرجى به من الله	في الدنيا اقامة الدين
خمسة في الورى كلهم	وانت في الورى ميامين

ثم ان النبي ﷺ اتاه جبرئيل ونادى السلام عليك يا محمد ربك يقرءك السلام ويقول لك اقره « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكوة وهم راكعون ، ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون » فعند ذلك قام النبي ﷺ قائماً على قدميه ، وقال معاشر المسلمين ايكم اليوم عمل خيراً حتى جعله الله ولي كل من آمن ، قالوا يا رسول الله ما فينا من عمل خيراً سوى ابن عمك علي بن ابي طالب (ع) فانه تصدق على الأعرابي بخاتمه وهو يصلي • قال النبي ﷺ وجبت الغرف لابن عمي علي بن ابي طالب (ع) فقرأ عليهم الآية • قال . فتصدق الناس في ذلك اليوم

على ذلك الاعرابى ، فولى وهو يقول :

انا مولى لخمسة انزلت فيهم السور
اهل طه وهل اتى فاقرؤا يعرف الخبر
والطواسين بعدها والحواميم والزمر
انا مولى لهؤلاء وعدو لمن كفر

وانشأ حسان بن ثابت يقول :

علي امير المؤمنين اخو الهدى وافضل ذي نعل ومن كان حافيا
وأول من ادى الزكاة بكفه واول من صلى ومن صام طاويا
فلما اتاه سائل مد كفه اليه ولم يبخل ولم يك جافيا
فدس اليه خاتماً وهو راكع وما زال اواها الى خير داعيا
فبشر جبريل النبي محمداً بذاك وجاء الوحي في ذاك ضاحيا

وقال ايضاً :

فديت عليا امام الورى سراج البرية مأوى التقى
وصي الرسول وزوج البتول امام البرية شمس الضحى
تصدق خاتمه راكعا فأحسن بفعل إمام الهدى
ففضله الله رب العباد وانزل في شانه هل اتى

هذا نص ما رواه المجلسي .

واما ابو اسحق الثعلبي .

أخرج في تفسيره باسناده عن ابي ذر الغفاري قال . « أما اني صليت مع رسول الله ﷺ يوماً من الايام الظهر ، فسأل سائل في المسجد فلم يعطه احد شيئاً ، فرفع السائل يديه الى السماء وقال : اللهم اشهد اني سألت في مسجد نبيك محمد ﷺ فلم يعطني احد شيئاً . وكان علي (رضي الله عنه) في الصلاة راكعاً

فأومأ اليه بخنصره اليمنى وفيه خاتم ، فأقبل السائل فأخذ الخاتم من خنصره وذلك بمرأى من النبي ﷺ وهو في المسجد ، فرفع رسول الله ﷺ طرفه الى السماء وقال : اللهم ان أخي موسى سألك فقال : « رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيراً من اهلي هارون أخي اشدد به ازري واشركه في امري » ، فأنزلت عليه قرآناً « سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون اليكما » اللهم واني محمد نبيك وصفيك ، اللهم واشرح لي صدري ويسر لي امري واجعل لي وزيراً من اهلي علياً اشدد به ظهري ، قال ابو ذر (رضي الله عنه) فما استتم دعاءه حتى نزل جبريل عليه السلام من عند الله عز وجل وقال : يا محمد إقرأ « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا . الآية » .

قال الأميني في (كتاب الغدير) : اخرج هذه الاثارة ونزول الآية فيها جمع كثير من ائمة التفسير والحديث : منهم الطبري في تفسيره . والرازي في تفسيره . والخازن في تفسيره ابو البركات في تفسيره . النيسابوري في تفسيره . ابن الصباغ المالكي في الفصول المهمة . ابن طلحة الشافعي في مطالب السؤول سبط ابن الجوزي في التذكرة . الكنجي الشافعي في الكفاية . الخوارزمي في مناقبه . الحمويني في فرائده . القاضي عضد الايجي في المواقف . محب الدين الطبري في الرياض وفي الذخائر . ابن كثير الشامي في تفسيره . وفي البداية والنهاية . الحافظ السيوطي في جمع الجوامع كما في الكنز . ابن حجر في الصواعق الشبلنجي في نور الابصار . الآلوسي في روح المعاني » .

روى ابن رشيق في (العمدة) : « إن سائلا جاء الى امير المؤمنين علي عليه السلام فقال : يا أمير المؤمنين ان لي حاجة والحياء يمنعني ان اذكرها . فقال (ع) خطها في الارض . فكتب اني فقير . فقال (ع) : يا قنبر اكسه حلتي .

فأخذها الرجل وانشأ يقول :

كسوتني حلة تبلى محاسنها فسوف اكسوك من حسن الثنا حللا
إن الثناء ليحيي ذكر صاحبه كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر في عرف بدأت به كل امرء سوف يجزى بالذي فعلا

فقال (ع) : لقنبر زده مائة دينار . فقال قنبر يا سيدي لو فرقتها في المسلمين لاصلحت من شأنهم . فقال (ع) : مه يا قنبر فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول : اشكروا لمن أثنى عليكم ، واذا اتاكم كريم قوم فأكرموه » .

وحدث المجلسي في التاسع من البحار : « ان اعرابياً جاء الى امير المؤمنين علي (ع) فقال له : يا أمير المؤمنين إني مأخوذ بثلاث علل : علة النفس ، وعلة الفقر وعلة الجهل فاجاب امير المؤمنين (ع) وقال يا اخا العرب علة النفس تعرض على الطبيب وعلة الجهل تعرض على العالم ، وعلة الفقر تعرض على الكريم فقال الاعرابي يا امير المؤمنين انت الكريم ، وانت العالم ، وانت الطبيب . فامر امير المؤمنين بان يعطى له من بيت المال ثلاثة آلاف درهم ، وقال : تنفق الفاً بعلة النفس والفاً بعلة الجهل ، والفاً بعلة الفقر » .

وفيه ايضاً : « ان امير المؤمنين (ع) دخل مكة في بعض حوائجه ، فوجد أعرابياً متعلقاً باستار الكعبة ، وهو يقول : يا صاحب البيت ، البيت بيتك والضيف ضيفك ، ولكل ضيف من ضيفه قرى ، فاجعل قراي منك الليلة المغفرة فقال أمير المؤمنين (ع) لاصحابه : أما تسمعون كلام الاعرابي قالوا نعم . فقال الله اكرم من ان يرد ضيفه . فلما كانت الليلة الثانية وجده متعلقاً بذلك الركن وهو يقول : يا عزيزاً في عزك فلا أعز منك في عزك ، اعزني بعز عزك في عز لا يعلم احد كيف هو ، اتوجه اليك واتوسل اليك بحق محمد وآل محمد عليك اعطني مالا يعطيني احد غيرك ، واصرف عني مالا يصرفه احد غيرك فقال

امير المؤمنين (ع) لاصحابه : هذا والله الاسلام الاكبر بالسريانية ، اخبرني به حبيبي رسول الله ﷺ سأله الجنة فأعطاه ، وسأله صرف النار وقد صرفها عنه فلما كان الليلة الثالثة وجده وهو متعلق بذلك الركن ، وهو يقول : يا من لا يحويه مكان ، ولا يخلو منه مكان بلا كيفية كان ، ارزق الاعرابي اربعة آلاف درهم • قال : فتقدم اليه امير المؤمنين (ع) فقال : يا اعرابي سألت ربك القرى فقراك ، وسألته الجنة فاعطاك ، وسألته ان يصرف عنك النار وقد صرفها عنك ، وفي هذه الليلة تسأله اربعة آلاف درهم • قال الاعرابي : من انت قال : انا علي بن ابي طالب . قال الاعرابي : انت والله بغيتي وبك أنزلت حاجتي • قال : سل يا اعرابي . قال : اريد الف درهم للصداق ، والف درهم اقضي بها ديني ، والف درهم اشتري بها دارا ، والف درهم أتعيش منها قال انصفت يا اعرابي فاذا خرجت من مكة فاسأل عن داري بمدينة الرسول • فاقام الاعرابي بمكة اسبوعا وخرج في طلب امير المؤمنين الى مدينة الرسول ، ونادى من يدلني على دار امير المؤمنين علي • فقال الحسين بن علي من بين الصبيان انا ادلك على دار امير المؤمنين وانا ابنه الحسين بن علي • قال : امش الى امير المؤمنين وقل له ان الاعرابي صاحب الضمان بمكة على الباب • قال فدخل الحسين بن علي ﷺ فقال يا ابه اعرابي بالباب يزعم انه صاحب الضمان بمكة ، فقال يا فاطمة عندك شيء يأكله الاعرابي • قالت اللهم لا • قال فخرج امير المؤمنين (ع) وقال ادعولي ابا عبد الله سلمان الفارسي قال : فدخل اليه سلمان • فقال يا أبا عبد الله اعرض الحديقة التي غرسها رسول الله على التجار . فدخل سلمان السوق وعرض الحديقة فباعها باثني عشر الف درهم واحضر المال واحضر الاعرابي فاعطاه اربعة آلاف درهم واربعين درهم نفقة ، ووقع الخبر الى سؤال المدينة فاجتمعوا ، فجلس علي (ع) والدراهم مصبوبة بين يديه حتى اجتمع اليه اصحابه ، فقبض

قبضة قبضة وجعل يعطي رجلا رجلا حتى لم يبق معه درهم واحد . . » .

وجاء سائل الى الحسن بن علي (ع) فجلس بين يديه وجعل يكتب على الارض والحسن (ع) ينظر اليه ، فكتب :

لم يبق عندي ما يباع بدرهم   يكفيك منظر حالتي عن مخبري
إلا بقية ماء وجه صنته   الا يباع وقد وجدتك مشتري

فدعى الامام خازنه وقال له : ما معك من المال . فقال يا مولاي فضل معي اثنا عشر الف درهم . قال فادفعها الى الرجل واني لمستحي منه . قال : يا مولاي وأي شيء انفق . قال (ع) اعطه إياه واحسن الظن بالله تعالى . فلما ان دفعها اليه دعا به الحسن وقال : يا هذا اقبل العذر فانا ما انصفناك ، ولكن على قدر الميسرة ثم انشأ يقول :

عاجلتنا فأتاك وابل برنا   طلا ولو امهلتنا لم نقصر
فخذ القليل وكن كأنك لم تبع   ما صنته وكأننا لم نشتر

روى ابن عساكر في التاريخ الكبير ان سائلا خرج يتخطى ازقة المدينة حتى اتى باب الحسين (ع) فقرع الباب وانشأ يقول :

لم يخب الآن من رجاك ومن   حرك من خلف بابك الحلقة
انت ذو الجود وانت معدنه   ابوك قد كان قاتل الفسقة

وكان الحسين (ع) واقفاً يصلي ، فخفف من صلاته وخرج الى الاعرابي فرآى عليه اثر ضر وفاقة ، ونادى بقنبر فأجابه لبيك يابن رسول الله ، قال ما تبقى معك من نفقتنا قال : مائتا درهم امرتني بتفرقتها على اهل بيتك . قال هاتها فقد اتى من هو احق بها منهم فأخذها وخرج يدفعها الى الاعرابي وانشأ يقول :

خذها فاني اليك معتذر   واعلم بأني عليك ذو شفقة

لو كان في سير ناعصاً تمداذاً   كانت سمانا عليك مندفقة
لكن ريب المنون ذو نكد   والكف منا قليلة النفقة

فأخذها الاعرابي وولى وهو يقول :

مطهرون نقيات جيوبهم   تجري الصلاة عليهم اينما ذكروا
وانتم انتم الاعلون عندكم   علم الكتاب وما جاءت به السور
من لم يكن علوياً حين تنسبه   فما له في جميع الناس مفتخر

وفي المجلد العاشر من البحار : « ان اعرابياً جاء الى الحسين (ع) يسأله فقال : يابن رسول الله قد ضمنت دية كاملة وعجزت عن ادائها ، فقلت في نفسي أسأل اكرم الناس ، وما رأيت اكرم من اهل بيت رسول الله ﷺ فقال الحسين (ع) يا اخا العرب اسألك عن ثلاث مسائل فان اجبت عن واحدة اعطيتك ثلث المال ، وان اجبت عن اثنتين اعطيتك ثلثي المال ، وان اجبت عن الكل اعطيتك الكل . فقال الاعرابي يابن رسول الله مثلك يسأل عن مثلي وانت من اهل العلم والشرف فقال الحسين (ع) بلى سمعت جدي رسول الله ﷺ يقول : المعروف بقدر المعرفة . فقال الاعرابي : سل عما بدا لك فان اجبت وإلا تعلمت منك ولا قوة إلا بالله . فقال الحسين (ع) : أي الاعمال افضل فقال الاعرابي الايمان بالله فقال فما النجاة من الهلكة . فقال الاعرابي الثقة بالله . فقال الحسين فما يزين الرجل . فقال الاعرابي علم معه حلم فقال : فان اخطأ ذلك . قال : مال معه مرؤة . قال : فان اخطأ ذلك . فقال فقر معه صبر . فقال الحسين فان اخطأ ذلك . فقال الاعرابي : فصاعقة تنزل من السماء وتحرقه فانه اهل لذلك . فضحك الحسين (ع) ورمى اليه بصرة فيها الف دينار ، واعطاه خاتمه وفيه فص قيمته مائتا درهم ، وقال : يا اعرابي اعط الذهب الى غرمائك واصرف الخاتم في نفقتك . فأخذها الاعرابي وقال : الله اعلم

حيث يجعل رسالته » .

ذكر السيد علي جلال الحسيني المصري في (كتابه الحسين) مانصه :
« إن الحسين (ع) كان جالساً في مسجد رسول الله ﷺ بعد وفاة اخيه الحسن (ع) وكان عبدالله بن الزبير جالساً في ناحية المسجد ، وعتبة بن ابي سفيان في ناحية اخرى ، فجاء اعرابى على ناقة فعقلها بباب المسجد ، ودخل فوقف على عتبة بن ابي سفيان فسلم عليه فرد عليه السلام ، فقال له الاعرابى اني قتلت ابن عم لي وطولبت بالدية فهل لك ان تعطيني شيئاً ؟ فرفع رأسه الى غلامه وقال : ادفع اليه مائة درهم . فقال الاعرابى ما اريد إلا الدية تماماً . ثم تركه واتى عبد الله بن الزبير ، وقال له مثل ما قال لعتبة . فقال عبد الله لغلامه : ادفع اليه مائتي درهم . فقال الاعرابى : ما اريد إلا الدية تماماً . ثم تركه واتى الحسين (ع) فسلم عليه وقال يا ابن رسول الله اني قتلت ابن عم لي وقد طولبت بالدية فهل لك ان تعطيني شيئاً ؟ فقال له : يا اعرابى نحن قوم لا نعطي المعروف إلا على قدر المعرفة . فقال : سل ما تريد . فقال له الحسين عليه السلام يا اعرابى ما النجاة من الهلكة . قال التوكل على الله عزوجل . فقال : وما الهمة . قال : الثقة بالله . ثم سأله الحسين غير ذلك ، وأجاب الاعرابى . فامر له الحسين (ع) بعشرة آلاف درهم وقال له هذه لقضاء ديونك ، وعشرة آلاف درهم اخرى ، وقال : هذه تلم بها شعثك ، وتحسن بها حالك ، وتنفق منها على عيالك .

فأنشأ الاعرابى يقول :

طربت وما هاج لي معبق ... ولا لي مقام ولا معشق
ولكن طربت لآل الرسول ... فلذ لي الشعر والمنطق
هم الاكرمون هم الانجبون ... نجوم السماء بهم تشرق

سبقت الانام الى المكرمات وانت الجواد فلا تلحق
ابوك الذي ساد بالمكرمات فقصر عن سبقه السبق
به فتح الله باب الرشاد وباب الفساد بكم مغلق

ودخل الاشجع السلمي على الامام الصادق (ع) فوجده عليلا ، فجلس وسأله عن حاله فقال له الصادق (ع) : تعد عن العلة واذكر ما جئت له . فقال :

ألبسك الله منه عافية في نومك المعتري وفي ارقك
يخرج من جسمك السقام كما اخرج ذل السؤال من عنقك

فقال (ع) : لغلامه ياغلام ايش معك ، قال اربع مائة قال : اعطها للاشجع

وجاء في الوسائل في باب الامر بالمعروف انه دخل على الامام موسى بن جعفر (ع) بعض الفقراء يسأله العطاء ، فأراد (ع) اختباره ليكرمه على مقدار معرفته فقال له : لو جعل لك التمني في الدنيا ما كنت تتمنى ؟ قال : كنت اتمنى ان ارزق التقية في ديني وقضاء حقوق إخواني . فاستحسن (ع) جوابه وامر بأن يعطى الف دينار .

إنا لا نكبر اهل البيت (عليهم السلام) فيما يصدر منهم من الهبات والجوائز ، لذوي الفاقة والحاجة ، مع ان في الاجواد من يعطي مثلها ، وانما المباهات بتلكم الصلات من حيث بلوغ الغاية المتوخاة في النائل المتدفق منهم ، فان الأئمة (عليهم السلام) متجهون الى نواحي شتى في نوالهم ، فلا يضعونها إلا في مواضعها المرغوب فيها ، وكثيراً ما سبب عطاؤهم هداية ضال أو ارشاد جاهل او صلة رحم مقطوعة او عرفان حقيقة مجهولة .

هكذا كان اهل البيت في سيبهم المتواصل ، يعرفون الملأ طريق رشدهم ويوجهونهم الى ما فيه سعادتهم ، وما يريده المولى سبحانه من مقابلة القطيعة بالصلة ، والجفوة بالموافاة ، والصد بالوصال ، والتنازل الى اليد السفلى بقصد

ابواب البائسين ، بما يحتاجونه من المؤن ، مع شرفهم الوضاح ومكانتهم العظيمة ، واكبار الناس لهم .

صفات السائلين وافعالهم :

منهم المكي : وهو الذي يأتيك وعليه سروال واسع دبيقي او نرسي ، وفيه تكة ارمنية قد شدها الى عنقه ، فيأتي المسجد ، فيقول : انا من مدينة مصر ابن فلان التاجر ، وجهني ابي الى مرو في تجارة ، ومعي متاع بعشرة آلاف درهم ، فقطع علي الطريق وتركت على هذه الحال ، ولست احسن صناعة ولا معي بضاعة وانا ابن نعمة ، وقد بقيت .

ومنهم السحري الذي يبكر الى المساجد من قبل ان يؤذن المؤذن .

والشجوي الذي كان يؤثر في يده اليمنى ورجليه حتى يرى الناس انه كان مقيداً مغلولا ، ويأخذ بيده تكة فينسجها يوهمك انه من الخلدية ، وقد حبس في المطبق خمسين سنة .

ومنهم الدرارحي الذي يأخذ الذراريح فيشدها في موضع من جسده من اول الليل ويبيت عليه ليلته حتى يتنفط ، فيخرج بالغداة عريان وقد تنفط ذلك الموضع وصار فيه القيح الاصفر ، ويصب على ظهره قليل رماد فيوهم الناس انه محترق .

ومنهم الحاجور : وهو الذي يأخذ الحلقوم مع الرئة ، فيدخل الحلقوم في دبره ، ويشرح الرئة على فخذه تشريحاً رقيقاً ويذر عليه دم الاخوين .

ومنهم الخاقاني الذى يحتال في وجهه حتى يجعله مثل وجه خاقان ملك الترك ويسوده بالصبر والمداد ، ويوهمك انه ورم وزكيم للمغالطة .

ومنهم السكوت الذي يوهمك انه لا يحسن ان يتكلم .

ومنهم الكان وهو الذي يواضع القاص من اول الليل على ان يعطيه النصف او الثلث فيتركه حتى اذا فرغ من الاخذ لنفسه اندفع هو فتكلم .

ومنهم المفلفل الرفيقان يترافقان فأذا دخلا مدينة قصدا انبل مسجد فيها فيقوم احدهم في اول الصف ، فأذا سلم الامام صاح الذي في آخر الصف بالذي في اول الصف يا فلان قل لهم . فيقول الآخر : قل لهم انت انا ايش فيقول قل ويحك ولاتستح . فلا يزالون كذلك وقد علقا قلوب الناس ينتظرون مايكون منهما ، فأذا علما انهما قد علقا القلوب تكلما بحوائجهما ، وقالا نحن شريكان ، وكان معنا احمال بر كنا حملناها من فسطاط مصر نريد العراق فقطع علينا وقد بقينا على هذه الحال لانحسن ان نسأل ، وليست هذه صناعتنا ، فيوهمان الناس انهما قد ماتا من الحياء .

ومنهم زكيم الحبشة الذي يأتيك وعليه دراعة صوف مضربة مشقوقة من خلف وقدام ، وعليه خف ثغري بلا سراويل ، يتشبه بالغزاة .

ومنهم زكيم المرحومة المكافيف يجتمعون خمسة وستة واقل واكثر ، وقائدهم يبصر ادنى شيء ، عينه مثل عين الخفاش يقال له الاسطيل ، فهو يدعووهم يؤمنون .

ومنهم الكاغاني الذي يتجنن او يتصارع ، ويزبد حتى لا يشك احد في جنونه ، وانه لا دواء له لشدةماينزل به .

ومنهم القرسي وهو الذى يعصب ساقيه او ذراعيه عصباً شديداً ، ويبيت على ذلك ليلة ، فأذا تورم واحتقن فيه الدم مسحه بشيء من صابون ودم الاخوين وقطر عليه من سمن البقر واطبق عليه خرقة ، ثم كشف بعضه فلا يشك من رآه انه آكلة نعوذ بالله منها

ومنهم المشعب الذي يحتال للصبي حين يولد بان يزمنه أو يعميه ليسأل به

الناس ، وربما جاءت أمه او يجيىء أبوه فيتولى ذلك ، فاما ان يكسبابه أو يكرياه ، فان كان عندها ثقة وإلا أقام بالاولاد والاجرة كفيلا .

ومنهم الفيلور : وهو الذى يحتال لخصيتيه حتى يريك انه آدر ، وربما أراك ان بها شرطا او جرحاً ، وربما اراك ذلك في دبره ، وتفعل المرأة ذلك بفرجها .

ومنهم الكاخان الغلام المكدي اذا واجر وعليه مسحة من جمال وحمل العملين جميعاً .

والعوام الذي يسأل بين المغرب والعشاء ويطرب في صوته .

ومنهم الاسطيل : وهو المتعامي الذي ان شاء اراك انه أعمى وان شاء اراك انه ممن نزل في عينه الماء وان شاء اراك انه لا يبصر .

ومنهم المزيدي : وهو الذي يدور ومعه دريهمات يقول هذه دريهمات قد جمعت لي في ثمن قطيفة ، فزيدوني فيها رحمكم الله .

ومنهم المستعرض الذي يعارضك وهو ذو هيئة في ثياب صالحة ، يريك انه يستحي من المسألة ، ويخاف ان يراه معرفة ، فيعرض لك اعتراضاً ويكلمك خفياً .

ومنهم المطين وهو الذي يطين نفسه من قرنه الى قدمه ، ويأخذ البلاذر يريك انه يأكل البلاذر .

حق من سرك

قوله (عليه السلام) :

« وحق من سرك لله تعالى أن تحمد الله عزوجل أولاً ثم تشكره على ذلك بقدره في موضع الجزاء ، وكافأته على فضل الابتداء ، وأرصدت له المكافاة إن تعمدها لك ، وإن لم يكن تعمدها حمدت الله أولاً ثم شكرته ، وعلمت أنه منة توحدك بها ، وأحببت هذا إذ كان سبباً من أسباب نعم الله عليك ، وترجو له بعد ذلك خيراً ، فان أسباب النعم بركة حيثما كانت » .

* * *

إن بواعث الأعمال ، وأساس الأفعال الانسانية ، قد تكون غريزة وقد تكون عاطفة ، وهذه لانعدها في الاخلاق الانسانية ، فالخلق عمل صادر عن إرادة وتفكير ، وغرض وتصور ،

الغرض لابد ان يكون حسنه لذاته ، وجماله لذاته ، والذاتي لايعلل ونفعه للفرد نفسه ، كالصدق والشجاعة ، وقد يتعدى الفرد وقد يكون متمحضاً نفعه للمجتمع ، كالعدل والأمانة والوفاء .

ونقدر ان نجمل الاشارة الى الخلق : بأنه طريق السعادة للفرد الانساني او المجتمع الانساني ، وإن الاشارة قد توضح المعنى اكثر من التحديد المنطقي ، لأن الحدود والرسوم قد توقع المعنى في عسر ، والناظر في ضيق فيضيع الغرض المقصود امام صناعة لفظية .

في الامة الاسلامية طرأت تغيرات على مفاهيم الاخلاق ، فعلى عهد الرسول وآله وصحابته كان الخلق يدل على مفهوم يعين على الحياة الفاضلة .

وهو طريق السعادة الانسانية ، ويدل على معنى إيجابي ذي صدى بعيد في تكوين الحياة العاملة الطاهرة .

ولما جاء دور الانحطاط وشاع التصوف ، وذهب الامر من العرب إلى قوم آخرين : كالترك ، والتتر ضاع المفهوم الايجابي وحلت النواحي السلبية ، فبعدت الاخلاق عن الحياة الاجتماعية وأصبحت الاخلاق اداة من ادوات الانحلال والانكماش والانعزالية . وأصبحت امهات الفضائل : الزهد والتوكل والتسليم والرضا والقناعة ، وهذه هي التي ذكرهـــا السبزواري في منظومته ، وكانت هذه اخلاق المتصوفة ، الذين اقصى همهم في الحياة ، الفنا . حتى السعادة التي يطلبها هؤلاء الناس لم تعد سعادة توجد على الارض ، أوفي دار الدنيا ، بل انحصر وجودها في انظارهم في العالم الاخروي وأصبح اصلاح الحيـاة ورقي الحياة والرفاهية في الحياة شيئاً ممقوتاً وعملا مبعداً من الله وعمران الدنيا من عمل اهل الدنيا ، الذين ليس لهم في الآخرة من خلاق ، ولا في مرضاة الله من نصيب ؛ فكان لنا مؤلفات في الاخلاق : كالاحياء وجامع السعادات ومن حذا حذوهما ، كتب تعلم الناس كيف يموتون ، لا كيف يعيشون ، وجديرة بأن ينظر فيها من بلغ الستين لا أن تكون هدى للشباب الحائر ، ومشجعاً للنشء الخائف ، ولاموجهاً للرجل المتطلع الطامح .

إن كتب الاخلاق عند اليونان ، وكتب الاخلاق في اوربا ، تعلم الناس كيف يعيشون في مجتمع فيه منافع وشهوات ، وفيه رذائل وجرائم وترشد الشباب الى اقرب طرق السعادة ، وتوجههم الى الاحتفاظ بنزاهتهم وطهارتهم في اجواء فيها قذارة وفيها رجاسة ، تعلمهم لتكون روابطهم بالمجتمع اوثق وبأوطانهم اشد ، وتعلمهم الاحتفاظ بشخصياتهم ، فلا تذوب

ولاتنحل ، ولا يطغى عليها جانب عاصف من جوانب الحياة ، ولا يتساقطون إذا مارت الارض تحت اقدامهم .

إن المأثور عن اهل البيت (عليهم السلام) ثروة عظيمة تعلم الناس كيف يكونون سعداء ، وكيف يكونون فضلاء ، وكيف يتصلون بمجتمعاتهم اتصالا لايخشى عليه ان ترث حباله او تقطع اوصاله او يعفى عليه الزمن

إن التعاليم الاخلاقية الاسلامية التي انتهت الينا من الرسول وآله لاتحول بيننا وبين العلم ، الذي هو اساس حضارتنا ، ولاتمنعنا الثروة التي هي مظهر الحضارة ، ولاتصدنا عن اللذائذ والمتعات والطيبات التي هي جزء من حياتنا ، ولا تباعد بيننا وبين السعادة التي هي غاية كل مفكر وهدف كل عاقل ، ومثالية كل طامح ، بل التعاليم تأخذ بأيدينا في مفترق هذه الطرق ، وتقينا التيارات المتضاربة العنيفة ، وتلفتنا الى المزالق التي يكمن فيها الخطر .

إن تقدم الانسان مادياً يبعث على الدهشة ، وعرف من الوان الرفاهية والنعيم مايشبع فهمه ، ويروي غرائزه . ومع هذا التقدم المادي فالفلاسفة وأقطاب السياسة والمصلحون لايزالون يعلنون : ان حقوق الانسان مقدسة ، يجب المحافظة عليها . والسياسة مهما سمت ديمقراطيتها وتقدمت مبادئها في المحافظة على الافراد والشعوب ؛ فلا تعدو ان تحقق العدل في توزيع الحقوق ، والأموال ، وتهيئة وسائل السعادة للامم ، وإفساح المجال للحرية بأنواعها المختلفة ، لتظهر العقول مقدرتها ، والرجال عبقريتها في مختلف الميادين ، ولاستيفاء المظلوم حقه في التقاضي .

فالسياسة تتجه نحو للنفعة ، ولاتمس روحية الانسان وتهذيب طبعه . والاخلاق هي تتولى ذلك ، وأثر اعمال الفلاسفة اصبح واضحاً

ملموساً ، فالانسانية بدأت تتقدم في التحلي بالفضيلة تقدماً نحس اثره ونسمع صداه والامل يزداد يوماً فيوماً في تقدم الانسان نفسياً وتهذيبه روحياً ، وإن كان التقدم بطيء الخطى فاتر السير .

وآل محمد (صلوات الله عليهم) كانوا يبثون تعاليم ترشدنا الى السعادة التي هي حلم كل حالم ، وأمل كل عامل ، بل اكثر من هذا نستطيع ان نستفيد من الاخلاق التى علمها الرسول وآله ان المتحلي بها ، والذي يصوغ نفسه على قالبها ويكيف شخصيته بشكلها ، يصل الى مرتبة فوق السعادة بأن تكون نفسه في قواها الخيرة ، وملكاتها النيرة ، ومواهبها السمحة ، وجبلتها الصافية شبيهة بنفوس الأنبياء وروحانيتهم .

إن الاخلاق التى تحيا عليها المجتمعات ، وتأمر بها الاديان ، وترشد اليها الفلسفة : هي الفضائل التى تعين على تهذيب النفس وتزيد الانسان علاقة بالمجتمع ، وقياماً بالحقوق والواجبات ، وكلما كان حظ الانسان اكثر من الفضائل كانت الانسانية فيه اظهر ، وكلما قل نصيب الانسان من حيازة الفضائل والتحلي بها كان حظه من الوحشية أغزر .

قال الامام الصادق قال النبي ﷺ : « ألا أخبركم بأشبهكم بي قالوا : بلى يارسول الله قال : احسنكم خلقاً وألينكم كنفاً وأبركم بقرابته وأشدكم حباً لاخوانه ، وأصبركم على الحق اكظمكم للغيظ ، وأحسنكم عفواً وأشدكم من نفسه انصافا في الرضا والغضب » .

وقال (ص) : « خصلتان من الخير ليس فوقهما شيء من البر : الايمان بالله ، والنفع لعباد الله » .

وسئل من احب الناس لله ؟ قال : أنفع الناس للناس » .

وقال ، « الخلق عيال الله وأحب الخلق الى الله من نفع عيال الله ،

وأدخل على اهل بيت الله سروراً » .

وقال (ص) : «إن احب الأعمال الى الله عزوجل إدخال السرور على المؤمنين» .

وقال الامام الباقر ﷺ : « إن فيما ناجى الله عزوجل به عبده موسى (ع) قال : إن لي عباداً ابيحهم جنتي وأحكمهم فيها ، قال : يارب ومن هؤلاء الذين تبيحهم جنتك وتحكمهم فيها ؟ قال : من ادخل على مؤمن سروراً » .

وعن أبان بن تغلب قال : سألت اباعبد الله (ع) عن حق المؤمن على المؤمن فقال (ع) : « حق المؤمن على المؤمن اعظم من ذلك ، لوحدثتكم لكفرتم إن المؤمن إذا خرج من قبره خرج معه مثال من قبره ، يقول له إبشر بالكرامة من الله والسرور ، فيقول له بشرك الله بخير : قال : ثم يمضي معه يبشره بمثل ماقال ، وإذا مر بهول قال : ليس هـذا لك ، وإذا مر بخير قال : هذا لك ، فلا يزال معه يؤمنه مما يخاف ويبشره بما يحب حتى يقف معه بين يدي الله عزوجل ، فاذا امر به الى الجنة قال له المثال : ابشر فان الله عزوجل قد امر بك الى الجنة ، قال : فيقول من انت رحمك الله تبشرني من حين خرجت من قبري ، وآنستني في طريقي وخبرتني عن ربي ؟ قال : فيقول انا السرور الذي كنت تدخله على إخوانك في الدنيا ، خلقت منه لأبشرك وأونس وحشتك » .

وعنه (ع) قال : « أوحى الله عزوجل الى داود (ع) إن العبد من عبادي ليأتيني بالحسنة فأبيحه جنتي ، قال فقال داود : يارب وما تلك الحسنة . قال : يدخل على عبدي المؤمن سروراً ولو بتمرة . قال فقال داود (ع) : حق لمن عرفك ان لا يقطع رجاءه منك » .

وقال امير المؤمنين علي (ع) (لكميل بن زياد النخعي) : « ياكميل مر أهلك ان يروحوا في كسب المكارم ، ويدلجوا في حاجة من هو نائم ،

فو الذي وسع سمعه الأصوات مامن احد اودع قلباً سروراً إلا وخلق الله من ذلك السرور لطفاً ، فاذا نزلت به نائبة جرى اليها كالماء في انحداره حتى يطردها عنه كما تطرد غريبة الابل » .

وحديث إدخال السرور على المؤمن متوفر ، وهو في طليعة علم الاخلاق ولعله من اشرفها وأفضل خصال الخير وأعمال البر ، كما يظهر لنا من الحديث « إنه ماعبد الله بشيء أحب اليه من إدخال السرور على المؤمن » .

ومن هنا نرى الامام السجاد (سلام الله عليه) افرد لهذه الظاهرة عنواناً مستقلا بذاته ، فرسم خطوطها ، واستعرض مفاهيمها بعبارة نيرة وأسطر عبقة وأوضح لنا الحق الذي يجب له من الشكر والتكريم بقوله : « وحق من سرك الله به ان تحمد الله أولا ، ثم تشكره على ذلك بقدره في موضع الجزاء .. » .

وحينما نقرأ هذا النص يتجلى لنا بوضوح ان من يدخل المسرة على اخيه المؤمن ، لابد ان يكون ذاك باذن الله تعالى ومشيئته ، فالله سبحانه إذن اولى بالشكر والحمد والثناء ، فاللازم ان يشكر اولاً ، لأنه المسبب لهذا السرور ثم الشكر للشخص الذي صار واسطة للسرور ، فيشكر شكراً يليق به لازيادة فيه ولانقصان ، والقيام بمكافأته ومبادلته الجميل بالجميل والاحسان بالاحسان .

والاشخاص الذين يدخلون السرور في نفوس الآخرين على نوعين : فأما ان يكون ذلك صادراً عنهم بارادتهم واختيار منهم ، فهؤلاء بطبيعة الحال يستحقون من الشكر الشيء الكثير ، وان لم يكن ما عملوه صادراً عن إرادة واختيار وإنما جاء من طريق العفو وبصورة تلقائية دون قصد وتوخ فان من اللازم ان تحمد الله اولاً ، ثم العلم ان ذلك السرور منة منه تعالى اختصك بها ونعمة جزيلة توحدك بها .

ولأن تعرف لذاك الشخص حقه إذ كان السبب لتلك النعمة ووساطة من وسائط الخير لذلك من الحق الدعاء له بالخير ومنحة التوفيق .

حق من ساءك

قوله (عليه السلام):

« وحق من أساءك ، ان تعفو عنه ، فان علمت ان العفو يضره انتصرت ، قال الله تبارك وتعالى « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل ». (وقال تعالى « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » هذا في العمد ، فان لم يكن عمداً لم تظلمه بتعمد الانتصار منه ، فتكون قد كافأته في تعمد على خطأ ، ورفقت به ورددته بألطف ماتقدر عليه) » .

* * *

صرخة حق في وجه الشر .

دعوة وداعة ومحبة في ليل الحقد والضغينة .

نور وضاح في دياجير الظلمة .

في وسط إطلالة البشر على الدنيا بمتاعبها وآلامها ، عند الفجر ، فجر العالم الانساني ، وقف مؤذن ينادي للقداسة ويدعو للتطهير ، ويبحث عن الحقيقة ويبحث عن الخلاص . فوجد الحقيقة وأدرك مشكلة الألم وعرف سر الحياة ، واندغم الخلق النبيل باللذة الدائمة .

فكانت نفس بلا إزد واجيات ، ومناقضات داخلية بلا عراك ، وخلاف بين الاهواء والغرائز ؛ بين الميول والعقل . كان ذلك في هنيهة خلود بشري انبجس في نسيج الفناء والوهم .

ذلك هو الامام زين العابدين (ع) الذي يملأ القلب بتعاليمه وداعة ونعمة وينعم النفس محبة وطهراً ، ويشرق على الذات فيضاً نبيلاً في الروحية والتجاوز

الخلق أوالتسامي .

هذه القمة اوالجنة الأرضية التي يصل اليها الممارس ، هي بالفعل حالة السمو والتسامي التي يقال عنها انها من العلوم اللدنية ، او العلوم التي لا تشرح وتفسر وانما تفهم وتحس بالذوق والحال ، وقديماً قال احد المتصوفة في وصف هذه الحالة

من ذاق طعم شراب القوم يدريه ومن دراه غدا بالروح يشريه

والحقيقة ان ماقاله هذا مايزال صحيحاً حتى اليوم .

فالامام (وعلى ذكره السلام) في طريقه مواجهة الحياة ، وطريقه في التعد والوصول الى المطلق والاتصال بالذات العليا ، نفهمها ونتذوقها اكثر من قدرتنا على تعليلها وتحليلها ، إذأنها شيء يمس ذات الانسان الداخلية ، بل ما هواسمى واكثر الامور داخلية في الانسان .

ومهمة الامام في هذا الحقل تربية الضمير وتنقية المجتمع من الشوائب ، من الشر وجرثومة الفساد . ولم يعن إلاالقضاء على مرض الانانية الكامن في النفوس .

هذه من القواعد الفردية والاجتماعية التى نشر الامام اريجها على جميع الناس

لقد شاهد الحياة بعين حكمته مشحونة بالآلام والكوارث ، ورآى ماتناله بها من راحة لايعدو رفع الألم ، فخفف من اوزار النفس وأفسح لها مستقبل الأمل لتستطيع اجتياز صراط الحياة بسهولة وأمان . وأعلن ان الأمل رحمة للافراد في معاشهم ، ورصيد للشعوب التى كبت في ميدان الحياة ، يجدد نشاطها ويطلق ألسنتها ويخلع عليها ثوب ولادة جديدة .

أرأيته وهو يقول : « وحق من أساءك ان تعفوعنه » فانه اولى بك لما فيه له من القمع وحسن الأدب« » فمن يتقدم بالعفو فهو في المقام الرفيع ، وغيره يتقدم بالاساءة فهو في المكان الدون • « لاتستوي الحسنة ولاالسيئة » لارد

الاساءة بالاساءة ، فان العفو لايستوي اثره ـ كما لاتستوي قيمته مع الاساءة والصبر والاستعلاء على رغبة النفس في مقابلة الشر بالشر ٠

يرد النفوس الجامحة الى الهدوء والثقة ، فتنقلب من الخصومة الى الولاء ومن الجماح الى اللين« ادفع بالتي هي احسن ، فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم».

وتصدق هذه الظاهرة في الغالبية الغالبة من الحالات ، وينقلب الهياج الى وداعة ، والغضب الى سكينة ، والتبجح الى حياء ، على كلمة طيبة ونبرة هادئة ، وبسمة حانية : في وجه هائج غاضب متبجح مفلوت الزمام ! ولو قوبل بمثل فعله إزداد هياجاً وغضباً وتبجحاً ومروداً . وخلع حياءه نهائياً ، وأفلت زمامه وأخذته العزة بالاثم .

بيد ان الصفح والسماح في حاجة الى قلب كبير يعطف ويسمح وهو قادر على الاساءة والرد . ولايلقاها الا ذوحظ عظيم . والقدرة هذه ضرورية لتؤتي السماحة اثرها . حتى لايصور العفو في نفس المسيء ضعفاً ، فيندك ويتلاشى اثره .

وقد يكون العفو ضاراً بالمسيىء في بعض الحالات:

١ ـ إذا كان المسيء يتصور العفو صادراً بسبب العجز ٠

٢ ـ إذا كان العفو مشجعاً له على العود الى الاساءة .

٣ ـ إذا كان المسيء يتصور حين يعفى عنه ، إنه لم يقم باساءة ، ولم يصدر منه من المكروه مايكون العفو معه إحساناً ولطفاً .

في هذه المواضع لايكون العفو جميلا ، وعلى العكس يكون مضراً ، فاذا كان العفو حينئذ لايؤدي إلا الى الضرر ، وجب الانتصار والقصاص ورد الاعتداء بمثله ، بموجب قوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم » . وبموجب قوله تعالى : « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك

ماعليهم من سبيل » . وقوله : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » .

هذا كله في صورة العمد ، اما إذا كانت الاساءة صادرة على وجه الخطأ فالأمر يختلف تماماً عن الصورة الأولى ، فهنا لا ينبغي الرد بالمثل ، لأن المفروض انه لااعتداء حتى يكون قصاص ، فلا يحسن ان يوجه الرد اليه ، فيعتبر ظلماً وتحدي ، ولأجل ذلك عبر الامام (ع) بهذا التعبير : « فان لم يكن عمد لم تظلمه ٠٠٠ » لأنك إذا انتصرت وانتقمت منه تكون قد كافأته عامداً على عمل قام به خاطئاً . فالواجب هو الرفق واللطف والرد بألطف وسيلة تقدر عليها .

العفو عن المسيء جماع مكارم الأخلاق

وحسبك في هذا الباب ما فعله النبي (ص) مع مشركي قريش الذين آذوه واستهزءوا به وأخرجوه من دياره وأصحابه ، ثم قاتلوه وحرضوا عليه غيرهم من مشركي العرب ، حتى تمالأ عليه جمعهم ، ثم لما فتح الله عليه مكة مازاد عن ان عفا وصفح ، وقال : ماترون اني فاعل بكم ؟ قالوا خيرا ، اخ كريم وأبن اخ كريم . فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وعن انس : قال كنت مع النبي (ص) وعليه برد غليظ الحاشية ، فجذبه اعرابي بردائه جذبة شديدة حتى اثرت حاشية البرد في صفحة عنقه (ص) ثم قال : يامحمد ، احمل لي على بعيري هذين من مال الله الذي عندك ، فانك لاتحمل لي من مالك ولا من مال ابيك . فسكت النبي (ص) ، ثم قال : المال مال الله وأنا عبده ، ثم قال : ويقاد منك يأعرابي مافعلت بي ؟ . قال : لا . قال : لم ؟ قال : لأنك لاتكافيء بالسيئة السيئة ! ! فضحك (ص) ثم أمر ان

يحمل له على بعير شعير ، وعلى الآخر تمر .

وظفر علي (ع) بأهل البصرة ، فلما دخلها واجتمع عليه اهلها ، خطبهم وقال : ياأهل البصرة ياجند المرأة وأتباع البهيمة ، رغى فرجفتم ، وعقر فانهزمتم أحلامكم رقاق ، وعبيدكم شقاق ، وأنتم فسقة مراق ، .. ياأهل البصرة نكثتم بيعتي وتضاهرتم على عداوتي ، فما تروني صانعاً بكم وما تظنون بي قالوا : نظن خيرا ونعلم انك ظفرت وقدرت ، فان عاقبت فقد استحققنا عقوبة المجرمين ، وإن عفوت فالعفو احب الى رب العالمين . فأطرق (ع) برأسه الى الارض ، ثم رفع رأسه وقال : اذهبوا وإياكم والفتنة ، فانكم اول من شق عصا الامة ونكث البيعة ، فأخلصوا الى الله التوبة .

خرج الامام زين العابدين علي بن الحسين (عليهما السلام) الى المسجد فسبه رجل ، فقصده غلمانه ليضربوه ويؤذوه ؛ فنهاهم (ع) وقال لهم : كفوا ايديكم عنه . ثم التفت الى ذلك الرجل وقال : ياهذا ، انا اكثر مما تقول وما لاتعرفه مني اكثر مما عرفته . فان كان لك حاجة في ذكره ذكرته لك . فخجل الرجل واستحيا فخلع عليه زين العابدين قميصه ، وأمر له بألف درهم فمضى الرجل وهو يقول : اشهد ان هذا الشاب ولد رسول الله (ص) .

ذكر ابن خلكان في ترجمة مجدالملك ابن شمس الخلافة ، احد وزراء الخلفاء في مصر المتوفى في حدود الستمائة ، إن هذا الوزير ذكر في كتاب له ألفه في محاسن المحاضرة وآداب المسامرة . فقال : إن عصام ابن المصطلق ، وكان شامياً امويا قال : دخلت المدينة فرأيت الحسين بن علي (سلام الله عليهما) ومعه غلمانه وحاشيته ، فأعجبني سمته ورواؤه ، وحسنه وبهاؤه وآثار الحسد ما كان يخفيه صدري لأبيه من البغض ، فجئت اليه وقلت انت بن ابي تراب . فقال : نعم فبالغت في شتمه وشتم ابيه فنظر الي نظر عاطف رؤف برقة ورحمة ، ثم قال :

« أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ، إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذاهم مبصرون، وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون ثم قال: لي خفض عليك استغفر الله لي ولك ، إنك لو استعنتنا لأعناك ، ولو استرفدتنا لرفدناك ولو استرشدتنا لأرشدناك . قال عصام : فندمت على ما قلت وتوسم مني الندم على ما فرط مني . فقال : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين » ثم قال : امن اهل الشام انت ؟ قلت نعم . فقال (ع) : (شنشنة اعرفها من اخزم) حيانا الله وإياك انبسط الينا في حوائجك ومايعرض لك تجدنا عند أفضل ظنك إن شاء الله . قال عصام : فضاقت علي الارض بما رحبت ووددت لو أنها ساخت بي ، ثم انسللت من بين يديه لواذاً وما على وجه الارض احب الي منه ومن أبيه » .

وفي أعلام الورى ، تأليف (الطبرسي) ، وتاريخ بغداد ، للخطيب البغدادي إن رجلاً من ولد آل الخطاب كان بالمدينة ، يؤذي أبا الحسن موسى الكاظم (ع) إذا رآه ويشتم علياً (ع) فأراد بعض موالي الامام الوقيعة فيه ، فنهاه الامام ابو الحسن (ع) اشد النهي . ثم سأل (ع) عن العمري فقيل له إن له زرعاً بناحية من نواحي المدينة ، فركب (ع) إليه فوجده في زرعه ، فدخل المزرعة وهو راكب على حماره ، فصاح به الخطابي لا تطأ زرعنا فوطئه أبو الحسن بالحمار ، ولم يلتفت اذ لم يجد طريقا يسلكه غير ذلك حتى اذا وصل اليه نزل وباسطه في القول وسأله عما غرمه في زرعه ، فقال غرمت مائة دينار ثم سأله عما يرجو ان يصيب منه ، قال مائتي دينار ، فدفع اليه أبو الحسن ثلثمائة دينار لما غرمه ولما يرجوه ، وبشره بسلامة زرعه وانتاجه ما يرجوه ، ففرح العمري بهذا الخلق الكريم الممتزج بالحلم والسخاء والبشارة بنتاج عمله ، فصاح

الله اعلم حيث يجعل رسالته • وقبل رأسه ويده وسأله الصفح عما فرط من القول فيه . فتبسم ابوالحسن (ع) وانصرف الى اصحابه يقول : ايما احسن ما اردتم او ما صنعته ، انني اصلحت امره بالمقدار الذي عرفتم . وهدى الله الرجل وصار من مواليه .

من أنبل ضروب العفو مقابلة الإساءة بالاحسان

لاغرو أن كريم الاخلاق لايكون حقوداً ، ولا حسوداً ، ولا باغياً ، ولا ساهياً ، ولا لاهياً ، ولا فاجراً ، ولا فخورا ولا كاذبا ولا ملولا ، ولايقطع إلفة ، ولا يؤذي إخوانه ولايضيع الحفاظ ولا يجفو في الوداد ، يعطي من لايرجو ويؤمن من يخاف ، ويعفو عن قدرة ، ويصل عن قطيعة ، وهو من يلين إذا استعطف . واللئيم يقسو إذا ألطف ، والكريم يجل الكرام ولا يهين اللئام ولا يؤذي العاقل ، ولا يمازح الأحمق ، ولا يعاشر الفاجر ، يؤثر اخوانه على نفسه ، ويبذل لهم ماملك ، واذا اعطى اخاه من نفسه الاخاء لم يقطعه بشيء من الاشياء . قال المقنع الكندي :

فاذا الذي بيني وبين عشيرتي ... وبين بني عمي لمختلف جدا
إذاقدحوا لي نارحرب بذنبهم ... قدحت لهم في كل مكرمة زندا
وان اكلوا لحمي وفرت لحومهم ... وان هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم ... وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
وأعطيهم مالي إذا كنت واجدا ... وان قل مالي لم اكلفهم رفدا

قال الشعبي : « إن كرام الناس اسرعهم مودة وأبطؤهم عداوة ، مثل الكوب من الفضة يبطىء الانكسار ويسرع الانجبار .وإن لئام الناس ابطؤهم

مودة ، وأسرعهم عداوة : مثل الكوب من الفخار يسرع الانكسار ويبطىء الانجبار » .

ومن رائع ما أثر في العفو عند القدرة ، ما روي عن المأمون أنه لما خرج عمه ابراهيم بن المهدي عليه ، وبايعه العباسيون بالخلافة ببغداد ، وخلعوا المأمون وكان إذ ذاك بخراسان ، فلما بلغه الخبر قصد العراق ، فلما دخل بغداد اختفى ابراهيم بن المهدي ، وعاد العباسيون وغيرهم الى طاعة المأمون ، ولم يزل المأمون متطلبا لابراهيم حتى أخذه مستنقبا مع نسوة ، فحبس ثم احضر حتى وقف بين يدي المأمون ، فقال : السلام عليك ورحمة الله وبركاته . فقال له المأمون : لاسلم الله عليك ولا قرب دارك ، استغواك الشيطان حتى حدثتك نفسك بما تنقطع دونه الاوهام . فقال ابراهيم : مهلا ياأمير المؤمنين فان ولي الأمر يحكم في القصاص والعفو ، والعفو أقرب للتقوى ، ولك من رسول الله (ص) شرف القرابة وعدل السياسة ، ومن تناول الاغترار بما مد له من اسباب الرجاء أمن عادية الدهر على نفسه ، وهجمت به الايام على التلف ، وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب ، كما جعل كل ذنب دونك ، فان اخذت فبحقك ، وان عفوت فبفضلك ، والفضل اولى بك يا أمير المؤمنين ثم قال :

ذنبي اليك عظيم وانت أعظم منه
فخذ بحقك أولا فاصفح بعفوك عنه
إن لم أكن في فعالي من الكرام فكنه

فلما سمع المأمون كلامه وشعره ظهرت الدموع في عينيه وقال : ياابراهيم القدرة تذهب بالحفيظة ، والندم توبة وبينهما عفو الله ، وهو اعظم مما يحاول واكثر مما يؤمل ، ولقد حبب الي العفو حتى خفت ألا أوجر عليه . لاتثريب عليك . ورد امواله جميعها اليه . فقال فيه مخاطباً :

رددت مالي ولم تمنن علي به   وقبل ردك مالي قد حقنت دمي
فان جحدتك ما أوليت من كرم   إني لباللؤم اولى منك بالكرم

ومن ذلك ماروي من ان الرشيد بن المهدي ، خرج عليه خارجي رام زوال ملكه وإفساد دولته ، فجهزله جيشا وأنهض الناس والجند للخروج لقتاله ، فلما توجه الجيش اليه وظفروا به احضروه إلى دار الخلافة ، فلما دخل على الرشيد قال له · ماتريد ان اصنع بك ؟ قال : اصنع بي ماتريد ان يصنع الله بك إذا وقفت بين يديه ، وهو اقدر عليك منك علي فاطرق الرشيد مليا ، ثم رفع رأسه وأمر باطلاقه ، فلما خرج قال بعض الحاضرين : يا أمير المؤمنين تقتل رجالك وتفنى اموالك وتظفر بهذا الذي خرج عليك وأفسد في بلادك وتطلقه بكلمة واحدة ! ! تأمل يا أمير المؤمنين هذا الامر فانه يجرىء عليك اهل الفساد · فامر الرشيد برده ، فلما عاد ومثل بين يديه علم انه قد سعي به ، واشير على الخليفة بقتله ، فقال يا أمير المؤمنين ، لاتطع فيّ مشيراً يمنعك عفواً تدخر به عند الله يداً ، ويبعثك على الانتقام الذي ليس من مكارم الاخلاق ، واقتد بالله تعالى فانه لو أطاع فيك مشيراً ما استخلفت طرفة عين ، وأحسن كما أحسن الله اليك · فامر باطلاقه وقال لاتعاودوني فيه .

مثل رائع من أمثلة مقابلة الاساءة بالاحسان :

حكي أن المأمون اشرف يوما على قصره ، فرآى رجلا يكتب بفحمة على حائط قصره ، فقال لبعض خدمه : اذهب الى ذلك الرجل فانظر ما كتب وائتني به . فبادر الخادم الى الرجل مسرعاً وقبض عليه ، وقال : ما كتبت ؟ فاذا هو قد كتب بيتين اولها :

ياقصر جمع فيك الشؤم واللؤم متى يعشش في أركانك البوم

ثم إن الخادم قال له أجب أمير المؤمنين . فقال الرجل سألتك بالله لاتذهب بي اليه . فقال الخادم لا بد من ذلك . ثم ذهب به فلما مثل بين يدي المأمون ، وأعلم بما كتب ، قال له المأمون : ويلك ! ماحملك على هذا . فقال : ياامير المؤمنين انه لايخفى عليك ماحواه قصرك هـذا من خزائن الاموال والحلل والطعام والشراب ، والفرش والاواني والأمتعة والجواري والخدم وغير ذلك مما يقصر عنه وصفي ، ويعجز عنه فهمي ، واني قد مررت عليه الآن وانا في غاية الجوع والفاقة ، فوقفت مفكراً في أمري ، وقلت في نفسي : هـذا القصر عامر عال . وأنا جائع ولا فائدة لي فيه ، فلو كان خراباً ومررت به لم أعـدم رخامة او خشبة او مسمارا ابيعـه وأتقوت بثمنه ، او ما علم أمير المؤمنين رعاه الله قول الشاعر :

إذا لم يكن للمرء في دولة امرىء نصيب ولاحظ تمنى زوالها

وما ذاك من بغض له غير انه يرجي سواها فهو يهوى انتقالها

فقال المأمون . ياغلام اعطه الف درهم . ثم قال هي لك في كل سنة مادام قصرنا عامرا بأهله مسرورا بدولته .

وأنشدوا في معنى ذلك :

إذا كنت في أمر فكن فيه محسناً فعما قليـل انت ماض وتاركه

فكم دحت الايام ارباب دولة وقد ملكوا اضعاف ماأنت مالكه

صفح وأريحية :

مما حكي انه كان بين غسان بن عباد ، وبين علي بن عيسى عداوة عظيمة ، وكان الاخير ضامنا اعمال الخراج والضياع ببلده ، فبقيت عليه بقية مقدارها اربعون الف دينار ، فألح عليه المأمون بطلبها وامهله ثلاثة ايام ، فان احضر

المال وإلا يضرب بالسياط حتى يؤديه او يتلف . فانصرف علي من دار المأمون آيساً من نفسه ، وهو لايدري وجها يتجه اليه ، فدله كاتبه على غسان بن عباد فقال له : على ما بيني وبينه من العدواة ؟ فقال : نعم . فان الرجل اريحي كريم : فلما دخل على غسان تلقاه بالجميل ، وقال له : إن دخولك الى داري له حرمة توجب بلوغ مارجوته مني مع ما بيننا من العداوة ، فاذكر حاجتك . فقص عليه قصته ، فقال : ارجو ان يكفيكه الله تعالى ، ولم يزد على ذلك شيئا ، فنهض علي وخرج آيساً نادماً على قصده ، غير انه لم يصل الى داره حتى حضر اليه كاتب غسان ومعه المال وسلمه اليه ، فأخذه واسرع الى دار المأمون ، فوجد غسان قد سبقه اليها ودخل على الخليفة ، وقال : ياامير المؤمنين إن لعلي بن عيسى بحضرتك حرمة وخدمة ، وقد لحقه من الخسران في ضمانه ما تعارفه الناس ، وقد توعدته بما اطار عقله ، فان رآى امير المؤمنين ان يخفف عنه بعض ماعليه فهي صنيعة ومنة . ولم يزل يتلطف به الى ان حط عنه النصف ، فقال غسان : على ان يشرفه امير المؤمنين بخلعة تقوي نفسه ويعرف بها مكان الرضا عنه . فاجابه المأمون الى ذلك ، وخرج علي بالخلعة ، ولما وصل الى داره ارسل الى غسان عشرين ألف دينار وشكره على جميع فعله معه ، فرفض غسان قبول المبلغ ، وقال لكاتبه : اني لم اشفع له عند امير المؤمنين الا لتوفر عليه وينتفع بها . فعلم عيسى فضل غسان عليه ولم يزل يخدمه الى آخر العمر .

كرم وعفو :

يحكى عن معن بن زائدة انه اتي بجملة من الاسرى فعرضهم على السيف ، فقال له بعضهم : اصلح الله الامير ، نحن اسراك ، وبنا جوع وعطش فلا تجمع علينا الجوع والعطش والقتل . فامر لهم بطعام وشراب فاكلوا وشربوا ، ومعن ينظر اليهم ، فلما فرغوا قال الرجل : اصلح الله الامير ، كنا أسراك ونحن

الآن اضيافك فانظر ماتصنع باضيافك . قال : قد عفوت عنكم . فقال الرجل : ايها الامير ، مانـدري اي يوم اشرف : يوم ظفرك بنا او يوم عفوك عنا ؟ فامر لهم بمال و كسوة .

المروءة النادرة :

لما أفضت الخلافة الى بني العباس ، اختفت رجال من بني امية .

منهم ابراهيم بن سليمان بن عبد الملك

وكان رجلا عالما اديبا كاملا وهو في سن الشبيبة ، فاخذوا له اماناً من السفاح . فقال له يوما : حدثني عما مر بك في اختفائك . قال : كنت مختفيا بالحيرة في منزل شارع على الصحراء ، فبينما انا على ظهر البيت اذ نظرت اعلاما سودا قد خرجت من الكوفة تريد الحيرة فتخيلت انها تريدني ، فخرجت من الدار متنكرا ، حتى اتيت الكوفة ولا اعرف احـدا اختفي عنده ، فبقيت في حيرة ، فاذا انا بباب كبير رحبته واسعة ، فدخلت فيها فاذا رجل وسيم حسن الهيئة على فرس قد دخل الرحبة ومعه جماعة من غلمانه واتباعه ، فقال : من انت وما حاجتك ؟ فقلت رجل خائف على نفسه ، وقـد استجار بمنزلك ، فادخلني منزله ، ثم صيرني في حجرة تلي حرمه ، وكنت عنده في ذلك على ما أحبه من مطعم ومشرب وملبس لايسألني عن شيء من حالي ، إلا انه يركب في كل يوم ركبة ، فقلت له يوماً . اراك تدمن الركوب ففيم ذلك ؟ قال : ابراهيم بن سليمان قتل ابي صبرا ، وقد بلغني انه مختف اطلبه لأدرك منه ثاري . فكثر والله تعجبي ، وقلت القدر ساقني الى حتفي في منزل من يطلب دمي ، وكرهت الحياة . فسألت الرجل عن اسمه واسم أبيه ، فأخبرني ، فعلمت ان الخبر صحيح ، وأنا الذي قتلت أباه ، فقلت له : ياهذا قد وجب علي حقك ومن حقك ان أدلك على خصمك ، وأقرب اليك الخطوة . قال : وماذاك ؟ قلت انا ابراهيم بن سليمان قاتل

ابيك ،فخذ بثأرك . فقال : اني احسبك رجلا قد مضه الاختفاء فأحببت الموت . فقلت لاوالله ، ولكن اقول لك الحق : يوم كذا و كذا .

فلما علم صـدقي تغير لونه واحمرت عيناه واطرق مليا ، ثم قال : اما انت فستلقى ابي عند حكم عدل فيأخذ بثاره ، وأما انا فغير مخفر ذمتي فاخرج عني ، فلست آمن عليك من نفسي وأعطاني ألف دينار ، فلم آخذها منه ، وانصرفت عنه فهذا اكرم رجل رأيته بعد امير المؤمنين .

قال أمير المؤمنين علي (ع) : « إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه » .

قال ابن ابي الحديد : اخذت انا هذا المعنى فقلت في قطعة لي :

إن الاماني اكساب الجهول فلا تقنع بها واركب الاهوال والخطرا
واجعل من العقل جهلاواطرح نظراً في الموبقات ولا تستشعر الحـذرا
وإن قدرت على الاعداء منتصراً فاشكر بعفوك عن اعدائك الظفرا

قال معاذ بن جبل : لما بعثني رسول الله (ص) الى اليمن قال : « مازال جبرئيـل (ع) يوصيني بالعفو ، فلولا علمي بالله لظننت أنه يوصيني بترك الحدود » .

وروي عنه (ص) انه قال : « إذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقم من كان له اجر على الله تعالى ، فلا يقوم إلا من عفا » .

وقال (ص) : « أفضل العبادة إن تصل من قطعك وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك » .

وقال (ص) اتى جبرئيل (ع) بمكارم الأخلاق في الدنيا والآخرة . قلنا : ماهي يارسول الله ؟ قال : قول الله تعالى : « خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .

ودخل معن بن زائـدة على معاوية ، فقال له يامعن كيف حبك لعلي أمير المؤمنين ؟ فقال أحبه على وجوه كثيرة : على حلمه إذا غضب ، وعلى صدقه إذا قال ، وعلى وفائه إذا وعـد ، وعلى عفوه إذا قدر ، وإن رضي لايخرجه رضاه الى الباطل ، وإن غضب لايخرجه غضبه عن الحق ، وإذا قدر لم يتناول ماليس له .

فالواجب على العاقل توطين النفس على لزوم العفو عن الناس كافة ، وترك الخروج لمجازاة الاساءة ، إذ لاسبيل لتسكين الاساءة أحسن من الاحسان ، ولا سبب لنماء الاساءة وتهيجها اشد من مقابلتها بمثلها .

شجر بين أبي مسلم وبين صاحب مرو كلام أربى فيه صاحب مرو عليه واغلظ له في القول فاحتمله ابو مسلم وندم صاحب مرو وقام بين يدي ابي مسلم معتذراً ، وكان قال له في جملة ما قال يالقيط ، فقال ابو مسلم : مه لسان سبق ووهم اخطأ والغضب شيطان ، وانا جرأتك علي باحتمالك قديماً ، فان كنت للذنب معتذراً فقد شاركتك فيه ، وان كنت مغلوباً فالعفو يسعك . فقال صاحب مرو ايها الامير ان عظم ذنبي يمنعني من الهدو . فقال ابومسلم يا عجباً أقابلك باحسان وأنت مسيء ، ثم اقابلك باساءة وانت محسن . فقال الآن وثقت بعفوك .

وأذنب بعض كتاب المأمون ذنباً وتقدم اليه ليحتج لنفسه ، فقال : ياهذا قف مكانك فانما هو عذر او يمين فقد وهبتهما لك ، وقد تكرر منك ذلك فلا تزال تسيء ونحسن ، وتذنب ونغفر ، حتى يكون العفو هو الذى يصلحك . وكان يقال : احسن افعال القادر العفو ، واقبحها الانتقام وكان يقال : ظفر الكريم عفو ، وعفو اللئيم عقوبة . وكان يقال : رب ذنب مقدار العقوبة عليه إعلام المذنب به ولا يجاوز به حد الارتفاع الى الايقاع . وكان يقال : ما عفا

عن الذنب من قرّع به .

قال المأمون لابراهيم بن المهدي لما ظفر به : اني قد شاورت في امرك فأشير علي بقتلك ، إلا اني وجدت قدرك فوق ذنبك ، فكرهت قتلك للازم حرمتك . فقال ابراهيم : يا امير المؤمنين ان المشير أشار بما تقتضيه السياسة وتوجبه العادة ، إلا انك ابيت ان تطلب النصر إلا من حيث عودته من العفو فان قتلت فلك نظراء وان عفوت فلا نظير لك . قال : قد عفوت فاذهب آمناً .

ضل الاعشى في طريقه ، فأصبح بأبيات علقمة بن علاثة ، فقال قائده وقد نظر الى قباب الأدم : واسوء صباحاه يا ابا بصير هذه والله ابيات علقمة ، فخرج فتيان الحي فقبضوا على الاعشى فأتوا به علقمة ، فمثل بين يديه ، فقال الحمد لله الذي أظفرني بك من غير ذمة ولا عقد . قال الاعشى او تدري لم ذلك جعلت فداك . قال نعم لا نتفم اليوم منك بتقوالك على الباطل مع احساني اليك . قال : لا والله ولكن اظفرك الله بي ليبلو قدر حلمك فيّ . فاطرق علقمة فاندفع الاعشى فقال :

أعلقم قد صيرتني الامور اليك وما كان بي منكص
كساكم علاثة اثوابه وورثكم حلمه الاحوص
فهب لي نفسي فدتك النفوس فلا زلت تنمى ولا تنقص

فقال : قد فعلت ، اما والله لو قلت فيّ بعض ما قلتـه في عامر بن عمر لاغنيتك طول حياتك ، ولو قلت في عامر بعض ما قلته فيّ ما اذاقك برد الحياة

قال معاوية لخالد بن المعمر السدوسي : على ماذا أحببت علياً ؟ قال على ثلاث . حلمه اذا غضب ، وصدقه اذا قال ، ووفاؤه اذا وعد .

ودخل معن بن زائـدة على معاوية ، فقال له يامعن كيف حبك لعلي أمير المؤمنين ؟ فقال · أحبه على وجوه كثيرة : على حلمه إذا غضب ، وعلى صدقه إذا قال ، وعلى وفائه إذا وعـد ، وعلى عفوه إذا قدر ، وإن رضي لايخرجه رضاه الى الباطل ، وإن غضب لايخرجه غضبه عن الحق ، وإذا قدر لم يتناول ماليس له .

فالواجب على العاقل توطين النفس على لزوم العفو عن الناس كافة ، وترك الخروج لمجازاة الاساءة ، إذ لاسبيل لتسكين الاساءة أحسن من الاحسان ، ولا سبب لنماء الاساءةوتهيجها اشد من مقابلتها بمثلها .

شجر بين أبي مسلم وبين صاحب مرو كلام أربى فيه صاحب مرو عليه واغلظ له في القول فاحتمله ابو مسلم وندم صاحب مرو وقام بين يدي ابي مسلم معتذراً ، وكان قال له في جملة ما قال يالقيط ، فقال ابو مسلم : مه لسان سبق ووهم اخطأ والغضب شيطان ، وانا جرأتك علي باحتمالك قديماً ، فان كنت للذنب معتذراً فقد شاركتك فيه ، وان كنت مغلوباً فالعفو يسعك . فقال صاحب مرو · ايها الامير ان عظم ذنبي يمنعني من الهدو . فقال ابومسلم يا عجباً أقابلك باحسان وأنت مسيء ، ثم اقابلك باساءة وانت محسن . فقال الآن وثقت بعفوك .

وأذنب بعض كتاب المأمون ذنباً وتقدم اليه ليحتج لنفسه ، فقال : ياهذا قف مكانك فانما هو عذر او يمين فقد وهبتهما لك ، وقد تكرر منك ذلك فلا تزال تسيء ونحسن ، وتذنب ونغفر ، حتى يكون العفو هو الذى يصلحك . وكان يقال : احسن افعال القادر العفو ، واقبحها الانتقام وكان يقال : ظفر الكريم عفو ، وعفو اللئيم عقوبة . وكان يقال · رب ذنب مقدار العقوبة عليه إعلام المذنب به ولا يجاوز به حد الارتفاع الى الايقاع . وكان يقال : ما عفا

عن الذنب من قرّع به .

قال المأمون لابراهيم بن المهدي لما ظفر به : اني قد شاورت في امرك فأشير علي بقتلك ، إلا اني وجدت قدرك فوق ذنبك ، فكرهت قتلك للازم حرمتك . فقال ابراهيم : يا امير المؤمنين ان المشير أشار بما تقتضيه السياسة وتوجبه العادة ، إلا انك ابيت ان تطلب النصر إلا من حيث عودته من العفو فأن قتلت فلك نظراء وان عفوت فلا نظير لك . قال : قد عفوت فاذهب آمناً .

ضل الاعشى في طريقه ، فأصبح بأبيات علقمة بن علاثة ، فقال قائده وقد نظر الى قباب الأدم : واسوء صباحاه يا ابا بصير هذه والله ابيات علقمة ، فخرج فتيان الحي فقبضوا على الاعشى فأتوا به علقمة ، فمثل بين يديه ، فقال الحمد لله الذي أظفرني بك من غير ذمة ولا عقد . قال الاعشى او تدري لم ذلك جعلت فداك . قال نعم لا نتقم اليوم منك بتقوالك على الباطل مع احساني اليك . قال : لا والله ولكن اظفرك الله بي ليبلو قدر حلمك فيّ . فاطرق علقمة فاندفع الاعشى فقال :

أعلقم قد صيرتني الامور اليك وما كان بي منكص
كساكم علاثة اثوابه وورثكم حلمه الاحوص
فهب لي نفسي فدتك النفوس فلا زلت تنمى ولا تنقص

فقال : قد فعلت ، اما والله لو قلت فيّ بعض ما قلته في عامر بن عمر لاغنيتك طول حياتك ، ولو قلت في عامر بعض ما قلته فيّ ما اذاقك برد الحياة

قال معاوية لخالد بن المعمر السدوسي : على ماذا أحببت علياً ؟ قال على ثلاث . حلمه اذا غضب ، وصدقه اذا قال ، ووفاؤه اذا وعد .

حق اهل الملة

قوله (عليه السلام) :

« وحق اهل ملتك اضمار السلامة والرحمة لهم ، والرفق بمسيئهم وتألفهم واستصلاحهم ، وشكر محسنهم وكف الأذى عنهم ، وتحب لهم ما تحب لنفسك ، وتكره لهم ما تكره لنفسك ، وان يكون شيوخهم بمنزلة أبيك ، وشبانهم بمنزلة اخوتك ، وعجائزهم بمنزلة امك ، والصغار بمنزلة اولادك ، (ومن أتاك تماهدته بلطف ورحمة وصل اخاك بما يجب للاخ على أخيه » .

* * *

إنها طريقة الامام العجيبة التي تفرد وتميز بها .

الطريقة التي تحيي المشهد وتستحضره في التو واللحظة ، وتقف القلوب إزاءها وقفة من يرى ويسمع ويعاني ما فيها ،

الطريقة التي تدعو الى الافق السامي الوضيء من الآداب النفسية والاجتماعية ، الى السياجات الجوية من الضمانات حول كرامة الانسان وحريته وحرماته .

وضمان هذا كله بتلك الطريقة التي يثيرها الامام (ع) في ارواح الناس بالتطلع الى التعاون بجميع التكاليف ، والوفاء بجميع الحاجات ، لكي يرتفع فيهم لواء واحد يتسابق الجميع الجميع ليقفوا تحته ، لواء الالفة والتكافل ونشر أجنحة الرفق والرحمة

هذا هو اللواء الذي رفعه الاسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس ، والعصبية للارض ، والعصبية للقبيلة ، والعصبية للبيت . وكلها

من الجاهلية واليها ، تتزيا بشتى الازياء ، وتسمى بشتى الاسماء ، وكلها جاهلية عارية من الاسلام .

وقد حارب الاسلام هذه العصبية الجاهلية في كل صورها واشكالها ، ليقيم نظامه الانساني العالمي في ظل راية واحدة : راية الله . لا راية الوطنية ، ولا راية القومية ، ولا راية الجنس ، فكلها رايات زائفة لا يعرفها الاسلام .

قال رسول الله ﷺ : كلكم لآدم وآدم خلق من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم او ليكونن أهون على الله من الجعلان » . وهذه هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الانساني .

المجتمع الانساني العالمي الذي تحاول البشرية في خيالها المحلق ان تحقق لوناً من ألوانه فتخفق ، لانها لا تسلك اليه الطريق الواحد الواصل المستقيم .. الطريق الى الله .. لانها لا تقف تحت الراية الواحدة المجمعة .. راية الله ..

أجل تلك هي جولة الامام السجاد (ع) جولة عاطفية اجتماعية كافلة لاصلاح حال البشر ، من غير ان يستأثر بها فرد دون فرد ، أو تتلائم مع روح شخص دون شخص ، او يضيق نطاقها عن الاحاطة إذا تكاثرت الافراد او يقل تأثيرها ويضعف سلطانها إذا تشعبت دائرة الآحاد .

جولة تعتبر المجتمع الانساني وحدة موحدة لا تجزئة فيها . فيدعو الفكر المنير والقلب الصالح المستيقض الى الاحسان والتعاون ، يدعوه لدفع الأذى والمكروه عن اخيه الانسان ، والمسلم الصحيح من امل الناس رفده وأمنوا بوادره ، وعمهم بخيره ونصرهم بنصره .

هكذا يريد الامام بقوله : « فعمهم جميعاً بدعوتك ، وانصرهم جميعاً بنصرتك ، وأنزلهم جميعاً منك منازلهم ، كبيرهم بمنزلة الوالد ، وصغيرهم بمنزلة الولد ، واوسطهم بمنزلة الاخ » .

يريد ان تعتبر الكبير اباً لك فتحترمه وتكبره ، وتقدم المعروف والخير بين يديه ، وتعتبر الصغير إبناً لك فتعطف عليه وترأف به وترق له ، وتعتبر المتوسط اخاً لك فتحبه وتميل اليه وتدفع ضره ، وتشاركه في خسارته ، وتكون له كما يكون لك ، وتحب له ما تحب لنفسك ، وتكره له ما تكره لها .

هذه مبادىء الاخاء والتعاون وتبادل المعروف والتكافل ، وبها تتحقق وحدة الاجتماع التي هي مركز الوجود ونقطة السعادة المطلقة .

مضافاً الى انها المايز الأكبر بين الانسان وبين سائر الكائنات الحية ؛ والغرض الأسمى من تكوينه وتنظيمه في دور اعرق في عالم التعقل والاحساس ، وارق في حلقات التطور وفلسفة النشوء الطبيعي .

لذلك رغبنا ان نشرح في هذا الفصل كليات ودساتير نظام الاجتماع وماله من التأثير في ابناء النوع ، وما استفدناه من تطور الحفلات الكبري في عالم الطبيعة ومما يؤيدها العلم الصادق والرؤية المصيبة . فقد وفقنا لكشف سر الاجتماع البشري ومطابقته لفلسفة الدين الاسلامي - مباحثنا وفصول دروسنا عن تاريخ طبيعة الاجتماع وبنيان مدنية البشر ، وما تقتضيه موقعيته العظمى في سلسلة حلقات التكوين ، ومدار جريان الوجود الباهر والكون المنير .

وبما ان تطور العقل البشري اقتضى تلفت الخاطر الى كشف أسرار الطبيعة والجنوح الى الحقائق الثابتة التي تقترن بشاهد الاخبار والتجربة العملية ، ولما كان الاسلام هو الدين المشفوع بالبرهان في كل التطورات الكونية ، إذ هو القانون العام الكافل لادارة البشر في كل تقلباته ، والمؤيد له في صراط رقيه ونشأة تطوراته ، فقد جمع بين دقة البرهان وسطوع البيان ومظاهر الطبيعة ودقائق الغيب والسريرة ، « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » . فلن يفقد الناظر فيه بغيته ، ويجد كل طالب بلغته

من هذا المخزن الزاخر .

فأردنا ان نبين مساعدة القوانين الاسلامية لما يقتضيه حكم الفطرة الخالصة عن شوائب الوهم والتمويه ، ليكون عوناً للشبيبة المتنورة في الاهتداء الى طريق الاستدلال وسبيل إقامة الحجة على صدق الدعوة النبوية الخاتمية ، ليذعن المتفهم الى أهمية هـــذا الناموس المقدس من نظرية التشريع والعناية بالمجمع العام البشري .

وليتفهم أن مبادئه الاجتماعية تقوم على أساس من تربية الذات الانسانية حتى تصل الى درجة الكمال ، فتصبح حياتها تآلفاً بين العقل والقلب ، بين العلم والدين ، بين الذهن والبصيرة ، وبين الفكر والعمل : وهي مرتبة الانسان الكامل الذي تنتظره الانسانية . والسبيل الى تكامل الذات هي طاعة القانون الآلهي وضبط النفس ، وأداء دور خليفة الله في الارض ، سواءاً أفي الحياة الفردية كان ذلك أم في نطاق الاسرة ، أم في المجتمع العام .

ففي نطاق الحياة الفردية يوجب الاسلام على المسلم (رجلا كان أو امرأة التزام الخلق الرفيع ، فيقول الرسول ﷺ : « اكمل المؤمنين إيماناً احسنهم خلقاً » . ويوجب طلب العلم على المسلم والمسلمة ، فيقول الرسول ﷺ : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . هذا الى جانب دعوة الاسلام الى تنمية الشعور الذاتي وتربية روح الايثار عند المسلم ، فيقول الرسول ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » .

أما في نطاق حياة الاسرة ، فان الاسلام يبني الاسرة ويقيم أركانها على أساس المودة والرحمة ، فيقول الله تعالى : « ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون» ويقول ايضاً : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » .

وهذه الدرجة هي درجة الادارة التي لا تستقيم بغيرها شركة ، فأولى بذلك شركة الحياة التي تنتج للامة اجيالها .

هذا الى جانب إقرار الاسلام المرأة حقوقاً كاملة في جميع مناحي الحياة ومنحها الاهلية الكاملة في التصرفات القانونية والمالية باعتبارها مستقلة الذمة ، مع عدم تحميلها تكاليف الزوجية المالية باعتبارها مكلفة بادارة البيت وتربية الاولاد ، وزوجها هو المكلف شرعا بالانفاق عليها وعلى الأولاد .

أما في نطاق المجتمع العام ، فان الاسلام قد عد المجتمع كأعضاء الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ومن هذه القاعدة تتفرع المسائل العلمية لتأمين التكافل الاجتماعي في المجتمع الاسلامي ، بسد حاجات الفقراء والمحتاجين والمعوزين ، وتخصيص المساعدات المالية لهم من بيت المال ، وتأمين وسائل الحياة الضرورية لهم ، وبهذا المعنى يقول ﷺ « من ولي لنا عملا وليس له منزل فليتخذ له منزلا من بيت المال ، او ليست له زوجة فليتزوج من بيت المال ، او ليس له خادم فليتخذ خادما من بيت المال او ليس له دابة فليتخذ دابة من بيت المال » هذا الى جانب دعوة الاسلام الى التعاون في ميدان الخير « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » والدعوة الى الخير ومحاربة المنكر وعوامل الفساد في المجتمع ، « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

هذه هي الخطوط العامة للاسلام في ميدان العقيدة والرسالة ، اوردناها بايجاز في كتابنا هذا (الجزء الثاني من شرح رسالة الحقوق) .

وبما ان مساس الانسان بالاجتماع والاتحاد اقوى من جميع المبادىء الفاضلة لان عاطفة الاجتماع والالفة هي الغرض الأسمى من تكوينه وتنظيمه رأينا من الخير ان نستوفي الموضوع ونعطيه حقه كما يجب لخطورته وحاجة المجتمع اليه .

١ ـ الانسان والاجتماع :

كون النوع الانساني نوعاً اجتماعياً لا يحتاج في اثباته الى كثير بحث فكل فرد من هذا النوع مفطور على ذلك ، ولم يزل الانسان يعيش في حال الاجتماع على ما يحكيه التاريخ والآثار المشهودة الحاكية لأقدم العهود التي كان هذا النوع يعيش فيها ويحكم على هذه الارض . وقد أنبأ عنه القرآن أحسن انباء في آيات كثيرة كقوله تعالى : « يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » الآية .

وقال تعالى : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحيواة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخرياً » .

وقال تعالى : « بعضكم من بعض » .

وقال تعالى : « وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً » . الى غير ذلك .

٢ ـ الانسان ونموه في اجتماعه :

الاجتماع الانساني كسائر الخواص الروحية الانسانية وما يرتبط بها ، لم يوجد حين وجد ـ تاماً كاملا ـ لا يقبل النماء والزيادة ، بل هو كسائر الأمور الروحية الادراكية الانسانية ، لم يزل يتكامل الانسان في كمالاته المادية والمعنوية وعلى الحقيقة لم يكن من المتوقع ان يستثني هذه الخاصة من بين جميع الخواص الانسانية ، فتظهر أول ظهورها تامة كاملة أتم ما يكون واكمله ، بل هي كسائر

الخواص الانسانية التي لها ارتباط بقوتي العلم والارادة تدريجيــــة الكمال في الانسان .

والذي يظهر من التأمل في حال هذا النوع ، ان اول ما ظهر من اجتماع فيه ، الاجتماع المنزلي بالازدواج ، لكون عامله الطبيعي (وهو جهاز التناسل) اقوى عوامل الاجتماع لعدم تحققه إلا بأزيد من فرد واحد اصلا ، ثم ظهرت منه الخاصة التي يسمونها بالاستخدام ، وهو توسيط الانسان غيره في سبيل رفع حوائجه ببسط سلطته وتحميل إرادته عليه ، ثم برز ذلك في صورة الرئاسة كرئيس المنزل ورئيس العشيرة ، ورئيس القبيلة ، ورئيس الأمة . وبالطبع كان المتقدم المتعين من بين العدة اولا اقواهم وأشجعهم واكثرهم مالا وولداً ، وهكذا حتى ينتهي الى اعلمهم بفنون الحكومة والسياسة ، وهـذا هو السبب الابتدائي لظهور الوثنية وقيامها على ساقها حتى اليوم .

وخاصة الاجتماع بتمام انواعها (المنزلي وغيره) وان لم تفارق الانسانية في هذه الادوار ولو برهة ، إلا انها كانت غير مشعور بها للانسان تفصيلا ، بل كانت تعيش وتنمو بتبع الخواص الاخرى المعني بها للانسان كالاستخدام والدفاع ونحو ذلك . والقرآن الكريم يخبر ان اول مانبه الانسان بالاجتماع تفصيـلا واعتنى بحفظه استقلالا ، نبهته به النبوة قال تعالى : « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا » .

وقال : « كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » .

حيث ينبيء ان الانسان في اقدم عهوده كان امة واحدة ساذجة لا اختلاف بينهم حتى ظهرت الاختلافات وبانت المشاجرات ، فبعث الله الانبياء وأنزل معهم

الكتاب ليرفع به الاختلاف ، ويردهم الى وحدة الاجتماع محفوظة بالقوانين المشرعة .

قال تعالى : « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً وما أوحينا اليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » فأنبأ ان رفع الاختلاف من بين الناس وايجاد الاتحاد في كلمتهم إنما كان في صورة الدعوة الى إقامة الدين وعدم التفرق فيه ، فالدين كان يضمن اجتماعهم الصالح .

والآية كما ترى تحكي هذه الدعوة (دعوة الاجتماع والاتحاد) عن نوح عليه السلام وهو أقدم الأنبياء اولي الشريعة والكتاب ، ثم عن إبراهيم ثم عن موسى ثم عن عيسى عليه السلام وقد كان في شريعة نوح وابراهيم النزر اليسير من الاحكام ، وأوسع هؤلاء الأربعة شريعة موسى وتتبعه شريعة عيسى على ما يخبر به القرآن ، وهو ظاهر الأناجيل ، وليس في شريعة موسى - على ما قيل إلا ستمائة حكم تقريباً .

فلم تبدء الدعوة الى الاجتماع دعوة مستقلة صريحة إلا من ناحية النبوة في قالب الدين كما يصرح به القرآن ، والتاريخ يصدقه على ما سيجيء .

٣ - الاسلام وعنايته بالاجتماع :

لا ريب ان الاسلام هو الدين الوحيد الذي اسس بنيانه على الاجتماع صريحاً ، ولم يهمل أمر الاجتماع في شأن من شؤونه ، فانظر إن اردت زيادة تبصر في ذلك - الى سعة الاعمال الانسانية التي تعجز عن إحصائها الفكرة ، والى تشعبها الى أجناسها وانواعها واصنافها ، ثم انظر الى إحصاء هذه الشريعة الآلهية لها وإحاطتها بها وبسط احكامها عليها ترى عجباً ، ثم انظر الى تقليبه ذلك كله في قالب الاجتماع ترى انه انفذ روح الاجتماع فيها غاية ما يمكن من الانفاذ

ثم خذ في مقايسة ما وجدته بسائر الشرايع الحقة التي يعتني بها القرآن ، وهي شرائع نوح وابراهيم وموسى وعيسى حتى تعاني النسبة وتعرف المنزلة . وأما مالايعتني به القرآن الكريم من الشرايع كأديان الوثنية والصابئة والمانوية والثنوية وغيرها فالامر فيها أظهر وأجلى .

وأما الأمم المتمدنة وغيرها فالتاريخ لايذكر من امرها إلاانها كانت تتبع ما ورثته من اقدم عهود الانسانية من استتباع الاجتماع بالاستخدام ، واجتماع الافراد تحت جامع حكومة الاستبداد والسلطة الملوكية ، فكان الاجتماع القومي والوطني والاقليمي يعيش تحت راية الملك والرئاسة ، ويهتدي بهداية عوامل الوراثة والمكان وغيرها من غير ان يعتني أمة من هذه الامم عناية مستقلة بأمره وتجعله مورداً للبحث والعمل .

حتى الأمم المعظمة التي كانت لها سيادة الدنيا حينما شرقت شارقة الدين واخذت في إشراقها وانارتها : (اعني امبراطورية الروم والفرس) ، فانها لم تكن إلا قيصرية و كسروية تجتمع اممها تحت لواء الملك والسلطنة ويتبعها الاجتماع في رشده ونموه ويمكث بمكثها . نعم يوجد فيما ورثوه ابحاث اجتماعية في مسفورات حكمائهم من امثال سقراط وافلاطون وارسطو وغيرهم ، إلا انها كانت اوراقاً وصحائف لا ترد مورد العمل ، ومثلا ذهنية لا تنزل مرحلة العين والخارج ، والتاريخ الموروث أعدل شاهد على صدق ما ذكرناه .

فأول نداء قرع سمع النوع الانساني ودعى به هذا النوع الى الاعتناء بأمر الاجتماع بجعله موضوعاً مستقلا خارجاً عن زاوية الاهمال وحكم التبعية هو الذي نادى به صادع الاسلام ﷺ فدعى الناس بما نزل عليه من آيات ربه الى سعادة الحياة وطيب العيش مجتمعين ، قال تعالى : « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم » وقال تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً

ولا تفرقوا الى ان قال : ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » يشير الى حفظ المجتمع عن التفرق والانشعاب « وأولئك هم المفلحون ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدما جائهم البينات » وقال « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء » الى غير ذلك من الآيات المطلقة الداعية الى اصل الاجتماع والاتحاد . وقال تعالى : « إنما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين اخويكم » وقال : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » وقال : « وتعاونوا على البر والتقوى » الى غير ذلك من الآيات الآمرة ببناء المجتمع الاسلامي على الاتفاق والاتحاد في حيازة منافعها ومزاياها المعنوية والمادية والدفاع عنه على ما سنوضحه بعض الايضاح .

٤ ـ اعتبار الاسلام رابطة الفرد والمجتمع

الصنع والايجاد يجعل اولا اجزاءاً ابتدائية لها آثار وخواص ، ثم يركبها ويؤلف بينها على ما فيها من جهات البينونة ، فيستفيد منها فوائد جديدة مضافة الى ما للاجزاء من الفوائد المشهودة .

فالانسان مثلا له اجزاء وابعاض واعضاء ، وقوى لها فوائد متفرقة مادية وروحية ربما ائتلفت فقويت وعظمت ، كثقل كل واحد من الاجزاء وثقل المجموع ، والتمكن والانصراف من جهة الى جهة وغير ذلك ، وربما لم تأتلف وبقيت على حال التباين والتفرق كالسمع والبصر والذوق والارادة والحركة ، إلا انها جميعاً من جهة الوحدة في التركيب تحت سيطرة الواحد الحادث الذي هو الانسان ، وعند ذلك يوجد من الفوائد مالا يوجد عند كل واحد من اجزائه

وهي فوائد جمة من قبيل الفعل والانفعال والفوائد الروحية والمادية . ومن فوائده حصول كثرة عجيبة في تلك الفوائد في عين الوحدة ، فان المادة الانسانية كالنطفة مثلا اذا استكملت نشأتها قدرت على افراز شيء من المادة من نفسها وتربيتها انساناً تاماً آخر يفعل نظائر ما كان يفعله أصله ومحتده من الافعال المادية والروحية ، فأفراد الانسان على كثرتها انسان وهو واحد ، وافعالها كثيرة عدداً واحدة نوعاً ، وهي تجتمع وتأتلف بمنزلة الماء يقسم الى آنية فهي مياه كثيرة ذو نوع واحد وهي ذات خواص كثيرة نوعها واحد وكلما جمعت المياه في مكان واحد قويت الخاصة وعظم الأثر .

وقد اعتبر الاسلام في تربية أفراد هذا النوع وهدايتها الى سعادتها الحقيقية هذا المعنى الحقيقي فيها ، ولا مناص من اعتباره قال تعالى : « وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً » وقال : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » وقال « بعضكم من بعض » .

وهذه الرابطة الحقيقية بين الشخص والمجتمع لا محالة تؤدي الى كينونة أخرى في المجتمع حسب ما تعده الاشخاص من وجودهم وقواهم وخواصهم وآثارهم فيتكون في المجتمع سنخ ما للفرد من الوجود وخواص الوجود وهو ظاهر مشهود ولذلك اعتبر القرآن للامة وجوداً وأجلا وكتاباً وشعوراً وفهما وعملا وطاعة ومعصية ، فقال : « ولكل أمة أجل فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » وقال : « كل امة تدعى الى كتابها » . وقال : « زينا لكل امة عملهم » . وقال : « منهم امة مقتصدة » وقال : « امة قائمة يتلون آيات الله » وقال : « وهمت كل أمة برسولها ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب » وقال « ولكل أمة رسول فاذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط » .

ومن هنا مانرى ان القرآن يعتني بتواريخ الأمم كاعتنائه بقصص الاشخاص بل اكثر ، حينما لم يتداول في التواريخ إلا ضبط احوال المشاهير من الملوك والعظماء ، ولم يشتغل المؤرخون بتواريخ الأمم والمجتمعات إلا بعد نزول القران ، فاشتغل بها بعض الاشتغال آحاد منهم كالمسعودي وابن خلدون حتى ظهر التحول الاخير في التاريخ النقلي بتبديل الاشخاص أمما ، واول من سنه على على مايقال : (اغوست كنت الفرنسي المتوفى سنة ١٨٥٧ ميلادية) .

وبالجملة لازم ذلك على مامرت الاشارة اليه تكون قوى وخواص اجتماعية قوية تقهر القوى والخواص الفردية عند التعارض والتضاد على ان الحس والتجربة يشهد ان بذلك في القوى والخواص الفاعلة والمنفعلة معاً ، فهمة الجماعة وارادتها في امر كما في موارد الغوغاءات وفي الهجمات الاجتماعية لاتقوم لها ارادة معارضة ولامضادة من واحد من اشخاصها واجزائها ، فلا مفر للجزء من ان يتبع كله ويجري على مايجري عليه ، حتى انه يسلب الشعور والفكر من افراده واجزائه ، وكذا الخوف العام والدهشة العامة ، كما في موارد الانهزام وانسلاب الامن والزلزلة والقحط والوباء ، او ماهو دونها كالرسومات المتعارفة والازياء القومية ونحوها تضطر الفرد على الاتباع وتسلب عنه قوة الادراك والفكر .

وهذا هو الملاك في اهتمام الاسلام بشأن الاجتماع ، ذلك الاهتمام الذي لا نجد ولن نجد ما يماثله في واحد من الاديان الأخر ولا في سنن الملل المتمدنة (ولعلك لا تكاد تصدق ذلك) فان تربية الاخلاق والغرائز في الفرد (وهو الاصل في وجود المجتمع) لا تكاد تنجح مع كينونة الاخلاق والغرائز المعارضة والمضادة القوية القاهرة في المجتمع إلا يسيراً لا قدر له عند القياس والتقدير . فوضع اهم أحكامه وشرائعه كالحج والصلاة والجهاد والانفاق ، وبالجملة التقوى الديني على اساس الاجتماع ، وحافظ على ذلك مضافاً الى قوى الحكومة الاسلامية

المحافظة لشعائر الدين العامة وصددها ، ومضافاً الى فريضة الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر العامة لجميع الأمة يجعل غرض المجتمع الاسلامي ـ وكل مجتمع لا يستغني عن غرض مشترك ـ هي السعادة الحقيقية والقرب والمنزلة عند الله ، وهذا رقيب باطني لا يخفى عليه ما في سريرة الانسان وسره ـ فضلا عما في ظاهره ـ وان خفي على طائفة الدعاة وجماعة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذا هو الذي ذكرنا أن الاسلام تفوق سنة إهتمامه بشأن الاجتماع سائر السنن والطرائق .

٥ ـ بماذا يتكون ويعيش الاجتماع الاسلامي ؟

لاريب ان الاجتماع ـ أي اجتماع كان ـ إنما يتحقق ويحصل بوجود غاية واحدة مشتركة بين أفراده المتشتتة ، وهو الروح الواحدة السارية في جميع أطرافه التي تتحد بها نوع اتحاد ، وهذه الغاية والغرض في نوع الاجتماعات المتكونة (غير الدينية) إنما هي غاية الحياة الدنيوية للانسان ، لكن على نحو الاشتراك بين الافراد لا على نحو الانفراد ، وهي التمتع من مزايا الحياة المادية على نحو الاجتماع .

والفرق بين التمتع الاجتماعي والانفرادي من حيث الخاصية ، ان الانسان لو استطاع ان يعيش وحده كان مطلق العنان في كل واحد من تمتعاته حيث لا معارض له ولا رقيب إلا ماقيد به بعض جهاته بعضاً ، فانه لا يقدر ان يستنشق كل الهواء ، فان الرئة لا تسعه وان اشتهاه ، ولا يسعه ان يأكل من المواد الغذائية لا الى حد ، فان جهاز الهاضمة لا يتحمله ، فهذا حاله بقياس بعض قواه واعضائه الى بعض ؛ وأما بالنسبة الى إنسان آخر مثله فاذا كان

لا شريك له في ما يستفيد منه من المادة على الفرض فـلا سبب هناك يقتضي تضييق ميدان عمله ، ولا تحديد فعل من أفعاله وعمل من أعماله .

وهذا بخلاف الانسان الواقع في ظرف الاجتماع وساحته فانه لو كان مطلق العنان في ارادته وأعماله لأدى ذلك الى التمانع والتزاحم الذي فيه فساد العيش وهلاك النوع .

وهذا هو السبب الوحيد الذي يدعو الى حكومـة القانون الجاري في المجتمع ، غير أن المجتمعات الهمجية لا تتنبه لوضعها عن فكر وروية ، وانما يكون الآداب والسنن فيها المشاجرات والمنازعات المتوفرة بين افرادها فيضطر الجميع الى رعاية أمور تحفظ مجتمعهم بعض الحفظ ، ولما لم تكن مبنيـة على اساس مستحكم كانت في معرض النقض والابطال تتغير سريعاً وتنقرض ، ولكن المجتمعات المتمدنة تبنيه على أساس قويم بحسب درجاتهم في المدنية والحضارة فيرفعون به التضاد والتمانع الواقع بين الارادات واعمال المجتمع بتعديلها بوضع حدود وقيود لها ، ثم ركز القدرة والقوة في مركز عليه ضمان اجراء ما ينطق به القانون . ومن هنا يظهر .

أولا : ان القانون حقيقة هو ما تعدل به ارادات الناس واعمالهم برفع التزاحم والتمانع من بينها بتحديدها .

وثانياً : ان افراد المجتمع الذي يحكم فيه القانون احرار فيما وراءه كما هو مقتضى تجهز الانسان بالشعور والارادة بعد التعديل ، ولذا كانت القوانين الحاضرة لا تتعرض لامر المعارف الآلهية والاخلاق ، وصار هذان المهمان يتصوران بصورة يصورهما بها القانون فيتصالحان ويتوافقان معه على ما هو حكم التبعية فيعودان عاجلا أوآجلا رسوماً ظاهرية فاقدة للصفاء المعنوي ، ولذلك السبب ايضاً ما نشاهده من لعب السياسة بالدين ، فيوماً تقضي عليه وتدحضه

ويوماً تميل اليه فتبالغ في اعلاء كلمته ، ويوماً تطوي عنه كشحاً فتخليه وشأنه

وثالثاً : ان هذه الطريقة لا تخلو عن نقص ، فان القانون وان حمل ضمان اجرائه على القدرة التي ركزه في فرد او افراد لكن لا ضمان على ضمان إجرائه بالاخرة ، بمعنى ان منبع القدرة والسلطان لومال عن الحق وحول سلطة النوع على النوع الى سلطة شخصه على النوع وانقلبت الدائرة على القانون لم يكن هناك ما يقهر هذا القاهر فيحوله الى مجراه العدل ، وعلى هذا القول شواهد كثيرة مما شاهدناه في زماننا هذا وهو زمان الثقافة والمدنية ، فضلا عما لايحصى من الشواهد التاريخية ، واضف الى هذا النقص نقصاً آخر وهو خفاء نقض القانون على القوة المجرية احياناً ، او خروجه عن حومة قدرته .

(ولنرجع الى أول الكلام) :

وبالجملة الاجتماعات المدنية توحدها الغاية الواحدة التي هي التمتع من مزايا الحياة الدنيا ، وهي السعادة عندهم ، لكن الاسلام لما كان يري ان الحياة الانسانية اوسع مداراً من الحياة الدنيا المادية بل في مدار حياته الحياة الاخروية التي هي الحياة ، ويرى ان هذه الحياة لا تنفع فيها إلا المعارف الآلهية التي تنحل بجملتها الى التوحيد ، ويرى ان هذه المعارف لا تنحفظ إلا بمكارم الاخلاق وطهارة النفس من كل رذيلة ، ويرى ان هذه الاخلاق لا تتم ولا تكمل إلا بحياة اجتماعية صالحة معتمدة على عبادة الله سبحانه والخضوع لما تقتضيه ربوبيته ، ومعاملة الناس على اساس العدل الاجتماعي اخذ (اعني الاسلام) الغاية التي يتكون عليها المجتمع البشري ويتوحد بها دين التوحيد ، ثم وضع القانون الذي وضعه على أساس التوحيد ، ولم يكتف فيه على تعديل الارادات والافعال فقط ، بل تممه بالعباديات ، وأضاف اليها المعارف الحقة والاخلاق الفاضلة . ثم جعل ضمان اجرائها في عهدة الحكومة الاسلامية اولا

ثم في عهدة المجتمع ثانياً ، وذلك بالتربية الصالحة علماً وعملا ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر . ومن اهم ما يشاهد في هذا الدين ارتباط جميع اجزائه ارتباطاً يؤدي الى الوحدة التامة بينها : بمعنى ان روح التوحيد سارية في الاخلاق الكريمة التي يندب اليها هذا الدين ، وروح الاخلاق منتشرة في الاعمال التي يكلف بها افراد المجتمع ، فالجميع من أجزاء الدين الاسلامي ترجع بالتحليل الى التوحيد والتوحيدبالتركيب يصير هو الاخلاق والاعمال ، فلو نزل لكان هي ولو صعدت لكانت هو . « اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » .

فان قلت : ما اورد من النقص على القوانين المدنية فيما اذا عصت القوة المجربة عن اجرائها ، او فيما يخفى عليها من الخلاف مثلا ، وارد بعينه على الاسلام ، وأوضح دليل عليه ما نشاهده من ضعف الدين وزوال سيطرته على المجتمع الاسلامي ، وليس إلا لفقد أنه من يحمل نواميسه على الناس يوما :

قلت : حقيقة القوانين العامة سواء كانت إلهية او بشرية ليست الا صوراً ذهنية في اذهان الناس ، وعلوماً تحفظها الصدور ، وانما ترد مورد العمل وتقع موقع الحس بالارادات الانسانيـة التي تتعلق بها فمن الواضح ان لو عصت الارادات لم توجد في الخارج ما تنطبق عليه القوانين . وانما الشأن فيما يحفظ به تعلق هذه الارادات بالوقوع حتى تقوم القوانين على ساقهـا ، والقوانين المدنية لا تهتم بأزيد من تعليق الافعال بالارادات (اعني ارادة الاكثرية) ثم لم يهتموا بما تحفظ به هذه الارادة ، فمها كانت الارادة حية شاعرة فاعلة جرى بها القانون ، واذا ماتت من جهة انحطاط يعرض لنفوس الناس وهرم يطرأ على بنية المجتمع ، او كانت حية لكنها فقدت صفة الشعور والادراك لانغمار المجتمع في الملاهي وتوسعه في الاتراف والتمتع ، او كانت حية شاعرة لكنها فقدت التأثير لظهور قوة مستبدة فائقة غالبة تقهر ارادة الاكثرية ، وكذا في الحوادث

التي لا سبيل للقوة المجرية على الوقوف عليها كالجنايات السرية ، اولا سبيل لها الى بسط سيطرتها عليها كالحوادث الخارجة عن منطقة نفوذها ، ففي جميع هذه الموارد لا تنال الامة امنيتها من جريان القانون وانحفاظ المجتمع عن التفاسد والتلاشي وعمدة الانشعابات الواقعة في الامم الاوربية بعد الحرب العالمية الكبرى الاولى والثانية من أحسن الامثلة في هذا الباب .

وليس ذلك (اعني انتقاض القوانين وتفاسد المجتمع وتلاشيه) إلا لان المجتمع لم يهتم بالسبب الحافظ لارادات الامة على قوتها وسيطرتها وهي الاخلاق العالية ، اذ لا تستمد الارادة في بقائها واستدامة حياتها الا من الخلق المناسب لها كما بين ذلك في علم النفس ، فلولا استقرار السنة القائمة في المجتمع واعتماد القانون الجاري فيه على أساس قويم من الاخلاق العالية كانت كشجرة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار . واعتبر في ذلك ظهور الشيوعية ، فليست الا من مواليد الديمقراطية انتجها اتراف طبقة من طبقات المجتمع وحرمان آخرين فكان بعداً شاسعاً بين نقطتي القساوة وفقد النصفة ، والسخط وتراكم الغيض والحنق ، وكذا في الحرب العالمية التي وقعت مرة بعد مرة وهي تهدد الانسانية ثالثة وقد افسدت الارض وأهلكت الحرث والنسل ولا عامل لها الا غريزة الاستكبار والشره والطمع . هذا .

ولكن الاسلام بنى سنته الجارية وقوانينه الموضوعة على اساس الاخلاق وبالغ في تربية الناس عليها لكون القوانين الجارية في الاعمال في ضمنها وعلى عهدتها فهي مع الانسان في سره وعلانيته وخلوته وجلوته تؤدي وظيفتها وتعمل عملها أحسن مما يؤديه شرطي مراقب او أي قوة تبذل عنايتها في حفظ النظم .

نعم تعتني المعارف العمومية في هذه الممالك بتربية الناس على الاخلاق

المحمودة ، وتبذل جهدها في حض الناس وترغيبهم اليها لكن لا ينفعهم ذلك شيئاً :

أما اولا : فلأن المنشأ الوحيد لرذائل الاخلاق ليس إلا الاسراف والافراط في التمتع المادي والحرمان البالغ فيه ، وقد اعطت القوانين للناس الحرية التامة فيه فأمتعت بعضاً وحرمت آخرين ، فهل الدعوة الى فضائل الاخلاق والترغيب عليها إلا دعوة الى المتناقضين او طلباً للجمع بين الضدين ؟ على ان هؤلاء (كما عرفت) يتفكرون تفكراً اجتماعياً ، ولا تزال مجتمعاتهم تبالغ في اضطهاد المجتمعات الضعيفة ودحض حقوقهم ، والتمتع بما في ايديهم ، واسترقاق نفوسهم ، والتوسع في التحكم عليهم ما قدروا ، والدعوة الى الصلاح والتقوى مع هذه الخصيصة ليست إلا دعوة متناقضة لا تزال عقيمة .

واما ثانياً : فلأن الأخلاق الفاضلة ايضاً تحتاج في ثباتها واستقرارها الى ضامن يضمن حفظها وكلاءتها وليس إلا التوحيد اعني القول بأن للعالم إلهاً واحداً ذا سماء حسن ، خلق الخلق لغاية تكميلهم وسعادتهم ، وهو يحب الخير والصلاح ويبغض الشر والفساد وسيجمع الجميع لفصل القضاء وتوفية الجزاء ، فيجازي المحسن باحسانه والمسيء باساءته ، ومن الواضح ان لولا الاعتقاد بالمعاد لم يكن هناك سبب اصيل رادع عن اتباع الهوى والكف عن حظوظ النفس الطبيعية ، فانما الطبيعة الانسانية تريدوتشتهي مشتهيات نفسها لاما ينتفع به غيرها كطبيعة الفرد الآخر ، إلا اذا رجع بنحو الى مشتهى نفسها (احسن التأمل فيه) . ففيما كان للانسان مثلا تمتع في إماتة حق من حقوق الغير ولا رادع يردعه ولا مجازي يجازيه ولا لائم معاتب يلومه ويعاتبه ، فأي مانع يمنعه من اقتراف الخطيئة وارتكاب المظلمة وإن عظمت ما عظمت ؟ وأما ما يتوهم - وكثيراً ما يخطىء فيه الباحث - من الروادع المختلفة كالتعلق بالوطن وحب النوع والثناء الجميل

ونحو ذلك ، فانما هي عواطف قلبية ونزوعات باطنية لا سبب حافظاً عليها إلا التعليم والتربية من غير استنادها الى السبب الموجب ، فهي اذن اوصاف اتفاقية وامور عادية لا مانع معها يمنع من زوالها ، فلما ذا يجب على الانسان ان يفدي بنفسه غيره ليتمتع بالعيش بعده وهو يرى ان الموت فناء وبطلان ؟ والثناء الجميل انما هو في لسان آخرين ولا لذة يلتذ به الفادي بعد بطلان ذاته .

وبالجملة لا يرتاب المتفكر البصير في ان الانسان لا يقدم على حرمان لا يرجع اليه فيه جزاء ولا يعود اليه منه نفع ، والذي يعده ويمنيه في هذه الموارد ببقاء الذكر الحسن والثناء الجميل الخالد والفخر الباقي ببقاء الدهر فانما هو غرور يغتر به وخدعة ينخدع بها بهيجان احساساته وعواطفه ، فيخيل اليه انه بعد موته وبطلان ذاته حاله كحاله قبل موته ، فيشعر بذكره الجميل فيلتذ به وليس ذلك إلا من غلط الوهم كالسكران يتسخر بهيجان احساساته فيعفو ويبذل من نفسه وعرضه وماله او كل كرامة له مالا يقدم عليه لو صحا وعقل ؛ وهو سكران لا يعقل ، ويعد ذلك فتوة وهو سفه وجنون .

فهذه العثرات وامثالها مما لا حصن للانسان يتحصن فيه منها غير التوحيد الذي ذكرناه ، ولذلك وضع الاسلام الاخلاق الكريمة التي جعلها جزءاً من طريقته الجارية على اساس التوحيد الذي من شؤونه القول بالمعاد ، ولازمه ان يلتزم الانسان بالاحسان ويجتنب الاساءة اينما كان ومتى كان سواء علم به أو لم يعلم ، وسواء حمده حامد او لم يحمد ، وسواء كان معه من يحمله عليه او يردعه عنه او لم يكن ، فان معه الله العليم الحفيظ القائم على كل نفس بما كسبت وورائه « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء » وفيه تجزى كل نفس بما كسبت .

٦ - الاسلام اجتماعي بجميع شؤونه :

وصفة الاجتماع مرعية مأخوذة في الاسلام في جميع ما يمكن ان يؤدى بصفة الاجتماع من انواع النواميس والاحكام بحسب مايليق بكل منها من نوع الاجتماع ، وبحسب مايمكن فيه من الامر والحث الموصل الى الغرض ، فينبغي للباحث ان يعتبر الجهتين معاً في بحثه :

فالجهة الاولى من الاختلاف ما نرى ان الشارع شرع الاجتماع مستقيماً في الجهاد الى حد يكفي لنجاح الدفاع وهذا نوع ، وشرع وجوب الصوم والحج مثلا المستطيع الغير المعذور ، ولازمه اجتماع الناس للصيام والحج ، وعم ذلك بالعيدين : الفطر والاضحى ، والصلاة المشروعة فيهما ، وشرع وجوب الصلوات اليومية عينياً لكل مكلف من غير ان يوجب فيها جماعة ، وتدارك ذلك بوجوب الجماعة في صلاة الجمعة في كل اسبوع مرة ، وصلاة جماعة واحدة في كل اربعة فراسخ وهذا نوع آخر .

والجهة الثانية ما نرى ان الشارع شرع وجوب الاجتماع في اشياء بلا واسطة كما عرفت ، والزم على الاجتماع في امور اخرى واجبة لم يوجب الاجتماع فيها مستقيماً كصلاة الفريضة مع الجماعة فانها مسنونة مستحبة غير ان السنة جرت على ادائها جماعة وعلى الناس ان يقيموا السنة ، وقد قال رسول الله ﷺ في قوم من المسلمين تركوا الحضور في الجماعة : « ليوشك قوم يدعون الصلاة في المسجد ان نأمر بحطب فيوضع على ابوابهم فتوقد عليهم نار فتحرق بيوتهم » وهذا هو السبيل في جميع ما سنه رسول الله ﷺ فيجب حفظ سنته على المسلمين بأي وسيلة امكنت لهم وبأي قيمة حصلت .

وهذه امور سبيل البحث فيها الاستنباط الفقهي من الكتاب والسنة والمتصدي لبيانها الفقه الاسلامي .

وأهم مايجب ههنا هو عطف عنان البحث الى جهة اخرى : وهي اجتماعية الاسلام في معارفه الأساسية بعد الوقوف على انه يراعي الاجتماع في جميع مايدعو الناس اليه من قوانين الاعمال (العبادية والمعاملية والسياسية) ومن الاخلاق الكريمة ومن المعارف الأصلية . نرى الاسلام يدعو الناس الى دين الفطرة بدعوى انه الحق الصريح الذي لامرية فيه ، والآيات القرآنية الناطقة بذلك كثيرة مستغنية عن الايراد ، وهذا اول التآلف والتآنس مع مختلف الأفهام ، فان الافهام على اختلافها وتعلقها بقيود الاخلاق والغرائز لاتختلف في ان (الحق يجب اتباعه) . ثم نراه يعذر من لم تقم عليه البينة ولم تتضح له المحجة وان قرعت سمعه الحجة ، قال تعالى : « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة » وقال تعالى : « الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلا فاولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً » . انظر الى إطلاق الآية ومكان قوله : لايستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلا ، وهذا يعطي الحرية التامة لكل مفكر يرى نفسه صالحة للتفكر مستعدة للبحث والتنقير ان يتفكر فيما يتعلق بمعارف الدين ويتعمق في تفهمها والنظر فيها . على ان الآيات القرآنية مشحونة بالحث والترغيب في التفكر والتعقل والتذكر . ومن المعلوم ان اختلاف العوامل الذهنية والخارجية مؤثرة في اختلاف الأفهام من حيث تصورها وتصديقها ونيلها وقضائها ، وهذا يؤدي الى الاختلاف في الاصول التي بنى على أساسها المجتمع الاسلامي كما تقدم . إلا ان الاختلاف بين إنسانين في الفهم على مايقضي به فن معرفة النفس وفن الاخلاق وفن الاجتماع يرجع الى احد امور : اما الى اختلاف الأخلاق النفسانية والصفات

الباطنية من الملكات الفاضلة والردية ، فان لها تأثيراً وافراً في العلوم والمعارف الانسانية من حيث الاستعدادات المختلفة التى تودعها في الذهن ، فما إدراك الانسان المنصف وقضاؤه الذهني : كادراك الشموس المتعسف ، ولانيل المعتدل الوقور للمعارف كنيل العجول والمتعصب وصاحب الهوى والهمجي الذي يتبع كل ناعق ، والغوي الذي لايدري إين يريد ولاانى يراد به ؟ والتربية الدينية تكفي مؤونة هذا الاختلاف فانها موضوعة على نحو يلائم الأصول الدينية من المعارف والعلوم ، وتستولد من الاخلاق مايناسب تلك الأصول وهي مكارم الاخلاق ، قال تعالى : « كتاباً انزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي الي الحق وإلى طريق مستقيم » وقال تعالى : « يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم » وقال تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » ، وانطباق الآيات على مورد الكلام ظاهر . وأما ان يرجع الى اختلاف الأفعال ، فان الفعل المخالف للحق : كالمعاصي وأقسام التهوسات الانسانية ، ومن هذا القبيل اقسام الاغواء والوساوس تلقن الانسان — خاصة العامي الساذج — الأفكار الفاسدة وتعدذهنه لدبيب الشبهات وتسرب الآراء الباطلة فيه ، وتختلف إذ ذاك الأفهام وتتخلف عن اتباع الحق ! وقد كفى مؤونة هذا ايضاً الاسلام حيث امر المجتمع باقامة الدعوة الدينية دائماً اولاً ، وكلف المجتمع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثانياً ، وأمر بهجرة ارباب الزيغ والشبهات ثالثاً . قال الله تعالى : « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » فالدعوة الى الخير تستثبت الاعتقاد الحق وتقرها في القلوب بالتلقين والتذكير ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمنعان من ظهور الموانع من رسوخ الاعتقادات الحقة في النفوس ، وقال تعالى :

« وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ، وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون ، وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحيوة الدنيا وذكر به ان تبسل نفس بما كسبت » الآيات .

ينهى الله تعالى عن المشاركة في الحديث الذي فيه خوض في شيء من المعارف الآلهية والحقائق الدينية بشبهة اواعتراض اواستهزاء ولو بنحو الاستلزام او التلويح . ويذكر ان ذلك من فقدان الانسان امر الجد في معارفه وأخذه با لهزل واللعب واللهو ، وأن منشأه الاغترار بالحياة الدنيا ، وأن علاجه التربية الصالحة والتذكير بمقامه تعالى . وأما ان يكون الاختلاف من جهة العوامل الخارجية كبعد الدار وعدم بلوغ المعارف الدينية إلا يسيرة اومحرفة او قصور فهم الانسان عن تعقل الحقائق الدينية تعقلا صحيحاً كالجربزة والبلادة المستندتين إلى خصوصية المزاج وعلاجه تعميم التبليغ والارفاق في الدعوة والتربية ، وهذان من خصائص السلوك التبليغي في الاسلام ، قال تعالى : « قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة اناومن اتبعني » ومن المعلوم ان البصير بالأمر يعرف مبلغ وقوعه في القلوب وأنحاء تأثيراته المختلفة باختلاف المتلقين والمستمعين فلا يبذل احد إلاّ مقدار مايعيه منه ، وقد قال رسول الله ﷺ على ماروراه الفريقان : « إنا معاشر الانبياء نكلم الناس على قدر عقولهم » . وقال تعالى : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » فهذه جمل مايتقى به وقوع الاختلاف في العقائد او يعالج به إذا وقع .

وقد قرر الاسلام لمجتمعه دستوراً اجتماعياً فوق ذلك يقيه عن ديب

الاختلاف المؤدي الى الفساد والانحلال ، فقد قال تعالى : « وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » فبين ان اجتماعهم على اتباع صراط المستقيم وتحذرهم عن اتباع سائر السبل يحفظهم عن التفرق ، ويحفظ لهم الاتحاد والاتفاق ، ثم قال : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » وقد مر ان المراد بحبل الله هو القرآن المبين لحقائق معارف الدين ، أوهو الرسول (ص) على مايظهر من قوله تعالى قبله : « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين اوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم » .

تدل الآيات على لزوم ان يجتمعوا على معارف الدين ويرابطوا افكارهم ويمتزجوا في التعليم والتعلم فيستريحوا في كل حادث فكري اوشبهة ملقاة الى الآيات المتلوة عليهم والتدبر فيها لحسم مادة الاختلاف وقد قال تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن ولوكان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » وقال تعالى : « وتلك الامثال نضربها للناس ومايعقلها إلا العالمون » وقال : « فاسألوا اهل الذكر إن كنتم لاتعلمون » فأفاد أن التدبر في القرآن اوالرجوع الى من يتدبر فيه يرفع الاختلاف من البين . وتدل على ان الارجاع الى الرسول وهو الحامل لثقل الدين يرفع من بينهم الاختلاف ، ويبين لهم الحق الذي يجب عليهم ان يتبعوه ، قال تعالى : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم ولعلهم يتفكرون » وقريب منه قوله تعالى : « ولو ردوه الى الرسول والى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » وقوله : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه الى

الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا »

فهذه صورة التفكر الاجتماعي في الاسلام . ومنه يظهر ان هذا الدين كما يعتمد بأساسه على التحفظ على معارفه الخاصة الآلهية ، كذلك يسمح للناس بالحرية التامة في الفكر ، ويرجع محصله الى ان من الواجب على المسلمين ان يتفكروا في حقائق الدين ويجتهدوا في معارفه تفكراً واجتهاداً بالاجتماع والمرابطة ، وإن حصلت لهم شبهة في شيء من حقائقه ومعارفه اولاح لهم مايخالفها فلا بأس به ، وإنما يجب على صاحب الشبهة اوالنظر المخالف ان يعرض ماعنده على كتاب الله بالتدبر في بحث اجتماعي ، فان لم يداو داءه عرضه على الرسول اومن اقامه مقامه حتى تنحل شبهته اويظهر بطلان مالاح له إن كان باطلاً ، قال تعالى : « الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الالباب » .

والحرية في العقيدة والفكر علي النحو الذي بيناه غير الدعوة الى هذا النظر ، واشاعته بين الناس قبل العرض فانه مفض الى الاختلاف المفسد لأساس المجتمع القويم .

هذا احسن مايمكن ان يدبر به امر المجتمع في فتح باب الارتقاء الفكري على وجهه مع حياته الشخصية ، وأما تحميل الاعتقاد على النفوس والختم على القلوب وإماتة غريزة الفكرة في الانسان عنوة وقهراً ، والتوسل في ذلك بالسوط او السيف اوالتنكيل والهجرة وترك المخالطة . فحاشا ساحة الحق والدين القويم ان يرضى به او يشرع مايؤيده ، وإنما هو خصيصة نصرانية وقد امتلأ تاريخ الكنيسة من اعمالها وتحكماتها في هذا الباب - وخاصة فيما بين القرن الخامس وبين القرن السادس عشر الميلاديين - بما لايوجد نظائره في اشنع ماعملته ايدي الجبابرة والطواغيت وأقساه . ولكن من الأسف انا معاشر المسلمين سلبنا هذه النعمة

ومالزمها (الاجتماع الفكري وحرية العقيدة) كما سلبنا كثيراً من النعم العظام التي كان الله سبحانه انعم علينا بها لما فرطنا في جنب الله « وإن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم » فحكمت فينا سيرة الكنيسة واستتبع ذلك ان تفرقت القلوب وظهر الفتور وتشتت المذاهب والمسالك . يغفر الله لنا ويوفقنا لمرضاته ويهدينا الى صراطه المستقيم .

٧- الدين الحق هو الغالب على الدنيا بالآخرة :

والعاقبة للتقوى ، فان النوع الانساني بالفطرة المودعة فيه يطلب سعادته الحقيقية ، وهو استواؤه على عرش حياته الروحية والجسمية معاً ، حياة اجتماعية باعطاء نفسه حظه من السلوك الدنيوي والأخروي ، وقد عرفت ان هذا هو الاسلام ودين التوحيد .

وأما الانحرافات الواقعة في سير الانسانية نحو غايته وفي ارتقائه الى اوج كماله فانما هو من جهة الخطأ في التطبيق لامن جهة بطلان حكم الفطرة ، والغاية التي يعقبها الصنع والايجاد لا بد ان تقع يوماً معجلا او على مهل ؛ قال تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لايعلمون » . يريد انهم لايعلمون ذلك علماً تفصيلياً وان علمته فطرتهم إجمالا الى ان قال : « ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون » الى ان قال : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت ايدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » وقال تعالى : « فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه اذلة علي المؤمنين اعزة علي الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » وقال تعالى : « ولقد كتبنا

في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون » وقال تعالى : « والعاقبة للتقوى » . فهذه وأمثالها آيات تخبرنا ان الاسلام سيظهر ظهوره التام فيحكم على الدنيا قاطبة .

ولاتصغ الى قول من يقول : إن الاسلام وإن ظهر ظهوراً ما وكانت ايامه حلقة من سلسلة التاريخ فأثرت اثرها العام في الحلقات التالية واعتمدت عليها المدنية الحاضرة ، شاعرة بها اوغير شاعرة ، لكن ظهوره التام اعني حكومة ما في فرضية الدين بجميع مؤداها وصورها وغاياتها ، مما لايقبله طبع النوع الانساني ولن يقبله ابداً ولم يقع عليه بهذه الصفة تجربة حتى يوثق بصحة وقوعه خارجاً وحكومته على النوع تامة وذلك انك عرفت ان الاسلام بالمعنى الذي نبحث فيه غاية النوع الانساني وكماله الذي هو بغريزته متوجه اليه ، شعر به تفصيلا اولم يشعر ، والتجارب القطعية الحاصلة في انواع المكونات يدل على انها متوجة الى غايات مناسبة لوجوداتها يسوقها اليها نظام الخلقة ، والانسان غير مستثنى من هذه الكلية . على ان شيئاً من السنن والطرائق الدائرة في الدنيا الجارية بين المجتمعات الانسانية ، لم يتك في حدوثه وبقائه وحكومته على سبق تجربة قاطعة ، فهذه شرائع نوح وابراهيم وموسى وعيسى ظهرت حينما ظهـرت ثم جرت بين الناس ، وكذا ماأتى به برهما وبوذا وماني وغيرهم ، وتلك سنن المدنية المادية كالديموقراطية والكمونيسم وغيرها ، كل ذلك جرى في المجتمعات الانسانية المختلفة بجرياناتها المختلفة من غير سبق تجربة . وإنما تحتاج السنن الاجتماعية في ظهورها ورسوخها في المجتمع الى عزائم قاطعة وهمم عالية من نفوس قوية لايأخذها في سبيل البلوغ الى مآربها عي ولا نصب ، ولاتذعن بان الدهر قد لايسمح بالمراد والمسعي قد يخيب . ولافرق في ذلك بين الغايات والمآرب الرحمانية والشيطانية . ؟

حق أهل الذمة

قوله (عليه السلام) :

« وأما حق اهل الذمه : أن تقبل منهم ماقبل الله عزوجل منهم ، ولا تظلمهم ما وفوا لله عزوجل بعهده ، (وكفى بما جعل الله لهم من ذمته وعهده ، وتكلهم اليه فيما طلبوا من أنفسهم ، وتحكم فيهم بما حكم الله به على نفسك فيما جرى بينك وبينهم من معاملة ، وليكن بينك وبين ظلمهم من رعاية ذمة الله والوفاء بعهده وعهد رسوله حائل ، فانه بلغنا أنه قال : « من ظلم معاهداً كنت خصمه » فاتق الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

* * *

يتهيب الكاتب حينما يغمس يراعه ليخط به موضوعا دقيقا له جوانب من عظمة الامام السجاد (ع) ومـداه الكريم . فتراه أشبه بانسان له بعض الخبرة في فن السباحة التي في بحر خضم غزير .

ترى ماذا يستطيع ان يعمل لكي يصل الى مرفأ السلامة ، وفنار الأمان ، وساحل الاستقرار ؟ ؟

إنه يتطلع يمنة ويسرة رافعاً نظره الى السماء عله يجد في اديمها نجما يهتدي بنوره ، او ينظر الى الافق عساه يشاهد سفيناً قادما يأخذ بيده ، ويبحث عن لوح سابح في الامواج لكي يستقر عليه .

وهكذا تراني أشبه ذلك الانسان يوم رحت ابحث عن موضوع اصوغه لدراسة هـــذه الرسالة الشريفة (رسالة الحقوق) فرأيت الجواهر فيها اشتات

متنوعة واللآلىء متباعدة متناثرة ، لايجمعها سلك ، ولا يضمها مستودع . هي أشبه بزهرات جميلة عبقة ، قد زرعت هنا وهناك ونبتت في قمم ووديان ، وتلال وسهول !! ولكي تؤلف منها باقة تسر القلوب والاعين ، وتريح النفوس والافكار ، فعليك اذن بضم متفرقاتها وجمع شتاتها .

وهكذا رجعت الى ماعندي من ذخيرة وزاد ، ومن قوة وهمة لكي اجمع باقة من سهولها وجبالها ، كي اقدمها الى طالبها ومبتغيها . وهاهي مبسوطة في فصولها المتقدمة وفي هـذا الفصل الذي يستعرض فيه حق اهل الذمة ، ووجود الحرية الدينية . بقوله « وأما حق أهل الذمة . . . » .

* * *

الذمة لغة (العهد) ، ويعبر عنها بالامان والضمان ، ويسمى محل التزام الذمة بها ، في قولهم ثبت في ذمتي كذا : أي على نفسي . فالذمة في قول الفقهاء يراد بها نفس المكلف .

وقال بعضهم الذمة شرعا وصف يصير به الانسان اهلا لما له وما عليه . وهذا الوصف غير العقل ، فان العقل لمجرد فهم الخطاب ، والعقل لايستغني عن الذمة ، وإلا لم يثبت الوجوب له وعليه . فالذمة بمنزلة السبب لكون الانسان اهلا للوجوب له وعليه . وأما العقل فبمنزلة الشرط . فتأتي الذمة بمعنى الأمان والعهد ، يقال :فلان دخل في ذمة فلان : اي في أمانه وعهده . وبمعنى الأمانة والوفاء يقال : له في ذمتي كذا : اي علي له وفاء ذلك الشيء . وعليه قولهم : أبرىء ذمتي من كذا : اي لاتكلفني وفاءه فاكون خالي العهد به .

وأهل الذمة عند الامم القديمة : (كاليونان والرومان) هم السفلة من اهل البلاد الذين يدخلون في ولاء الاشراف والبطارقة فيستظلون بكنفهم ويكونون تحت رعايتهم وحمايتهم .

وأما عند الرومانيين فلا يخفى ذلك على من تصفح التاريخ فان كل عائلة

قادرة كان لها عيال كثيرة من اهل الذمة تزيد قوتها بزيادتهم وتتوفر مداخيلها بأعمالهم ، وكان على المولى أن يحمي الذمي ويعتني باسعافه عند اللزوم ، وكانوا يخصصون لهم منازل يسكنونها وأرضاً يشغلونها ، ويدافعون عنهم في الشريعة وينوبون عنهم في فتح الدعاوي ، لأن الشريعة لم تكن تجيز للذميين الدخول فيها ، وكذلك كان الحال في أثينا من جهة الذميين الأجانب ، لكن كان يمكنهم دخول المحكمة بوساطة احد اهل البلد .

وأما سيادة المولى على الذمي فكانت عظيمة في رومية ، فكان يمكنه ان يقاصه كما يريد ، ويرث من يموت بلا عقب ويجبر من خرج عن طاعته بالرجوع اليها ، وكان على الذميين معاونة الموالي في كل حال ومشاركتهم في وفاء الغرامة او الدين او الامهار ، وأن يفدوهم من مالهم إذا أسروا .

وبقي الذميون مدة طويلة لايدخلون في اللجن السياسية ولا يتعاطون أمور الأحكام ، ثم مع توالي الزمان حصلوا حقوقا في الانتخابات وصارت لهم يد في أمور المملكة ، لكن ذلك كان مقصوراً على من كانوا من الامة . وأما الاجانب من اسرى وملتجئين ونحوهم فكانوا يحسبون كالعبيد . ثم ان هذا الذل حملوه زمانا طويلا تلاشى مع تقدم الأمم في سبل التمدن ولاسيما بعد إلغاء الشريعة التي تمنعهم عن تقديم دعاويهم بأنفسهم . (راجع دائرة المعارف البستانية)

وأهل الذمة عند المسلمين : المعاهدون من النصارى واليهود ممن يقيمون بدار الاسلام .

والمطلع على ماقرره الاسلام في الذميين من الرعاية وحسن المعاملة والمساواة بالمسلمين في القضاء يدهش ويعد ذلك من المعجزات التي خص بها أهل الاسلام دون سواهم ، فان القرن السابع من الميلاد المسيحي وما بعده الى عهد الثورة الفرنسوية في القرن الثامن عشر كانت كلها قرون خيمت فيها الجهالة على اهلها .

وكانت الاحقاد الدينية تغلي مراجلها في قلوب الامم كافة حتى بين أبناء الدين الواحد في مذاهبه المختلفة . فظهور المسلمين في عصور نشوتهم بخمرة النصر مع ماشهر عنهم من الحب الكبير لدينهم بهذه المعاملة الحسنة حيال مخالفيهم في الدين يعد ولا شك من العجائب التي لايكفي لهذا التعجب .

أفليس من العجب ان ترى الامام (زين العابدين) (وعلى ذكره السلام) في هـــذه الفقرة اللامعة ، يستعرض مارسمه الاسلام في حقهم ،فيقبعث قائلا « وليكن بينك وبين ظلمهم من رعاية ذمة الله والوفاء بعهده وعهد رسوله حائل ، فانه بلغنا أنه قال : « من ظلم معاهداً كنت خصمه » . فانه ليس لمسلم أن يعتدي عليهم ، ولا أن يسكت عن أذى يمسهم ، وان يدفع عنهم مايدفع عن نفسه ، ويحميهم ويحفظ عليهم انفسهم واموالهم واولادهم وغير ذلك من مشاراتهم ومبايعتهم ومبادلتهم بالسلع والاثاث .

فالاسلام حين يضع هذه الاحكام التي تخص اهل الذمة ، يرجو ان تكون القوة اكبر وأكثر وأوسع ممالو كان المسلمون بانعزال عن غير المسلمين من الناس . ثم لعـل بعض اهل الذمة أن يتصلوا بالاسلام والمسلمين فيتعرفوا على مبدئهم ودينهم فيسلموا ، فتضاف للمسلمين في كل يوم قوة جديـدة تنمو بازدياد ، فاذا هي القوة العالمية الوحيدة في الارض .

وينهى الامام (عليه السلام) عن ظلم الذمي كما ينهى عن ظلم المسلم ، وليس هيناً من الامر مايدع النبي (ص) الى ان يقول : « من ظلم معاهداً كنت خصمه » فالعهـد الذي يبرم بين المسلمين وغير المسلمين ليس له انفصام ولا نقض إلا اذا نقض المعاهـدون من غير المسلمين عهدهم ، فحينذاك يخرجون عن ذمة الاسلام فيجب قتالهم وحربهم ، ويحل للمسلمين مالهم ونفوسهم .

ان الاسلام لايكنّ لغير المسلمين اية عـداوة او بغضاء ، بل يدعو الى

التعايش السلمي والتعاون معهم في الحياة . يقول الله عزوجل : « قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ماتعبدون ، ولا أنتم عابدون ماأعبد ، ولا أنا عابد ماعبدتم ، ولا انتم عابدون ماأعبد لكم دينكم ولي دين » .

ويقول ايضاً « فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهوائهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لاحجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا واليه المصير » .

واذا قام غير المسلمين في بلد واحد مع المسلمين ، فان أهم شيء هو ضمان حرية العقيدة واتاحة الفرصة لغير المسلمين ليعبدوا الله في معابدهم الخاصة بهم ويقيموا شعائر دينهم ، وضمان المساواة التامة بينهم وبين ابناء وطنهم من المسلمين في الحقوق والالتزامات العامة . والمسلمون يباح لهم تزوج المسيحيات او اليهوديات ، وتتمتع تلك النساء بالحقوق والواجبات التي تتمتع بها النساء المسلمات نفسها ، ولهن مطلق الحرية في البقاء على دينهن واقامة مراسيمه وشعائره

إن الله يأمر الولد المسلم بأن يعامل ابويه بالحسنى حتى لو كانا مشركين وحاولا جهدهما تضليله ، اذ يقول : « ووصينا الانسان بوالديه ، حملته امه وهناً علي وهن ، وفصاله في عامين ان اشكر لي ولوالديك إلي المصير ، وإن جاهداك على ان تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً ، واتبع سبيل من اناب الي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » .

والاسلام يعارض ـ بشدة ـ الالتجاء الى القوة في بث دعوته أو إرغام الناس على اعتناقه ، ويدعو غير المسلمين للدخول فيه ، بشرح فوائده ومزاياه ، منها سهولة تفهم عقيدته والتزاماته اليسيرة في الشعائر الدينية والمعاملات ، ومبادئه الخلقية وما تنطوي عليه من روح التسامح وحرية البحث والتفهم العميق للوجود ، وحقيقة عدم التمييز فيه بين الناس الا بالتقوى والأعمال الصالحة . وهو يشير

الى أن ليس في الاسلام لأحـد سلطة على الآخر في معتقداته ، فليس لأحد حق الاتيان بدين جديد ، وليس يستوجب العبادة احد سوى الله عزوجل .

والاسلام يبني سياسته في العلاقات بين المسلمين والآخرين من ذوي العقائـــد المختلفة على أسس المعارف والالفة والتعاون والعمل في سبيل المصلحة العامة ، وينظر الى غير المسلمين الذين يعيشون مـع جماعته بتعاون وسلام ، نظرته الى المسلمين انفسهم ، كل منهم على دينه ، يدعو له بالحكمة والجدال بالتي هي احسن بلا اكراه او ضغط على احـد ، وبلا مساس بحقوق الآخرين ، « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » . ولا يتطلب من غير المسلمين سوى الكف عن بغضاء المسلمين واثارة الفتنة بينهم ومعارضتهم في طريق الحياة الاسلامية . وفي العلاقات بين الدول الاسلامية وغيرالاسلامية ، يقف الاسلام موقف من يدعوالعالم الى الخير . ويبيح ابرام المعاهدات والتعاون مع الدول غير الاسلامية في اوقات السلم مادامت تلك المعاهـدات لاتعارض المبادىء الاساسية للاسلام : « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

الاسلام لايتحول عن علاقاته الودية مع البلدان غير الاسلامية مالم يكن ضحية عـدوان اثيم ، ومالم توضع في طريقه عقبات او تجر محاولات لاغواء المسلمين وتضليلهم ، وعند مايتعرض الاسلام لمثل هذه المحن يحل للمؤمنين صد العدوان واستعادة الأمن والنظام وإيجاد وضـع عادل يفكر الناس فيه ويعملون بحرية تامة ، بل يجعل ذلك واجباً عليهم . ويحرم على المسلمين شن حرب

عدوانية بواعثها روح القسوة او الرغبة في استغلال ثروات الناس ومصادرهم او اثارة الآلام او تشريد شعب من بيوتهم وأوطانهم . اما اذا قامت حرب شرعية فالاسلام يحرم استخدام الوسائل التي تؤدي الى التخريب والتدمير او الابادة والافناء ، كما لايحلل قتل المدنيين من الناس ممن لاضلع لهم في المداوة كالنساء والاطفال والشيوخ والعجزة . ولا يبيح المشاركة في القتال مالم يعرف الاسباب بجلاء ووضوح ، ومالم يتلق العدو انذاراً . ولا يجيز اساءة معاملة اسرى الحرب او تعذيبهم او قتلهم . ووضع حداً للحرب الشرعية لايستلزم ان تعتنق قوات العدو الاسلام ، بل يكفي ان توقف عدوانها الاثيم وتوقع معاهدة تحفظ حقوق الناس وتحميهم من الظلم والطغيان والفتنة والتمرد .

هذه المعاملات لم تطف بمخيلة فلاسفة اوربا إلا بعد اكثر من الف سنة ، ولما طافت بفكرهم ودونوها في كتبهم عدوها من اكبر الأصول العمرانية وأدل دليل على رقي العواطف الانسانية وغفلوا عن انها في كتاب المسلمين وقد عملوا بها قبل الف سنة . تلك الأصول القرآنية التي اكسبت المسلمين هذه الروح العالية من التسامح مع اهل الذمة وغيرهم ، اكسبتهم ادبا لايدانيه ادب من اي فلسفة كانت ، واهتدى بها الى اكبر نواميس العمران والسعادة الاجتماعية .

أسباب منع المسلمة من الزواج بمن يخالفها في دينها :

سأل احد الباحثين (الاميركان) احد علماء المسلين قائلا : إذا كان الاسلام يشتمل على غاية التسامح فلماذا منع المسلمة من التزوج بغير المسلم ؟ فكان جوابه : إن الحياة الزوجية شركة وتعاون ومساواة بين الزوجين في جميع الحقوق العامة ، وهي شركة لاتنتظم إلا إذا بنيت على المحبة الخالصة واحترام كل من الشريكين

للآخر احتراماً يتناول جميع اموره ، ومن أهم الامور التي يحرص عليها الانسان الجانب الديني فيه ، وعندما أباح الاسلام للرجل المسلم ان يتزوج امرأة مسيحية او يهودية جعل لها كافة الحقوق الزوجية التي للمرأة المسلمة ماعدا أمراً واحداً : وهو التوارث فلاترثه ولايرثها . وحتى في هذا الحق كان الاسلام منصفاً كعادته ، لأنه سوى في منع الميراث بالنسبة لكل منهما ، بخلاف مايقرره تشريع اليهود فيما اذا تزوج رجل يهودي امرأة غير يهودية ثم ماتت فانه يرثها ، واذا مات قبلها لاترثه . كما دعا الاسلام الزوج المسلم الى احترام الزوجة غير المسلمة واحترام دينها ، وتركها تؤدي شعائرها في كنيستها او بيعها ، وهـذا ليس بغريب على الاسلام لأن من يؤمن به ، يؤمن بصدق عيسى (ع) ورسالته ، كما يؤمن بصدق موسى (ع) ورسالته ، وهنا لانجد ضرراً على الحياة الزوجية . . .

أما اذا تزوجت المسلمة بالمسيحي او اليهودي فان الحياة الزوجية ـ التي لاتقوم الا على الاحترام المتبادل كما ذكرنا ـ لاتستقيم ، لأنها تتزوج من رجل يعاديها ، لأنه يكذب رسولها ولا يؤمن به ، وليس عنده من التسامح في العقيدة مثل ماعند المسلم ، وهو ينظر اليها على انها تؤمن بدين لا أساس له من الصحة ، ولا شك ان هـذا يؤدي الى احتقارها ومنعها من الاستمرار في اعتناقها لدينها او قيامها بشعائرها ، وكيف تنتظم الحياة الزوجية مع هذا العداء والاحتقار . . »

دحض بعض المعتقدات التي تؤدي للتعصب

وبعد أن وضع الاسلام الاسس التي يسير عليها المسلمون نحو مخالفيهم في دينهم بدأ يـدحض بعض الظنون والاوهام التي رانت على عقول اهل الاديان الأخرى ونشأ عنها التعصب الجنسي المقيت حتى ادعوا أنهم ابناء الله وشعبه

المختار ، وأن الجنة خاصة بهم دون غيرهم . « وقالت اليهود والنصاري نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السماوات والارض وما بينهما واليه المصير » .

وقال تعالى : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً او نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . ويعلن القرآن ان الانسانية جمعاء تشترك في التكريم من غير اختصاص بلون او جنس او أمة . قال الله تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . فليس ثمة شعب الله المختار في الاسلام ، بل الانسانية كلها الخليقة المختارة في هذه الارض بمقتضى الارادة الآلهية .

صور من التسامح الفعلي

ان الاسلام حافل بالدعوة الى التسامح منذ بزغ فجره ، لكن الدعوات ليست كل شيء ، فكثيراً ما سمعنا دعوات لم تتحقق ، لأن التطبيق العملي شيء والبيان النظري شيء آخر ، اولأن الدعاة مخادعون يبتغون التمويه والتضليل لاغراض يخفونها .

وما زال العالم يذكر مبادىء (ولسون) الاربعة عشر بعد الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ويعلم انه لم يتحقق منها شيء . وما زال العالم يسخر من وعود انكلترا وامريكا في الحرب العالمية الثانية ، لانها وعود كاذبة ذهبت مع الريح .

أما الاسلام فقد قام على التسامح قولا وعملا .

واليك صوراً من تسامحه العملي .

اشترطت قريش على النبي (ص) في صلح الحديبية شروطاً قاسية ، منها : أن من جاء من محمد الى قريش لاترده الى محمد ، ومن جاء الى محمد بغير اذن وليه رده محمد . وقبل النبي شرطهم الجائر ، لحكمة رآها ، وتبرم بعض الصحابة بالشرط ، وما كادوا ينتهون من توقيع المعاهدة حتى جاء اول امتحان للوفاء ، اذ وصل مسلم من مكة اسمه ابو جندل بن سهيل يرسف في الحديد فارا من اذى قومه ، وألح على الرسول في ان يضمه اليه . لكن الرسول سلمه لقريش وفاء بعهده ، فقال ابو جندل : انهم سيعذبونني . فقال له النبي (ص) : اصبر واحتسب ، فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، واعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وانا لانغدر بهم . ثم وفد على النبي بالمدينة أبو بصير بن عتبة بن اسيد فرده وقال له مثل ماقال لأبي جندل .

وان سماحة الرسول وسماحة الاسلام لتتجلى حتى في الموقف المهتاج الذي تطمئن فيه النفوس الى الانتقام ، وانت تعلم ان الامم كانت تعامل اسراها معاملة العدو البغيض ، فتقتلهم او تبيعهم وتسخرهم في اشق الاعمال .

أما الرسول (ص) فقد عامل اسرى بدر معاملة حسنة ، ذلك بأنه وزع الاسارى السبعين على اصحابه ، ، وأمرهم ان يحسنوا اليهم فكانوا يفضلونهم على أنفسهم في طعامهم . ثم استشار اصحابه في شأنهم ، فأشير عليه بقتلهم ، واشير عليه بفدائهم ، فوافق على الفداء ، وجعل فداء الذين يكتبون ان يعلمّ كل منهم عشرة من صبيان المدينة الكتابة ، وأشير عليه ان يمثل بسهيل بن عمرو ـ احد المحرضين على محاربة المسلمين ـ بأن ينزع ثنيتيه السفليين فلا يستطيع الخطابة ، فرفض النبي (ص) وقال : « أمثل به فيمثل الله بي وان كنت نبياً » وكذلك اطلق اسرى بني المصطلق .

ولما فتح مكة قال لقريش : ماذا تظنون اني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً أخ كريم وابن أخ كريم . فقال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء ، لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لي ولكم » . ومنع المسلمين في غزوة خيبر ـ بلد اليهود الذين نكثوا بعهدهم مع المسلمين وحرضوا العرب على غزوهم وانضموا اليهم ـ من أن يدخلوا بيتاً من بيوت اليهود الا باذنه ؛ ومن ان يضربوا نساء اليهود او يعتدوا على ثمراتهم .

وكان (ص) يعامل اهل الكتاب بكل انواع المعاملات التي يتبادلها المجتمعون في جماعة يحكمها قانون واحد ، وتشغل مكاناً مشتركاً ، فقد كان يغش مجالسهم ويواسيهم في مصائبهم ، ويعود مرضاهم ويزورهم ويكرمهم ، وكان يقترض منهم نقوداً ويرهنهم متاعاً . كان يفعل ذلك لاعجزاً من اصحابه عن اقراضه ، فكان منهم المثرون وهم المستعدون لأن يضحوا بأنفسهم وأموالهم في مرضاة نبيهم ، بل كان يفعل ذلك تعليماً وارشاداً للامة وتثبيتاً عملياً لما يدعو اليه من سلام ووئام ، وتدليلا على ان الاسلام لايقطع علاقات المسلمين مع مواطنيهم من غير دينهم . وقد سار المسلمون على سيرة نبيهم فعاشروا غيرهم من اهل الملل والنحل الاخرى بصفاء ووئام ، فكان المسيحي واليهودي بجوار المسلم فيتزاورون ويتهادون لايفصلهم إلا المسجد والكنيسة والبيعة . فقد روي ان غلاماً لابن عباس ذبح شاة ، فقال له ابن عباس : إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودي . ثم كررها حتى قال له الغلام : كم تقول هذا : فقال : إن رسول الله (ص) لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا انه سيورثه . فابن عباس بنص هذا الخبر كان مجاوراً ليهودي ، وكان يهتم بالاهداء اليه كما يهتم بسواه ، مراعاة لحرمة الجوار ، ومعنى هذا ان الاسلام لايفرق في مكارم الاخلاق وحقوق الاجتماع بين مسلم وأي مخالف آخر فالكل في نظره سواء .

وحدث المجلسي في المجلد (التاسع من البحار) عن أبي جعفر الباقر عن أبيه (عليهما السلام) : « إن علياً (ع) صاحب رجلا ذمياً ، فقال له الذمي : أين تريد ياعبد الله . قال : اريد الكوفة ، فلما عدل الطريق بالذمي عدل معه علي ، فقال له الذمي : أليس زعمت تريد الكوفة . قال : بلى . فقال الذمي : فقد تركت الطريق . فقال : قد علمت . فقال له فلم عدلت معي وقد علمت ذلك . فقال له علي هذا من تمام حسن الصحبة أن يشيع الرجل صاحبه هنيهة إذا فارقه . وكذلك امرنا نبينا . فقال له هكذا ؟ قال نعم فقال له الذمي لاجرم إنما تبعه من تبعه لأفعاله الكريمة ، وأنا أشهدك اني على دينك ، فرجع الذمي مع علي وقد اسلم » .

فاذا ماسايرنا الفتوح الاسلامية بعد ذلك وجدنا الشعوب المختلفة ترحب بالمسلمين الفاتحين ، وتنظم اليهم احيانا لتنجو من عسف الفرس والروم ، ولتستظل بوارف من العدل والسماحة والحرية .

ولقد تحقق لهذه الشعوب ما أملت ، وسرعان مادان اكثرها بالاسلام عن رغبة واختيار ، وسرعان ماصارت البلاد المفتوحة موئلا للاسلام ، وأهلها دعاته وحملة لوائه .

١ ـ فقد كتب المسيحيون في الشام الي أبي عبيدة ـ وهو معسكر في فحل ـ يقولون : يامعشر المسلمين انتم أحب الينا من الروم ، وإن كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا ، وأرأف بنا ، واكف عن ظلمنا ، وأحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا . (فتوح الشام للازدي البصري ص ٩٧) .

وجاء في (الاخبار النصرانية) شهادة تؤيد مدى التسامح الاسلامي ، وهي شهادة (عيشويابه) الذي تولى كرسي البطريركية من سنة ٦٤٧ ـ ٦٥٧ م إذ كتب يقول : « إن العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا

كما تعرفون ، انهم ليسوا بأعداء للنصرانية ، بل يمتدحون ملتنا ويوقرون قسيسينا ويمدون يد المعونة الى كنائسنا وأديرتنا » .

ويقول « سير . ت د . أرنولد » في كتابه (الدعوة الى الاسلام) ترجمة حسن ابراهيم حسن وزميليه ص٥١ : « ومن هذه الامثلة التي قدمناها عن ذلك التسامح الذي بسطه المسلمون الظافرون على العرب المسيحيين في القرن الأول من الهجرة ، واستمر في الاجيال المتعاقبة ، نستطيع ان نستخلص بحق ان هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الاسلام ، إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة ، وان العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح » .

ويقول أيضاً قبل ذلك في ص٤٨ : « ويمكننا أن نحكم من الصلات الودية التي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب ، بأن القوة لم تكن عاملا حاسماً في تحويل الناس الى الاسلام . فمحمد نفسه قد عقد حلفاً مع بعض القبائل المسيحية وأخذ على عاتقه حمايتهم ، ومنحهم الحرية في اقامة شعائرهم الدينية كما اتاح لرجال الكنيسة ان ينعموا بحقوقهم ونفوذهم . . . » .

وهذه شهادة اخرى على تسامح الاسلام من الاستاذ (متز) إذ يقول : « إن مايميز المملكة الاسلامية عن اوروبا النصرانية في القرون الوسطى ، ان الاولى يسكنها عدد كبير من معتنقي الاديان الاخرى غير الاسلام ، وليست كذلك الثانية ، وإن الكنائس والبيع ظلت في المملكة الاسلامية كأنها خارجة عن سلطان الحكومة ، وكأنها لاتكون جزءاً من المملكة معتمدة في ذلك على العهود وما أكسبتهم من حقوق ، وقضت الضرورة ان يعيش اليهود والنصارى بجانب المسلمين ، فأعان ذلك على خلق جو من التسامح لاتعرفه أوروبا في القرون الوسطى ، كان اليهودي او النصراني حراً ان يدين بدينه ، ولكنه إن أسلم ثم

ارتد عوقب بالقتل » . (عن كتاب ميز (نهضة الاسلام) ترجمة خدابخش عن الالمانية .

وهـذه شهادة أخيرة على تسامح الاسلام من عالم كبير ، وهو الاستاذ (شكري فرادحي) فقد نشر كتابا بالفرنسية سماه (إيجاد وممارسة القانون الدولي الخاص في بلاد الاسلام) تكلم فيه عن حالة الاجانب في بلاد المسلمين ، متتبعا في بحثه ادوار التأريخ ، فأفاض يفصل الاطوار التي دخلت فيها حالة الاجانب على عهد الدولة العربية اولا ثم على عهد الدولة التركية ، فلم يجد بـدأ من الاعتراف بأن معاملة الاجانب في بلاد المسلمين كانت تصدر عن شعور صادق بالتسامح لايوجد مايقابله في معاملة الدول الغربية ، ثم لما تقرر نظام الامتيازات في بلاد المسلمين بالحاح الدول الغربية ، وهو النظام الذي جعلوه مشابهاً لنظام الاقليات العنصرية في العهـد الراهن ظهر جلياً أمر لم يكن منتظراً ، ذلك أنه قد ثبت ان حالة الاجانب تحت ظل الامتيازات اصبحت اقل ملاءمة لهم من كل وجه من حالتهم على عهد الدولة الاسلامية ، فاتضح ان عاطفة التسامح الاسلامي كانت اجدى عليهم من نظام الحماية التي يتمتعون بها الآن .

هذه شهادة بعض العلماء في التسامح الاسلامي ، وهي سيرة لايوجدلها مثيل في الامم قديماً وحديثاً .

فالتسامح الاسلامي الديني الذي شرعه الاسلام يعتبر من أقوى الادلة على أنه وحي إلهي لاعمل إنساني ، وإلا فأنى للامم في عهـد اعتزازها بقومياتها وأديانها أن تتغلب على أهواء نفوسها فتقوم على نظام من المعاملات يقصر عن مثله ما أوجدته المدنية بعد مجالدة للحوادث دامت قروناً طويلة ، وبعـد ان بلغت العلوم شأواً لم يكن يتخيله الاقدمون في ايامهم الاولى .

ب ـ وكانت في الشمال قبائل عربية دانت بالمسيحية (زمناً طويلا ، فلما

بدأ الاسلام يصطرع مع الروم سارع بعضها الى اعتناقه ، والانضمام الى المسلمين مثل بني غسان .

ج ـ وكذلك صنعت بعض القبائل العربية التي كانت موالية للفرس ، فقد وفد على قائد المسلمين بعد موقعة القادسية سنة ١٤ هـ كثير من العرب المسيحيين المقيمين على ضفاف الفرات ، وأسلموا كما أسلم إخوان لهم من قبل .

وفي موقعة الجسر سنة ١٣ هـ كاد المسلمون ينهزمون هزيمة ساحقة ، وهم محصورون بين الفرات والجيش الفارسي ، وإذا بزعيم مسيحي من قبيلة طي ينضم الى المثنى القائد المسلم ، ويساعده في النجاة والارتداد المنظم .

ثم لما استرد المسلمون قواهم ، وهجموا تدفقت عليهم من كل فج جموع من العرب ، منها قبيلة بني النمر النصرانية التي كانت تقيم داخل النفوذ البيزنطي وهكذا تتكرر الامثال . (انتشار الاسلام ، ٤٧ ـ ٤٩)

د ـ وكذلك رحب القبط بالفتح الاسلامي ، ولقوا من عمرو اعظم التسامح ، لانه أنقذهم من الاضطهاد الديني ، ومن عسف الروم وتنكيلهم بمخالفيهم في المذاهب ، فقد قست في التنكيل بهم قسوة لم ينسها اعقابهم حتى اليوم ، فقد كان بعضهم يعذب ثم يلقى بهم في اليم ، وقتل منهم نحو مائتي الف في مدينة الاسكندرية بأمر من الامبراطور (جستنيان) .

والتاريخ يذكر ان اضطهاد (جستنيان) وخلفائه لقبط مصر حمل كثيراً منهم على الالتجاء الى الصحراء للاحتماء بها ، كما تبع كثير منهم بطريقهم الى المنفى فراراً من التنكيل ، واضطر عدد كبير الى إخفاء عقيدتهم الحقيقية .

فليس عجيباً ان يرحبوا بعمرو بن العاص ، وليس عجيباً ان يحقق لهم الحرية الدينية ، ولم يحدث في عهده ولا من بعده ضغط على أحدهم ليرتد عن

دينه ، بل ان بعضهم أسلم قبل أن يتم الفتح » . (انتشار الاسلام) تأليف أرنولد ص ٩٢ .

وما زال التاريخ يقص علينا ان عمراً كتب بيده عهداً لهم ـ بعد استيلائه على حصن (بابليون) ـ بحماية كنيستهم ، ولعن أي مسلم يخرجهم منها . وكتب أماناً للبطريق بنيامين ، ورده الى كرسيه ، بعد ان تغيب عنه ثلاثة عشر عاماً وامر باستقباله بالحفاوة عند ما سار الى الاسكندرية ٠ ولما لقي عمراً بها خطب أمامه وشكره ، واقترح عليه عدة أمور تحفظ الكنيسة ، فتقبلها عمرو وخوله السلطة التامة على القبط ، وعلى شؤون الكنيسة .

هـ ـ ولما فتح المسلمون بلاد الفرس لم يلقوا من الشعب مقاومة عنيفة ، لأن حكامه كانوا قد استبدوا به وأعنتوه ، ولأنهم كانوا يناصرون ديانة (زرادشت) التي صارت الدين الرسمي للدولة ، وقد كانت من قبل بغيضة الى الاهلين ومنذ صارت الزرادشتية دين الدولة علا مكان كهنتها ، واستغلوا نفوذهم في اضطهاد الفرق الدينية الاخرى وكانت كثيرة . على ان المسيحيين واليهود والصابئة وغيرهم لم يسلموا من هذا الاضطهاد .

ثم أن الشعب كان ينوء بالضرائب الباهظة والنظام الطبقي الجائر والحكم الفردي الفاسد .

لهذا لم يكد يتم للمسلمين النصر حتى تنفس الفرس الصعداء ورحبوا بهم حباً في الخلاص من ظلم الحكام أولا ، ورغبة في إعفائهم من الخدمة ثانياً ، وأملا في تمتعهم بالحرية الدينية ثالثاً ، (انتشار الاسلام ص ١٧٩ ، (أرنولد) .

ولم يخب أمل الفرس في عدالة المسلمين وسماحتهم ، لانهم عاملوا بالتسامح من بقي من الفرس على دينه ، وكفلوا لهم حريتهم في عبادتهم ومعابدهم . يدل على ذلك ان أحد قواد الخليفة المعتصم امر بجلد إمام ومؤذن ، لانهما اشتركا

في هدم معبد من معابد المجوس ، لتستخدم احجاره في بناء مسجد مكانه .

ويدل على ذلك ايضاً ان معابد النار في القرن العاشر الميلادي – بعد الفتح بثلاثة قرون – كانت تملأ العراق وفارس وكرمان وسجستان وخراسان واذربيجان ، حتى انه لم تخل مدينة من مدن فارس من معبد أو معابد لعبادة النار . (مروج الذهب) ولا شك ان بقاء معابد النار بهذه الكثرة بعد الفتح الاسلامي دليل على ان المسلمين لم يجبروا احداً على دينهم ، ودليل على ان الذين أسلموا من الفرس إنما أسلموا عن رغبة صادقة وحرية في الاختيار ، بعد أن وازنوا بين دينهم القديم وبين الاسلام .

و – ثم فتح المسلمون اسبانيا ، فأنجدوا سكانها من العسف والمذلة ، لأن القوط كانوا هم حكامها وسادتها ، فانهم لما دخلوها فاتحين طردوا منها الوندال والروم ، واستقلوا بها منذ سنة ٤٨٤ م ، وبقيت في قبضتهم اكثر من مائتي عام . وكان حكمهم فاسداً بغيضاً الى الشعب ، لانهم – على الرغم من تنصرهم – ترفعوا عن السكان الاصليين ، وعاشوا وحدهم في ابراج من العاج ، فكانوا هم الطبقة العليا ، واستأثروا بالضياع الواسعة ، وحرموا المصاهرة الى الاهلين .

أما الشعب فكان طائفتين : الطائفة الاولى هم ارقاء المزارع والعبيد ، وكان هؤلاء ملكا لسادتهم ، لا يحميهم قانون ولا عرف من التعذيب او القتل ، وكان ارقاء الارض ملزمين بالاقامة فيها وزرعها ، فاذا انتقلت من مالك الى مالك انتقلت اليه ملكية ارقائها ، ولم يكن من حقهم ان يتزوجوا إلا برضا السادة .

أما الطائفة الثانية فهي الطبقة المتوسطة ، وقوامها الاحرار من سكان المدن ، وقد لاقى هؤلاء من التضييق والارهاق مثل ما لاقى العبيد ، لان اثقال الضرائب التي كان يتطلبها السادة للانفاق على شهواتهم وترفهم ، كانت على عواتقهم . ثم إن رجال الدين خيبوا الآمال المعلقة عليهم في نصرة الضعفاء ،

لأنهم استغلوا تنصر القوط وانضامهم الى الكنيسة ، واستبدوا بشؤون الحكم وبشؤون الدين ، وتنافسوا في إحراز الثروات ، وامتلاك الضياع الواسعة ، وأعفوها من الضرائب ، كما اعفى الاشراف ضياعهم ، ولم يكونوا ارحم بأرقاء ارضهم من السادة الاشراف .

وحينما احسوا بقوتهم هيمنوا على سياسة الدولة ، وعلا نفوذهم على نفوذ الاشراف . ثم دفعهم التعصب الى اضطهاد اليهود ، وإجبارهم على التنصر ، وخيرهم الملوك بين اثنتين : ان يتنصروا او ينفوا وتصادر املاكهم ، فاضطر كثير منهم الى التنصر رياء لا عقيدة . وقد ظهر اثر هذا الرياء في تآمرهم مع يهود بلاد العرب ، وعزمهم على الثورة قبل الفتح الاسلامي بسبع عشرة سنة ، فلما عرفت الدولة مؤامرتهم سنة ٦٩٤ م سلبتهم املاكهم وضمتها الى الملك ، وقضت بأن يمتلكهم ويبيعهم عبيدا لمن شاء ، وان يربي ابناءهم على النصرانية ، وألا تتزوج يهودية إلا بنصراني . لهذا رحب اليهود وسكان البلاد بالعرب الفاتحين لانهم سيخلصونهم مما حل بهم .

وأيضاً لم يكن اختلاف الدين في نظر الاسلام مانعاً للذميين من ان يوظفوا في الدولة .

فقد اصطنع عمر بن الخطاب بعض اسارى قيسارية كتاباً له ، ووظفهم في الدولة . (فتوح البلدان للبلاذري) .

وإذا كان قد رفض ان يوظف مسيحياً من اهل الحيرة (كما في عيون الاخبار) ، لابن قتيبة ج٢ ـ ٤٣ ، فان ذلك لم يكن لاختلاف الدين ، وإنما كان لانه لم يطمئن اليه كما اطمأن الى غيره ، ولا تثريب عليه في هذا الرفض ، لانه كان يرفض تولية المسلم إذا توجس منه ظلماً للناس او خيانة المال ، كما صنع ذلك مع أبي هريرة فعزله عن ولاية البحرين وعلاه بالدرة .

كذلك اتخذ ابو موسى الاشعري كاتباً نصرانياً . (عيون الاخبار لابن قتيبة) .

ثم توسع معاوية في إلحاق النصارى بخدمته ، وحاكاه آخرون من البيت الاموي ، فكان لمعاوية طبيب نصراني هو ابن اثال ، وقد كافأه معاوية بوضع الخراج عنه ، وولاه خراج حمص . (تاريخ الطبري ٦ ـ ١٢٨ .)

وطالما شغل المسيحيون مناصب عالية في بلاط الخليفة ، مثل الاخطل شاعر البلاط ، ومثل يوحنا الدمشقي مستشار عبد الملك بن مروان . ثم اختار عبدالملك عالماً مسيحياً من مدينة الرها يدعى أثناس مؤدباً لاخيه عبد العزيز (انتشار الاسلام) ارنولد) .

ولما عين عبد العزيز والياً على مصر رافقه استاذه ، وجمع من مصر ثروة عظيمة جداً . (انتشار الاسلام أرنولد .

وقد ظل كتاب الدواوين حتى زمن عبد الملك بن مروان من غير المسلمين فكان كاتب الخراج في الشام سورياً ، وفي ايران فارسياً ، وفي مصر قبطياً وقلما خلا ديوان من دواوين الدولة في مصر من النصارى . (خطط المقريزي ج ١ ص ٩٨

ثم استمر هذا التسامح يتمشى مع العصور ، فان (جور جيس بن جبريل) رئيس اطباء جند يسابور عالج الخليفة المنصور ، وعرض عليه الخليفة ان يسلم ، فرد عليه بقوله : أنا على دين آبائي اموت ، وحيث يكون آبائي احب ان اكون إما في الجنة واما في جهنم . (طبقات الأطباء ، لابن ابي أصيبعة) (وانتشار الاسلام) فلم ينكر المنصور عليه ، ولم يبعده عن مكانته . وكان في خدمة المعتصم اخوان مسيحيان بلغا منزلة سامية عنده ، احدهما يسمى سلمويه والآخر يدعى ابراهيم ، وكان سلمويه يشغل منصباً قريب الشبه من منصب الوزير في العصر الحديث ، وكانت الوثائق الملكية لا تنفذ إلا بعد توقيعه عليها

أما ابراهيم فكان حافظاً لخاتم الخليفة وأميناً على خزانة بيوت الأموال في البلاد وكان المنتظر ان يوكل الاشراف على هذه الأموال لرجل من المسلمين . وقد ذكر السير توماس (ارنولد) اسماء بعض الوزراء والولاة المسيحيين في الدويلات الاسلامية ، واسماء الأطباء المسيحيين المقربين الى الخلفاء ، ثم قال : إن المسيحيين احرزوا ثروات ، وتمتعوا بنجاح عظيم في عصور الاسلام الاولى ، بفضل ما كفل الاسلام لهم من حرية الحياة والملك والعقيدة ، حتى لقد كان منهم من أرباب النفوذ في قصور الخلفاء . (انتشار الاسلام) .

لكن بعض الموظفين من اهل الكتاب استغلوا تقريب الخلفاء لهم ، واستغلوا وظائفهم استغلالا احنق عليهم بعض المسلمين ، فلم يكن اختلاف الدين هو الباعث على الحنق ، لان هذا الاستغلال لو كان من مسلم لاحنق المسلمين وحسبنا شهادة (الكونت هنري دي كاستري) في قوله : وكان بغض المسلمين لهؤلاء نتيجة في الغالب لجورهم في الاحكام ، لا لمخالفتهم في الدين . (الاسلام خواطر وسوانح) لم يفرق الاسلام بين المسلم والذمي في المعاملات العامة . لان الجميع سواسية امام القانون ، لا تفضيل ولا محاباة ، حتى وان كان احد الخصمين مسلماً رفيع المكانة ، والآخر يهودياً او مسيحيا .

فقد شكا يهودي علي بن ابي طالب للخليفة عمر ، فقال عمر لعلي عليه السلام : قم يا أبا الحسن فاجلس بجوار خصمك . ففعل علي عليه السلام وعلى وجهه علامة التأثر فلما فصل عمر في القضية قال لعلي (ع) : اكرهت يا علي ان تساوي خصمك ؟ قال : لا ، لكني تألمت لانك ناديتني بكنيتي ، فلم تسو بيننا ـ ومعلوم ان الكنية للتعظيم ـ فخشيت ان يظن اليهودي ان العدل ضاع بين المسلمين .

فهل سجل التاريخ او عرف الناس سماحة في العدالة ودقة في المساواة الى هذا الحد ؟

وتنازع الامير العباسي إبرهيم بن المهدي ، هو وبختيشوع الطبيب بين يدي القاضي احمد بن ابي دؤآد ، فزرى ابراهيم على بختيشوع واغلظ له ، فأحفظ ذلك القاضي ، فقال : يا إبراهيم اذا نازعت احدا في مجلس الحكم فلا ترفع عليه صوتك ، ولا تشر اليه بيدك ، وليكن قصدك أمما وطريقك نهجا وريحك ساكنة وكلامك معتدلا ، ووف مجالس الحكومة حقها من التوقير والتعظيم . . . فقال الامير ابراهيم : امرت بسداد وحضضت على رشاد ، ولست بعائد الى ما يثلم مروءتي عندك ، ويخرجني من مقدار الواجب الى الاعتذار وقد وهبت حقي من هذا العقار لبختيشوع ، فليت ذلك يمحو زلتي ولم يتلف مال أفاد موعظة .

أية عظمة هذه ؟ القاضي يسوي بين الامير المسلم ابن الخليفة المهدي ، وعم الخليفة المأمون ، وبين طبيب نصراني من موظفي الدولة ، والامير ، سرعان ما يستجيب لنصح القاضي ، ويندم على ما فرط منه من الغلظة والتعالي ، ثم يتنازل عن العقار الذي كانا يتنازعان عليه ، لا لأنه حق للطبيب ، بل ليعالج بمنحه للطبيب زلته معه .

شبهة وردها :

ربما يجد الباحث بعض التضييق في فترات متقطعة من التاريخ ، فيحسب ان هذا التضييق على الذميين منبعث عن تعصب او عن بغضاء ، لكن اذا دقق النظر لا يلبث ان يجده عارضاً طارئا لاسباب اقتضته .

أ ـ فاذا كان خالد بن الوليد قد اشترط على اهل الذمة ألا يلبسوا زي الحرب ، واشترط ابو عبيدة بن الجراح على اهل الشام ألا يلبسوا السلاح

في يوم عيدهم ، فلقد كانت الحكمة في هذا ان يتجنب الذميون المظاهر التي قد تثير الشحناء والبغضاء ؛ ولا تتفق مع المسالمة .

ب ـ واذا كان خالد قد اشترط على اهل الحيرة ألا يتشبهوا في زيهم بالمسلمين فان هذا الشرط لم يكن عن ترفع المسلمين عليهم ، او زرايتهم بهم لان اهل الذمة كانوا احرارا في اختيار ملابس اخرى غير ملابس المسلمين وان كانت اغلى وانفس ، وانما كان الغرض ان يكون لكل طائفة طابعها المميز ، وخصوصاً في أول العهد بالاسلام ، واختلاط المسلمين بغيرهم ، حتى يكون في هذا التمايز امان من الفتنة والاضطراب وزلزلة الامن .

ج ـ وقد اقصى الذميون عن الوظائف العامة في عهد المنصور والمتوكل والمقتدر وقليل ممن بعدهم ، لكن هذا الاقصاء لم يكن عن تعصب ديني : ذلك بان تجدد هذه المراسيم دليل قاطع على انها لم تنفذ دائماً ، وإلا فلماذا تجدد ؟ « ثم إن الباعث على إقصائهم كان ناشئاً عن السخط على سلوكهم الخشن في وظائفهم . وربما كان سورة من التعصب تنافي روح الاسلام ومعاملة الخلفاء الأولين . على ان هذه الاعمال التعسفية قد زالت في أسرع وقت » (انتشار الاسلام) .

موازنات وشهادات

أما وقد تجلت سماحة الاسلام والمسلمين في معاملة مخالفيهم في العقيدة فانا نريد ان نزيدها جلاءاً ، وأن نزيد النفوس بها إعجاباً ، إذ نوازن بين هذه السماحة التي كانت من طبائع الاسلام ، وبين القسوة التي استمرأها غيره .

ـ ١ ـ

لم تجر اليهودية على سماحة في معاملة خصومها . فقد جاء في العهد القديم « حين تقرب من مدينة لتحاربها أدعها الى الصلح ، فان أجابتك وفتحت لك فكل من فيها مسخر لك ومستعبد . وإن لم تسالمك وحاربتك فحاصرها ، فاذا دفعها الرب إلهك الى يدك فاضرب ذكورها بحد السيف . وأما النساء والاطفال والبهائم وكل مافي المدينة فهو غنيمة لك . وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن هذه الامم التي هنا . وأما مدن هذه الشعوب التي يعطيك الرب إياها فلاتستبق منها نسمة ما ، بل أهلكها اهلا كا » . (سفر التثنية) . « ولقد قتل بنولاوي ثلاثة آلاف رجل من شعب إسرائيل جزاء لهم على عبادة العجل » (سفر الخروج) «وأرسل موسى اثني عشر الف رجل لمحاربة اهل مدين فحاربوهم ، وانتصروا عليهم ، وقتلوا كل ذكرمنهم وخمسة ملوك ، وسبوا نساءهم وأولادهم . ولما رجعوا غضب عليهم موسى ، لأنهم استبقوا النساء والأطفال . ثم امر بقتل كل طفل ذكر ، وكل امرأة ثيب ، وأبقى الأبكار ، وكان عددهن ٣٢ألفاً (سفر العدد) . « وكان داود يقاتل اعداءه ، ولايبقي ذكراً ولاأنثى ولاطفلا » (صموئيل الاول) وكان احيانا يمثل بمن يقتلهم أشنع تمثيل ، « وأخرج الشعب الذي فيها ـ قرية فلسطين ـ ووضعهم تحت المناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد ،وأمرّهم في آتون الآجر وهكذا صنع بجميع مدن بني عمرون » (صمويل الثاني) .

ـ ٢ ـ

لما اعتنق بعض المصريين النصرانية ، نكلت بهم الدولة الرومانية الوثنية وطاردهم الوثنيون من الشعب ، حتى لقد سالت دماؤهم بشوارع الاسكندرية سنة ٢٠٢ م . وفي سنة ٣٠٤ نكل الامبراطور (دقلديانوس) بالقبط ، فنفى بعضهم

من مصر ، ورمى بعضهم للوحوش الضارية في حلقة الألعاب على مشهد من النظارة الوثنيين ؛ ومازال القبط يذكرون هذا العصر ويسمونه عصر الشهداء ويتخذونه مبدأ لتقويمهم الخاص ، ويبدأونه بحكم دقلدس سنة ٢٨٤ م .

على ان هذا الاضطهاد لم تنفرد به الدولة ، فقد ذبحت سيدة كريمة مثقفة تمكنت من نفسها الافلاطونية الحديثة ، وأخذت تذيعها في الناس ، وتعارض العقائد المسيحية ، ذبحها في احد شوارع الاسكندرية على مرآى ومسمع من الناس مسيحي منحه التاريخ لقب قديس ويرجح المؤرخون ان الذي اوعز اليه بقتلها بطريق الاسكندر (كيرولص) (الذي عين سنة ٤١٢ م) وكان معروفاً بالقسوة والغلو في اضطهاد مخالفي المسيحية ، ولاسيما اليهود الذين كانت معابدهم تهاجم بالقوة المسلحة ، وكانت اموالهم وديارهم عرضة دائماً للسلب والنهب . (الاسلام ظهوره وأنتشاره) .

وكان المفروض أن يستريح القبط من هذا الأعنات الوحشي إذا ماصارت المسيحية دين الدولة الرسمي ، لكنهم اصطلوا في العهد المسيحي للدولة بمثل ماكانوا يصطلونه في عهدها الوثني . ذلك بأن كنيسة بيزنطة كانت صاحبة مذهب سمي بالمذهب الملكي ، وهو قائم على ان للمسيح طبيعتين إلهية وبشرية ، وكانت كنيسة الاسكندرية تدعو الى مذهب آخر اساسه ان للمسيح طبيعة واحدة . وجهدت الدولة البيزنطية في ان تفرض مذهبها الملكي ، وأصر القبط على مذهبهم ، فنكلت بهم الدولة تنكيلا ، كأنما حق على القبط ان ينصب عليهم طغيان الدولة وهي وثنية لاختلاف الدين ، وأن ينصب عليهم طغيانها وهي مسيحية لاختلاف المذهب في الدين الواحد . وحسبنا ان نشير الى بعض ما احتملوا في العهد المسيحي للدولة من عذاب أليم . فقد أمر الامبراطور فوقاس (٦٠٢ ـ ٦١٠ م) بعزل المصريين من الحكومة ، وإجبارهم على طاعة

الكنيسة الرسمية في القسطنطينية . ولم يكـونوا في عهد خلفه هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١ م) اسعد حالا ، ولاأهدأ بالاً ، لأن النزاع بينهم وبين الامبراطورية كان على اشده ، وتبادل الفريقان تهمة الكفر والخيانة ، وكانت أيسر تهمة لمخالفي مذهب الامبراطور انهم وثنيون خونة .

فلم يكن عجباً ان رحب القبط بالمسلمين الفاتحين ، ولاغرابة في قول المؤرخ المسيحي (ميخائيل السوري) : إن الله المنتقم الجبار اتى بأبناء إسماعيل من الصحراء لينقذوا الأمم من عسف الروم ومن عسف الرومان .

ـ ٣ ـ

ولقد لقي سكان الامبراطورية البيزنطية مثل مالقي سكان مصر من عسف الامبراطور (جستنيان) الاول (٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) فقد كان شديد القسوة في معاملة من يدينون بمذهب الكنيسة الملكانية . ويمكن تلخيص آرائه عن الحكومة في هذه العبارة الموجزة : حكومة واحدة ، وقانون واحـــد ، وكنيسة واحدة . وعلى الرغم من ان مخالفي مذهب الكنيسة الرسمية كانوا يؤدون مايؤديه المواطنون من ضرائب وواجبـات ، فقد حرم عليهم التمتع بالحقوق التي يتمتع بها اتباع الـكنيسة الرسمية ، وحرم عليهم الاشتغال بالمهن الحرة ، بل أمر بهدم كنائسهم وحظر عليهم الاجتماعات العامة ، وأمر بألاتقبل شهادتهم القانونية على الأرثوذكس ، وبأن تصير وصاياهم باطلة ، وبألا يرثوا ولوكان الميراث بوصية إختيارية (الامبراطورية البيزنطية) واستحال النظام الكنسي الى عسف ثقيل ظالم على رجال الكنيسة العامة ، حتى لقد انفجرت ثورة سنة ٥٣٢ م على الدولة وعلى الكنيسة معاً ، ولم تقمع إلابعد ان ذبح خمسة وثلاثون الفاً . وبسبب هذا العسف وضع جماعة المتذمرين احتجاجاً قوياً في ناديهم على اضطهاد الامبراطور ، ونادوا قائلين : لقد فقد العدل من الدنيا

ولن يعود . اما نحن فستتهود ، بل سوف نعود الى الوثنية الاغريقية .
(انتشار الاسلام) .

ـ ٤ ـ

كذلك نكلت الدولة الرومانية باليهود ، فهدمت هيكل سليمان وطردتهم من بيت المقدس ، وطاردتهم في البلاد الخاضعة لها ، وأجبرتهم على عبادة الامبراطور قبل ان تعتنق الدولة المسيحية ، ثم اكرهتهم على المسيحية بعدذلك . وحسبنا ان نذكرماحل بهم قبيل الفتح الاسلامي لمصر ، فقد طردهم الامبراطور فوقاس (٦٠٢ ـ ٦١٠ م) من وظائف الدولة بالاسكندرية ، وأمر بتعميدهم كرهاً ، وبأن يقتل من يرفض التعميد . ثم جاء من بعده الامبراطور هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١م) وكان اليهود قد اسهموا في نصره عليه والحرب دائرة بينهما ، وترقبوا ان يكافئهم بتركهم احراراً في دينهم ، فاذاهو أنكى وأقسى على اليهود من سلفه ، فقد نكث بعهده الذي اعطاهم ، وقتل منهم خلقاً كثيراً جداً بمصر والشام حتى لم يبق منهم الامن نجاه الفرار او الاختفاء .

ـ ٥ ـ

لما فتح المسلمون الأندلس أعفوا من الجزية غير القادرين عليها ، ووكلوا جمعها الى موظفين من النصارى . وسلك المسلمون مسلكاً نبيلاً في تصريف الشئون هناك . واستمتع بالحرية النصارى واليهود .

١ ـ أما النصارى فقد ظلوا احراراً في إقامة شعائرهم الدينية ، وبنواعدة اديار جديدة ، ولم تكن المناصب المسيحية سبباً في حرمان بعض المسيحيين من ان يتولى المناصب العالية في قصور الملوك اوفي الجيش ، لذلك اندمج المسيحيون بالمسلمين ، وتسمى كثير منهم بأسماء عربية ، وحاكوا المسلمين في كثير من عاداتهم واعمالهم ، فاختتن كثير منهم ، وتعلموا اللغة العربية ، ودرسوا العلوم

الاسلامية . ولما هاجر بعض المسيحيين الى فرنسا ليعيشوا في ظلال حكم مسيحي لم يصيروا احسن حالا من إخوانهم النصارى بالاندلس .

وإن الفرق في الحرية الدينية ليتضح من الموازنة بين الحرية والسماحة في ظلال الحكم الاسلامي ، وبين العسف والاضطهاد قبله ، فقد فتح المسلمون الأندلس في الوقت الذي كان فيه المذهب الكاثوليكي قد انتصر على المذهب الآريوسي ، وقد اصدر المجمع السادس في طليطلة قراراً يقضي على كل الملوك بأن يقسموا انهم لا يسمحون بانتشار مذهب آخر غير الكاثوليكي ، وان يقاوموا بالقوة من يخرج عليه ، ثم صدر قانون آخر يحرم على كل شخص ان يشك في الكنيسة الكاثوليكية المقدسة ، وبذلك عظم نفوذ رجال الدين في شؤون السياسة والملك والدين .

وليس أدل على تسامح الاسلام والمسلمين من أنهم احتملوا بصدر رحب تحرش المسيحيين بالاسلام ، وطعنهم في النبي ﷺ ، ذلك ان القسس والرهبان ـ حينما كان عامة المسيحيين في قرطبة يقيمون شعائر دينهم مطمئنين ، ولا يشكون من حكم العرب ـ هيجوا بعض المسيحيين على المسلمين والاسلام ، فاندفعوا الى الطعن فيه وفي نبيه جهراً ، وفي المحاكم على مسمع من القضاة ، وتخيل بعض المتهوسين ان قتلهم او تعذيبهم على هذا زلفى الى الله ، واستمر الهوس من سنة ٨٥١ الى ٨٥٩ م .

وكان القضاة المسلمون يحكمون عليهم آناً ويصمون آذانهم حتى لايسمعوهم فيحكموا عليهم أحياناً ، وكان المسلمون مشفقين على هؤلاء المجانين الذين لايقابلون الحسنى بمثلها ، ولا يرعون حرمة الاسلام كما يرعى المسلمون حرمة المسيحية . (الاسلام ، الكونت هنري دي كاستري) .

ولقد يعجب المؤرخون من سرعة انتشار الاسلام حتى بلغ نهر اللوار

في فرنسا ، ويتساءلون عن مصير أوروبا لولم يقف شارل مارقل في وجه المسلمين في سهل بواتييه . والحق ان السؤال معكوس ، إذ الأولى ان يتساءلوا : ماذا كان مصير اوربا المسيحية لو كان المسلمون متعصبين لدينهم ؟ ذلك ان هزيمة المسلمين في بواتييه ليست سبباً فعالاً في تعويق الاسلام عن الانتشار ، ولم تكن هزيمة واحدة في الحرب لتنتج هذه النتيجه الكبرى ، فالعادة ان الحرب سجال ، وكثيراً ماجبرت الهزيمة بنصر مؤزر ، وإنما السبب الأول في ذلك « هو تطرف المسلمين في المحاسنة ، لأنها سهلت العصيان للعصاة ، ومهدت لبعض الأسر المستقلة في المغرب الخروج على الجامعة في بلاد الأندلس وبلاد المغرب ، وانتهى الأمر - مع المحاسنة - الى انحلال عناصر المملكة العربية . ومن المرجح ان المسلمين لوعاملوا الاندلسيين كما عامل المسيحيون الأمم السكسكونية و (الواندية) لأخلدت الى الاسلام واستقرت عليه لأنها كانت - مع تمتعها بحرية دينها المسيحي - كثيرة الانشقاق والاحزاب » (الاسلام . الكونت هنري دي كاستري) .

ب - وأما اليهود فقد كانوا قبل الفتح الاسلامي يرزحون تحت عسف القوط ، وظلوا على ذلك زمناً طويلا ، الى ان دخل المسلمون الأندلس ، فخلصوهم من هذا الاضطهاد ، وسمحوا لهم بحرية التجارة التي كانت محظورة عليهم من قبل ، وأباحوا لهم ان يمتلكوا ، بعد ان كانت الملكية محرمة عليهم ، ولهذا نهضوا واشتهر كثير منهم بالعلم والأدب بعد ان استنشقوا نسيم الحرية . ولما اضطهدت اوربا اليهود لجأوا الى المسلمين بالأندلس في قرطبة ، على انه لما دخل الملك (كارلوس) سرقسطة أمر جنوده بهدم جميع معابد اليهود ومساجد المسلمين . ونحن نعلم ان المسيحيين ايام الحروب الصليبية مادخلوا بلاداً إلا أعملوا سيوفهم في يهودها ومسلميها .

وذلك يؤيد ان اليهود إنما وجدوا مجيراً وملجأً في الاسلام ، فان كانت

لهم باقية حتى اليوم فالفضل فيها راجع لحاسنة المسلمين ولين جانبهم ، لا الى ما بين الاثنين من وحدة في الاصل والجنس واللغة والدين كما ادعاه (افيديكور شايكين) . (الاسلام خواطر وسوانح) .

ج ـ وكان بالأندلس طبقة العبيد ورقيق الأرض ، وقد رحبوا بالعرب الفاتحين ليخلصوهم من قيود سادتهم القوط ؛ ثم اعتنق كثير منهم الاسلام ، واستمتعوا في ظلال الحكم الاسلامي بحقوق مدنية كانت محظورة عليهم ، فصاروا يزرعون الارض لحسابهم ، ويؤدون عنها خراجاً للدولة . ولم يحدث ان أرغمت الدولة احداً على ان يسلم .

ـ ٦ ـ

منذ ان صار النساطرة رعية للمسلمين نهضوا بدينهم ، ونشطوا في نشره ، فأرسلوا البعوث الدينية الى الهند والصين ، وارتقى كل منها الى مرتبة المطرانية في القرن الثامن الميلادي ، وفي العصر نفسه رسخت اقدامهم في مصر ، ثم اشاعوافيها بعد العقيدة المسيحية في آسيا . ولما كانت الطوائف المسيحية الأخرى قد اخفقت في إظهار مثل هذا النشاط القوي ، فليس المسلمون هم المسؤلين عن هذا الاخفاق ، إذ كانت الحكومة الاسلامية تعامل الطوائف كلها على حد سواء ، وكانت تحمي بعضهم من اضطهاد بعض . (انتشار الاسلام) .

ـ٧ـ

في مستهل العصر الحديث حاقت بجماعات الهيجونوت في فرنسا كوارث من إخوانهم الكاثوليك ، وفي زمن هنري الثامن انفصلت الكنيسة الانجليزية عن كنيسة رومه ، واقترن هذا الانفصال بأشد انواع القسوة والنضال والاضطهاد

لفرض المذهب الجديد ، حتى لقد ذاقت انجلترا النار والمشنقة من جراء التطاحن الديني المذهبي . (أهل الذمة في الاسلام ، (تريتون)

وفي سنة ١٦٢٠ هاجر من انجلترا الى امريكا جماعة من البيوريتان الانجليز فراراً من الاضطهاد الديني ، وأقاموا هنالك جمهورية حرة ، اول اساس في دستورها حرية العقيدة ثم لحق بهم أشباه لهم . وكانت هذه الطائفة - البيوريتان - طائفة متطرفة من البروتستانت ، وكانت ثائرة على نظام الحكم في انكلترا وثائرة على الكنيسة ، وتعتقد ان المسيحية دين ودولة ، والمثل الأعلى للبشرية هو إقامة ثيواقراطية (حكومة الله) ، وهي حكومة ليس فيها كنهوت ، ولاملوك ، ولاقانون إلاما جاء بالتوراة والانجيل . (دراسات في الادب الأمريكي)

يهمنا من هؤلاء المهاجرين الفارين بعقيدتهم انهم بعد ان اصطلوا بنار العسف والاضطهاد الديني أسسوا دستور جمهوريتهم الصغيرة على حرية العقيدة الدينية ، وأباحوا لكل عضو أن ينتقد مالا يروقه ، لكنهم لم يلبثوا ان نسوا ماعقدوا العزم عليه ، فجعلوا مذهبهم الدين الأوحد . وحاربوا مخالفيهم من اتباع المذاهب الأخرى ، اومن ليس لهم مذهب معين يلتزمونه

بل لقد بلغ من عنتهم انهم في سنة ١٦٩٢ م اعدموا أكثر من ثلاثين رجلا وإمرأة من مخالفيهم في الدين ، وسجنوا مئآت منهم بتهمة السحر .

- ٨ -

كان اعتناق دين يخالف الكنيسة الأرثوذكسية محرماً في القانون الروسي الى ان صدر مرسوم التسامح الديني سنة ١٩٠٥ م .

ومن النتائج التي انتجها هذا المرسوم ان دخلت جموع كثيرة في الاسلام من سكان القوقاز ، من طوائف الأنجاز الذين قضوا زمناً طويلا يدينون

بالمسيحية إسما، وقد بلغ من ضخامة عددهم ان رجال الكنيسة الأرثوذكسية قد خشوهم اشد الخشية، فألفوا جاعات لتوزيع منشورات دينية بينهم، املا في مناهضة النفوذ الاسلامي. (انتشار الاسلام ارنولد).

ـ ٩ ـ

شهد البطريق (عيشويابه) الذي تولى منصبه سنة ٦٤٧ ـ ٦٥٧ هـ بأن «العرب الذي مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون. إنهم ليسوا أعداء للنصرانية، يمدحون ملتنا، ويوقرون قديسنا وقسيسنا، ويمدون يد المعونة الى كنائسنا وديننا». (أهل الذمة في الاسلام، (تريتون)

ـ ١٠ ـ

وذكر القس ميشون في كتابه (سياحة دينية في الشرق) أنه من المحزن ان يتلقى المسيحيون عن المسلمين روح التسامح وحسن المعاملة، وهما اقدس قواعد الرحمة والاحسان عند الشعوب والامم. (محمد رسول الله).

ـ ١١ ـ

قال (ميشو) في تاريخ الحروب الصليبية: لما استولى عمر على مدينة أورشليم لم يفعل بالمسيحيين ضرراً مطلقاً، ولكن لما استولى عليها المسيحيون قتلوا المسلمين ولم يشفقوا، واحرقوا اليهود إحراقاً. وقال (الجرميشون): مما يؤسف له أن المسلمين هم الذين كانو يبدءون المسيحيين بالمسالمة وحسن المعاملة، مع أن المسالمة هي منبع الخير بين الأمم بعضها وبعض. (الاسلام الكونت هنري دي كاستري).

ولقد أيقنت من تتبعي للتاريخ ان معاملة المسلمين للمسيحيين تدل على ترفع في المعاشرة عن الغلظة، وتدل على حسن مسايرة ولطف مجاملة، وهو إحساس لم يشاهد في غير المسلمين إذ ذاك، خصوصاً ان الشفقة والرحمة والحنان

كانت مماراة ضعف عند الاوربيين ، وهذه حقيقة لا أرى وجهاً للطعن فيها . (الاسلام خواطر وسوانح) .

ـ ١٢ ـ

قال (السير توماس أرنولد):

لقد عامل المسلمون الظافرون العرب المسيحيين بتسامح عظيم منذ القرن الأول للهجرة ، واستمر هذا التسامح في القرون المتعاقبة ، ونستطيع ان نحكم بحق ان القبائل المسيحية التي اعتنقت الاسلام إنما اعتنقته عن اختيار وإرادة حرة ، وان العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات المسلمين لشاهد على التسامح . (الدعوة الى الاسلام توماس أرنولد)

ـ ١٣ ـ

قال (الكونت هنري دي كاستري) :

واذا انتقلنا من الفتح الاول للاسلام الى استقرار حكومته استقراراً منظماً رايناه اكثر محاسنة ، وأنعم ملمساً ، بين مسيحي الشرق على الاطلاق فما عارض العرب قط شعائر الدين المسيحي ، بل بقيت رومة نفسها حرة في المراسلات مع الأساقفة الذين كانوا يرعون الامة الحالية . وفي سنة ١٠٥٣ م كتب (البابا ليون) التاسع الى مسيحي إفريقية يوصيهم باعتبار أسقف قرطاجنة مطراناً عاماً بينهم .

وكان الوئام مستحكماً بين المسلمين والمسيحيين ، حتى ان (غريغوريوس) السابع كتب الى المسيحيين يلومهم على المحاكمة مع اسقفهم أمام المسلمين ، وكان ذلك في ٥ سبتمبر سنة ١٠٧٣ م . على ان الاسلام لم يكن له عمال يختصون بالدعوة اليه وتعليم مبادئه كما في الديانة المسيحية ، فقد شاهدنا الملك (شارلمال) يستصحب معه على الدوام في حروبه ركباً من القسس والرهبان ليباشروا فتح

الضمائر والقلوب ، بعد ان يكون هو قد باشر فتح المدائن والأقاليم بجيوشه التي كان يصلي بها الامم حرباً تجعل الولدان شيباً . لكنا لا نعلم للاسلام مجمعاً دينياً ولا رسلا واحباراً وراء الجيوش ، ولا رهبنة بعد الفتح ، فلم يكره احداً على الاسلام بالسيف ولا باللسان ، نعم قد اعتنق الاسلام قوم مشوا وراء منافعهم لكنهم قلة بجانب من أسلم عن اعتقاد صادق وميل صحيح ، وكان ذلك من أسهل الامور ، لبساطة الدين ، وكفاية النطق بكلمة التوحيـــد ليصير قائلها من المسلمين · ولقد زادت محاسنة المسلمين للمسيحيين في بلاد الأندلس حتى صاروا في حالة أهنأ من التي كانوا عليها ايام خضوعهم لحكم قدماء الجرمان .

ثم ينقل عن (دوزي) قوله :

لقد أبقى المسلمون سكان الاندلس على دينهم وشرعهم وقضائهم ، وقلدوهم بعض الوظائف ، حتى كان منهم موظفون في خدمة الخلفاء ، وكثير منهم تولى قيادة الجيوش ، وتولد عن هذه السياسة الرحيمة انحياز عقلاء الامة الاندلسية الى المسلمين ، وحصل بينهم زواج كثير ، وكم من اندلسي بقي على دينه ، ولكن اعجبته طلاوة التمدن العربي ، فتعلم اللغة وآدابها ، وصار القسس يلومونهم على ترك ألحان الكنيسة ، والتعلق بأشعار الظافرين .

وكانت حرية الاديان بالغة منتهاها . لذلك لما اضطهدت اوربا اليهود لجأوا الى خلفاء الاندلس في قرطبة ، لكن لما دخل الملك كارلوس سرقسطة امر جنوده بهدم جميع معابد اليهود ومساجد المسلمين · ونحن نعلم ان المسيحيين أيام الحروب الصليبية ما دخلوا بلاداً إلا أعملوا السيف في يهودها ومسلميها ، وذلك يؤيد ان اليهود إنما وجدوا مجيراً وملجأً في الاسلام ، فان كانت لهم باقية حتى الآن فالفضل فيها راجع لمحاسنة المسلمين لا الى ما بين الاثنين من الجامعة في الاصل والجنس واللغة والدين كما ادعى (أفيديكور شايكين) (الاسـلام

الكونت هنري دي كاستري)

ويقرر في موضع آخر ان حكام المسلمين احترموا مدينة بنارس ، لانها مقدسة عند الهنود البراهمة . ويرى ان اتهام الاسلام بأنه انتشر بالقوة خطأ ، والصواب ان يقال إن مسالمة المسلمين ولين جانبهم كانا من اسباب سقوط المملكة العربية » . (المرجم السابق) .

ـ ١٤ ـ

وإذن فقد تبين لنا ان سماحة الاسلام وتسامح المسلمين من العوامل القوية الفعالة في انتصارهم السريع ، وفتحهم الخاطف ، إذ لم يجدوا مقاومة عنيفة من الشعوب .

وهذه إحدى العلل التي غفل عنها نابليون حينما علل لانتشار الاسلام ، وذهب الى ان وراء هذا التعليل سراً لا يعلمه ، في قوله . إننا اذا طرحنا جانباً الظروف العرضية التي تأتي بالعجائب ، فلابد ان يكون من وراء انتشار الاسلام سر لا نعلمه ، واسباب مجهولة مكنته من الانتصار السريع على المسيحية وربما كانت العلة المجهولة ان هؤلاء القوم الذين وثبوا فجأة من اعماق الصحاري قد صهرتهم قبل ذلك حروب داخلية عنيفة طويلة ، تكونت في اثنائها أخلاق قوية ومواهب عبقرية وحماسة غلابة ، وربما كانت هذه العلة شيئاً آخر من هذا القبيل . (مذكرات سانت هيلين عن محمد رسول الله) .

سماحة الاسلام في الجزية

لم يكن بد من صراع دموي ينشب بين الدولة الاسلامية الناشئة وخصومها من المقيمين في الجزيرة العربية ، ومن المقيمين حولها ، لاسباب

لا يعنينا تفصيلها في هذا المقام ، وحسبنا أن نجملها في انها كانت في عهد النبي ﷺ مواقف دفاعية لحماية العقيدة ، أو لحماية الذين دانوا بها ، ثم صارت فيما بعد كذلك ، أو حركة سياسية اقتضاها الملك الناشىء الوثاب .

وقد اتسم الفتح الاسلامي بالعدل والسماحة ، اذ فتح المسلمون أقطاراً عدة في المشرق والمغرب ، ولم يعرف في تاريخهم الطويل انهم ضيقوا على اليهود والنصارى ، أو انهم اجبروا احداً على الاسلام . وقصارى ما كانوا يعملون حينما يتم لهم الفتح ان يخيروا سكان البلد المفتوح بين امرين . أما الاسلام ، وأما البقاء على دينهم على ان يدفعوا الجزية للدولة ، فالجزية إذاً نتيجة من نتائج الحرب واثر من آثارها ، وليست دافعاً الى الحرب ولا هدفاً من اهدافها .

قال الله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . (التوبة) ومعنى هذا ان المسلمين مأمورون بقتال اعدائهم إذا حدث منهم ما يوجب قتالهم ، كأن يعتدوا على ديار المسلمين ، او على اشخاصهم او اموالهم ، أو يدبروا المؤامرات لتهديد سلامتهم وتعويق دعوتهم وفتنتهم عن دينهم . والمسلمون مكلفون ان يقاتلوا هؤلاء الأعداء حتى يأمنوا شرهم ، ولا سبيل الى هذا إلا بالغلب وفرض الجزية .

وفي الآية الكريمة تقييد لهذه الجزية ، بأن تكون عن مقدرة من الدافعين بحيث لا يظلمون ولا يرهقون ، وبأن يكون الغرض منها الاقرار بالخضوع .

إن المتدبر في المقاصد العامة الاسلامية ، لا يشك في ان قتال اهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، ليس لغرض تمتع اولياء الاسلام ولا المسلمين من متاع الحياة الدنيا واسترسالهم وانهماكهم في الشهوات على حد المترفين من الملوك والرؤساء المسرفين من اقوياء الأمم . وإنما غرض الدين في ذلك ان يظهر دين

الحق وسنة العدل وكلمة التقوى على الباطل والظلم والفسق فلا يعترضها في مسيرها اللعب والهوى ، فتسلم التربية الصالحة المصلحة من مزاحمة التربية الفاسدة المفسدة حتى لا ينجر الى ان تجذب هذه الى جانب ، وتلك الى جانب ، فيتشوش امر النظام الانساني ، إلا ان لا يرتضي واحد او جماعة التربية الاسلامية لنفسه أو لأنفسهم فيكونون احراراً فيما يرتضونه لانفسهم من تربية دينهم الخاصة على شرط ان يكونوا على شيء من دين التوحيد ، وهو اليهودية او النصرانية أو المجوسية ، وان لا يتظاهروا بالمزاحمة ، وهذا غاية العدل والنصفة من دين الحق الظاهر على غيره .

ما الجزية؟

الجزية : هي عطية مالية مأخوذة منهم ، مصروفة في حفظ ذمتهم وحسن إدارتهم ، ولا غنى عن مثلها لحكومة قائمة على ساقها ، حقة او باطلة .

والمراد بالصغار في قوله تعالى : « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» هو الخضوع للسنة الاسلامية والحكومة الدينية العادلة في المجتمع الاسلامي فلا يكافئوا المسلمين ولا يبارزوهم بشخصية مستقلة حرة في بث ما تهواه انفسهم وإشاعة ما اختلقته هو ساتهم من العقائد والاعمال المفسدة للمجتمع الانساني ، مع ما في إعطاء المال بأيديهم من الهوان .

وهذا هو المراد من صغارهم لا إهانتهم والسخرية بهم من جانب المسلمين او اولياء الحكومة الدينية ، فان هذا مما لا يحتمله السكينة والوقار الاسلامي .

ممن تؤخذ:

تؤخذ من كل كافر ، سواء أكان كتابياً أم غير كتابي ، عربياً أم غير عربي . وهذا هو الاوفق ، لان الجزية ان لم تقبل من غير الكتابي والمجوسي ادى رفضها الى إجباره على الاسلام ، لكن الاسلام لا إجبار فيه . قال تعالى « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » .

وسبب آخر ان المجوس ـ على ان لهم شبهة كتاب ـ يعبدون النار ، فهم في الواقع كفار ، وقبولها من سائر الكفار مثل قبولها من المجوس . والتاريخ يحدثنا بأن الرسول والخلفاء بعده لم يفرقوا بين العرب والعجم في الجزية ، فقد اخذوها من نصارى العرب ، واخذوها من مجوس هجر ـ وهم عرب ـ واخذوها من يهود اليمن .

أما السبب في ان الاسلام لم يقبل الجزية من العرب المشركين كما قبلها من اهل الكتاب ، فيرجع الى ان اهل الكتاب كانت عقائدهم ادنى الى الحق والصواب من عقائد المشركين ، ففي كتبهم المنزلة ما يكفل صلاحهم إن اهتدوا به ، قال تعالى : « إنا انزلنا التوراة فيها هدى ونور » وقال تعالى : « وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدي وموعظة للمتقين » .
أما العرب فكانوا وثنيين ، والاسلام لا يقر الوثنية ، لانها لا يرتجى منها خير ثم ان مشركي العرب تمادوا في عدائهم للمسلمين ، ولم يرعوا في عدائهم رحماً ولا مروءة ، على انهم قبائل متنازعة متناحرة ، والاسلام يريد ان ينشيء منهم امة قوية متماسكة فلو انه قبل منهم الجزية لعاشوا على نظامهم القبلي ، فلا وحدة لهم ولا قوة ولا نستطيع ان نتناسى انهم اشد الناس اختلاطاً بالمسلمين

ومعرفة بأحوالهم ، فهم اقـــدرهم على مباغتة المسلمين وتمهيد السبيل لحربهم والمظاهرة عليهم ، فالسيف اجدى في معاملتهم ، وإذاً فالحكمة تقضي بمحاربتهم حتى يسلموا ، وهم المقصودون بالناس في قوله ﷺ . « وأمرت ان أقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فاذا قبلوا مني ذلك عصموا دماءهم واموالهم إلا بحق الله ، وحسابهم على الله » . فالمراد بالناس هنا مشركوا العرب ، لان غيرهم من اهل الكتاب والمشركين يقاتلون حتى يؤدوا الجزية او يسلموا .

بقي شيء آخر ان الجزية كانت قد فرضت في السنة الثامنة للهجرة بعـد غزوة تبوك ، وفي هذا الوقت كان النبي قد فتح مكة ، وكان عرب الجزيرة قد اسلموا ولم يبق فيهم مشرك يعلن إشراكه حتى تؤخذ منه الجزية .

ولم يأخذ النبي ﷺ الجزية من يهود خيبر ، لانه كان قد صالحهم على ان يقرهم في ارضهم ليزرعوها مناصفة قبل غزوة تبوك بثلاث سنين . ولم تكن الجزية قد نزلت بعد ، فمعاهدة صلحهم واقرارهم في ارضهم كان سابقـاً على فرض الجزية .

فيم تنفق ؟

هذه الجزية التي يجمعها الحاكم ، ويشفع اليها الخراج والعشور ـ كما نبين ـ أين يذهب بها ؟ وكيف يتصرف فيها ؟ .

أيحتكرها لنفسه ؟

أيختص بها ذوي قرباه ؟

أيقصر النفع بها على المسلمين وحدهم ؟

لا . إنما ينفق الخراج في المصالح العامة للدولة ويدخل في هذا اصلاح

حال المسلمين ، وأرزاق الموظفين والولاة والقضاة وأهل الفتوى من العلماء ورجال الجيش ، وتعبيد الطرق وعمارة المساجد والرباطات والقناطر والجسور وإصلاح الأنهار . . وما اليها ومن هنا نعلم ان المرافق العامة ينتفع بها المسلمون وغيرهم ، على ان أهل الذمة كانوا ينتفعون ايضا بهذا المال انتفاعا لايدخل في نطاق المرافق العامة . فقد كتب والي العراق إلى عمر بن عبد العزيز يخبره انه قد اجتمعت عنده اموال عظيمة ، فأمره ان يوسع بها على المسلمين وذراريهم ، فكتب اليه انه قد فعل وما تزال الاموال كثيرة ، فأمره ان يزوج ابكار النساء ابكار الرجال . فكتب اليه انه قد فعل ، وبقي مال فكتب اليه ان يقوي أهل الذمة على العمارة ، ويجعله سلفا عليهم .

مظاهر العدالة والسماحة

في فرض الجزية وجبايتها

كثيراً ماردد المغرضون والمتحذلقون أن الجزية إذلال وقهر ، وعدوان على الملك والمال . ونسي هؤلاء او تناسوا ان الاسلام راعى في فرض الجزية وفي جمعها مايتفق مع سموه من عدالة ورحمة وسماحة .

ـ ١ ـ

فقد كانت الجزية يسيرة صغيرة لاارهاق فيها ، وأي إرهاق في ان يدفع الفرد الغني في كل عام ٤٨ درهماً والمتوسط ٣٤ درهماً ، والفقير ١٢ درهماً وهذا هو القدر الذي استقر عليه التشريع بعد اتساع الفتوح . أما قبل ذلك في عهد النبي (ص) فان الجزية لم تكن محددة المقدار ، بل كان تقديرها متروكاً لها حسب مقدرة المهزومين وحالهم والتراضي معهم . فالنبي أخذ الجزية من يهود بنجران

وبالبحرين وبغيرهما ، وأخذها من نصارى أيلة ثلاثمائة دينار في كل سنة ، وأن يضيفوا من عر بهم من المسلمين ثلاثاً ، وألا يغشوا مسلماً . وأخذها كذلك من نصارى اليمن ديناراً من كل بالغ ، وصالح نصارى نجران على ألفي حلة في صفر وألفين في رجب ، ومع كل حلة أوقية من الفضة ، وأن عليهم ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً ان كان باليمن حرب ، وأمنهم على بيعهم وقسسهم ودينهم مالم يحدثوا حدثاً او يأكلوا الربا ، وفرض على كل بالغ بالبحرين من الذميين ديناراً .

وكانت الجزية في اي بلد مفتوح ديناراً واحدا عن كل بالغ كاسب كما كان الحال في الشام إلا في قليل من البلدان ، إذ كان يزاد على الدينار جريب حنطة . فلما اتسعت الفتوح في عهد عمر حدد قيمتها ، ثم تغيرت القيمة فقدرت حسب مقدرة الدافعين ، فكانت في السنة على الغني ٤٨ درهما ، وعلى متوسط الحال ٣٤ درهما ، وعلى الفقير الكاسب ١٢ درهما ، ـ اي ان الغني كان يدفع في العام دينارين اثنين .

وفي مصر فرض عمرو بن العاص دينارين في كل سنة على كل رجل من اهل الذمة ، واستثنى من ذلك الشيوخ والنساء والصبيان .

هل أسلم القبط فراراً من الجزية ؟

وفي هذا المقام لابد من تفنيد مازعمه بعض المؤرخين ، ان قبط مصر دخل كثير منهم في الاسلام فرارا من قسوة الجزية وهذا زعم مبعثه تعصبهم على الاسلام من ناحية ، واستكبارهم ان يعترفوا بأن المسلمين الفاتحين لم يرغموا احدا على اعتناق دينهم من ناحية ثانية ، فراحوا يدعون ان المسلمين كانوا يخافون من تناقص مايجبون من جزية ، ويخشون ان تضيق خزانة الأموال الحكومية عن اعطيات الجند والعمال ، فأرهقوا القبط بما فرضوا عليهم من مال .

وفي تعليلهم مغالطة تجافي الحق والواقع ، لان الضريبة التي فرضها المسلمون

على القبط كانت دينارين في السنة عن كل رجل قادر ، وكان يعفى منها العاجزون والشيوخ والنساء والصبيان . وهذا قدر ضئيل بالقياس الى ما احتمل القبط من إعنات الرومان وجشعهم .

أما إسلام كثير من القبط فلا ننكره ، وإنما نرده إلى معرفتهم بسوء الحالة الدينية ، والى اضطهاد الرومان لهم ، يقول المؤرخ القبطي (يوحنا النخيوي) : إن المسيحيين الملكيين اسرعوا الى الدخول في الاسلام ، لأنهم كرهوا ان يدينوا في احكام ونظم زواجهم وطلاقهم للكنيسة التي تعاديهم ويعادونها .

ويشبه الطائفة الملكية اناس في حكمها كالطائفة النسطورية والآرية ومن يقول بالمشيئة الواحدة ولا يقول بالطبيعة الواحدة كما يقول القبط ، ولا بالطبيعتين على النحو الذي يدين به الملكيون . ـ ١ ـ فالذين اسلموا من قبط مصر بعد الفتح إنما اسلموا طوعا ، غير مكروهين على ترك مذهب او نحلة . وهم على رواية يوحنا النخيوي طائفة الملكيين الخلقيدونيين ومن يشابهها من الطوائف التي لاتقول بالطبيعة الواحدة ، ويضاف إليهم اناس من الذين فهموا من انتصار المسلمين على الفرس والروم انه آية إلهية ، وبرهان من السماء على صحة الدين الاسلامي وسلامة الدعوة ، ويضاف إليهم كثير ممن هان عليهم دينهم في محنة الشقاق ومحنة الاخلاق ، فلم يبالوا على اي دين أصبحوا بعد الشك والريبة ،

ـ ١ ـ والاصل في هذا ان السادة الحاكمين كانوا يقبلون الخلط بين الطبيعة الانسانية والطبيعة الالهية على صورة من الصور . والرعايا الساخطون على السيطرة الاجنبية كانوا ينفرون من قبول الخلط بين الطبيعة الانسانية والالهية ، ويرفضون جواز الصفة الآلهية على الآدميين . وكان القبط أشد الأمم إنكاراً للقول بالطبيعتين .

ثم فضلوا الدين الذي يعتنقه ولاة الأمر وحكام البلاد .

- ٢ -

ولقد أعفى الاسلام من الجزية غير القادرين على دفعها ، وهم طوائف عدة :

(١) المساكين والارقاء ، لأنهم لا يملكون شيئاً .

(٢) الشيوخ والنساء وذو العاهات كالمقعدين والعمي ، لانهم عاجزون عن العمل والاكتساب .

(٣) الصبيان والمجانين لانهم غير مكلفين .

(٤) الرهبان ، لأنهم منقطعون للعبادة . وإذاً فالذين يؤدون الجزية هم الرجال الأحرار العقلاء القادرون على العمل والكسب . وهؤلاء هم في الحقيقة القادرون على الحرب والجندية ، ولوانهم كانوا من المسلمين لوجب عليهم الجهاد ، دفاعاً عن العقيدة ، اوصيانة للارواح والاموال ، او حماية للدولة من العدوان .

- ٣ -

وليس أدل على عدالة الجزية من أنها في مقابل الزكاة المفروضة على المسلمين ، لأنها ركن من اركان الاسلام . فالمسلم يؤدي الزكاة عن نقوده بنسبة معينة ، وعن الغلات الاربعة بنسبة اخرى بينتها كتب القانون الاسلامي . أما الذمي فلا زكاة عليه في نقده ولا في ماشيته ولا في متاجره .

وكانت الحكومة تجبي الزكاة من المسلمين كما تجبي الحكومات الضرائب في هذه الايام ، فالتاريخ يحدثنا ان الرسول كان له عمال لجباية الزكاة ، وكان لخلفائه من بعده عمال .

وقد عثر على اوراق بردية بمصر تثبت ان ولاتها كانوا يجبون الزكاة

من المسلمين ، ويسلمون لهم صكوكاً تثبت انهم أدوا ماعليهم من زكاة ، وبعض هذه الصكوك يرجع الى سنة ١٤٨ هـ . وهذه الزكاة محدودة المصارف بنص القرآن الكريم « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل » وطبيعي أن تنفق الزكاة على المسلمين ، وعلى المنافع العامة كاعداد الجيش ، والانفاق على الغزاة والمحاربين الذين يدفعون عن الدولة مايدبر لها من كيد . وهذا معنى ان الزكاة التي تجبى من المسلمين وحدهم ، تنفق في بعض شؤون الدولة العامة نفعاً للمسلمين والذميين ، وتنفق على طوائف خاصة من المسلمين ومن الذميين . ومعناه ايضاً ان المسلمين ساهموا وحدهم بأموالهم فيما لم يقتصر نفعه عليهم . وليس هذا من العدل في شيء :

إنما العدل أن يساهم أهل الذمة – وهم أعضاء في الدولة – بشيء من مالهم إذ أنهم لايزكون عن ما شيتهم من إبل وبقر وغنم ، ولا عن نقودهم .

فكيف يساهمون ؟

يجب عليهم أن يقدموا من مالهم مقداراً معيناً لقاء مايقدم المسلمون .
ويجب عليهم ان يقدموا بعض مالهم لقاء اعفائهم من الجندية والدفاع عن الوطن .
ويجب عليهم ان يساهموا في نفقات الدولة نظير المنافع الكثيرة التي تكفلها لهم .

نعم لأن الدولة تحميهم وتصون أموالهم ، وتؤمنهم من الغزو في البلاد الاسلامية التي يقيمون فيها وهي ترعى مصالحهم العامة بعمالها وولاتها . وتعفيهم من الجندية والدفاع إذا نشبت الحرب . ثم هي تجمع الخراج فتنفق منه على المرافق العامة لتحصين الحدود وبناء القناطر وشق الترع ، وعلى مرتبات القضاء والعلماء والجنود والعمال ، فمن العدل ان يتحمل المسلمون والذميون هذه النفقات .

وبحسب المسلمين أنهم ينفردون بالزكاة ، وهي ليست ثابتة القدر كالجزية ، وإنما تقـــدر بحسب ماتؤدي عليه ، وتتزايد صعودا بحسب

المال ، وبحسبهم أنهم ينفردون ايضا بـــدفع الصدقة على وجه الندب والتطوع والثواب .

فمن العدل ان يتحمل الذميون نصيبهم في نفقات الدولة ، وهذا النصيب هو الجزية واذاً فالجزيةمن غير المسلم بمثابة الزكاة من المسلم ، ليستوي الفريقان في الواجبالعام تساويهما في الانتفاع بمرافق الدولة .

وليس ادل على ان الجزية في مقابل خدمات عامة كالدفاع عن الوطن وحماية الارواح والاموال ، من ان الذمي اذا اسلم سقطت عنه الجزية وكلف الخدمة العسكرية . لهذا اخذ ابو عبيدة بن الجراح الجزية من المدن التي فتحها بالشام ؛ فلما علم ان الروم تزحف لحربه رد الجزية الى اصحابها ، لأنه سيشغل بحرب الروم ولا يستطيع ان يكفل الحماية للمدن التي اخذ منها الجزية . (فتوح البلدان للبلاذري)

وكان عمله هذا مثار اعجاب السكان وتقديرهم لسماحته التي لم يروا من قبل مثلها ، فأعانوا المسلمين على الروم وآزروهم . وكذلك فعل خالد بن الوليد إذ عاهد (صلوبا بن نسطونا) وقومه على الجزية والمنعة ، فما دام يحميهم فله الجزية والا فلا . (الطبري) .

وجاء هذا المعنى نفسه في المعاهدة التي أبرمها خالد مع بعض المدن المجاورة للحيرة . وجاء في الشرط الذي اشترطه اهل الحيرة على المسلمين ، وهو ان يدفعوا الجزية ماحماهم المسلمون من بغي الفرس وغيرهم . (الطبري) .

وكذلك كان لأهل جرجان واذربيجان وبعض جهات من فارس أن يساعد المسلين في الحرب بـدلا من الجزية ، اما الذين لايشتركون في الحرب فعليهم الجزية .

ومن الأدلة على انها في مقابل الحماية والمنفعة ان قبيلة الجراجمة ـ وهي

مسيحية تقيم بجوار انطاكية ، سالمت المسلمين ، وتعهدت أن تعينهم في الحرب على أن تعفى من الجزية ؛ وتنال نصيبها من الغنائم . (فتوح البلدان للبلاذري)

وفي سنة ٢٢ ﻫ أبرم المسلون مثل هذا الحلف مع إحدى البلاد المقيمة على حدود فارس من الشمال : فأعفوها من الجزية على ان تقاتل معهم في مغازيهم . (الطبري)

- ٤ -

ومن مظاهر الرحمة والسماحة ان الاسلام اسقط الجزية عن الذمي إذا مات قبل ان يؤديها ، فلا تستوفى من تركته كما يستوفى الدين ، وأسقطها عنه اذا اسلم ، كذلك أسقط الاسلام الجزية عن الذمي اذا افتقر ، فقد مر عمر برجل يسأل في الطريق ، فقال له : ما الذي ألجأك الى هذا ؟ فقال : الجزية والسن والحاجة ، قال عمر : من اي قوم انت ؟ قال : من اليهود فأخذه عمر الى منزله وأعطاه واسقط عنه الجزية ، وكتب الى عامله : انظر هذا وضرباءه فليس من العدل إن نأكل شبيبته ، ثم نخذله عند الهرم .

- ٥ -

ولا يستطيع باحث ان ينكر سماحة المسلمين ورحمتهم في جمع الجزية ، فتاريخهم الصادق يشهد انهم كانوا يحسنون معاملة الدافعين ، وينظرونهم الى ميسرة ولا يرهقونهم .

روي عن رسول الله (ص) أنه قال : « من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه يوم القيامة » .

وكتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص يستعجله في ارسال الخراج ، ويلومه على التباطؤ في وقت يعلم فيه حاجة المسلمين بالحجاز الى الزاد والمال ، فرد عليه عمرو بأن اهل مصر استنظروه حتى تنضج غلاتهم ، ولو اعجلهم لاضطروا الى بيع مالا يستغنون عنه ، فقبل عمر هذا العذر وأقره . وقد جرى الخلفاء على ان لا يعذب احد من اهل الذمة في طلب الجزية ، ولا يقام في الشمس ، ولا يؤذى

في بدنه بشيء ، بل يرفق له ويحبس حتى يؤدي ما عليه . وقد استعمل امير المؤمنين علي (ع) رجلا من ثقيف على بزرج سابور (بينها وبين بغداد عشرة فراسخ) فقال له : لا تضربن سوطا في جباية درهم ، ولا تبيعن لهم رزقاً ولا كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعتملون عليها ، ولا تقيمن رجلا قائما في طلب درهم قال الثقفي . يا أمير المؤمنين ، إذاً أرجع اليك كما ذهبت من عندك . قال الامام علي (ع) : وان رجعت كما ذهبت ، ويحك إنا امرنا ان نأخذ منهم العفو (يعني الفضل) .

شهود عدل :

لم يبق شك في أن الاسلام عامل اهل الذمة بالحسنى ، وأظلهم بسماحته ورحمته بعد ان أحرقتهم مظالم الامم السابقة .

وإنا لنجد اقراراً بهذا من الغربيين المنصفين ، وهم في اقرارهم بفضل الاسلام ورحمته لم يتأثروا بعاطفة ، او يجاروا هوى .

١ ـ قال العلامة مونتسكيو في كتابه (اصول الشرائع) :

ان الجزية التي فرضها الاسلام كانت من اسباب سهولة الفتح ، لأن الشعوب التي كانت تخضع لسلسلة لا تنتهي من المغارم التي فرضها جشع الأباطرة ، آثرت ان ترضى بأداء جزية خفيفة يمكن تسديدها بسهولة وتسلمها بسهولة ، ووجدت نفسها سعيدة بأن تدين لأمة متبربرة ـ يقصد المسلمين ـ تعاملها على هذه الصورة ، خيراً لها من أن تدين لحكومة فاسدة مستبدة ، لا يشعر الناس في حكمها إلا بويلات من العبودية

٢ ـ قال الكونت هنري دي كاستري .

لقد كان استبداد الرومان من اسباب انتشار الاسلام ، وخضوع الناس لسلطانه في آسيا وافريقية ، لان الحكم كان قد انحدر الى العسف والجور ، فلما جاء الاسلام ترامى الناس اليه ، هربا من الضرائب الفادحة واغتصاب الاموال . (الاسلام خواطر وسوانح) .

لقد تم الفراغ - والحمد لله وله المنة - من تأليف هذا الكتاب وتبييضه في

السنة السادسة والثمانين بعد الثلثمائة والالف هجريـة في

النجف الاشرف بلد علي عليه السلام ومهجر العلم

على يد مؤلفه الراجي عفو ربه

حسن السيد علي القبانچي

النجفي

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع

حق الجليس

حق الجار

الصفحة	الموضوع

حق الصاحب

حق الشريك

الصفحة	الموضوع

مع المال

الصفحة	الموضوع
=	مدح المال .
٢٥٨	ذم المال .
٢٦٠	الجمع بين المدح والذم .
٢٦١	علة هرب الأنبياء والأولياء من المال .
=	وجهة أهل البيت (عليهم السلام) نحو المال .
٢٦٢	ماخلف عثمان يوم قتله من المال .
=	ما كان عند طلحة من المال .
=	عبد الرحمن ابن عوف والمال .
=	زيد بن ثابت والمال .
=	أمير المؤمنين علي عليه السلام والمال .
=	نظرة أهل البيت الى المال .
٢٦٣	محاربة الاسلام للفقر .
٢٦٤	الأحاديث الموضوعة في مدح الفقر .
٢٦٥	أهل البيت (عليهم السلام) وحنوهم على الفقراء .

مع الغريم

٢٦٩	من الصعب على بعض النفوس اكتساب الفضائل .
٢٧٠	دعوة الاسلام الى التعاون والتنافس على المعروف وقضاء حوائج الناس
٢٧٢	دعوة الاسلام الى القرض وماورد في ذلك من الآثار .
٢٧٣	منافع القرض ، ومضار الربا .
٢٧٤	ماورد من الآيات في مدح القرض والدعوة اليه .

من المستشير

الصفحة	الموضوع
٣٩٥	رجل مع بعض الملوك في النصيحة
٣٩٦	ابن الاهتم وهشام بن عبد الملك في النصيحة
٣٩٨	معاتبة من لم يقبل النصيحة
٣٩٩	قيام رجال محنكين في النصيحة
٤٠٤	ضياع النصح لمن لايقبله
٤٠٥	معاتبة من يستنصح الناس ويستغش الناصح
=	وصف غاش في نصحه

من الناصح

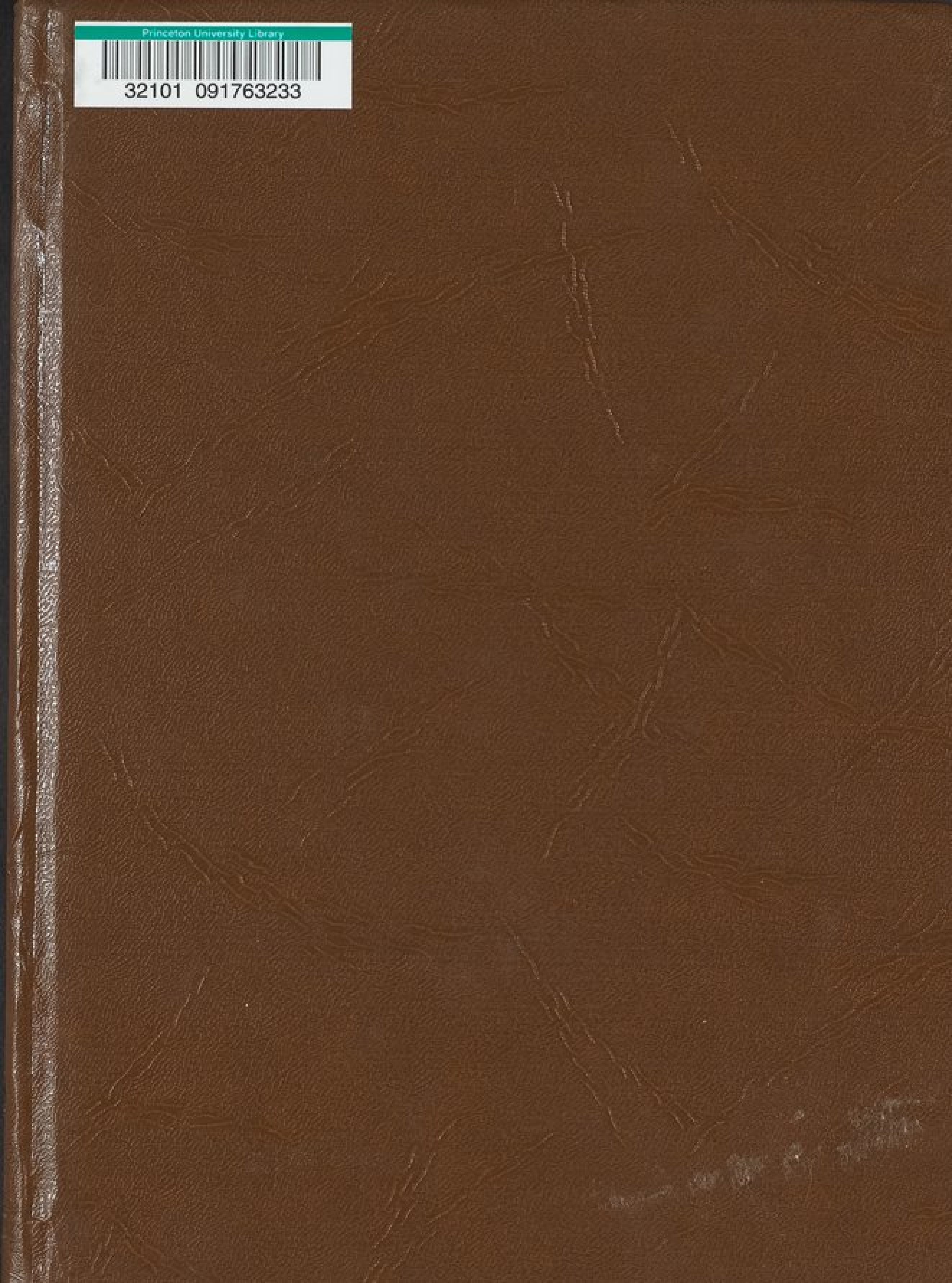
الصفحة	الموضوع
٤٠٩	الجولة الثانية في ساحة النصح
٤١٠	من البداهة كلما انتشرت الامراض اشتدت الحاجة الى علم الطب
٤١١	يشترط في الناصح امور
٣١٢	رد النصيحة مقرون بالنكبة والحسرة
٤١٤	من ترك النصيحة وأصيب بالعطب
=	يزيد بن المهلب الازدي
=	عبد الله بن الصمة (فارس هوازن)
٤١٦	من نصح لله ولرسوله
=	سعد بن الربيع
٤١٧	عبد الله بن كعب
=	مسلم بن عوسجة
=	العباس بن علي (ع)

الصفحة | الموضوع

ص الكبير

الصفحة	الموضوع




Princeton University Library
32101 091763233